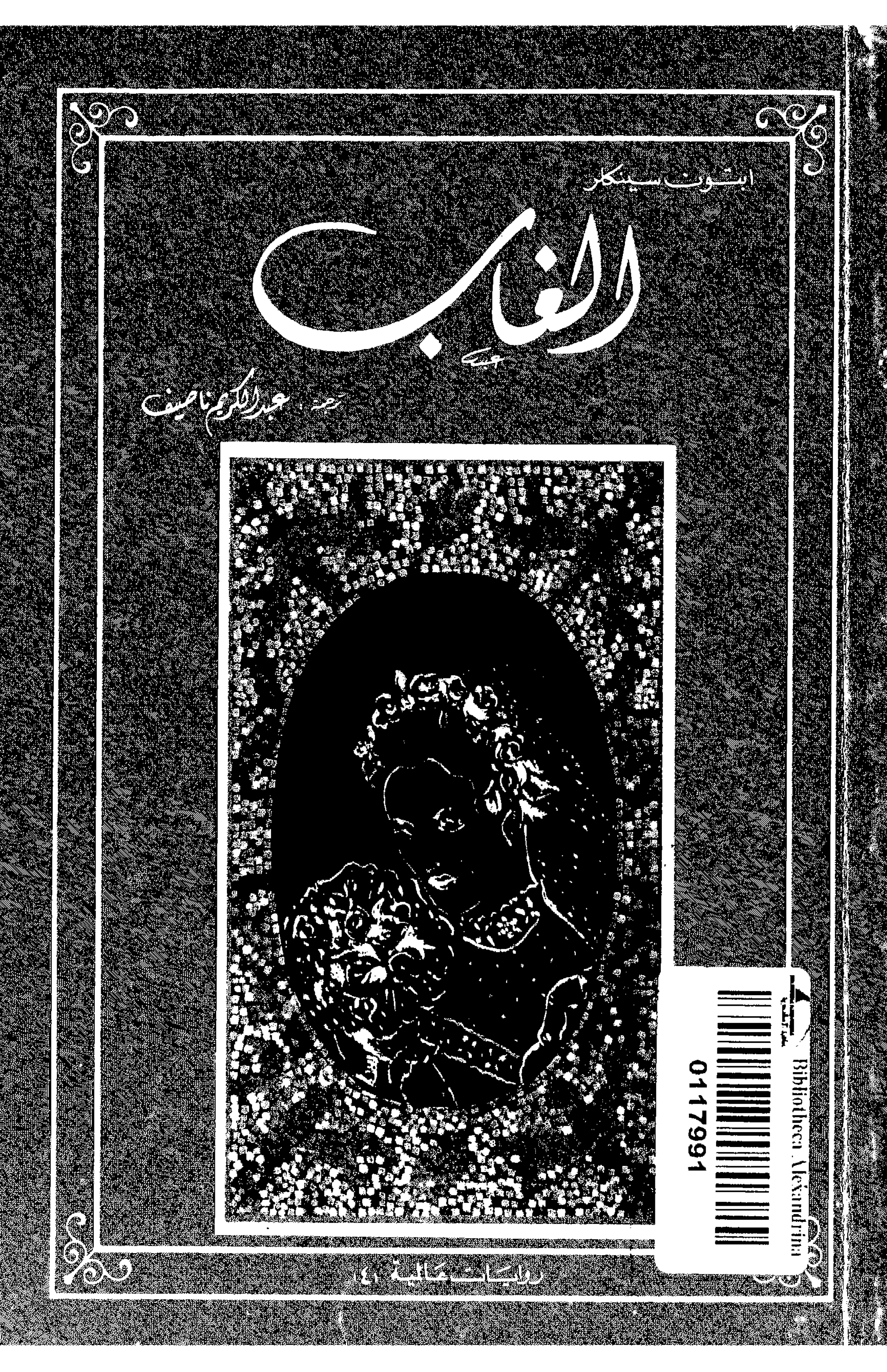

ابتون سينكلر
الغاب
ترجمة : عبد الكريم ناصيف
روايات عالمية (٤)
Bibliotheca Alexandrina
0117991







ابتون سينكلير

روايات عالمية «٤٠»



ترجمة : عبد الكريم ناصيف

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق ــ ١٩٨٣

العنوان الاصلي للكتاب :

UPTON SINCLAIR

THE JUNGLE

WITH AN AFTERWORD BY

ROBERT B . DOWNS

- ١ -

كانت الساعة الرابعة حين انتهت المراسم وبدأت العربات بالتوافد .
وكان ثمة حشد يزحم بعضه بعضاً في طريقه نحو الخارج بسبب حماسة ماريا بيرجينسكاس المفرطة . فأعباء المناسبة تقع على كاهلها وواجبها التأكد من أن الأمور تسير على النحو المطلوب ووفق أفضل تقاليد الوطن ، لذا ظلت طوال النهار تنتقل هنا وهناك مبعدة كل من تجده في طريقها ، معنفة محرضة ، فقد كانت ماريا تتوق كل التوق لأن ترى الآخرين يراعون الآداب العامة التي تراعيها هي نفسها .
كانت ماريا آخر من غادر الكنيسة ، ولرغبتها في أن تكون أول من يصل إلى قاعـــة الحفل فقد اصدرت أوامرها إلى الحوذي بأن يسوق بأسرع مايستطيع . وحين أبدى ذلك الحوذي رغبة مغايرة في المسألة ، طوحت بالنافذة على عجل ، مخرجة رأسها منها ثم شرعت تخبره رأيها به ، أولاً باللغة الليتوانية التي لم يكن يفهمها مطلقاً ثم بالبولونية التي كان يفهمها تماماً . لكن الحوذي ، مستفيداً من مكانه المرتفع ، أصر على رأيه ، بل لقد غامر وحاول التكلم فكانت النتيجة مشادة حامية الوطيس استمرت طوال الطريق نزولاً إلى شارع آشلاند ، مما اضاف حشداً جديداً من الأولاد البائسين إلى الموكب على كلا جانبي الشارع وبطول نصف ميل .

وكان هذا من سوء الحظ ، اذ كان حشد آخر قد تجمع أمام الباب من قبل . كانت الموسيقى قد بدأت ، وكان بامكانك أن تسمع عن بعد عشرات الامتار صوت الكمان الكبير « بروم . . . بروم . . » يرافقه صرير كمنجتين تنافس واحدتهما الاخرى في مباراة معقدة عالية الأصوات . حين رأت ماريا الحشد ، أنهت بصورة عاجلة المناقشة التي كانت تدور حول اجداد الحوذي ثم وثبت من العربة المتحركة ومضت شاقة طريقها إلى القاعة وما ان غدت داخلها حتى انعطفت وبدأت تشق طريقها في الاتجاه الآخر صارخة في غضون ذلك « آيلك ! ! اوزرايلك دوريس (١) ! » بصوت جعل موسيقى الجوقة الهادرة تبدو أشبه بموسيقى بالغة الرقة .

« غرانجونوس باسيلينكسمينيمامس دارزاس (٢) . خمور ومشروبات » — هكذا كانت تقول اللوحة . والقارىء الذي لايلم بلغة ليتوانيا النائية تلك ، سيسره أن يجد التفسير وهو أن المكان غرفة خلفية من صالون في ذلك القسم من شيكاغو المعروف باسم « ماخلف الزرائب » وهي معلومات محددة وتتناسب مع واقع الأمر ، لكن كم تراها بدت غير ملائمة لمن كان يعلم ان تلك الساعة هي ساعة النشوة المثلى في حياة واحدة من أنبل مخلوقات الله ، وان ذلك المشهد هو مأدبة عرس أونالوكوتزايت الصغيرة ولحظة تجلي فرحها .

---

(١) باللغة الليتوانية الأصلية أي : « افسحوا الطريق » .

(٢) اسم الصالون .

كانت أونا ، تحرسها ابنة العم ماريا ، تقف في المدخل وقد انقطعت أنفاسها من الاندفاع عبر الحشد ، يؤلمها لفرط سعادتها أن ترفع ناظريها . كان في عينيها بريق تعجب واندهاش وكانت أجفانها ترتعش ووجهها الصغير الشاحب في الاوقات الأخرى تصبغه حمرة الخجل الآن . كانت اونا ترتدي فستاناً من الموسلين أبيض ناصعاً وكان قناع صغير متصلب ينحدر حتى كتفيها ، وقد غرست فيه خمس وردات اصطناعية بلون الزهر واحدى عشرة من اوراق الورد ذات اللون الأخضر الزاهي . وكان يستر يديها زوج جديد أبيض من القفازات القطنية راحت وهي تحدق فيما حولها تفتلهما وتدعكهما بشكل محموم . كان الأمر كله أكثر مما تستطيع تحمله — وكان بوسعك ان ترى آثار العناء التي تركها الانفعال الشديد على وجهها ، والارتعاش الكامل الذي انتاب جسمها . فهي فتاة صغيرة السن — لم تكمل السادسة عشرة بعد —صغيرة الجسم بالنسبة لسنها ، مجرد طفلة ، ومع ذلك فقد زوجوها ، ومن بين كل الرجال ، لجرجس ، جرجس رودكوس ، ذي الزهرة البيضاء في عروة بذلته السوداء الجديدة ، والكتفين المتينتين واليدين الضخمتين .

كانت أونا شقراء زرقاء العينين بينما كان لجرجس عينان سوداوان كبيرتان وحاجبان كثان وشعر أسود كثيف ينحدر أجعد متموجاً حول اذنيه — اي باختصار كان جرجس وأونا زوجين من اولئك الازواج المتناقضين متعذري الوجود والذين غالبا ماترغب الأم الطبيعة

بأن تفند بهم كل نبوءات المتنبئين من قبل ومن بعد . كان بامكان جرجس أن يرفع بين يديه قطعة من عجل مذبوح لايقل وزنها عن مائتين وخمسين رطلاً انكليزياً ثم يحملها إلى العربة من غير تردد او تفكير حتى . والآن هاهو ذا يقف في زاوية بعيدة ، مذعوراً كحيوان حبيس ، مضطراً لأن يبلل شفتيه بلسانه كلما اراد الرد على تهاني اصدقائه .

شيئاً فشيئاً تم الفصل بين المتفرجين والضيوف — فصل كاف على الأقل لأغراض العمل . فخلال الاحتفالات التي تجري ، يتعذر الا تتواجد جماعات من المتفرجين يتجمعون هنا وهناك في المداخل والزوايا ، واذا ماحدث واقترب اي منهم إلى حد كاف ، أو بدا جائعاً تماماً فغالباً مايقدم له كرسي ويدعى للمأدبة . ان احد قوانين الفيزيليجا Vesilija (١) هو ألا يخرج احد من المأدبة جائعاً ورغم انه من الصعب على قانون وضع في غابات ليتوانيا ان يطبق في منطقة المسلخ في شيكاغو التي يبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة ، فقد ظل القوم يعملون مافي وسعهم لتطبيقه . لذا كان الأطفال الذين يؤمون المأدبة من الشارع يخرجون راضين ، بل حتى الكلاب لم تكن تخرج الا وهي أكثر سعادة . فاحدى خصائص هذا الاحتفال هي رفع الكلفة والبساطة الساحرة . كان الرجال يرتدون قبعاتهم او يخلعونها حسبما

(١) من العادات الليتوانية المتبعة في الأعراس وسنرى تفسيرها فيما بعد .

يشتهون وكانوا يأكلون حينما وحيثما يشاؤون كما كانوا يتنقلون بالطريقة التي يشاؤون.وكان من المفروض ان تلقى كلمات او تردد اغان ، لكن مامن أحد كان مضطراً للاصغاء لمن لايهتم بالاصغاء له ، بل لورغب خلال ذلك أن يتكلم او يغني هو نفسه ، لكان له ملء الحرية في ان يفعل ذلك . وكانت النتيجة خليط اصوات هائلاً لم يكن ليزعج احداً ربما باستثناء الأطفال الرضع الذين كان يوجد منهم مايوازي مجمل الاطفال الرضع لدى المدعوين . اذ لم يكن ثمة مكان آخر يوضع فيه هؤلاء لذا كان الجزء الأهم من ترتيبات الحفل انما هو اعداد مجموعة من اسرة الأطفال وعرباتهم ووضعها في احدى الزوايا . في هذه الأسرة والعربات كان الرضع ينامون معاً ثلاثاً ورباعاً ، او يستيقظون معاً وذلك حسب مقتضى الحال أما الأطفال الأكبر سناً والذين كان بمستطاعهم بلوغ الطاولات ، فقد كانوا يتجولون وهم يمضغون ، بأصوات طحن عالية ورضى كامل ، عظام اللحم والسجق البولوني .

تبلغ مساحة الغرفة حوالي ثلاثين متراً مربعاً وهي ذات جدران مطلية بالكلس الأبيض عارية الا من تقويم سنوي ولوحة لسباق خيول وشجرة عائلة مؤطرة باطار ذهبي . وإلى اليمين باب يؤدي إلى الصالون ، عند مدخله يقف بضعة متسكعين وفي الزاوية الخلفية مشرب يشرف عليه شخص يرتدي ثوباً أبيض متسخاً وله شاربان اسودان ناميان وخصلة شعر مسرحة بعناية ومثبتة على طرف جبينه . في الزاوية المقابلة طاولتان

تشغلان ثلث الغرفة ، محملتان بالطباق واللحوم الباردة التي كان بعض الضيوف الأشد جوعاً قد بدؤوا بالتهامها فعلاً . وفي الصدر ، حيث تجلس العروس ، كعكة (كاتو) بيضاء كالثلج زخرفت على غرار برج ايفل وزينت بورود من السكاكر وفي اعلاها تمثالا ملاكين وحلويات صفراء وخضراء وزهرية رشت عليها رشاً سخياً . وفي الخلف باب يؤدي إلى المطبخ حيث يمكن للمرء ان يلمح صفاً من الأواني يتصاعد منه البخار ونساء كثيرات ، صبايا وعجائز ، يندفعن هنا وهناك . اما في الزاوية اليسرى فهناك الموسيقيون الثلاثة الذين يقفون على منصة صغيرة وهم يجهدون انفسهم ايما اجهاد كي يتركوا بعض التأثير على الحشد المختلط ، كما يوجد الرضع المشغولون بالأمر ذاته ونافذة مفتوحة يتلقى المارة منها المشاهد والأصوات والعطور .

فجأة يبدأ بعض البخار بالاندفاع ، لترى من خلاله الخالة اليزابيث ، امرأة أبي أونا — تيتا إليزبيتا كما يسمونها — حاملة عالياً طبقاً كبيراً عليه بطة مطهوة على نار هادئة . وخلفها كوترينا تشق طريقها بحذر وهي تترنح تحت حمل مماثل وبعد نصف دقيقة تظهر ايضاً الجدة العجوز ماجوزكيين بزبدية صفراء من البطاطا المدخنة تكاد توازيها حجماً . وهكذا تأخذ المأدبة شكلها شيئاً فشيئاً — فهناك لحم خنزير ، كراوت(١)، ارز مسلوق ، معكرونة ، سجق بولوني ، أكوام كبيرة من الكعك

(١) طعام معد من كرنب مخمر .

الرخيص ، زبديات من اللبن وأباريق من البيرة كثيرة الرغوة . كذلك هناك المشرب إلى الوراء وعلى بعد لايزيد عن ستة اقدام حيث يمكنك ان تطلب ماتشتهي نفسك دون أن تضطر لدفع أي مقابل . « آيكسز ! غرايجياو ! ! »(١) تصرخ ماريا بير جينسكاس وتنهمك هي نفسها في العمل — اذ يوجد داخل الفرن أكثر مما في خارجه مما سيتلف ان لم يؤكل .

وهكذا يأخذ الضيوف اماكنهم مع الضحك والهتاف واللهو والصخب الذي لانهاية له . الشباب منهم ، اولئك الذين تجمع معظمهم قرب الباب ، يحزمون امرهم ويتقدمون . أماجرجس المنكمش على نفسه فيدفعه كبار السن ويعنفونه إلى أن يرضى باتخاذ مقعد إلى يمين عروسه . ثم تجلس الوصيفتان وعليهما شارة مهمتهما وهي اكليلان ورقيان ، ثم بقية الضيوف ، شيباً وشباناً ، فتياناً وفتيات . وتطغى روح المناسبة على رجل المشرب الجليل الذي يتنازل فيمد يده إلى طبق البطة ، بل حتى الشرطي السمين — الذي سيكون واجبه فيما بعد أن يفض النزاعات — يسحب كرسياً ويجلس إلى طرف الطاولة .. ومع صراخ الاطفال وزعيق الرضع وضحك الجميع وغنائهم وهذرهم يلعلع صوت ابنة العم ماريا الذي يصم الآذان موجهة اوامرها إلى الموسيقيين .

---

(١) بالليتوانية اصلا وتعني : هلموا ، تفضلوا .

وهؤلاء — كيف يبدأ المرء بوصفهم ياترى ؟ —فطوال هذا الوقت كانوا هناك يعزفون بحمية مسعورة — وكل مافي هذا المشهد يجب أن يقرأ أو يقال أو يغنى مع الموسيقى . فالموسيقى هي التي تجعله على ماهو عليه ، وهي التي تحول المكان من غرفة خلفية لصالون يقع في مؤخرة الزرائب إلى مكان مسحور ، عالم عجائب ، ركن صغير من اركان القصور العالية في السماء .

الشخص الضئيل الذي يقود هذا الثلاثي الموسيقي هو رجل ملهم . كمنجته ذات لحن نشاز وليس هناك قلفونة لقوسه ، لكنه رغم ذلك رجل ملهم — إلهة الموسيقى ذاتها باركته بيديها . انه يعزف كمن اصابه مس من شيطان أو مس من قطيع شياطين كامل ، يمكنك أن تتحسس وجودها في الهواء المحيط به ، وهي تنط وتتواثب على نحو محموم . أقدامها غير المرئية توقع الايقاع ، وشعر قائد الجوقة منتصب مزبئر ومقلتاه جاحظتان من محجريهما وهو يجهد نفسه كي يحافظ على الايقاع الذي توقعه اقدامها .

اسمه تاموزيوس كوتزلايكا ، وقد درب نفسه على الكمان بممارسة العزف طوال الليل ، بعد أن يشتغل النهار بطوله في « احواض الذبح » . انه ، باكمام قميصه وصدرته المزينة بحدوات الفرس المذهبة الباهتة وقميصه المخطط باللون الزهري ، يوحي لك بحلوى منكهة بالنعنع . كما ان بنطاله العسكري ، بلونه الازرق الباهت والمخطط بالاصفر ، يفيد

في اعطاء ذلك الايحاء هيبة قائد عصابة . طوله حوالي خمسة اقدام لاغير ، لكن حتى بنطاله يرتفع عن الأرض حوالي ثماني بوصات . وانك لتتساءل من أين تراه حصل عليه ، أو بالأحرى تتساءل ، اذا اتاح لك وجودك في حضرته وما تشعر به من اثارة وقتاً للتساؤل أو التفكير بأمور كهذه .

ذلك لأنه رجل ملهم . كل بوصة منه ملهمة — بل لتكاد تقول أنها ملهمة بذاتها . فهو يدق الارض بقدميه ، يطوح برأسه ، يتمايل ويتذبذب إلى الامام والوراء . انه بوجهه الصغير الذابل يثير السخرية بصورة لاتقاوم ، وعندما يقوم باداء دور موسيقي أو مقطع منمق يعقد حاجبيه ويشغل شفتيه ويطرف باجفانه — بل حتى طرف ربطة عنقه ينتصب . وبين الحين والحين تراه يلتفت إلى صاحبيه ، هازاً برأسه ، مشيراً بيديه ، مومئاً بشكل جنوني — وكل بوصة فيه تصرخ بالنداء ، بالتوسل لآلهة الموسيقى واجتذابها .

العضوان الآخران في الجوقة قلما يستحقان صحبة تاموزيوس . فعازف الكمنجة الثاني رجل سلوفاكي ، طويل نحيل ذو نظارتين مؤطرتين باطار أسود ونظرة خاوية صبور أشبه بنظرة بغل مجهد ، انه يتجاوب مع السوط انما تجاوباً ضعيفاً وسرعان مايعاود سيرته الاولى . اما الموسيقي الثالث فهو سمين للغاية ذو انف دائروي احمر بالغ الحساسية يعزف وعيناه منقلبتان إلى السماء تملؤهما نظرة حنين ابدي . انه يعزف الجانب الجهير من الأصوات على كمانه الكبير ، وهكذا فلا شأن

للاثارة به ، وبغض النظر عما يحدث للثلاثي فان واجبه هو أن يحرك قوسه ذهاباً واياباً عازفاً لحناً كئيباً متطاولاً تلو لحن آخر ، بدءاً من الرابعة بعد الظهر وحتى الساعة ذاتها تقريباً من صباح اليوم التالي ، مقابل الثلث الذي ينوبه من اجمالي الدخل وهو دولار واحد لكل ســـاعة .

لم تمض خمس دقائق على ابتداء المأدبة حتى كان تاموزيوس قد بلغ الذروة في هياجه ، ولن تمضي دقيقة او دقيقتان حتى تراه يبدأ التقدم شيئاً فشيئاً باتجاه الطاولات وقد تمدد منخراه وتسارعت انفاسه — فشياطينه هي التي تدفعه: انه يحرك رأسه ويهزه لصاحبيه ، مشيراً اليهما بكمنجته إلى أن ينهض اخيراً عازف الكمان الثاني بهيئته الطويلة وقد اثير هو الآخر . وفي النهاية يبدأ الثلاثة بالتقدم ، خطوة خطوة بين المحتفين بينما يدقدق عازف الكمان الكبير ، فالنتينيا فجيا ، على كمانه بين النغمات . اخيراً يتجمع الثلاثة عند نهاية الطاولات وهناك يصعد تاموزيوس أحد الكراسي .

انه الآن في ذروة مجده ، سيد المشهد بلا منازع . بعض الناس يأكلون ، والبعض يضحكون ويثرثرون — لكنك ستخطىء خطأ كبيراً ان تظن أن هناك واحداً منهم لايسمعه . فألحانه ليست صحيحة ابداً وكمنجته تصدر طنيناً في الانغام الواطئة وصريراً وصريفاً في الانغام العالية ، بيد أن هذا كله ليس بذي اهمية إلا بقدر اهمية الوسخ والضجيج والقذارة المحيطة بهم — فمن هذه المواد بالذات عليهم ان

يبنوا حياتهم لبنة لبنة وبواسطتها عليهم أن يعبروا عن انفسهم ، وهذا هو تعبيرهم ، فهذه الموسيقى ، سواء كانت مرحة وعنيفة ، أو حزينة ومعولة ، أو هائجة وصاخبة ، هي موسيقاهم ، موسيقى الوطن . انها تمد اذرعتها اليهم ، وليس عليهم الا أن يلقوا بأنفسهم في أحضانها — فشيكاغو بصالوناتها واحيائها الفقيرة البائسة تتلاشى وتزول — لتظهر بدلاً منها المروج الخضر والأنهار المشبعة بأشعة الشمس والغابات الهائلة والتلال المكسوة بالثلوج . انهم ، بها ، يستعيدون مناظر الوطن الطبيعية ومرابع الطفولة ، كما تبدأ ذكريات الحب القديمة والصداقات بالتنبه من غفلتها ، الأفراح القديمة والأتراح بكل مافيها من ضحك ونحيب . فيلقي البعض بأنفسهم إلى الوراء وقد اغلقوا عيونهم ، بينما يدق البعض الآخر بقبضات ايديهم على الطاولات . وبين الحين والحين يقفز احدهم مطالباً بهذه الاغنية أو تلك ، لتشب النار اعلى واعلى في عيني تاموزيوس وليقذف بكمانه اعلى واعلى صارخاً بصاحبيه ، حاثاً اياهما على المضي قدماً في الطريق المسعور . وتقوم الجماعة كلها مقام جوقة الغناء ، لتصرخ برجالها ونسائها وكأنما اصابها مس من جنون ، فيقفز بعضهم ويثب داقين بأقدامهم الأرض رافعين كؤوسهم شاربين الانخاب . ولايمضي زمن طويل قبل أن يحدث ويطلب احدهم اغنية من اغاني الأعراس القديمة التي تمجد العروس ومتع الحب . وفي خضم الهياج الذي تحدثه مثل هذه الرائعة يبدأ تاموزيوس كوتز لايكا بالتقدم شيئاً فشيئاً بين الطاولات شاقاً طريقه باتجاه صدر القاعة حيث

تجلس العروس . ورغم انه قد لايكون هناك اي فراغ بين كراسي الضيوف ورغم أن تاموزيوس قصير القامة إلى درجة تجعله يدفعهم بقوس كمانه ، حيثما يصل ، كي يتمكن من عزف ألحانه الواطئة إلا أنه يستمر في الزحف ويصر اصراراً لاهوادة فيه على أن يتبعه صاحباه . وغني عن القول أن اصوات الكمان الكبير تخمد تماماً خلال تقدمهم هذا ، لكنهم يصلون أخيراً إلى الصدر ليحتل تاموزيوس موقعه إلى يمين العروس ويبدأ بسكب روحه على شكل انغام ذوابة .

اونا الصغيرة اكثر انفعالاً من أن تستطيع تناول شيء . انها من حين إلى حين تمد يدها لتضع شيئاً صغيراً في فمها وذلك حين تقرصها ابنة العم ماريا من مرفقها كي تذكرها بذلك ، لكن فيما عدا ذلك تراها جالسة وهي تطيل التحديق بعينيها ذاتهما وقد ملأتهما الدهشة والخوف . أما تيتا الزبيبتا فانها ترفرف في كل مكان ، مثل طير طنان ، وأخواتها ، أيضاً ، يندفعن خلفها هامسات مقطوعات الانفاس . لكن اونا نادراً ماتصغي اليهن على مايبدو — فالموسيقى ماتزال تناديها ، والنظرة النائية البعيدة تعود ، فتجلس ويداها منضغطتان معاً على صدرها . بعدئذ تغرورق عيناها بالدموع وبما أنها تخجل ان تمسح دموعها ، فانها تلتفت جانباً وتهز رأسها قليلاً ، ثم تصبغ الحمرة وجنتيها عندما تكتشف أن جرجس يراقبها . واخيراً حين يصل تاموزيوس إلى جانبها ويلوح بعصاه السحرية فوق رأسها تغدو وجنتا اونا قرمزيتين تماماً وتبدو وكأنها تهم بالنهوض من مكانها كي تفر بعيداً .

لكن ، في هذه الشدة لاينقذها الا ماريا بيرجنسكاس التي تحط عليها فجأة إلهة الموسيقى . فماريا مولعة باغنية ، اغنية فراق الاحباء ، وهي تود أن تسمعها. وبما أن الموسيقيين يجهلونها فانها تنهض ثم تمضي كي تعلمهم اياها . ماريا قصيرة لكنها قوية البنية . وهي تعمل في معمل للتعليب ، حيث تمضي سحابة نهارها وهي تنقل علب لحم البقر التي تزن واحدتها اربعة عشر رطلاً انكليزياً . وجهها سلافي عريض ذو وجنتين حمراوين بارزتين ، وحين تفتح فمها يغدو شكلها مأساوياً ، لكنك لاتستطيع الامتناع عن التفكير بالحصان . انها ترتدي بلوزة من الفانيلا الزرقاء ، درجت كميها نحو الاعلى لتكشف عن ساعديها المفتولين ، وفي يدها شوكة كبيرة تدق بها على الطاولة كي تحفظ الايقاع . ثم تهدر بأغنيتها ، بصوت يكفي للقول أنه يملأ أرجاء المكان بينما يتبعها الموسيقيون الثلاثة ، بدقة تامة ونغمة بعد نغمة وبذلك يمضون على مهل من مقطع إلى مقطع مرددين اغنية تحكي تفجع عاشق تيمه الحب .

حين تنتهي الأغنية يأتي دور الكلمات ، فيهب ديد انتاناس العجوز على قدميه . والجد انطوني ، أي والد جرجس ، رجل لايتجاوز الستين لكن يخيل اليك انه في الثمانين . ورغم انه لم يمض أكثر من ستة اشهر في امريكا ، الا ان التغيير لم يعد عليه بأي نفع .ففي شبابه كان يعمل في معمل قطن الا أن السعال ألم به إلى ان اضطره لترك العمل . في الريف زال كل أثر للمشكلة لكنه بعد مجيئه إلى أمريكا راح يعمل

في غرف التخليل في منشأة دور هام ، فأعاد له المرض مرة ثانية استنشاقه للهواء الرطب البارد طيلة النهار . والآن وهو ينهض ، أمسكت بخناقه نوبة سعال شديدة جعلته يتمسك بكرسيه ويدير جانباً وجهه الشاحب الذي أبلاه الزمن إلى أن مضت النوبة .

درجت العادة عموماً على أن تؤخذ الكلمة التي تلقى في حفلة العرس من أحد الكتب وتحفظ عن ظهر قلب ، لكن ديد انتاناس كان يهتم بنفسه في أيام شبابه،يتعلم ويبحث عن المعرفة ، وكان بالحقيقة يكتب كل رسائل أصدقائه الغرامية ، والآن يدرك الجميع أنه كتب كلمة من بنات أفكاره يبارك فيها ويهنىء ، وإلقاء الكلمة حدث من أهم أحداث المناسبة . فحتى الغلمان الذين يقصفون ويمرحون في الغرفة ، يقتربون ويصغون ، بل إن بعض النساء ينشجن بالبكاء ويمسحن أعينهن بمراويلهن . انها كلمة بالغة الرصانة ، لأن انتاناس رودكوس تملكته فكرة معينة وهي أنه لم يبق من عمره ما يتيح له العيش مع أولاده . لذا تتركهم كلمته وقد ملأت أعينهم الدموع حتى أن أحد الضيوف ، وهو يعقوب تزيد فيلاس الذي يدير مخزن معلبات في شارع هالستيد وصاحب الجسم البدين والقوي ، يثار إلى درجة ينهض بها ويقول أن من المستحيل أن تكون الأمور بمثل هذا السوء ثم يتابع كلامه فيلقي خطبة صغيرة يصب فيها وابلا من التهاني والتمنيات بالسعادة على رأس العروسين ، ثم يمضي إلى الخصوصيات الصغيرة التي تبث البهجة في قلوب الشبان ، انما تجعل أونا تحمر خجلاً أكثر بكثير من ذي قبل .

فيعقوب هذا يمتلك ما تصفه زوجته ، وهي راضية كل الرضى ، بأنه « بويتز كافايد نتوف » أي الخيال الشعري .

في تلك اللحظة ، كان قسم كبير من الضيوف قد انتهوا من الطعام ، ونظراً لانتهاء كل المراسم ، بدأ عقد المأدبة ينفرط . وهكذا راح بعض الرجال يتجمعون حول المشرب والبعض الآخر يتجولون وهم يضحكون ويغنون ، جماعة صغيرة هنا وجماعة صغيرة هناك والكل يغني بمرح وعدم مبالاة بالآخرين وبالجوقة الموسيقية أيضاً . الجميع قلقون تقريباً — وبامكان المرء التخمين أن في أذهانهم شيئاً ، الأمر الذي يثبته الواقع فعلاً . إذ ما إن يفرغ آخر الضيوف الذين تباطؤوا في تناول عشائهم حتى تزاح كافة الطاولات والكراسي إلى الزاوية وكذلك ركام الطعام والأطفال الرضع ، كي يبدأ حفل العرس الحقيقي . عندئذ يعود تاموزيوس كوتزلايكا ، بعد أن أنعش نفسه بجرع ابريق من البيرة ، إلى منصته ثم يعيد المشهد ، منتصب القامة . في البداية يدق بهيئة سلطوية آمرة على جانب كمانه بعدئذ يثبته بعناية تحت ذقنه ويحرك قوسه كي يعزف مقطعاً ممتعاً محكماً وأخيراً يضرب الأوتار الرنانة ويطبق عينيه سابحاً بروحه بعيداً على أجنحة « فالس » حالمة . فيحذو رفيقه حذوه ، انما مفتوح العينين مراقباً الموضع الذي يطؤه ، وأخيراً يتبعهما فالينتينا فيجيا بعد قليل من الانتظار داقاً الأرض بقدمه كي يحتفظ بالايقاع ، ومن ثم يلقي بعينيه إلى السقف ويبدأ الحز على الكمان « بروم ! بروم ! ».

وسرعان ما تتشكل الجماعة أزواجاً من الراقصين ، وتغدو الغرفة

كلها في حالة تامة من الحركة . من الواضح أنه ما من أحد يعرف الفالس ، لكن ليس لهذا أية أهمية — فهناك موسيقى وهم يرقصون ، كل على هواه ، تماماً مثلما كانوا يغنون من قبل . معظمهم يفضل رقصة « الخطوتين » ولاسيما الشبان ، فهذا هو الدارج بينهم أما الأكبر سناً فان لهم رقصاتهم التي جاؤوا بها من الوطن ، خطوات غريبة ومعقدة يؤدونها برزانة وجد . البعض لايرقصون أي نوع من الرقص بل يمسكون بكل بساطة ، بعضهم بأيدي البعض الآخر ، ويتركون لفرح الحركة الذي لايعرف نظاماً أن يعبر عن نفسه بأقدامهم . من بين هؤلاء هناك يعقوب تزيد فيلاس وزوجته لوسيا ، اللذان يديران المخزن معاً ويستهلكان من معلباته بقدر ما يبيعان تقريباً . إنهما أكثر بدانة من أن يرقصا لكنهما يقفان في وسط الحلبة يضم واحدهما الآخر بين ذراعيه متمايلاً على مهل من جانب إلى جانب ، متبسماً تبسماً ملائكياً ، لوحة لنشوة درداء تقطر عرقاً .

من بين كبار السن هناك كثيرون يرتدون ملابس تذكرك ، في بعض تفاصيلها ، بالوطن — صدرية أو معدية (١) مزخرفة أو منديل زاهي الألوان أو سترة واسعة الأردان ذات أزرار غريبة الأشكال . هذه الأشياء كلها تجنبها الشبان بكل عناية ، فمعظمهم تعلم النطق بالانكليزية ويرتدي ملابس من أحدث طراز . الفتيات يرتدين الفساتين

(١) قطعة من ثياب المرأة تغطي المعدة أو الصدر .

أو البلوزات الجاهزة وبعضهن يظهرن جميلات تماماً . وهناك بعض الشبان يشبهون الأمريكيين أو بالأحرى ذلك النمط من الأمريكيين الكتبة ، وذلك لا لشيء إلا لأنهم يلبسون قبعاتهم وهم في القاعة . كل زوج من هؤلاء الشبان يرقص وفق أسلوبه الخاص ، فبعضهم يشد فتاته بين ذراعيه والبعض الآخر يحافظ على مسافة الحذر ، والبعض يمد ذراعيه بعيداً على نحو متصلب في حين يرخيها بعضهم على الجانبين . البعض يرقصون متواثبين والبعض ينزلق برفق ولين في حين يتحرك البعض الثالث برفعة وجد . وهناك أزواج شديدو العنف يمرقون كالسهام في القاعة ، مزيحين كل من يعترض طريقهم . وهناك أزواج عصبيون يخيفهم أولئك فيصرخون« نوستوك! كاس ! ايرا ؟»(١) في وجوههم وهم يمضون . كل زوج من الراقصين يظل كما هو المساء بطوله ـ لايبدلون بعضهم بعضاً . فعلى سبيل المثال ، هناك إلينا جاسيتيت التي رقصت ساعات طويلة مع جوزاس راجيوس ، خطيبها . الينا ملكة جمال الحفل وهي ستكون أجمل حقاً لو كانت أقل كبرياء ، ترتدي بلوزة بيضاء ربما يمثل ثمنها عمل نصف نهار في طلي العلب.إنها ترقص وهي تمسك تنورتها بيدها بكثير من المهابة والدقة ، مثلما تفعل السيدات العظيمات . يعمل جوزاس سائقاً لاحدى عربات دورهام ويكسب أجراً عالياً ، وهو يتبع في مسلكه الجانب « الوعر » ، لابساً قبعته على أحد جانبي رأسه محتفظاً بسيجارة في فمه طيلة المساء . ثم هناك يادفيغا مارسينكوس

(١) ليتوانية وهي كلمات تحذير .

وهي جميلة أيضاً انما متواضعة . يادفيغا تطلي العلب أيضاً لكن لديها أمها العاجزة وأخواتها الصغيرات الثلاث وعليها أن تعيلهن لذا لايسعها أن تنفق أجورها على الملابس . يادفيغا صغيرة الجسم رقيقة ذات عينين سوداوين وشعر فاحم عقصته على شكل حبكة صغيرة في أعلى رأسها . انها ترتدي فستاناً أبيض قديماً صنعته بنفسها وارتدته في كافة الحفلات التي جرت في السنين الخمس الماضية . انه عالي الخصر — يصل حتى ابطيها تقريباً وليس لائقاً كثيراً — لكن ذلك لايضايق يادفيغا التي ترقص مع رفيقها ميكولاس . انها صغيرة الجسم في حين أنه كبير وقوي وهي تعشش بين ذراعيه كما لو أنها تود أن تخفي نفسها عن الأنظار وتتكىء برأسها على كتفه . وهو بدوره يشبك ذراعيه حولها كما لو أنه سيحملها بعيداً ، هكذا هي ترقص ولسوف ترقص الليل بطوله بل إلى الأبد بنشوة مابعدها نشوة . ربما ستبتسم حين تراها — لكنك لن تفعل ذلك اما عرفت القصة كاملة . فهذه هي السنة الخامسة على خطبة يادفيغا لميكولاس ، وقلبها مدنف . كانا سيتزوجان في البداية ، لولا أن والد ميكولاس لايفتأ يسكر طوال النهار والليل تاركاً ميكولاس الكاسب الوحيد في عائلة كبيرة بل حتى في هذه الحالة ربما كانا سيتدبران الأمر (فميكولاس رجل بارع) لولا الحوادث الفظيعة التي حلت بهما وكادت تقتلع قلبيهما . انه يعمل في تجريد عظام البقر وهذه مهنة خطرة ، خاصة حين يكون عملك بالقطعة وتحاول أن تكسب قدراً أكبر من المال كي تنال عروسك . فيداك تنزلقان وسكينك تنزلق وأنت تكد ، تتعب نفسك

بصورة جنونية ، وقد يحدث أن يكلمك أحد أو تضرب عظماً فتنزلق يدك على النصل وتكون النتيجة جرحاً مخيفاً ، جرحاً قد لايكون بالغ السوء لولا العدوى الجرثومية القاتلة . صحيح أن الجرح قد يشفى لكن ليس بوسعك أبداً أن تؤكد ذلك . مرتين حتى الآن وجد ميكولاس نفسه.، خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، مرمياً في المنزل مصاباً بتسمم في الدم : الأولى لمدة ثلاثة أشهر والأخرى لسبعة تقريباً . بل انه فقد عمله في المرة الأخيرة وكان معنى ذلك أن امضى ستة أسابيع أخرى وهو يقف على أعتاب دور التعليب منذ الساعة السادسة من كل صباح من صباحات الشتاء القارسة ، والثلج يغطي الأرض بارتفاع يزيد عن القدم الواحدة وفي الجو المزيد والمزيد منه . صحيح أن هناك أناساً متعلمين قد يقولون لك بناء على الاحصائيات أن العاملين في تجريد عظام البقر يكسبون أربعين سنتاً في الساعة لكن الصحيح أيضاً أن هؤلاء ربما لم يلقوا نظرة واحدة على أيدي مجردي العظام المساكين .

عندما يتوقف تامرزيوس وصاحباه لفترة استراحة ، كما تقضي بذلك الضرورة من حين إلى حين ، فان الراقصين يتوقفون حيث هم وينتظرون صابرين . إذ لايبدو عليهم أنهم يتعبون أبداً وليس ثمة مكان لهم كي يجلسوا ان أرادوا الجلوس . لكن الأمر لايتعدى الدقيقة الواحدة على أي حال ، ثم ينهض القائد ثانية رغم احتجاجات الآخرين كلها . وهذه المرة يكون هنالك نوع آخر من الرقص ، رقصة ليتوانية . فاولئك الذين يفضلونها يتابعونها برقصة « الخطوتين » ، لكن الأكثرية تؤديها

بسلسلة معقدة من الحركات تشابه التزلج الخيالي أكثر مما تشابه الرقص ، وتبلغ الرقصة ذروتها في « بريستيسيمو » مسعورة حيث يمسك أزواج الراقصين بعضهم بأيدي البعض الآخر ويبدؤون نوعاً من اللف المجنون الذي لايقاوم أبداً ، ثم ينضم كل من في القاعة إليه حتى يغدو المكان كتلة من التنانير والأجساد الطائرة تبهر النظر تماماً . . غير أن أروع المشاهد في هذه اللحظة هو مشهد تاموزيوس كوتزلايكا . فالكمنجة العتيقة تصرف وتزعق احتجاجاً لكن تاموزيوس لايسمع احتجاجاً ولا يرحم . العرق ينسكب على جبينه ومع ذلك تراه حانياً ظهره كراكب دراجة في الشوط الأخير من السباق . بدنه كله يهتز ويرتعش مثل محرك بخاري أفلت من عقاله إذ ليس باستطاعة الأذن أن تلاحق زخات الألحان الطائرة — وهناك ضباب أزرق باهت حيثما تتطلع لترى ذراعه المتقوسة . مع ذلك ، وباندفاعة أشد ادهاشاً يمضي حتى يبلغ نهاية اللحن ثم يطوح بيديه ويترنح إلى الوراء مستنفد القوى ، فينفصل الراقصون بصرخة ابتهاج أخيرة ثم يكرون هنا وهناك ليستندوا على جدران القاعة بضع لحظات .

بعد هذا تدور كؤوس البيرة للجميع ، ومن بينهم الموسيقيون ، ثم يأخذ المحتفلون نفساً طويلاً ويستعدون لحدث الأمسية الكبير ، أي الأجيا فيماس . والأجيا فيماس هو طقس من طقوس الاحتفال ما إن يبدأ حتى يستمر لثلاث أو أربع ساعات . إنه رقصة واحدة لا انقطاع فيها ، يشكل فيها الضيوف حلقة كبيرة وقد تشابكت أيديهم . عندما

تبدأ الموسيقى يبدؤون بالتحرك على شكل حلقة تقف في وسطها العروس ، ثم يدخل الرجال واحداً تلو الآخر داخل تلك الحلقة ويرقصون مع العروس كل منهم لبضع دقائق — أو المدة التي يشاء . انها عملية شديدة المرح يصحبها الكثير من الضحك والغناء لكن عندما ينتهي الضيف من الرقص يجد نفسه وجهاً لوجه أمام تيتا الزبيتا التي تمسك بقبعة يتعين عليه أن يسقط فيها مبلغاً من المال — دولاراً أو ربما خمسة دولارات وذلك حسب قدرته وأريحيته ! فالمتوقع أن يدفع الضيوف مالا يقابل هذا اللهو وإذا ما كانوا ضيوفاً جيدين سترى أنهم تركوا مبلغاً محترماً لعروسين يمكنهما بدء حياتهما الزوجية به .

ان أشد مايخيف المرء هو التفكير بنفقات هذا الحفل . فهي بالتأكيد لاتقل عن مائتي دولار وقد تكون ثلاثمائة ، وثلاثمائة دولار مبلغ يفوق الدخل السنوي لأكثر الأشخاص في هذه القاعة . فهناك رجال أقوياء الأجسام يعملون منذ شروق الشمس حتى وقت متأخر من الليل في أقبية باردة كالجليد تغطي المياه أرضها بارتفاع يزيد على ربـــع بوصة — رجال لايرون الشمس لستة أو سبعة أشهر في العام بدءاً من عصر الأحد وحتى صباح الأحد التالي — ولايستطيعون أن يكسبوا ثلاثمائة دولار في العام . وهناك أولاد لم يدخلوا عقدهم الثاني ولايبلغون سطح نضد العمل إلا بالكاد — أولاد زوّر اباؤهم أعمارهم كي يحصلوا لهم على أماكنهم هذه — ولايحصلون على نصف الدولارات الثلاثمائة في العام

بل ربما لاينالون حتى ثلثها ، ثم تقوم بانفاق مبلغ كهذا في يوم واحد ، على مأدبة عرس ! ! (لكن بوجود هذا التقليد يغدو الأمر سيان أي سواء أنفقت هذا المبلغ مرة واحدة في عرسك أو على مدى طويل في أعراس أصدقائك جميعاً) .

إنه تقليد شديد الحماقة والطيش ، مأساوي — لكن ، آه ، كم هو جميل ! فهؤلاء الناس كانوا قد تخلوا بالتدريج عن كل شيء ، ماعدا هذا فقد تمسكوا به وبكل ما لديهم من قوة . انهم لايستطيعون التخلي عن الفيزيليجا ، فأن يفعلوا ذلك يعني أنهم لم ينهزموا وحسب بل أن عليهم أن يعترفوا بالهزيمة — والفارق بين هذين الامرين هو الشيء عينه الذي يبقي على العالم . لقد انحدرت إليهم عادة الفيزيليجا من زمن بعيد ، تلك العادة التي تعني قبل كل شي أن المرء قد يسكن الكهوف ويحدق النظر إلى الظلال شريطة أن يتمكن مرة واحدة في حياته من تحطيم قيوده والاحساس بأن له جانحين يستطيع التحليق بهما نحو الشمس ، شريطة أن يستطيع مرة واحدة في العمر أن يثبت أن الحياة ، بكل مافيها من اهتمامات ومخاوف ، ليست بالنتيجة إلا متاعاً تافهاً ، فقاعة على سطح نهر ، شيئاً يمكن أن يقذف المرء به ويتلاعب كما يقذف المشعوذون بكراتهم الذهبية ويتلاعبون ، شيئاً يمكن أن يعبه المرء بجرعات كبيرة كما يعب كأس نبيذ أحمر نادر . وحين يعرف المرء أنه سيد الاشياء يغدو بامكانه أن يرجع إلى حياة الكد والتعب وأن يعيش على تلك الذكرى طيلة عمره .

كان الراقصون يتمايلون ويدورون — وكانوا حين يشعرون بالدوار ، يدورون بالاتجاه الآخر . وقد استمر هذا الساعة تلو الساعة — حتى خيم الظلام وبدت القاعة معتمة إذ لم يكن ينيرها إلا مصباحا زيت مدخنان . كان الموسيقيون قد بددوا كل حميتهم حتى هذه اللحظة وكانوا يعزفون لحناً واحداً بنوع من السأم والتواني . لقد عزفوا مايزيد عن العشرين وصلة موسيقية وحين بلغوا النهاية بدؤوا من جديد . لكنهم كانوا ، مرة كل عشر دقائق ، يفشلون في البدء من جديد وبدلاً من ذلك كانوا يغرقون إلى الوراء منهكين ، وهي الحالة التي كانت تسبب الكثير من الألم والخوف وتجعل الشرطي السمين نفسه يتحرك قلقاً حيث ينام خلف الباب .

لكنها ماريا بير جنيسكاس التي تحرك كل شيء ، ماريا تلك الروح الظامئة التي تتعلق تعلق القانط بأذيال إلهة الموسيقى المنسحبة . فطوال النهار كانت في حالة من الجذل الرائع والآن هاهوذا يتلاشى —لكنها لن تدعه يفلت من يديها . كانت روحها تصرخ بكلمات فاوست « امكث ! ! امكث فأنت رائع » وسواء كان ذلك عن طريق البيرة أو الصراخ أو الموسيقى أو الحركة فقد كانت ماريا تقول بكل وضوح انها لن تتركه يفلت من يديها ، وأنها ستعاود مطاردته — رغم أنها ما إن تبدأ المطاردة حتى تجد عربتها قد انحرفت عن سكتها بسبب غباء أولئك الموسيقيين المثلثي — اللعنة.وفي كل مرة كانت ماريا تطلق صرخة وتنقض عليهم هازة قبضتها في وجوههم ، داقة بقدميها الأرض ،

محمرة الوجه مرتعدة من الغضب . عبثاً كان تاموزيوس المذعور يحاول التكلم ، متذرعاً بامكانيات الجسم الانساني المحدودة ، وعبثاً كان يعقوب وزوجته اللاهثان يتدخلان وعبثاً كانت تيتا الزبيبيتا تتوسل . « تزالين » كانت ماريا تصرخ « بالوك ! اتزكيليو ! » ، « من أجل ماذا ندفع لكم يا أولاد جهنم ؟ » وهكذا يعاود الموسيقيون ، بدافع الخوف وحده ، عزفهم من جديد ، وتعود ماريا إلى مكانها وأداء مهمتها.

كانت ماريا تحمل أعباء الاحتفال كله . وكانت أونا قد ظلت محافظة على حالها بسبب انفعالها ، أما النساء الأخريات جميعاً ومعظم الرجال فكانوا قد سقطوا من الاعياء — روح ماريا وحدها ظلت لاتقهر . كانت ماريا تحث الراقصين — الذين كانوا يشكلون حلقة في البداية وباتوا الآن على شكل اجاصة ، وماريا في الرأس تدفع في هذا الاتجاه وتسحب في ذلك الاتجاه ، صائحة ، داقة الأرض ، مغنية ، بركان طاقة حقيقياً . بين الحين والحين كان أحد الداخلين أو الخارجين يترك الباب مفتوحاً ، وهواء الليل بارد ، فكانت ماريا وهي تمر به تمد رجلها وترفس الباب ليدوي منصفقاً أشد الانصفاق . في احدى المرات كانت هذه العملية سبباً في كارثة راح ضحيتها المنحوس سيبا ستيوناس تزيد فيلاس . فسيبا ستيوناس الصغير . وعمره ثلاث سنوات كان يتجول في القاعة غير مبال بأي شيء ، قالباً في فمه زجاجة من سائل غازي أشبه « بالكازوز » لونه وردي ، بارد كالجليد ولذيذ . ونظراً لأنه كان

يعبر الباب ؛ فقد ضربه هذا ضربة شديدة جعلته يصرخ صرخة حادة توقف إثرها الرقص . أخذت ماريـــا ، التي كانت تهدد بالقتل مائة مرة في اليوم وتبكي ان الحقت الأذى بذبابة ، سيبا ستيوناس بين ذراعيها وشرعت تهدئه بالقبلات ، الأمر الذي جعل الجوقة الموسيقية تفوز بقسط من الراحة و كثير من المرطبات ، ثم مضت ماريا تعقد الصلح مع ضحيتها، مجلسة إياه على المشرب واقفة بجانبه ، رافعة إلى شفتيه كأساً من البيرة كثيرة الزبد .

في غضون ذلك كان يجري في زاوية أخرى من القاعة مؤتمر مثير للقلق بين تيتا الزبييتا وديد انتاناس وبضعة من أصدقاء العائلة الأكثر حميمية . كانت ثمة مشكلة قد حلت . فالفيزيليجا هي اتفاق ، اتفاق غير مكتوب ، ولهذا السبب وحده فقد كانت في الوطن أكثر الزاماً للجميع . فحسب هذا التقليد كان ما يتعين على كل فرد أن يدفعه يختلف عادة عن نصيب الآخر لكن الجميع كانوا يعرفون تماماً نصيب كل منهم ويسعون لدفع بعض الزيادة . أما الآن ومنذ أن جاؤوا إلى هذه البلاد الجديدة فقد تغير هذا كله لكأن هناك سماً خفياً يستنشقه المرء مع الهواء الذي يتنفسه هنا — فقد أصاب بعدواه كل الشباب على الفور . انهم يأتون جماعات جماعات ، يحشون بطونهم بأطايب الطعام ثم ينسلون . بحجة أو بأخرى ينسلون . فقد يلقي أحدهم بقبعة رفيقه من النافذة ثم يخرجان كلاهما للمجيء بها ولا يعودان . أوربما يجتمع خمسة أو ستة منهم بين الحين والحين ثم يخرجون من القاعة هكذا وبلا استحياء ،

محدقين إليك ساخرين منك وجهاً لوجه . بل إن بعضهم الآخر ، وهذا انكى وأشد سوءاً ، قد يجتمعون حول المشرب ويشربون على حساب المضيف حتى يغيب واحدهم عن وعيه تاركاً الآخرين يظنون أنه رقص مع العروس من قبل أو ينوي أن يفعل ذلك فيما بعد .

كل هذه الأشياء كانت تجري الآن ، وكان أفراد العائلة يائسين خائفين . لقد تعبوا وكدوا زمناً طويلاً ، والآن ، هذا المبلغ الكبير من المال الذي بددوه ! كانت أونا تقف بجوارهم ، جاحظة العينين خوفاً . فهذه الفواتير المرعبة — كم كانت تنتابها كالشبح . كل بند فيها عصر روحها نهاراً وأقض مضجعها ليلاً . كم من المرات راجعتها بنداً بنداً وحسبتها المرة تلو المرة وهي تمضي إلى العمل — خمسة عشر دولاراً أجر القاعة ، اثنان وعشرون دولاراً وربع ثمن البط ، اثنا عشر دولاراً أجر الموسيقيين ، خمسة دولارات للكنيسة ، اضافة إلى بركة العذراء— وهلم جرا . غير أن أسوأ ما في الأمر هو الفاتورة المرعبة التي كانت ستأتي فيما بعد من غرايجونوس ثمن البيرة والمشروبات الروحية التي استهلكت . وليس بامكان المرء أن يحصل سلفاً من صاحب الصالون على أكثر من تخمين فيما يتعلق بهذا الأمر — لكن بعدئذ ، وعندما يحين الوقت ، يأتيك دائماً وهو يهرش برأسه قائلاً أن تخمينه كان متدنياً . لقد بذل قصارى جهده ، لكن ضيوفك أفرطوا في الشراب . انك معه توقن تماماً بأنك خدعت بلا رحمة — ومع ذلك تظن بأنك أغلى صديق لديه على الاطلاق . إنه يبدأ بتقديم الشراب لضيوفك من دن

نصف ملآن وينتهي بدن نصف فارغ وعند الحساب يسجل عليك دنين من البيرة . إنه يوافق على تقديم نوعية معينة من المشروبات بسعر معين ، وعندما يحين الوقت تشرب أنت وأصدقاؤك نوعاً من السم الفظيع الذي لايمكن وصفه أبداً . وقد تتذمر لكنك لن تخرج بطائل سوى افساد أمسيتك ، أما ان لجأت للقانون فانك قد تزول عن وجه الأرض في الحال. فصاحب الصالون يدعمه كبار رجال السياسة في المنطقة وعندما تكتشف معنى التورط في مشكلة مع أمثال هؤلاء الناس ،ستفضل بلا شك أن تدفع ما يطالبونه منك دون أن تنبس بنبت شفة .

وما جعل هذا كله أكثر ايلاماً هو أن الأمر كان في غاية الصعوبة على بعض الأشخاص الذين بذلوا أفضل ما في وسعهم فعلاً . فهناك ، على سبيل المثال ، يعقوب العجوز المسكين – لقد دفع خمسة دولارات ، لكن ، ألم يكن الجميع يعلمون أن يعقوب تزيد فيلاس هذا رهن مخزنه مقابل مائتي دولار كي يدفع الايجار المتراكم لعدة أشهر ؟ وهناك أيضاً بوني آنبيل ، العجوز الذابلة الوجه – الأرملة ، ذات الأطفال الثلاثة اضافة إلى الروماتزم والتي كانت تقوم بأعمال الغسيل لتجار شارع هالستيد بأسعار تتقطع لها نياط قلبك . لقد دفعت آنبيل كل ماربحته من فراريجها لعدة أشهر . فراريجها الثمانية التي ربتها في مكان صغير مسيج على درجها الخلفي . كان أطفال آنبيل يقضون النهار بطوله ينقبون في المزابل بحثاً عن الطعام لهذه الفراريج ، بل إنك ، أحياناً وعندما تكون المنافسة شديدة ، تراهم في شارع هالستيد ، وهم يسيرون

بحذاء المجارير ، تلحق بهم أمهم كيلا تدع أحداً يسرق منهم ما يجدونه . فالمال ليس الشيء الذي تحدد به العجوز جوكنيين قيمة هذه الفراريج—انها تحدد قيمتها بطريقة مختلفة ، فهي تشعر أنها تحصل من خلالها على شيء مقابل لاشيء وانها بواسطة هذه الفراريج تحصل على أفضل شيء من عالم يحصل على أفضل ما لديها بطرق أخرى كثيرة . وهكذا كانت تراقب فراريجها كل ساعات النهار كما تعلمت الإبصار في الليل ، كالبومة ، لكي تراقبها . فقبل حين من الزمن سرق واحد منها ، ولم يكن يمضي شهر واحد دون أن يحاول أحدهم سرقة فروج من فراريجها. وبما أن الشعور بالاحباط الناجم عن تلك المحاولة الفريدة كان يشتمل على عشرين انذاراً كاذباً فسوف يكون مفهوماً أية ضريبة دفعتها العجوز جوكنيين ، لا لشيء إلا لأن تيتا إلزبييتا قد أقرضتها ذات مرة مبلغاً من المال لبضعة أيام وحمتها من أن تطرد خارج منزلها .

تجمع المزيد من الأصدقاء حول الحلقة التي كان يدور فيها نوع من المناحة حول مسألة الدفع . كان البعض يقترب أكثر على أمل استراق السمع وهؤلاء هم أنفسهم المذنبون — الأمر الذي كان يتطلب صبر القديسين بالتأكيد . أخيراً جاء جرجس ، يدفعه أحدهم ، فرووا له القصة من جديد . أصغى جرجس بصمت وقد عقدحاجبيه الأسودين الكبيرين اللذين كان يشع ألق ما تحتهما ، وهو يمسح القاعة من حين إلى آخر بنظرة سريعة . ربما كان الأشهى إلى قلبه أن يمضي إلى بعض أولئك بقبضتيه الكبيرتين المطبقتين باحكام ، لكنه كان يدرك عدم

الجدوى من تصرف كهذا .فما من فاتورة ستنقص إذا ما أخرج أياً من هؤلاء الناس في هذا الوقت، ناهيك عن الفضيحة التي ستحدث ــ وجرجس لايبتغي سوى أن يمضي في طريقه مع أونا ويدع العالم يمضي في طريقه . وهكذا تتراخى قبضتاه ليقول بهدوء تام « لقد انتهى الأمر ولا نفع من النواح ، تيتا الزبيبتا » بعدئذ يلتفت بناظريه إلى أونا التي تقف بجواره فيرى نظرة الرعب الماثلة في عينيها.« صغيرتي » يقول لها بما يشبه الهمس « لاتبالي فالأمر لايهمنا . سندفع لهم كل شيء بشكل من الأشكال ، ولسوف أعمل بجد أكثر » . لقد قال ذلك في ليتوانيا عندما أخذ أحد الضباط جواز سفره منه وقبض عليه ضابط آخر لكونه لايحمل جواز سفر ثم اقتسم الاثنان ثلث ممتلكاته . وقاله مرة ثانية في نيويورك ، عندما تلقاهم الوكيل المعسول ــ الكلام مباشرة وجعلهم يدفعون أسعاراً باهظة وكاد يمنعهم من مغادرة محله رغم أنهم دفعوا له . والآن هاهو ذا يقوله للمرة الثالثة.وتنفست أونا الصعداء وهي تكلم نفسها : « إنه لشيء رائع أن يكون لديك زوج ، شأنك شأن النساء الناضجات ، زوج بوسعه أن يحل كل المشكلات ، زوج كبير ، قوي » .

تكتم ماريا النشيج الأخير لسيباستيوناس الصغير ثم تسرع لتذكر الجوقة بواجبها . ويبدأ الحفل ثانية ــ لكن لم يبق هناك إلا القلة ممن ترقص معهم وسرعان ما يفرط عقد المجموعة لتبدأ رقصات مشوشة مرة أخرى . الوقت الآن بعد منتصف الليل ، والأمور لم تعد كما كانت من قبل .

فالراقصون ممتلئون ثقال الأجسام معظمهم عب الكثير من الشراب وتخطى منذ زمن طويل حالة الانشراح . انهم يرقصون بايقاع رتيب ، يدورون ويدورون ، ساعة بعد ساعة بأعين مثبتة في الفراغ وكأنهم فيما يشبه الغيبوبة ، في حالة من الخدر يتزايد باستمرار . الرجال يخاصرون النساء باحكام لكن قد تمر نصف ساعة دون أن ينظر واحدهما في وجه الآخر . بعض الأزواج لايهتمون بالرقص بل ينسحبون إلى الزوايا ليجلسوا متشابكي الأذرع ، والبعض الآخر ، ممن لايزالون يشربون ، يتجولون في القاعة مصطدمين بكل شيء ، والبعض الثالث يشكلون جماعات من اثنين أو ثلاثة ليرفعوا عقائرهم بالغناء ، ولكل مجموعة أغنيتها الخاصة . ومع مرور الزمن تجد أمامك أنواعاً مختلفة من السكارى ، لاسيما بين صغار الشبان . فالبعض يترنحون بين أذرع البعض الآخر ، وهم يهمسون بكلام السكارى — وآخرون يبدؤون المشاجرات لأتفه ذريعة ويتوصلون إلى ضرب بعضهم بعضاً حتى يضطر طرف ثالث للتدخل بينهم . الآن بالتحديد يتنبه الشرطي ويتحسس عصاه الغليظة كي يتأكد من جاهزيتها للعمل . فعليه أن يكون سريعاً وحازماً — فشجارات الساعة الثانية من الصباح ، إذا ما أفلت زمام أمرها ، تكون أشبه بنار الغابة ، وقد تحتاج لكل احتياطات المركز . ما يتعين عليك أن تفعله هو أن تكسر كل رأس تراه مشتركاً في العراك قبل أن تدخل رؤوس لاتستطيع تكسير أي منها . وليس هناك من يحاسب على تكسير الرؤوس في منطقة « ما خلف الزرائب » ، لأن الرجال الذين يضطرون لتكسير

رؤوس الحيوانات طيلة النهار يتعودون هذه العادة على ما يبدو ليمارسوها على أصدقائهم بل حتى على عائلاتهم بين الحين والحين . وهذا أحد الأسباب التي تدعو للتهنئة بأن الأساليب الحديثة لاتترك إلا لعدد ضئيل من الرجال المهمة الضرورية المؤلمة ، مهمة تكسير الرؤوس من أجل كل العالم المتحضر .

غير أنه لم ينشب عراك تلك الليلة ، ربما لأن جرجس كان يراقب بحذر ـ أكثر حتى مما كان يفعل الشرطي . لقد شرب جرجس قدراً كبيراً ، كما يشرب اي امرىء في مناسبة كهذه ينبغي دفع كل شيء فيها سواء ثمل ام لم يثمل ، لكنه رجل راسخ الأركان ، من الصعب أن يفقد وعيه . مرة واحدة فقط حدثت مشادة حامية ـ وكانت تلك خطيئة ماريا بيرجنسكاس . فماريا توصلت منذ حوالي الساعتين إلى استنتاج واضح مفاده انه إن لم يكن المذبح الموجود في الزاوية ، بساقيه ذي الثوب الأبيض المتسخ ، هو الموطن الصحيح لإلهة الموسيقى ، فهو على أي حال أقرب بديل لذلك الموطن يمكن بلوغه على وجه الأرض . كانت ماريا تعارك احد السكارى عندما وصلت إلى سمعها أنباء الاوغاد اولئك الذين لم يدفعوا « نقطة » العروس في تلك الليلة . فسلكت ماريا طريق القتال مباشرة ، دون حتى تمهيدات السباب المعهودة ، وحين ابعدها بعضهم كانت تمسك بيديها ياقتين من ياقات اولئك الأوغاد . ولحسن الحظ ، كان الشرطي ميالاً للمنطق ، لذا لم تكن ماريا من طوح به الشرطي خارج القاعة .

هذا كله قطع الموسيقى مدة لاتزيد عن دقيقة أو اثنتين . بعد ذلك بدأ اللحن القاسي مرة ثانية — اللحن الذي كان يعزفه الموسيقيون طوال نصف الساعة الأخير بلا أي تغيير . انه لحن امريكي هذه المرة . لحن التقطوه من الشوارع ، يبدو انهم جميعاً يعرفون كلماته — أو على الأقل ، البيت الأول من الاغنية التي يدندنونها لأنفسهم المرة تلو المرة بلا أي توقف « ايام الصيف الجميلة تلك ! ! أيام الصيف الجميلة تلك ! ! ايام الصيف الجميلة تلك ! » وعلى مايبدو كان في هذه الكلمات مايخدر المرء بتكرارها الطاغي الذي لانهاية له . انه يبث الخدر في كل من يسمعه وكذلك فيمن يعزف اللحن . ومامن أحد يمكنه التخلص منه أو حتى التفكير بالتخلص منه . فالساعة الثالثة صباحاً وهم مازالوا يرقصون بفرح غامر ، يرقصون بكل ما لديهم من قوة ، بكل القوة التي يمكن ان يتيحها لهم شراب غير محدود — وليس هناك من أحد بينهم يملك القوة في أن يفكر بالتوقف . ففي الساعة السابعة من صباح هذا الاثنين سيكونون جميعاً مضطرين للتواجد في اماكن لدى دورهام أو براون أو جونز ، وقد ارتدوا بزات العمل . واذا ماتأخر واحدهم دقيقة واحدة، يغرّم بحسم اجرة ساعة ، اما ان تأخر دقائق اخرى فان من المحتمل أن يجد اسمه قد شطب من قائمة العاملين ، مما يعني انه سينضم إلى ذلك الحشد من الجائعين الذين ينتظرون كل صباح عند ابواب دور التعليب من الساعة السادسة وحتى الثامنة والنصف تقريباً . وليس هناك استثناء لهذه القاعدة ولاحتى اونا الصغيرة —

التي طلبت اجازة يوم واحد بعد عرسها . اجازة بدون أجر . لكن عاد طلبها بالرفض — فطالما هناك الكثيرون ممن يتوقون للعمل كما تشتهي ، لاداعي أبداً لان تزعج نفسك بمن لايعملون كما تشتهي .

كانت اونا الصغيرة على وشك الاصابة بالاغماء وهي نفسها في حالة شبه خدر بسبب روائح القاعة الثقيلة الوطأة . لم تكن اونا قد شربت نقطة واحدة . لكن كل من عداها كان يحرق كحولاً بكل مافي الكلمة من معنى . تماماً مثلما تحرق المصابيح الزيت . وكان بعض الرجـــال الذين يستغرقون في سبـــات عميق وهم في كراسيهم أو على الأرض يطلقون رائحة الكحول من افواههم إلى درجة يتعذر معها الاقتراب منهم . وبين الحين والحين كان جرجس يحدق إليها نهماً — فقد نسي منذ زمن طويل خجله . الا ان القاعة كانت مليئة بالناس وكان مايزال يرقب الباب حيث يفترض أن تأتي اليه العربة . لكنها لم تأت فقرر الا ينتظر أكثر بل جاء إلى اونا التي اصفر وجهها على الفور وبدأت بالارتعاش . وضع جرجس شالها عليها ثم ارتدى معطفه . انهما يسكنان على بعد كتلتين بنائيتين فقط ولم يعد جرجس يبالي أجاءت العربة ام لم تجيء .

لم يكن هنالك حتى وداع تقريبـــاً — فالراقصون لم يـــلاحظوه وكان كل الأطفال وكثير من الكبار قد غرقوا في سبات عميق . ديدانتاناس كان دائماً نائماً وكذلك الزوج والزوجة تزيلدفيـــلاس .

حيث كان الأول يشخر معزوفة ثمانية الالحان . وحدهما تيتا اليزبيتا وماريا راحتا تنشجان بصوت عال ثم خيم سكون الليل وقدبدأت النجوم تشحب في الشرق . وهكذا رفع جرجس اونا بين ذراعيه ، دون أن ينبس ببنت شفة ثم خرج بها وقد ارتمى رأسها على كتفه مع أنة طويلة . وحين وصل المنزل لم يكن متأكداً مما اذا كانت مصابة بالاغماء ام نائمة ، لكنه عندما اضطر للامساك بها بيد واحدة كي يفتح الباب رآها تفتح عينيها . « لن تذهبي إلى معمل براون هذا اليوم ، ياصغيرتي ! » همس في اذنها وهو يصعد السلم ، فامسكت ذراعه بشيء من الذعر ، ثم شهقت : « لا ، لا ، لاأجرؤ ! هذا سيحطمنا ! » لكنه أجابها ثانية : « دعي الأمر لي . . . دعيه لي . . . سأكسب المزيد من المال — سأعمل بجد أكثر » .

— ٢ —

كان جرجس لايتحدث عن عمله الا قليلاً ، لأنه كان شاباً . لقد حكوا له قصصاً عن تحطيم الرجال ، هناك في مسالخ شيكاغو وعما كان يحدث لهم بعدئذ — قصص ينمل لها لحم الانسان ، لكن جرجس كان يضحك ، ليس الا . لم يكن قد مضى عليه هناك سوى اربعة اشهر وكان صغير السن ، ضخم الجثة كذلك ، كما كان وافر الصحة أيضاً فلم يكن باستطاعته ان يتصور مامعنى ان يضرب الانسان . وكان يقول : « هذا قد يحدث لرجال مثلكم ياسيليبناس ! ! أشخاص ضئيلين — أما أنا فمنكبي عريض » .

كان جرجس اشبه بفتى قادم من الريف ، من ذلك الصنف الذي يحب أصحاب الأعمال أن يتوفر لهم ، الصنف الذي يشتكون ان لم يستطيعوا وضع ايديهم عليه . فحين يقال له ان يمضي إلى مكان معين ، يذهب بأقصى سرعة ، وحين لايكون لديه مايفعله في لحظته الراهنة يقف متململاً ، يتراقص بفيض الطاقة التي في داخله . وان كان يعمل في صف من الرجال ، فان الصف يتحرك دائماً ببطء شديد بالنسبة له حتى ليسعك ان تفرزه على حدة لنفاد صبره وشدة قلقه . وهذا هو السبب الذي جعلهم يتعرفون اليه في احدى المناسبات الهامة ، اذ أن جرجس لم يقف في اليوم الثاني لوصوله إلى شيكاغو أمام « مركز الدوام » التابع لبراون وشركاه الا حوالي نصف ساعة ثم طلبه احد رؤساء العمال . ولقد كان فخوراً بهذا الأمر ، بل جعله أكثر ميلاً من ذي قبل للهزء بالمتشائمين . كما رأى أنه نوع من الهراء ، كل ماقالوه له عن افراد في ذلك الحشد الذي اختير منه مضى على وقوفهم هناك شهر — بل ، أشهر كثيرة ولم يقع عليهم الاختيار بعد . اذ كان يقول « أجل ، لكن اي صنف من الرجال هم ؟ مغفلون محطمون لايصلحون لشيء ، أشخاص انفقوا كل مالهم في الشراب ويودون أن يحصلوا على المزيد منه . اتريدون مني ان اصدق ان الناس سيدعونني وأنا املك مثل هاتين الذراعين -- ويطبق قبضتيه باحكام ثم يرفعهما في الهواء حتى يغدو بامكانك رؤية عضليهما المفتول -- أموت جوعاً ؟ » .

فيجيبونه : « واضح انك آت من الريف ومن مكان ناء في الريف ».
وقد كانت هذه حقيقة . لأن جرجس لم ير مدينة ابداً ، وربما لم ير حتى بلدة ذات حجم معقول الا نادراً ، إلى ان انطلق كي يجرب حظه في العالم ويكسب حقه بأونا . فوالده ووالد والده قبله ، وكذلك اجداده جميعاً ، كانوا قد عاشوا في ذلك الجزء من ليتوانيا الذي يعرف باسم بريلوفيج ، الغابة الامبراطورية ، وهي رقعة كبيرة تبلغ مساحتها مئات آلاف الفدادين ظلت منذ زمن غارق في القدم منطقة صيد خاصة بالنبلاء . في هذه الغابة كان يقطن بضعة فلاحين يحملون سندات ملكية منذ العهود القديمة ، أحد هؤلاء كان انتاناس رودكوس الذي نشأ هو نفسه ونشأ أولاده بدوره على استثمار ستة فدادين من أرض استصلحها في وسط المجاهل . كان لديه ابن آخر ، عدا جرجس ، وابنة واحدة . الأول سيق إلى الجيش قبل عشر سنوات ومنذ ذلك الحين لم يسمع احد خبراً عنه . أما الابنة فقد تزوجت ، وكان زوجها هو الذي ابتاع الأرض حين قرر انتاناس العجوز أن يسافر مع ابنه .

لقد مضى عام ونصف تقريباً على لقاء جرجس بأونا ، في سوق للخيول يبعد مائة ميل عن المنزل . لم يكن جرجس يتوقع ابداً ان يتزوج — بل كان يسخر من الزواج باعتباره شركاً يقع فيه الرجال الحمقى ، لكن هنا ، ودون أن يتكلم كلمة واحدة معها أو يكون بينهما أكثر من تبادل بضع ابتسامات ، وجد نفسه ، محمر الوجه من الضيق

والخوف ، يطلب من والدها أن يقبله زوجاً لها — مقدماً له حصاني والده اللذين كان قد جاء بهما ليبيعهما في السوق . غير أن والد اونا اثبت انه صلب كالصخر فالفتاة ماتزال طفلة وهو رجل غني ولايمكن ان يدع ابنته تسلك هذا الطريق الوعر . وهكذا عاد جرجس إلى البيت دامي القلب ، وأمضى ذلك الربيع والصيف وهو يكد ويتعب كي ينسى . وفي الخريف ، بعد انتهاء البيادر ، رأى انه لن يستطيع النسيان ، فعزم على قطع رحلة الأربعة عشر يوماً التي تفصل بينه وبين اونا .

هناك ، وجد الأمر على غير ماكان يتوقع — فوالد الفتاة مات وأرضه رهنت لصالح الدائنين . وكاد قلب جرجس يثب من بين اضلاعه حين ايقن ان الجائزة باتت في متناول يده . كانت العائلة تتألف من الزبيبتا لوكوتزايت ، أو الخالة تيتا كما كانوا يسمونها وهي امرأة والد اونا ، ومن أطفالها الستة وهم من مختلف الاعمار . كذلك كان هناك اخوها جوناس ، وهو شاب ضئيل البنية جاف العروق يعمل في المزرعة . لقد كانوا اناساً ذوي منزلة رفيعة ، كما خيل لجرجس ، قدموا حديثاً إلى الغابات . كانت اونا تعرف القراءة وأشياء اخرى كثيرة لم يكن يعرفها هو نفسه ، وكانت المزرعة قد بيعت وأمست العائلة كلها في مهب الريح ، فكل مايملكونه في العالم لم يكن يتعدى السبعمائة روبل ، أي نصف هذا الرقم بالدولار . لقد كان لديهم ثلاثة اضعاف هذا المبلغ . الا أنه ذهب إلى المحاكم ، فقد اتخذ القاضي

قراره الثاني ضدهم الأمر الذي كلفهم المبلغ المرقوم كي يجعلوه يغير قراره .

كان بامكان اونا ان تتزوج وتتركهم ، الا انها لم تفعل ذلك فقد كانت تحب تيتا إلزبييتا . ركان جوناس هو الذي اقترح فكرة الذهاب إلى امريكا ، حيث كان احد اصدقائه قد اصبح غنياً . فهو سيعمل ، وكذلك النساء وبعض الأولاد بغير شك ولسوف يعيشون بشكل من الأشكال . كان جرجس قد سمع بامريكا ايضاً . فهي البلاد التي ، كما يقال ، يمكن للانسان فيها أن يكسب ثلاثة روبلات في اليوم . وحاول جرجس ان يتخيل ماتعنيه ثلاثة روبلات يومياً بأسعار تشابه اسعار معيشتهم ، فقرر على الفور ان يذهب إلى امريكا ويتزوج ويصبح رجلاً غنياً ايضاً . ففي تلك البلاد ، كما يقولون ، الانسان حر سواء كان غنياً او فقيراً ، وهو ليس مضطراً للخدمة في الجيش كما انه غير مضطر لدفع امواله لموظفي الحكومة الانذال بل يمكنه ان يفعل مايشاء وأن يرى نفسه على قدم المساواة مع كل الناس الآخرين . وهكذا كانت امريكا المكان الذي يحلم به العشاق . واذا مااستطاع المرء تدبير نفقات السفر فقط بات بامكانه القول ان متاعبه قد انتهت .

تم الاتفاق على أن يهاجروا في الربيع القادم . وفي غضون ذلك ، باع جرجس نفسه إلى متعهد لمدة زمنية معينة ثم سار على قدميه حوالي اربعمائة ميل مع زمرة من الرجال كي يقوموا بأعمال السكة الحديدية

في سمولينسك . وكانت هذه تجربة مخيفة بكل مافيها من وسخ وسوء تغذية وقسوة واجهاد ، لكن جرجس تحمل كل شيء وخرج منها بمبلغ لابأس به ، ثمانين روبلاً اخفاها في معطفه . لم يكن جرجس يتعاطى المسكرات ولم يكن يعارك احداً ، بل كان يفكر طيلة الوقت بأونا علاوة على انه كان هادئاً رابط الجأش يفعل مايؤمر به ، ويسيطر على اعصابه اغلب الاحيان ، لكنه اذا مافقد اعصابه جعل المسيء اليه يتمنى الا يفقدها مرة ثانية . عندما دفعوا لجرجس أجره تفادى مقامري المجموعة والحانات ، لذا حاولوا قتله ، لكنه فر منهم وعاد ادراجه إلى موطنه ، يقوم على الطريق ببعض الأعمال الغريبة وينام دائماً وقد فتح احدى عينيه .

وهكذا حين جاء الصيف انطلقوا جميعاً إلى امريكا ، حيث انضمت اليهم في آخر لحظة ماريا بيرجنيسكاس ، وهي احدى بنات عم اونا . كانت ماريا يتيمة الأبوين عملت منذ طفولتها لدى مزارع غني في « فيلنا » كان يضربها باستمرار . وفي سن العشرين فقط حدث أن جربت ماريا عضلاتها ، حين رفعت الرجل فوق رأسها وطرحته ارضاً فكادت تزهق روحه ثم فرت إلى غير رجعة .

كانت الجماعة كلها تتألف من اثني عشر شخصاً ، خمسة راشدين وستة اطفال — واونا التي كانت بين بين . وكانت الرحلة بالغة الصعوبة . صحيح أنه كان هناك وكيل قدم لهم المساعدة

لكن الصحيح ايضاً أنه كان وغداً زنيماً أوقعهم مع بعض الموظفين في شرك كلفهم الكثير من مالهم الغالي الذي كانوا يتعلقون به تعلق الغريق بحبل النجاة . حدث لهم هذا مرة ثانية في نيويورك — لأنهم ، بالطبع ، كانوا يجهلون كل شيء عن البلاد ولم يكن هناك أحد يحيطهم بها علماً ، وكان من السهل على رجل يرتدي بذلة رسمية زرقاء أن يقودهم إلى مكان بعيد وأن يأخذهم إلى فندق يحتفظ بهم فيه ويجعلهم يدفعون مبالغ طائلة كي يفروا منه . فالقانون يقول أن بطاقة التصنيف يجب أن تكون على باب الفندق لكنه لايقول انها ينبغي أن تكون باللغة الليتوانية .

في زرائب الماشية في شيكاغو كان صديق جوناس قد اصبح غنياً . وهكذا مضت الجماعة إلى شيكاغو . لم يكونوا يعرفون الا تلك الكلمة ، شيكاغو — وكان ذلك كل ما يحتاجونه ، على الأقل إلى أن يصلوا المدينة . بعدئذ خرجوا من الشاحنات بغير مراسم ولم يكونوا أفضل حالاً من ذي قبل ، ثم وقفوا يحدقون النظر بشارع ديربورن بأبنيته السوداء الكبيرة المرتفعة عن بعد ،عاجزين عن اقناع انفسهم بأنهم وصلوا ، عاجزين عن ادراك السبب الذي كان يجعل الناس ، حين يسألونهم عن شيكاغو ، لايشيرون بعد ذاك إلى اتجاه معين ، بل بدلاً من ذلك يبدون حائرين أو يضحكون او يتابعون طريقهم دون أن يعيروهم اي انتباه . لقد كانوا يثيرون الشفقة لشدة يأسهم ، فبعد

كل ما مر بهم باتوا يخشون أي صنف من الأشخاص يرتدي بزة رسمية ، وهكذا كلما كانوا يرون شرطياً كانوا يعبرون الشارع إلى الطرف الآخر مسرعي الخطا . ظلت الجماعة تتجول طوال النهار في لجة الزحام المصم للآذان وأخيراً ضاعت . في الليل فقط ، وهي تتكوم على أنفسها مرتعدة في مدخل احد المنازل اكتشفها اخيراً أحد رجال الشرطة وسار بها إلى المخفر . في الصباح جاؤوا بمترجم ثم اخذوا الجماعة في عربة قطار وقد تعلم افرادها كلمة واحدة هي « الزرائب » . غير أن فرحهم لم يكن يوصف حين اكتشفوا انهم خرجوا من تلك المغامرة دون ان يخسروا شيئاً .

كانوا يجلسون وأعينهم تحدق من النافذة إلى الخارج فقد بدا الشارع وكأنه سيطول إلى الأبد ، ميلاً بعد ميل — اربعة وثلاثين ميلاً ، لوكانوا يعلمون — وكل جانب من جانبيه صف واحد مستمر من الأبنية الخشبية الكالحة الصغيرة ذات الطابقين . وهكذا كان كل شارع مروا به — لاتلة ولا وهدة ، بل دائماً المشهد ذاته من الابنية الخشبية الصغيرة القذرة البشعة التي لانهاية لها . هنا كان يمكنك ان ترى جسراً على جدول وسخ ، ضفافه من الطين المتصلب وقد اقيمت عليها سقائف حقيرة وأرصفة قذرة . وهناك كنت ترى سكة حديد وشبكة من التحويلات تعبر عليها قاطرات بخارية تنفث دخانها وقد اصطفت خلفها عربات الشحن . وفي مكان ثالث قد تجد معملاً كبيراً ، بناء حقيراً ذا نوافذ

لا حصر لها تتصاعد من مداخنه اعمدة كثيفة من الدخان حتى اسود بها الهواء واحالت حتى الأرض دونها كتلة من القذارة . لكن بعد كل انقطاع من هذه الانقطاعات ، كان المنظر البائس يعود مرة ثانية –منظر الأبنية الصغيرة الكئيبة . قبل ساعة كاملة من وصول الجماعة إلى المدينة بدؤوا يلحظون تغيرات محيرة في الجو إذ كان يزداد قتامة شيئاً فشيئاً ، وعلى الأرض كان العشب يبدو وكأنه أقل اخضراراً . كان القطار مسرعاً ، وكانت الألوان تغدو كل دقيقة أكثر وأكثر قتامة كما كانت الحقول تبدو جافة صفراء والمناظر الطبيعية كريهة جرداء . ومع الدخان المتكاثف بدؤوا يلاحظون شيئاً آخر ، رائحة غريبة حادة لم يكونوا على ثقة من أنها رائحة كريهة ، بعضهم قال انها رائحة ممرضة لكن احساسهم بالروائح لم يكن نامياً ، وهكذا لم يكن باستطاعتهم ان يقولوا الا انها رائحة غريبة . في تلك اللحظة ، وهم يجلسون في المقطورة ، أدركوا انهم في طريقهم إلى موطن تلك الرائحة – وانهم قد رحلوا الطريق كله من ليتوانيا اليها . لم تعد المسألة مسألة رائحة بعيدة خفيفة تأتيك على شكل هبات بل بات بوسعك ان تتذوقها تماماً وأن تشمها أيضاً – بل يمكنك أن تمسك بها تقريباً وأن تتفحصها على راحتك . غير أن الجماعة انقسمت في الرأي ، البعض قال انها رائحة مادة من مواد الطبيعة ، خام وفجة ، رائحة مشبعة ، زنخة تقريباً ، حسية وقوية . والبعض راح يبتلعها وكأنها شراب مسكر والبعض الآخر وضعوا مناديل على وجوههم . كان المهاجرون الجدد مايزالون يتشممونها

ضائعين في بحران الحيرة عندما توقفت المقطورة فجأة ثم انفتح الباب على مصراعيه وصاح احدهم بصوت عال : « الزرائب » .

بعد ذاك وجدوا انفسهم يقفون على الزاوية جاحظي الأعين ، أمامهم وفي شارع جانبي كان يقوم صفان من المنازل الآجرية ، بينهما مجاز ضيق وكانت هناك نصف دزينة من المداخن ، تضاهي في علوها اعلى الابنية بل تلامس السماء ذاتها وينطلق منها نصف دزينة من اعمدة الدخان كثيفة ، لزجة ، سوداء كالليل . ربما كان هذا الدخان آتياً من مركز العالم ، حيث النيران الأولى ماتزال تشتعل . كما كان يتصاعد من المداخن وكأنما يندفع ذاتياً ، دافعاً كل شيء امامه ، نتاج انفجار دائم متجدد ابداً . فهو لاينفد ولاينتهي ، يحدق المرء إليه آملا أن يتوقف ، لكنه يتصاعد ويتصاعد تيارات كبيرة لاتنقطع ، ناشرة سحائب هائلة في الجو تلتف وتتحرك بطريقة لولبية إلى أن تتحدد في تيار ضخم واحد يجري في السماء ماداً حجاباً اسود قاتماً على مدى النظر .

عند ذاك احست الجماعة بشيء غريب آخر ، شأنه شأن الرائحة ، يتعلق بمادة من مواد الطبيعة : انه صوت ، صوت يتكون من عشرات الآلاف الأصوات الصغيرة ، صوت يصعب أن تلاحظه في البداية — فهو يغوص في وعيك ، ازعاجاً غامضاً ، اشكالاً محيراً ، انه اشبه بطنين النحل في الربيع ، بحفيف الغابة ، وهو يدل على نشاط لانهاية له ، دمدمة عالم يتحرك . بالجهد الجهيد فقط يمكن للمرء ان يعرف انه من

صنع حيوانات ، أنه خوار بعيد لعشرة آلاف بقرة . قباع بعيد لعشرة آلاف خنزير .

كان بود الجماعة ان تتبع هذا الصوت لكن ، وا أسفاه . لم تجد لديها الوقت لمثل هذه المغامرة . فالشرطي الواقف عند الزاوية بدأ يراقبهم ، لذا بدؤوا ، كالعادة ، بصعود الشارع . لكنهم لم يقطعوا كتلـــة ابنيـــة حـــتى سمعوا جوناس يطلق صرخة عالية وبانفعال شديد يشير بيده إلى الاتجاه الآخر من الشارع . وقبل ان يتمكنوا من فهم مغزى كلامه ، وهو يطلقه لاهثاً مقطوع الانفاس ، كان هو قد قفز بعيـــداً ، ثم رأوه يدخل حانوتاً . كتب على لوحته : ي . تزيدفيلاس، معلبات. وحين خرج مرة ثانية كان في صحبته رجل قوي البنية يلبس كمي قميص ومريلة ويضم جوناس بكلتا يديه ويضحك بانشراح شديد . حينذاك تذكرت تيتا الزبيبتا ان تزيد فيلاس هو اسم الصديق الاسطوري الذي صنع ثروة له في امريكا . واكتشافهم انه صنع هذه الثروة من تجارة المعلبات هو ضرب من الحظ الخارق للعادة في تلك اللحظة اذ كان الوقت مايزال صباحاً ، ولم يكونوا قد تناولوا افطارهم . وكان الأطفال قد بدؤوا بالعويل .

وهكذا كانت النهاية السعيدة لرحلة مليئة بالكوارث . لقد اخذ كل فرد من العائلتين افراد العائلة الاخرى بالاحضان ــ ذلك لانه كان قد مضى عهد طويل مذ قابل يعقوب تزيد فيلاس احد اقربائه من ليتوانيا . ولم تأت الظهيرة حتى كانوا قد غدوا اصدقاء عمره . كان يعقوب

يدرك كل خفايا هذا العالم الجديد . قادراً على ان يشرح كل اسراره ، كما كان بامكانه أن يخبرهم بما عليهم في مختلف الحالات الطارئة. والأهم من ذلك كله انه ، كان يستطيع اخبارهم بما عليهم ان يفعلوه في تلك اللحظة . وهكذا اخذهم إلى بوني انبيل التي كانت تدير نزلاً في الجانب الآخر من الشارع ، شارحاً لهم ان السيدة جوكنيين ليس لديها مايمكن ان يدعوه الانسان بالفرش الجيد الا أنه يحل المشكلة مؤقتاً . فأسرعت تيتا الزبيبتا لتقول ان كل شيء سيكون غالياً بالنسبة لهم ، هم الذين يرتعدون فرقاً من ان يضطروا لانفاق المبالغ الضئيلة التي يملكونها . غير أن بضعة أيام قليلة من التجربة العملية في هذه البلاد ذات الأجور العالية كانت كافية لأن توضح لهم الحقيقة القاسية وهي انها كانت ايضاً بلاداً ذات اسعار باهظة ، شأن الفقير فيها شأنه في اي ركن آخر من أركان العالم . وهكذا اختفت في ليلة واحدة أحلام الثروة الزاهية التي كانت تراود جرجس . وما جعل الاكتشاف أكثر ايلاماً ، هو أنهم باتوا ينفقون بالأسعار الامريكية مالا كانوا قد كسبوه بمعدلات الأجور المنخفضة في الوطن — لقد خدعهم العالم . والحقيقة أنهم في اليومين الاخيرين كادوا يموتون جوعاً — إذ اصيبوا بنوع من الغثيان حين وجدوا انفسهم مضطرين لأن يدفعوا مقابل الطعام تلك الاثمان التي كان يطلبها منهم اناس السكك الحديدية .

مع ذلك ، حين رأوا منزل الأرملة جوكنيين ، لم يستطيعوا منع انفسهم من التراجع . فطول رحلتهم ، لم يكونوا قد رأوا أشياء بمثل

ذلك السوء . كان لدى بوني انبيل شقة من أربع غرف في احد مجاهل تلك الابنية الخشبية ذات الطابقين التي تقع « خلف الزرائب » . كذلك كان هنالك أربع شقق في المبنى ، كل شقة منها نزل يشغله الاجانب : ليتوانيون ، بولنديون ، سلوفاك أو بوهيميون . بعض هذه الاماكن يديرها أشخاص لانفسهم وبعضها يُدار بالتعاون ، حيث يشغل كل غرفة ، وبصورة متوسطة ، نصف دزينة من الاشخاص — بل أحياناً ثلاثة عشر أو اربعة عشر شخصاً في الغرفة ، وخمسون أو ستون في الشقة. كذلك كان كل واحد من السكان يؤمن مايلزمه من فرش — أي فراش وتوابعه — ثم يمد الفراش بجانب الآخر صفا صفاً على الأرض — ولا شيء آخر سوى الموقد . كما كان امراً عادياً ان يشترك رجلان في فراش واحد ، احدهما يعمل ليلاً والثاني نهاراً . وغالباً جداً ماكان مدير المنزل يؤجر الفرش ذاتها لفريقين من الرجال بالتناوب .

كانت السيدة جوكنيين امرأة ضئيلة الجسم جافة العروق متغضنة الوجه . بيتها وسخ إلى حد يصعب تصوره ، كما يتعذر عليك دخوله من بابه الأمامي لما مدت فيه من فرش ، وحين تحاول صعود الدرج الخلفي تجد أنها قد رفعت جدراناً في القسم الأعظم من الممر بالواح عتيقة صنعت منها خماً لدجاجاتها . وكانت احدى المزحات المعروفة بين سكان النزل هي أن انبيل تنظف المكان بافلات دجاجاتها في الغرف . ولاشك ان هذا قد خفف من الهوام والحشرات الضارة ، لكن الصحيح

أيضاً ، اذا ماأخذنا كل الظروف بعين الاعتبار ، هو أن العجوز كانت تعد ذلك وسيلة لتغذية الدجاج أكثر مما هو وسيلة لتنظيف الغرف . فالحقيقة هي انها اقلعت منذ زمن طويل عن فكرة التنظيف ، تنظيف أي شيء ، لما تعانيه من هجمات الروماتيزم الذي كان يتركها مرمية في احدى زوايا غرفتها ، متكومة على نفسها أكثر من اسبوع ، مما يدفع بعض الساكنين لديها الغارقين حتى آذانهم في ديونها ، للاستنتاج بأن عليهم ان يجربوا حظهم في ايجاد عمل في مدينة كنساس . فالشهر شهر تموز والحقول خضراء . والمرء لايرى حقلاً أو شيئاً أخضر في مدينة التعليب ، لكن بامكانه أن يخرج إلى الطريق العام « ويتجول عليه » كما يقول الناس هنا ، فيرى الريف ويحظى باستراحة طويلة ووقت مريح يستقل فيه عربات الشحن .

هذا هو المنزل الذي وجد القادمون الجدد مأوى لهم فيه . ولم يكن باستطاعتهم أن يجدوا افضل منه — بل ربما لم يكونوا يطمحون للبحث عما هو أفضل ، لأن السيدة جوكنيين كانت تبقي غرفة واحدة على الأقل لنفسها ولأطفالها الثلاثة ، وقد عرضت ان يشاركها فيها نساء وبنات الجماعة . كان بامكانهم أن يحصلوا على لوازم نوم من مخزن للمواد المستعملة ، كما شرحت لهم ، وهم لن يحتاجوا شيئاً طالما ظل الطقس حاراً جداً — فلا شك أن بوسعهم ان يناموا على الأرصفة في ليال كهذه ، مثلما فعل كل ضيوفها تقريباً . « غداً » ، قال جرجس

حين باتوا بمفردهم في الغرفة . « غداً سأجد عملاً . وربما سيجد جوناس عملاً أيضاً ، وعند ذاك يمكننا ان نستأجر مكاناً خاصاًبنا » .

في وقت لاحق من ذلك العصر خرج هو واونا للتمشي قليلاً ، لإلقاء النظر على ماحولهما كي يريا المزيد من هذه المنطقة التي ستغدو موطنهم . في مؤخرة الزرائب كانت البيوت الخشبية البائسة ذات الطابقين مبعثرة متفرقة ، وكان هناك فراغات خالية فيما بينها – ربما ظلت كذلك بسبب الانتشار السريع لمدينة تمتد في منطقة مراع . وكانت تغطي تلك الفراغات الخالية اعشاب صفراء حقيرة تخفي في ثناياها عدداً لاحصر له من علب البندورة وعدداً لاحصر له من الاطفال الذين يلعبون بها ويطارد بعضهم بعضاً هنا وهناك مالئين الدنيا زعيقاً وعراكاً . على أن الأمر الأشد اثارة للاستغراب في هذا الحي هو عدد الأطفال ، فاذا ما نظرت حولك ظننت أن هنالك مدرسة لكنك ما ان تتعرف إلى المنطقة جيداً حتى تعلم انه لايوجد اي مدرسة على الاطلاق. وأن هؤلاء هم اولاد الحي ليس الا – فقد كان في كل بناية من الاطفال مايجعل من المتعذر على اي حصان او عربة في اي شارع من شوارع باكنجتاون أن يمشي بأسرع من الانسان .

وليس بامكانه انيسير أسرع على اي حال ، بسبب حالة الشوارع . فهذه التي كان يسير عبرها جرجس واونا كانت أقل شبهاً بالشوارع منها بخريطة طبوغرافية مصغرة . فالطريق بصورة عامة اكثر انخفاضاً

بعدة اقدام من مستوى المنازل التي يتصل بعضها ببعض احياناً بواسطة ممرات خشبية عالية ، ولم يكن ثمة ارصفة -- بل هناك جبال ووديان وأنهار ، مجارير وحفر وبرك كبيرة ملأى بماء اخضر آسن . في هذه البرك كان الاطفال يلعبون ثم يتدحرجون في وحل الشوارع . وهنا وهناك كان المرء يلحظهم وهم يحفرون فيها متعقبين غنائم انكبوا عليها انكباباً . كان المرء يطوف بهذا كله كما يطوف بأسراب من الذباب الذي يملأ المكان حتى ليحجب الشمس فعلاً ، والرائحة الزنخة الغريبة تملأ انفه ، رائحة رهيبة تنبعث من كل الكائنات الميتة في هذا الكون . انها تدفع الزائر لان يسأل -- وعند ذاك قد يجيب القاطنون مفسرين بهدوء ان هذه كلها أرض « صنعية » وأنها باتت كذلك لاستعمالها كمكان تلقى فيه قمامة المدينة كلها . بعد بضع سنوات ربما ستزول كل الآثار الكريهة لهذه الحالة . هكذا يقول البعض ، لكن في غضون ذلك وعندما يكون الطقس حاراً -- وعلى الأخص عندما تمطر -- فان الذباب يتحول إلى عنصر ازعاج حقيقي « أليس المكان غير صحي ؟ » قد يسأل الغريب ، فيجيب القاطنون : « ربما ، لكن ليس هنالك احصاء » .

وصل جرجس واونا بعد مسافة قليلة ، وهما جاحظا الأعين تعجباً ودهشة ، إلى المكان الذي كانت فيه هذه الأرض « الصنعية » قيد الصنع . . هنا ، كانت قد حفرت حفرة كبيرة ربما تزيد مساحتها عن مساحة كتلتين بنائيتين في المدينة وصفوف طويلة من عربات القمامة

تزحف اليها . وكانت للمكان رائحة يعجز الكلام عن وصفها ، وقد تناثر عليها الأولاد الذين ينبشون فيها من الفجر حتى حلول الظلام . احياناً كان زوار باكنجتاون يطوفون خارجاً ليروا هذه الزبالة وقد يقفون بجانبها ويتناقشون وكأنما يتناقشون فيما اذا كان الاولاد يأكلون الطعام الذي يحصلون عليه ام انهم يعملون فقط على جمعه للدجاج في منازلهم . لكن بالتأكيد ، مامن احد منهم نزل إلى حيث كان هؤلاء الاولاد كي يكتشف الحقيقة .

خلف هذه المزبلة كانت هناك ساحة كبيرة لصنع الآجر ، يتصاعد الدخان من مداخنها . لقد كانوا يستخرجون التراب اولاً لصنع الآجر ثم يملؤون الحفر بالنفايات ، الأمر الذي بدا لجرجس واونا اجراء ناجحاً تتميز به بلاد تحب المغامرة كأمريكا . بعد مسافة قصيرة كانت هناك حفرة كبيرة اخرى حفرت ولم تملأ بعد . فتجمع فيها الماء الذي كان يظل طوال الصيف،وقد عجز التراب عن امتصاصه ، يفسد ويأسن تحت الشمس ومن ثم يأتي احدهم ، عند حلول الشتاء ، كي يقطع الجليد منه ويبيعه لسكان المدينة . هذا ، ايضاً ، بدا للقادمين الجدد اجراء اقتصادياً ناجحاً ، لانهم لم يكونوا قد قرؤوا الجرائد ولم تكن رؤوسهم قد امتلأت بالافكار المزعجة عن « الجراثيم » .

كانا يقفان هناك والشمس تنحدر على هذا المنظر وأفق الغرب يصطبغ بلون الدم الأحمر وسطوح المنازل تتوهج كالنار . لكن جرجس

واونا لم يكونا يفكران بغروب الشمس فقد كانا يديران ظهريهما لها . بل كانت كل افكارهما تنصب على باكنجتاون ، التي كان بامكانهما رؤيتها بسهولة عند طرف الافق . كان صف الابنية ينتصب اسود واضحاً في السماء ، ترتفع منه هنا وهناك مداخن كبيرة يتدفق منها نهر الدخان الذي يجري إلى نهاية العالم . انه خليط من الألوان ، هذا الدخان الآن ، فعلى ضوء الغروب كان قد اصبح اسود وبنياً وارجوانياً ورمادياً . كانت كل الايحاءات القذرة للمكان قد ولت - ليبقى في الغسق رؤيا القوة فقط . لقد بدا المنظر للعاشقين اللذين وقفا يراقبانه والظلام يخيم شيئاً فشيئاً عليه ، أشبه بحلم من احلام العجائب ، بكل مافيه من حكايا عن قدرات الانسان ، عن اشياء تم صنعها ، عن استخدام الآلاف والآلاف من الناس ، عن الفرص والحرية ، عن الحياة والحب والفرح . وعندما رجعا ، وقد شبكا ذراعاً بذراع ، كان جرجس يقول « غداً سأذهب إلى هناك ، وأجد عملاً » .

استطاع يعقوب تزيدفيلاس ، بمقدرتــه الخاصة كبائع معلبات أن يكسب الكثير من المعارف . من بين هؤلاء كان احد رجال الشرطة الخاصة التي يستخدمها دورهام لاختيار الرجال الصالحين للاستخدام . ورغم أن يعقوب لم يختبر صداقة هذا الشرطي ، الا أنه كان واثقاً من انه يستطيع تأمين عمل لبعض اصدقائه . وقد تم الاتفاق ، بعد طول تشاور ، ان يقوم يعقوب بالمحاولة من اجل جوناس وانتاناس

العجوز . اما جرجس فقد كان واثقاً من قدرته على ايجاد عمل لنفسه بدون مساعدة أحد .

وكما ذكرنا من قبل ، لم يكن مخطئاً في هـذا . فقد ذهب إلى مسلخ براون ولم يقف هناك أكثر من نصف ساعة حتى لاحظ أحد الرؤساء قامته الشامخة فوق الجميع فأشار له بيده . المحادثة التي تلت ذلك كانت مختصرة وباتجاه الهدف مباشرة :

« تتكلم الانكليزية ؟ » .

« كلا ، الليتوانية » (وكان جرجس قد درس هذه الكلمة بعناية) .

« عمل ؟ » .

« إي » (مع إحناءة رأس) .

« هل عملت هنا من قبل ؟ » .

« لاأفهم » .

(اشارات وحركات من يدي الرئيس ورأسه . هزات رأس قوية من قبل جرجس) .

« تنزع الامعاء ؟ »

« لاأفهم » (المزيد من هزات الرأس » .

« زارنوس . باغيكيز تس . تزللوتا» (مع حركات تقليدية)

« اي » .

« أترى الباب ؟ » (مشيراً بيده) .

« اي » .

« غداً ، الساعة السابعة . اتفهم ؟ ريتوج ، بريتزبييتس ، سبتبي ؟ ».

« ويكوى تاميستاي » (شكراً ياسيدي) . وانتهى كل شيء .
دار جرجس مبتعداً ، ثم ، باندفاعة مفاجئة ، طغى عليه تيقنه من النصر فاطلق صرخة ثم قفز وانطلق يعدو . لقد وجد عملاً ! وجد عملاً ! ومضى يقطع الطريق إلى المنزل وكأنه يطير بجناحين ثم اندفع داخل المنزل كالاعصار مما اثار غضب سكان المنزل الكثر الذين كانوا قد وصلوا لتوهم من أجل نوبة نومهم النهارية .

في غضون ذلك ، كان يعقوب قد ذهب لرؤية صديقه الشرطي وتلقى جواباً مشجعاً ، وبذلك كانت الجماعة سعيدة . لم يكن هناك مايفعلونه بقية ذلك اليوم ، فالحانوت تديره لوسيا ، لذا كان باستطاعة زوجها أن يمضي قدماً كي يري اصدقاءه معالم باكنجتاون وقد فعل يعقوب هذا بهيئة ابن الريف الذي يصحب رهطاً من الزوار جاؤوا لأرضه . لقد كان مقيماً قديم العهد شاهد بأم عينه هذه الأعاجيب كلها وهي تكبر شبراً شبراً وكان فخوراً كل الفخر بها . ربما كان اصحاب دور التعليب يملكون الأرض ، اما هو فقد كان يملك الطبيعة كلها ولم يكن ثمة احد يعترض على ذلك .

هبط يعقوب وصحبه الشارع المزدحم الذي يؤدي إلى الزرائب . كان الوقت مايزال باكراً وكل شيء في اعلى مدّله من النشاط . جدول دائم الجريان من المستخدمين كان يصب عبر البوابة .ففي هذه الساعة يأتي المستخدمون ذوو المراتب العالية ، الكتبة ، عمال الاختزال وما شابه . اما النساء فقد كانت هناك عربات كبيرة ذات حصانين تنتظر ، اتنطلق حين تمتلىء بهن وتعدو خيولها بأقصى سرعة . ومن بعيد كان يأتي إلى الاسماع ثانية خوار البقر ، صوت اشبه بهدير محيط بعيد . في هذه المرة تبعوه ، تدفعهم رغبة شديدة كتلك التي تدفع اطفالاً لرؤية سيرك — والمشهد ، بالحقيقة ، شديد الشبه به . بعدئذ عبروا خطوط السكة الحديدية ليجدوا على كلا جانبي الشارع حظائر ملأى بالماشية ، كانوا سيتوقفون لالقاء نظرة لولا ان يعقوب حثهم على الاسراع إلى حيث كان هنالك سلم ورواق مرتفع يمكنك ان ترى منه كل شيء . فوقفوا هناك جاحظي الأعين ، مقطوعي الانفاس دهشة وعجباً .

فهناك مايزيد على الميل المربع من الارض الخلاء التي حولت إلى زرائب ، أكثر من نصفها تشغله حظائر الماشية . وإلى الشمال والجنوب ، وعلى مدى العين ، يمتد بحر متلاطم من الحظائر التي امتلأت جميعاً بالبقر — عدد كبير إلى حد لايحلم احد بوجود مثله في الدنيا . بقر احمر ، اسود ، ابيض ، اصفر ، بقر فتي ، بقر هرم ، ثيران ضخمة ، عجول صغيرة رأت النور منذ ساعة . بقر حلوب هادىء ، ثيران

تكساسية طويلة القرون شرسة . وكأن صوتها يبدو وكأنه آت من حظائر العالم كلها ، أما بالنسبة لعددها ــفربما تحتاج النهار بطوله لعد الحظائر وحدها . وهنا وهناك كانت تمتد ممرات طويلة تقطعها على فواصل منتظمة تقريباً بوابات قال لهم يعقوب أن عددها خمسة وعشرون ألفاً . لقد قرأ مؤخراً مقالاً في صحيفة مليئة باحصائيات من هذا النوع ، وكان يبدو في ذروة الكبرياء وهو يكررها ويجعل ضيوفه يصرخون دهشة. جرجس نفسه أحس بشيء من هذا الكبرياء . ألم يجد عملاً لتوه ياترى ؟ ألم يصبح شريكاً في كل هذه النشاطات ؟ مسماراً في هذه الآلة الهائلة ؟

في كل مكان من الممرات كان هناك رجال يمتطون ظهور الخيول ، يعدون بها ، وقد لبسوا جزمات طويلة وحملوا في أيديهم سياطاً طويلة . كانوا مشغولين للغاية ، ينادي بعضهم بعضاً ، كما ينادون أولئك الذين يسوقون الماشية إليهم . كان منهم سائقو الماشية ومربوها أولئك الذين جاؤوا من ولايات بعيدة ، ومنهم السماسرة وتجار الكومسيون والشارون لكل دور التعليب الكبيرة . فهنا يقفون كي يتفحصوا زمرة من الماشية ، وهناك تنعقد مساومة مختصرة وعملية . وقد يومىء الشاري برأسه أو يوقع سوطه فيعني ذلك صفقة ، وهو قد يدون ذلك في دفتره الصغير جنباً إلى جنب مع مئات التدوينات الأخرى التي اودعها دفتره في ذلك الصباح . أشار يعقوب إلى المكان الذي تساق إليه الماشية كي

توزن على ميزان كبير يمكن أن يزن مائة ألف رطل انكليزي في المرة الواحدة ويسجل الوزن بصورة أتوماتيكية . كان الميزان قرب المدخل الشرقي الذي يقفون بجواره وعلى طول هذا الجانب الشرقي من الزرائب كانت تمتد خطوط السكة الحديدية التي كانت تسير عليها عربات القطارات محملة بالماشية . طوال الليل ، كان هذا العمل يجري ، والآن امتلأت الحظائر ، لكن ما إن يأتي الليل حتى تكون قد أفرغت ليعاودوا الكرة من جديد .

« وماذا سيحل بكل هذه المخلوقات ؟ » صرخت تيتا الزبييتا .

فأجاب يعقوب :

« هذه الليلة ستكون كلها قد ذبحت وقطعت . وهناك في الجانب الآخر من دور التعليب سكك حديدية أخرى وقطارات تنقلها بعيداً » .

طول السكك الحديدية في الزرائب لايقل عن مائتين وخمسين ميلاً ، تابع دليلهم القول ، تنقل يومياً حوالي عشرة آلاف رأس من البقر ومثلها من الخنازير ونصف هذا العدد من الغنم — أي مابين ثمانية وعشرة ملايين رأس من الحيوانات التي تحول إلى طعام للانسان كل عام . كان واحدهم يقف ويراقب . وشيئاً فشيئاً كان يتعرف إلى اتجاه المد ، أي اتجاه دور التعليب . فهناك كانت مجموعات من الماشية تساق إلى

المساقط وهي طرق بعرض خمسة عشر قدماً ترتفع عالياً فوق الحظائر . على هذه المساقط كان جدول الحيوانات يجري باستمرار . وقد كان أمراً غريباً تماماً أن تراقبها ، وهي تدفع بعضها بعضاً نحو مصيرها الأخير من غير أن تشك بذلك أبداً ــ انه نهر الموت ذاته . لكن أصدقاءنا لم يكونوا شعراء ، لذا لم يوح لهم المنظر بأية صور مجازية عن المصير البشري ، ولم يفكروا إلا بالفعالية العجيبة لهذا الترتيب . كانت المساقط التي تساق عليها الخنازير ترتفع عالياً أيضاً ــ إلى سطوح الأبنية البعيدة ذاتها.فشرح يعقوب أن الخنازير تصعد هذه المساقط بنفسها ، ومن ثم يدفعها ثقلها ذاته لتمر عبر كل العمليات اللازمة لتحويلها إلى لحم معلبات .

« لاشيء يضيع هنا » قال الدليل ثم ضحك وأضاف طرفة سره كثيراً أن يحسبها أصدقاؤه السذج من بنات أفكاره : « هنا يستفيدون من كل ما في الخنزير باستثناء صراخه » . كان أمام مبنى مكتب براون العام بقعة عشب صغيرة هي البقعة الخضراء الوحيدة في باكنجتاون ، كذلك فان هذه الطرفة المتعلقة بالخنزير السائرة بين كل الأدلاء هي الأثر الوحيد للهزل الذي يمكنك أن تجده هنا .

بعد أن أخذت الجماعة كفايتها من مشاهدة الحظائر عادت فصعدت الشارع إلى كتلة الأبنية الكبيرة التي تشغل مركز الزرائب . هذه الأبنية

المشيدة بالآجر والملطخة بطبقات لا حصر لها من دخان باكنتجاون :
كانت كلها قد طليت بلوحات دعائية يعرف الزائر منها على الفور أنه
وصل إلى موطن الكثير من عذابات حياته . فهنا تصنع تلك المنتجات
العجيبة التي تضايقه كثيراً — بالاعلانات التي تشوه المناظر الطبيعية
حين يسافر ، بالدعايات البارزة في الصحف والمجلات — وبالأغاني
الصغيرة السخيفة التي لم يكن باستطاعته اخراجها من ذهنه ، والصور
المبهرجة التي تفاجئه في كل ركن وزاوية من المدينة .

هنا كانت كل دور التعليب الشهيرة بدءاً من دار براون التي
تتضمن مختلف عمليات التعليب وأنواعه وانتهاء بدورهام وكل مالديه
من أنواع التعليب أيضاً .

وجدت الجماعة ، لدى دخولها أحد مباني دورهام ، عدداً من
الزوار الآخرين ينتظرون ، وماهي إلا بضع دقائق حتى جاء دليل
لمصاحبتهم في أرجاء المكان . انهم يحققون هدفاً كبيراً حين يسمحون
للغرباء برؤية منشآت التعليب ، ففي ذلك دعاية جيدة غير أن الصديق
يعقوب همس بشيء من الضغينة أن الزوار لايرون إلا ما يرغب أصحاب
دور التعليب بأن يروه .

صعدت الجماعة سلسلة طويلة من السلالم خارج المبنى إلى أن وصلت
سطح الدور الخامس أو السادس . هنا وقفت تشاهد المسقط ، بنهر
خنازيره ، وهي تكد صاعدة طريقها بصبر شديد . بعدئذ تقف في

مكان معين كي ترتاح فيه وتستبرد ، ثم تمضي عبر ممر آخر إلى قاعة لا رجعة منها للخنازير .

انها قاعة ضيقة طويلة يمتد على امتدادها رواق للزائرين . في صدرها عجلة حديدية كبيرة محيطها عشرون قدماً تقريباً وعلى طول حافتها حلقات ودوائر وهناك ، من كلا الجانبين ، حيز ضيق تدخله الخنازير لدى انتهاء رحلتها . وفي وسطها يقف زنجي ضخم الجثة قوي البنية عاري الذراعين والجذع . كان في تلك اللحظة يستريح .فالعجلة قد توقفت لانشغال الرجال بالتنظيف . لكن بعد دقيقة أو اثنتين بدأت تدور من جديد بطيئة بطيئة ، وعند ذاك قفز الرجال على كلا جانبيها كي يبدؤوا العمل . كانت لديهم سلاسل يثبتون واحدتها حول قائمة أقرب خنزير ويعلقون النهاية الأخرى باحدى حلقات العجلة التي ما إن تدور حتى يجد الخنزير نفسه وقد ارتفع فجأة عن الأرض كي يحمل بعيداً .

في تلك اللحظة انقضت على آذانهم صرخة شديدة الهول ، فأجفل الزوار مذعورين وشحبت وجوه النساء وتراجعن خائفات . اعقبت الصرخة صرخة أخرى أعلى وأكثر ايلاماً إذ ما ان يبدأ الخنزير تلك الرحلة ، حتى لايعود أبداً ، وعندما يصل أعلى العجلة يقذف بعيداً إلى حامل متحرك يعبر القاعة على مهل . في غضون ذلك يُقذف خنزير ثان ثم ثالث ورابع إلى أن يغدو على الحامل صف مزدوج منها ، وكل

منها معلق من قائمته يرفس كالمجنون ويطلق صراخاً حاداً ، صراخاً مخيفاً خطراً على طبلات الآذان ، حتى ليخشى أن يكون الصراخ أشد مما تتحمله القاعة — أي يخشى أن تنهار جدران القاعة أو يتشقق سقفها . كانت هنالك صرخات حادة عالية وواطئة وهمهمات وأصوات معانـــاة ، ثم جاءت لحظـــة سكون أعقبهـــا انفجار أصوات جديدة أعلى من سابقه ، انفجار أصوات بلغ الذروة التي تصم الآذان . وكان ذلك أكثر من قدرة بعض الزوار على تحمله — فراح الرجال ينظر بعضهم إلى بعض وهم يضحكون على نحو عصبي بينما وقفت النساء وقد أطبقن أيديهن باحكام واندفع الدم إلى وجوههن وطفرت الدموع من عيونهن .

أثناء ذلك ، ودون أن يهتموا بكل هذه الأشياء ، كان الرجال الموجودون على الأرض يتابعون عملهم ، لاتؤثر بهم صرخة خنزير أو دمعة زائر . انهم يعلقون الخنازير واحداً واحداً وبضربة سريعة يقطعون رقابها واحداً واحداً ، حتى يتشكل صف طويل من الخنازير ، ذات الصرخات الحادة والدم المنبثق منها جميعاً ، لتمضي بعيداً معاً إلى أن يختفي واحدها أخيراً ، ناثراً حوله الماء في راقود ضخم من الماء المغلي .

كان ذلك كله يجري بنوع من التصرف العملي يجعل المرء يرقبه كالمسحور . انها صناعة اللحم المعلب بالآلات ، صناعة اللحم المعلب بالرياضيات التطبيقية . لكن رغم ذلك ، ليس باستطاعة أكثر الناس عملية أن يمنعوا أنفسهم من التفكير بالخنازير ، تلك الخنازير البريئة

التي تأتي هنا بكثير من الثقة والتي تحمل احتجاجاتها الكثير من صفات احتجاج الانسان فهي لم تفعل شيئاً تستحق عليه ذلك . وما يزيد الطين بلة ، والعمل يجري هنا ، هو قذفها إلى الأعلى بهذه الطريقة الباردة الفظيعة بلا أي شكل من أشكال الاعتذار وبدون أثر من دمعة في العيون . من حين إلى آخر كان زائر مايبكي ، بالتأكيد ، إلا أن آلة الذبح هذه كانت تمضي في عملها سواء كان هناك زوار أم لم يكن . وكان ذلك أشبه بجريمة ترتكب في زنزانة لايراها أحد ولا يبالي بها أحد ، مخفية عن الأنظار والذاكرات .

لكن من المتعذرعلى المرء أن يقف هنا فترة طويلة ويراقب دون أن يصبح فلسفي النزعة ، دون أن يعالج بالرموز والاستعارات ، سماع الصرخة — الخنزيرية الموجهة إلى الكون . ترى أمن المسموح الاعتقاد أنه ليس هناك على الأرض أو فوقها أو في السماء مكان للخنازير تعوض فيه عن كل هذا العذاب ؟ فكل خنزير من هذه الخنازير مخلوق قائم بذاته . بعضها أبيض وبعضها أسود أو بني أو منقط . بعضها كبير السن والبعض فتي ، بعضها طويل نحيل والبعض ضخم كبير . لكن كلا منها له ذاته الخاصة ، ارادته الخاصة ، آماله ورغائبه . كل منها كان يحمل اعتداداً بالذات ، احساساً بالأهمية ، شعوراً بالأنفة . بثقة وايمان قوي كان واحدها يمضي في طريقه وقد أسلط سيف القدر فوق رأسه ليجد نفسه أخيراً وقد سار إلى حتفه بظلفه ، ليجد نفسه فجأة وقد عاق

من قائمته بغير رحمة وبلا وخز ضمير . كل احتجاجاته ، صرخاته تذهب هباء – لا أحد يسمعها ، لا أحد يهتم بها وكأن رغباته ، مشاعره ، لم يكن لها وجود قط . فالآلة تقطع عنقه وترقبه وهو يلفظ آخر أنفاسه . والآن ، هل على المرء أن يعتقد أنه ليس هنالك إله لهذه الحيوانات ، تهمه هذه الحيوانات ككائنات ويحمل صراخها وعذاباتها معنى من المعاني ؟ إله يأخذ هذه الحيوانات بين ذراعيه ويهدهدها ، يكافئها على المهمة التي أحسنت أداءها ويريها معنى تضحيتها ؟ ربما كان يدور في خلد جرجس ، صاحبنا ذي العقل المتواضع ، أثر من هذا كله وهو يدور على عقبيه ليمضي مع بقية الصحب ، فقد همهم « ياالهي — احمدك على أنني لست خنزيراً » .

كانت جثة الخنزير تخرج من الراقود بواسطة الآلة ، لتسقط بعدئذ إلى طابق ثانٍ ، ثم تعبر في طريقها آلة عجيبة ذات كاشطات عديدة تتكيف مع حجم وشكل الحيوان ليخرج من الطرف الآخر وقد أزيل كل ما عليه من هلب تقريباً .

بعدئذ تنظمها الآلات على شكل سلسلة وترسل على حامل متحرك آخر ، عابرة هذه المرة بين صفين من الرجال جلسوا على إفريز مرتفع ، وكل منهم يقوم بعمل معين حين تمر به الجثة . أحدهم يكشط الجانب الخارجي من القائمة ، آخر يكشط الجانب الداخلي منها . واحد بضربة سريعة يقطع العنق ، وثانٍ بضربتين يفصل الرأس الذي يسقط على

الأرض ويختفي ضمن حفرة ، وثالث يصنع شقاً طولياً في الجسد ورابع يفتح فتحة أوسع فيه بينما يقطع خامس بمنشار في يده عظم الصدر وسادس يحل أربطة الأحشاء وسابع يسحبها خارجاً — لتنزلق هي الأخرى في حفرة في الأرض كذلك . وثمة رجال يكشطون كل جانب من الجانبين ورجال يكشطون الظهر وآخرون ينظفون داخل الجثة ثم يفتشونها ويغسلونها ، وحين ينظر المرء إلى أسفل هذه القاعة يرى صفاً من الخنازير المتدلية ، يزحف على مهل بطول مائة ياردة ، وفي كل ياردة ثمة رجل يعمل وكأن شيطاناً يطارده . في نهاية مسيرة هذا الخنزير تكون كل بوصة من الجثة قد عولجت عدة مرات وعند ذاك تدرج إلى قاعة التبريد ، حيث تبقى أربعاً وعشرين ساعة ، وحيث يضل الغريب طريقه في غابة الخنازير المتجمدة .

لكن قبل أن يتم ادخال الجثة إلى هنا ، لابد أن تمر بمفتش حكومي يجلس في المدخل ويتحسس غدد الرقبة بحثاً عن جراثيم السل . هذا المفتش الحكومي لايسلك سلوك رجل يتعامل مع الموت ، ولا ينتابه أي خوف من أن الخنزير قد يتجاوزه قبل أن يقوم بفحصه واختباره . وإن كنت رجلاً اجتماعياً سيكون راغباً تماماً بالدخول في محادثة معك ، ليشرح لك الطبيعة القاتلة للتومينات (١) التي توجد في لحم الخنزير المسلول ، وبينما يحادثك لايسعك إلا أن تستنكر الوضع وأنت تلاحظ

(١) التومينات : مادة سامة تنشأ عن تعفن البروتينات الحيوانية أو النباتية .

أن عشرات الذبائح قد مرت به دون أن يمسها . هذا المفتش يضع شارة فضية مهيبة ويصنع حوله هالة من السلطة تزيد من هيبة المشهد ، أما مهمته ، إذا جاز التعبير وكان له مهمة ، فهي أن يضع خاتم الموافقة الرسمية على الأشياء التي تصنع في معمل دورهام .

تابع جرجس مشاهدة الصف مع بقية الزوار ، جاحظ العينين فاغر الفم تتملكه الحيرة والدهشة . كان في الماضي قد ذبح وأعد للبيع خنازير في غابة ليتوانيا لكنه لم يتوقع أبداً أن يعيش إلى أن يرى خنزيراً واحداً يذبح ويعد للتعليب من قبل مئات الرجال . كان ذلك أشبه بقصيدة رائعة تلقاها كلها ببراءة وحسن نية — حتى بالنسبة للوحات الواضحة التي تقضي بأن تكون نظافة العامين كاملة لاغبار عليها . شعر جرجس بالضيق حين ترجم يعقوب المتشائم هذه اللوحات مرفقة بتعليقات ساخرة ، عارضاً أن يأخذهم إلى الغرف السرية حيث تؤخذ اللحوم الفاسدة لكي تعالج طبياً . بعدئذ نزلت الجماعة إلى الطابق التالي ، حيث تعالج مختلف المواد المهدورة . ففي هذا الطابق تأتي الأحشاء لكي تفرك وتنظف وتغسل وتصبح نقانق ، وفيه يعمل الرجال والنساء وسط رائحة قاتلة جعلت الزوار يسرعون الخطا مقطوعي الأنفاس . وإلى قاعة أخرى تأتي كل النفايات لكي « تعالج » . وتعالج هنا تعني أن تغلى وتستخرج منها الشحوم لصنع الصابون والدهون ، أما في الأسفل فكانوا يخرجون الفضلات وهذه أيضاً منطقة لم يستطع الزوار المكوث فيها طويلاً .

وهناك أماكن أخرى كان الرجال مشغولين فيها بتقطيع الذبائح التي كانت تعبر إلى غرف التبريد فقبل كل شيء . هناك « الشطارون » وهم أكثر رجال المنشأة خبرة ، يكسبون أجراً يصل حتى الخمسين سنتاً في الساعة الواحدة ومهمتهم طوال اليوم شطر الذبيحة من منتصفها . بعدئذ هناك « رجال السواطير » وهم رجال ضخام الأجسام ذوو عضلات فولاذية لدى كل واحد منهم رجلان يعملان تحت اشرافه — يزلقان نصف الذبيحة أمامه على الطاولة ويمسكانها بينما يقطعها بساطوره ومن ثم يقلبان كل قطعة كي يقطعها مرة أخرى إن احتاج الأمر . فساطوره ذو نصلة بطول قدمين لايضرب به إلا ضربة واحدة وهو يضرب بطريقة محكمة كي لايثلم الساطور أو يصاب حده . إنه يضرب بما يلزم من القوة كي يقطع قطعاً تاماً لا أكثر ولا أقل . وهكذا عبر مختلف الحفر الفاتحة أفواهها في الأرضية كانت تنزلق القطع إلى الطابق الأسفل حيث توزع مختلف أنواع اللحوم . في كل غرفة نوع منها . وحين ينزل المرء إلى هذا الطابق يرى غرف التخليل حيث توضع اللحوم في رواقيد كبيرة ، وكذلك غرف التدخين الكبيرة وأبوابها الحديدية المانعة للهواء . والغرف الأخرى الخاصة بإعداد اللحم المملح — وهناك أقبية كاملة ملأى به حيث يرتفع اللحم أبراجاً عالية حتى السقف . وثمة غرف يضعون فيها اللحم في علب وبراميل ويلفون أنواعاً منها في أوراق مدهونة بالزيت ثم يختمونها ويضعون عليها بطاقات ويخيطونها . من أبواب هذه الغرف كان الرجال يخرجون بعربات محملة

إلى رصيف تقف عنده عربات شحن بانتظار أن تملأ . وحين يخرج المرء إلى هناك يدرك بشيء من الدهشة أنه وصل أخيراً إلى الطابق الأرضي في هذا البناء الضخم .

بعد ذاك عبرت الجماعة الشارع إلى حيث كانوا يقومون بذبح البقر — حيث يحولون في كل ساعة أربعمائة أو خمسمائة رأس من البقر إلى لحم معلب . وخلافاً للمكان الذي غادروه لتوهم ، كان كل العمل هنا يتم في طابق واحد . لكن بدلاً من أن يكون هناك صف واحد من الذبائح تتحرك باتجاه الرجال العاملين ، فقد كان هناك خمسة عشر أو عشرون صفاً يتحرك العمال من صف منها إلى صف آخر ، الأمر الذي أضفى على المشهد حيوية شديدة ، لوحة للقوة البشرية ما أروع مراقبتها ! ! كان ذلك كله يجري في قاعة كبيرة واحدة أشبه بمسرح سيرك ، فيها رواق خاص بالزوار يحيط بالمركز

وكان يمتد على طول أحد جوانب القاعة رواق ضيق لايتعدى بضعة أقدام . في هذا الرواق كان ثمة رجال يسوقون الأبقار بمهاميز تسبب لها صدمات كهربائية . وما إن تتجمع هنا ، حتى تكون هذه المخلوقات قد حبست ، كل منها في حظيرة منفصلة ، بواسطة أبواب تغلق فلا تترك لها فراغاً يمكنها أن تدور فيه وبينما تقف هناك وهي تخور وتحاول اقتحام الباب المغلق في وجهها ، ينحني من على سطح الحظيرة أحد « الطراقين » وقد تسلح بمطرقة ثقيلة ، منتظراً فرصة مناسبة كي

يسدد ضربته . وتردد القاعة أصداء الضربات التي تنزل على هذه المخلوقات بتتابع سريع كما تردد تخبط الثيران ورفسها . وفي اللحظة التي يسقط فيها الحيوان ينتقل « الطراق » إلى حيوان آخر ، في حين يرفع رجل ثان عتلة يرتفع بارتفاعها جانب الحظيرة فيزلق الحيوان ، وهو ما يزال يتخبط ويرفس ، خارجاً إلى « حوض الذبح » . هنا يضع أحد الرجال قيداً حول الساق ثم يضغط عتلة أخرى فينقذف الجسم عالياً في الهواء . كان هناك خمس عشرة أو عشرون حظيرة كهذه . ولا يستغرق الأمر أكثر من دقيقتين لطرح خمسة عشر أو عشرين رأس بقر أرضاً ودحرجتها خارجاً . بعدئذ تفتح الأبواب مرة أخرى لتدفع إلى الحظائر وجبة ثانية وهلم جراً ، حتى ترى أن جدولاً دائم الجريان من الذبائح يتدفق باستمرار من هذه الحظائر و يتعامل مع رجال ينتظرون عند حوض الذبح كي يوجهوه إلى الطريق المرسوم .

الأسلوب الذي كانوا يؤدون به مهامهم جميعاً شيء يراه الانسان ولا ينساه أبداً . فقد كانوا يعملون بحدة وعنف — وبايقاع لايقارن به شيء سوى مباراة في كرة القدم . إنه عمل بالغ التخصص ، لكل رجل فيه مهمة يؤديها تتألف بصورة عامة من ضربتين أو ثلاث ضربات محددة ، ثم يمر على صف من خمس عشرة أو عشرين ذبيحة ، يوجه لكل منها ضرباته المحددة هذه . فقبل كل شيء ، هناك « الجزار » الذي يدميها ، وإدماؤها هذا يعني ضربة واحدة سريعة ، سريعة إلى درجة لايمكنك رؤيتها — ما عدا لمعة السكين فقط ، وقبل أن ترى

ماجرى . يكون الرجل قد اندفع إلى الصف التالي ، لينسكب جدول أحمر قان على الأرض التي يغطيها الدم بارتفاع نصف بوصة رغم كل المحاولات التي يبذلها الرجال لجرفه إلى الفتحات الأرضية . إنه يجعل الأرض زلقة . لكن ما من أحد يمكنه تخمين هذا من مراقبة الرجال وهم يعملون .

بعدئذ تعلق الذبيحة كي ينزف دمها . بضع دقائق لا أكثر ، فليس هناك وقت يمكن اضاعته ، وهكذا تجد عدة ذبائح معلقة في كل صف ، وذبيحة جاهزة دائماً يدعونها تنزل إلى الأرض ثم يأتي « قطاع الرؤوس » ومهمته فصل الرأس عن الجسد بضربتين أو ثلاث ضربات سريعة . بعدئذ يأتي « رجل الأرضية » الذي يصنع الشق الأول في الجلد ، بعده يأتي سالخ آخر ليكمل الشق حتى منتصف الذبيحة ، ثم تمر على نصف من السالخين الذين يكملون عملية السلخ بضربات سريعة متتالية . بعد انتهاء العملية هذه تعلق الذبيحة في الأعلى ، وبينما يفحص أحد الرجال الجلد بعصاه كي يتأكد من سلامته يدرجه آخر ويلقيه إلى احدى الحفر التي لابد منها في الأرضية ، بينما تتابع الذبيحة مسيرتها ، لتجد في انتظارها رجالاً يقطعونها وآخرين يشطرونها ، رجالاً يخرجون احشاءها وآخرين ينظفون داخلها . وهناك البعض يحملون خراطيم تطلق عليها مياهاً مغلاة مضغوطة وآخرون يزيلون مقادمها ويضعون اللمسات الأخيرة عليها . في النهاية ، وكما هي الحال بالنسبة للخنازير ، تدفع الذبيحة التي انتهت معالجتها إلى غرفة التبريد لتعلق المدة المحددة لها .

مضى الدليل بالزوار إلى هناك كي يريهم الذبائح وقد علقت جميعها على شكل صفوف حسنة الترتيب ووضعت عليها بطاقات المفتشين الحكوميين على نحو واضح – بينما دُمغ بعضها ، ذاك الذي ذبح بعملية خاصة ، بدمغة تميزه عن الذبائح الأخرى وتثبت أنه صالح للبيع للأرثوذكس اليهود . بعد ذلك ، مضى الزوار إلى أجزاء المبنى الأخرى كي يروا ما حل بكل جزء من مواد الفضلات التي كانت تختفي عبر فتحات الأرضية ثم إلى غرف التخليل ، التمليح ،التعليب، التبريد حيث يتم اختيار اللحم لتحميله في العربات المبردة وتوجيهه لكي يؤكل في أركان الدنيا الأربعة . بعد ذاك خرجت الجماعة لتطوف مختلف الأبنية التي كانت تجري فيها الأعمال الملحقة بهذه الصناعة . وما من شيء يحتاجه أصحاب منشأة دورهام في عملهم هذا لا يصنعونه بأنفسهم . فهناك منشأة كبيرة للطاقة البخارية ومولد للكهرباء ، كما يوجد معمل للبراميل وورشة لاصلاح المراجل . وهناك أيضاً مبنى تضخ إليه الشحوم بالأنابيب لتحول إلى صابون ودهون ، كما يوجد مصنع لصنع علب لهذه الدهون ومصنع آخر لصنع صناديق الصابون . وهناك مبنى يجري فيه تنظيف هلب الخنازير وتجفيفه لتصنع منه مساند من الشعر وأشياء كهذه ، كذلك ثمة مبنى تجفف فيه الجلود وتدبغ وآخر تحول فيه الرؤوس والمقادم إلى غراء وثالث تصنع فيه أسمدة من العظام . لم تكن منشأة دورهام تضيع جزءاً صغيراً من أية مادة عضوية . فمن

قرون الماشية يصنعون أمشاطاً ، أزراراً ، دبابيس شعر . عاجاً تقليدياً ، ومن عظم الساق والعظام الكبيرة الأخرى يصنعون مقابض للسكاكين وفراشي الأسنان وجوزات للغلايين ، ومن الأظلاف يقطعون دبابيس شعر وأزراراً ثم يحولون البقية إلى غراء . ومن أشياء كالمقادم والمفاصل وقصاصات الجلود والأوتار ، تأتي منتجات غريبة ومتباينة كالجلاتين ، غراء السمك ، الفوسفور ، سماد العظام ، صباغ الأحذية وزيت العظام . بل لديهم أعمال خاصة بقص شعر ذيول البقر « ونزاعة صوف » لمعالجة جلود الأغنام كما يصنعون خميرة الهضم (الببسين) من معد الخنازير والزلال من الدم وأوتار الكمان من الأحشاء الكريهة الرائحة . وحين لايعرفون ما يفعلون بالشيء فانهم يضعونه في خزان أولاً حيث يستخرجون منه كل مافيه من دهن وشحم ومن ثم يحولونه إلى سماد . كل هذه الصناعات كانت قد جمعت في أبنية قريبة ، تتصل من خلال أروقة وسكك حديدية بالمبنى الرئيسي . وتقول التقديرات أنهم عالجوا حوالي ربع بليون رأس مذ انشئت هذه المؤسسة على يد دورهام الأكبر . أي قبل جيل وأكثر . وإذا ما أضفت لها المنشآت الكبيره الأخرى – وهي الآن جميعاً منشأة واحدة بالحقيقة– فانها تغدو ، كما أخبرهم يعقوب بذلك ، أكبر تجمع لليد العاملة ورأس المال في مكان واحد سبق أن وجد على ظهر الأرض . فهناك حوالي ثلاثين ألف عامل يعيلون اعالة مباشرة مائتين وخمسين ألف نسمة في المناطق المحيطة ، واعالة غير مباشرة حوالي نصف مليون . أما منتجاتها

فانها تصل إلى كل بلد من بلدان العالم المتحضر وتوفر الغذاء لما يزيد على ثلاثين مليون نسمة .

اصغى أصحابنا لهذه المعلومات كلها فاغري الأفواه — فقد بدا لهم أن من المستحيل التصديق بأن أشياء مذهلة كهذه يمكن أن تكون من تصميم انسان فان . وهذا هو السبب الذي جعل جرجس يفكر بأن الكلام عن هذا المكان وبالطريقة التي كان يتكلم بها يعقوب ، طريقة التشكيك ، نوع من التجديف والكفر فقد كان المكان كبيراً هائلاً كالكون — لذا لايمكن أن تكون طرق وقوانين عمله ، شأنها شأن طرق وقوانين الكون ، موضع تساؤل أو فهم . كل ما يمكن أن يفعله الانسان العادي ، كما خيل لجرجس ، هو أن ينظر إلى شيء كهذا كما هو تماماً وأن يفعل ما يقال له أن يفعل . فأن يعطى موضع فيه وأن يسمح له بنصيب من نشاطاته الرائعة انما هي نعمة عليه أن يكون ممتناً لها كل الامتنان ، كما يمتن الانسان ويشكر الله على شروق الشمس والمطر . بل لقد كان جرجس مسروراً على أنه لم ير المكان قبل أن يحقق انتصاره ، فقد شعر أن حجمه كان سيبهره . لكنهم الآن كانوا قد تبنوه — الآن بات جزءاً من هذا كله ! كان جرجس يشعر بأن هذه المؤسسة الضخمة كلها قد بسطت عليه رعايتها وأنها غدت مسؤولة عن خيره ومصلحته . بريئاً جداً كان جرجس وجاهلاً بطبيعة العمل إلى حد لم يدرك معه أنه كان قد أصبح مستخدماً لدى منشأة براون وأن من المفروض في نظر العالم كله أن براون ودورهام خصمان متنافسان حتى الموت — بل

المطلوب أن يكونا خصمين متنافسين حتى الموت بحكم قانون البلاد نفسه الذي يأمر بأن يحاول واحدهما تحطيم الآخر تحت طائلة المعاقبة بالغرامةوالسجن ! .

من غير ابطاء قدم جرجس نفسه في السابعة من صباح اليوم التالي إلى رئيس العمال. جاءإلى الباب الذي كان قد دله عليهوهناك انتظرحوالي ساعتين . كان رئيس العمـــال قد طلب منه ان يدخل لكنه لم يقل دـــذا ، وحين لم يحضر جرجس إلى مكان العمل خرج كي يستأجر رجلاً آخر وهناك رآه . فرماه بقدر لابأس به من اللعنات لكن نظراً لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما قال فان جرجس لم يعترض ، بل لحق بالرئيس الذي بين له أين يضع بزة خروجه ثم انتظره ريثما ارتدى ملابس العمل التي كان قد اشتراها من محل للثياب المستعملة ، بعدئذ قاده إلى « أحواض الذبح » . العمل الذي كان على جرجس ان يعمله هنا بسيط جداً ، لم يستغرق منه تعلمه سوى بضع دقائق . فقد زود بمكنسة خشنة كتلك التي يستخدمها كناسو الشوارع ، على أن تكون مهمته اقتفاء اثر الرجل الذي ينتزع الاحشاء من الذبائح ثم جرفها إلى مكان خاص ، كان مغلقاً حينذاك ، بحيث لاينزلق أحد عليها . حين دخل جرجس كانت بقرة الصباح الأولى قد ظهرت لتوها ، وهكذا لم يتح له وقت للنظر حوله أو التكلم مع أحد ، بل غرق مباشرة في العمل . كان يوماً شديد الحرارة من أيام تموز ، والمكان يفيض بالدم الحار المتصاعد منه البخار — والذي يخوض المرء فيه . كذلك كانت

الرائحة لاتقاوم تقريباً ، الا انها لم تكن شيئاً يذكر بالنسبة لجرجس . فقد كانت روحه ترقص فرحاً — لقد استلم العمل اخيراً ! ! لقد استلم العمل وسيكسب مالاً . وطوال النهار ظل يتصور شتى التصورات لنفسه. في آخر النهار دفعوا له المبلغ الخيالي ، سبعة عشر سنتاً لكل ساعة وبما انه كان يوماً مضغوطاً فقد عمل حتى السابعة مساء تقريباً ثم مضى إلى المنزل ليخبر جماعته بأنه كسب أكثر من دولار ونصف في يوم واحد . في المنزل ايضاً كان هناك المزيد من الاخبار الطيبة ، كثير من الاخبار الطيبة إلى درجة حدث معها نوع من الاحتفال في غرفة نوم انييل التي تحولت إلى صالة احتفالات. فقد ذهب جوناس لمقابلة الشرطي الخاص الذي قدمه له تزيد فيلاس ، وهناك اخذه هذا وعرضه على عدة رؤساء عمال . وكانت النتيجة ان وعده أحدهم بعمل في بداية الاسبوع القادم . كذلك كانت هناك ماريا بيرجنسكاس التي نطلقت ، وقد اشعلتها الغيرة من نجاح جرجس ، لتبحث عن عمل بنفسها . لم يكن لدى ماريا ما تأخذه معها سوى زنديها المفتولين ،وكلمة « عمل » التي تعلمتها باتقان . بهذه الاشياء طافت في باكنجتاون طوال النهار ، والجة كل باب بدت عليه اية علامة من علامات النشاط . من بعض هذه الأبواب وجدت ماريا نفسها تطرد مع سيل من اللعنات ، لكن ماريا لم تكن تخشى رجلاً أوشيطاناً . بل كانت تسأل كل من تراه — زائراً كان ام غريباً ، أم طالب عمل مثلها بل سألت مرة أو مرتين شخصيات رفيعة في مكاتب عمل ، راحوا يحدقون اليها كما

لو أنها معتوهة . لكنها في النهاية جنت ثمار بحثها . ففي احدى المنشآت الصغيرة ، وقعت على غرفة كان يجلس فيها إلى طاولات طويلة عشرات النساء والفتيات ممن يحضرن لحم البقر المدخن في علب ، وبعد ان طافت من غرفة إلى غرفة ، وصلت ماريا اخيراً إلى المكان الذي تطلى فيه العلب المختومة وتوضع عليها البطاقات . هنا كان لها من حسن الحظ ماجعلها تقابل « المشرفة » . لم تفهم ماريا حينذاك ، كما قدر لها فيما بعد أن تفهم ، ماالذي جذب « المشرفة » اليها ، هي الفتاة ذات الوجه المفعم بطيبة لاحدود لها ، والعضلات التي تشبه عضلات حصان جر ، لكن المشرفة طلبت اليها أن تأتي في اليوم التالي قائلة انها قد تعطيها فرصة لتعلم مهنة طلي العلب . وبما أن طلي العلب ، حين يتقنه المرء ، يصبح عملاً بالقطعة ، قد يصل اجر العامل فيه إلى الدولارين في اليوم فقد اسرعت ماريا إلى المنزل لتفاجىء العائلة بصرخة كصرخة الهنود الحمر ، ثم راحت تنط في الغرفة وتثب إلى درجة اخافت فيها الطفل وجعلته يصاب بما يشبه التشنج .

كان من الصعب ان يأملوا بحظ افضل من هذا ، اذ لم يكن قد ظل سوى شخص واحد يبحث عن عمل . فقد عزم جرجس على ابقاء تيتا الزبيبتا لادارة شؤون المنزل تساعدها اونا التي لم يكن يرغب في تشغيلها — فهو ليس من ذلك الصنف من الرجال كما قال ، وهي ليست من ذلك الصنف من النساء — ولسوف يكون امراً غريباً ان يعجز رجل مثله عن اعالة الأسرة ، تساعده ماريا وجوناس . لم يكن

جرجس قد سمع بأن الناس يبعثون بأطفالهم إلى العمل – ففي امريكا مدارس للأطفال لايذهبون اليها عبثاً ، كما سمع . واذا كان الكاهن يعترض على هذه المدارس فهذا امر لم يسمع به ، الا أنه كان قد عزم في الوقت الحاضر على اتاحة الفرصة لاطفال تيتا الزبيبتا لأن يذهبوا إلى المدرسة ، شأنهم شأن كل الأطفال الآخرين . كان اكبرهم ، ستانيسلوفاس الصغير ، لايتعدى الثالثة عشرة ضئيل الحجم بالنسبة لسنه هذه . ورغم أن ابن تزيد فيلاس لم يكن يتعدى الثانية عشرة ورغم انه كان يعمل في منشأة جونس منذ أكثر من عام ، فقد رأى جرجس أن على ستانيسلوفاس أن يتعلم الانكليزية وأن يكبر كي يكون رجلاً ذا مهارة ما .

وهكذا ، لم يكن هناك الا ديد انتاناس الذي كان جرجس يريده أن يرتاح أيضاً ، لكنه اضطر للاعتراف بأن هذا غير ممكن ، فضلاً عن أن العجوز لم يكن ليسمح له بالتكلم عن ذلك – فكل مايشغل باله هو التأكيد بأنه مفعم حيوية ونشاطاً شأنه شأن اي فتى . لقد جاء إلى امريكا بآمال لاتقل عن آمال اي منهم ، والآن هاهو ذا يغدو المشكلة الرئيسية التي تقض مضجع ابنه . فكل من تكلم معه جرجس بشأن ابيه أكد له ان من العبث البحث عن عمل لرجل هرم في باكنجتاون . لقد أخبره تزيد فيلاس أن ارباب العمل هنا لايحتفظون حتى بمن يكبرون في السن من عمالهم – فكيف تراهم يأخذون مسنين جداً ؟ وهذه ليست قاعدة هنا وحسب ، بل انها قاعدة معمول بها في كل مكان من

امريكا حسب معرفته . لكن لكي يرضي جرجس ، سأل الشرطي الذي اجاب بأن من الخير لهم الا يفكروا بالامر بتاتاً . غير انهم لم ينقلوا هذا الخبر لانتوتي العجوز الذي قضى بعد ذلك يومين كاملين وهو يطوف من مسلخ إلى آخر ، كي يعود إلى المنزل ويسمع اخبار انتصارات الآخرين ، ثم يبتسم بشجاعة ويقول أن دوره سيحل في يوم آخر .

كانوا يشعرون بأن حظهم الطيب اعطاهم الحق في التفكير بمنزل . فراحوا ، وهم يجلسون على عتبة البيت في ذلك المساء الصيفي ، يتشاورون بالأمر ، بعد أن انتهز جرجس المناسبة لطرح موضوع خطير . ذلك أنه ، وهو يعبر الشارع إلى مكان عماه في ذلك الصباح ، كان قد رأى غلامين يلصقان اعلانات وهما ينتقلان من منزل إلى منزل . وحين رأى أن في الاعلان صوراً طلب جرجس واحداً لنفسه ثم درجه ودسه داخل قميصه . وعند الظهيرة قرأه له زميل من زملائه اتيحت له فرصة التحدث معه ، وأخبره شيئاً عما به ، فكانت النتيجة أن راودته فكرة جهنمية .

اخرج جرجس الاعلان الذي كان عملاً من اعمال الفن تماماً ، طوله قدمان تقريباً ، مطبوع على ورق كأوراق التقاويم . مجموعة من الالوان زاهية إلى درجة تتألق في ضوء القمر ، وفي وسط الاعلان كان ثمة منزل مطلي طلاء لماعاً جديداً يبهر النظر . سقفه مطلي باللون الارجواني وموشى باللون الذهبي . أما المنزل نفسه فمطلي باللون الفضي ، والابواب

والنوافذ باللون الأحمر . كان المنزل عبارة عن بناء من طابقين . نه مدخل امامي مسقوف وزخرفة لولبية غريبة جداً على الاطراف ، وكان كاملاً في كل تفاصيله الدقيقة ، حتى قبضة بابه ، كما كانت هنالك ارجوحة في المدخل المسقوف وستائر مخرمة بيضاء على النوافذ . في الداخل وفي زاوية من الزوايا ، كانت هناك صورة زوج وزوجة في عناق حميم ، وفي الزاوية المقابلة كان هناك مهد طفل صغير تستره ستائر رقيقة خفيفة كالزغب ، وقد رسم عليها ملاك باسم يطير بجناحين ملونين بلون الفضة . وخشية ان يضيع معنى هذا كله ، فقد كانت هناك بطاقة كتب عليها بالبولونية والليتوانية والالمانية « دوم — نامي. هايم » « لماذا تدفع ايجاراً ؟»كانت النشرة اللغوية تتساءل « لماذا لايكون البيت ملكك ؟ هل تعلم أن بامكانك ان تشتري منزلاً بأقل مما تدفع من ايجار ؟ لقد شيدنا آلاف المنازل التي تسكنها الآن آلاف العائلات السعيدة » — وهكذا تابعت النشرة بكل فصاحة وصفها لقيمة الحياة الزوجية في منزل لاتدفع ايجاره . بل لقد اقتبست عبارة « الوطن » ، «الوطن العذب » وتجرأت على ترجمتها إلى البولونية — رغم انها لسبب من الاسباب حذفتها من النص الليتواني . فربما وجد المترجم ان من الصعوبة بمكان كبير أن يكون عاطفياً في لغة يعرف فيها النشيج باسم « غوكجيجيموس » والابتسام باسم « فوزيتز يبزوجيموس » .

حدقت العائلة طويلاً إلى الوثيقة بينما كانت اونا توضح محتوياتها . كان واضحاً أن هذا المنزل يحتوي على أربع غرف وقبو وأن بالامكان

شراه مقابل الف وخمسمائة دولار مع قطعة الأرض وكل شيء ،
من هذا المبلغ ، كان ينبغي دفع ثلاثمائة دولار فقط أما البقية فتدفع
بمعدل اثني عشر دولاراً شهرياً . بالواقع ، كانت هذه المبالغ مخيفة ،
لكنهم كانوا الآن في امريكا حيث يتكلم الناس عن مبالغ كهذه بلا
وجل أو خوف . وكانوا قد علموا ان عليهم أن يدفعوا تسعة دولارات
اجرة شهرية للشقة ، أو انهم لن يدفعوا اقل من ذلك الا اذا كانت
العائلة المؤلفةمن اثني عشرشخصاًستعيش فيغرفة أو غرفتين كما هو شأنها
في الوقت الحاضر . وبالطبع ، حين يدفعون ايجاراً سيظلون يدفعونه
إلى الأبد ولن يخرجوا بشروى نقير ، في حين انهم اذا استطاعوا مواجهة
المصاريف الاضافية في البداية ، سيأتي وقت لايدفعون فيه اي ايجار
بقية العمر ، وراحوا يوازنون المسألة . لم يكن قد بقي الا مبلغ ضئيل
من المال لدى تيتا الزبييتا ، وأقل منه لدى جرجس . وكان لدى ماريا
حوالي خمسين دولاراً مخبأة في مكان ما من جواربها ، أما الجد انتوني
فقد بقي لديه بعض المال من ثمن مزرعته . لكن اذا اجتمعوا كلهم ،
سيكون لديهم مايكفي لتسديد القسط الأول ، واذا ماوجد كل منهم
عملاً ، فانهم سيكونون مطمئنين للمستقبل ، وستثبت هذه الخطة
انها أفضل خطة حقاً . بالطبع لم تكن المسألة من النوع الذي يكتفي
بالقليل من الكلام بل كان عليهم أن يمحصوها كل التمحيص وأن يغوصوا
فيها حتى الأعماق . لكن إن كانوا سيقدمون على هذه المغامرة فليسرعوا ،
اذ بقدر مايكون تحركهم اسرع بقدر مايكون افضل ، ترى أليس عليهم

طيلة هذا الوقت ان يدفعوا ايجاراً رغم انهم يسكنون اسوأ سكنى ؟
كان جرجس قد اعتاد على الوسخ — فما من شيء يخيف رجلاً عمل في ورشة سكك حديدية ، حيث يستطيع المرء أن يجمع البراغيث عن ارضية غرفة النوم بحفنته ، لكن الأمر لاينطبق على اونا . اذ لابد أن يكون لهما منزل أفضل وبأقصى سرعة . قال جرجس ذلك بكل الثقة التي يملكها رجل كسب لتوه مائة وسبعة وخمسين سنتاً في يوم واحد . لقد كان جرجس عاجزاً عن ان يفهم ، والأجور على هذا النحو ، السبب في أن كثيراً من الناس في هذه المنطقة يعيشون على النحو الذي يعيشون .

في اليوم التالي ، ذهبت ماريا لرؤية « شرفتها » فطلبت اليها هذه أن تداوم في اليوم الاول من الاسبوع وان تتعلم مهنة طلي العلب. عادت ماريا إلى النزل وهي تغني طوال الطريق لتصله في اللحظة التي كانت اونا وزوج ابيها تهمان بالخروج للسؤال عن المنزل . في ذلك المساء قدمت النسوة الثلاث تقريرهن الى الرجال : المنزل كما ظهر في النشرة تماماً ، أو هكذا قال الوكيل على اي حال . ومجموعة المنازل تقع نحو الجنوب على بعد ميل ونصف من الزرائب ، وهي صفقة رائعة كما أكد السمسار لهم — على نحو شخصي ومن أجل مصلحتهم فقط . كذلك شرح لهم ان باستطاعته ابرام الصفقة من اجلهم ، فليس له اية مصلحة شخصية . انه مجرد وكيل للشركة التي شيدت المنازل وهي

آخر منازل تشيدها ، لذا على من يود الاستفادة من هذه الخطة الرائعة : خطة اللاإيجار ، أن ينتهز الفرصة حالاً . بل الحقيقة أن هناك بعض الشك في أن يكون قد ظل منزل واحد لدى الشركة ، ذلك لأن الوكيل اخذ الكثير من الناس لرؤية هذه المنازل التي ربما تكون الشركة قد باعت آخرها . لكنه اضاف بشيء من التردد ، حين رأى تيتا الزبييتا تحزن حزناً واضحاً لهذا الخبر ، أنه مستعد اذا كان في نيتهم الشراء فعلاً لان يبعث رسالة هاتفية على حسابه ، ويحجز احد هذه المنازل لصالحهم . بذلك تم ابرام الصفقة اخيراً — وكان عليهم ان يذهبوا لرؤية المنزل صباح الأحد التالي .

كان اليوم هو الخميس ، وطوال ايام الاسبوع الباقية ،كانت ورشة الذبح في مؤسسة براون تعمل تحت ضغط شديد حتى كان بمستطاع جرجس ان يحصل على دولار وخمسة وسبعين سنتاً كل يوم ، اي بمعدل عشرة دولارات ونصف اسبوعياً أو خمسة واربعين دولاراً شهرياً ، ولم يكن جرجس قادراً على الايغال في الحساب رغم انه مبلغ بسيط جداً اما « أونا » فكانت أسرع من البرق في مثل هذه الأمور ، لذا سرعان ماحلت المسألة على النحو التالي : على كل من ماريا وجوناس ان يدفع ستة عشر دولاراً كل شهر مقابل نفقات الطعام .وقد أصر العجوز على الشيء ذاته حالما يجد عملاً — وهو أمر قد يحصل في اي يوم منذ اللحظة . بذلك يغدو المبلغ ثلاثة وتسعين دولاراً . كذلك على ماريا وجوناس ان يقتسما بينهما الحصة الثالثة من البيت ، وبذلك يبقى

مبلغ ثمانية دولارات شهرياً يتعين على جرجس ان يدفعها كجزء من القسط . وهكذا يظل لديهم مبلغ خمسة وثمانين دولاراً كل شهر أو لنفرض ان ديد انتاناس لم يجد عملاً في الوقت الراهن ، فسيكون مجموع مايكسبونه شهرياً هو سبعون دولاراً — وينبغي بالتأكيد أن يكون كافياً لاعالة عائلة من اثني عشر فرداً .

قبل ساعة من الوقت المحدد صباح يوم الاحد انطلقت الجماعة بكاملها . كان العنوان لديها وقد سجلته النسوة على قطعة من الورق راحوا يعرضونها على عابري السبيل من حين إلى حين . كانت الرحلة بطول ميل ونصف لكنهم ساروها ، وبعد حوالي نصف ساعة من الانتظار ظهر الوكيل وهو شخصية ناعمة منمقة شديدة الاناقة ، يتكلم اللغة بكل طلاقة الأمر الذي ا كسبه فائدة كبيرة في التعامل معهم . لقد رافقهم إلى المنزل الذي كان واحداً من صف طويل من مسا كن خشبية نموذجية في الجوار كله . حيث فن العمارة ترف يستغنى عنه . هبط قلب اونا ، فالمنزل لم يكن كما بدا في الصورة ، ألوانه مختلفة من جهة ومن جهة أخرى لم يكن بالحجم الذي بدا عليه في الصورة . مع ذلك كان طلاؤه مايزال جديداً ، و كان يسر العين إلى حد ما . انه جديد تماماً ، قال لهم الوكيل الذي كان يتحدث بلا انقطاع إلى حد أربكهم كل الإرباك ولم يتح لهم الوقت لطرح المزيد من الاسئلة . كان هناك الكثير من الأمور التي عزموا على الاستفسار عنها لكن ما ان

حان الوقت حتّى وجدوا انفسهم وقد نسوها أو انهم لايتجرؤون على طرحها . المنازل الاخرى في الصف لم تبد جديدة ، كما كان بعضها مسكوناً على مايبدو ، وحين غامروا وألحوا إلى هذا الامر ، أجاب الوكيل بأن الشارين ينتقلون إلى المنازل بسرعة . فكفوا عن السؤال ؛ ذلك لان الحاحهم على هذه النقطة سيجعلهم يبدون و كأنهم يشكون فيما يقول ، هم اللذين لم يسبق لواحدهم في حياته كلها أن تكلم مع شخص من مرتبة « الجنتلمان » الا باذعان وخنوع .

كان المنزل يتكون من قبو يقع تحت مستوى الشارع بقدمين ، وطابق واحد فوقه بحوالي ستة اقدام ، يمكنك الوصول اليه عبر مجموعة درجات . اضافة لذلك ، كان هناك علية ، صنعتها قمة السقف ولها نافذة صغيرة في كل طرفيها . أما الشارع الواقع أمام المنزل فقد كان غير معبد وغير منار والمنظر الذي يمكنك رؤيته يتألف من بضعة منازل متشابهة تماماً ، مبعثرة هنا وهناك على قطع من الارض نمت فيها أعشاب كالحة حقيرة . في الداخل ، كان المنزل يحوي اربع غرف مكسوة بالجص الأبيض ، أما القبو فلم يكن الا هيكلاً ، جدرانه غير مكسوة بالجص وأرضه غير مبلطة . شرح الوكيل ان المنازل تبنى بهذه الطريقة نظراً لان الشارين بصورة عامة يفضلون اكمال كسوة المنزل بما يناسب اذواقهم . كذلك كانت العلية غير مكتملة — و كان افراد العائلة قد تصوروا انهم في حال الطوارىء يستطيعون تأجير

هذه العلية لكنهم وجدوها وليس فيها ارضية ، بل لاشيء سوى عوارض تدعيم ، تحتها الشرائح الخشبية وجص السقف السفلي لكن كل هذا لم يخفف من حماستهم بالقدر الذي نتوقع ، وذلك لذرابة لسان الوكيل وشدة دورانه ولفه . فالمنزل بالنسبة له ، لانهاية لحسناته ، تلك التي راح يعددها وهو يدور بهم دون أن يصمت لحظة واحدة ، عارضاً عليهم كل شيء ، حتى اقفال الأبواب ومقابض النوافذ وكيفية عملها . لقد أراهم المجلى في المطبخ مع الماء الجاري والحنفية ، الأمر الذي لم تكن اشد الاحلام تطرفاً لدى تيتا الزبيبيتا تحلم بامتلاكه . وبعد اكتشاف كهذا بات نوعاً من الجحود ان يجدوا في المنزل اية نقيصة ، لذا حاولوا ان يغمضوا عيونهم عن العيوب الاخرى .

لكنهم مع ذلك كانوا مايزالون اناساً فلاحين يتمسكون بنقودهم غريزياً ، وكان من العبث كل العبث أن يلمح لهم الوكيل عن مسألة السرعة — « سيرون ، سيرون » هكذا قالوا له ، فليس بوسعهم ان يقرروا قبل برهة من الزمن ، وهكذا عادوا إلى المنزل ليمضوا النهار بطوله والمساء ايضاً وهم يتجادلون ويتناقشون . كان امراً شديد العذاب بالنسبة لهم أن يضطروا للبت بمسألة كهذه دون تحقيق اجماع في الرأي . فهناك حجج كثيرة من كل جانب وقد يكون الواحد منهم عنيداًلكن ما ان يقنعه البقية حتى يتضح ان حججه جعلت واحداً آخر يتردد . في احدى لحظات المساء ، توصلوا جميعاً إلى نوع من الاتفاق وبدا المنزل

وكأنه ابتيع وانتهى الأمر ، ثم دخل تزيد فيلاس فقلب كل شيء رأساً على عقب . لم يكن تزيد فيلاس يميل لامتلاك المنازل . وقد حكى لهم قصصاً فظيعة عن اناس اتلفتهم حتى الموت لعبة « شراء البيوت » هذه . فهو واثق تقريباً من انهم سيدخلون مكاناً محكماً يخسرون كل مالهم فيه ، اذ ليس هنالك نهاية للمصاريف التي يعجز المرء عن التكهن بها ، وقد لايكون المنزل صالحاً من اعلاه الى اسفله — وأنى لرجل فقير أن يعرف ؟ ثم ، بامكانهم أيضاً أن يحتالوا عليك لدى كتابة العقد — وكيف سيتسنى لرجل مسكين ان يفهم شيئاً من العقد ؟ فتجارة المنازل هنا ليست اكثر من اسلوب للسرقة ، وليس هناك من سلامة للمرء الا بالابتعاد عن هذه الامور . وتدفع ايجاراً ؟ سأل جرجس ، آه ، نعم بالتأكيد أجاب الآخر ؛ وتلك سرقة أيضاً بل الأمر كله سرقة بالنسبة للفقير . وبعد نصف ساعة من محادثة مثبطة للعزيمة كهـــذه ، قرروا أن تزيد فيلاس أنقذهم وهم على شفا الهاوية. لكن بعدئذ رحل تزيد فيلاس ، فذكرهم جوناس وهو رجل ضئيل الجسم حاد المزاج ان مهنة بيع المعلبات فاشلة ، طبقاً لما يقول صاحبها نفسه ، وأن هذا الفشل هو الذي يفسر نظرة تزيد فيلاس التشاؤمية ، الأمر الذي فتح الموضوع من جديد !

كان الجانب الأساسي في المسألة هو أنهم لا يستطيعون البقاء حيث هم — بل عليهم أن يرحلوا إلى مكان ما . وإذا تخلوا عن خطة الشراء

وقرروا الاستئجار ، فان فكرة دفع ايجار قدره تسعة دولارات شهرياً إلى الأبد ، بدت لهم بالغة الصعوبة . وهكذا ظلّوا طوال النهار والليل ولمدة أسبوع يناقشون المشكلة ، وفي النهاية تحمل جرجس المسؤولية . كان الأخ جوناس قد استلم عمله وهو دفع عربة في منشأة دورهام . كما كانت ورشة الذبح في منشأة براون ما تزال تعمل من الصباح الباكر حتّى المساء ، مما زاد ثقة جرجس بنفسه ساعة بعد ساعة حتّى غدا أكثر اطمئناناً لموقعه كسيد . فقال لنفسه ، هذا هو الشيء الذي ينبغي على رجل العائلة أن يبت به ويتحمل مسؤولية تنفيذه . ربما يفشل الآخرون في مثل هذا الأمر ، أما هو ، جرجس فانه رجل ناجح – ولسوف يريهم كيف يفعل ذلك . إنه سيعمل طوال النهار بل وطوال الليل أيضاً إذا احتاج الأمر ، ولن يرتاح حتّى يسدد ثمن المنزل وحتّى يغدو ملكاً خالصاً لهم . هكذا أخبرهم وهكذا اتخذ القرار أخيراً .

كان الحديث قد دار خلال المناقشات الطويلة هذه عن ضرورة رؤية منازل أخرى قبل القيام بالشراء ، لكنهم لم يكونوا يعرفون أين تقع مثل هذه المنازل ولا طريقة ايجادها . كان المنزل الذي رأوه قد سيطر على أفكارهم ، فما أن يفكروا بمنزل حتّى يكون المنزل الذي رأوه هو ما يفكرون به وهكذا ذهبوا إلى الوكيل وأخبروه بأنهم على أهبة الاستعداد لاتمام الصفقة . كانوا يعلمون ، كفكرة مجردة ، أنه ينبغي اعتبار كل الناس كذابين في مسائل العمل ، لكنهم لم يستطيعوا إلا التأثر بما سمعوه من الوكيل الفصيح حتّى باتوا في النهاية على اقتناع

نام بأن أي تأخير في شراء المنزل سيعرضهم لخطر فقدانه . وتنفسو الصعداء حين قال لهم الوكيل أن الوقت لم يفت بعد .

كان عليهم أن يأتوا في الغد ، وسيكون قد أعد لهم كل الأوراق ، والأوراق هذه مسألة يدرك جرجس أن عليهم مقاربتها بحذر تام ، لكنه لم يكن يستطيع الذهاب بنفسه — فالجميع يقولون أن من المستحيل الحصول على اجازة بل سيفقد عمله إن طلب اجازة . وهكذا لم يكن لديهم خيار سوى أن يعهدوا بالعملية كلها للنساء والصديق تزيد فيلاس الذي وعد أن يذهب معهن . أمضى جرجس الأمسية كلها وهو يحاول إفهامهم مقدار أهمية هذه المناسبة —وفي النهاية ، خرجت من المخابىء الكثيرة التي اعتمدوها في ملابسهم وأمتعتهم ، لفائف الأوراق المالية الغالية لتجمع كلها معاً في محفظة صغيرة وتخاط بسرعة في بطانة ثوب تيتا الزبيبيتا .

في الصباح الباكر انطلقوا . كان جرجس قد زودهم بالكثير من التعليمات وحذرهم من كثير من المخاطر حتّى شحبت وجوه النساء من الخوف ، بل حتّى بائع المعلبات الواثق من نفسه ، الفخور بأنه رجل أعمال شعر بالقلق والانزعاج . عند الوكيل وجدوا الوثيقة جاهزة ، فدعاهم للجلوس وقراءتها على مهل ، وهذا ما تقدم تزيد فيلاس لفعله وهو عمل شاق ومؤلم ، كان الوكيل خلاله ينقر بأصابعه على الطاولة . وكانت الزبيبيتا شديدة الضيق إلى حد بدأ العرق معه يتصبب قطرات

على جبينها . ترى أليست هذه القراءة نوعاً من القول لهذا السيد ، وفي وجهه مباشرة ، انهم يشكون بشرفه ؟ رغم ذلك استمر تزيد فيلاس يقرأ ويقرأ . وعلى الفور ظهر له أن هناك سبباً جيداً لفعل ذلك ، فقد بدأ شك فظيع يبرز في ذهنه ، الأمر الذي جعل حاجبيه ينعقدان أكثر وأكثر وهو يقرأ . لم تكن هذه الورقة وثيقة بيع على الاطلاق ، حسبما رأى — بل كل بنودها تتعلق باستئجار المنزل ! وكان من الصعب أن يلفظ ، مع كل هذا الكلام القانوني الغريب ، كلمات لم يسبق أن سمعها قط ، لكن كان كل شيء واضحاً — « يتعهد الفريق الأول أن يستأجر من الفريق الثاني المذكور » ، ومن ثم « ايجار شهري قدره اثنا عشر دولاراً مدة ثماني سنوات وأربعة أشهر ! ! » عند ذاك خلع تزيد فيلاس نظارتيه ونظر إلى الوكيل يسأله متلعثماً .

لكن الوكيل أجاب بمزيد من التهذيب ، شارحاً لهم أن تلك هي الصيغة المعتادة وأن الترتيب يجري دائماً على هذا المنوال ، أي أن المنزل يستأجر استئجاراً فقط ، واستمر في محاولاته لكي يريهم شيئاً ما في الفقرة التالية ، غير أن تزيد فيلاس لم يستطع تجاوز كلمة « ايجار » — وحين ترجمها لتيتا الزبيبتا ، تملكها الخوف أيضاً . إذن لن يكون المنزل ملكاً لهم قبل تسع سنوات تقريباً ! فبدأ الوكيل ، بصبر لا حدود له ، يشرح الأمر ثانية ، انما دون جدوى . فقد ثبت في ذهن الزبيبتا وبصورة راسخة لا تتزعزع آخر تحذير رصين لجرجس : « ان كان ثمة أي خطأ فلا تدفعوا له مالاً ، بل اخرجوا وائتوا بمحام » . كانت لحظة شديدة

العذاب ، لكنها جلست في كرسيها ويداها مطبقتان باحكام ، ثم قامت بمحاولة رهيبة ، وهي تزج بكل ما لديها من طاقة وشجاعة لتفصح أخيراً عما تريده .

ترجم يعقوب كلماتها . فتوقعت أن يطير عقل الوكيل ، إلا أنه : لدهشتها ، لم يحرك ساكناً أبداً ، بل عرض أن يذهب بنفسه ويحضر محامياً لها ، لكنها رفضت هذا الاقتراح . ساروا مسافة طويلة ، بهدف ايجاد رجل ليس شريكاً في المؤامرة.ولنتصور ما حل بهم من ذعر حين عادوا ، بعد نصف ساعة ، بمحام ٍ حيا الوكيل باسمه الأول .

شعروا بأن كل شيء قد ضاع ، فجلسوا أشبه بمساجين دعتهم المحكمة لسماع الحكم عليهم بالاعدام . لم يكن قد ظل في أيديهم مايفعلونه — لقد وقعوا في المصيدة ! قرأ المحامي الوثيقة عليهم ، وحين أكمل قراءتها أعلم تزيد فيلاس بأنها نظامية تماماً وأنها الوثيقة التي غالباً ما تستخدم في حالات البيع هذه . وهل تم الاتفاق على الثمن ؟ سأل العجوز — ثلاثمائة دولار مقدماً وقسط شهري مقداره اثنا عشر دولاراً حتى يصبح المبلغ الاجمالي المدفوع ألفاً وخمسمائة دولار ؟

أجل هذا صحيح . وهو مقابل بيع منزل كذا وكذا — المنزل وقطعة الأرض وكل شيء ؟ أجل — ثم أوضح له المحامي أين كان هذا كله مكتوباً . اذن كل شيء نظامي تماماً ليس هناك خدعة من أي نوع ؟ انهم ناس فقراء . وهذا المبلغ هو كل مايملكون في الدنيا . وإذا

كان ثمة أي خطأ فانهم سيتحطمون إلى أبد الآبدين . هكذا تابع تزيدفيلاس الكلام طارحاً سؤالاً مرتعشاً بعد آخر ، في حين كانت أعين النساء مثبتة عليه ملؤها عذاب أبكم . لم تكن واحدة منهن تفهم ما يقول لكنهن كن يعلمن أن مصيرهن متوقف على هذا الذي يقول . وحين فرغت جعبته من الأسئلة وحان الوقت لأن يحزموا أمرهم أخيراً . أي إما أن يبرموا الصفقة أو يلغوها ، لم تستطع تيتا الزبيبيتا أن تمنع نفسها من الانخراط في البكاء . كان يعقوب قد سألها ان كانت تود التوقيع . مرتين سألها — ترى ما الذي تستطيع قوله ؟ أنى لها أن تعلم ان كان هذا المحامي يقول الحقيقة — وانه ليس متآمراً مع الوكيل ؟ لكن كيف يمكنها أن تقول ذلك — ما المبرر الذي تملكه بين يديها ؟ كانت عيون كل من في الغرفة مثبتة عليها ، تنتظر قرارها ، وأخيراً وقد غشت عينيها الدموع ، بدأت تتلمس سترتها باحثة عن الموقع الذي خبأت فيه نقودها الغالية ، ثم أخرجتها وفضتها أمام الرجلين . كل هذا راقبته أونا وهي جالسة في أحد أركان الغرفة ، تفتل يديها الواحدة بالأخرى ، طيلة الوقت . في حمى مسعورة من الخوف . كانت أونا تتوق لأن تصرخ طالبة من امرأة أبيها ايقاف كل شيء ، لأن تقول لها أن ذلك كله شرك غادر ، لكن بدا لها وكأن شيئاً ما يطبق على حنجرتها ؛ يمنعها من اصدار ايما صوت — وهكذا وضعت تيتا الزبيبيتا النقود على الطاولة فالتقطها الوكيل ثم عدها ، وكتب لهم ايصالاً بالمبلغ وأخيراً سلمهم الوثيقة . بعد ذاك تنفس الصعداء ثم نهض وصافحهم فرداً فرداً ، ناعماً مهذباً مثلما كان

في البداية . وقد ظلت في ذهن أونا ذكرى باهتة عن المحامي وهويقول لتزيد فيلاس أن أجره دولار ، الأمر الذي اثار بعض الجدل والمناقشة والكثير من الضنى والعذاب. ثم خرجوا ، بعد أن دفعوا الدولار ، إلى الشارع ، وقد أطبقت يد تيتا الزبييتا باحكام شديد على الوثيقة . لقد جعلهم الخوف في أشد حالات الضعف حتى أنهم لم يقووا على المسير فاضطروا للجلوس على قارعة الطريق . .

وهكذا ذهبوا إلى المنزل ، وخوف قاتل ينهش نفوسهم . في ذلك المساء جاء جرجس وسمع قصتهم ، وكانت تلك الطامة الكبرى . كان جرجس واثقاً من أنهم وقعوا ضحية احتيال وأنهم تحطموا إلى الأبد ، فراح يشد شعره ، شاتماً لاعناً كالمجنون ، مقسماً أغلظ الايمان أنه سيقتل الوكيل قبل أن يطلع الفجر . وأخيراً أمسك بالورقة واندفع خارجاً ، شاقاً طريقه عبر الفناءات حتى شارع هالستيد . هناك سحب تزيد فيلاس من طاولة عشائه ثم اندفعا معاً ليستشيرا محامياً آخر . هب المحامي على قدميه حين دخلا مكتبه ، فقد كان جرجس ، بشعره المتطاير ومقلتيه المحمرتين كالدم ، يبدو أشبه بالمجنون . شرح صاحبه الموقف ، فأخذ المحامي الورقة وشرع في قراءتها بينما وقف جرجس ممسكاً طاولة المحامي بيدين شديدتي الاطباق ، يرتعش كل عصب فيهما .

مرة أو مرتين ، رفع المحامي ناظريه ليطرح سؤالاً ماعلى تزيدفيلاس. أما جرجس فلم يكن يعلم كلمة واحدة مما يقول ، إلا أن عينيه كانتا

مثبتتين على وجه المحامي باذلاً كل ما في وسعه كي يقرأ ما يدور في ذهنه : رأى المحامي ينظر إلى الأعلى ويضحك : فشهق . ثم قال الرجل شيئاً لتزيد فيلاس ، فالتفت جرجس إلى صديقه ، وقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان .

« حسناً » ؟ قال لاهثاً .

فأجاب تزيد فيلاس :

« يقول ان كل شيء على ما يرام »

« على ما يرام ؟ » .

« أجل . يقول إنها صحيحة تماماً » فغاص جرجس بكثير من الارتياح ، في كرسيه .

« هل أنت واثق من ذلك ؟ » سأل متقطع الأنفاس ، ثم جعل تزيد فيلاس يترجم له السؤال تلو الآخر . لم يكن باستطاعته أن يسمع الترجمة حتى آخرها كما لم يكن في أسئلته كثير من التغيير . أجل ، لقد اشتروا المنزل ، اشتروه فعلاً . وأنه بات ملكهم ، عليهم فقط أن يدفعوا المال وسوف يكون كل شيء على ما يرام . عندئذ أخفى جرجس وجهه بيديه ، فقد كانت عيناه مغرورقتين بالدموع ، وتملكه شعور طاغ بأنه أحمق وكان خوف فظيع قد تملكه من قبل حتى وجد نفسه ، هو الرجل القوي . أوهى من أن يستطيع النهوض .

شرح لهما المحامي أن الايجار أمر شكلي - إذ يقال ان المنزل مستأجر فقط إلى أن يدفع المستأجر آخر قسط ، والغاية هي أن يكون بالامكان اخراجه منه ان تأخر عن دفع الأقساط . لذا ، طالما ظلوا يدفعون الأقساط فليس عليهم أن يخشوا شيئاً ، المنزل ملكهم .

كان جرجس فرحاً ممتناً حتى أنه دفع نصف الدولار الذي طلبه المحامي دون أن يطرف له جفن ، ثم اندفع مسرعاً إلى المنزل لينقل للعائلة الخبر السعيد . وجد جرجس أونا في حالة اغماء والأطفال يصرخون والمنزل كله قائم قاعد - فقد كان الكل يعتقدون أنه ذهب كي يقتل الوكيل . وكان لابد من مرور ساعات قبل أن تهدأ النفوس وطوال تلك الليلة الفظيعة ظل جرجس ينهض من حين إلى آخر ليسمع أونا وامرأة أبيها وهما تنشجان بصوت مكتوم في الغرفة المجاورة .

— ٥ —

لقد تم الشراء انما كان من الصعب عليهم التصديق أن بامكانهم الانتقال إلى المنزل الرائع الذي بات ملكهم ، حينما يشاؤون . كانوا يمضون طيلة الوقت وهم يفكرون به ، وبما سيضعون فيه . وبما أن اسبوعهم لدى انيبل كان سينتهي خلال ثلاثة أيام فقد بدؤوا بالاستعداد على الفور ، كان عليهم أن يقوموا ببعض التحركات لتأثيثه ، وقد وهبوا كل لحظة من فراغهم لمناقشة هذا الأمر .

ان شخصاً أمامه مثل هذه المهمة لايحتاج لأن يبحث كثيراً في باكنجتاون — بل ليس عليه إلا أن يمشي الشارع صعداً ويقرأ لوحات المحلات أو يدخل في حافلة ترام كي يحصل على معلومات كاملة عن كل شيء يحتاجه الكائن البشري . إنه لشيء مؤثر تماماً ، حماسة الناس وهم يرون أن ثمة من ينهض بأعباء صحتهم وسعادتهم . هل يود الشخص أن يدخن ؟ اذن ، هناك شيء من الكلام عن السجاير ، بحيث يبين له لماذا سيجار « توماس جفرسون » هو السيجار الوحيد الجدير باسم السيجار . من جهة أخرى ، أتراه يدخن كثيراً ؟ هاهنا علاج للاقلاع عن عادة التدخين . خمسة وعشرون جرعة مقابل ربع دولار والشفاء مضمون تماماً بعشر جرعات . بطرق عديدة كهذه ، كان المسافر يجد أن هناك من يهتم بتمهيد الطريق له عبر العالم وإعلامه بما أنجز الآخرون له . في باكنجتاون كان للاعلانات أسلوب خاص تماماً متكيف مع الطراز الخاص بسكانها . فالمرء قد يكون موسوساً كثيراً ، « هل زوجتك شاحبة الوجه ؟ » قد يتساءل الاعلان « هل هي واهنة القوى ؟ هل تجر نفسها في المنزل جراً وترى كل شيء خطأ ؟ إذن ، لماذا لاتقول لها أن تجرب حافظات الحياة للدكتور لاناهان ؟ » اعلان آخر قد يطالعك ممازحاً ، صافعاً اياك على قفاك كي تتكلم « لاتكن متبلداً » ، هكذا قد يبادئك « امض فاشتر علاج غوليان بونيون » ، « حسّن حركتك » قد يطالعك آخر « وهذا أمر سهل ، إذا مالبست حذاء أوريكا بدولارين ونصف » .

بين هذه اللوحات التي تدفعك بالحاح كانت هناك واحدة لفتت انتباه العائلة بصورها . إذ كان يظهر فيها طائران بالغا الصغر وهما يبنيان لنفسيهما عشاً ، وقد طلبت ماريا إلى احدى معارفها أن تقرأها لها فقالت لها هذه أنها تتعلق بأثاث المنزل . « ضع الريش في عشك » هكذا كان يبدأ الاعلان — ثم يمضي ليقول أن بالامكان تقديم كل ما يلزم من ريش لعش مؤلف من أربع غرف مقابل مبلغ تافه لا يتجاوز خمسة وسبعين دولاراً . الشيء الهام بالنسبة لهذا العرض هو أنك غير مضطر لأن تدفع مقدماً إلا جزءاً صغيراً من هذا المبلغ — أما البقية فبامكانك أن تدفعها على شكل أقساط شهرية لايتعدى واحدها بضعة دولارات . كان على أصحابنا أن يجيئوا ببعض الأثاث ، وليس ثمة من مفر ، لكن رصيدهم الضئيل من المال انخفض إلى حد لم يستطيعوا معه إلا بالكاد أن يفوزوا بالنوم ليلاً ، وكانوا يفرون إلى النوم باعتباره خلاصاً لهم . لقد كان هناك المزيد من العذاب بانتظار الزبيبتا وهي توقع ورقة أخرى . بعدئذ وحين جاء جرجس ذات ليلة إلى المنزل ، نقلوا إليه الخبر الذي يقطع الأنفاس : الأثاث وصل المنزل بأمان . طقم صالون من أربع قطع ، غرفة نوم من ثلاث ، طاولة طعام وأربعة كراسي ، طقم « تواليت » رسمت عليه كله ورود زهرية جميلة ، أواني مطبخ كاملة من الفخار رسمت عليها هي الأخرى ورود زهرية— وهلم جرا . أحد صحون الطقم وجد مكسوراً عندما فكت رزمته ، وأونا ستذهب إلى المخزن لاستبداله قبل أن تفعل أي شيء في صباح

الغد . كذلك كانوا قد وعدوهم بثلاثة صحون صغيرة انما لم يأت إلا اثنان ، فهل فكر جرجس بأنهم يحاولون خداعهم ؟

في اليوم التالي ذهبت النسوة إلى المنزل وعندما عاد الرجال أكلوا بضع لقيمات على عجل في منزل آنييل ثم انطلقوا إلى العمل ، والعمل هو نقل أمتعتهم إلى منزلهم الجديد . كانت المسافة ، بالحقيقة ، أكثر من ميلين ، غير أن جرجس قام برحلتين في تلك الليلة ، حاملاً في كل مرة على رأسه كدسة كبيرة من الفرش والشراشف وقد حشيت داخلها رزم الملابس والحقائب والأشياء الأخرى . لو كان جرجس في أي مكان آخر سوى باكنجتاون ، اذن لتعرض مرات عديدة للاعتقال ؛ لكن الشرطة هنا اعتادت ، كما يبدو ، على هذه التحركات غير الرسمية وكانت تكتفي بالقيام بتفتيش عرضي من حين إلى آخر . كان شيئاً رائعاً أن ترى كم كان المنزل يبدو حسناً بكل مافيه من أشياء ، بل حتى بضوء مصباحه الشاحب . لقد كان منزلاً حقيقياً مثيراً كما جاءت صورته في الاعلان تقريباً . وكانت أونا ترقص تماماً حين وصل جرجس فامسكت به من يد وماريا من يد أخرى وراحتا تنتقلان به من غرفة إلى غرفة ، لتجلسا على كل كرسي بالتناوب وتصرا على أن يفعل الشيء ذاته . أحد الكراسي صر صريراً حاداً تحت ثقله الكبير ،فصرخت الفتاتان خوفاً ، مما ايقظ الطفل وجعل كل من في المنزل يجري . لقد كان يوماً رائعاً بكل ما في الكلمة من معنى ورغم أنهما كانا متعبين ، فقد سهر جرجس وأونا إلى وقت متأخر راضيين كل الرضى أن يمسك

واحدهما بالآخر من يده ويهيم بنظره منتشياً في أرجاء الغرفة . كان في نيتهما أن يتزوجا حالما يستقر كل شيء ويتمكنان من توفير بعض النقود ، وكان هذا هو منزلهما وتلك الغرفة الصغيرة هناك ستكون غرفتهما !

كان ترتيب المنزل متعة لا نهاية لها بالحقيقة . إذ لم يكن لديهم مال كي ينفقوه من أجل متعة الانفاق ، انما كانت هنالك بضعة أشياء ضرورية للغاية وشراؤها مغامرة خالدة بالنسبة لأونا . فقد كان ينبغي أن تتم في الليل دائماً . وهذا يعني أن جرجس قد يخرج وإذا ما شرب وعاء من الشراب أو بضع كؤوس من الخمر مقابل عشرة سنتات ، فان ذلك سيكون مصروفاً أكثر مما يتحملونه . ليلة الأحد عادوا إلى المنزل بسلة ملأى بأشياء وأشياء فرقوها على الطاولة ، بينما وقفوا جميعاً حولها ، وتسلق الأطفال الكراسي أو أعولوا مطالبين برفعهم كي يروا . كان على الطاولة سكر ، ملح ، شاي ، بسكويت هش ، علبة من شحم الخنزير ، سطل حليب ، فرشاة لتنظيف المنزل ، حذاء للطفل الثاني ، علبة زيت ، قدوم وكيلو من المسامير التي ينبغي أن تدق في جدران المطبخ وغرف النوم لتعلق عليها أشياؤهم ، وفي الحال دارت مناقشة عائلية حول الأمكنة التي ينبغي دق هذه المسامير فيها . بعدئذ حاول جرجس أن يدقها لكنه أصاب أصابعه فالقدوم صغير جداً وكاد يجن لأن أونا رفضت اعطاءه خمسة عشر سنتاً أخرى لكي يشتري قدوماً أكبر . بعدها طلبوا إلى أونا أن تحاول دق المسامير بنفسها فطرقت ابهامها وصاحت

ملءصوتها مما اقتضى أن يأتي جرجس ويقبل ابهامها . أخيراً ، وبعد أن حاول كل منهم بدوره ، دقت المسامير وصار بالامكان تعليق شيء ما . كان جرجس قد عاد إلى المنزل حاملاً رزمة كبيرة على رأسه ، ثم أرسل جوناس لاحضار أخرى كان قد اشتراها . وكان ينوي أن يفكك جوانب هاتين العلبتين غداً ليعمل منها رفوفاً ويصنع مكاتب وأماكن لحفظ الأشياء في غرف النوم . فالعش الذي كان قد أعلن عنه لم يكن يتضمن ريشاً كافياً لعدد كبير من الطيور يماثل عدد أفراد هذه العائلة .

بالطبع ، كانوا قد وضعوا طاولة طعامهم في المطبخ ، أما غرفة الطعام فقد حولت إلى غرفة نوم لتيتا الزبيبتا وأطفالها الخمسة ، بحيث تنام هي والطفلان الأصغران في السرير الوحيد ، وينام الثلاثة الآخرون في فراش يمد على الأرض . أما أونا وابنة عمها فقد كانتا تجران فراشاً إلى الصالون وتنامان في الليل ، بينما كان الرجال الثلاثة والابن الأكبر ينامون في الغرفة الأخرى وليس تحتهم إلا الأرض ينامون عليها في الوقت الراهن . رغم ذلك كانوا ينامون نوماً عميقاً — حتى أن الزبيبتا كانت تضطر لكي توقظهم في الخامسة والربع من كل صباح لأن تخبط على الباب أكثر من مرة وكانوا يجدونها قد أعدت ابريقاً كبيراً من القهوة السادة الساخنة مع وجبة من دقيق الشوفان والخبز والنقانق المدخنة . بعد ذاك تملأ لهم سطول غدائهم بشرائح خبز أكثر سماكة بينها شحم

الخنزير . فالزبدة غالية لايسعهم تحمل ثمنها — اضافة إلى بضع بصلات وقطعة جبن ، وبذلك ينطلقون إلى عملهم سيراً على الأقدام .

بدا لجرجس وكأن هذه هي المرة الأولى في حياته التي يعمل فيها حقاً. المرة الأولى التي يعمل فيها شيئاً يستغرق كل ما لديه من طاقات . كان جرجس يقف مع البقية في البهو ويرقب الرجال في « أحواض الذبح » ، يثيرون العجب بسرعتهم وقوتهم وكأنهم آلات عجيبة . لم يكن أحد يفكر أبداً بالجانب الآخر من العمل ، جانب اللحم والدم — أو بالأحرى لايفكر به قبل أن ينزل عملياً إلى موضعه وينزع سترته . حينذاك كان يرى الأشياء بمنظار مختلف ، كان يدخل إلى صميمها . فالايقاع الذي يعملون به يتطلب كل ما يملك الرجل من مقدرة — منذ اللحظة التي يسقط فيها أول ثور مذبوحاً وحتى سماعهم صوت صافرة الظهيرة ، ثم مرة ثانية من الساعة الثانية عشرة والنصف وحتى ساعة من ساعات الأصيل أو المساء لايعلمها إلا الله ، بلا لحظة استراحة للانسان: ليده أو عينه أو دماغه . بات جرجس يعلم كيف يحافظون على وتيرة العمل هذه فهناك قسم يحدد ايقاع العمل للبقية ، لذا يأتون برجال من نوع خاص للعمل في هذا القسم ويدفعون لهم أجوراً عالية ويبدلونهم باستمرار . كنت تستطيع بسهولة أن تحدد صانعي الايقاع هؤلاء لأنهم يعملون تحت اشراف رؤساء العمال مباشرة ويعملون وكأنما أصابهم المس . كانت هذه العملية تدعى « تسريع الورشة » وحين لايستطيع

عامل من العمال أن يماشي سرعتهم ، كان بامكان الرؤساء أن يجلبوا المئات في الخارج ممن يتوسلون إليهم لأن يجربوا أنفسهم .

لكن جرجس لم يبال بذلك بل الأحرى أنه استمتع به . فقد وفر عليه ضرورة إلقاء ذراعيه جانباً والتململ كما كان شأنه في معظم الأعمال الأخرى . كان يضحك من نفسه وهو يسرع هابطاً مع الصف ، ملقياً نظرة سريعة على الرجل الذي يتواجد أمامه من حين إلى آخر . صحيح أنه لم يكن أمتع عمل يذكر به الانسان ، لكن الصحيح أيضاً أنه كان عملاً ضرورياً ، وأي حق يمكن للانسان أن يطالب به أكثر من أن تتاح له الفرصة في أن يعمل شيئاً مفيداً ويكسب مقابل ذلك أجراً حسناً ؟ .

هكذا كان يفكر جرجس وهكذا كان يتكلم بأسلوبه الجريء الحر ، لكن لشدة دهشته وجد أن هذا الكلام يكاد يودي به في داهية . فمعظم الرجال هنا ينظرون إلى الأمر نظرة مختلفة تماماً . وقد ارتعدت فرائصه حين اكتشف الأمر لأول وهلة — حين عرف أن معظم الرجال هنا يكرهون عملهم . فقد يبدو غريباً ، بل حتى فظيعاً حين يتأتى لك أن تكتشف شعوراً طاغياً بين الناس ، لكن هذه حقيقة مؤكدة — أنهم يكرهون عملهم . يكرهون رؤساءهم وأصحاب العمل ، يكرهون المكان بكل ما فيه ، المنطقة بكل ما فيها — بل حتى المدينة بأسرها كراهية شاملة تامة ، مرة وعنيفة . النساء والأطفال قد يغرقون في توجيه اللعنات لها . انها عفنة ، عفنة كالجحيم — كل شيء عفن . وحين

كان جرجس يسألهم مقصدهم ، كانوا يبدؤون بالارتياب فيه ويكتفون بالقول « لاعليك ، ابق هنا وانظر بنفسك » .

احدى المشكلات الأولى التي واجهت جرجس هي مشكلة النقابة . لم تكن لديه أية تجربة سابقة مع النقابات وكان لابد أن يشرح له أحدهم أن العمال يتحدون معاً بهدف المطالبة بحقوقهم . فسأل جرجس ماالمقصود بحقوقهم ، وكان صادقاً كل الصدق بطرحه للسؤال ، فليس لديه أية فكرة سابقة عن الحقوق التي يمكن أن تكون له سوى حق البحث عن عمل والقيام بما يؤمر به حين يحصل على هذا العمل . لكن بصورة عامة كان مثل هذا السؤال الذي لا يحمل أي أذى بحد ذاته يجعل زملاءه العمال يفقدون أعصابهم ويتعكر مزاجهم ويدعونه « أبله » . لقد جاء مندوب من نقابة مساعدي الجزارين كي يرى جرجس ويسجله في النقابة ، وحين رأى جرجس أن عليه أن يشارك بجزء من ماله ، تجمد على الفور فتعكر مزاج المندوب الذي كان ايرلندياً لايعرف إلا بضع كلمات ليتوانية وبدأ بتهديده . في النهاية ثار غضب جرجس تماماً وأوضح للمندوب بصورة كافية أنه يحتاج لأكثر من ايرلندي واحد لكي يخيفه ويجعله يدخل النقابة . ثم شيئاً فشيئاً علم أن الشيء الأساسي الذي يبتغيه هؤلاء النقابيون هو أن يضعوا حداً لعملية « التسريع هذه » . كانوا يبذلون كل ما في وسعهم لابطاء ايقاع العمل . فهناك البعض ، كما قالوا ، لايسعهم مماشاة سرعة العمل ، تلك السرعة القاتلة بالنسبة لهم . لكن مثل هذه الأفكار لم تلق استجابة لدى جرجس — فقد كان

باستطاعته أن يقوم هو نفسه بالعمل ، وكذلك باستطاعة البقية أن يفعلوه ان كانوا يصلحون لأي شيء آخر . اما إن لم يكن باستطاعتهم القيام به فليمضوا إلى مكان آخر . لم يكن جرجس قد درس الكتب ولم يكن يعلم كيف يلفظ عبارة « Laissez Faire » «دعه وشأنه »لكنه كان قد طاف في العالم بما يكفي لأن يعلم أن على الانسان أن يتنقل فيه وأنه إما نال أسوأ ما فيه ، فليس من أحد يسمع شكواه .

مع ذلك ، من المعروف أن هناك فلاسفة ورجالاً بسطاء يثقون بما قاله مالتوس في الكتب لكنهم يتبرعون لحملات الانقاذ وقت المجاعات. وكان الأمر ذاته بالنسبة لجرجس الذي عزا ما هو غير مناسب لنزعة التخريب بين العمال رغم أنه كان يطوف طوال النهار ممزق القلب على والده العجوز المسكين الذي كان يبحث في كل مكان من الزرائب عن فرصة يكسب بها قوت يومه . كان انتاناس العجوز عاملاً منذ طفولته ، بل لقد فر من منزل أبيه وهو ما يزال في الثانية عشرة لأن والده ضربه حين رآه يحاول تعلم القراءة . ولقد كان رجلاً مخلصاً أيضاً ، رجلاً بوسعك أن تتركه بمفرده شهراً كاملاً إذا تركته يعلم فقط ما تود منه أن يفعل والآن هاهو ذا بالي الجسد والروح ، ليس له مكان في العالم أكثر من كلب مريض . صحيح أن له منزلاً وأن هناك من يرعاه ان لم يجد عملاً ، لكن الصحيح أيضاً ان ابنه لم يكن يستطيع منع نفسه من التفكير : لنفرض أن الحال كانت على غير ماهي عليه . كان انتاناس رودكوس قد ذهب إلى كل مبنى في باكنجتاون حتى

هذه اللحظة وإلى كل غرفة تقريباً وكان يقف الصباحات بطولها بين جموع طالبي الأعمال إلى أن تأتي الشرطة بالذات ، فيتعرف أحدها إلى وجهه ويأمره بالانصراف إلى بيته والاقلاع عن المطالبة بعمل . كذلك ، ذهب إلى كل المخازن والصالونات ضمن دائرة قطرها ميل متضرعاً أن يسندوا إليه أي عمل ، لكن حيثما يذهب يجد الجواب عينه . الطرد وأحياناً اللعنات والشتائم . وما من مرة واحدة تنازل أحدهم وسأله سؤالاً .

وهكذا حدث في النهاية نوع من الصدع في البنية الحسنة لإيمان جرجس بواقع الأمور كما هو . وراح الصدع يتسع مع ذهاب ديدانتاناس للبحث عن عمل لكنه كان أشد اتساعاً حين حصل عليه أخيراً . فذات مساء عاد العجوز إلى المنزل في حالة شديدة من الابتهاج ليروي لهم أن رجلاً في أحد ممرات غرف التخليل في منشأة دور هام دنا منه وسأله عما يدفع لكي يحصل على عمل . لم يعلم بما يجيب في الوهلة الأولى ، لكن الرجل تابع بشيء من الصراحة العملية أن بامكانه تأمين عمل له ، شريطة أن يكون على استعداد لدفع ثلث الأجر له . أهو رئيس عمال ؟ . سأله انتاناس ، فأجاب الرجل بأن ذلك ليس شغله ، لكن باستطاعته تنفيذ ما يقول .

كان جرجس قد أقام بعض الصداقات حتى هذه اللحظة . فبحث عن واحد منهم وسأله عن معنى ذلك — والصديق المدعو تاموزيوس

كوتزلايكا كان رجلاً ضئيل الجسم حاد المزاج يقوم بطي الجلود في أحواض الذبح ، أصغى لما قاله جرجس دون أن يبدو عليه أثر لدهشة . مثل هذه الحالات شائعة كثيراً ، قال الصديق . لاشك أنه رئيس عمال يود أن يزيد دخله قليلاً . وبعد أن ينقضي على جرجس في عمله حين من الزمن سيعلم أن المنشأة معششة تماماً بعفونات من هذا النوع —الرؤساء يبتزون العمال وهم يبتزون بعضهم بعضاً ، وذات يوم يكتشف المشرف شيئاً عن رئيس العمال فيبتزه . وتسخيناً للموضوع ، تابع تاموزيوس شرح الموقف ، فهذه مؤسسة دورهام ، مثلاً ، يملكها رجل يحاول أن يكسب منها أكبر قدر ممكن من المال ولا يبالي مقدار شعرة واحدة بكيفية الحصول عليه ، ودونه على السلم تجد صفوفاً من المراتب والدرجات كالجيش تماماً فهناك مدراء ومشرفون عامون وناظرون ، وكل منهم يحاول رفس من دونه واعتصار ما أمكن من العمل منه ، كما أن جميع الأشخاص الذين هم من المرتبة ذاتها يتربص بعضهم بالبعض الآخر فحساباتهم مستقلة ، وكلهم يخشى أن يفقد عمله إذا ما استطاع واحد آخر أن يسجل رقماً أعلى من رقمه . وهكذا فان المكان من عاليه إلى سافله هو بكل بساطة قدر تغلي بالحسد والضغائن ، فليس هناك اخلاص أو مراعاة للآداب العامة في أي ناحية منه ، وليس هنالك شبر فيه لايمكنك شراء أي رجـــل مقابـــل دولار ، والأنكى من ذلك كله أنه ليس هنالك ذرة شرف . والسبب في ذلك ؟ من يعلم ؟ لابد أنه

د رهام القديم منذ البداية . لابد أنها التركة التي تركها التاجر العصامي لابنه ، جنباً إلى جنب مع ملايينه .

كان جرجس سيكتشف هذه الأمور بنفسه ، لو أنه مكث ما يكفي من الزمن . فالعمال في المنشأة هم الذين يتعين عليهم أن يعملوا كل الأعمال القذرة ، وهكذا لم يكن ثمة مجال لخداعهم هم الذين تأثروا بروح المكان وراحوا ينحلون ما يفعله البقية . جاء جرجس إلى هنا ظاناً أنه سيجعل نفسه مفيداً وسيرتفع ويصبح رجلاً ماهراً لكنه سرعان ما اكتشف خطأه — إذ ما من أحد يرتفع في باكنجتاون من جراء القيام بعمل جيد . وهذه قاعدة — فاذا ما التقيت برجل ارتفع في باكنجتاون فاعلم انك التقيت بوغد .الرجل الذي أرسله رئيس العمال لوالد جرجس يمكن أن يرتفع ، والرجل الذي ينم ويشي بزملائه يمكن أن يرتفع ، لكن الرجل الذي يفكر بعمله ويؤديه على خير وجه ، فلا — وكيف سيرتفع ؟ انهم « يسرّعونه » إلى أن يتلفوه ومن ثم يلقى في المجارير .

عاد جرجس إلى المنزل وفي رأسه طنين حقيقي . لكنه رغم ذلك لم يستطع اقناع نفسه بتصديق اشياء كهذه — لا ، لايمكن أن تكون الأمور على هذا النحو — تاموزيوس ببساطة هو أحد اولئك المتذمرين . انه رجل يقضي كل وقته وهو يدندن على الكمان يذهب إلى الحفلات في الليل ولايعود إلى المنزل احياناً حتى مطلع الشمس ، وهذا بالطبع يحول بينه وبين حب العمل . ثم انه رجل ضئيل صغير الجسم ، لذا

فهو في آخر الركب ، وهذا هو السبب في تذمره وشكواه . لكن رغم ذلك ، ظلت هناك أشياء كثيرة غريبة يلاحظها جرجس كل يوم .

لقد حاول اقناع والده باهمال العرض كلياً ، لكن انتاناس العجوز كان قد طرق الأبواب حتى بلي وفقد آخر ماالديه من شجاعة ، كان يريد عملاً ، أي عمل . لذا ، ذهب في اليوم التالي ، وجد الرجل الذي فاتحه بالأمر وعاهده على أن يقدم له ثلث مايكسب ، فاستلم العمل في اليوم ذاته في اقبية دورهام وفي احدى « غرف التخليل » حيث لاتوجد نقطة جافة يمكنك ان تطأها بقدمك ، لذا دفع كل ماكسبه في الاسبوع الاول تقريباً لكي يشتري حذاء سميك النعل . كان عمله سكويد غاي Squeed gie أي يطوف طيلة النهار وبيده خرقـــة ذات مقبض طويل يمســح بها الأرض ، واذا مااستثنينا الرطوبة والعتمة وجدنا أن العمل لم يكن كريهاً في الصيف .

كان انتاناس رودكوس الطف وأرق رجل خلقه الله على وجه الأرض ، لذا استغرب جرجس كل الاستغراب حين رآه يعود ذات يوم وهو يلعن ، بكل ماالديه من طاقة ، دورهام ومنشأته مما ثبت في ذهن جرجس أقوال زملائـــه الآخريـــن . ذلك أنهـــم كلفـــوه بمهمة تنظيف « الاشراك » ، فجلست العائلة حوله تصغي متعجبة وهويروي لها معنى« الاشراك ». كان العجوز يعمل في الغرفة التي يعد فيها العمال لحم البقر للتعليب ، حيث توضع الذبيحة في رواقيد كبيرة

ملأى بمواد كيماوية ، ثم يشكها العمال بشوكات كبيرة وينقلونها إلى عربات كي تؤخذ إلى غرفة الطهو . وحين ينقلون بشوكاتهم كل مايستطيعون الوصول اليه في الراقود، يفرغون الراقود على الأرض ومن ثم يجرفون ما تبقى بمجاريف ويضعونه في العربة. ورغم أن الأرض وسخة ، فقد كان على انتاناس أن يدفع « المخلل » بمسحته إلى داخل فتحة متصلة ببالوعة ، حيث يجمع هناك ويعاد استخدامه المرة تلو المرة واذا افلت شيء منه ، فقد كان هناك محبس في الانبوب تتجمع عنده كل فضلات اللحم والنثرات والفتات ، وكان واجب العجوز أن ينظف هذه المحابس كل بضعة أيام ويجرف محتوياتها إلى احدى العربات مع بقية اللحم !

تلك كانت تجربة انتاناس ، ثم جاءت أيضاً تجربة جوناس وماريا بما لديهما من قصص يقصانها . كانت ماريا تعمل لدى أحد أصحاب دور التعليب المستقلين ، وكانت سعيدة تماماً بمبالغ المال التي كانت تحصل عليها من عملها في طلي العلب . لكنها ذات يوم عادت إلى المنزل مع امرأة صغيرة شاحبة الوجه كانت تعمل مقابلها ، اسمها يادفيغا مارسنيكوس ، ويادفيغا هذه هي التي اخبرتها كيف صدف أن حصلت ، هي ماريا ، على عملها . لقد حلت محل امرأة ايرلندية كانت تعمل في ذلك المصنع منذ زمن طويل ربما يزيد عن خمسة عشر عاماً ، كما

قالت ، ومنذ زمن طويل ايضاً كانوا قد غرروا بهذه المرأة واسمها ماري دنيس فوضعت غلاماً مشوهاً يصاب بنوبات صرع لكنه كان ابنها بل كل ماتحب في هذا العالم . وكانت تعيش معه في غرفة صغيرة مفردة في مكان ما يقع خلف شارع هالستيد ، حيث يعيش الايرلنديون . كانت ماريا مصابة بالسل وكنت تسمع سعالها طوال الوقت ، وفي الفترة الاخيرة كانت قد تحطمت ارباً ، لذلك قررت « المشرفة » حين جاءت ماريا أن تطرد تلك المرأة المسكينة . كان على المشرفة ان تبلغ بانتاجها مستوى معيناً ولم يكن باستطاعتها ان تتوقف من أجل شخص مريض ، هكذا شرحت يادفيغا . والحقيقة أن ماري كانت هناك منذ زمن طويل إلى حد انها لم تكن تشكل اي فارق — ومن المشكوك فيه ان كانت المشرفة تعرف ذلك حتى ، لانها هي والمشرف العام كانا جديدين في العمل لم يمض عليهما سوى سنتين او ثلاث . لم تعرف يادفيغا ماحل بتلك المسكينة ، وكان بودها أن تذهب لرؤيتها الا انها كانت هي نفسها مريضة . فهي تعاني من آلام في ظهرها طيلة الوقت ، شرحت لهم يادفيغا ، وتخشى أن يكون لديها اضطرابات في الرحم . فليس بالعمل الذي يناسب امرأة أن تنقل علباً زنة الواحدة اربعة عشر رطلاً انكليزياً طوال النهار .

والفرصة الغريبة الأخرى هي أن حصول جوناس على عمله

كان على حساب شخص آخر وبسبب سوء حظه . كان جوناس يدفع عربة يد محملة باللحوم الخارجة من غرف التدخين إلى مصعد ومن هناك إلى غرف التعليب . العربات مصنوعة كلها من الحديد وهي ثقيلة وهم يضعون حوالي ستين شريحة من لحم الخنزير في كل منها ، أي حمولة تزيد عن ربع طن . على الأرض غير المستويةتكون مهمة العامل أن يقلع احدى هذه العربات ولايستطيع ذلك ان لم يكن عملاقاً ، وبعد أن تقلع من مكانها ، يبذل ، بالطبع ، كل مافي وسعه لابقائها قيد الحركة . كان رئيس العمال يتجول دائماً هناك واذا ماحدث أي تأخير فانه يبدأ السباب على الفور ، وبما أن معظم العمال من الليتوانيين والسلوفاك ولايفهمون مايقول رؤساؤهم ، فقد كان هؤلاء يميلون لرفسهم كما ترفس الكلاب كي يدفعوهم إلى العمل . لذلك كانت هذه العربات تقطع معظم الشوط جارية جرياً وقد تعرض سلف جوناس لان تحشره أحد العربات بالحائط حيث تهشم بطريقة فظيعة يتعذر وصفها .

كل هذه الأحداث كانت احداثاً مشؤومة ، الا انها كانت تافهة بالمقارنة مع ما رآه جرجس بأم عينه قبل انقضاء فترة وجيزة . لقد لاحظ امراً مثيراً للاستغراب في اليوم الأول لعمله في جرف الأحشاء . خدعة ذكية من رؤساء عمال الطابق كانوا يلجؤون اليها في اي وقت يصدف أن يكون هناك عجل « جهيض » . فأي امرىء يعرف شيئاً عن

الجزارة يعرف ان لحم البقرة التي توشك على الولادة او التي ولدت لتوها لايكون صالحاً كغذاء . وكان يأتي عدد كبير من هذا النوع من البقر في كل يوم إلى دور التعليب .وبالطبع ، لو ان هناك انتقاء لكان من السهل على أصحاب دور التعليب ابقاء هذه البقرات إلى أن تصبح صالحة . لكن بغية توفير الوقت والعلف ، كانت القاعدة تقضي بأن يجري على هذه البقرات مايجري على الاخريات وكل من يلاحظ وجود واحدة منها عليه أن يخبر رئيس العمال الذي يشرع للتو بمحادثة المفتش الحكومي ثم يتمشى الاثنان مبتعدين . وهكذا ، بمثل لمح البصر ، تجد أن جثة البقرة قد اخليت من المكان وأحشاءها اختفت ، وكانت مهمة جرجس أن يزلقها إلى الشرك ، العجل والأمعاء وكل شيء ، وفي الطابق الأسفل يمكنهم ان يستخرجوا هذه العجول الجهيضة ليستفيدوا من لحمها ويستخدموا حتى جلودها .

ذات يوم تزحلق رجل فأوذيت ساقه ، وفي ذلك العصر ، حين تم التصرف بآخر ذبيحة ، وكان العمال يغادرون المكان ، جاء الأمر لجرجس بأن يبقى ويقوم بالعمل الخاص الذي كان ذلك العامل يقوم به عادة . كان الوقت متأخراً ، ظلاماً تقريباً.وكان المفتشون الحكوميون قد ذهبوا جميعاً ، ولم يبق الاعشرة أو عشرون رجلاً في الطابق . كانوا في ذلك اليوم قد ذبحوا حوالي أربعة آلاف رأس من البقر ، جاءت كلها بقطارات شحن من ولايات بعيدة وكان بعضها قد اصيب

بالاذى . فمنها ماانكسرت قوائمه ومنها ماانبعجت خاصرته بل منها ماقضى نحبه دون أن يستطيع احد معرفة السبب ، وكان ينبغي تدبير امرها جميعاً ، هنا في العتمة والصمت . كان العمال يدعون هذا النوع من الذبائح « بالسقط » وكان ثمة مصعد خاص في دار التعليب لنقل هذا السقط إلى احواض الذبح ، حيث تمضي الورشة لمعالجتها ، بلا مبالاة وبانهماك كامل بالعمل مما يدل على انها ممارسة يومية تجري في هذه المنشأة . استغرقت المهمة ساعتين إلى أن تم الانتهاء منها ، ورآها جرجس اخيراً في غرف التبريد جنباً إلى جنب مع اللحوم الأخرى مفرقة هنا وهناك بعناية كي يتعذر تمييزها فيما بعد . حين عاد جرجس إلى المنزل تلك الليلة كان في حالة مزاجية بالغة الاكتئاب فقد بدأ يرى اخيراً كم كانوا على صواب ، اولئك الذين سخروا منه لإيمانه بامريكا !

— ٦ —

كان كل من جرجس واونا عاشقاً تيم قلبه الحب ، وكان قد طال بهما الانتظار — فها هي ذي السنة الثانية على خطبتهما وجرجس يحكم على كل شيء من معيار واحد ، مدى مساعدته أو اعاقته لزواجهما . كانت كل افكاره تدور حول هذه النقطة ، فقد قبل بالعائلة لانها جزء من اونا ، وكان مهتماً بالمنزل لانه ، سيكون منزل

اونا . حتى الخدع والفظاعات التي رآها في مؤسسة دورهام لم يكن يعنى بها الا بمقدار ماتؤثر في مستقبلهما هو واونا .

واو ترك الأمر لهما لتم الزواج في الحال ، لكن هذا يعني انهما سيتزوجان بلا حفل زفاف وعندما اقترحا هذا ، دخلا في صراع حاد مع الأكبر منهما سناً . فهذا الاقتراح بالنسبة لتيتا الزبيبتا ، على وجه الخصوص ، كارثة حقيقية . أن يتزوجا هكذا على قارعة الطريق كالشحاذين ! لا وألف لا ! فالزبيبتا كانت قد نشأت على تقاليد معينة . كانت ،شخصية ذات اهمية في صباها – عاشت في اقطاعه كبيرة لديها خدم وحشم وربما كانت ستتزوج زيجة حسنة وتغدو سيدة مجتمع لولا انها كانت واحدة من تسع بنات لاأخوة لهن . لكن حتى والأمر كذلك ، كانت الزبيبتا تعلم مايليق وما لايليق وكانت تتمسك بتقاليدها تمسك اليائس . فهم لن يفقدوا كل اعتبار لانفسهم حتى ولو كانوا عمالا غير مهرة في باكنجتاون ، وحين اقترحت أونا حذف الفيزيليجا كان ذلك كافياً لان تقضي امرأة ابيها ايلها كله لاتغمض لها عين . كان من الحماقة بالنسبة لهم ان يقولوا أن لديهم قلة من الأصدقاء ، فمع الزمن سيكون لهم اصدقاء وحينذاك سيتكلم هؤلاء الأصدقاء عن الامر . عليهم الا يتخلوا عما هو صواب من أجل قليل من المال – وان فعلوا ، فان المال لن يعود عليهم بالنفع ، وبامكانهم أن يعتمدوا

على ذلك . بعد ذلك استدعت الزبيبيتا ديد انتاناس لمؤازرتها ، فقد كان الخوف يعيش في نفسي هذين الكائنين من أن تكون هذه الهجرة إلى بلاد جديدة قد تمكنت من الحط من قيم الوطن والتأثير على فضائل اولادهما . لذا وفي اول احد أمّوا به الكنيسة ، شعرت الزبيبيتا ، رغم ماكانوا عليه من فقر ، أن من المستحسن أن تشتري بقليل من مالها تمثالا مصنوعاً من الجص وملوناً بازهى الألوان . ورغم أن التمثال لم يكن يزيد على الثلاثين سنتمتراً ، فقد كان هناك مقام ذو ابراج اربعة بيضاء كالثلج ، تقف فيه العذراء وابنها بين ذراعيها والملوك والرعاة والحكماء ينحنون بين يديها . كان ثمنه خمسين سنتاً ، الا أن الزبيبيتا كانت تشعر بأن النقود التي تنفق على أشياء كهذه يجب الا تحسب حساباً دقيقاً ، لأنها تعود بطرق خفية . كان التمثال قطعة جميلة وقد بدا أكثر جمالا حين وضع على رف موقد الصالون ، والمرء لايستطيع أن يترك منزله بغير شيء من الزخرفة ! !

تكاليف حفلة العرس يمكن بالطبع أن تسترد ، لكن المشكلة هي طرح المسألة في الوقت الحاضر ، اذ لم يكن قد انقضى عليهم في الحي الا وقت قصير لايتيح لهم أن يستدينوا من أحد شيئاً ، ولم يكن هنالك الا تزيد فيلاس يمكنهم استدانة مبلغ ضئيل منه . وهكذا كان جرجس واونا يجلسان الليلة تلو الليلة وهما

يتصوران النفقات ويحسبان فترة انفصالهما . لم يكن بالامكان تدبير شؤون العرس بأقل من مائتي دولار ، ولم يكن باستطاعتهماأن يأملا ، حتى ولو ادخلا في حسابهما كل ماتكسبه ماريا وجوناس كدين يسددانه فيما بعد أن يوفرا هذا المبلغ بأقل من أربعة أو خمسة اشهر . وهكذا بدأت أونا تفكر بالبحث عن عمل ، قائلة انها اذا ماحالفها الحظ ، ستوفر عليها وعلى خطيبها شهرين من العذاب . وكانا قد بدآ بالتكيف مع هذه الضرورة حين نزلت على رؤوسهم صاعقة مفاجئة -- كارثة بعثرت آمالهم كلها كريش في مهب الريح .

على مقربة منهم كانت اسرة ليتوانية اخرى تعيش هناك . اسرة تتكون من ارملة مسنة وابنها الراشد ، كان اسم العائلة ماجوتزكين وقد اقام جماعتنا تعارفاً مع هذه الأسرة خلال فترة قصيرة . وذات مساء جاءت الجارة ماجوتزكين تزورهم ، وبطبيعة الحال كان الموضوع الأول الذي دار الحديث عنه هو الحي وتاريخه . وحينذاك شرعت الجدة ، وكانوا يدعونها كذلك لكبر سنها ، تروي لهم سلسلة من الفظائع جمدت لها دماؤهم . كانت الجدة ماجوتزكين ارملة متغضنة الوجه ذابلة الجلد -- لابد أنها في الثمانين -- وبينما كانت تغمغم قصتها الكئيبة عبر لثتيها الدرداوين ، بدت لهم اشبه بساحرة مفرطة في الهرم . كانت الجدة ماجوتزكين قد عاشت في خضم المصائب زمناً طويلاً

إلى أن غدت المصائب جزءاً لايتجزأ منها ، وقد حدثتهم عن المجاعات والأمراض والموت كما يتحدث الناس الآخرون عن الأعراس والعطل .

لقد حدث الأمر على نحو تدريجي . لكن قبل كل شيء لم يكن المنزل الذي اشتروه بالجديد البتة ، كما كانوا يظنون ، بل لقد بني منذ خمسة عشر عاماً ولم يكن فيه شيء جديد سوى الطلاء الذي كان من السوء إلى درجة ينبغي معها تجديده كل عام أو عامين . وهذا المنزل هو واحد من صف من المنازل شيدتها شر كة قامت لابتزاز أموال الفقراء والتحايل عليهم . فالعائلة ستدفع الفاً وخمسمائة دولار ثمناً له هو الذي لم يكلف يوم بنائه خمسمائة دولار -- وقد كانت الجدة تعرف ذلك لأن ابنها ينتسب إلى تنظيم سياسي فيه متعهد يقيم مثل هذه المنازل تماماً . انهم يستخدمون أرخص المواد واقلها مقاومة ، يبنون كل دستة من المنازل دفعة واحدة ولايهتمون سوى بالمظهر الخارجي . وقد صدقت العائلة كلامها على الفور ، بسبب المشكلات التي واجهتها في المنزل مذ دخلته ، ولأن الجدة ذاتها كانت قد مرت بها جميعاً -- فهي وابنها اشتريا منزلهما بالاسلوب نفسه تماماً . لكنهم ، مع ذلك لعبوا على الشركة لان ابنها عامل ماهر ، يصل اجره الشهري حتى المائة دولار ، ولم يكن يميل للزواج لذا تمكنا من تسديد ثمن المنزل .

لاحظت الجدة ماجوتزكين أن اصدقاءها ذهلوا لهذه الملاحظة فهم لم يعرفوا تماماً كيف ان تسديد ثمن المنزل هو لعب على الشركة .

كان من الواضح انهم اغرار للغاية . فرغم رخص هذه المنازل ، كانت الشركة تبيعها وهي مؤمنة كل الايمان أن الناس الذين سيشترونها لن يتمكنوا من تسديد اثمانها . وحين يفشلون — ولو لشهر واحد فقط — فانهم يفقدون حقهم بالمنزل وبكل مادفعوه حتى حينه ، وعند ذاك تبيعه الشركةمرة ثانية . وهل تتاح مثل هذه الفرصة كثيراً ؟ يالله!(وترفع الجدة ماجوتزكين يديها) لقد اتيحت ، لكن من يعلم عدد المرات ؛ انما هو بالتأكيد أكثر مما يتخيلون . ان بامكانهم أن يسالوا اي امرىء يعرف شيئاً عن باكنجتاون فيما يتعلق بهذه المسألة . انها تعيش هنا مذ بني هذا المنزل وبامكانها أن تخبرهم كل شيء عنه . ترى هل بيع من قبل ؟ سوسيملكي ! ! ياللعجب ! ! كيف ؟ فمنذ أن بني حاولت شراءه أكثر من أربع عائلات ، حددت الجدة اسماءها ثم اخفقت في اكمال اقساطه . وبامكانها أن تخبرهم بعض المعلومات عن ذلك .

كانت العائلة الأولى المانية ، والعائلات الاخرى من جنسيات مختلفة.ففي الزرائب والمسالخ عمل ممثلو عدة عروق وقد حل بعضهم محل بعض . الجدة ماجوتزكين نفسها جاءت مع ابنها إلى امريكا في زمن لم يكن في المنطقة كلها سوى عائلة ليتوانية واحدة . كان العمال جميعاً حينذاك من الالمان وكانوا جزاري — ماشية مهرة يأتي بهم أصحاب دور التعليب من الخارج كي يبدؤوا مهنهم . بعد ذلك ، جاءت يد

عاملة أرخص ، ورحل الالمان بعيداً . كان القادمون الجدد من الايرلنديين — وقد مرت ست أو ثماني سنوات كانت فيها باكنجتاون مدينة ايرلندية تماماً . وحتى اليوم كانت ماتزال فيها بعض التجمعات الايرلندية إلى حد يكفي لادارة كل النقابات وقوة الشرطة وممارسة أعمال الكسب غير المشروع . لكن ، معظم من كانوا يعملون في دور التعليب شدوا رحالهم لدى الهبوط التالي في الأجور أي بعد الاضراب الكبير . بعدئذ جاء البوهيميون ثم البولنديون . ويقال أن دورهام القديم نفسه هو المسؤول عن هذه الهجرات ، فقد اقسم أن يأتي لباكنجتاون بأناس لايستطيعون ابداً اعلان اضراب عليه ، وهكذا كان يبعث بوكلائه إلى كل مدينة وقرية من اوروبا لبث الاقاويل عن فرص العمل وعن الاجور العالية في الزرائب . وكان الناس يجيئون زرافات زرافات ليشدد دورهام العجوز قبضته عليهم أكثر واكثر ، ويسرعهم ويطحنهم فتاتاً ثم يبحث عمن يحل محلهم . وهكذا جرف الليتوانيون البولنديين الذين جاؤوا أول ماجاؤوا بعشرات الآلاف والآن يتراجع الليتوانيون أمام السلوفاك . ومن هناك اشد فقراً وبؤساً من السلوفاك ؟ لم تكن لدى الجدة ماجوتزكين اية فكرة ، لكن أصحاب دور التعليب سيكتشفونهم ، لاتخافوا ابداً . اذ من السهل الاتيان بهم فالاجور اعلى بكثير من اجور بلادهم فعلا ، ولسوف يكون الوقت متأخراً حين يعلم هؤلاء المساكين أن كل شيء هنا ، لا الأجور وحسب ، أعلى سعراً من بلادهم .

انهم يصبحون أشبه بالجرذان في مصيدة ، تلك هي الحتمية بينما يتكدس المزيد منهم كل يوم . لكن شيئاً فشيئاً يأخذون بثأرهم ، اذ أن الأمر يتجاوز حدود التحمل البشري ، فيثور الناس ويقتلون أرباب العمل . كانت الجدة ماجوتزكين اشتراكية أو شيئاً من هذا ، فابن آخر من ابنائها كان يعمل في مناجم سيبريا ، والسيدة العجوز نفسها كانت تلقي خطباً في زمانها — الأمر الذي جعلها تبدو أشد رهبة في أعين سامعيها .

ومرة ثانية اعادوها إلى قصة المنزل . العائلة الالمانية كانت من الصنف الجيد لكن بالتأكيد كان عدد افرادها كبيراً ، وهو الأمر الشائع في باكنجتاون ، لكنهم كانوا يعملون بدأب شديد وكان الوالد رجلا صلباً قوي الشخصية وقد سدد أكثر من نصف ثمن المنزل . لكنه قتل في حادث مصعد في منشأة دورهام .

بعدئذ جاء الايرلنديون ، وكان عددهم كبيراً ايضاً ، كان الزوج يثمل ويضرب أولاده — وكان بامكان الجيران ان يسمعوا صراخهم كل ليلة . وكانوا يتأخرون عن دفع الايجار دائماً ، لكن الشركة احسنت معاملتهم . فقد كان وراء ذلك سياسة ما ، لم تفصح الجدة ماجوتوكين بشيء عنها . سوى أن عائلة « لافرتي » هذه كانت تنتسب « لعصبة الترويج للحرب » وهي اشبه بناد سياسي يضم كل الصعاكين ومحبي الخصام في المنطقة ، واذا ماانتسبت إلى ذلك النادي ، لم يعد

بالامكان القاء القبض عليك لاي سبب كان . فذات مرة امسكوا بلافرتي العجوز مع عصبة تمارس سرقة أبقار الفقراء في المنطقة ثم ذبحها في مكان قذر يقع خلف الزرائب ومن ثم بيعها . وقضى في السجن ثلاثة أيام ثم خرج وهو يضحك اذ لم يفقد حتى مكان عماه في دار التعليب . لكنه رغم ذلك استمر يشرب حتى اهلكه الشراب وفقد كل قواه ، فانبرى ابنه ، الذي كان رجلا طيباً ، يرعاه هو واسرته إلى أن قضى عليه السل بعد عام أو عامين .

وهذا أمر آخر ، قاطعت الجدة ماجوتزكين نفسها -- فهذا المنزل مشؤوم . كل عائلة تقطن فيه يصاب أحد افرادها بالسل . لاأحد يستطيع تفسير ذلك . انما لابد أن يكون ثمة شيء في هذا المنزل . أوربما الطريقة التي بني فيها -- فالبعض يقولون إن السبب في ذلك هو أن البناء بدأ وقت إظلام القمر . وكانت هناك عشرات المنازل في باكنجتاون بنيت بالطريقة ذاتها . احياناً تكون هناك غرفة خاصة يمكنك التعرف اليها فاذا مانام أحد في تلك الغرفة غدا أشبه بالموتى . بالنسبة لهذا المنزل كان الايرلندي هو أول من اصيب بالسل فيه ثم جاءت العائلة البوهيمية ففقدت طفلاً من اطفالها -- مع ذلك ليس الأمر مؤكداً تماماً ، نظراً لان من المتعذر معرفة الأمراض التي يشكو منها الاطفال العاملون في المسالخ . ففي تلك الأيام لم يكن ثمة قانون يحدد سن العمل بالنسبة للاطفال -- وكان أصحاب دور التعليب يشغلون الجميع ماعدا الأطفال

الرضع . عند هذه الملاحظة بدت العائلة مندهلة تماماً، ومرة ثانية وجدت الجدة نفسها مضطرة لتقديم تفسير – فالقانون الآن يمنع تشغيل الاطفال قبل سن السادسة عشرة. مامعنى ذلك ؟ سألوها. فقد كانوا يفكرون بتدبير عمل لستانيسلوفاس الصغير . حسناً، لاحاجة للانزعاج ، أجابت الجدة ماجوتزكين – فالقانون لم يحدث أي فارق سوى أنه أجبر الناس على الكذب فيما يتعلق باعمار اولادهم . لكن المرء يود أن يعلم ماالذي يتوقعه واضعو القانون من هؤلاء الناس . فهناك عائلات لا وسيلة لديها لاعالة نفسها سوى اولادها والقانون لم يقدم لها طريقة اخرى لتأمين معيشتها . كذلك غالباً مايحدث أن يظل الرجل شهوراً بدون عمل في باكنجتاون ، في حين يستطيع الولد أن يحصل على عمل بسهولة تامة ، فهناك دائماً آلة جديدة يمكن لاصحاب دور التعليب أن يحصلوا بتشغيل ولد عليها مايحصلون عليه من تشغيلهم رجلاً كبيراً وبثلث الأجر لا أكثر .

لنعد إلى المنزل ثانية ، فقد كان الشخص الذي قضى نحبه من العائلة الثانية هو الزوجة . وقد حدث ذلك بعد أن مر على اقامتهم في المنزل اربع سنوات تقريباً ، كانت المرأة فيها تضع توأماً من الأطفال كل عام – وكان لديهم أطفال أكثر مما يمكنك احصاؤه عندما رحلوا إلى المنزل . بعد أن توفيت كان الرجل يذهب إلى العمل ليترك اولاده يسرحون على هواهم في الحي – وكان الجيران يمدون لهم يد المساعدة

بين الحين والحين لانهم كانوا يتجملون حتى الموت تقريباً . في النهاية ظالوا ثلاثة أيام بمفردهم قبل ان يكتشف اهل الحي موت والدهم . كان الرجل يعمل « ماسح أرض » في منشأة جونس . وفي أحد الأيام هاجمه ثور جريح افلت من حظيرته وهشمه بين قرنيه والعمود .بعد ذاك نقل الأطفال وباعت الشركة المنزل في الاسبوع نفسه لجماعة جديدة من المهاجرين .

هكذا تابعت العجوز الكئيبة قصتها ، قصة الاهوال . كم كان فيها من المبالغة ، من تراه يستطيع القول ؟ لكنها كانت معقولة ايضاً . فهناك ذلك الجزء من القصة المتعلق بالسل مثلاً . انهم لايعرفون شيئاً عن السل ، عدا انه يجعل الناس يسعلون ، ومنذ اسبوعين كان قد انتابهم القلق بسبب سعال انتاناس ، فقد بدأ يهز جسمه هزاً ولم يكن يتوقف ، كما بات باستطاعتك أن ترى لطخة حمراء حيثما يبصق على الأرض .

لكن هذا كله لم يكن شيئاً بالمقارنة بما حكته لهم بعد وقت قصير . فقد بدؤوا يسألون السيدة العجوزعن أسباب عجز عائلة من العائلات عن الدفع ، محاولين أن يوضحوا لها بالارقام أن ذلك أشبه بالمستحيل ، وبدأت الجدة تناقش ارقامهم -- تقولون اثني عشر دولاراً شهرياً ، لكن ذلك لايتضمن الفائدة .

عندئذ حملقوا بها مندهشين ثم صرخوا بصوت واحد « فائدة ! ! » .

فأجابت « أجل . فائدة على المال الذي ماتزالون مدينين به »

« لكننا لسنا ملزمين بدفع أية فائدة » هتف ثلاثة أو أربعة منهم في آن واحد ، « ماعلينا الا أن ندفع اثني عشر دولاراً شهرياً » .

فضحكت منهم ثم قالت « انتم كالآخرين ، كلكم سواء . يخدعونكم بسهولة ويأكلونكم وانتم احياء . فهم لايبيعون المنازل بغير فائدة . أخرجوا وثيقتكم وأمعنوا فيها النظر » .

عند ذاك ، فتحت تيتا إزبييتا درجها وقد غاص قلبها بين جنبيها هلعاً ، ثم أخرجت الورقة التي كانت قد سببت لهم الكثير من العذابات . حينذاك تحلقوا حولها وقد حبسوا أنفاسهم جميعاً ، بينما امسكت العجوز التي كانت تحسن القراءة ، بالورقة ومرت بها على عجل ، ثم قالت اخيراً « أجل ، هاهي ذي ، طبعاً . بفائدة تحسم شهرياً بمعدل سبعة بالمائة في السنة » .

وتلا ذلك صمت مطبق « مامعنى ذلك ؟ » سأل جرجس اخيراً فيما يشبه الهمس .

فأجابت العجوز « هذا يعني أن عليكم أن تدفعوا سبعة دولارات في الشهر القادم علاوة على الاثني عشر » .

ومرة أخرى خيم صمت مطبق ، صمت كأنه الكابوس الذي تشعر فيه بأن شيئاًما ينهار تحت قدميك وأنك تغوص وتغوص في هاوية

ليس لها قرار . لقد رأوا انفسهم وبسرعة البرق ضحايا قدر لايرحم .
محاصرين في زاوية ، وقد اطبق عليهم الفخ ، لقمة سائغة في فم الهلاك .
كل مابنوه من آمال كان يتهشم ، وكانوا يسمعون صوت تهشمه
بآذانهم. وطوال الوقت كانت العجوز مستمرة في الكلام . كانوا يودون
لوتصمت ، فقد بدا صوتها اشبه بنعيب غراب مخيف . كان جرجس
يجلس وقد اطبق قبضتيه باحكام وقطرات العرق تسيل على جبينه ،
أما اونا فقد كانت تشعر بأن هناك كتلة كبيرة تسد بلعومها وتخنقها.
عند ذاك شقت حجاب الصمت ولولة اطلقتها تيتا الزبيبتا ، ثم شرعت
ماريا تعتصر يديها وتنشج « آي ! آي ! بيدامان ! » .

لكن الصراخ لايجدي فتيلاً بالطبع . فقد كانت الجدة ماجوتزكين
تجلس هناك وهي تمثل القدر . وبالطبع لم يكن قدراً حسناً ، انما لم
تكن المسألة في تلك اللحظة مسألة حسن أو قبح . فهم لم يكونوا يعرفون
ذلك القدر ، بل كان المقصود ألا يعرفوه ، الا انه كان في الوثيقة
وكان ذلك كل مايلزم ، اذ سيكتشفونه عندما يحين الوقت .

بشكل أو بآخر تخلصوا من ضيفتهم ومن ثم امضوا الليل في النواح .
افاق الاولاد فاكتشفوا أن هناك خطباً ما ، فاعولوا بدورهم دون أن
يجدوا من يسكتهم . في الصباح ، كان على معظمهم ، طبعاً ، أن يذهبوا
إلى العمل ، فدور التعليب لاتوقف اعمالها بسبب احزانهم ، لكن ماان
حلت الساعة السابعة حتى كانت اونا وامرأة ابيها تقفان عند عتبة مكتب

الوكيل . وعندما جاء قال لهم : أجل . . هذا صحيح تماماً ، عليكم أن تدفعوا فائدة . عند ذاك انطلقت تيتا الزبيبتا تحتج وتصيح حتى بدأ المارة يتوقفون ويسترقون النظر من النافذة . غير أن الوكيل ظل لطيفاً هادئاً كعادته ابداً . بل لقد قال لهما انه يتألم أشد الألم عليهم وانه لم يذكر هذه النقطة ، لأنه كان يظن أنهم يعرفونها ، فدفع فائدة على الدين أمر طبيعي متوقع .

وهكذا عادتا لتذهب اونا عند الظهيرة إلى المسلخ كي ترى جرجس وتنقل الخبر اليه فتلقاه جرجس برباطة جأش – اذ كان قد أعد نفسه للأمر حتى ذلك الحين .

لقد كان ذلك جزءاً من قدرهم ، ولسوف يتدبرون الأمر بشكل من الاشكال « سأعمل بجد أكثر » نطق اخيراً بجوابه المعهود . لكنه اعترف بأن هذا الاكتشاف سيقلب خططهم لحين من الزمن ، ولعله يتوجب على اونا نفسها أن تعمل . عند ذاك اضافت اونا ان تيتا قررت تشغيل ستانيسلوفاس الصغير ايضاً . فليس من المستحسن تركها هي وجرجس يعيلان العائلة ، بل على العائلة ان تساعد ما وسعها ذلك . كان جرجس في السابق يعارض هذه الفكرة كل المعارضة ، لكنه الآن قطب حاجبيه ولوح برأسه على مهل – أجل ، ربما سيكون من الأفضل أن يقدم الكل تضحيات من نوع ما .

وهكذا انطلقت اونا في ذلك اليوم للبحث عن عمل ، وفي الليل

عادت ماريا إلى المنزل لتقول انها قابلت فتاة تدعى جازيتيه لها صديقة تعمل في احدى غرف الصرفي منشأة براون وأنها قد تؤمن عملاً لاونا . غير أن المشرفة من النوع الذي يأخذ هدايا ولاجدوى من طلبك عملاً منها ان لم تضع في يدها عشرة دولارات . لم يفاجىء هذا الأمر جرجس ، فقد اعتاد عليه الآن — بل اكتفى بالسؤال عن الأجور في ذلك المكان. وهكذا فتح باب المفاوضات ، وعادت اونا بعد مقابلتها للمشرفة لتقول ان هذه احبتها على مايبدو وأن باستطاعتها ، وان تكن غير متأكدة تماماً ، أن توكل اليها مهمة خياطة الأغطية التي تغطى بها اللحوم ، وهو عمل يدر ما لايقل عن ثمانية دولارات في الاسبوع . ذلك يبشر بالخير ، قالت ماريا بعد أن استشارت صديقتها ، ثم انعقد مؤتمر محموم في المنزل . فذلك العمل يجري في أحد الأقبية ولم يكن جرجس يريد أن تعمل اونا في مكان كهذا ، لكنه كان عملاً سهلاً والمرء لايستطيع أن ينال كل مايشتهي . اخيراً مضت اونا ، وفي راحة يدها عشرة دولارات تكويها ، لتقابل مرة أخرى المشرفة العزيزة .

في غضون ذلك اخذت تيتا الزبيبتا ستانيسلوفاس الصغير إلى الكاهن وحصلت منه على شهادة تثبت أن الغلام أكبر من عمره الحقيقي بعامين ، وبهذه الشهادة انطلق الفتى الصغير يجرب حظه في الدنيا . كان دورهام قد ادخل لتوه آلة جديدة عجيبة لتعبئة شحم الخنزير ، وحين رأى الشرطي الخاص الواقف امام مركز الدوام ستانيسلوفاس الصغير ووثيقته ،

ابتسم بينه وبين نفسه ثم امره بالذهاب « جيا ! جيا ! » مشيراً بيده . وهكذا هبط ستانيسلوفاس ممراً حجرياً طويلاً ثم صعد مجموعة من الدرج افضت به إلى غرفة منارة بالكهرباء . تعمل فيها الآلات الجديدة الخاصة بتعبئة العلب بشحم الخنزير . كان الطابق السفلي مخصصاً لمعالجة الشحم معالجة كاملة ، حيث يندفع هذا إلى الاعلى على شكل نوافير صغيرة تشبه ثعابين جميلة متلوية بيضاء كالثلج ذات رائحة كريهة . وكان هناك عدة حجوم وأنواع من هذه النوافير التي تتوقف بصورة آلية ، حين تنفث قدراً معيناً من الشحم ، ثم تدور الآلة العجيبة دورة صغيرة تأخذ بها العلبة لتضعها تحت نفثة اخرى وهكذا إلى أن تمتلىء حتى الحافة تقريباً ثم تضغطها باحكام وتملسها . وللاشراف على هذا كله وتعبئة عدة مئات من العلب كل ساعة كان يلزم وجود مخلوقين بشريين ، احدهما يعرف كيف يضع العلبة الفارغة في نقطة معينة كل بضع ثوان والآخر يعرف كيف يأخذ العلبة المعبأة بالشحم من نقطة معينة كل بضع ثوان ويضعها على صينية .

وهكذا ، وبعد أن وقف ستانيسلوفاس الصغير يحملق مذعوراً حوله لبضع دقائق ، دنا منه رجل وسأله عما يبتغي فأجاب ستانيسلوفاس «عمل » عندئذ سأله الرجل «كم عمرك؟» فاجاب الغلام « ست عشرة » . مرة أو مرتين في العام كان المفتش الحكومي يأتي ليطوف في منشأة التعليب سائلاً ولداً هنا وولداً هناك عن عمره .

وهكذا كان أصحاب دور التعليب حذرين بخصوص الأعمار حريصين على تطبيق القانون الذي لم يكن يكلفهم أكثر من أن يتناول رئيس العمال وثيقة الفتى ، مثلما فعل رئيس العمال هذا مع ستانيسلوفاس والنظر اليه ومن ثم ارساله إلى المكتب لفتح اضبارة له . بعدئذ وضع شخصاً في عمل آخر وأوضح للغلام كيف يضع علبة الشحم في كل مرة تجيء اليه بها الذراع الفارغة للآلة التي لاترحم ، وبذلك تقرر مكان ستانيسلوفاس الصغير في العالم ومصيره حتى آخر عمره — ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم وسنة تلو سنة . كان قدره أن يظل واقفاً في رقعة صغيرة محددة قرب الآلة بدءاً من السابعة صباحاً وحتى الظهر ، ثم مرة ثانية من الثانية عشرة وحتى الخامسة والنصف دون أن يتحرك حركة واحدة أو تتسنى له معالجة فكرة واحدة ، ماعدا وضع علب الشحم . في الصيف كانت رائحة الشحم الساخن تصيب بالغثيان ، وفي الشتاء كانت العلب تكاد تجمد اصابعه الصغيرة العارية في القبو غير المدفأ . وكان القبو يظل مظلماً اثناء العمل طوال نصف السنة تقريباً ثم يخرج بعد انتهاء العمل ليجد الظلام امامه ايضاً . وهكذا لم يكن يرى الشمس طوال ايام الاسبوع . مقابل هذا كله ، كان يحمل معه في نهاية الاسبوع ثلاثة دولارات ، فمعدل اجرته خمسة سنتات في الساعة — أي حصته تماماً من مجمل مايكسبه مليون وثلاثة ارباع المليون من الاولاد الذين يشتغلون كي يكسبوا قوتهم في الولايات المتحدة اليوم .

اثناء ذالك ، ولانهما كانا شابين صغيرين ، والأمل لايموت قبل اوانه ، فقد عاد جرجس واونا إلى حساباتهما ثانية ، اذ اكتشفا أن اجرةستانيسلوفاس تسدد الفائدة وتزيد قليلاً . ومعنى هذا أن العائلة عادت إلى حيث كانت في السابق . اما هما فلم يكن ينقصهما الا أن يقولا أن الفتى الصغير مسرور من عمله . ومن كسب المزيد من المال وان غرام واحدهما بالآخر يكبر يوماً بعد يوم .

— ٧ —

ظلت العائلة تكد وتتعب طوال الصيف ، وفي الخريف تجمع لديها من المال مايكفي لان يتزوج جرجس وأونا حسب تقاليد الوطن واعرافه . وهكذا استأجروا في أواخر تشرين الثاني صالة من الصالات ودعوا كل معارفهم الجدد الذين جاؤوا وتركوهم غارقين في دين يزيد على المائة دولار .

إنها تجربة مرة وقاسية بالنسبة للعروسين دفعتهما إلى خضم العذاب واليأس . ان يعيشا في زمن كهذا ومن بين كل الازمنة ، هما صاحبا القلبين الرقيقين ! ! أن تكون بداية حياتهما الزوجية مثيرة للشفقة بهذا الشكل ! كان واحدهما يحب الآخر ولم يعد بوسعهما تحمل أي ارجاء . انه الوقت الذي كان كل شيء يصيح بهما أن عليهما ان يسعدا . وكان العجب يحترق في قلبيهما والدهشة تتلظى لهباً مع كل نفس من

انفاسهما . كانا يهتزان حتى الاعماق من رغبة الحب الأكيد -- فهل هو ضعف منهما أن يصرخا طلباً لبعض الراحة ؟ كان قلباهما يتفتحان كما تتفتح الازهار للربيع وكان الشتاء القاسي قد حط عليهما . وكانا يتساءلان انكان هناك اي حب زاهر في الدنيا قد تحطم وديس عليه بهذا الشكل .

على ظهريهما ، كان يفرقع ، بوحشية وبلا رحمة ، سوط الحاجة ، وفي الصباح الذي تلا العرس ، أيقظهم من نومهم قبل طلوع الفجر وهو يدفعهم دفعاً إلى العمل . لم تكن اونا قــادرة الا بالكاد على الوقوف اعياءً وانهاكاً ، لكنها ان فقدت عملها فسيدمرهم ذلك . وهي ستفقده بالتأكيد ان لم تصل إلى مكان العمل في الوقت المحدد . كان عليهم جميعاً أن يذهبوا ، حتى ستانيسلوفاس الصغير الذي كان مريضاً من فرط التهام النقانق والسارسابريلا (١) . وطوال ذلك اليوم ظل يقف عند آلته يتأرجح يميناً وشمالاً مغمض العينين رغماً عنه وكان قاب قوسين أو أدنى من فقدانه عمله إذا اضطر المشرف مرتين لاستخدام حذائه وركله كي يوقظه .

ولقد مضى اسبوع كامل قبل أن يستعيدوا حالتهم العادية مرة ثانية . في غضون ذلك ، ومع عويل الصغار وعصبية الكبار ،

---

(١) السارسابريلا : شراب غازي منكه بنبات معترش يدعى الفشاغ وينمو في أمريكا .

لم يكن المنزل بالمكان المريح الذي يمكن العيش فيه . غير أن جرجس لم يفقد أعصابه البتة - والسبب في ذلك اونا . فحسبه نظرة واحدة اليها لجعله يضبط نفسه . لقد كانت بالغة الحساسية - ولم تكن خلقت لحياة كهذه ، وكان كلما فكر بها ، وللمائة مرة في اليوم ، يطبق قبضتيه باحكام ويندفع مرة ثانية في العمل المفروض عليه . كان يقول لنفسه ، انها فتاة « طيبة جداً ، وكان خائفاً ، خائفاً كثيراً لانها كانت فتاته . لقد صبر طويلاً وتحمل كثيراً كي تصبح له ، اما الآن وقد اصبحت كذلك فقد عرف انه لم يكن يستحقها وأن ثقتها به نتيجة طيبتها وبساطتها لانتيجة فضائله هو لكنه صمم على الا يدعها تكتشف هذا ابداً . كان حذراً دائماً من أن يكشف أمامها أي جانب من جوانب نفسه البشعة . كان حذراً حتى في القضايا الصغيرة ، كسلوكه مثلاً وعادته في التجديف والسباب حين يقع اي خطأ ، وكانت الدموع تنحدر بسهولة من عيني اونا وهي تتطلع اليه بتضرع - الأمر الذي أبقى جرجس مشغولاً تماماً باتخاذ القرارات ، علاوة على كل الاشياء الاخرى التي كانت تشغل ذهنه . والحقيقة أن اشياء كثيرة كانت تشغل بال جرجس في هذا الوقت ، أشياء أكثر بكثير من أي وقت مضى .

كان عليه أن يحميها ، أن يصارع من أجلها الأهوال التي رآها تحدق بهم . كان جرجس كل شيء في حياتها ، واذا مافشل فانها ستضيع . كان يلف ذراعيه حولها ويحاول ان يخفيها عن العالم . كان

قد تعلم الأساليب التي تجري فيها الأمور من حوله ، وكانت الحرب حربهما ضد كل شيء . فأنت لاتقيم مآدب للآخرين بل تنتظر منهم أن يقيموا لك مآدب ، وأنت تمضي في كل مكان ونفسك مفعمة بالريبة والكراهية وأنت تدرك انك محاط من كل صوب بقوى معادية تحاول نهب مالك وتستعمل كل فضائلها كي تجعلك طعماً للفخ الذي نصبته لك . أصحاب الدكاكين يزينون نوافذهم بكل أنواع الخدع والأكاذيب كي يغروك ، الحواجز ذاتها القائمة على جوانب الطرق ، اعمدة المصابيح ، بل حتى اعمدة الهاتف مطلية كلها بالخدع والأكاذيب . والمؤسسة الكبيرة التي تشتغل لديها تكذب عليك ، وتكذب على البلاد كلها — من القمة إلى القاع ليس ثمة شيء سوى كذبة واحدة كبيرة .

هكذا كان جرجس يفهم المسألة ، ومع ذلك كان الأمر محزناً ، لأن الصراع غير متكافىء — بعضهم يتمتع بكثير من المزايا ! فها هو ، مثلاً ، يركع على ركبتيه مقسماً على أن يحمي اونا من الاذى . انما لم يمر اسبوع حتى وجد نفسه يعاني اشد المعاناة ، ومن ضربة لم يكن بمستطاعه تفاديها ابداً . فقد جاء يوم هطل فيه المطر مدراراً ، ولاعجب فالشهر كانون الأول ، وأن تتبلل بالمطر وتضطر للجلوس طوال النهار في أحد اقبية براون الباردة مسألة غير مضحكة بتاتاً ، كانت اونا فتاة عاملة ولم يكن لديها واقيات مطر وما شابه . وهكذا أخذها جرجس وأركبها في الترام . وكان خط الترام هذا ملك اشخاص

يحاولون كسب ثروة سريعة ولان البلدية اصدرت امراً يقضي باعطاء تذاكر تخول الراكب الانتقال من ترام إلى آخر ، فقد هاجوا وماجوا غضباً ، ووضعوا قاعدة هي أنه لايمكن الحصول على هذه التذاكر الا عندما تدفع الاجرة ، ثم وضعوا قاعدة أخرى أشد بشاعة حتى — وهي أن على الراكب أن يطلب التذكرة لا أن يقدمها الجابي له . الآن قيل لاونا أن عليها أن تحصل على تذكرة . وبما أنها لم تعتد أن ترفع صوتها ، فقد انتظرت وحسب ، متتبعة الجابي بناظريها متسائلة في سرها متى تراه سيفكر بها ، وحين وصلت اخيراً إلى حيث يتعين عليها النزول ، طلبت التذكرة فرفض الجابي اعطاءها اياها ولكونها تجهل ماينبغي فعله ، فقد بدأت تجادل الجابي بلغة لم يفهم كلمة واحدة منها . وبعد تحذيرها مرات عدة ، شد الجرس فانطلق الترام — مما جعل أونا تنفجر بالبكاء . في الموقف التالي خرجت أونا ، طبعاً . وبما أنها لم تكن تملك أية نقود ، فقد تعين عليها أن تسير بقية الطريق إلى المسلخ تحت المطر المنسكب كالقرب . وهكذا جلست النهار بطوله وهي ترتعش ثم عادت إلى المنزل ليلا تصطك أسنانها وتعاني من آلام شديدة في رأسها وظهرها . ولأسبوعين بعد ذاك ، ظلت أونا تعاني أشد المعاناة — ورغم ذلك ، كانت تجر نفسها كل يوم كي تلتحق بعملها . فمشرفتها قاسية في معاملتها كثيراً لأنها تعتقد أن أونا حاقدة عليها لعدم اعطائها اجازة في اليوم الذي أعقب عرسها . أما أونا فقد كانت تفكر بأن « مشرفتها »

تكره كثيراً أن تتزوج فتياتها — ربما لأنها هي نفسها مسنة قبيحة ولم تتزوج بعد .

كانت هناك أخطار كثيرة من هذا القبيل ، ولم تكن ثمة ميزة واحدة لصالحهم . فالأولاد ليسوا سعداء كما كانوا في الوطن . وأنى لهم أن يعلموا أن منزلهم بغير مجارير وأن تصريف المياه الوسخة مدة خمسة عشر عاماً كان يتم في مجرور يقع تحته . أنى لهم أن يعلموا أن الحليب ذا اللون الأزرق الباهت ، الذي كانوا يبتاعونه من مكان قريب من الزاوية ، ممزوج بالماء فضلا عن أنه معالج بالفورما لدهيد ؟ عندما كان الأطفال يصابون بمرض من الأمراض في الوطن ، كانت تيتا الزبييتا تجمع بعض الأعشاب وتعالجهم أما الآن فقد كانت مضطرة للذهاب إلى الصيدلية وابتياع خلاصات الأعشاب ، وأنى لها أن تعلم أنها كلها مغشوشة ؟ أنى لهم أن يكتشفوا أن شايهم وبنهم ، سكرهم ودقيقهم كلها معالجة بالمواد الكيماوية ، وأن البازلاء المعلبة التي يتناولونها تأخذ لونها من أملاح النحاس وأن مربيات الثمار مصبوغة بأصبغة الأنيلين ؟ بل حتى لو عرفوا ذلك ، أي نفع ستعود به عليهم هذه المعرفة ، طالما أنه ما من مكان آخر على بعد ميل كامل يمكنهم أن يشتروا شيئاً منه ؟ كان الشتاء القارس على الأبواب ، وعليهم أن يوفروا بعض النقود كي يشتروا المزيد من الملابس وأغطية النوم . لكن مهما وفروا فلن يكون باستطاعتهم الحصول على شيء يدفئهم . فكل الملابس التي يمكنهم

شراؤها من المخازن انما هي مصنوعة من القطن والصوف الرديء ؛ ملابس تصنع بتمزيق الثياب القديمة ارباً ارباً ومن ثم تنسج خيوطها مرة ثانية وإذا دفعوا أسعاراً أعلى فانهم قد يحصلون على ملابس مزخرفة وغريبة الشكل انما رديئة النوعية ذلك أن من الصعب عليهم الحصول على النوعية الجيدة من الملابس لا مقابل الحب ولا مقابل النقود . أحد أصدقاء تزيدفيلاس وكان قد وصل قبل فترة وجيزة من الخارج ، أصبح موظفاً في أحد المخازن في شارع آشلاند ، روى بكثير من المرح خدعة لعبها رئيسه على ريفي ساذج كان يرغب بشراء ساعة منبه ، فعرض عليه الرئيس ساعتين متشابهتين تماماً قائلا له أن سعر الأولى دولار وسعر الثانية دولار وخمسة وسبعون سنتاً . وحين سأله الريفي عن الفارق بينهما . قام الرجل بلف نابض أولاهما نصف لفة والثانية لفة كاملة ثم بيّن للزبون كيف أن الثانية تعطي صوتاً ضعف الأولى ، الأمر الذي جعل الزبون يقول أن نومه ثقيل وأن من الأفضل له أن يشتري الساعة الأغلى .

ثمة شاعر يقول :

تشتد أحاسيسهم عمقاً وهيئتهم نبلا ،

من يحرقون شبابهم في نيران العذاب .

لكن من غير المحتمل أن يكون هذا الشاعر قد قصد ذلك النوع من العذاب الذي يرافق العوز والاملاق ، ذاك الذي يكون مراً وقاسياً

بشكل لا حدود له . مرعباً فظيعاً ، بشعاً ، مذلا — لايخفف من وطأته أثر من رفعة أو حتى شفقة . انه ذلك النوع من العذاب الذي لايتعامل معه الشعراء عموماً ، الكلمات التي تعبر عنه لا تدخل أبداً قاموس الشعراء — والتفاصيل المتعلقة به لايمكن التكلم عنها في المجتمع الراقي على الاطلاق . كيف . مثلا ، يمكن للمرء أن يتوقع اثارة التعاطف لدى عشاق الأدب الجيد باخبارهم كيف تجد عائلة من العائلات منزلها مليئاً بالهوام ، أو التحدث إليهم عن كل العذاب والضيق والمذلة التي وجدوا أنفسهم عرضة لها ، وعن تلك الأموال التي شقوا كل الشقاء للحصول عليها ثم انفقوها وهم يحاولون التخلص من هذه الهوام ؟ فبعد أخذ ورد طويلين دفعت العائلة خمسة وعشرين سنتاً ثمن علبة كبيرة من مسحوق قاتل للحشرات — وهو مستحضر فعال . كما قالوا لهم ، خمسة وتسعون بالمائة منه يتكون من الجص . وهو نوع من التربة غير الضارة يكلف تحضيره حوالي سنتين . بالطبع لم يكن لهذا المستحضر أية فعالية ، اللهم إذا ما استثنينا بعض الصراصير التي كان سوء حظها يقودها إلى أن تشرب ماء بعد التهامه ، مما يحول المسحوق إلى كتلة من العجينة اللاصقة في أحشائها . ولم يكن باستطاعة العائلة ، هي التي لاتملك أية فكرة عن هذه الشؤون وليس لديها الكثير من النقود لانفاقها هنا وهناك ، أن تفعل شيئاً سوى الاستسلام لنوع آخر من أنواع البؤس بقية أيامها .

بعدئذ جاءت مشكلة انتاناس العجوز . فقد جاء الشتاء والمكان الذي يعمل فيه قبو رطب معتم ، يمكن لعينيك أن تريا فيه أنفاسك طوال النهار وتكاد أصابعك أن تتجمد أحياناً . وهكذا بدأ سعال العجوز يشتد إلى أن جاء يوم لم يعد يتوقف البتة ، وغدا مصدر ازعاج لكل من في المكان . بعد ذاك حدث شيء آخر أكثر فظاعة حتى ، فحيث يعمل كانت قدماه تتبللان بالمواد الكيماوية ، ولم يمر وقت طويل حتى برزتا من حذائه المهترىء ثم بدأت القروح تظهر في قدميه وتزداد سوءاً يوماً بعد يوم . ما إذا كان دمه قد فسد أو أن هنالك جرحاً : أمر لم يستطع التأكد منه البتة لكنه سأل زملاءه فعلم أن الأمر عادي — انها نترات الصوديوم أو البوتاسيوم . فكل من يلمسها يصاب بمثل هذا التقرح ان عاجلا أو آجلا ومن ثم ينتهي أمره ، على الأقل بالنسبة لذلك النوع من الأعمال . فالقروح قد لاتشفى — وفي النهاية تتساقط أصابع قدميه ان لم يترك . مع ذلك لم يكن انتاناس العجوز ليترك ، كان يرى عذابات عائلته ولم يكن قد نسي بعد ، ماكلفه حصوله على هذا العمل من مشقة وجهد . وهكذا شد رباطاً على قدميه ومضى يعمل وهو يعرج ويسعل ، إلى أن تحطم ارباً ، مرة واحدة وإلى الأبد سقط متكوماً وكأنه عربة صغيرة ذات حصان واحد . حمله زملاؤه إلى مكان جاف وكوموه على الأرض ، وفي ذلك المساء ساعده اثنان منهم فأوصلوه إلى منزله . وضع العجوز المسكين في فراشه ولم يستطع ، رغم محاولاته المتكررة كل يوم ، أن ينهض أبداً . كان يستلقي هناك يسعل ليل نهار ، ذائباً

يوماً بعد يوم حتى لم يعد أكثر من هيكل عظمي . بل لقد جاء وقت بدأت العظام تتحرك عبر ذلك اللحم الهزيل الذي تبقى وكان أمراً فظيعاً أن ترى ذلك أو تفكر به حتى . ذات ليلة جاءته نوبة سعال خانقة ، ثم انبثق من فمه جدول من الدم . فأرسلت العائلة وقد جنت هلعاً ، خلف طبيب ثم دفعت له دولاراً لكي يقول أن لافائدة من العجوز أبداً . ورحمة بالعجوز لم يقل الطبيب هذا على مسمعه إذ كان ما يزال مؤمناً بانه سيتحسن غداً أوبعد غد وأنه سيعود إلى عمله . . فالشركة أرسلت تقول أنها ستحتفظ له بمكانه أو أن جرجس هو الذي رشا أحد العمال كي يأتي في عصر يوم أحد ويقول له ذلك . وظل انتاناس على ايمانه ، رغم أنه أصيب بثلاث حالات نزيف أخرى ثم وجدوه ذات صباح متصلباً بارداً . لم تكن أمورهم على ما يرام حينذاك ، وقد اضطروا للتغاضي عن معظم مراسم الجنازة تقريباً واكتفوا بعربة موتى وعربة أجرة للنساء والأطفال . فقد قضى جرجس ، الذي تعلم الأشياء بسرعة ، يوم الأحد كله وهو يساوم على هذه الأشياء ثم عقد الصفقة بحضور شهود حتى إذا حاول الرجل تحميله نفقات ثانوية أخرى لم يضطر للدفع . طوال خمسة وعشرين عاماً كان العجوز انتاناس وابنه يقيمان في الغابة معاً ، وكان من الصعب أن ينفصلا بهذه الطريقة لكن ربما كان من حسن حظ جرجس أنه اضطر لايلاء اهتمامه كله لاقامة الجنازة دون أن يصاب بالافلاس ، وبذلك لم يجد وقتاً للغرق في الذكريات والأحزان .

الآن ، حط الشتاء المخيف عليهم . في الغابات وطوال الصيف ، كانت أغصان الأشجار توفر لهم الضوء إذ كان بعضها يضعفُ ويتكسر ، ثم تأتي الرياح الهائجة وعواصف الثلج والبرد فتغطي الأرض بتلك الأغصان الضعيفة . هكذا كان الأمر تماماً في باكنجتاون . كانت المنطقة كلها تعد نفسها للكفاح وكان الكفاح هنا عذاباً حقيقياً ، كذلك كان هناك آخرون يعدون أنفسهم . إنهم أولئك الذين حان حينهم والذين سيقضون نحبهم جماعات جماعات . فعلى مدار السنة كانوا يعملون كأجزاء من آلة التعليب الهائلة والآن آن الأوان لتجديد هذه الآلة واستبدال أجزائها التالفة . فهنا تأتي ذات الجنب والنزلةوالصدرية أمراض كثيرة أخرى تتجول بينهم باحثة عن البنى الضعيفة ، وهناك الحصاد السنوي للسل ، ذاك الذي يحصد بمنجله أولئك الذين وهنت أجسامهم وهزلت ؛ كما تأتي الرياح القارسة اللاذعة ، وعواصف الثلج لتختبر بغير رحمة العضلات العاجزة والدم الفقير . ثم عاجلاً أو آجلاً يأتي اليوم الذي يتغيب فيه المصاب عن العمل ، حينذاك وبغير اضاعة وقت وبغير سؤال أو ندامة يشطبون اسمه ليأتوا بعامل جديد .

والعمال الجدد بالآلاف هنا . فطوال النهار ، ترى أبواب دور التعليب محاصرة بالناس المعدمين والمهددين بالموت جوعاً . والحقيقة أنهم يأتون بالآلاف كل صباح ويعارك بعضهم بعضاً كي تتاح لواحدهم

فرصة يكسب فيها عيشه . كانوا يأتون تحت المطر والثلج ، لا فرق أبداً ، ليكونوا في متناول اليد دائماً ، وكنت تجدهم في متناول اليد قبل شروق الشمس بساعتين ، وقبل ابتداء العمل بساعة . أحياناً كانت وجوههم تتجمد ، وأحياناً أقدامهم وأيديهم وأحياناً أخرى تتجمد كل أجسامهم لكنهم يظلون . فليس ثمة مكان يذهبون إليه . ذات يوم أعلن دورهام في احدى الصحف عن حاجته لمائتي رجل كي يقطعوا الجليد . وطوال ذاك اليوم ظل جائعو ومشردو المدينة يخوضون في الثلج وقد توافدوا من كافة أنحاء المدينة أي من مساحة لاتقل عن مائتي ميل مربع . وفي تلك الليلة احتشد ما يزيد على ثمانمائة منهم في الدار المركزية لمنطقة الزرائب — كانت الغرف تعج بهم وكان بعضهم ينام في حجور البعض الآخر وفق طراز المزلقة ، كما كان بعضهم يتكوم فوق بعض في الممرات الى ان انغلقت أبواب المكان وبقي البعض في الخارج عرضة للتجمد . في اليوم التالي وقبل طلوع الشمس ، كان هناك ثلاثة آلاف رجل عند منشأة دورهام مما اضطرت معه كل قوى الشرطة واحتياطيها لأن تتدخل لتفريق الشعب. عند ذاك اختار رؤساء عمال دور هام عشرين رجلاً من أضخم الرجال ، وتبين أن « المائتين » كتبت في الصحيفة نتيجة خطأ مطبعي .

على بعد أربعة أو خمسة أميال إلى الشرق كانت تقع البحيرة وعلى هذه البحيرة كانت الرياح القارسة تهيج . كانت درجة الحرارة تنخفض في بعض الليالي إلى عشر أو عشرين درجة تحت الصفر وكنت ترى

الشوارع في الصباح وقد تكدست عليها طبقات الثلج حتّى بلغت نوافذ الطابق الأول . لم تكن الشوارع الّتي ينبغي على أصحابنا المرور عبرها غير مرصوفة وحسب بل ملأى بالحفر العميقة والأخاديد ، وكان على المرء حين يهطل المطر الصيفي الغزير أن يخوض حتى خصره في الماء قبل بلوغ منزله ، والآن وقد جاء الشتاء ، فلم يعد مزاحاً أن تعبر هذه المواضع قبل شروق الشمس وبعد حلول الظلام . كان القوم يلفون أنفسهم بكل ما يملكون من ثياب انما لم يكن باستطاعتهم أن يلفوا أنفسهم ضد الاجهاد والارهاق ، فكثيراً ما كان المرء يستسلم في معاركه هذه مع طبقات الثلج المكدسة ليلقي بنفسه أرضاً ويستغرق في النوم .

وإذا كان الأمر بهذا السوء بالنسبة للرجال ، فكيف تراه بالنسبة للنساء والأولاد الذين يتعين عليهم الالتحاق بأعمالهم ؟ بعضهم كان يركب العربات إذا كانت العربات تسير ، لكن حين لايكون أجر واحدهم أكثر من خمسة سنتات في الساعة ، كما هو شأن ستانيسلوفاس الصغير ، فلن يجد في نفسه كثيراً من الميل لتبديد مثل هذا المبلغ الصغير على عربات تنقله ميلين . لذا كان الأولاد يأتون إلى المسالخ . وقد لفوا آذانهم بشالات كبيرة وحزموا أنفسهم إلى درجة يصعب عليك معها أن ترى شيئاً منهم — ورغم ذلك ظلت هناك حوادث .

في صباح لاذع القرس من أيام شباط وصل الغلام الذي يعمل مع ستانيسلوفاس الصغير على آلة تعبئة شحم الخنزير ، إلى عمله بعد تأخر

ساعة وكان يصرخ من شدة الألم . فكوا أحزمته في الحال ، وبدأ أحد الرجال يدعك اذنيه بشدة ، وبما أنهما كانتا متجمدتين تماماً ، فلم يقم إلا بدعكتين أو ثلاث حتى سقطت اذنا الغلام عن رأسه . ونتيجة لهذا فقد تملك ستانيسلوفاس الصغير رعب هائل من البرد كاد يبلغ حد الهوس . ففي كل صباح عندما يحين موعد الانطلاق إلى الزرائب ، كان يبدأ الصراخ والاحتجاج . ولم يكن أحد يعلم كيف يتدبر الأمر معه ، فالتهديد لايجدي نفعاً ،– وكان واضحاً أن خوفه أكبر من أن يستطيع السيطرة عليه ، حتى أنهم باتوا يخشون أن يصاب بالتشنج . أخيراً اضطروا لترتيب الأمر بأن يذهب دائماً مع جرجس وأن يعود معه أيضاً وحين تكون طبقات الثلج عميقة على الأرض ، غالباً ماكان الرجل يحمل الصبي على كتفيه طوال الطريق لكن جرجس كان يعمل أحياناً حتى وقت متأخر من الليل ، وحينذاك يغدو الأمر مثيراً للشفقة ، إذ ليس هناك مكان يمكن للغلام أن ينتظر فيه ، ما عدا مداخل الأبواب أو زاوية من زوايا أحواض الذبح وكثيراً ماكان يوشك ، حيث ينتظر ، على السقوط نعاساً والتجمد برداً حتى الموت .

لم يكن ثمة تدفئة في أحواض الذبح ، وكان الرجال يعملون طوال الشتاء هناك وكأنهم يعملون في العراء تماماً . والحقيقة ، لم تكن هناك تدفئة في أي مكان من المبنى ماعدا غرف الطهو وما شابه – الرجال الذين يعملون في هذه الأماكن هم الذين يتعرضون لأشد المخاطر ، ذلك لأنهم حيثما يذهبون يتعين عليهم أن يجتازوا ممرات باردة كالثلج

لا يستر أجسامهم أحياناً إلا قميص داخلي بغير أكمام . في أحواض الذبح ، كان من المحتمل دائماً أن تغطى بالدم وكان الدم يتجمد بقعاً بقعاً عليك ، وهكذا إذا استندت إلى عمود تجد نفسك قد التصقت به ، وإذا وضعت يدك على نصل سكينك ، فقد تعرض نفسك لخطر ابقاء جلدك عليه . كان الرجال يحزمون أقدامهم بأوراق الجرائد والأكياس العتيقة ، فتتبلل هذه بالدم وتتجمد ، ثم تتبلل ثانية وهكذا دواليك ، حتى لايجيء الليل إلا وقد بات الرجل منهم يسير على كتلتين ضخمتين لاتقل حجم واحدتهما عن قدم الفيل . وبين الفينة والفينة ، حين يغفل رؤساء العمال ، كنت ترى العمال يدفعون بأقدامهم وكواحلهم في جثة الثور الحارة المتصاعد منها البخار أو يمرقون كالسهام عبر الغرفة إلى نوافير الماء الحار . على أن أفظع مافي الأمر هو أنهم جميعاً ــ أقصد جميع أولئك الذين يستخدمون السكاكين ــ لايستطيعون ارتداء قفازات ، لذا تغدو سواعدهم بيضاء من الصقيع وتصاب أيديهم بالخدر التام ، الأمر الذي ينجم عنه الكثير من الحوادث . كذلك ، قد يكون الهواء مشبعاً بالبخار ، بخار الدم الحار والماء الحار ، حتى لايعود بوسعك أن ترى أبعد من خمسة أقدام ، لذا تعد عجيبة من عجائب الزمان ، والعمال يندفعون بسرعة هنا وهناك والجزارون يحملون في أيديهم سكاكين أحدّ من شفرات الحلاقة ، ألا يذبح من الرجال أكثر مما يذبح من الماشية .

رغم كل هذه الازعاجات فقد كان بامكان هؤلاء العمال التكيف لو توفر لهم شيء واحد — مكان يتناولون فيه طعامهم . فقد كان على جرجس اما أن يأكل وسط القذارة والرائحة العفنة التي كان يعمل فيها ، أو أن يسرع كما كان يفعل زملاؤه جميعاً ، إلى واحد من مخازن الشراب الكثيرة التي كانت تمد له أذرعتها . فالى الغرب من الزرائب كان يمتد شارع اشلاند وكان هناك صف متصل من الحانات « صف الويسكي » كانوا يسمونه ، وإلى الشمال كان الشارع رقم ٤٧ ، حيث توجد نصف دستة من المحلات في كل كتلة بنائية وعند ملتقى الشارعين كانت هناك « نقطة الويسكي » خلاء بمساحة خمسة عشر أو عشرين أكرا (١) يحوي مصنعاً للغراء وحوالي مائتي حانة .

بين هذه الحانات قد يسير المرء إلى أن يقع اختياره على واحدة منها « حساء بازلاء حار وملفوف مسلوق هذا اليوم » ، « كــراوت وفرانكفورتر » (٢) ، ادخل « حساء فاصولياء ولحم خروف مسلوق أهلاً بك » . وكانت هذه الأشياء كلها مكتوبة بلغات كثيرة كما هي الحال بالنسبة لأسماء الأماكن التي يمكن للمرء أن يلجأ إليها ليريح نفسه . وكانت غير محدودة في تنوعها وطرق اغرائها . فهناك « الحلقة

---

(١) الاكر : وحدة مساحة انكليزية تساوي ٤٠٠٠ م٢ .

(٢) الفرانكفورتر : نقانق خاصة تشتهر بها فرانكفورت .

المنزلية » و « ركن كوزي » وهناك « الجوانب النارية » و « أحجار الموقد » و « قصور المتعة » و « أرض العجائب » و « قصور الأحلام » و « لذائذ الحب » . وأياً كان اسمها ، فمن المؤكد أنها كانت تدعى « مركز الاتحاد » وكانت تمد يدها مرحبة بالعمال ، إذ يوجد دائماً موقد دافيء ، بجانبه كرسي وبعض الأصدقاء الذين يحادثونك ويضاحكونك . الشرط الوحيد الذي ينبغي عليك تنفيذه هو أن تتعاطى المسكرات فاذا دخلت إلى مكان كهذا وليس في نيتك الشراب ستجد نفسك وقد ألقي بك خارجاً لا محالة ، وإن لم تخرج بهدوء وسلام ستجد رأسك وقد انشق بزجاجة بيرة على الحساب . غير أن كل الرجال كانوا يعلمون التقاليد هنا ويتبعونها . كانوا يعتقدون أنهم بذلك يحصلون على شيء مقابل لاشيء ـــ إذ لم يكونوا مضطرين لتناول أكثر من كأس واحدة وبفعل قوتها يمكنهم أن يملؤوا بطونهم بوجبة غداء حارة شهية . لكن هذا لم يكن يتحقق دائماً على أرض الواقع ، إذ يحدث أحياناً أن تلتقي بصديق يستضيفك وفي المرة القادمة تضطر لاستضافته . ثم قد يأتي شخص آخر ـــ وعلى أي حال ، فان بضع كؤوس لا تضير شخصاً يعمل عملاً شاقاً . فحين يرجع إلى العمل لايجد نفسه مرتجفاً من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، بل سيجد لديه الكثير من الشجاعة لمواجهة ماعليه من واجبات كما أن روتينية عمله القاتلة لن تؤثر عليه كثيراً ـــ ولسوف تتوارد على ذهنه أفكار وتغدو نظرته للأحوال والظروف أكثر بهجة . لكن في طريقه إلى المنزل قد يعاوده الارتعاش ثانية ، ولذلك

يضطر للتوقف مرة أو مرتين عسى أن يتزود بما يدفع عنه غائلة البرد . وبما أنه يوجد في هذه الصالونات الكثير من الأشياء الحارة التي يمكنه أن يأكلها فقد يصل إلى المنزل متأخراً عن عشائه أو قد لايصل إلى المنزل البتة . حينذاك قد تشرع زوجته في البحث عنه وقد تشعر أيضاً بالبرد ، وربما يكون بصحبتها بعض الأطفال — وهكذا قد تندفع العائلة كلها لاحضان الشراب ، كما يندفع تيار النهر نحو المصب . ولكي تكتمل الدائرة ، فقد كان أصحاب دور التعليب جميعاً يدفعون لعمالهم بواسطة « شيكات » ، ويرفضون كل طلب بالدفع نقداً . وأين عساه يذهب المرء في باكنجتاون لصرف شيكه ان لم يذهب إلى حانة ، حيث يمكنه أن ينفق ،لكي يصرف الشيك ، جزءاً من النقود ؟

استطاع جرجس أن ينقذ نفسه من كل هذه الأشياء بسبب أونا . إذ لم يكن يأخذ إلا كأساً واحدة عند الظهيرة ، وهكذا اشتهر بأنه شخص فظ ولم يكن مرغوباً به في الحانات ، لذا كان مضطراً للتنقل من حانة إلى أخرى . بعدئذ كان يذهب إلى المنزل ليلاً ، مساعداً أونا وستاينسلوفاس، أو مرسلاً أونا على الأغلب ، في عربة الترام وحين يصل إلى المنزل ربما يتوجب عليه أن يقطع ، متثاقل الخطا ، عدة كتل بنائية كي يرجع مترنحاً عبر طبقات الثلج وهو يحمل كيساً من الفحم على كتفه . فالمنزل ليس مكاناً شديد الجاذبية — في هذا الشتاء على الأقل . فميزانيتهم لم تسمح لهم بأن يشتروا سوى موقد واحد ، موقد صغير

ثبت بالتجربة أنه لايكفي لتدفئة المطبخ وحده في حالات الجو الأشد قرساً ، مما جعل الأمر في غاية الصعوبة بالنسبة لتيتا الزبيبيتا طوال النهار ، وبالنسبة للأطفال طوال تواجدهم في المنزل . أما في الليل فكانوا يجلسون متكومين على أنفسهم حول هذا الموقد وهم يتناولون عشاءهم ، كل من حجره ، ثم يدخن كل من جرجس وجوناس غليونه وبعد ذلك يزحفون إلى مضاجعهم ليحظوا بشيء من الدفء بعد أن يطفئوا نار الموقد لتوفير الفحم . وكانت لهم تجارب مخيفة مع البرد . إذ كانوا ينامون بكامل ثيابهم ، بما في ذلك معاطفهم ، ويغطون أنفسهم بكل مالديهم من أغطية وملابس احتياطية ، أما الأطفال فكانوا ينامون وقد تجمعوا كلهم في فراش واحد ورغم ذلك لم يكونوا يحظون بالدفء . فمن ينم في الأطراف يظل طوال الليل يرتعش برداً وغالباً ما يفيق لينشج بالبكاء ثم يزحف فوق الآخرين محاولاً الوصول إلى الوسط ، مثيراً معركة حامية الوطيس . فهذا المنزل العتيق بألواحه التي تتسرب منها برودة الجو يختلف كل الاختلاف عن حجيراتهم في الوطن ، بجدرانها السميكة الهائلة المكسوة بالجص من الداخل ، وبالطين من الخارج . ان البرد الذي يصل إليهم هنا شيء حي يخيل إليك وأنت في حضرته أن ثمة شيطاناً في الغرفة . فهو قد يوقظهم في منتصف الليل حين يكون كل شيء معتماً ، وقد يسمعونه معولاً في الخارج ، أو قد يسود الكون صمت كصمت القبور — ويكون هذا أشد سوءاً . انهم يشعرون بالبرد وهو يزحف عبر الشقوق ماداً إليهم أصابعه المتجلدة القاتلة .

فينكمشون على أنفسهم ويرتعدون محاولين التملص منه والاختفاء ، لكن عبثاً . فهو يتقدم ، ويتقدم ، وحشاً رهيباً مروعاً ، شيطاناً ولد في كهوف الرعب المظلمة ، مخلوقاً قديراً هائلاً يحمل أشد العذابات لأرواح قذف بها القدر إلى مهاوي السديم والخراب . انه قاس ، صلب كالحديد ، وهم يرتعدون في قبضته الساعة تلو الساعة وليس لهم من معين . فما من أحد يسمع صراخهم ان صرخوا وليس هناك من مساعدة أو رحمة . هكذا يظلون إلى أن يأتي الصباح حينها يخرجون ليقضوا يوماً آخر في الكد والعناء ، وهم أضعف أجساماً وأقرب قليلاً إلى الساعة التي سيحين فيها دورهم للتساقط كما تتساقط أوراق الأشجار .

لكن رغم هذا الشتاء القارس ، كانت بذور الأمل تنبت في قلوبهم . ففي هذا الوقت بالذات حدثت المغامرة الكبرى لماريا .

والضحية تاموزيوس كوتزلايكا ، عازف الكمان كان الجميع يضحكون منهما فتاموزيوس ضئيل « Petit » هش الجسم وماريا قوية البنية مفتولة العضلات بوسعها أن تحمله بيد واحدة . لكن ربما كان هذا هو السبب في افتتانها به . فطاقات ماريا الصرفة طاغية تماماً . كانت ليلة العرس تلك هي المرة الأولى التي يراها تاموزيوس فيها ، ويومها أشاح ببصره عنها ، لكن فيما بعد حين وجد أن قلبها قلب طفل صغير ، لم يعد صوتها وعنفها يخيفانه ، بل بدأ يكتسب عادة زيارتها أيام الآحاد . ولم يكن ثمة مكان تقضي فيه الجماعة وقتها إلا المطبخ .

وهكذا كان تاموزيوس يجلس بين أفراد العائلة وقبعته بين ركبتيه لايتلفظ بأكثر من خمس كلمات معاً ، ويحمر وجهه قبل أن يستطيع التلفظ بتلك الكلمات . فيضطر جرجس أخيراً لأن يلطمه على ظهره ، بطريقته الودية هاتفاً « هلم الآن . فاعزف لنا لحناً » حينذاك يشرق وجه تاموزيوس ويخرج كمانه ثم يثبته تحت ذقنه ويعزف . بعد ذاك تتوهج روحه ويغدو فصيح اللسان -- انما على نحو غير لائق . فنظرته تظل طوال الوقت مركزة على وجه ماريا إلى أن تبدأ بالاحمرار خجلاً وتخفض عينيها . لكن موسيقاه ساحرة لاتقاوم . فحتى الأطفال تراهم يجلسون مذهولين مندهشين والدموع تنحدر على وجنتي تيتا الزبيتا . وإنه لامتياز رائع أن يتسنى لك الدخول هكذا إلى شغاف قلب رجل عبقري ، وأن تتاح لك مشاركته نشوة وعذابات حياته الصميمية .

كذلك كانت هناك منافع أخرى عادت على ماريا من هذه الصداقة -- منافع ذات طبيعة جوهرية أكثر . فالناس يدفعون لتاموزيوس أموالاً كثيرة كي يجيء ويعزف لهم موسيقى في مناسباتهم، كما أنهم يدعونه الى الحفلات والمهرجانات وهم على يقين من انه لن يجيء بغير كمانه . وأنه حين يجيء ، سيضطر لأن يعزف ألحاناً يرقص عليها الناس . وما إن تجرأ مرة على دعوة ماريا لمصاحبته إلى حفلة كهذه حتى وافقت . فأبهجه ذلك كل البهجة وبعدها لم يقصد مكاناً واحداً بدونها . أما إذا كان أصحاب الحفل من أصدقائه فقد كان يدعو بقية العائلة أيضاً .

وفي كل الحالات ، كانت ماريا تعود وجيوبها ملأى حتى الحافة بالكعك والسندويش للأطفال ، وبقصص من كل الأنواع لها ، تتزود بها طوال الأسبوع . لقد كانت تضطر في هذه الحفلات ، لقضاء معظم وقتها على طاولة المرطبات ، إذ لم يكن باستطاعتها أن تراقص أحداً سوى النساء الأخريات والرجال الطاعنين في السن ، فتاموزيوس ذو مزاج حاد سريع التهيج ، شديد الغيرة ، وأي امرىء عازب يغامر بوضع يده حول خصر ماريا اللدن ، سيغامر ، بالتأكيد ، بأن تتوقف الجوقة الموسيقية عن العزف .

وانه لعون عظيم للانسان الذي يكد طوال أيام الاسبوع ، أن يكون في مستطاعه التطلع إلى شيء من مثل هذه الراحة في ليالي الآحاد . فقد كانت العائلة تعيش فقراً مدقعاً وتعمل أعمالاً شاقة إلى حد لم يكن باستطاعتها أن تقيم صداقات وتكسب معارف ، فالقاعدة في باكنجتاون هي أن الناس لايعرفون إلا جيرانهم وزملاءهم في الشراء من الحوانيت ، وهكذا فقد كان المكان أشبه بعدد ضخم من قرى ريفية صغيرة . لكن الآن بات يسمح لأحد أفراد العائلة بالتنقل وتوسيع أفقه ، وهكذا غدا هناك في كل أسبوع أشخاص جدد يمكن التحدث عنهم -- كيف يلبسون ، أين يعملون كم يكسبون ، من هي حبيبته أو حبيبها ، كيف نبذ هذا الرجل فتاته ، كيف تشاجرت هذه مع تلك ، ما جرى بينهما ، وكيف ضرب ذاك الرجل زوجته وانفق كل ما تكسبه على الشراب

ورهن حتى ملابسها . بعض الناس يكرهون هذا الكلام ويعتبرونه نقل اشاعات وأقاويل ، لكن على المرء أن يتكلم عما يعرفه .

ذات ليلة من ليالي الآحاد ، وحين كانا عائدين إلى المنزل من أحد الأعراس ، في تلك الليلة وجد تاموزيوس في نفسه شجاعة جعلته يضع علبة كمانه على أرض الشارع ويفتح قلبه لماريا ، وعندئذ ضمته ماريا بين ذراعيها . وفي اليوم التالي حكت لهم عن كل شيء ؛ بل بكت من فرط سعادتها وقالت ان تاموزيوس رجل رائع يحبه القلب . بعد ذاك لم يعد يعبر عن حبه لها بكمانه ، بل راحا يجلسان ساعات طويلة في المطبخ يضم واحدهما الآخر بسعادة بالغة ، وكان من تقاليد العائلة السرية ألا يحاول أحد منها أن يعرف ما يجري في تلك الزاوية .

كانت خطتهما أن يتزوجا في الربيع ، أن يرتبا وضع علية المنزل ويعيشا هناك . كان تاموزيوس يكسب أجوراً حسنة ، وشيئاً فشيئاً كانت العائلة تسدد لماريا دينها ، لذا كانت ستملك في وقت قريب ما يكفي لأن تبدأ حياتها به — انما لطيبة قلبها العجيبة كانت تصر على انفاق قدر لابأس به من مالها على أشياء ترى أنها بحاجة إليها . كانت ماريا هي رأسمالية العائلة حقاً ، فقد غدت خبيرة في طلاء العلب — وهي تكسب أربعة عشر سنتاً مقابل طلاء مائة وعشر علب ، وكان باستطاعتها أن تطلي أكثر من علبتين في كل دقيقة . كانت ماريا تشعر ، بالحقيقة ، انها تضع يدها على المخنق وأن الحي يضج بالكلام عن مباهجها وأفراحها.

ورغم أن أصدقاءها كانوا يهزون رؤوسهم ويطلبون إليها أن تخفف من غلوائها قليلاً . فقد كانت تشعر أن المرء لايمكنه أن يلقي أرضاً بحظ حسن كهذا أبداً -- فهناك حوادث طارئة دائماً . لكن ماريا لم تكن ممن تمكن السيطرة عليهم . فمضت تخطط وتحلم بكل الكنوز التي ستتوفر لها في منزلها ، وهكذا حين جاءت الضربة كان حزنها أعظم من أن يتصوره المرء .

لقد انهار معملها . معمل التعليب . وكادت ماريا ترى الشمس نفسها تنهار — فالمؤسسة الضخمة لاتقل في نظرها مكانة عن الكواكب والفصول . لكنه انهار الآن ! ودون أن يقدموا لها تفسيراً ، بل دون أن ينذروها قبل يوم واحد . كل ما فعلوه أنهم ذات أحد الصقوا ملاحظة مفادها أنهم سيدفعون لكل العاملين في المعمل في ذلك العصر ولن يستأنف العمل قبل شهر على الأقل وكان هذا كل شيء — لقد خسرت عملها .

انتهت العطلة بكل ما فيها من فورة وازدحام . وبدأت ماريا تتساءل وتجيبها الفتيات ، بعدئذ حل ركود كامل . البعض قال أن المصنع سيعاود العمل بنصف دوام ، انما لم يؤكد هذا القول أحد — والبعض قال أنه سيظل مغلقاً حتى الصيف . كانت كل التوقعات سيئة في الوقت الحاضر وقد قال عمال الشحن الذين كانوا يعملون في المستودعات بأن هذه المستودعات ملأى بالعلب حتى السقف ، لذا لاتجدالمؤسسة فراغاً لانتاج اسبوع آخر من العلب ، وقد استغنت عن

ثلاثة أرباع هؤلاء الرجال ، وهي علامة أشد سوءاً ، منذ عرفت أنه ليس هنالك طلبات لتلبيتها . كلها العوبة ، طلي العلب ، هكذا قالت الفتيات — إذ أنك تجن سروراً حين تكسب اثني عشر أو أربعة عشر دولاراً كل اسبوع وتوفر نصفها ، انما عليك أن تنفق كل ما تكسبه كي تبقى حياً وأنت خارج العمل ، مما يعني أن أجرك ، بالحقيقة ، هو نصف ما تظن .

عادت ماريا إلى المنزل ، ونظراً لعدم قدرتها على الركون للراحة دون أن يهددها الخطر بالانفجار — فقد قامت مع قريبتيها باجراء تنظيفة كبيرة للمنزل ثم انطلقت كي تبحث في باكنجتاون عن عمل تسد به الثغرة . لكن بما أن كل مؤسسات طلي العلب كانت قد أغلقت أبوابها ، وكل الفتيات يبحثن عن عمل ، فان من السهل علينا أن نفهم كيف اخفقت ماريا في الحصول على عمل . بعدئذ توجهت نحو المخازن والحانات مجربة حظها وحين اخفقت أيضاً ، قصدت مناطق بعيدة مناطق قرب حدود البحيرة حيث كان يعيش الأغنياء في قصورهم الفخمة ، وحيث رجتهم أن يسندوا لها أي عمل يمكن أن يؤديه شخص لايعرف الانكليزية .

حتى العاملون في أحواض الذبح شعروا بآثار الكساد الذي حرم ماريا من عملها لكنهم شعروا به بطريقة مغايرة : طريقة جعلت جرجس يدرك أخيراً كل مافيها من مرارة . فأصحاب دور التعليب لم يستغنوا

عن عمالهم وم يغلقوا منشآتهم ، كما فعلت معامل العلب ، بل بدؤوا ينقصون ساعات العمل شيئاً فشيئاً ، كانوا دائماً يطالبون إلى العمال أن يتواجدوا في أحواض الذبح في الساعة السابعة ، رغم علمهم بأنه لن يكون هناك ما يفعلونه قبل أن يخرج الشارون إلى العمل في الزرائب وقبل أن يرسلوا بعض المواشي إلى المساقط ، أي في حوالي العاشرة أو الحادية عشرة ، وهو أمر في غاية السوء ، بكل معنى من المعاني . لكن الآن وفي موسم الركود ، ربما لم يكونوا يرسلون شيئاً لعمالهم حتى وقت متأخر من العصر ، اذا كانوا يضطرون للتسكع هنا وهناك حيث درجة الحرارة عشرون تحت الصفر ! في البداية قد يراهم المرء وهم يركضون أو يمازح بعضهم بعضاً محاولين تدفئة أنفسهم ، انما لاينقضي النهار إلا وقد تجمدوا من البرد تماماً واستنفدت قواهم . وحين تأتي الماشية أخيراً ، كانوا يجدون أن أية حركة يقومون بها نوع من العذاب بعدئذ ، وعلى نحو مفاجىء ، يمتلىء المكان حيوية ونشاطاً ، ويبدأ « التسريع » الذي لايرحم .

في هذه الفترة الزمنية مرت أسابيع على جرجس كان يعود فيها إلى المنزل كل يوم دون أن يكون قد عمل أكثر من ساعتين — أي بأجر قدره خمسة وثلاثون سنتاً . كما مرت أيام كثيرة هبط العمل فيها إلى أقل من نصف ساعة وأيام أخرى بدون عمل على الاطلاق . كان المتوسط العام هو ست ساعات يومياً ، أي حوالي ستة دولارات اسبوعياً

بجرجس ، وهذه الساعات الست لايحصل عليها إلا بعد الوقوف في حوض الذبح حتى الساعة الواحدة أو ربما حتى الثالثة أو الرابعة . وبما أن الدفعة الكبيرة من المواشي قد لاتأتي إلا في آخر النهار ، فقد كان على العاملين أن يتدبروا أمرها قبل العودة إلى منازلهم أي أن يعملوا على ضوء الكهرباء حتى التاسعة أو العاشرة وربما حتى الثانية عشرة أو الواحدة وبدون لحظة استراحة يتناول العامل فيها لقمة من طعام . كان العمال تحت رحمة الماشية . ولعل الشارين كانوا يؤجلون عمليات الشراء بانتظار أسعار أفضل . ذلك أنهم إذا ما استطاعوا ايهام البائعين بأنهم لن يشتروا شيئاً هذا اليوم ، مثلاً ، فقد يستطيعون فرض الشروط التي تناسبهم . فلسبب من الأسباب كانت تكلفة علف الماشية في الزرائب أعلى بكثير من سعر السوق — وليس مسموحاً لك أن تأتي بعلف لمواشيك من الخارج ! كذلك يحتمل أيضاً أن يصل عدد من شاحنات المواشي في وقت متأخر من النهار ، سيما وأن الثلج يقطع الطرق فيشتري أصحاب دور التعليب ماشيتهم في الليل كي يحصلوا عليها بسعر أرخص ومن ثم يطبقون قاعدتهم الصارمة كالحديد ، وهي أنه ينبغي ذبح كل الماشية في ذات اليوم الذي يتم به شراؤها ولم يكن ثمة فائدة من الاحتجاج أو الاعتراض في هذا الصدد — فقد ذهب الوفد تلو الوفد لرؤية أرباب العمل انما دون جدوى ، فهذه قاعدة ، ولا مجال أبداً لتغيير القاعدة . وهكذا اضطر جرجس في ليلة عيد الميلاد لأن يعمل حتى الساعة الواحدة صباحاً وأن يعود إلى أحواض الذبح في السابعة صباحاً .

هذا كله كان سيئاً انما لم يكن الأسوأ . فبعد كل مايقوم به العامل من عمل شاق لم يكن يتلقى إلا أجر جزء منه ، ليس إلا . في الماضي كان جرجس بين أولئك الذين هزئوا من فكرة الغش في هذه المصالح الضخمة. لذا بات باستطاعته الآن ان يقدر السخرية المريرة التي تتضمنها الحقيقة القائلة بأن حجمها هو وحده الذي أتاح لهم فرصة القيام بالغش دون أن تطالهم يد القانون . احدى القواعد المتعلقة بالعمل في أحواض الذبح هي أن العامل الذي يتأخر دقيقة واحدة يحسم منه أجر ساعة وهذه مسألة اقتصادية إذ كان عليه أن يعمل مقابل الساعة — ولايسمح له بالوقوف هنا وهناك والانتظار . من جهة أخرى ، إذا جاء قبل موعد العمل فانه لايأخذ أجراً على ذلك — وإلا كان رؤساء العمال غالباً ما يبدؤون عمل الورشة قبل عشر أو خمس عشرة دقيقة من اطلاق الصافرة ، وهذه العادة ذاتها هي التي كانوا يتبعونها في نهاية العمل . فهم لايدفعون عن أي كسر من كسور الساعة — انه « وقت مستقطع » فالمرء قد يعمل خمسين دقيقة بتمامها ، لكن إذا لم يبق عمل بحيث تكتمل الساعة لايأخذ أجراً على الدقائق الخمسين هذه . وهكذا تكون نهاية النهار دائماً ضرباً من الحظ — صراعاً يكاد يتحول إلى حرب مكشوفة بين رؤساء العمال والعمال ، الأوائل يحاولون الاسراع بالعمل ، والآخرون يحاولون اطالة أمره . وقد وضع جرجس اللوم في هذا الأمر على « رؤساء العمال » ، رغم أن الخطأ ، للحقيقة والتاريخ ، ليس خطأهم دائماً . فأرباب العمل هم الذين يجعلونهم في حالة خوف دائم من فقدان مصدر رزقهم — وحين

يكون المرء مهدداً بخطر النزول عن المستوى المطلوب . فهل هنالك أسهل من أن يجعل الورشة تعمل حيناً من الزمن « لوجه الله » ؟ هذه نكتة فظة كانت سائرة بين العمال . وكان جرجس بحاجة لمن يشرحها له وقد قام بذلك عامل عجوز يدعى جونز كان بارعاً في تنفيذ المهمات الخاصة وما شابه ، وهكذا عندما كانوا يقومون بأي عمل زري قذر ، فقد كانوا يتغامزون ويقولون « الآن نعمل لوجه الله ! » .

احدى النتائج التي نتجت عن هذه الأشياء كلها هي أن جرجس لم يعد يصاب بالحيرة والذهول عندما يسمع العمال يتحدثون عن الكفاح من أجل حقوقهم . بل بات يشعر بالميل للكفاح هو نفسه ، لذا ، حين جاء مرة ثانية المندوب الايرلندي ، ممثل نقابة « مساعدي الجزارين » استقبله بروح مغايرة تماماً . فكرة رائعة بدت له الآن ، فكرة هؤلاء الرجال وهي أنهم باتحادهم قد يتمكنون من الوقوف في وجه أرباب العمل والتغلب عليهم ! وراح جرجس يتساءل : من تراه أول من فكر بهذه الفكرة ، وحين قيل له أنها منتشرة بين كل العمال في أمريكا ، أدرك لأول مرة مغزى « بلاد حرة » . شرح له المندوب كيف أن النقابة تعتمد على قدرتهم على تنسيب كل عامل لها كي يناصر المنظمة ، وعند ذلك أشار جرجس إلى أنه يرغب بأداء نصيبه . وقبل مرور شهر آخر كان جميع العاملين من أفراد عائلته يحملون بطاقات نقابية ويضعون على بذلاتهم أزرارهم النقابية بكل فخار . لقد ظلوا اسبوعاً كاملاً في غاية السعادة والسرور ظانين أن الانتساب للنقابة يعني نهاية مشكلاتهم جميعاً .

لكن بعد عشرة أيام فقط من انتساب ماريا للنقابة ، أغلق معملها أبوابه وقد جعلتهم تلك الضربة يترنحون إذ لم يستطيعوا أن يفهموا أبداً لماذا لم تمنع النقابة ذلك ، وفي أول مرة حضرت فيها اجتماعاً ، هبت ماريا على قدميها وألقت خطاباً حول هذه المسألة . لقد كان اجتماع عمل وكانت لغته هي الانكليزية ، انما لم تبال ماريا بذلك كله . لقد قالت ما في نفسها ، دون أن تبالي بطرقات مطرقة الرئيس ولا بصراخ الحضور وضجيجهم . ففضلاً عن مشكلتها الخاصة ، كانت ماريا تغلي في داخلها احساساً منها بالظلم والغبن ولقد قالت مافي نفسها عن أصحاب دور التعليب وما تحمله من أفكار عن عالم يسمح لأشياء كهذه بأن تحدث . بعدئذ ، وبينما كانت القاعة ما تزال تردد أصداء صوتها الجهوري ، جلست مرة ثانية وفي يدها مروحة تطرد بها الحر عن نفسها ثم عادت مياه الاجتماع إلى مجاريها ومضى الرفاق لمناقشة انتخاب أمين سر لتدوين المحاضر .

جرجس أيضاً قام بمغامرة في المرة الأولى التي حضر فيها اجتماعاً نقابياً ، لكنها مغامرة فرضت عليه فرضاً ولم يسع إليها بنفسه . لقد ذهب جرجس إلى الاجتماع وكل ما يرغب به هو أن يقبع في احدى الزوايا المعتمة ويراقب ما يجري ، غير أن موقف الصمت هذا والانتباه بعينين مفتوحتين أفرده ليكون الضحية . فتومي فنيغان وهو يعمل على رافعة ايرلندي ضئيل الجسم ذو عينين كبيرتين جاحظتين ومظهر غريب ،

محطم تماماً . وقد مر تومي فنيغان في فترة ما من ماضيه البعيد بتجربة غريبة مازال يحمل عبثها على كاهله حتى اليوم . وكل مافعله في حياته هو محاولته افهامها للناس . فحين يتكلم يمسك بضحيته من عروة قميصه ليقترب بوجهه من وجه ضحيته أكثر وأكثر . لم يبال جرجس بذلك ، بل أصيب بشيء من الذعر وحسب . فالطريقة التي يعمل بها أصحاب الذكاء العالي هي الموضوع الذي راح تومي يتحدث عنه ، وقد رغب في أن يكتشف إذا كان جرجس قد فكر يوماً بأن تمثيل الأشياء حسب نقاط تشابهها الحالية يمكن أن يكون غامضاً كلية على مستوى أرفع . فهناك بالتأكيد سران عجيبان يتعلقان بتطور هذه الأشياء ، ثم مضى فنيغان ، وهو يهمس همساً ، كي يخبره عن بعض اكتشافاته الخاصة . « ان كان لك في يوم من الأيام شأن بالأرواح » قال تومي ، وهو يتطلع إلى جرجس متسائلاً ، ويهز رأسه باستمرار ، « فلا بأس ، لابأس » ، تابع الرجل « إلا أن تأثيراتها قد تقع عليك ، وذلك مؤكد كما أقول لك . فهي ذات علاقة بالمحيط المباشر الذي يملك معظم القوة . لقد قدر لي في شبابي أن أتعرف إلى الأرواح » هكذا استمر تومي يهذر ظاناً أنه يفسر نهجاً فلسفياً ، بينما كان العرق يتصبب من جبين جرجس ، والقلق والضيق يشتدان في صدره . في النهاية جاء أحد الرجال ، وقد رأى بلواه ، فأنقذه ، انما مر بعض الوقت قبل أن يتمكن من ايجاد واحد يشرح له الأمر ، وخلال ذلك كان أخشى مايخشاه هو أن يعود

الايرلندي فيحشره في الزاوية مرة ثانية ، الأمر الذي شعر بأنه يكفي لجعله يفر من الغرفة في تلك الأمسية .

مع ذلك ، لم يغب جرجس عن اجتماع واحد من اجتماعات النقابة . إذ كان قد التقط بضع كلمات من الانكليزية حتّى ذلك الحين ، وكان بعض الاصدقاء يساعدونه على الفهم . كانت الاجتماعات ، في الغالب اجتماعات تسودها الفوضى والاضطراب ، خمسة أو ستة من الحضور يتكلمون في آن معاً وبلهجات انكليزية كثيرة غير أن المتكلمين كانوا دائماً جادين كل الجد ، وكان جرجس جاداً كل الجد ايضاً، اذ أدرك أن المعركة على قدم وساق ، وأن هذه المعركة معركته . فمنذ انقشع الوهم عن عينيه ، أقسم جرجس ألا يثق بانسان ماعدا أسرته ، إلا أنه اكتشف هنا أنه يوجد رفاق له في المعاناة ، وله حلفاء أيضاً ، فرصتهم الوحيدة في الحياة هي في اتحادهم وبذلك يصبح الكفاح نوعاً من الحرب الطويلة . لقد كان جرجس دائماً من اتباع الكنيسة الخلص نظراً لأن هذا هو الشيء الصحيح الذي يمكن فعله ، إلا أن الكنيسة لم تكن تؤثر به فترك ذلك كله للنساء . لكن ، هنا ، كان دين جديد — دين يلامس شغاف قلبه ويقبض على كل ذرة فيه ، لذا خرج بكل حماسة وحمية المهتدي الجديد للدين ليكون مبشراً . كان بين الليتوانيين أناس كثر غير نقابيين وكان عليه أن يعمل لاقناعهم وهدايتهم محاولاً أن يبين لهم طريق الصواب . كان أحياناً يصطدم بأناس عنيدين منهم يرفضون رؤية ما يراه ، ولم يكن جرجس صبوراً دائماً . لقد نسي كم كان هو

نفسه أعمى ، قبل وقت قصير — لذا ، ووفق الأسلوب الذي اتبعه الصليبيون الأول ، انطلق جرجس ينشر رسالة الأخوة بقوة السلاح .

— ٩ —

كانت احدى النتائج الاولى لاكتشاف جرجس النقابة هي أنه أصبح راغباً بتعلم الانكليزية . أراد أن يعلم مايجري في الاجتماعات ، أن يتمكن من المشاركة فيها . وهكذا بدأ يتطلع حوله ، محاولاً التقاط الكلمات . الأطفال الذين كانوا يذهبون إلى المدرسة ، ويتعلمون بسرعة ، بدؤوا يعلمونه الكلمات ، وأحد أصدقائه أعاره كتاباً فيه بعض الكلمات التي قرأتها أونا له . بعدئذ كان جرجس يحزن أشد الحزن لأنه لايستطيع قراءتها . وفي وقت لاحق من أوقات الشتاء ، حين أخبره بعضهم أن هناك مدرسة ليلية حرة ، ذهب اليها وسجل اسمه فيها . بعد ذلك ، وعقب عودته من المسلخ كل مساء ، كان يذهب في الموعد المحدد إلى المدرسة ، بل كان يذهب حتى وان لم يكن أمامه سوى نصف ساعة دراسية . كانوا يعلمونه قراءة الانكليزية والنطق بها على السواء ، وكانوا يعلمونه أشياء أخرى لو أن لديه قليلاً من الوقت .

كذلك تركت النقابة اختلافاً كبيراً في اهتماماته — فقد بدأ يولي اهتمامه لشؤون البلاد . بدأ يفكر بالديمقراطية . انها دولة صغيرة ، هذه النقابة ، جمهورية مصغرة ، شؤونها شؤون كل فرد من أفرادها ولكل فرد الحق في أن يقول رأيه فيها . أي بعبارة أخرى ، تعلم جرجس

في النقابة أن يتحدث في السياسة . لم يكن هناك مايدعى سياسة في المكان الذي جاء منه جرجس ، ففي روسيا القيصرية يفكر المرء بالحكومة وكأنها قدر من السماء مثلما هو البرق والبرد . « انحن ، ياأخي الصغير انحن » كان الفلاحون الحكماء المسنون يهمسون « فكل شيء يمر » . وحين جاء جرجس إلى أمريكا كان يظن أن الأمر ذاته هنا . لقد سمع أناساً يقولون إنها « بلد حر » — لكن مامعنى ذلك ؟ فقد اكتشف أنه يوجد هنا ، كما هي الحال في روسيا تماماً ، رجال أغنياء يملكون كل شيء ، واذا لم يستطع المرء أن يجد عملاً ، ترى ألا يبدأ الجائع هنا بالشعور بمشاعر الجائع نفسها هناك ؟

حين كان قد مضى على عمل جرجس في منشأة براون حوالي ثلاثة أسابيع ، جاء اليه ذات ظهيرة رجل يعمل حارساً ليلياً سأله ان كان يرغب في استخراج الأوراق اللازمة للتجنس كي يصبح مواطناً . ولم يكن جرجس يعلم معنى ذلك ، لكن الرجل شرح له فوائد الحصول على الجنسية . فقبل كل شيء ، لاتكلفه العملية مليماً واحداً ، كما أنه يحصل على أجرة نصف يوم دون أن يعمل ، وعندما يجيء موعد الانتخاب سيكون قادراً على الادلاء بصوته — وهنا الفائدة . وبالطبع كان من دواعي سرور جرجس أن يوافق، وهكذا قال الحارس الليلي بضع كلمات لرئيس العمال ، فأعطاه الاذن بالذهاب بقية النهار . وفي وقت لاحق ، حين طلب اجازة لعرسه لم يستطع الحصول على يوم واحد ، أمابالنسبة لتلك الاجازة التي أخذها بأجر كامل — فالله وحده

يعلم بأية أعجوبة كانت وكيف حدثت . مع ذلك ، فقد ذهب مع الرجل الذي التقط عدة مهاجرين جدد ، بولونيين وليتوانيين وسلوفاك وأخرجهم جميعاً ، إلى حيث كانت تقف عربة طويلة تجرها أربعة خيول وقد سبقهم اليها خمسة عشر أو عشرون رجلاً . كانت فرصة جميلة أن يشاهدوا المدينة وقد أتيح للجماعة وقت ممتع سيما وأنهم تلقوا كمية كبيرة من البيرة من داخل العربة . وهكذا سارت بهم العربة إلى قلب المدينة حيث توقفوا أمام مبنى غرانيتي مهيب ، قابلهم فيه موظف مسؤول كان قد أعد أوراقهم من قبل ولم يكن ينقصها سوى الأسماء . وهكذا أدى كل منهم بدوره يميناً لايفهم كلمة واحدة منها ، ثم استلم وثيقة مزخرفة ممهورة بخاتم أحمر كبير ودرع الولايات المتحدة ، وقيل لجرجس أنه بات الآن مواطناً من مواطني الجمهورية وأنه مساو بالحقوق والواجبات لرئيس الجمهورية نفسه .

بعد شهر أو شهرين قام جرجس بمقابلة هذا الرجل نفسه مرة أخرى ، فأخبره بالمكان الذي ينبغي عليه أن « يسجل » نفسه فيه . بعدئذ ، حين جاء موعد الانتخاب ألصقت دور التعليب اعلانات مفادها بأن من يرغب بالاقتراع يمكنه أن يتغيب حتى التاسعة من ذلك الصباح ، وفي الليلة ذاتها أخذ الحارس الليلي جرجس وبقية مجموعته إلى الغرفة الخلفية للصالون وأوضح لكل منهم أين وكيف يؤشر على ورقة اقتراعه ، ثم قدم لكل منهم دولارين وأخذهم إلى مكان الاقتراع ، حيث كان

هناك شرطي يقوم بمهمة خاصة ألا وهي التأكد من أن كل شيء يتم بصورة سليمة . ظل جرجس ممتلئاً بشعور الفخر والكبرياء لحظه الحسن هذا إلى أن بلغ المنزل والتقى بجوناس الذي انتحى به جانباً وهمس في أذنه عارضاً عليه أن يقترع ثلاث مرات مقابل أربعة دولارات فقبل جرجس العرض .

الآن ، التقى جرجس في النقابة بمن شرح له كل هذه الملابسات فعلم أن أمريكا تختلف عن روسيا بأن حكومتها تتخذ شكلاً من أشكال الديمقراطية . فالمسؤولون الذين يحكمونها ويقومون بكل ابتزازاتهم المالية وكسبهم غير المشروع يجب أن يتم انتخابهم أولاً ، لذا هناك فريقان متنافسان من المبتزين وناهبي الشعب يعرفان بأنهما حزبان سياسيان يكسب قصب السباق منهما من يكون أقدر على شراء الاصوات . من حين إلى حين يأتي موعد الانتخاب وتأتي معه فرصة الفقراء ، عمال المسالخ ، ولاسيما حين تجري الانتخابات الوطنية وانتخابات الولاية ، أما في الانتخابات المحلية ، فان الحزب الديموقراطي يكتسح دائماً كل ماعداه . لذا كان حاكم المنطقةهو دائماً من الحزب الديموقراطي ، وهو الآن ايرلندي ضئيل الجسم يدعى سكولي . يدير مايك سكولي هذا مكتباً هاماً للحزب في الولاية ويرئس حتى بلدية المدينة ، كما يقولون . مصدر قوته أنه يضع الزرائب ومن فيها في جيبه . انه رجل فاحش الثراء — له يد في كافة أعمال الكسب غير المشروع في

الجوار . فسكولي ، مثلاً ، هو الذي يملك مقلب النفاية ذاك الذي رآه جرجس وأونا في أول يوم لوصولهما . وهو لايملك مقلب النفايةوحسب ، بل يملك مصنع الآجر أيضاً لذا يجعل المدينة ترسل بنفايتها لاملاء الحفر ، وبذلك يتسنى له بناء المنازل وبيعها للناس . وهو أيضاً يبيع الآجر للسكان بالسعر الذي يرتئيه . وأولئك الذين يشترون الآجر منه ينقلونه بعرباته أيضاً . كذلك يملك سكولي الحفرة الاخرى المجاورة . حيث يوجد الماء ، وهو الذي يقطع الجليد في الشتاء ويبيعه . والاكثر من ذلك أنه اذا أفشى أحد العمال السر ، لم يستطع أحد الزامه بدفع ضرائب عن الماء كما كان قد بنى بيتاً خارج المدينة ولم يكن مضطراً لدفع أي شيء عليه . كانت الصحف قد توصلت لحقيقة تلك القصة فانتشرت فضيحة حولها غير أن سكولي استأجر شخصاً اعترف بأن الذنب ذنبه وبذلك تلقى كل اللوم الذي يستحقه ، ثم اختفى من البلاد . ويقال أيضاً أنه بنى معمل آجره بالطريقة عينها وأن العمال كانوا يتلقون أجورهم من الدولة وهم يبنون له مصنعه . الا أنه ينبغي على المرء أن يضغط كثيراً على العمال لكي يستخلص منهم هذه الحقيقة . فالامر لايعنيهم أولاً ، كما أن مايك سكولي شخص طيب يستحسن الوقوف إلى جانبه . فورقة صغيرة يوقعها تساوي تعييناً في إحدى دور التعليب في أي وقت من الاوقات ، كما أنه هو نفسه يستخدم عدداً كبيراً من الرجال ولايدعهم يشتغلون الا ثماني ساعات فقط . ويدفع لهم أعلى الاجور . الامر الذي أكسبه الكثير من الأصدقاء — تضمهم « عصبة

الترويج للحرب » التي يمكنك أن ترى ناديها قرب الزرائب تماماً . انه أكبر ناد في شيكاغو كلها . وهم يقيمون مباريات يقدمون فيها جوائز بين الحين والحين . فاليوم مباراة لمصارعة الديكة مثلاً وغداً مباراة كلاب وهلم جرا . كل أفراد الشرطة في المنطقة ينتسبون للعصبة . وبدلاً من منع مثل هذه المباريات فانهم يبيعون البطاقات بأنفسهم . وقد كان الرجل الذي عرض على جرجس الحصول على الجنسية واحداً من هؤلاء « الهنود » كما يسمونهم . في أيام الانتخابات تجد هناك المئات من هؤلاء في جيب كل منهم محفظة ملأى بالنقود يوزعونها هي وكؤوس الشراب على رجالهم في حانات المنطقة لكن هذا شيء آخر . كان الرجال يقولون — فعلى كل أصحاب الحانات أن يكونوا من « الهنود » وأن يكونوا على أهبة الاستعداد لتقديم الخدمات ، والا لن يجدوا من يؤم حاناتهم أيام الاحاد ، ولن تجري لديهم أية لعبة قمار أبداً . بالطريقة نفسها كان في يد سكولي كل الوظائف المتاحة في قسم الاطفاء وكل ماهنالك من أعمال الكسب غير المشروع في الزرائب ، كما كان يبني بناء ضخماً في مكان ما من شارع أشلاند والرجل الذي يشرف عليه يتلقى راتباً كمفتش لمجارير المدينة . كان مفتش المدينة الخاص بأنابيب المياه قد توفي ودفن منذ أكثر من عام الا ان اسمه كان مايزال مدرجاً في دفتر الرواتب . أما مفتش المدينة فلم يكن يدع أحداً من التجار من شرهان لم يقف إلى جانب سكولي.

بل حتى أصحاب دور التعليب كانوا يرهبون جانبه ، حسب أقوال الناس . وكان يسرهم أن يصدقوا هذا ؛ لأن سكولي رجل الشعب وهو يفتخر بذلك ويتبجح به حين تحل الانتخابات . كان أصحاب دور التعليب بحاجة لجسر في شارع أشلاند . انما لم يكونوا قادرين على تنفيذه الا بعد أن يروا سكولي ؛ والامر ذاته بالنسبة « لجدول بوبلي » الذي ظلت المدينة تهدد أصحاب دور التعليب بضرورة تغطيته ، إلى أن جاء سكولي لمساعدتهم . و« جدول بوبلي » هذا فرع من فروع نهر شيكاغو ويشكل الحد الجنوبي للزرائب . لذا كانت كل مجارير المياه الخارجة من دور التعليب وضمن مساحة ميل مربع تصب فيه ، حتى كان بالحقيقة مجروراً كبيراً مكشوفاً بعرض مائة أو مائتي قدم . وهناك تفرع طويل من تفرعاته مسدود ، لذا فالأقذار فيه دائمة أبداً . ذلك أن الشحوم والكيماويات التي تصب فيه تمر بكل ضروب التحولات الغريبة التي هي سبب اسمها ذاته وهي دائماً في حالة تغير وحركة وكأن هناك حوتاً هائلاً يتغذى منها أو كأن هناك وحوشاً ضخمة تخفي نفسها في أعماقها . ففقاعات غاز الفحم ترتفع إلى السطح وتنفجر وتصنع دوائر قطرها قدمان أو ثلاثة . وهنا وهناك ترى الشحم قد تصلب والقذارة قد تجمدت ، كما يبدو الجدول مهداً للطمي فالدجاج يمشي متجولاً عليه ، يلتقط غذاءه ، وكثيراً ماوجد أحد الغرباء غير الحذرين نفسه وهو يغوص في وحوله بل ويختفي لحين من الزمن وقد اعتاد أصحاب دور التعليب على ترك الجدول بهذا الشكل إلى أن يلتقط سطحه

من حين إلى آخر شعلة نار فيحترق احتراقاً شديداً ، ثم تأتي أفواج الاطفاء لاخماد الحريق . لكن ، ذات مرة، جاء أحد الغرباء العباقرة وبدأ بجمع هذه الاوساخ في مواعين قائلاً أنه سيستخرج منها شحم الخنزير وسرعان ما « لقط أصحاب دور التعليب الحبة » فاستصدروا أمراً رسمياً بايقافه ، ومن ثم بدؤوا هم أنفسهم بجمعها . وبما أن الشعر كان قد التصق على نحو كثيف بضفاف « جدول بوبلي » فقد عمل أصحاب دور التعليب على جمعه أيضاً وتنظيفه .

بل ثمة أشياء أغرب حتى ، حسب تقولات الناس . فأصحاب دور التعليب لديهم خطوط رئيسية من شبكة المياه ، يسرقون عبرها بلايين الغالونات من ماء المدينة . ولقد ضجت الصحف في يوم من الايام بهذه الفضيحة — وذات مرة جرى تفتيش وكشف فعلي للأنابيب ، انما لم يعاقب أحد قط واستمرت الامور على ماكانت عليه . ثم هناك صناعة اللحم اللعينة بأموالها التي لاحد لها .

كان سكان شيكاغو يرون مفتشي الحكومة في باكنجتاون ويظنون انهم بذلك يضمنون حمايتهم من اللحوم المريضة ، لكنهم لم يكونوا يدركون أن هؤلاء المفتشين ، وعددهم مائة وثلاثة وستون مفتشاً ، قد تم تعيينهم بناء على طلب أرباب العمل وأنهم يأخذون رواتبهم لالشيء الا لمهر كل اللحوم المريضة بخاتم الدولة . فليس لديهم صلاحية تتعدى هذه . ذلك لأن دائرة تفتيش اللحم الذي سيباع في المدينة

والولاية كانت بكامل ملاكها تتألف من ثلاثة موظفين تابعين للجهاز السياسي المحلي . بعد فترة وجيزة من انشائها ، اكتشف أحد هؤلاء الثلاثة ، وهو طبيب ، أن جثث الثيران الذبيحة التي يحكم عليها مفتشو الحكومة بأنها مصابة بالسل وبأنها لهذا السبب تحوي « بتومين » أي سموماً فتاكة ، تترك على افريز مكشوف وتنقل بالعربات لكي تباع في المدينة . لذلك أصر على أن تعالج هذه الجثث بحقنها بالكيروسين وحرقها — فجاءه الأمر بأن يستقيل في الاسبوع نفسه . وقد اشتد بأصحاب دور التعليب السخط إلى حد جعلهم يطلبون من رئيس البلدية الغاء دائرة التفتيش كلها ، ومنذ ذلك الحين زال حتى التظاهر بأي تدخل في شؤون الكسب غير المشروع . فهناك ، كما يقال ، ألفا دولار أسبوعياً تأتي مالاً حراماً من الثيران المسلولة وحدها ، ومثلها أيضاً من الخنازير التي تنفق من جراء الكوليرا والامراض الاخرى في القطارات والتي يمكنك أن تراها في أي وقت تشاء وهي محملة في عربات صندوقية لتنقل إلى مكان يدعى « غلوب » في « انديانا » حيث يصنع منها صنف غريب من شحوم الخنزير .

راح جرجس يسمع بهذه الامور شيئاً فشيئاً ، على ألسنة أولئك الذين كانوا مجبرين على ممارستها ، وبدا الأمر و كأنك تسمع ، في كل مرة تلتقي فيها بشخص جديد من دائرة جديدة ، بألاعيب وجرائم جديدة . فعلى سبيل المثال كان هناك ليتواني يعمل جزار ماشية في

المنشأة التي تعمل ماريا فيها ، والتي تأخذ اللحم لتعليبه فقط . انك ان تسمع هذا الرجل وهو يصف الحيوانات التي يأتون بها لمنشأته تشعر وكأنك تسمع وصفاً من أعمال دانتي أو زولا . فعلى مايبدو ، لديهم وكلاء في كافة أنحاء البلاد يبحثون ويترصدون الماشية المريضة والكسيحة التي ستعلب ، و هناك ماشية يطعمونها « ملت الوسكي » (١) أي فضلات مصانع البيرة فتصبح ما يدعوه الناس « ستيرلي » — أي مغطاة بالبثور . انه عمل قذر أن تقدم على قتل هذه الحيوانات ، لأنك حين تغمد سكينك فيها تنفجر وتنثر مادة كريهة في وجهك ، وحين يتلطخ قميص المرء أو أكمامه بالدم وتتلوث يداه به ، فكيف تراه سيمسح وجهه أو ينظف عينيه كي يتمكن من الرؤية ؟ انها مادة أشبه بتلك التي صنع منها « لحم البقر المحنط » والتي قتلت من جنود الولايات المتحدة أكثر بمرات عدة مما قتل رصاص الاسبان . الفارق الوحيد فقط هو أن لحم البقر الذي كان يتزود به الجيش يومذاك لم يكن جديد التعليب بل مادة قديمة تركت سنوات طويلة في الأقبية .

في أمسية من أماسي الآحاد ، جلس جرجس ينفث دخان غليونه بجوار موقد المطبخ ، ويتحدث مع زميل قديم عرفه عن طريق جوناس ، زميل يعمل في غرف التعليب في منشأة دورهام ، علم جرجس منه بضعة أشياء عن مؤسسة دورهام الكبيرة للتعليب والتي كانت قد غدت

(١) الملت : هو الشعير الذي ينبت بنقعه بالماء .

مؤسسة وطنية . لقد كانوا كيميائيين نظاميين في مؤسسة دورهام ، فهم يعلنون عن صلصة الفطور والعاملون فيها لايعرفون شكل الفطور . ويعلنون عن «الدجاج المطبوخ والمحفوظ في القدر » . وهو أشبه بالحساء الذي تقدمه المثاوي (١) ، ذلك الحساء الذي لايلامسه الدجاج الا ملامسة فقط . بل ربما لديهم عملية سرية لصنع الدجاج كيماوياً — فمن يدري ؟ قال صديق جرجس ، فالأشياء التي تدخل المزيج هي الكرش ودهن الخنزير وشحم البقر وقلوب البقر وأخيراً فضلات لحم العجل حين يتوفر شيء منها . وهم يصنعونها ضمن أصناف عدة ويبيعونها بأسعار مختلفة ، رغم أن محتويات العلب تخرج كلها من المزيج نفسه ، أي تنوعت الأسماء والمضمون واحد ، بل حتى قبل عام أو عامين جرت العادة على أن تذبح الخيول في المسالخ — ظاهرياً من أجل السماد لكن بعد طول بحث ، تمكنت الجرائد من جعل الجمهور يوقن أن لحم الخيول يذهب إلى العلب . أما الآن فالقانون يحظر ذبح الخيول في با كنجتاون وهم يطبقون القانون فعلاً — في الوقت الحاضر على أي حال . لكن قد يرى المرء في أي يوم مخلوقات شعثاء الشعر حادة القرون تجري مع الأغنام — انما ليس من شأنك اطلاع الجمهور على أن قسماً كبيراً مما يشتريه باعتباره لحم خروف ليس بالحقيقة الا لحم ماعز .

---

(١) المثاوي ، جمع مثوى : وهو بيت يقدم الطعام والمنامة للنزلاء لقاء مبلغ اسبوعي أو شهري محدد .

ثمة مجموعة أخرى من الاحصائيات المثيرة التي يستطيع المتتبع جمعها في باكنجتاون — وهي احصائيات عن الاصابات المختلفة للعمال . فحين قام جرجس لأول مرة بتفتيش دور التعليب مع تزيدفيلاس أخذه العجب وهو يصغي إلى الكلام الذي يصف كل تلك الأشياء التي ستخرج من الذبائح وعن الصناعات الصغرى الملحقة بها ، أما الآن فقد وجد أن كل صناعة من تلك الصناعات الصغرى هي جحيم صغير مستقل ، فظيع ومرعب مثلما هي أحواض الذبح ، منبع ومصدر الأهوال والفظاعات جميعاً . فلكل صناعة منها أمراضها الخاصة التي يصاب بها عمالها وقد يشك الزائر المتجول بالألاعيب والخدع هناك انما لايستطيع الشك بأي شيء هنا ذلك لان العامل يحمل الدليل عليها بشخصه ذاته — اذ يكفي عادة أن يرفع يده .

فعلى سبيل المثال ، هناك عمال غرف التخليل ، حيث عاد أنتاناس العجوز بمنيته منها ، وحيث يندر أن تجد جسم عامل من العمال لايحمل في مكان ما نقطة تثير الاشمئزاز . دع رجلاً يكشط اصبعه وهو يدفع عربة اليد في غرف التخليل وسرعان ماتجد القرح الذي يحدثه هذا الكشط يودي به إلى قبره . كما أن مفاصل أصابعه جميعاً قد تتآكل بفعل الحمض ، مفصلاً مفصلاً . كذلك نادراً ماتجد بين الجزارين ، السالخين ، مجردي العظام، الشطارين ، وكل من يستخدم نصلاً ، شخصاً يستطيع استخدام ابهامه ، فالمرة تلو المرة تشرط قاعدته إلى أن يغدو مجرد كتلة من اللحم يضغط العامل عليها مقبض سكينه للامساك

بها . وغالباً ماتجد أيدي هؤلاء العمال موسومة بالندب والجروح حتّى ليتعذر عليك الادعاء بأنك قادر على عدها أو تتبع آثارها و قد لايكون لهؤلاء العمال أظافر – وهي تتساقط بانحسار جلود أصابعهم ، وانتفاخ براجم هذه الاصابع حتى تغدو أشبه بالمراوح . وهناك العاملون في غرف الطبخ ، وسط البخار والروائح الممرضة ، وعلى الضوء الاصطناعي. ففي هذه الغرف قد تعيش عصيات السل مدة سنتين ، رغم أن التزود بها يتجدد كل ساعة . وهناك مراكب لحم البقر ذات الأجنحة الرباعية الأضلاع والتي تحمل قطعاً بوزن مائتي رطل انكليزي إلى العربات المبردة . وهذا عمل مخيف يبدأ من الرابعة صباحاً ويهلك أقدر الرجال خلال بضع سنوات . كذلك هناك العاملون في غرف التبريد الذين يصابون دائماً بالروماتزم ، وأقصى مدة يستطيع قضاءها أي عامل هنا هو خمس سنوات ، كما يقولون ، وهناك « نتافو الصوف » الذين تتمزق أيديهم ارباً ارباًعلى نحو أسرع بكثير من أيدي العاملين في غرف التخليل ، ذلك لأن جلود الغنم تدهن بالحمض ليسهل نتف صوفها ، هذا النتف الذي يتم بأيد عارية ، الامر الذي يجعل الحمض يؤثر على الاصابع شيئاً فشيئاً إلى أن تتآكل . وهناك العاملون في صنع الصفيح كي يكون علباً للحم ، أيديهم هي الأخرى مجموعة هائلة من الجروح ، وكل جرح يمثل احتمالاً من احتمالات تسمم الدم . كما أن البعض يعمل في آلات الختم ، ونـادراً ما يعمـل واحدهم لمدة طويلة وبوتيرة العمل المعروفة هناك ، دون أن يغفل أحياناً وينسى نفسه ،

الأمر الذي يعرض جزءاً من يده للقطع . وهناك « عمال الرافعات » كما يسمونهم ، مهمتهم الضغط على عتلة ترفع الذبيحة عن الأرض فهم يجرون على طول رافدة لينظروا داخل الماء الحار والبخار ، وبما أن معماريي دورهام الكبير لم يبنوا غرفة الذبح بما يلائم عمال الرافعات هؤلاء ، فانهم يضطرون ، كل بضعة أقدام ، لأن ينحنوا تحت عارضة خشبية على ارتفاع أربعة أقدام مثلاً عن الرافدة التي يجرون عليها ، حتى تغدو مشيتهم أشبه بمشية الشمبانزي . على أن أسوأ مافي الأمر هو حال العاملين في الاسمدة واولئك الذين يعملون في غرف الطهو . فهؤلاء الناس لايسمح لزائر برؤيتهم — لأن رائحة عامل الأسمدة تخيف أي زائر عادي وتجعله يهرب عن بعد مائة يارده ، أما الأناس الآخرون الذين يعملون في غرف التخزين الملأى بالبخار والتي يوجد في بعضها رواقيد مكشوفة ، قريبة من مستوى الارض ، فان لهم مشكلة خاصة هي أن واحدهم قد يسقط في الراقود ، وعندما يخرجونه منه يكون قد غدا شيئاً لايمكن النظر اليه — وفي بعض الاحيان يغفلون عن واحدهم بضعة أيام ، وبذلك يخرج كل شيء منه إلى العالم ، باستثناء عظامه ، على شكل رقائق شحم خنزير صاف من مصانع دورهام .

— ١٠ —

خلال القسم الاول من الشتاء كانت العائلة تكسب من المال مايكفيها للعيش علاوة على تسديد بعض ديونها ، لكن حين هبط دخل جرجس من تسعة أو عشرة دولارات في الاسبوع إلى خمسة أو ستة لم يعد ثمة

مايوفرونه . ثم مضى الشتاء وحل الربيع وهم يعيشون عيشة الكفاف ، ولايملكون سوى مايقيم أودهم من يوم إلى يوم . كانت ماريا يائسة ؛ فليس هنالك خبر عن اعادة افتتاح معمل التعليب الذي تعمل فيه بينما كادت مدخراتها أن تنفـد كلياً . وهكذا اضطرت للتخلي عن فكرة الزواج مؤقتاً ، فالعائلة لاتستطيع الاستمرار بدونها رغم أنها ستكون في وقت قريب عبئاً على كاهلهم ، اذ حين تنفق كل ماتملك ، سيضطرون لايفائها دينها على شكل طعام . وهكذا كان جرجس وأونا الزبييتا يعقدون مؤتمرات صاخبة تدوم حتى وقت متأخر من الليل ، محاولين وضع تصور يمكنهم به تدبر الامر دون أن يموتوا جوعاً .

الشروط القاسية التي باتت حياتهم قائمة عليها هي أن عليهم ألا يتوقعوا لحظة واحدة من الراحة ، لحظة واحدة لاينتابهم فيها شبح الحاجة للمال والتفكير به ، وأنهم لن ينتهوا من مشكلة حتى يقعوا في أخرى . وعلاوة على كل المشقات التي تتحملها أجسادهم ، هنالك عبء ثقيل الوطأة ومن ثم الضغط على أذهانهم . يلاحقهم طوال النهار والليل ضيقاً وخوفاً . لم تكن هذه بالحقيقة حياة بل قلما يمكن اعتبارها أكثر من وجود يعيشونه يوماً بعد يوم يملؤهم احساس طاغ بأن الثمن الذي يدفعونه باهظ للغاية وأنهم لايحصلون على شيء مقابل مايدفعون . كانوا يودون أن يعملوا طوال الوقت . وحين يبذل الناس كل مافي وسعهم ، أليس من الواجب أن تتاح لهم امكانية العيش ؟

لم يكن هناك ، على مايبدو ، نهاية للأشياء التي ينبغي عليهم شراؤها أو نهاية للطوارىء غير المتوقعة . فذات مرة انفجرت تمديدات المياه لديهم بعد أن تجمد الماء فيها ، وحين حاولوا ، لجهلهم ، تذويب الماء ، أغرق منزلهم طوفان أشبه بطوفان نوح . وقد حدث ذلك حين كان الرجال في العمل فاندفعت الزبييتا المسكينة إلى الشارع صارخة مولولة تطلب المساعدة ، اذ لم تكن تعلم ان كان مايزال بالامكان ايقاف الطوفان أو انهم دمروا إلى الابد . والواقع أن الامر بدا أشبه بالحالة الأخيرة ، اذ اكتشفوا في النهاية أن اصلاح التمديدات يكلفهم خمسة وسبعين سنتاً في كل ساعة وخمسة وسبعين سنتاً لرجل آخر كان يقف ويراقب المصلح ، وقد دخل ضمن المدة المحسوبة كل الوقت الذي قضاه الاثنان وهما يذهبان ويجيئان ، فضلاً عن ثمن كل أنواع المواد والملحقات التي احتاجوا اليها . بعدئذ ، وحين ذهبوا بغية دفع القسط المنزلي عن كانون الثاني ، أفزعهم الوكيل بسؤالهم ان كانوا قد فكروا بمشكلة التأمين أو أنهوها . وجواباً على سؤالهم عن مشكلة التأمين ، دلهم على جملة في وثيقة البيع تشترط عليهم أن يؤمنوا المنزل مقابل ألف دولار حالما ينتهي سند التأمين الحالي ، الامر الذي سيحدث خلال بضعة أيام . سألت الزبييتا المسكينة التي تلقت الصدمة مرة ثانية ، كم يكلفهم هذا ، فأجاب الرجل : سبعة دولارات . وفي تلك الليلة جاء جرجس ،

مضمماً عابس الوجه طالباً إلى الوكيل أن يعلمه ، مرة واحدة وإلى الابد ، بكل الحسابات التي يحتمل أن يدفعوها . ثم قال له بسخرية تلائم إسلوب الحياة الجديد الذي تعلمه : الوثيقة موقعة الآن — وبما ان الوثيقة موقعة فلا جدوى يكسبها الوكيل من بقائه صامتاً . ثم حدق جرجس في عيني الرجل بقوة ، وبذلك لم يضع أي وقت في الاحتجاجات التقليدية بل قرأ له الوثيقة . كان عليهم أن يجددوا عقد التأمين كل عام وأن يدفعوا الضرائب أي حوالي عشرة دولارات سنوياً وأن يدفعوا ضريبة الماء ، وهي حوالي ستة دولارات — فصمم جرجس في سره على أن يغلق الصنبور . هذا كل شيء فضلاً عن الفائدة والأقساط الشهرية ، — مالم يحدث أن تقرر البلدية تمديد مجارير أو اقامة طوار . أجل ، قال الوكيل ، فعليهم في هذه الحالة أن يدفعوا حصتهم من هذه التكاليف أيضاً اذا ماقررت الحكومة تنفيذها ، ولسوف يدفعونها طوعاً أو كرهاً ، علماً أن المجرور يكلفهم حوالي اثنين وعشرين دولاراً أما الطور فيكلف خمسة عشر ان كان من الخشب وخمسة وعشرين ان كان من الاسمنت .

وهكذا مضى جرجس إلى المنزل ثانية : انها راحة حقيقية ان يعرف أسوأ ما في الامر ، فهو على أي حال لن يفاجأ بطلبات جديدة بعد . لقد رأى الآن كيف ينهبونهم ، ولم يكن ثمة مفر ولا مجال للرجوع .

كان بامكانهم أن يستمروا ليس الا أن وأن يخوضوا معركتهم وينتظروا — ذلك لأن الهزيمة أمر لايمكنهم حتى التفكير به .

حين حل الربيع ، حمدوا الله على خلاصهم من سطوة القرس الرهيب ، وخلاصهم ليس مسألة سهلة ، علاوة على أنهم لن يضطروا بعد اليوم لدفع ثمن الفحم — في ذلك الوقت تماماً كانت مدخرات ماريا قد بدأت تنفد . لكن جاء الطقس الدافيء بازعاجاته الخاصة ، ولكل فصل ازعاجاته . ففي الربيع ، هناك الامطار الباردة التي تحيل الشوارع إلى أقنية ومستنقعات . وتجعل الوحل عميقاً إلى حد تغرق معه العربات حتى محاور دواليبها ويتعذر معه على ستة أحصنة أن تحركها قيد أنملة . وبالطبع ، كان من المتعذر على المرء أن يصل إلى مكان عمله جاف القدمين ، وهو أمر سيء بالنسبة لرجال لايرتدون الا أسوأ الملابس لكنه أشد سوءاً بالنسبة للنساء والاطفال . بعدئذ ، جاء منتصف الصيف بحرارته الخانقة ، فأصبحت أحواض الذبح القذرة في منشأة دورهام جحيماً حقيقياً للعذاب . ذات يوم ، صرعت ضربة الشمس ثلاثة رجال معاً إذ ظلت أنهار الدم الحار تتدفق طوال النهار إلى أن أصبحت الرائحة ، مع حرارة الشمس المنسكبة وسكون الهواء ، كافية لصرع أقوى الأقوياء . ذلك أن الحرارة تبعث كل مااخترنه المكان من روائح طوال جيل كامل — وليس هناك من يهتم بغسل الجدران والروافد والركائز التي كانت

معجونة كلها بقذارة عمر كامل . بل حتى الرجال الذين يعملون في أحواض الذبح . كانت لهم رائحة كريهة إلى حد يمكنك معه أن تشم رائحة واحدهم من بعد خمسين قدماً ، ولم يعد هناك من يهتم بأمور اللياقة العامة ، بل لقد تخلى عنها أكثر الرجال عناية وحرصاً ليغرق في حمأة القذارة . لم يكن هنالك حتى مكان يستطيع المرء فيه أن يغسل يديه ، وربما كان العمال يأكلون دماً جافاً مع وجبتهم بقدر مايأكلون من الطعام . فحين يكونون في ميدان العمل يتعذر عليهم حتى مسح وجوههم — في هذا المجال يصبحون أعجز من طفل وليد . ورغم أنها قد تبدو مسألة تافهة الا أن العرق يبدأ بالتصبب على رقابهم مدغدغاً اياهم ، أو تحط ذبابة على وجه واحدهم وتضايقه دون أن يستطيع مد يده اليها . عذاب حقيقي أشبه بأن ترى نفسك وأنت تحرق حياً ، وسواء كانت دور الذبح أو المزابل هي المسؤولة . وهو أمر لايستطيع أحد تقريره . الا انه مع مجيء الطقس الحار حطت على باكنجتاون بلوى حقيقية من الذباب . بلوى لايمكن وصفها — فالذباب يغطي جدران المنزل حتى لتراها سوداء ، وليس ثمة من مفر . انك قد تزود أبوابك ونوافذك بشريط منخلي ناعم غير أن طنين الذباب في الخارج سيجعلك تتذكر دائماً أسراب النحل ، وحينما تفتح الباب يندفع إلى الداخل وكأن عاصفة ريح تسوقه .

ولعل زمن الصيف يوحي لك بأفكار الريف ، برؤى الحقول الخضر والجبال والبحيرات المتلألئة . غير أنه لاشأن للزرائب بمثل هذه

الايحاءات . فآلة التعليب الهائلة تدور وتطحن بغير رحمة ؛ وبدون تفكير بالحقول الخضر ، كما أن الرجال والنساء والأطفال الذين هم جزء منها لايرون شيئاً أخضر حتى ولازهرة . فالى الشرق منهم وعلى أربعة أو خمسة أميال تقع بحيرة ميتشيغان بمياهها الزرقاء الساحرة ، لكنهم كانوا يشعرون أنها لاتقل بعداً عن المحيط الهادىء . فليس لديهم سوى الآحاد ولايأتي الأحد عادة الا وهم أشد اعياء من أن يسيروا على أقدامهم . لقد شد رباطهم إلى آلة التعليب الكبيرة ، مرة واحدة وإلى الابد . المدراء والمشرفون والموظفون في باكنجتاون يؤتى بهم جميعاً من طبقة أخرى وليس من بين العمال أبداً ، لذا فهم يحتقرون العمال احتقاراً شديداً . قد يكون هناك كاتب بسيط يعمل في مؤسسة دورهام منذ عشرين سنة براتب قدره ستة دولارات في الاسبوع ، وقد يعمل لعشرين سنة أخرى دون أن يتحسن وضعه ، لكنه مع ذلك ينظر إلى نفسه على أنه « جنتلمان » ، سيد كبير يفصله عن أمهر العمال في أحواض الذبح مايفصل القطب الشمالي عن الجنوبي . انه يلبس على نحو مختلف ، ويقطن في ناحية أخرى من البلدة ، ويأتي إلى العمل في ساعة مختلفة من النهار ، وطوال النهار يبقى حذراً من أن يلامس أحد العمال . ولعل هذا ناجم عن الاشمئزاز من العمل ، فالناس الذين يعملون بأيديهم يشكلون طبقة منفصلة ، وكل من حولهم يدفعهم للاحساس بذلك .

في أواخر الربيع عاد معمل التعليب ففتح أبوابه ثانية ، وهكذا

عادت ماريا تصدح وتغرد من جديد كما اتخذت موسيقى الحب التي يعزفها تاموزيوس طابعاً أقل أسى وحزناً . انما لم يدم ذلك طويلاً ، فبعد شهر أو شهرين حلت بماريا كارثة مروعة ، وكان قد مضى عليها عام وثلاثة أيام مذ بدأت عملها في طلي العلب ، حين فقدت عملها .

انها قصة طويلة ، تصر ماريا على أنها نتيجة نشاطها في النقابة فلأرباب العمل ، بالطبع ، جواسيس في كل النقابات ، فضلاً عن أنهم يعملون ، عادة ، على شراء عدد معين من المسؤولين النقابيين ، بقدر مايظنون أنهم محتاجون . وهكذا يتلقون في كل اسبوع تقارير حول مايجرى ويعرفون الامور في أغلب الأحيان قبل أن يعرفها أعضاء النقابة أنفسهم . لذا فكل من يرونه خطراً عليهم يجدون أن رئيسه لايحبه لسبب أو لآخر ، ولماريا يد طولى في البحث عن الأجانب والتبشير فيهم . لكن أياً كانت الحجة ، فالحقائق المعروفة هي أن ماريا كانت قد خسرت قبل بضعة أسابيع من اغلاق المصنع ، أجرة طلاء ثلاثمائة علبة نتيجة خداعهم وغشهم . فالفتيات يعملن على طاولة طويلة ، وخلفهن تمشي امرأة في يدها قلم رصاص ودفتر تسجل عليه الارقام التي تنجزها كل عاملة . هذه المرأة كائن بشري ، طبعاً ، والبشر يخطئون أحياناً ، لكن حين يحدث هذا ، لاتجد أحداً يصلح الخطأ — فاذا نلت يوم السبت ، مثلاً ، نقوداً أقل مما تستحق ، فعليك أن تصمت وتتحمل . بيد أن ماريا لم تكن تفهم هذا ، بل راحت تثير القلاقل .

وقلاقل ماريا لاتعني أي شيء ، فهي لاتعرف سوى البولونية والليتوانية ، وهما لغتان لاتؤذيان ، لانها حين تتحدث بواحدة منهما يكتفي الناس بالضحك منها ودفعها للبكاء . أما الآن فقد باتت ماريا قادرة على مناداة الاسماء بالانكليزية ، وبذلك جعلت المرأة التي أخطأت معها تكرهها . ولعل هذه المرأة ارتكبت الخطأ عمداً ، فكما ادعت ماريا ، تكرر الخطأ بعد ذلك ، لكن عند وقوع الخطأ الثالث اشعلت ماريا نار الحرب ، فاشتكت في البداية إلى المشرفة ، وحين لم يرضها جوابها ، اشتكت إلى المراقب العام نفسه . قال لها المراقب أنه أمر لم يسمعوا بمثله من قبل ، لكنهم سيرون المسألة ، ففسرت ماريا قوله بأنها ستحصل على نقودها ، وبعد انتظار ثلاثة أيام ذهبت لرؤيته مرة ثانية . لكن الرجل عبس هذه المرة وقال أنه غير فارغ لمثل هذه الأمور التافهة ، وحين حاولت ماريا ، رغم نصائح زميلاتها وتحذيراتهن ، اثارة الموضوع مرة أخرى أمرها بالعودة إلى عملها وقد ثارت ثائرته . كيف حدثت الامور بعد ذلك ، لاتعرف ماريا تماماً ، لكن المشرفة أخبرتها ، عصر ذلك اليوم ، بأنهم استغنوا عن خدماتها ، ولم تكن ماريا لتصاب بذهول أشد لو أن المشرفة طرقتها على رأسها بدلاً من قولها هذا . في البداية لم تستطع تصديق ماسمعته ، بعدئذ ثار غضبها وأقسمت على أن تجيء مهما يكن وأن مكانها لها ، لا لأحد سواها . وأخيراً جلست على الارض تبكي وتولول .

لقد كان درساً قاسياً ، لكن ماريا عنيدة متصلبة — كان عليها أن

تطيع أولئك المجربات . في المرة القادمة ستعرف من هي تماماً ، كما قالت لها المشرفة، وهكذا خرجت ماريا ،وبخروجها واجهت العائلة مشكلة القوت مرة ثانية .

على أن الأمر كان صعباً على نحو خاص هذه المرة ، فأونا ستضع مولوداً خلال فترة وجيزة وجرجس يحاول جاهداً أن يوفر بعض المال لمواجهة هذا الحدث . فقد سمع قصصاً رهيبة عن القابلات اللواتي يزددن سمنة كالبراغيث في باكنجتاون ، وقد عزم على أن يأتي بطبيب لها . وبامكانه ان يكون في غاية العناد حين يريد ذلك وقد كان كذلك في هذه الحالة ، الامر الذي اثار رعب النساء اللواتي كن يشعرن أن مجيء طبيب ذكر أمر غير لائق وأن المسألة تخصهن وحدهن بالحقيقة . فأرخص طبيب يمكن ايجاده سيكلفهم خمسة عشر دولاراً وربما أكثر حين تدخل الفواتير.فأعلن جرجس أنه سيدفع ذلك حتى ولو اضطر للصيام عن الطعام بعد ذلك .

كان قد بقي لدى ماريا خمسة وعشرون دولاراً فقط ، ويوماً بعد يوم كانت تطوف المسالخ بحثاً عن عمل انما دون أمل في ايجاده هذه المرة . كان باستطاعة ماريا أن تقوم بأعمال الرجال المقتدرين ، في حالتها العادية ، لكنها وقد حل بها ماحل ، غدت واهنة القوى مثبطة العزيمة وغالباً ماكانت تعود إلى المنزل ليلاً ، حطاماً يثير الشفقة . لقد حفظت درسها هذه المرة ، هي المخلوق البائس ، حفظته عشر مرات ،

وحفظته العائلة معها ـــ وهو أن عليك حين تحصل على عمل في باكنجتاون أن تتمسك به ، مهما يحدث .

ظلت ماريا تبحث وتفتش أربعة أسابيع ونصف الاسبوع الخامس . وبالطبع توقفت عن دفع مايترتب عليها للنقابة . لقد فقدت كل اهتمام لها بالنقابة بل لعنت نفسها لحماقتها ودخولها في شيء كهذا . وكانت على وشك أن تقرر أنها روح ضائعة حين أخبرها أحدهم بوجود منفذ ، فذهبت وهناك حصلت على عمل « مشذبة لحم » . لقد حصلت عليه لأن رئيس العمال رأى أن عضلاتها مثل عضلات أي رجل ؛ لذا طرد عاملاً لتحل ماريا محله ، موفراً بذلك نصف الاجر الذي كان يدفعه من قبل . في البداية ، وحين جاءت إلى باكنجتاون ربما كانت ماريا ستزدري عملاً كهذا لكنها الآن تقبل به ، تشذب لحوم تلك المواشي المريضة التي حدثوا جرجس عنها قبل فترة وجيزة . كانت تعمل في احدى الغرف المغلقة حيث لايرى الناس الشمس الا نادراً ، تحتها غرف التبريد حيث يحفظ اللحم ، وفوقها غرف الطهو ، وهكذا كانت قدماها تقفان على أرض باردة كالجليد بينما يغرق رأسها في جو خانق من الحرارة حتى ليكاد يتعذر التنفس . انها تشذب اللحم عن عظام بقر يزن واحدها مائة رطل انكليزي ، بينما تقف من الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل ، وفي قدمها حذاء غليظ تدوس به على أرض رطبة دائماً ، مليئة بالبرك الصغيرة دائماً ، عرضة للطرد من العمل دائماً بسبب الكساد ، وعرضة أيضاً لأن تعمل وقتاً اضافياً في مواسم ازدحام

العمل وأن تظل تعمل وتعمل إلى أن يرتعش كل عصب في جسمها وتفقد سيطرتها على سكينها الحادة وتصيب نفسها بجرح يتسمم منه دمها — هذه هي الحياة الجديدة التي بسطت نفسها أمام ماريا . لكن بما أن ماريا حصان بشري فقد اكتفت بالضحك وهي تتابع طريقها . فهذا العمل سيجعلها قادرة مرة ثانية على دفع ثمن طعامهم وتساهم في تسيير شؤون العائلة . أما بالنسبة لتاموزيوس — فقد انتظرا زمناً طويلاً وبامكانهما الانتظار قليلاً . اذ ليس باستطاعتهما أن يعيشا على أجره وحده ، والعائلة لاتستطيع تأمين عيشها بدونها . كان بامكانه أن يأتي ويزورها وأن يجلسا في المطبخ يمسك بيدها ويكتفي بذلك . لكن يوماً بعد يوم ، كانت الموسيقى الصادرة عن كمان تاموزيوس تغدو أكثر عاطفية وهزاً للقلوب ، وكانت ماريا تجلس مشبوكة اليدين ، مبللة الوجنتين يرتعش جسمها كله ، وهي تسمع في نحيب الألحان الموسيقية أصوات أجيال لم تولد تصرخ في داخلها طالبة أن ترى النور .

لقد جاء درس ماريا في وقته تماماً فأنقذ أونا من مصير مشابه . ذلك أن أونا لم تكن هي الأخرى راضية عن عملها ، ولديها أسباب أكثر بكثير من ماريا . فهي لم تحك نصف قصتها في المنزل ، لأنها رأت فيها عذاباً شديداً لجرجس وكانت تخشى مما قد يقدم عليه . فلمدة طويلة من الزمن كانت أونا ترى أن الآنسة هندرسون المشرفة في قسمها ، لاتحبها . في البداية ، ظنت أن ذلك نتيجة الخطأ القديم العهد الذي

ارتكبته حين طلبت اجازة زواج . بعدئذ استنتجت أن كرهها هذا لابد أن يكون بسبب تقصيرها في تقديم الهدايا للمشرفة في المناسبات — فهي من الصنف الذي يأخذ الهدايا من الفتيات ، كما علمت أونا ، وتمارس كل أنواع التمييز لصالح من يقدمها لها . لكن في النهاية ، اكتشفت أونا أن الأمر أسوأ من ذلك حتى . فالانسة قادمة جديدة ، وقد استغرق الأمر بعض الوقت إلى أن أظهرت الاشاعات الحقيقة ، إذ تبين أخيراً أنها امرأة — تحت — التصرف ، خليلة سابقة لمراقب القسم في البناء نفسه . وقد وضعها هنا لاسكاتها على ما يبدو لكنه لم ينجح في ذلك كلياً ، فقد سمعهما الناس مرة أو مرتين يتشاجران ذلك أن طبعها أشبه بطبع الضبع إذ ما إن تحل في مكان حتى يغدو أشبه بمرجل ساحرة . كان هناك بعض الفتيات اللواتي هن من صنفها ، وممن يرغبن في تملقها ومجاملتها ونقل القصص والاشاعات عن البقية ، وبذلك كانت المعارك لاتنتهي . على أن الأسوأ من هذا كله هو أن المرأة كانت تقطن في بيت للدعارة في قلب المدينة مع رجل ايرلندي فظ أحمر الوجه يدعى كونور ويعمل رئيساً لعمال ورشة التحميل في الخارج ويرفع الكلفة مع الفتيات في مجيئهن وذهابهن من العمل . وفي مواسم الركود يذهب بعض هؤلاء الفتيات مع الآنسة هندرسون إلى هذا البيت الواقع في قلب المدينة — والواقع أننا لانتجاوز الحقيقة حين نقول أنها كانت تدير قسمها في منشأة براون بالتنسيق مع ادارة البيت . ففي بعض الأحيان تعطى نساء من البيت أعمالاً في المنشأة جنباً إلى جنب مع فتيات شريفات ، وبعد

أن تطرد فتيات شريفات أخريات ليحل هؤلاء محلهن . وحين تعمل في قسم هذه المرأة ، فان بيت الدعارة لايفارق أفكارك طوال اليوم . فهناك دائماً نفحات تذكرك به مثلما تذكرك رائحة باكنجتاون بمنشآت التعليب في الليل حين تتحرك الريح فجأة . كذلك فان القصص تتسرب ، فالفتيات المقابلات قد يروينها بينهن ويتغامزن عليك . في مكان كهذا ، لم تكن أونا لتمكث يوماً واحداً ، لكن للضرورة أحكام ، ومع ذلك فانها لم تكن واثقة يوماً من أنها ستبقى في اليوم التالي . لقد أدركت الآن أن السبب الحقيقي لكراهية الآنسة هندرسون هو أنها امرأة متزوجة عفيفة ، كما علمت أن الواشيات والمتملقات من الفتيات يكرهنها للسبب نفسه ، وأنهن يعملن كل ما في وسعهن لتعكير حياتها .

لكن ، ليس ثمة مكان في باكنجتاون يمكن لفتاة أن تذهب إليه إذا كانت متشددة في مسائل من هذا النوع . ليس هناك مكان لاتستطيع مومس أن تذهب إليه أكثر من فتاة شريفة . فهنا تجمع سكاني ، أجنبي في معظمه – ومن طبقة دنيا ، هو دائماً على حافة الموت جوعاً وتعتمد فرص حياته على نزوات رجال يشبهون في كل ذرة من تكوينهم سائقي العبيد في العهود القديمة بكل ما فيهم من وحشية وغلاظة وقسوة . في ظروف كهذه يغدو الفساد الأخلاقي أمراً لامناص منه ويغدو هو الطاغي تماماً كما كانت الحال أيام عبودية الرق . فالأشياء التي لايتكلم الناس عنها عادة ، تجرى في دور التعليب في وضح النهار وتعتبر أمراً عادياً

تماماً ، الفارق الوحيد هو أنهم لم يكونوا يعلنون ذلك ، كما في أيام العبودية القديمة ، لأنه لم يكن هنالك فارق في اللون بين السيد والعبد .

ذات صباح ، مكثت أونا في المنزل وجاء جرجس بالطبيب ، طبقاً لرغبته ، بعد ذاك بقليل وضعت له بسلام طفلاً جميلاً . لقد كان صبياً كبير الجسم قوياً رغم أن أونا ضئيلة الجسم حتى بدا حجمه بالمقارنة معها ، غير ممكن التصديق .

كان مجيء هذا الصبي حدثاً حاسماً بالنسبة لجرجس ، فقد جعله رب أسرة على نحو لايمكن الرجوع عنه ، وقضى في نفسه على آخر دافع قد يدفعه للخروج في المساء ومجالسة الرجال في الحانات ومسامرتهم . فليس هناك ما يثير اهتمامه الآن سوى أن يجلس ويمعن النظر في الصبي ، وهو أمر يثير الاستغراب تماماً ، إذ لم يكن جرجس يهتم بالأطفال من قبل ، لكن هذا الطفل كان نوعاً غير عادي ، فعيناه صغيرتان سوداوان شديدتا التألق وله خصيلات شعر سوداء متفرقة على رأسه . كان صورة حية عن والده ، هكذا قال الجميع — وقد وجد جرجس أن هذه الحالة تفتن اللب ، فهو شيء محير تماماً أن تكون مضغة الحياة الصغيرة هذه قد خرجت إلى العالم بالطريقة التي خرجت بها وأنها جاءت صورة طبق الأصل عن الوالد ، الأمر الذي يبعث في النفس كل العجب .

وفكر جرجس ، لعل المقصود من هذا كله الدلالة على أنه من صلبه ، وأن عليه أن يرعاه . لم يكن قد سبق لجرجس أن اهتم بشيء في

الدنيا كاهتمامه بهذا الطفل — وإنه لشيء رائع ، حين تفكر جدياً بالمسألة ، أن يكون لديك طفل . فهو سينمو ويغدو روحاً بشرية ؛ انساناً ذا شخصية قائمة بذاتها ، وإرادة خاصة . كانت مثل هذه الأفكار تراود جرجس حتى تفعمه بكافة أنواع الانفعالات الغريبة والمؤلمة تقريباً . لقد كان فخوراً إلى حد مدهش بأنتاناس الصغير ، يهتم بكل التفاصيل المتعلقة به — من غسيل ، لباس ، أكل ، نوم ، ويسأل كل أنواع الاسئلة السخيفة عنه . ولقد استغرق الأمر زمناً طويلاً منه قبل أن يستطيع تجاوز خوفه من أن تكون ساقا المخلوق الصغير قصيرتين قصراً غير عادي.

لكن وأأسفاه ، لم يكن لدى جرجس الكثير من الوقت ليرى فيه طفله ، وهو لم يشعر بالسلاسل التي تقيده مثلما شعر بها في ذلك الحين . فحين يعود إلى المنزل ليلاً يكون الطفل نائماً ، وبمحض المصادفة يستيقظ أحياناً قبل أن يكون على جرجس نفسه أن يأوي إلى فراشه . وفي الصباح لايجد لحظة واحدة يتأمل فيها وجه طفله ؛ لذا فقد كانت الفرصة الوحيدة المتاحة للوالد هي يوم الأحد ، غير أن الأمر كان في غاية الصعوبة بالنسبة لأونا التي كان عليها أن تمكث في البيت وترعى الطفل كما قال الطبيب ، من أجل صحتها وصحته أيضاً ، وفي الوقت ذاته عليها أن تذهب إلى العمل وتتركه في رعاية تيتا الزبييتا تطعمه من ذلك السم الأزرق الشاحب الذي يدعونه حليباً والذي يبتاعونه من بقالية الزاوية . لم تخسر أونا بانقطاعها عن العمل سوى أجر أسبوع واحد — فقد

ذهبت إلى المعمل يوم الاثنين التالي ، وجل ما استطاع جرجس اقناعها به هو أن تركب الترام ثم مضى يجري خلفها حتى منشأة براون ليساعدها عند الهبوط . بعدئذ سار كل شيء على ما يرام ، كما قالت أونا ، فليس ثمة أي جهد في الجلوس طوال النهار وخياطة أغطية لحم الخنزير ، ولو أنها انتظرت فترة أطول ، اذن لوجدت مشرفتها وقد استبدلت بها عاملة أخرى . وفي هذه الحالة ستكون الكارثة أشد هولاً من ذي قبل ، لاسيما وقد جاء الوليد . فعلى الجميع أن يعملوا الآن بجهد أكبر من أجله . انه مسؤولية وعليهم أن يتحملوا مسؤولية كهذه — كذلك عليهم أن ينشئوا الطفل بحيث لايعاني مثلما عانوا هم ، وهذا بالحقيقة هو الشيء الأول الذي فكر به جرجس نفسه — فقد أطبق يديه باحكام وشدد من عزيمته للكفاح مجدداً ، كرمى لعيني تلك المضغة الصغيرة ، رجل المستقبل. وهكذا عادت أونا إلى منشأة براون فأنقذت عملها من الضياع ووفرت أجور أسبوع وبذلك سببت لنفسها نوعاً من تلك الأمراض الألف التي يدرجها النساء عادة تحت اسم « الاضطرابات الرحمية » ولم تعد شخصاً سوياً بعد ذاك طيلة الأيام التي عاشتها . وإنه لمن الصعوبة بمكان أن نعبر بالكلمات عما كان ذلك كله يعني لأونا . لقد بدأ أشبه بوجع بسيط إلا أن عقوبة هذا الوجع جاءت أشد بما لايقاس حتى أنها لم تستطع ولم يستطع أحد سواها أن يربط بين الاثنين . « فاضطراب

الرحم » لم يكن يعني لأونا أبداً أنه مرض يحتاج لتشخيص أخصائي وفترة معالجة قد تطول وربما عملية أو عمليتين ، بل كان يعني ببساطة بعض الصداع في الرأس والآلام في الظهر ووهناً في القوى ومرضاً في القلب وشيئاً من العصاب حين تضطر للذهاب إلى المعمل تحت المطر . كانت غالبية النساء اللواتي يعملن في باكنجتاون يعانين من الحالات ذاتها وللسبب ذاته ، لذا لم يفكر أحد بأن الحالة تستحق الذهاب إلى الطبيب وبدلاً من ذلك جربت أونا الأدوية المؤثرة واحداً بعد الآخر ، طبقاً لنصائح صديقات لها وبما أنها كانت كلها تحوي كحولاً أو مسكّناً من المسكّنات الأخرى فقد كانت تريحها حين تتناولها ، وهكذا غدت دائماً تطارد شبح الصحة والعافية ولاتستطيع الامساك به ، إذ كانت أضعف وأفقر من أن تستطيع الاستمرار .

— ١١ —

خلال الصيف ، عاد النشاط الكامل لدور التعليب واستطاع جرجس أن يكسب مالاً أكثر لكنه لم يكسب بالقدر الذي كسبه في الصيف الماضي ذلك لأن أرباب العمل أدخلوا الكثير من الأيدي العاملة الجديدة ، ففي كل اسبوع تجد عمالاً جدداً يدخلون — انه النظام الاعتيادي ،فهذا العدد يحتفظون به حتى موسم الركود التالي وبذلك يحصل كل منهم على مبلغ أقل مما كان يحصل عليه في السابق . انهم ، بهذه الخطة ، يحيلون اليد العاملة الحرة في شيكاغو عاجلاً أو آجلاً إلى أيد مدربة على

القيام بأعمالهم . فأية خدعة بارعة هذه ! ! كان على العمال القدامى أن يدربوا الجدد الذين قد يأتون في يوم من الأيام ويحطمون الاضراب الذي قد يعلنه أولئك وأثناء ذلك يبقون في حالة مزرية من الفقر لمنعهم من التفكير بالاضراب .

لكن لايظنن أحد أن هذا الفيض الزائد من المستخدمين يعني أن العمل غدا أسهل على أحد من العمال القدامى . بل العكس هو الصحيح فالتسريع يتزايد ، على ما يبدو ، بصورة أكثر وحشية طوال الوقت ، وهم باستمرار يخترعون أساليب جديدة لتكديس العمل وتراكمه — فالعملية ، بالنسبة للعالم كله ، أشبه بالقلاووظ الابهامي الذي كانوا يستخدمونه في حجرات التعذيب في القرون الوسطى . انهم يأتون بصانعي ايقاع جدد ويدفعون لهم أكثر كما يدفعون الرجال أكثر وأكثر إلى العمل بآلات جديدة ، بل يقال إن السرعة التي تتحرك بها الخنازير في غرف الذبح انما تحددها ساعة وأن هذه السرعة تزاد قليلاً كل يوم . في أماكن العمل بالقطعة يمكنهم أن يخفضوا الزمن ، طالبين أداء العمل نفسه في وقت أقصر ، ومن ثم يدفعون الأجر نفسه ، لكن بعد أن يعتاد العمال على هذه السرعة الجديدة يخفضون معدل الدفع بحيث يتناسب مع التخفيض في الزمن وغالباً ماكانوا يلجؤون إلى هذه الأساليب في مؤسسات التعليب إلى حد وصلت معه الفتيات الى حالة من اليأس فأجورهن هبطت بمقدار الثلث خلال السنتين الماضيتين ، وكان من المحتمل كثيراً أن يتحول السخط الذي يغلي في صدورهن الى عاصفة تنفجر في أي يوم ، لم يكن قد مر على عمل ماريا

في منشأتها الجديدة كمشرحة لحم الاشهر واحد حين لجأ معمل التعليب الذي تركته إلى خفض أجور عاملاته إلى النصف تقريباً ، وقد أثار ذلك سخطهن الى درجة جعلتهن يخرجن مباشرة إلى الشارع ، بدون مفاوضات حتى. وكانت إحدى الفتيات قد قرأت ذات مرة أن العلم الأحمر هو الرمز المناسب للعمال المضطهدين ، وهكذا رفعن علماً أحمر وطفن في كل الساحات يصرخن احتجاجاً وغضباً. كانت نتيجة هذا الانفجار ظهور نقابة جديدة غير أن هذا الاضراب الارتجالي تحطم ارباً خلال ثلاثة أيام وذلك بسبب تدفق اليد العاملة الجديدة . وفي نهاية الاضراب وجدت الفتاة التي حملت الراية الحمراء نفسها تذهب إلى قلب المدينة لتبحث عن عمل وجدته أخيراً في مخزن كبير بأجر لايزيد عن دولارين ونصف في الأسبوع .

استمع جرجس وأونا لهذه القصص بشيء من الهلع ، إذ لم يكن أحد يعلم متى يأتي دورهم . رة أو مرتين سرت اشاعات بأن احدى دور التعليب الكبيرة ستخفض أجر عمالها غير المهرة إلى خمسة عشر سنتاً في الساعة وقد علم جرجس أنه إذا ما حدث هذا ، فسوف يأتي دوره سريعاً . لقد علمته الأيام أن باكنجتاون ليست ، بالحقيقة ، عدداً من المؤسسات على الاطلاق ، بل هي مؤسسة كبيرة واحدة ، « تروست(١) للحم البقر » ففي كل اسبوع يجتمع مدراء هذا التروست معاً لاجراء مقارنات بين ملاحظاتهم ، وليضعوا مقياساً واحداً لكل عمال المسالخ ،

(١) التروست : اتحاد احتكاري بين عدد من الشركات يستهدف التحكم بالسوق .

مقياس كفاءة ومهارة. كذلك قيل لجرجس أنهم ثبتوا السعر الذي سيدفعونه ثمناً للبقر الحي وكذلك أسعار اللحوم المدلية في جميع أنحاء البلاد، انما كان ذلك شيئاً يتجاوز مدارك جرجس واطار اهتماماته.

وحدها ماريا لم تكن تخشى تخفيض الأجور، واقد هنأت نفسها بكثير من السذاجة، على أنهم كانوا قد طردوها من عملها قبيل فترة وجيزة إذ غدت مشذبة لحم ماهرة، تتحسن مهارتها باستمرار. كان جرجس وأونا قد عملا خلال الصيف والخريف على تسديد آخر مليم يدينان لها به. وهكذا بدأت مشروعاً آخر فقد فتحت لنفسها حساباً في المصرف. وكان لتاموزيوس حسابه المصرفي أيضاً، وهكذا بدأا سباقاً وبدأا يتصوران ويحسبان معاً مصاريف افتتاح بيت الزوجية مرة أخرى.

غير أن امتلاك ثروة كبيرة يجر هموما ومسؤوليات، ذلك ما اكتشفته ماريا المسكينة نفسها، فقد أخذت بنصيحة صديقة من صديقاتها وأودعت مدخراتها في مصرف يقع في شارع آشلاند، وبالطبع لم تكن تعرف شيئاً عنه باستثناء أنه مصرف كبير ومهيب — وأية فرصة يمكن أن تتاح لعاملة أجنبية مسكينة كي تفهم الأعمال المصرفية على النحو الذي تجري عليه في بلاد المال المسعورة هذه؟ لذا عاشت ماريا في خوف دائم خشية أن يحدث طارىء لمصرفها، وكثيراً ما كانت تعرج عليه في الصباح وهي ذاهبة إلى العمل، كي تطمئن على أنه ما يزال في موقعه.

كان الحريق هو العدو الرئيسي الذي تخافه ، فقد أودعت أموالها على شكل سندات وكان أخشى ما تخشاه هو أن يحترق المصرف ولا تحصل على أية سندات أخرى . كان جرجس يسخر من تفكيرها هذا ، لأنه كان رجلاً فخوراً بما لديه من معرفة رفيعة ، ولقد أخبرها بأن في المصرف أقبية مضادة للحريق ، وأن كل أمواله تختبيء بأمان تام في تلك الأقبية .

مع ذلك قامت ماريا ذات صباح بجولتها المعهودة ، فرأت ،والرعب يقطع أنفاسها ، حشداً كبيراً وزحاماً شديداً أمام المصرف فشحب وجهها خوفاً وانطلقت تعدو صارخة بالناس ، سائلة اياهم عن الأمر ، انما دون أن تتوقف كي تسمع جوابهم ، حتى وصلت أخيراً إلى خضم الجمهور حيث بات من المتعذر عليها اختراقه . كانت هناك « هجمة لسحب الودائع من المصرف » قالوا لها أخيراً لكنها لم تفهم معنى ذلك ، وهكذا راحت تنتقل من شخص إلى آخر ، محاولة أن تفهم ، يعذبها الخوف والرعب . هل حلت مصيبة بالمصرف ؟ لا أحد يعلم بصورة مؤكدة ، انما يظنون ذلك . ألا تستطيع الحصول على مالها ؟ لا أحد يعلم أيضاً ، بل إن الناس خائفون من أنهم لن يستطيعوا الحصول على أموالهم ولذلك جاؤوا يحاولون . كان الوقت ما يزال مبكراً للحسم في هذه المسألة — فالمصرف لايفتح أبوابه قبل ثلاث ساعات تقريباً ، وهكذا بدأت ماريا بيأس مسعور تشق طريقها نحو أبواب المبنى ، عبر حشد غفير

من النساء والرجال والأطفال وكلهم مهتاجون قلقون . كان منظراً من مناظر الفوضى العجيبة ، نساء يصرخن ويعصرن أيديهن ثم يسقطن مغشياً عليهن ، رجال يعاركون ويدوسون على كل شيء في طريقهم . وحين وصلت ماريا إلى وسط الجمهور المائج تذكرت أنها لاتحمل دفتر الرصيد ولايمكنها الحصول على نقودها بأي حال من الأحوال ، وهكذا عادت فشقت طريقها خارجة من الزحام ثم بدأت تجري إلى المنزل ، وقد كان هذا لحسن حظها ، فبعد بضع دقائق فقط وصلت قوات الشرطة الاحتياطية .

بعد نصف ساعة عادت ماريا ومعها تيتا الزبيبتا ، تلهثان كلتاهما لشدة الجري وتكادان تسقطان من الخوف ، فوجدتا الحشد وقد انتظم في رتل يمتد مئات الأمتار ويقوم بالاشراف عليه وتنظيمه حوالي خمسين شرطياً ، لذا لم تستطيعا فعل شيء سوى الانتظام في الرتل انما في نهايته . في الساعة التاسعة فتح المصرف أبوابه وبدأ عملية الدفع للحشد المنتظر ، لكن كيف ترى كانت حالة ماريا وهي ترى أمامها ثلاثة آلاف نسمة — وهو عدد يكفي لاخراج آخر بنس من اثني عشر مصرفاً ؟

ولكي يزداد الطين بلة ، فقد بدأ يهطل رذاذ من المطر ، يبللهم حتى الجلد ، لكنهم مع ذلك ظلوا واقفين هناك طوال النهار يزحفون ببطء باتجاه الهدف — وطوال العصر وقفوا هناك ، وقد هبطت قلوبهم بين جنوبهم وهم يرون أن ساعة اغلاق المصرف تقترب وأنهم سيعودون

بخفي حنين . عزمت ماريا ، وليحدث ما يحدث ، أن تبقى حيث هي كي تحافظ على مكانها ، لكن بما أن الجميع كانوا سيفعلون الشيء ذاته ، ويمكثوا الليل البارد بطوله ، فانها لم تقترب من باب المصرف إلا قليلاً . عند المساء جاء جرجس ، وقد سمع القصة من الأطفال ، حاملاً معه بعض الطعام والدثارات الجافة مما سهل الأمور قليلاً .

في الصباح التالي ، وقبل طلوع الفجر ، جاء حشد أكبر من ذي قبل كما وصل المزيد من الشرطة من قلب المدينة . وتمسكت ماريا بموقعها كالموت الزؤام ، ومع العصر كانت ماريا تدخل المصرف وتقبض أموالها — كلها دولارات فضية كبيرة ملء منديل . وحين وضعت يدها عليها زال خوفها تماماً ، فأرادت أن تعيدها ثانية الا أن الرجل الموجود في الشباك كان بالغ الهمجية اذ صرخ بها قائلاً أن المصرف لايستقبل ودائع بعد اليوم لمن شارك في عملية السحب هذه . وهكذا وجدت ماريا نفسها مضطرة لحمل دولاراتها معها إلى المنزل ، فمضت تنظر ذات اليمين وذات الشمال متوقعة في كل لحظة أن يهجم عليها أحد المارة ويسرقها ، وحين وصلت إلى المنزل لم تجد نفسها في حال أفضل . فريثما تتمكن من ايجاد مصرف آخر لم يكن أمامها ماتفعله سوى أن تخفي نقودها في ملابسها وتخيطها عليها ، وهكذا ظلت ماريا أكثر من اسبوع محملة بسبيكتها الفضية ، خائفة من عبور الشارع أمام المنازل ، فقد قال جرجس أنها قد تغوص في الوحل حتى قمة رأسها .

وبجهلها هذا ، راحت تشق طريقها إلى الزرائب خائفة أيضاً ، خائفة هذه المرة من أن تكون قد فقدت عملها ، انما لحسن الحظ كان عشرة بالمائة من الناس العاملين في باكنجتاون من المودعين في ذلك المصرف ، وليس من المعقول أن يصرف أرباب العمل مثل هذا القدر من العمال دفعة واحدة . أما سبب ذلك الرعب والزحام فهو أن شرطياً حاول القبض على سكير في حانة مجاورة ، الامر الذي دعا لتجمع الكثير من الناس في الساعة نفسها التي كان الناس يقصدون أماكن عملهم وبذلك بدأ « التزاحم لاسترداد الودائع » .

في ذلك الوقت تقريباً كان جرجس وأونا قد ابتدأا أيضاً حساباً مصرفياً . إذ فضلاً عن أنهما دفعا ديون جوناس وماريا ، كانا قد دفعا أيضاً معظم أقساط الاثاث بل وادخرا مبلغاً صغيراً أودعاه في المصرف ، فطالما كان باستطاعة كل منهما أن يعود إلى المنزل بتسعة أو عشرة دولارات في الاسبوع ، كانت أمورهما تسير على مايرام . كذلك كان موعد الانتخاب قد عاد ثانية فاستطاع جرجس أن يظفر بنصف أجر الاسبوع منه ، ربحاً حلالاً زلالاً . كانت الانتخابات حامية هذا العام ،وقدوصلت حرارة المعركةالانتخابية حتى باكنجتاون. فالفريقان المتنافسان ، وكل من فيهما لصوص ينهبون الشعب ويبتزونه ، كانا قد استأجرا صالات وراحا يشعلان المفرقعات النارية ويلقيان الخطب ، في محاولة منهما لاثارة اهتمام الشعب . ورغم أن جرجس لم يكن يفقه شيئاً بتاتاً الا أنه كان يعلم مايكفي لجعله يدرك أن بيع صوته

عمل غير صحيح . لكنه مع ذلك فعل مثلما فعل كل الناس . فرفضه الانضمام إلى الركب لن يؤثر قدر قلامة على النتائج : كما أن فكرة الرفض ستبدو حمقاء لو أنها خطرت في ذهنه .

الآن بدأت الرياح الباردة وأيام العمل القصيرة تحذرهم معلنة أن الشتاء قادم ثانية . فبدا لهم وكأن الاستراحة كانت بالغة القصر ـ اذ لم يتسع لهم الوقت الكافي للاستعداد للشتاء . لكنه مع ذلك جاء . ولامفر منه أبداً . وبدأت نظرة الرعب تعود إلى عيني ستانيسلوفاس الصغير ، كما انتقل الرعب إلى قلب جرجس ايضاً ، إذ كان يعلم ان أونا ليست في حال تمكنها من مواجهة الشتاء ببرده وطبقات ثلوجه . ولنفرض أن أونا لم تأت إلى العمل في يوم عاصف من أيام هذا الشتاء حين تتوقف عن السير في شوارعه حتى الترامات . ثم جاءت في اليوم التالي لتجد أن عملها قد أعطي لواحدة أخرى تسكن في مكان أقرب ويمكن الاعتماد عليها أكثر . فماذا يحدث ياترى ؟

في الاسبوع السابق لعيد الميلاد ، جاءت أول العواصف الكبيرة ، فماجت روح جرجس في داخله مثل أسد في قفص . لقد مرت أربعة أيام لم تسر ترامات شارع أشلاند فيها أبداً ، وللمرة الاولى في حياته علم جرجس مامعنى أن يعاكسه الحظ حقاً . كان جرجس قد واجه صعوبات من قبل ، لكنها بدت له الآن أشبه بلعب الاولاد ، انه كفاح الموت ، وكل مافي داخله من ثوران وغضب أفلت من عقاله الآن .

في أول صباح من هذه الايام الاربعة ، انطلقوا قبل ساعتين من طلوع الفجر ، أونا متدثرة بالبطانيات ، محمولة على كتفيه ككيس من الجريش ، والصبي الصغير منكمش على نفسه ملفوف حتى لاتكاد تراه العين ، متعلق بأذياله . كانت هناك عاصفة ثلجية هائجة تلطمه على وجهه وكان ميزان الحرارة يشير إلى مادون الصفر ، والثلج يغطي حتى ركبتيه ، وفي بعض المواضع يصل حتى ابطيه . انه يمسك بقدميه ويحاول إبقافه ، يرتفع على شكل جدار أمامه ويصده فيدفع نفسه فيه غائصاً مثل بوفالو(١) جريح ، نافخاً ناخراً وقد استبدت به سورة الغضب . هكذا ، شبراً شبراً ، كان يشق طريقه ، وحين وصل أخيراً إلى منشأة دورهام كان يترنح تماماً ، يكاد لايرى شيئاً أمامه ، فاستند إلى عمود ، يشهق مقطوع الأنفاس ، ويشكر الاله على أن الماشية جاءت متأخرة إلى أحواض الذبح في ذلك اليوم . في المساء اضطر جرجس لفعل الشيء ذاته ، ولأنه لم يكن قادراً على تحديد ساعة انتهاء عمله ، فقد طلب من صاحب حانة أن يسمح لاونا بالجلوس في ركن من أركان الحانة وانتظاره . ورغم أنها كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً حين خرج من منشأته وكان الظلام أسود كالفحم ،رغم ذلك فقدذ هبا إلى المنزل.

لقد قضت تلك العاصفة على الكثير من الرجال ، اذ أن الحشد في الخارج ، ذلك الحشد من العاطلين عن العمل الذين ينتظرون فرضتهم

---

(١) البوفالو : هو الجاموس الأمريكي .

لم ينقص أبداً ، بل ربما ازداد ولم يكن أرباب العمل لينتظروا أحداً لحظة واحدة . لكن عندما انتهت العاصفة شعر جرجس بأن روحه طائر يغرد . لقد واجه العدو وهزمه فأحس جرجس بأنه سيد قدره . هكذا يحدث مع أحد أبطال الغابة حين يهزم أعداء في معركة مكشوفة ثم يسقط في شرك غادر أثناء الليل . فالحقيقة ليس هنالك من خطر في أحواض الذبح الا عندما يفلت أحد الثيران من حظيرته . ذلك أنهم أحياناً ، وبسبب العجالة الشديدة ، قد يطرحون أحد الثيران على الأرض قبل أن يقضي نحبه تماماً ، حينها يهب على قوائمه ويندفع كالمجنون . وتنطلق صرخات التحذير – عندئذ يلقي العمال بكل ما في ايديهم ليندفعوا إلى أقرب عمود ، قاذفين بأنفسهم أرضاً هنا وهناك ، واقعاً بعضهم فوق بعض . وهو أمر بالغ السوء في الصيف ، حين يكون باستطاعة المرء أن يرى ، أما في الشتاء فانه أمر يقف له شعر الرأس ، لأن الغرف تكون ملأى بالبخار إلى درجة لاتستطيع معها أن ترى أبعد من خمسة أشبار ومن المؤكد أن الثور حين يندفع يكون أعمى تماماً ومجنوناً تماماً ، ولا يقصد ايذاء أحد بصورة خاصة ، لكن ماعليك إلا أن تفكر بأحد الاحتمالات وهو أن تقع على سكين من تلك السكاكين التي يحملها العمال ، وكلهم يحملون سكاكين تقريباً . ولزيادة الطين بلة ، يندفع بعد ذلك رئيس العمال ببندقيته وتبدأ لعلعة الرصاص .

في واحدة من حالات الهرج والمرج هذه سقط جرجس في الشرك . انها الكلمة الوحيدة لوصف الحادث ، ولقد كان حادثاً بالغ

القسوة ، ومن المستحيل التكهن به . في البداية لم يوله أي اهتمام ، انه مجرد حادث بسيط — فقد انفتل كاحله وهو يتنحى مبتعداً عن الطريق وكان هذا كل شيء . لكنه بدأ يحس بلمعة ألم خفيفة ، الا أن جرجس كان معتاداً على الالم ولم يزعج نفسه بالامر . لكنه حين عاد إلى المنزل ، أدرك أن كاحله يسبب له قدراً كبيراً من الألم ، وفي الصباح كان قد تورم وغدا ضعف حجمه تقريباً ، بل لم يستطع ادخال قدمه في الحذاء . رغم ذلك لم يفعل جرجس أكثر من رش بعض الشتائم واللعنات ثم لف قدمه ببعض الخرق القديمة وراح يعرج إلى الترام . كان ذلك اليوم وبمحض المصادفة يوم ازدحام في العمل فظل طوال الصباح يجري هنا وهناك عارجاً تؤلمه قدمه ، انما لم تحل الظهيرة حتى كان الألم قد اشتد إلى درجة جعلته يصاب بالاغماء ، وبعد ساعتين من العمل بعد الظهر وجد نفسه عاجزاً عن الاستمرار ، مضطراً لاخبار رئيسه . حينذاك أرسلوه إلى طبيب الشركة الذي فحص القدم ثم قال أن عليه أن يذهب إلى منزله وأن يرتاح في فراشه مضيفاً أنه ربما سيتعطل أشهراً كاملة نتيجة حماقته وأن الشركة ليست مسؤولة عن الضرر الذي لحق بقدمه . وكان ذلك كل شيء ، كل مايهم الطبيب من الامر .

وصل جرجس إلى المنزل ، عاجزاً تقريباً عن رؤية شيء أمامه لشدة الالم ، محملة نفسه برعب شديد الهول . ساعدته الزبيبتا حتى وصل إلى فراشه ثم ضمدت قدمه المصابة بعد أن دلكتها بالماء البارد وحاولت جاهدة ألا تدعه يرى مايعتمل في نفسها من خوف ، وحين عاد بقية

أفراد العائلة ليلاً ، قابلتهم واحداً وحداً في الخارج وأخبرتهم ، وهي تتصنع الشجاعة كما كانوا هم أنفسهم يتصنعونها ، بان الامر قد يستغرق أسبوعاً أو أسبوعين وأن عليهم أن يشجعوه .

لكن عندما رأوه ينام ، أسرعوا إلى المطبخ حيث تحلقوا حول النار وبدؤوا يناقشون المسألة بهمسات خائفة . انهم في حالة حصار ، ومن السهل رؤية ذلك ، فجرجس لايملك في المصرف الا ستين دولاراً ؛ وفترة الركود على الابواب وربما لن يكون باستطاعة ماريا وجوناس أن يكسبا أكثر مما يكفي لدفع ثمن الطعام ، ماعدا ذلك ليس هناك الا أجور أونا وما يأخذه الصبي الصغير من أجرة زهيدة . كان عليهم أن يدفعوا الايجار وكذلك بعض ديون الأثاث ، كما كان هناك سند التأمين ، وفي كل شهر كيس فحم بعد كيس . كانوا في كانون الثاني ، منتصف الشتاء ، وأفظع وقت تضطر فيه لمواجهة حالة طارئة . الثلوج العميقة ستعود ثانية ، فمن تراه يحمل أونا إلى عملها ؟ انها قد تفقد عملها – بل هي على يقين تام من أنها ستفقده . كذلك بدأ ستانيسلوفاس الصغير بالتذمر والنواح – من تراه يشمله برعايته ؟

انه لشيء رهيب أن يسبب حادث من هذا النوع ، حادث لايمكن لانسان أن يتفاداه ، كل هذه المعاناة ، لقد بات ، بما فيه من مرارة وهول ، طعام وشراب جرجس . ولم يكن ثمة جدوى من محاولتهم

مخادعته ، فقد كان يعرف عن الوضع مثلما يعرفونه ، كما كان يعلم أن العائلة قد تموت جوعاً فعلاً . كان لشدة قلقه يتآكل تآكلاً — وبدأ يظهر عليه الهزال منذ اليومين أو الايام الثلاثة الاولى . والحقيقة أنه أمر يدعو للجنون أن يضطر رجل قوي مقاتل مثله أن يستلقي هناك لاحول له ولاطول ، يعيد للدنيا كلها قصة بروميثيوس مقيداً . فطوال الساعات ، كانت تراود جرجس ، وهو مستلق على ظهره في الفراش ، أفكار وأحاسيس لم تخطر له قط . فحتى ذلك الحين كان يقابل الحياة بوجه بشوش — كانت له تجاربه ، انما لم تكن من النوع الذي لايستطيع الانسان مواجهته . أما الآن ، حين يحل الليل ويبدأ جرجس بالتقلب ذات اليمين وذات الشمال فقد كان يجوب غرفته دائماً شبح قاتم ، تقشعر لمنظره الابدان ويقف الشعر . كان جرجس يشعر وكأن العالم كله يميد تحت قدميه ، كأنه يغوص في هاوية لاقرار لها ، إلى مهاو لليأس فاغرة الافواه . فبعد كل شيء ، قد يكون صحيحاً مايقوله الآخرون عن قسوة الحياة ، وأن أعظم طاقات الانسان وقدراته لايمكنها مواجهتها . كذلك قد يكون صحيحاً أنه رغم كل كفاحه وكده وتعبه قد يفشل ، وقد يهوي ويتحطم ! كان مجرد التفكير بشيء كهذا ينزل على قلبه كيد جليدية ثقيلة ، وكان جل تفكيره هو أنه ، هو وكل من يحب في هذا الوجود قد يسقطون في هذا المنزل الكريه المليء بالاهوال وقد يهلكون جوعاً وبرداً دون أن يجدوا اذناً تسمع

صراخهم أو قلباً يعطف عليهم . أجل ، ذلك صحيح . . . وألف صحيح — فهنا ، في هذه المدينة الضخمة وبكل مافيها من مخزونات وثروات مكدسة ، في هذه المدينة قد تقع مخلوقات بشرية في المصائد لتحطمها قوى الطبيعة الغاشمة ، تماماً مثلما كانت الحال أيام انسان الكهوف .

كانت أونا في تلك الآونة تكسب حوالي ثلاثين دولاراً في الشهر وستانيسلوفاس حوالي ثلاثة عشر يضاف إلى هذا ثمن طعام جوناس وماريا ، حوالي خمسة وأربعين دولاراً ، تحسم منها أجرة المنزل ، الفائدة ، أقساط الاثاث ، فيبقى ستون دولاراً ، يحسم منها ثمن الفحم فيبقى خمسون . لقد استغنوا عن كل شيء يمكن للكائن البشري أن يستغني عنه . اذ ظلوا بملابسهم القديمة البالية التي تركتهم تحت رحمة القرس والصقيع ، وحين كانت تبلى أحذية الاولاد كانوا يحزمونها بالخرق والخيوط . وكانت أونا ، وهي نصف العاجزة ، تؤذي نفسها أيما ايذاء بسيرها تحت المطر والبرد إلى أن تركب الترام . لم يكونوا ، بالحقيقة يشترون شيئاً سوى الطعام — ومع ذلك كان من المتعذر عليهم الاستمرار بخمسين دولاراً في الشهر . لكنهم ربما كانوا سيستمرون ، لو كانوا يحصلون على طعام نقي وبأسعار معقولة ، أو لو كان باستطاعتهم فقط أن يعلموا ماالذي ينبغي أن يأكلوه — لولم يكونوا جاهلين إلى حد يثير الشفقة ! ! لقد كانوا غرباء ، في بلاد غريبة كل شيء فيها مختلف ،

حتى الطعام . وكانوا دائماً معتادين على تناول النقانق المدخنة لكن أنى لهم أن يعلموا أن مايشترونه في أمريكا ليس كذلك الذي عرفوه في روسيا — فاللون تستمده النقانق من الكيماويات ونكهتها الدخانية من كيماويات أخرى ، وهي فضلاً عن ذلك محشوة بـ « دقيق البطاطا » ، أي تلك الفضلات التي تخلفها البطاطا بعد استخلاص النشاء والكحول منها . وليس لهذا الدقيق من قيمة غذائية أكثر مما للخشب ، وبما أن استخدامه كطعام أمر محظر في أوروبا يخضع مرتكبه للعقوبة فان آلاف الأطنان منه تشحن إلى أمريكا كل عام . والكميات التي يحتاجها احد عشر شخصاً جائعاً كل يوم شيء يدعو للدهشة . لذا لم يكن مبلغ الدولار وخمسة وستين سنتاً يكفي لاطعامهم ولم يكن ثمة جدوى من المحاولة ، لذا كانوا مضطرين لان يسحبوا قدراً من المبلغ الضئيل الذي كانت أونا قد أودعته في المصرف . وبما أن الحساب مسجل باسمها فقد تمكنت من ابقاء الامر سراً على زوجها لتنفرد هي وحدها بالهم والعذاب .

ولو أن جرجس كان مريضاً حقاً ، لو أنه لم يكن قادراً على التفكير اذن لهان الامر أكثر ، ولكان يفعل حينذاك مايفعله معظم العاجزين ، لكنه لم يكن مريضاً ورغم ذلك كان كل مايستطيع فعله هو أن يستلقي ويتقلب من جنب إلى جنب . بين الحين والآخر كان ينفجر باللعن

والسباب ، بغض النظر عن كل اعتبار و كل شيء . من حين إلى آخر كان يدفعه نفاد صبره لمحاولة النهوض مالئاً اياه قوة واندفاعاً . غير أن تيتا الزبيبيتا تسرع إليه ، متوسلة كالمجنونة . فالزبيبيتا هي وحدها التي تظل معظم الوقت معه . تجلس وتمسد له جبينه الساعة بطولها تحدثه وتحاول دفعه للنسيان . أحياناً يكون الطقس أشد برودة من أن يستطيع الاطفال الذهاب إلى المدرسة ، فيبقون ويضطرون للعب في المطبخ حيث يجلس جرجس لانه المكان الوحيد شبه المدفأ في المنزل . وكانت هذه أوقاتاً رهيبة ، اذ يغدو جرجس متوتر الاعصاب كأي دب هائج ، وليس بوسعك توجيه اللوم اليه ، فلديه من المضايقات والازعاجات مايكفي ، وضجيج الاطفال وصخبهم يمنعه من الرقاد كلما حاول الرقاد .

عزاء الزبيبيتا الوحيد في تلك الايام كان أنتاناس الصغير ، والحقيقة أنه يصعب علينا القول كيف كان بوسعهم الاستمرار لولا وجود أنتاناس الصغير . فسلوى جرجس وعزاؤه في سجنه الطويل أن لديه الوقت الآن لتأمل طفله والنظر اليه . كانت تيتا الزبيبيتا تضع سلة الملابس التي ينام فيها الطفل بجوار فراشه ، وهكذا يتكىء جرجس على أحد مرفقيه ويراقبه الساعات ، متصوراً أشياء وأشياء . حينذاك قد يفتح أنتاناس عينيه — فقد بدأ يلاحظ الاشياء الآن ، وقد يبتسم — كيف تراه يبتسم ! ! وبذلك يبدأ جرجس النسيان والشعور بالسعادة . لان في

هذا العالم شيئاً جميلاً كابتسامة أنتاناس الصغير ولان عالماً كهذا لايمكن إلا أن يكون رائعاً في صميمه . كان الصغير يزداد شبهاً بأبيه كل ساعة ، قالت الزبيبتا ذلك وكررته مرات ومرات ، لانها رأت أن قولها هذا يسر جرجس . فالمرأة المسكينة الضئيلة المذعورة كانت تخطط طوال الليل والنهار لتهدئة العملاق السجين الذي عهدوا لها برعايته . أما جرجس الذي لم يكن يعلم شيئاً عن نفاق هذه المرأة الدائم والطويل العهد ، فقد كان يلتقط الطعم ويبتسم بابتهاج ثم يرفع اصبعه أمام عيني الطفل الصغير ويحركها إلى اليمين والشمال ثم يضحك بسرور بالغ وهو يرى الطفل يتابعها . لا ، لايمكن لحيوان مدلل أن يكون بسحر طفل وفتنته ، انه يحدق إلى وجه جرجس بحدة وذكاء فيهب جرجس صارخاً « بالوك»(١) انظري ، ماما . . انه يعرف أباه ! ! انه يعرفه الماتو تزيدل (٢) ، الوغد الصغير » .

- ١٢ -

انقضت ثلاثة اسابيع على اصابته ولم ينهض جرجس من الفراش . لقد كان التواء كاحل بالغ الشدة . الورم لم ينقص والألم ما زال مستمراً ، لكنه ، في نهاية هذه الفترة ، لم يعد يحتمل نفسه ، فبدأ يحاول السير قليلاً كل يوم ، عاملاً على اقناع نفسه بتحسن حاله . كل الحجج

(١– ٢) باللغة الأصلية وقد اثرنا ابقاءها ، أما معناها فيفسره مابعدها .

فشلت في اقناعه بالعكس او اقناعه بالاقلاع عن عزمه ، وهكذا اعلن بعد ثلاثة أو اربعة ايام ، انه عائد إلى العمل ، وبالفعل مضى في الصباح يعرج على قدمه إلى أن وصل الترام وامتطاه إلى مؤسسة براون حيث وجد أن رئيسه حافظ له على مكانه ، اي انه كان يرغب في ان يرمي إلى الثلج ذلك البائس المسكين الذي استأجره في غضون ذلك . بين الفينة والفينة كان الألم يجبر جرجس على التوقف عن العمل ، الا انه ظل يتحمل حتى ساعة تقريباً من موعد انتهاء العمل . حينها اضطر للاعتراف بانه سيقع مغشياً عليه ان استمر . كاد هذا يحطم قلبه ، الا انه اعترف بعجزه ووقف متكئاً على عمود يبكي كما يبكي الاطفال . بعد ذاك اضطر اثنان من العمال لمرافقته إلى الترام وحين نزل منه اضطر لان يجلس على الثلج ، وانتظر إلى أن جاء من ساعده حتى المنزل .

وهكذا وضعوه في فراشه مرة ثانية وارسلوا خلف طبيب ، مثلما فعلوا في البداية . فتبين ان احد اوتار القدم قد انفتل خارجاً من مكانه ، وانه لن يتحسن الا بعناية شديدة . عند ذاك اطبق قبضتيه على جنبي الفراش وكز على اسنانه وابيض لونه من الالم بينما كان الطبيب ، يسحب كاحله المتورم ويبرمه ويفتله. وحين غادره الطبيب قال له ان عليه ان يستلقي دون حراك مدة شهرين ، وانه اذا ماذهب إلى العمل قبل هذه المدة سيصاب بالعرج مدى الحياة .

بعد ثلاثة ايام ، جاءت عاصفة ثلجية شديدة أخرى . فخرج

جوناس وماريا واونا وستانيسلوفاس الصغير جميعاً قبل ساعة من طلوع الفجر ، محاولين الوصول إلى المسلخ .لكن ، حوالي الظهيرة عادت أونا وستانيسلوفاس وهو يصرخ الماً . لقد تجمدت اصابعه كلها ، على مايبدو ، وكان عليهم ان يتخلوا عن محاولة الوصول إلى المسلخ بعد ان كادوا يهلكون في طبقات الثلج . ولكي يتدفؤوا كان كل مايعرفونه هو أن يقربوا اصابعهم المتجمدة من النار ، لذا قضى ستانيسلوفاس معظم الوقت وهو يرقص في الغرفة من شدة الالم إلى ان انتفض جرجس في سورة غضب مسعورة وراح يسب ويلعن كالمجنون معلناً أنه سيقتله ان لم يكف. وطوال ذلك النهار والليل ظلت العائلة شبه مصابة بالجنون لخشيتها أن تكون أونا والصبي قد فقدا عملهما ، وفي الصباح انطلقا أبكر حتى ، بعد أن ضرب جرجس الغلام بعصا على قفاه . فالمسألة لاتتحمل تهاوناً قط ، انها مسألة حياة أو موت ، ولم يكن أحد يتوقع من ستانيسلوفاس الصغير ان يدرك أن من الخير له أن يتجمد تحت طبقات الثلج من أن يفقد عمله في آلة تعبئة شحم الخنزير . كانت أونا متأكدة من أنها ستجد عملها قد ضاع ، وتنفست الصعداء تماماً حين وصلت أخيراً إلى مؤسسة براون ووجدت أن المشرفة نفسها فشلت في الوصول ، ولذلك اضطرت لأن تكون رحيمة .

احدى نتائج هذا الحدث هو أن المفاصل الأولى لثلاث من أصابع الغلام قد أصيبت بعطل دائم ، وثمة نتيجة أخرى هي أنه لم يعد يخرج

إلى العمل عندما يهطل الثلج إلا بالضرب . وكان على جرجس أن يضربه ، وبما أن ذلك كان يؤذي قدمه فقد كان يضربه بحقد وحب انتقام إلا أن ذالك لم يكن يشفي غليله أبداً . يقول المثل القديم : أفضل الكلاب تغدو شرسة حين تظل مقيدة بالسلاسل دائماً ، وهذا ينطبق على الرجل فهو لم يكن يستطيع إتيان شيء طوال النهار سوى الاستلقاء على ظهره ولعن قدره ، وقد حان الوقت الذي بات يرغب فيه بلعن كل شيء .

على أن هذا لم يكن يدوم طويلاً على أي حال ، إذ ما إن تبدأ أونا بالبكاء حتى يزول غضب جرجس : كان المسكين يبدو أشبه بشبح شرير ، وجنتاه غائرتان ، شعره منسدل حتى عينيه ولم يكن يجرؤ على قصه أو التفكير بمظهره . كما كانت عضلاته تذوي وتضمر وما تبقى منها كان رخواً متهدلاً . لم تكن لديه شهية للطعام . ولم يكونوا يستطيعون اغراءه بالملاطفات . إذ كان يقول : من الأفضل ألا آكل شيئاً ، اني أوفر بذلك . وفي نهاية آذار وقعت يده على دفتر حسابات أونا فعلم منه أنه لم يبق لديهم في كل هذا العالم سوى ثلاثة دولارات .

ولعل أسوأ نتائج هذا الحصار الطويل هي أنهم خسروا فرداً آخر من أفراد عائلتهم . لقد اختفى الأخ جوناس . ففي ليلة من ليالي السبت ؛ لم يعد جوناس إلى المنزل ، وبعد ذلك ضاعت كل جهودهم في البحث عنه. لقد قيل على لسان رئيس العمال في منشأة دورهام أنه استلم أجرته الاسبوعية وغادر المنشأة . لكن قد لايكون ذلك صحيحاً ، بالطبع .

فهم يقولون ذلك أحياناً عندما يقتل أحد العمال . وهي أسهل طريقة لطي موضوع أي رجل بالنسبة لكل من يعنيهم الأمر . فعلى سبيل المثال ، حين سقط أحد العمال في صهريج من صهاريج الإعداد وتحول إلى رقائق شحم خنزير صاف وسماد لانظير له . لم يكن ثمة فائدة من ترك الحقيقة تتسرب وجعل عائلته تبتئس وتحزن . لكن المعقول أكثر ، هو أن جوناس هجرهم ومضى في طريقه يبحث عن السعادة . لقد كان ساخطاً منذ مدة طويلة ولم يكن ذلك بغير سبب . انه يدفع مبلغاً جيداً مقابل طعامه ونومه ومع ذلك كان مضطراً للعيش في بيت لايجد واحد من أفراده كفايته من الطعام . لقد ظلت ماريا تعطيهم كل مالها وهو مدعو ، بالطبع ، لفعل الشيء ذاته ، علاوة على ذلك فقد كان هناك شياطين صغيرة دائمة الصراخ والضجيج . وكذلك كل ضروب البؤس ، وربما ينبغي على الانسان أن يكون بطلا كي يتحمل هذا كله دون شكوى أو تذمر ، ولم يكن لجوناس علاقة بالبطولة قط ، فهو مجرد شخص عجوز أبلته صروف الدهر لايرغب بأكثر من عشاء جيد وجلسة بجانب الموقد يدخن غليونه بسلام قبل أن يسلم نفسه للرقاد . لكن هنا ، لم يكن ثمة فراغ له بجانب الموقد وفي الشتاء قلما يدفأ المطبخ ليكون المكان الذي يجد فيه الراحة والسلام . لذا ، ومع مجيء الربيع ، ماعساه يراوده أكثر من تلك الفكرة المجنونة ،فكرة الفرار ؟ سنتان والنير في عنقه كالثور ، يجر عربة حمولتها نصف طن في أقبية دورهام

المظلمة : بغير راحة أبداً سوى أيام الآحاد وعطلة الأيام الأربعة كل سنة . وبغير كلمة شكر أيضاً ـ اللهم إلا إذا كانت الرفسات واللكمات واللعنات التي لايتحملها حتى الكلاب ، تعد شكراً . والآن انتهى الشتاء وبدأت تهب رياح الربيع ، وإذا ماسار الانسان يوماً واحداً على قدميه فانه سيضيع دخان باكنجتاون خلفه إلى الأبد ويصل حيث العشب الأخضر والأزهار الزاهية بكل لون ولون .

بذهاب جوناس ، نقص دخل العائلة بمقدار الثلث ، بينما نقص الطلب على الطعام بنسبة واحد من أحد عشر أي غدت الأمور أشد سوءاً ، كذلك كانوا يستدينون المال من ماريا ويقضمون شيئاً فشيئاً حسابها المصرفي ، قاضين بذلك على كل آمالها في الزواج والسعادة . بل لقد غرقوا في دين تاموزيوس كوتزلايكا حتى أصيب بالفقر هو نفسه . لم يكن اتاموزيوس المسكين أي أقرباء أبداً ، لكنه كان ذا موهبة وكان ينبغي أن يكسب نقوداً وينعم بالثراء ، إلا أنه وقع في الغرام ، وقدم كل فروض الولاء والطاعة لحظه هذا فحكم عليه بأن يمرغ في التراب أيضاً .

وهكذا تقرر أخيراً أن على اثنين من الأولاد أن يتركا المدرسة . كانت هناك البنت التي تلي ستانيسلوفاس مباشرة وعمرها ثلاثة عشر عاماً تقريباً وتدعى كوترينا الصغيرة ثم غلامان : فيليماس وعمره أحد عشر عاماً ونيكالوجوس وعمره عشرة أعوام ، وكلاهما غلام

ذكي ، ولم يكن هناك سبب واحد يفسر لماذا كان على العائلة أن تموت جوعاً إذا كان هناك آلاف الأولاد الذين لايزيدونهم سناً ، يعملون ويكسبون ؟ وهكذا ، أعطي كل منهما ذات صباح ربع دولار ولفافة خبز في وسطها نقانق ، وزاداً من الارشاد والنصيحة ليس كمثله زاد ، ثم أرسلا كي يسعيا في مناكبها ، يشقا طريقهما في المدينة ويتعلما بيع الصحف . في وقت متأخر من الليل ، عادا وهما يذرفان الدموع فقد قطعا خمسة أو ستة أميال سيراً على الأقدام ليخبرا العائلة بأن رجلاً عرض عليهما أن يأخذهما إلى مكان تباع فيه الصحف . ثم أخذ نقودهما ودخل مخزناً كي يجلب لهما الصحف إلا أنه اختفى بعد ذلك ولم يريا له أثراً . وهكذا تلقى كل منهما جلدة سياط على ظهره وفي الصباح انطلقا من جديد . في هذه المرة وجدا محل بيع الصحف واشتريا بغيتهما ، وبعد التجول والتطواف حتى الظهيرة تقريباً ، مناديين « صحف ، صحف » في وجه كل من يريانه ، جاء رجل ادعى أن المنطقة له وأنهما تعديا عليها فأخذ ما معهما من صحف ثم رفس كلاً منهما بضع رفسات لكن لحسن الحظ ، كانا قد باعا بضع صحف من قبل وبذلك عادا بمثل المبلغ الذي بدأا به .

بعد اسبوع من مصائب ومضايقات كهذه ، بدأ الصغيران يتعلمان أصول المهنة — أسماء شتى الجرائد، كم يشتريان من كل منها ، الناس الذين يعرضان عليهم شراءها ، أين يذهبان ، أين لايذهبان . بعد هذا بدأا يغادران المنزل في الرابعة صباحاً ، يجريان في الشوارع حاملين

صحف الصباح أولاً ، ثم صحف المساء ليعودا في وقت متأخر من الليل وفي جيب كل منهما عشرون أو ثلاثون سنتاً — وربما أربعون . من هذا المبلغ كان عليهما أن يحسما اجرة الترام نظراً لأن المسافة طويلة جداً ، لكن بعد لأي ، صار لهما أصدقاء واكتسبا مزيداً من المعرفة وحينذاك بدأا يوفران أجرة انتقالهما ، فهما يصعدان إلى الترام حين يكون الجابي غافلاً منشغلاً بشيء ما ثم يدسان نفسيهما في الزحام ، وفي ثلاثة أرباع الحالات لايطلب منهما الأجرة إما لأنه لايراهما أو لظنه أنهما دفعا من قبل ، وإذا صدف وطلب منهما الأجرة فانهما يبدآن البحث في جيوبهما ومن ثم يبدآن البكاء وفي هذه الحالة إما أن تدفع عنهما سيدة من تلك السيدات العجائز رقيقات القلوب ، أو ينزلان ليجربا حظهما في ترام آخر وهما يشعران بأن ذلك كله نوع من العبث الجميل . ترى ، خطيئة من إذا كانت الترامات تزدحم كثيراً في الأوقات التي يذهب فيها العمال إلى أعمالهم إلى درجة يتعذر معها على الجابي أن يجبي كل الأجور ؟ فضلاً عن ذلك ، فان أصحاب الشركات مجموعة من اللصوص ، هكذا يقول كل الناس — انهم يختلسون حقوق الناس ويسرقون أموال الشعب ، تساعدهم في ذلك طغمة من السياسيين .

الآن وقد مر الشتاء وزال معه خطر الثلج ونفقات الفحم ، وصارت هناك غرفة أخرى دافئة إلى حد يكفي لوضع الأولاد فيها حين يبكون ، ومال يكفي للانفاق من أسبوع إلى اسبوع ، فقد غدا جرجس أخف

وطأة مما كان من قبل . فالانسان يستطيع الاعتياد على أي شيء بمرور الزمن ولقد اعتاد جرجس على القعود في البيت . لاحظت أونا هذا لكنها كانت حريصة على ألا تفسد هدوء باله ، بألا تدعه يعلم مقدار ما تتحمل من آلام . كان قد جاء أوان الربيع وأمطاره الغزيرة وكان على أونا أن تركب ، غالباً ، إلى عملها رغم نفقات الركوب ، وكان رجهها يشحب يوماً بعد يوم ، وكانت أحياناً رغم تصميمها ، تتألم كثيراً لأن جرجس لم يعد يلاحظ شيئاً ، بل بدأت تتساءل ان كان يهتم بها كما كان يفعل من قبل ، إن كان هذا البؤس كله لم يقض على حبه . كان عليها أن تظل بعيدة عنه طوال الوقت ، أن تحمل همومها ويحمل هو همومه ثم لا تعود إلى المنزل إلا وهي منهكة القوى ، ولا يتكلمان إلا عن الهموم والمشكلات — وفي حياة كهذه من الصعب حقاً أن تظل أية عاطفة على قيد الحياة . لذا كانت أونا تشتعل أحياناً حسرة وحرقة على هذا كله. وفي الليل تضم فجأة زوجها الكبير بين ذراعيها وتنخرط في بكاء مرير ، ملحة على أن تعرف ان كان يحبها حقاً ، أما جرجس المسكين الذي غدا بالحقيقة أكثر واقعية وعملية بفعل الضغط الذي لانهاية له ، ضغط الفقر المدقع ، فقد كان يجد نفسه في حيرة من أمره ، لايدري ما يفعله بأمور كهذه ، فكل ما يتذكره هو المرة الأخيرة التي ثارت بها أعصابه وهكذا تضطر أونا لمسامحته وتنشج في سرها قبل أن تجد سبيلها للرقاد .

في أواخر نيسان ذهب جرجس إلى الطبيب ؛ فأعطاه هذا ضماداً يشد به كاحله وقال له أن بامكانه العودة إلى العمل . غير أن الأمر كان بحاجة لأكثر من اذن الطبيب ، فحين قدم نفسه لمراقب أحواض الذبح في مؤسسة براون أخبره هذا بأنه كان من المستحيل ابقاء مكانه شاغراً . فعلم جرجس أن هذا يعني ، ببساطة ، أن المشرف وجد شخصاً آخر يؤدي العمل على نحو أفضل ولا يرغب بازعاج نفسه واجراء أي تبديل . فوقف في المدخل يتطلع بحزن وأسى إلى أصدقائه وزملائه وهم يعملون ؛ يملؤه شعور قاتم بأنه طريد منبوذ وأخيراً لم يجد بداً من أن يخرج ويحتل مكاناً بين حشد العاطلين عن العمل .

غير أن جرجس لم يكن هذه المرة يمتلك تلك الثقة العظيمة بالنفس ولا سبب تلك الثقة نفسه . فهو لم يعد الرجل الأحسن مظهراً في الحشد ولم يكن ليلفت أنظار الرؤساء ، بل هو الآن ضامر مهزول خلق الثياب ، بائس ، وهناك المئات الذين كانوا يبدون ويشعرون مثله ، مئات ممن كانوا يتسكعون منذ أشهر في باكنجتاون يستجدون عملاً ، كانت هذه الفترة حاسمة في حياة جرجس ، ولو كان رجلاً أضعف اذن لسار الطريق الذي يسير عليه البقية ، أولئك الأوغاد العاطلون عن العمل الذين يقفون حول دور التعليب كل صباح إلى أن تطردهم الشرطة فيتفرقوا بين الحانات . قلة منهم كانت تمتلك الشجاعة لمواجهة الدفع والصد الذي يواجهونه حين يحاولون دخول الأبنية لمقابلة رؤساء العمال ؛ وإذا لم تتح لهم فرصة في الصباح ، لايظل لديهم ما يفعلونه سوى التسكع

في الحانات بقية النهار والليل . لقد أنقذ جرجس نفسه من هذا كله—جزئياً وبالتأكيد ، لأن الطقس كان حسناً ولم يكن ثمة ضرورة للاحتماء في الأروقة والمداخل إنما بصورة رئيسية لأنه يحمل معه دائماً وجه زوجته الصغير المثير للاشفاق . كان عليه أن يجد عملاً ، أن يخوض معركته خوض اليائس في كل لحظة من لحظات النهار . وكان ينبغي أن يجد لنفسه مكاناً يعمل فيه ويوفر بعض النقود قبل أن يحل الشتاء .

لكن أين العمل ؟ لقد سعى لدى كل أعضاء نقابته — وكان جرجس قد حافظ على عضويته في النقابة طوال هذه الفترة — توسل اليهم أن ينطقوا بكلمة من أجله . كذلك قصد كل معارفه ، باحثاً عن فرصة ، أية فرصة وفي أي مكان . كان يطوف النهار بطوله من بناء إلى بناء وبعد أسبوع أو اسبوعين ، حين كان قد طاف بكل المسالخ ودخل كل غرفة استطاع الدخول إليها ، وعلم أنه لا عمل له في أي مكان ، اقنع نفسه بأنه ربما حدث تغيير في الأمكنة التي زارها أولاً فبدأ تطوافه مرة ثانية ، إلى أن أصبح الحراس والمراقبون في الشركات يعرفونه بمجرد رؤيتهم له ويطردونه مع وابل من التهديدات ، عند ذاك لم يعد لديه ما يفعله سوى الانضمام للحشد في الصباح والبقاء في الصف الأول تظهر عليه مظاهر التوق للعمل ، وحين يفشل ، يعود إلى المنزل ويلعب مع كوترينا الصغيرة والطفل الصغير .

على أن أشد ما في هذا كله من مرارة ، هو أن جرجس كان يرى معناه على نحو بالغ الايلام . في البداية كان غض الإهاب قوياً ، وقد

وجد عملاً منذ اليوم الأول ، أما الآن . وقد أصبح مادة « مستعملة » بالية ، ان جاز لنا التعبير ، فانهم لم يعودوا بحاجة إليه . لقد امتصوا منه خير ما فيه — أكلوه لحماً ويلفظونه الآن عظماً ، ولقد تعرف جرجس إلى الكثير من أمثاله العاطلين عن العمل فوجد أنهم جميعاً يعيشون التجربة نفسها . بالطبع ، كان هناك البعض الذين جاؤوا من أماكن أخرى ، ممن طحنتهم مطاحن أخرى ، وكان هناك من خرجوا نتيجة خطأ ارتكبوه بأيديهم . فبعضهم ، مثلاً ، لم يكن قادراً على احتمال الواقع بغير شراب ، إلا أن الغالبية العظمى كانت ، بكل بساطة ، قطعاً بالية استهلكتها آلة التعليب الهائلة التي لاترحم . لقد كدوا وتعبوا هناك وحافظوا على وتيرة العمل بل إن بعضهم جاراها مدة عشر أو عشرين سنة إلى أن جاء وقت لم يعودوا قادرين على مجاراتها . فقيل لهم بصراحة ، ان السن تقدمت بهم وان الحاجة تدعو لادخال عمال أكثر شباباً . البعض الآخر قدم ذريعة لهم حين قام بعمل من أعمال الاهمال أو عدم الكفاءة أما الأغلبية الغالبة فقد كانت ذريعة فصلهم من أعمالهم مثل ذريعة جرجس — لقد انهكهم العمل وتعرضوا زمناً طويلاً لسوء التغذية ، وفي النهاية حط مرض من الأمراض الشديدة الوطأة على كواهلهم ، أو أنهم جرحوا أنفسهم ، وأصيبوا بتسمم في الدم أو حدث لهم حادث آخر من تلك الحوادث الكثيرة ، وحين عاد واحدهم بعد ذاك لم يستطع استعادة عمله إلا بمجاملة رئيسه ومراعاته . وليس هناك استثناء لهذه القاعدة إلا حين يكون الحادث من النوع الذي تتحمل الشركة مسؤوليته ، وفي هذه الحالة يرسلون

محامياً داهية لرؤيته ، فيحاول ، قبل كل شيء ، أن يغريه بالتنازل عن حقوقه ، لكن إذا ما أثبت أنه ماكر لايمكن خداعه ، يعده المحامي بأن تضمن الشركة له ولأي فرد من أفراد عائلته العمل الدائم وهم يحفظون مثل هذه العهود تماماً — انما لمدة سنتين . فالسنتان هما « قانون التحديدات » أما بعد ذلك ، فلا يعود بوسع الضحية رفع أية قضية .

ما يحدث للعامل بعد ذاك يتوقف على الظروف . فان كان من العمال المهرة قد يجد لديه مايكفيه لاجتياز محنته ، ذلك أن أفضل العمال أجوراً ، وهم الشطارون ، يكسبون خمسين سنتاً في الساعة ، أي خمسة أو ستة دولارات يومياً وذلك في مواسم ضغط العمل ، ودولاراً أو دولارين في مواسم الركود ، وبامكان المرء أن يعيش ويوفر من هذا المبلغ انما ليس هناك إلا نصف دستة من الشطارين في كل مكان . واحد منهم كان يعرفه جرجس وكان يعيل عائلة تتألف من اثنين وعشرين طفلاً ، كلهم يرجون أن يكبروا ويصبحوا شطارين كأبيهم . أما العامل غير الماهر الذي يكسب عشرة دولارات في الأسبوع أيام ضغط العمل وخمسة أيام الركود ، فوضعه كله يتوقف على سنه وعلى عدد الأفراد الذين يعيلهم . ذلك أن الرجل الأعزب قد يوفر إن لم يكن يتعاطى المسكرات أو كان أنانياً مفرط الأنانية — أي حين لايدفع شيئاً لوالديه العجوزين ، أو لايبالي بأخوته وأخواته الصغار ، أو بأقربائه الآخرين الذين قد يكونون حوله ، ولا يهتم بأعضاء نقابته أو زملائه أو الناس الذين قد يموتون جوعاً في المنزل المجاور .

- ١٣ -

خلال هذه الفترة التي كان جرجس يبحث فيها عن عمل حدثت وفاة كريستوفوروس الصغير ، وهو احد أطفال تيتا الزبيبيتا الذي كان مع أخيه الصغير جوزاباس مقعدين ، الأخير فقد احدى ساقيه في حادث دهس والأول يعاني من خلع مفصلي خلقي ، الأمر الذي جعل امكانية مشيه مستحيلة . كان هذا آخر العنقود لدى الزبيبيتا ، ولعله جاء هكذا بهدف تقصده الطبيعة تماماً وهي أن تنبئها أنها قد ولدت مافيه الكفاية . على أية حال ، كان الطفل يمرض دائماً وكان ضئيل الحجم ، يعاني من الكساح ، ورغم أنه كان قد أكمل الثلاث سنوات إلا أنه لم يكن أكبر من طفل العام الواحد . كان طيلة النهار يزحف هنا وهناك في الشقة بثوب صغير وقذر ، مهمهماً ناحباً ، ولأن الشقة كانت ملأى بالتيارات الهوائية فقد كان يصاب بالزكام دائماً وكان يعطس ويسيل أنفه . كل هذا جعله مصدر ازعاج ومشكلات لانهاية لها في البيت . فأمه ، بعنادها غير الطبيعي ، كانت تحبه أكثر من الجميع وتثير الكثير من البلبلة بشأنه — إذ تتركه يفعل أي شيء دون أن تسمح لأحد بازعاجه ... فيختلط في البكاء حالما تثير مناكدته غضب جرجس .

أما الآن فقد مات . لعلها النقانق المدخنة التي اكلها ذلك الصباح — والتي قد تكون مصنوعة من بعض لحوم الخنزير المسلولة التي حكم عليها بانها غير مناسبة للتصدير . على اي حال ، بدأ الطفل ، وبعد ساعة واحدة من تناولها ، يبكي بالم شديد وخلال ساعة أخرى كان يتدحرج على الارض متشنجاً . جرت كوترينا الصغيرة ، التي كانت بمفردها معه ، إلى الخارج وهي تصرخ وتستغيث وبعد حين من الزمن جاء الطبيب ، انما كان كريستوفوروس قد لفظ آخر انفاسه . ما من احد حزن حزناً حقيقياً على هذا الا الزبيبتا المسكينة التي لم تكن لتجد عزاء عنه . اعلن جرجس ان على البلدية أن تدفن الطفل نظراً لانهم لايملكون مالاً لاقامة جنازة له . هنا طار صواب المرأة المسكينة وراحت تعصر يديها وتولول حزناً وقنوطاً . طفلها يدفن في قبر شحاذ ! ! أخته تسمع ذلك ولاتعترض ! ! ذلك يكفي لان ينهض والدها من قبره ويوبخها . ان وصل الامر إلى هذا الحد فعليهم اذن ان يموتوا جميعاً وان يدفنوا كلهم سوية . في النهاية قالت ماريا انها ستساهم بعشرة دولارات ، وبما أن جرجس ظل مصراً على رأيه ، فقد خرجت الزبيبتا ، تسبقها دموعها ، لتطلب مالاً من الجيران ، ثم اقيم جناز على روح الطفل الصغير ودفن كما يدفن كل اصحاب الكرامات . غير ان الام المسكينة لم تعد إلى سابق طبيعتها قبل بضعة اشهر . بل كانت تبكي بمجرد رؤيتها الارض التي كان يزحف عليها كريستو . وكانت

تردد دائماً ، مسكين ، كان حظه سيئاً . . لقد ولد معوقاً . ولو انها عرفت ذلك منذ ولادته اذن لجاءت باحسن طبيب لعلاجه . قبل فترة وجيزة كان بعضهم قد أخبرها ان احد اثرياء شيكاغو دفع مبلغاً كبيراً واتى بجراح اوروبي كبير ليعالج له ابنته الصغيرة التي تعاني من مرض كريستو نفسه ، ولان هذا الجراح كان بحاجة لأجسام يظهر مهاراته بها ، فقد اعلن انه سيعالج اطفال الفقراء : نفحة من نفحات الاريحية طبلت لها الصحف كثيراً وزمرت ، غير ان الزبيبتا ، وياللأسف ، لم تكن تقرأ الصحف ولم يخبرها احد بهذا الخبر ، ولعل ذلك من حسن حظهم ، اذ لم يكونوا حينذاك يملكون اجرة الترام إلى المدينة كي ينتظروا الجراح كل يوم ، ولم يكن لدى احد منهم الوقت الذي يسمح له بمرافقة الطفل .

طوال الوقت الذي كان جرجس يبحث فيه عن عمل : كان هناك ظل اسود يخيم عليه . كان يشعر وكأن وحشاً رهيباً يختبيء له في مكان ما من طريقه ، وحشاً يعرفه انما لابد من الاقتراب منه . في باكنجتاون توجد كافة مراحل البطالة ، وبرعب شديد كان جرجس يواجه احتمال وصوله إلى المرحلة الدنيا ، إلى الدرك الاسفل وليس هناك سوى مكان واحد ينتظر من يصل إلى هذا الدرك الاسفل — انه معمل الاسمدة .

العمال يتحدثون عنه بهمسات ملؤها الذعر ، والواقع انه لم يكن يحاول دخول هذا المعمل أكثر من عشر العمال، اماالأعشار التسعة الاخرى فكانوا يكتفون بما يسمعونه دليلاً وباختلاس نظرة عبر الابواب . فهناك اشياء اسوأ حتى من الموت جوعاً . انهم يسألون جرجس اذا كان قد اشتغل هناك من قبل واذا كان ينوي العمل ، وجرجس يناقش المسألة في سره، ترى هل يتجرأ ، وافراد عائلته الفقراء المساكين يقدمون مايقدمونه من تضحيات ، على أن يرفض اي نوع من أنواع العمل الذي يعرض عليه ، مهما يكن عليه من سوء ؟ هل يجرؤ ان يذهب إلى المنزل ويأكل خبزاً من عرق اونا ، هي الضعيفة المريضة ، وماذا تراها تقول ان عرفت انه اتيحت له فرصة ، وتردد في اقتناصها ؟ ـــ ورغم أنه كان يناقش المسألة في سره النهار بطوله ، الا ان نظرة واحدة على الاعمال في مصنع الاسمدة كانت تجعله يولي الادبار وهو يرتعش . لكنه رجل وسيؤدي واجبه ، وهكذا ذهب وقدم طلباً ــ لكن بالتأكيد ، دون أن يراوده أدنى أمل بالنجاح . كانت اعمال الاسمدة في منشأة دورهام تقع بعيداً عن بقية اعمال المنشأة بل ان القلة من الزوار كانت تراها ، وكانت هذه القلة تخرج كما خرج دانتي الذي أعلن الفلاحون حين رأوه ، انه كان يبدو وكأنما كان خارجاً فعلاً من الجحيم ، هذا القسم من المسالخ كانت تأتي إليه كل « نفايات المسلخ » وكل اصناف الفضلات . فهنا يجففون العظام ـــ ويتم ذلك في اقبية خانقة لايدخلها

نور الشمس ، حيث ترى الرجال والنساء والأطفال ينحنون على آلات سريعة الدوران ناشرين العظام بشتى الاشكال ، متنفسين ببالغ الصعوبة ، مالئين صدورهم بدقائق الغبار ، محكوماً على كل منهم بالموت خلال اجل محـــدود . وهنـــا يصنعون من الدم زلالاً ومن الاشياء الأخرى البغيضة الرائحة اشياء ابغض رائحة حتى ، وفي الممرات والمغاور التي يجري فيها ذلك ، قد تضيع كما يضيع المرء في مغاور كنتكي . كانت مصابيح الكهرباء تضيء في وسط الغبار والبخار شاحبة ضعيفة مثل نجوم نائية بعيدة ، نجوم حمراء وزرقاء وخضراء وارجوانية ، وذلك حسب لون الضباب والسديم الذي تمر عبره ، اما بالنسبة للروائح في هذه المقابر الرهيبة فقد تكون هناك كلمات في اللغة الليتوانية تعبر عنها اما في الانكليزية فلا . ان من يدخل إلى مكان كهذا يجد نفسه بحاجة لتجميع كل شجاعته كما يفعل من يريد الغوص في ماءشديد البرودة ، وقد يتابع انما كمن يسبح تحت الماء . وهو قد يضع منديله على وجهه ، وقد يجد أن دوياً ما بدأ في رأسه وان شرايين جبهته تنبض بشدة إلى أن تهاجمه اخيراً هبة طاغية من روائح النشادر فينفتل على عقبيه ويجري لانقاذ حياته لكنه لايصل إلى الخارج الا وهو شبه فاقد الوعي .

في القسم العلوي من المعمل كانت هناك غرف تجفيف النفايات وهي تلك المادة الخيطية السمراء التي تتخلف ، بعد استخراج الشحم والودك ، من تلك الاقسام المهدورة من الذبائح . بعد ذاك تطحن هذه المادة المجففة إلى أن تصبح مسحوقاً ناعماً وبعدها تمزج مزجاً حسناً

بمسحوق صخري بني اللون ، غامض وغير ضار ، مسحوق تأتي به مئات الشاحنات من الخارج لهذا الغرض ، وبذلك يغدو مادة تعبأ في أكياس وتخرج إلى العالم باعتبارها احد الانواع العديدة لفوسفات العظام النموذجي . بعدئذ قد يشتري المزارع في كاليفورنيا او تكساس أو ماين هذه المادة بخمسة وعشرين دولاراً للطن مثلاً ، ويرش ذرته بها ، ولعدة ايام بعد عملية الرش قد تظل هناك رائحة قوية ليس للحقل وحسب بل للحقل والمزارع نفسه بل والعربة وحتى الخيول التي حملتها. أما في باكنجتاون فالسماد نقي ، وعوضاً عن المقادير الصغيرة التي يمكن ان يرشها المزارع . عوضاً عن الطن وماشابه مما يرش على الحقل في الهواء الطلق ، ثمة مئات وآلاف الاطنان منه في المبنى الواحد ، مكومة هنا وهناك ككوم البيادر ، مغطية الارض في كل مكان بعمق عدة بوصات ، مالئة الهواء بغبار خانق يتحول إلى عاصفة رملية تعمي العيون حين يتحرك الهواء .

إلى هذا المبنى كان جرجس يجيء يومياً ، وكأنما تجره يد غير مرئية . كان شهر ايار من ذلك العام شهراً بارداً على نحو استثنائي ، وقد استجيبت دعواته السرية . لكن في مطلع حزيران ارتفعت الحرارة ارتفاعاً فاق كل معدل لها ، ونتيجة لذلك باتت الحاجة ماسة لعمال في معمل الاسمدة .

في ذلك الحين بات رئيس عمال قاعة الطحن يعرف جرجس كما وصفه بأنه شخص مقبول . وهكذا عندما جاء إلى الباب في حوالي الساعة

الثانية من ظهيرة ذلك اليوم الحار الخانق ، شعر بتشنج فجائي مؤلم يمرق كالسهم في جسده — فقد اومأ رئيس العمال له وخلال عشر دقائق اخرى كان جرجس قد خلع سترته وقميصه العلوي وكز على اسنانه جيداً ومضى إلى العمل .فها هي ذي عقبة أخرى عليه ان يواجهها ويذللها .

استغرق عمله دقيقة واحدة من الزمن كي يتعلمه فأمامه واحدة من فتحات الطاحونة التي تطحن السماد — وكان هذا يتدفق منها على شكل نهر اسمر كبير ، ناثراً حوله غباراً ناعماً كأنه السحاب . اعطي جرجس رفشاً ، وأوكلت اليه ، اضافة إلى نصف دستة من العمال الآخرين بجواره ، مهمة جرف هذا السماد إلى العربات اليدوية . اما الآخرون الذين كانوا يعملون معه فكان يعرفهم بسبب أصواتهم ، ولأنهم كانوا يصدمونه احياناً . أما لولا ذلك فما كان باستطاعته أن يميز وجودهم . ففي وسط هذا الغبار يتعذر على المرء أن يرى أكثر من ستة اشبار امامه . لذا كان عليه ، حين يملأ العربة ان يتلمس حواليه إلى ان تأتي عربة اخرى ، فاذا لم يكن هناك واحدة تعين عليه ان يتابع تلمسه إلى ان تصل . خلال خمس دقائق ، طبعاً غدا جرجس من عاليه إلى سافله سماداً وكانوا قد اعطوه اسفنجة كمم بها فمه كي يتمكن من التنفس ، انما لم تستطع الاسفنجة ان تحول بين شفتيه وأجفانه وبين تشكل عجينة من هذا السماد عليها او بين اذنيه وامتلائهما به . كان يبدو اشبه بشبح اسمر عند الغسق — فقد غدا من شعره حتى قدميه

بلون المبنى ولون كل مافيه ، بل ولون كل مايقع خارجه حتى مائة يارده . كان على المبنى ان يظل مفتوحاً دائماً لذا حين كانت تهب الريح كان دورهام وشركاؤه يخسرون مقداراً كبيراً من الأسمدة . وهكذا راح الفوسفات يتسرب إلى مسام جلد جرجس ، وهو يعمل عاري اليدين وبدرجة حرارة تزيد عن الاربعين . وفي غضون خمس دقائق كان قد بدأ الصداع في رأسه وخلال خمس عشرة دقيقة اوشك ان يصاب بالاغماء . كان الدم يدق في دماغه بصوت يشبه صوت المحرك ، وكان هناك ألم مخيف في اعلى جمجمته ، ولم يستطع الا بالكاد ان يتحكم بيديه . مع ذلك فقد استمر ، وهو يستعرض في ذهنه ذكرى الاشهر الاربعة من الحصار التي خلفها وراءه ، استمر يعمل وهو في نوبة جنون من التصميم ، لكن بعد نصف ساعة بدأ يتقيأ وظل يتقيأ إلى ان شعر وكأنه سيتقيأ احشاءه نفسها ، غير ان رئيس العمال جاء اليه ثم قال : المرء يتعود على الجو هنا ، اذا اراد ان يتعود . أما جرجس فكان قد بدأ يرى ان المسألة ليست مسألة ارادة وتصميم بل مسألة تخص معدته وحدها . . تتقبل ام لاتتقبل .

في نهاية يوم الاهوال ذاك ، كان جرجس لايستطيع الوقوف إلا بالكاد . كان عليه ان يتوقف من حين إلى حين ويتكيء على جدار المبنى بعض الوقت لكي يستجمع قواه ، اما معظم العمال فكانوا ، حين يخرجون ، يذهبون مباشرة إلى الحانات إذ كانوا ، على مايبدو ، يضعون السماد وسم الا فعى ذات الاجراس في مرتبة واحدة . غير ان

جرجس كان اشد مرضاً من ان يفكر بالشراب – لم يكن يستطيع فعل شيء سوى شق طريقه بصعوبة والترنح إلى اقرب ترام . كان يراوده احساس بالدعابة ، وفيما بعد ، حين اصبح عاملاً قديماً ، بات يظن انه امر مضحك ان تركب تراماً ، كما فعل هو ، وترى ما يحدث . لكنه كان حينذاك اشد مرضاً من ان يلاحظ – كيف بدأ ركاب الترام يشهقون ويبصقون ، كيف بدأوا يضعون المناديل على انوفهم ويحدجونه بنظرات لاهبة . كل ماعرفه جرجس هو ان احد الركاب امامه نهض مباشرة وقدم له المقعد ، وبعد نصف دقيقة نهض اثنان آخران من كلا جانبيه ، وفي غضون دقيقة واحدة كان الترام المزدحم خاوياً تقريباً – فأولئك الركاب الذين لم يجدوا محلاً لهم بعيداً عنه غادروا الترام وانطلقوا سيراً على الاقدام .

وبالطبع احال جرجس منزله إلى مصنع اسمدة مصغر بعد دقيقة من ولوجه بابه . فالسماد كان قد انغرس عميقاً في جلده – جسمه كله كان مشبعاً به ، ولعله كان سيستغرق اسبوعاً ، ليس بالدلك وحده بل بأشد انواع الحك والفرك ، للتخلص منه . لم يكن بالامكان ، وهو على ماعليه ، ان يقارن نفسه بأي شيء سبق وعرفه البشر ، اللهم ماعدا تلك المادة المشعة التي اكتشفها العلماء من جديد ، تلك المادة التي تشع طاقة لأمد غير محدود دون أن ينقص ذلك من طاقتها . وقد طغت رائحته على كل شيء ، حتى على الطعام مما دفع بأفراد العائلة جميعاً للتقيؤ ، اما هو نفسه فقد ظل ثلاثة ايام عاجزاً عن ابقاء شيء في جوفه – فهو

قد يغسل يديه ويستخدم شوكة وسكيناً لكن أليس فمه وبلعومه مليئين بالسم ؟

رغم ذلك كله ظل جرجس متمسكاً بعمله ورغم الصداع الذي يفلع الرأس سار مترنحاً إلى مكان عمله ليحتله مرة أخرى ثم بدأ بجرف السماد غارقاً في سحابة من الغبار تعمي العيون . وهكذا لم ينته الاسبوع حتى كان قد غدا عاملاً في معمل الاسمدة إلى الابد — لقد بات قادراً على كسب قوته مرة ثانية ورغم ان صداع رأسه لم يكف ابداً ، الا انه لم يصل إلى درجة من الشدة توقفه عن عمله .

وهكذا انقضى صيف آخر ، صيف ازدهار في البلاد كلها ، اكلت البلاد فيه منتجات دور التعليب بنهم شديد ، وكان معنى ذلك توفر قدر كبير من العمل للعائلة كلها . رغم محاولات ارباب العمل ، ابقاء فيض زائد من اليد العاملة . وهكذا استطاعوا مرة ثانية ان يدفعوا ديونهم وبدؤوا بتوفير بعض المال غير انه كان هناك تضحية او تضحيتان اعتبرت العائلة ان تقديمهما لمدة طويلة امر شديد الوطأة — لقد كان امراً بالغ السوء ان يظل الغلامان بائعي صحف وهما في هذه السن . فمن العبث تماماً ان تحذرهما وتنبههما . اذ انهما ، وبجهلهما التام ، انخرطا في جوهما الجديد انخراطاً تاماً ، لقد تعلما السباب والتجديف بالانكليزية الدارجة . وتعلما التقاط اعقاب السجائر وتدخينها ، وكذلك قضاء الساعات وهما يقامران بالبنسات والنرد وعلب السجائر . كما

تعرفا إلى كافة مواخير المدينة . واسماء النساء اللواتي يلرنها وباتا يعرفان الايام التي يقمن فيها حفلاتهن السرية التي يحضرها ضباط الشرطة وكبار السياسيين جميعاً . فاذا ماسألهما احد الزبائن الريفيين من زوار المدينة باتا باستطاعتهما ان يدلاه على حانة « هنديدينك » الشهيرة . بل ويمكنهما حتى ان يدلاه بالاسم على مختلف لاعبي القمار والمشاكسين و« القبضايات » الذين كانوا قد اتخذوا من المكان مقراً لهم .على ان الاسوأمن هذا كله هو ان الغلامين باتا لايرجعان إلى المنزل ليلاً . كانا يتساءلان ماالفائدة من اضاعة الوقت والطاقة وربما اجرة الترام لكي يذهبا إلى منطقة الزرائب كل ليلة في حين ان الجو لطيف وبامكانهما الزحف تحت شاحنة او التسلل إلى مدخل خال والنوم فيه كما ينام واحدهما في منزله ؟ ثم ، طالما ان واحدهما يعود إلى المنزل بنصف دولار يومياً ، فمن الذي يهتم بعد ذلك متى يعود ؟ لكن جرجس اعلن ان المسافة التي تفصل بين هذه النقطة وبين عدم المجيء بتاتاً ليست طويلة جداً . لذا اتخذت العائلة قرارها بان يعود فيليماس ونيكالوجوس إلى المدرسة في الخريف . وعوضاً عنهما يمكن لالزبيتا ان تخرج وتبحث عن عمل ، اذا احتلت محلها في المنزل ابنتها الصغرى .

فكما هو شأن معظم ابناء الفقراء . صارت كوترينا الصغيرة كبيرة السن قبل الاوان . كان عليها ان ترعى أخاها الصغير الذي كان مقعداً وكذلك الطفل الرضيع ، كما كان عليها ان تطهو الطعام وتغسل الصحون وتنظف المنزل وتجهز العشاء حين يصل العاملون إلى المنزل

مساءً . لم تكن تتجاوز الثالثةعشرة من العمر . فضلاً عن انها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لسنها ، الا انها كانت تقوم بكل هذه الاعباء دون تذمر . وقد خرجت امها فعلاً . ثم استطاعت ، بعد التطواف يومين كاملين من فناء إلى فناء ، ان تستقر اخيراً كخادمة لدى« آلة نقانق » .

كانت الزبيتا معتادة على العمل الا انها وجدت هذا التغيير في نوعية العمل صعباً للغاية ، اذ كان عليها ان تقف على ساقيها بلا حراك من السابعة صباحاً وحتى الثانية عشرة والنصف ، ثم مرة ثانية من الواحدة حتى الخامسة والنصف . في الايام القليلة الاولى بدا لها انها لن تستطيع التحمل -- فقد كانت تعاني مثلما عاني جرجس في معمل الاسمدة : كما كانت تخرج إلى الشمس ورأسها يفتل تماماً . فضلاً عن هذا ، فقد كانت تعمل في واحد من تلك الجحور المظلمة ، على ضوء الكهرباء ، والرطوبة قاتلة -- فهناك دائماً برك ماء على الارض ورائحة لحم رطب في الغرفة تدعو للاقياء . كان الناس الذين يعملون هنا يتبعون عادة قديمة من عادات الطبيعة ، يكون بها الترمجان (١) بلون الاوراق الميتة في الخريف وبلون الثلج في الشتاء ، كما تسود الحرباء حين تكون على جذل(٢) شجرة وتخضر حين تنقل إلى الاوراق . ولقد كان الرجال والنساء

---

(١) الترمجان : طائر من رتبة الدجاج في الأصقاع الشمالية من الكرة الأرضية .
(٢) الجذل : مايتبقى من الشجرة بعد قطعها .

العاملون في هذا القسم بلون « النقانق البلدي الطازج » الذي يصنعونه تماماً .

كانت غرفة النقانق مكاناً مثيراً حين تزوره الدقيقتين او ثلاث شريطة الا تنظر إلى الناس هناك ولعل الآلات الموجودة فيها هي اروع ما في المنشأة بأسرها . إذ من المفترض ان النقانق كانت تقطع وتحشى باليد في سالف الزمان . واذا كان الامر كذلك فانه سيكون امراً مثيراً ان نعلم كم من العمال حلت محلهم هذه الآلات . ففي احد جوانب الغرفة كانت هناك القواديس التي يلقمها العمال رفوشاً محملة باللحم وعربات يدوية ملأى بالبهارات والتوابل ، في تلك القواديس كانت هناك سكاكين تدور دوراناً سريعاً ، الفي دورة في الدقيقة ، وحين يطحن اللحم طحناً ناعماً ويتبل بدقيق البطاطا ثم يمزج بالماء ، فانه يدفع قسراً إلى آلات الحشو الموجودة في الجانب الآخر من القاعة والتي تشرف عليها عاملات من النساء . ففي كل آلة يوجد بزباز يشبه بزباز الخرطوم ، تقف بقربه احدى النساء وتأخذ حبلا طويلا من الامعاء المنظفة ثم تضع طرفه على البزباز ليملأه هذا بالحشوة ، تماماً كما يمتلىء القفاز الضيق باصابع الكف . هذا الحبل قد يكون بطول عشرين او ثلاثين قدماً ، الا ان المرأة تملؤه بلحظة واحدة ، فحين يصير لديها عدة حبال منها تضغط عتلة وفي اللحظة ذاتها ينطلق جدول من لحم النقانق ، ثم تسحب الامعاء بالطريقة نفسها التي جاءت بها . وهكذا يمكن للمرء أن يقف ويرى ، وعلى نحو يثير العجب كيف تولد من الآلة حبال

النقانق الافعوانية الملتوية وبطول لايصدق . في الواجهة كان هناك حوض كبير يستقبل تلك المخلوقات وكانت هناك ، عاملتان اخريان يمسكان بها حالما تظهر ثم يلفانها على شكل حلقات . هذا العمل ، بالنسبة للعاملة غير المدربة ، كان أكثر مافي المهمة صعوبة ومدعاة للحيرة ، فكل ماكان عليها ان تفعله هو فتلة صغيرة من الرسغ ، وبطريقة تحاول فيها ان تصنع على يديها ، وعوضاً عن تلك السلسلة التي لا نهاية لها من حبال النقانق ، حزمة من الحبال تتدلى كلها من مركز واحد وكان ذلك اشبه بأعمال المشعوذين — فالمرأة تعمل بسرعة إلى درجة يتعذر معها على الناظر ان يلحق بها عملياً ، اذ لايرى الا سديماً من الحركة ، تظهر على الاثر حلقة نقانق بعد اخرى . لكن في خضم السديم هذا يلاحظ الزائر فجأة الوجه المتوتر الاعصاب مع تغضنين محفورين على الجبين وشحوباً مروعاً في الوجنتين فيتذكر فجأة انه آن له ان يذهب. أما المرأة فلا تذهب ، بل تمكث الساعات الطوال هناك — ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم وسنة بعد سنة ، تلف حلقات النقانق وتسابق الموت . إنه عمل بالقطعة ، وقد يكون لديها عائلة تريد ابقاءها على قيد الحياة ، فالقوانين الاقتصادية التي لاترحم فرضت عليها ألا تستطيع أداء عملها هذا إلا بالطريقة التي تؤديه بها تماماً ، ساكبة كل روحها فيه ، دون أن تجد لحظة واحدة تستطيع النظر ، ولو نظرة خاطفة ، إلى السيدات والسادة الذين جاؤوا وهم في أبهى الملابس للتفرج عليها وكأنما يتفرجون على وحش غريب في معرض للوحوش .

بات لدى العائلة ، واحدى نسائها تعمل في تشذيب لحم البقر في معمل للتعليب وأخرى في معمل للنقانق ، معرفة مباشرة بأغلبية ألاعيب باكنجتاون . إذ كانت العادة ، كما اكتشفوا ذلك بأنفسهم ، أن اللحم حين يكون فاسداً ولايمكن استخدامه في أي مجال آخر فانه إما أن يعلب أو يقطع وتصنع منه نقانق . وإضافة إلى المعلومات التي كان جوناس قد نقلها لهم عما يدور في غرف التخليل فقد بات باستطاعتهم الآن أن يدرسوا مجمل صناعة اللحم الفاسد من الداخل وأن يروا معنى كريهاً وجديداً في تلك المزحة القديمة السائدة في باكنجتاون — أي أنهم يستخدمون كل ما في الخنزير ماعدا صراخه .

كان جوناس قد أخبرهم كيف أن اللحم الخارج من التخليل غالباً مايكون كريه الطعم وكيف أنهم يفركونه بالصودا ويزيلون رائحته ثم يبيعونه طعاماً يؤكل على طاولات المطاعم . كذلك من بين معجزات الكيمياء التي يصنعونها ، فقد كان باستطاعتهم أن يعطوا اللون الذي يشاؤون لأي نوع من اللحم ، طازجاً كان أم مملحاً ، كاملاً أم مفروماً ، كما كان باستطاعتهم أن يضفوا عليه أية نكهة ورائحة . فلدى تخليلهم للحم الخنزير ، هناك جهاز رائع يوفرون به الوقت ويزيدون استطاعة

المنشأة ــ آلة تتألف من ابرة جوفاء معلقة إلى مضخة ، حيث يستطيع المرء ، بغرز هذه الابرة في اللحم وتشغيل قدمه أن يملأ قطعة اللحم بالمخلل خلال بضع ثوان ، مع ذلك ، ورغم هذا كله يظل هناك بعض قطع اللحم الفاسدة ، وتكون رائحة بعضها كريهة إلى حد يصعب معه على الانسان أن يتحمل بقاءه في الغرفة التي يوجد فيها ، لكي لايخسر أصحاب المنشآت مثل هذه القطع فانهم يجرون لها تخليلة ثانية أشد قوة تطغى على الرائحة ــ وهذه العملية تعرف لدى العمال باسم « تقديم ثلاثين بالمائة » . كذلك ، قد يجد العمال بعد اجراء عملية التدخين لقطع اللحم أن هناك بعضاً منها قد فسد ، في السابق كانت هذه القطع تباع على « أنها من الصنف رقم ٣ » . لكن فيما بعد ، جاء أحد الأشخاص العباقرة واخترع حيلة جديدة يستخرج بها العظم من القطعة الفاسدة ليتم بعد ذلك ادخال حديد أحمر حامٍ في التجويف الذي تركه العظم . وقد قضى هذا الاختراع الجديد على كل التصنيفات واحد ، واثنين وثلاثة ــ ولم يعد هناك إلا الصنف رقم واحد . والحقيقة أن أصحاب دور التعليب يخترعون دائماً حيلاً كهذه ــ فلديهم ما يدعى عادة باسم « لحم فخذ بلا عظم » وهذا ليس إلا فضلات وبقايا لحم الخنزير الذي تحشى به الأمعاء . أما « لحم كاليفورنيا » فانهم يصنعونه من الأكتاف مع مفاصل البراجم الكبيرة بعد تجريد لحمها كله تقريباً . . . وهكذا إلى آخر ما هنالك من أنواع اللحوم التي لاتنطبق أسماؤها على مسمياتها .

أما القسم الذي عملت فيه الزبيبتا فهو القسم الذي يجيء إليه اللحم الفاسد بكامله . حيث تقطعه هناك السكاكين ذات الألفي دورة في الدقيقة ثم يمزج بنصف طن من لحم آخر بحيث لايعود باستطاعة أية رائحة أن تبقي على فارق بينهما . على أن أحداً لايعير انتباهاً للحم الذي يستخدم في صناعة النقانق ، وكثيراً ماتعاد من أوروبا نقانق قديمةرفضت لما عليها من عفن وفطريات — فتعالج بالبوراكس والغليسرين ثم تغطس في القواديس ومن ثم تعد للاستهلاك من جديد . وقد تكون هناك لحوم سقطت على الأرض وتلوثت بالتراب والأوساخ كما داس عليها العمال وبصقوا عليها بملايين لاتحصى من جراثيم السل . وقد تخزن لحوم على شكل أكداس كبيرة في الغرف حيث تقطر عليها مياه ترشح من السقف وتتسابق عليها آلاف الجرذان . ففي مخازن كهذه تصعب على المرء الرؤية بسبب الظلمة ، إلا أنه يستطيع مد يده إلى هذه الأكداس والخروج بحفنة من البراز الجاف لهذه الجرذان التي تشكل مصادر ازعاج فيحاول أصحاب دور التعليب قتلها بوضع خبز مسمم لها : فتموت ، وحينذاك يوضع اللحم والخبز والجرذان معاً في القواديس . لكن لاتحسبن أن هذه حكاية من حكايا الجن أو نكتة ، فاللحم يجرف بالرفوش إلى العربات والعامل الذي يقوم بهذه العملية لايبالي قيد شعرة برفع جرذ ميت فيما يجرفه حتى ولو رآه — فهناك أشياء تدخل في تركيب النقانق يعد جرذ مسموم بالمقارنة معها لغواً تافهاً . كذلك ليس هناك مكان يغسل به العمال أيديهم قبل أن يتناولوا غذاءهم : لذا لايتورعون

عن غسل أيديهم في الماء الذي يغطسون فيه النقانق . كما أن هناك كل أعقاب وحواشي اللحم المدخن وفضلات اللحم المحفوظ بالملح وكل بقايا ومتروكات المنشأة التي تغطس كلها في براميل عتيقة في القبو وتبقى هناك . وتبعاً للنهج الاقتصادي الصارم الذي يسير عليه أصحاب دور التعليب ، فقد كانت هناك بعض الأعمال التي تجري مرة واحدة كل فترة من الزمن . من هذه الأعمال تنظيف ما تحويه براميل الفضلات هذه . وهي العملية التي تجري كل فصل ربيع ، حيث يكون في البراميل وسخ وصدأ ومسامير قديمة وماء عفن – لكن مع ذلك تؤخذ منه حمولة عربة بعد أخرى لتغطس في القواديس جنباً إلى جنب مع اللحم الطازج ولتخرج بعد ذاك من المعمل طعاماً للآكلين . بعض هذه المحتويات قد يصنعونه على شكل نقانق « مدخنة » – لكن بما أن التدخين يستغرق زمناً وهو لهذا السبب مكلف ، فانهم يعتمدون على قسم الكيمياء لديهم ، حيث يعالجونه بالبوراكس ويلونونه بالهلام ليعطوه لوناً أسمر . علماً بأن كل ما يصنعونه من نقانق يخرج من الحوض عينه ، لكنهم حين يشرعون بلفه ، يدمغون بعضه بكلمة « خاص » ، الأمر الذي يكلف سنتين اضافيين لكل رطل انكليزي .

هذا هو الجو الذي وجدت الزبيبيتا نفسها فيه . وهذا هو العمل الذي اضطرت لأن تقوم به . انه عمل فظيع رهيب ، لم يترك لها فراغ لحظة واحدة للتفكير ولا قوة لفعل شيء . لقد كانت جزءاً من الآلة التي تشرف عليها ، وكل قدرة إنسانية لاتحتاجها الآلة حكم عليها بأن تسحق

وتزول من الوجود . شيء واحد فقط كان رحمة بالنسبة لها وهي تعمل على آلة الطحن هذه — انه انعدام الحس ، ذاك الذي منحتها إياه الآلة . إذ شيئاً فشيئاً راحت تغرق في بحران الخدر — وبحران الصمت . انها تلتقي بجرجس وأونا في المساء ويسير الثلاثة إلى المنزل معاً ، انما يندر أن يتبادلوا كلمة واحدة . فأونا أيضاً ، اكتسبت عادة الصمت — أونا التي كانت في الماضي تغرد كالبلبل . كانت مريضة وبائسة وغالباً ما كانت تشعر بجسمها ضعيفاً حتى لتعجز عن جره إلى المنزل إلا بالكاد . هنا يأكلون ماكان مفروضاً عليهم أن يأكلوه ، بعدئذ ، ولعدم وجود موضوع يتحدثون عنه سوى البأساء ، فقد كانوا يزحفون زحفاً إلى فرشهم ويغرقون في نوع من الخدر لايحركون فيه ساكناً إلى أن يجيء موعد النهوض فيلبسوا ثيابهم على ضوء القنديل ويعودوا إلى الآلات . لقد ماتت أحاسيسهم حتى غدوا لايشعرون بالجوع نفسه ، وحدهم الأطفال كانوا ما يزالون يضجون ويثورون حين ينقصهم الطعام .

مع ذلك لم تكن روح أونا قد ماتت بعد — بل لم تمت روح أي منهم ، انما كانت في حالة سبات ، وهكذا كانت تستيقظ بين الحين والحين وكم كانت هذه الأحايين قاسية صعبة . فبوابات الذاكرة تنفتح أحياناً — الأفراح القديمة تمد اذرعها إليهم ، الآمال والأحلام القديمة تدعوهم فيتململون تحت العبء الذي يحملون ويشعرون بثقل وطأته الأبدية . لم يكن باستطاعتهم أن يصرخوا تحته ، إلا أن عذاباً شديداً

يقبض على نفوسهم ، عذاباً أشد من عذاب الموت . انه شيء يصعب التحدث عنه — شيء يصاب العالم ازاءه بالبكم ، ذاك العالم الذي يكره معرفة عيوبه .

لقد خسروا ، خسروا اللعبة ، جرفهم التيار إلى الحضيض . ولم يكن الأمر أقل مأساوية لأنه كان قذراً إلى هذا الحد ، لأنه كان ذا شأن بالأجور وحسابات البقالية وايجار المنزل ، بل لأنهم كانوا يحلمون بالحرية ، بفرصة يتطلعون فيها حولهم ، يتعلمون شيئاً ما ، يكونون أنقياء نظيفين ، يرون أطفالهم يكبرون ويشتد عودهم . لقد ولى هذا كله — ولن يعود أبداً . لقد لعبوا اللعبة وخسروها ، كان عليهم أن يواجهوا ست سنوات أخرى من الكد والتعب قبل أن يتوقعوا الاستراحة الأهون ، توقفهم عن دفع أقساط المنزل . وكم هو قاس وفظيع أن لايصمدوا ست سنوات أخرى من حياة يعيشونها على هذا النحو . لقد ضاعوا ، كانوا ينحدرون — وليس ثمة خلاص ولا أمل . فكل ماقدمته لهم تلك المدينة الضخمة التي يقطنون فيها هي أنها باتت في أعينهم لجة محيط ، فيفاء مجهولة ، صحراء مقفرة ، قبراً . هي ذي الحالة التي غالباً ما كانت تنتاب أونا في الليل ، حين يوقظها أحد ، فتستلقي على ظهرها خائفة من خفقات قلبها ، مواجهة أعيناً محمرة كالدم لذاك الرعب البدائي القديم من الحياة . ذات مرة صرخت بصوت عال فأفاق جرجس وكان متعباً عصبياً .بعد ذاك تعلمت كيف تبكي بصمت — فنادراً ماكان يتوافق مزاجها مع مزاجه في هذه الأيام .

وكأن آمالهما دفنت في قبور منفصلة . كان لجرجس ، بوصفه رجلا ، همومه الخاصة ، فهناك شبح آخر يلاحقه ، لم يكن يتكلم عنه البتة ولم يكن يسمح لأحد آخر بالتكلم عنه – بل لم يعترف بوجوده أبداً حتى أمام نفسه . مع ذلك ، استهلكت معركته معه كل مافيه من رجولة–بل والأسفاه أكثر مما فيه من رجولة بمرة أو مرتين . لقد اكتشف جرجس الشراب .

كان يعمل في قعر الجحيم الكثير البخار ، يوماً تلو يوم وأسبوعاً اثر اسبوع – حتى لم يعد عضو واحد في جسده يتحرك بغير ألم وبات هدير أمواج البحر يتردد أصداء في رأسه طيلة النهار والليل والأبنية تتمايل وتتراقص أمام عينيه وهو يهبط الشارع . من كل هذا الرعب الذي لانهاية له ، كان ثمة مستراح ، خلاص – كان بوسعه أن يشرب . بوسعه أن ينسى الألم ، أن يرمي العبء عن كاهله ، يرى مرة ثانية بصفاء ، يكون سيد مخه ، سيد أفكاره ، وارادته . فروحه الميتة تتحرك ليجد نفسه يضحك ويتبادل النكات مع أصحابه – بالشراب يعود رجلاً مرة ثانية ، يعود سيد نفسه وحياته .

انما لم يكن أمراً سهلاً على جرجس أن يشرب أكثر من كأسين أو ثلاث . مع الكأس الأول يأكل الوجبة ويقنع نفسه أن في ذلك توفيراً ، أما مع الكأس الثانية فيأكل وجبة أخرى – انما يجيء وقت لايستطيع أن يتناول فيه المزيد . وأن يدفع ثمن كأس بدون طعام بذخ لايمكن

التفكير به ؛ تحدٍ للغرائز الطويلة العمر التي تتصف بها طبقته المسكونة بالجوع . لكنه ذات يوم أفلت منه الزمام وشرب بكل ماكان في جيبه بسعادة تفوق ما شعر به خلال عام كامل.لكنه ، ولغير ماسبب سوى معرفته بأن هذه السعادة لن تدوم ، ثارت ثائرته أيضاً — على أولئك الذين سيحطمونها ، على العالم ، على حياته نفسها ومن ثم عاد فشعر بوطأة هذا كله ومرض خجلاً من نفسه . بعد ذاك ، وحين رأى اليأس في عيون أفراد العائلة وحسب المال الذي أنفقه ، انهمرت من عينيه الدموع وبدأ المعركة الطويلة مع الشبح .

كانت معركة بلا نهاية ،معركة لايمكن أن يكون لها نهاية أبداً . غير أن جرجس لم يدرك ذلك بمثل هذا الوضوح ، بل لم يكن يجد متسعاً من الوقت للتفكير بذلك ، كان ببساطة يعلم أنه في خضم معركة دائمة . ولم يكن عليه هو الغارق في البأساء واليأس ، إلا أن يهبط الشارع لكي يجد نفسه هناك ، حيث يوجد بالتأكيد حانة عند ركن الشارع — بل ربما عند أركانه الأربعة ، وفي وسطه أيضاً ، وكل منها تمد ذراعيها إليه — لكل منها شخصيتها المستقلة ، اغراءاتها المختلفة عن اغراءات الأخرى . كان هناك دائماً ، في غدوه ورواحه — قبل شروق الشمس وبعد حلول الظلام — دفء وتألق أضواء وبخار طعام ساخن وربما موسيقى أو وجه صديق ، و كلمة مرح وبهجة . وبات يظهر على جرجس نوع من الشوق لأن يحمل أونا على ذراعيه حيثما يخرج إلى الشارع ، يضمها بشدة ويمشي مسرعاً . وكان شيئاً يثير خوفه أن يجعل أونا تعرف

بهذا الشوق . فيغدو كالمجنون حين يفكر أنه أمر غير مستحب ، فأونا لم تكن تستسيغ الشراب ، وبالتالي لم تكن تستطيع فهمه أحياناً . وفي ساعات القنوط المطبق ، يجد نفسه راغباً في أن تعرف كنه هذا الشعور . وبذلك لايضطر لأن يخجل من نفسه في حضرتها . حينها قد يشربان معاً ويفران بنفسيهما من دنيا الرعب والهول — يفران حيناً من الزمن . وليكن ما يكون .

وهكذا جاء حين من الزمن صارت فيه كل حياة جرجس مؤلفة من صراع مع شوقه للشراب . إذ ذاك يغدو في مزاج بغيض للغاية . يكره أونا ، يكره العائلة كلها لأنه يشعر أنهم جميعاً يقفون في طريقه : كم كان أحمق حين تزوج ، ربط نفسه إلى الأبد ، جعل من نفسه عبداً . زواجه سبب كل مصائبه ، لولا زواجه من كان سيرغمه على العمل في المسلخ . لولا زواجه اذن لكان قد ولى بعيداً كما فعل جوناس وإلى الجحيم بكل أصحاب دور التعليب . كان يوجد في معمل الأسمدة بضعة رجال عازبين — يعملون من أجل فرصة للفرار . في غضون ذلك . كان لديهم أيضاً شيء يفكرون به وهم يعملون — ذكرى أيام ماضية كانوا يسكرون فيها ويعربدون : وأمل بأيام قادمة سيتاح لهم أن يسكروا فيها ويعربدوا ثانية . أما جرجس . فقد كان عليه أن يعود بكل قرش المنزل . ولم يكن يستطيع حتى الذهاب إلى الحانة وقت الظهيرة . . فالمفروض به أن يجلس على الأرض ويتناول غداءه على كومة من مسحوق السماد .

بالطبع ، لم يكن مزاجه دائماً على هذا النحو ، إذ كان مايزال يحب عائلته . إلا أنه كان يمر في ذلك الوقت تماماً بتجربة . فانتاناس الصغير المسكين ، مثلاً — ذاك الذي لم يكن يفشل أبداً في كسب وده بابتسامة واحدة — أنتاناس الصغير أقلع عن الابتسام ، منذ غدا كتلة من الحبيبات الحمراء اللاهبة . لقد أصيب بكافة الأمراض التي يمكن أن يصاب بها الأطفال ، وبفواصل قصيرة تماماً : حمى قرمزية ، نكاف ، سعال ديكي ، في السنة الأولى ، والآن هاهو ذا يصاب بالحصبة . لم يكن ثمة من يرعاه سوى كوترينا الصغيرة ، وليس ثمة طبيب يقدم له العلاج ، فهم في حالة من الاملاق الشديد والأطفال لايموتون بسبب الحصبة — على الأقل ليس غالباً . بين الحين والحين كانت كوترينا تجد فراغاً من الوقت تبكي فيه مصائبها ، إلا أنه كان عليها معظم الوقت أن تظل وحيدة متمترسة على الفراش . كانت الشقة مليئة بالتيارات الهوائية وإذا ماأصيب ببرد فانه قد يموت . في الليل كانوا يشدون وثاقه للفراش خشية أن يلقي بالأغطية جانباً ، بينما تستلقي العائلة وهي في حالة الخدر التي تعاني منها نتيجة الارهاق . أما هو فانه يستلقي ويصرخ الساعات الطويلة حتى ليوشك على التشنج ثم يسقط منهكاً ويبدأ النحيب والنواح وهو يتعذب أشد العذاب . كان جسمه يشتعل بالحمى ، تحرق عينيه الدموع ، وكان على ضوء النهار يبدو شيئاً فظيعاً ومؤذياً أن تمسك به ، هو العجينة اللاصقة من البثور والعرق ، الكتلة الأرجوانية الضخمة من البؤس .

مع ذلك ، ورغم مايعانيه من مرض كان أنتاناس الصغير أحسن

أفراد العائلة حظاً . فقد كان قادراً تماماً على تحمل آلامه -- وبدا كما لو أنه يصدر كل تلك الشكوى لكي يبين المعجزة الصحية التي يمثلها . انه ابن شباب وفرح والديه ولقد ترعرع مثل شجيرة ورد لدى ساحر . العالم كله صدفة محار لديه وبصورة عامة ، كان طوال النهار يمشي بخطاه القصيرة المضطربة هنا وهناك في المطبخ بمظهره النحيل الجائع -- فما يناله من علاوة العائلة لايكفيه ، ولم يكن لمطالبه حدود أبداً . لم يكن أنتاناس قد تجاوز العام إلا قليلاً ولم يكن أحد من أفراد العائلة يستطيع تدبير أمره سوى والده .

كان يبدو وكأنه أخذ من أمه كل مافيها من قوة -- دون أن يترك شيئاً لمن قد يأتون بعده . وكان ثمة من جاء بعده الآن فقد كانت أونا حاملاً وكان أمراً مخيفاً أن تفكر بذلك ، بل حتى جرجس ، رغم يأسه وصحته ، كان يفهم أن ثمة عذابات أخرى في طريقها إليهم وكان يرتعش لدى التفكير بهذه العذابات .

أما أونا فقد كانت ، وبكل وضوح ، سائرة في طريق التحطم ارباً . فقبل كل شيء ، كان قد ازداد لديها السعال ، سعال كذاك الذي قضى على أنتاناس العجوز . وقد بدأت آثاره لديها منذ ذلك الصباح القاتل الذي أجبرتها فيه شركة الترامات الجشعة على السير تحت المطر ، لكنه الآن بات يتحول إلى سعال جدي خطر ، لايسمح لها بالرقاد طوال الليل . والأنكى من ذلك ، كان هناك التوفز العصبي الذي باتت تعاني

منه . فهي تصاب بنوبات شديدة من الصداع والبكاء الذي لاتعرف سبباً أو هدفاً له . وكانت تعود أحياناً إلى المنزل وهي ترتعش وتنوح فتلقي بنفسها على الفراش وتنفجر بالبكاء . في مرات عدة فقدت أونا زمام نفسها وأصيبت بما يشبه الهستيريا وفي كل مرة كان جرجس يوشك أن يجن هلعاً فتسرع الزبيبتا كي تشرح له أنهم لا يستطيعون فعل شيء ، فالمرأة تمر بأشياء كهذه حين تكون حاملاً ، لكنه قلما كان يقتنع . لذا كان يستجدي ويتضرع محاولاً معرفة ما يحدث . لم تكن أونا في يوم من الأيام هكذا ، كان يناقش الزبيبتا ، وهو شيء رهيب لايمكن للعقل قبوله . فتقول له أنها الحياة التي كان عليها أن تحياها ، العمل اللعين الذي كان عليها أن تقوم به ، هذا الذي يقتلها بالتدريج . فأونا لم تخلق لمثل هذه الحياة أو لمثل هذا العمل ، بل ليس هناك امرأة خلقت له وينبغي عدم السماح لأية امرأة بممارسة عمل كهذا ، وإذا كان العالم لايستطيع اطعامهن وتأمين معيشتهن فعليه أن يقتلهن حالاً وينتهي الأمر . ينبغي عليهن ألا يتزوجن أو ينجبن أطفالاً ، بل ينبغي ألا يتزوج أي انسان عامل — ولو أنه هو جرجس ، كان يعرف ما يعرفه الآن إذن لفقأ عينيه قبل أن يتزوج . ويستمر على هذا النحو ، ليغدو شبه مجنون هو الآخر ، الأمر الذي يصعب على المرء رؤيته أو تحمله .

وقد تتماسك أونا أخيراً ثم تلقي بنفسها بين ذراعيه ، متوسلة إليه أن يكف ، أن يهدأ قائلة أنها ستتحسن ، وأن كل شيء سيكون على

مايرام . وهكذا تسترخي وتنشج ذارفة دموعها على كتفيه ، بينما يحدق إليها النظر وقد بدا في عينيه العجز واليأس مثل حيوان جريح وجد نفسه هدفاً لأعداء لاتراهم عيناه .

— ١٥ —

في الصيف ، كانت بداية هذه الأشياء المحيرة . وفي كل مرة كانت أونا تعده ، وبصوت يرتعش خوفاً ، أن ذلك لن يتكرر ثانية — انما عبثاً — فكل نوبة تترك جرجس أشد وأشد خوفاً ، تتركه أكثر ميلاً للشك بتبريرات الزبيبتا ومواساتها له حتى بات يعتقد كل الاعتقاد أن وراء الأكمة ماوراءها وأنهم لايسمحون له بمعرفته . في احدى هذه النوبات بل ربما في اثنتين منها نظر إلى عيني أونا فرآهما أشبه بعيني حيوان قنيص . كانت ثمة لمحات متقطعة من العذاب واليأس تعبر بهما بين الحين والحين وهي تنحب نحيبها المسعور . ولأنه كان مصدوماً يلوذ بالصمت هو نفسه ، لهذا السبب فقط ، لم يكن جرجس يشعر بالكثير من الضيق ، بل لم يكن يفكر في الأمر إلا حين يجر جراً — فهو يحيا كما يحيا حيوان أبكم من حيوانات الجر تلك التي لاتعرف إلا اللحظة التي هي فيها .

وكان الشتاء يلوح في الأفق ثانية ، أشد نذيراً وقسوة من ذي قبل . انه تشرين الأول ، وبداية زحام العطلة . كان من الضروري أن تظل آلات التعليب تعمل حتى وقت متأخر من الليل لتوفر الطعام الذي سيؤكل

على موائد عيد الميلاد ، وقد بدأت ماريا وأونا والزبيبيتا ، باعتبارهن جزءاً لايتجزأ من تلك الآلة ، العمل مدة خمس عشرة أو ست عشرة ساعة في اليوم . لم يكن لهن من خيار — فالعمل الذي يكلفونهن به عليهن أن يعملنه ، ان كن يرغبن بالاحتفاظ بأماكنهن ، علاوة على أنه كان يزيد قليلاً من دخلهن ، وهكذا كن يترنحن تحت الحمل الثقيل . انهن يبدأن العمل في السابعة من كل صباح ، يتناولن غداءهن ظهراً ثم يتابعن العمل حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً دون لقمة طعام واحدة . كان جرجس يود أن ينتظرهن ، يساعدهن في العودة إلى المنزل ليلاً ، إلا أنهن لم يفكرن بهذا ، فمعمل الأسمدة لايعمل ساعات اضافية في الليل ، وليس ثمة مكان له سوى الحانات ينتظر فيها . كانت كل منهن تخرج وهي تترنح في الظلمة ، تشق طريقها إلى الزاوية التي يلتقين فيها ، أو تأخذ تراماً إذا كانت الأخريات قد سبقنها ، وتبدأ كفاحاً مريراً لكي تمنع عن أجفانها النوم . وحين يصلن إلى المنزل يجدن أنفسهن أشد إرهاقاً من أن يستطعن تناول طعامهن أو خلع ثيابهن ، فيزحفن إلى مفارشهن بلباسهن وأحذيتهن لترتمي واحدتهن كجذع شجرة . ذلك أنهن إذا ماقصرن في عملهن ، فانهن سيضعن ويضيع كل شيء ، أما إذا تحملن وتابعن ، فقد يجدن كفايتهن من الفحم ليزدن برد الشتاء .

قبل يوم أو يومين من عيد الشكر ، هبت عاصفة ثلجية ، بدأت بعد الظهر ، ولم يحل المساء حتى كان قد سقط من الثلج مايزيد على البوصتين . حاول جرجس أن ينتظر النسوة ، إلا أنه دخل الحانة كي

يتدفأ وهناك عب كأسين من الشراب ثم خرج وهو يعدو عدواً إلى المنزل هرباً من الشيطان ، وفي المنزل اضطجع ينتظرهن فاستغرق حالاً في سبات عميق . حين فتح عينيه مرة ثانية كان يعاني من كابوس رهيب وكانت الزبيبتا تهزه وتصرخ . في البداية لم يستوعب تماماً قولها – أونا لم تعد إلى المنزل ، فسألها ماهو الوقت . إنه الصباح – موعد النهوض ، وأونا لم تعد إلى المنزل تلك الليلة . والبرد قارس والثلج بارتفاع ثلاثين سنتمتراً عن الأرض .

هب جرجس منتفضاً . كانت ماريا تبكي خوفاً وكان الأطفال يعولون في حالة من المشاركة الوجدانية – وعلاوة عليهم ستانيسلوفاس الصغير بسبب خشيته من الثلج . لم يكن جرجس بحاجة لارتداء شيء سوى معطفه وحذائه وخلال نصف دقيقة كان خارج الباب . لكن حينذاك فقط أدرك أن لاداعي للسرعة وأنه لايعرف أين يتوجه أبداً . كان الظلام مايزال وكأنه منتصف الليل ، وكانت هشائش الثلج تتساقط – وكل شيء صامت هادىء حتى تكاد تسمع صوت تلك الهشائش التي كانت تسقط بكثافة شديدة حتى اكتسى ، خلال الثواني القليلة التي وقفها هناك متردداً ، بغطاء أبيض من الثلج .

انطلق جرجس يجري باتجاه الزرائب ويتوقف على طريقه يسأل أصحاب الحانات التي كانت ما تزال مفتوحة . ربما عجزت أونا عن متابعة طريقها ، أو لعل حادثة ماحدثت لها وهي تعمل على الآلة .

وحين وصل المكان الذي تعمل فيه سأل أحد الحراس — لم تحدث أمس أية حادثة ، حسب معرفة الحارس . وفي مكتب الدوام الذي وجده مفتوحاً أيضاً أخبره الموظف أن بطاقة أونا قد دقت في الليلة السابقة مما يعني أنها غادرت عملها .

بعد ذاك ، لم يعد لديه مايفعل سوى الانتظار ، رائحاً غادياً في الثلج كيلا يتجمد . كانت الزرائب قد بدأت تعج بالنشاط ، فالماشية تفرغ من العربات في مكان بعيد ، وعلى الطريق « مراكب الأبقار » تشق طريقها في الظلمة محملة بقطع اللحم الضخمة كي تنقلها إلى عربات التبريد . وقبل أن ترتسم في الأفق أول خيوط الضوء كانت جموع من العمال المرتجفين برداً تشق طريقها مسرعة ، وعلى أكتافهم تلوح إلى اليمين والشمال السطول المحملة بوجبات طعامهم . اتخذ جرجس مكان وقوفه قرب نافذة مكتب الدوام حيث كان يوجد في تلك النقطة فقط ضوء يكفي للرؤية . كان الثلج يتساقط بغزارة شديدة ولم يستطع إلا بالتحديق عن قرب ، التأكد من أن أونا لم تعبر به . واقتربت الساعة السابعة ، الموعد الذي تبدأ به آلة التعليب الهائلة العمل . كان على جرجس أن يتواجد في عمله في مثل هذا الوقت لكنه بدلاً من ذلك ظل ينتظر ، في جحيم عذاب الخوف . . . عسى أن تجيء أونا . بعد خمس عشرة دقيقة من بدء العمل رأى شكلاً يظهر من ضباب الثلج فوثب نحوه صارخاً . لقد كانت أونا ، تجري مسرعة وحين رآته ترنحت متعثرة إلى الأمام ، قاذفة بنفسها بين ذراعيه الممدودتين .

« ماذا جرى ؟ » صرخ بانفعال شديد « أين كنت ؟ » لكنها لم تستطع الاجابة قبل مرور بضع ثوان التقطت فيها أنفاسها « لم أستطع الوصول إلى المنزل » هتفت « الثلج — الترامات توقفت » .

« لكن أين كنت ؟ » سألها

« اضطررت للذهاب مع صديقة » أجابت لاهثة متقطعة الأنفاس « مع يادفيغا». وتنفس جرجس الصعداء ، لكنه لاحظ أنها كانت تنشج وترتعش —كما لو أنها في واحدة من تلك الأزمات العصبية التي كان يخشاها كثيراً . « لكن ، ماالمسألة ؟ » صرخ بصوت عال « ماذا حدث ؟ ».

« أوه جرجس . كنت خائفة كثيراً » قالت وهي تتمسك به بشدة عجيبة « كنت قلقة كثيراً » .

كانا يقفان قرب نافذة مركز الدوام وكان الناس يحدقون إليهما فسار بها جرجس مبتعداً « ماتعنين ؟ » سألها بكثير من الحيرة . « كنت خائفة . كنت خائفة كثيراً » قالت من بين نشجاتها « كنت أعلم أنك لن تعرف مكان وجودي ولم أكن أعلم ما ينبغي علي فعله . حاولت الوصول إلى المنزل لكنني لم أستطع . كنت متعبة للغاية . أوه . جرجس ، جرجس » . لقد كان مسروراً بعودتها إلى حد لم يستطع معه التفكير بشيء آخر . ولم ير غرابة في أن تكون على ماهي عليه من الضيق والانزعاج ، كل خوفها وقلقها لم يعد بذي بال طالما أنها عادت . وتركها تذرف الدموع ذارفة معها مخاوفها . لكن ، وقد غدت الساعة

الثامنة تقريباً وتأخرهم أكثر يعني خسارتهم ساعة أخرى ، أوصلها جرجس أخيراً إلى باب دار التعليب ووجهها شاحب كوجه الأشباح وعيناها مسكونتان بالرعب .

بعد العاصفة الثلجية مر فاصل زمني قصير . كان عيد الميلاد على وشك المجيء . ولأن الثلج كان ما يزال يغطي الأرض والجو قارس البرد ، فقد كان جرجس يمضي مع زوجته إلى مركز عملها يوماً اثر يوم شبه حامل لها ، مترنحاً معها في الظلمة ، إلى أن جاءت النهاية أخيراً ذات ليلة .

لم يكن قد ظل سوى ثلاثة أيام على ابتداء العطلة ، وحوالي منتصف الليل عادت ماريا والزبيبتا إلى المنزل لتصرخا مذعورتين وقد اكتشفتا أن أونا لم تعد . كانت كلتاهما قد اتفقت على مقابلتها ، وبعد الانتظار ذهبت إلى الغرفة التي تعمل فيها ، إلا أنهما وجدتاأنعاملات صر اللحم كن قد توقفن عن العمل قبل ساعة وغادرن المعمل . لم تكن تلك الليلة مثلجة كما أنها لم تكن باردة على نحو خاص ، ومع ذلك لم تأت أونا . لابد أن شيئاً ما أشد خطورة قد دهاها هذه المرة .

نبهتا جرجس من رقاده ، فجلس يصغي بعصبية شديدة للقصة . لابد أنها ذهبت مع يادفيغا مرة ثانية إلى منزلها ، قال لهما ، يادفيغا تسكن على مقربة من الزرائب ولعلها كانت مرهقة . لايمكن أن يكون قد حدث لها شيء وحتى لو حدث فليس باستطاعته أن يفعل شيئاً قبل

الصباح ، ثم انقلب إلى فراشه وراح يشخر ثانية قبل أن تغلق المرأتان الباب.

لكنه نهض في الصباح ثم خرج قبل ساعة تقريباً من موعده المعتاد . كانت يادفيغا مارسينكوس تسكن في الجهة الأخرى من الزرائب ، خلف شارع هالستيد ، مع أمها وأخواتها وفي غرفة واحدة في التبو ـــذلك لأن ميكولاس كان قد فقد مؤخراً احدى يديه بسبب تسمم في الدم وقد ألغيت فكرة زواجهما كلياً ، كان باب الغرفة يقع في المؤخرة ويمكن الوصول إليه عبر ساحة ضيقة . رأى جرجس ضوءاً في النافذة ، وسمع ، وهو يعبر ، شيئاً يقلى بالمقلاة ثم قرع الباب وانتظر شبه متوقع أن تفتح له أونا .

لكن ، بدلاً منها فتحت الباب واحدة من أخوات يادفيغا الصغيرات وراحت تحدق إليه عبر شق الباب « أين أونا ؟ » سألها ، فتطلعت الطفلة إليه محتارة ثم تساءلت : « أونا ؟ » .

فأجابها جرجس « أجل ، أليست هنا ؟ » .

« كلا » أجابت الطفلة فانتفض جرجس مجفلاً . بعد لحظة جاءت يادفيغا مختلسة النظر من فوق رأس الطفلة ، وحين رأت أنه جرجس ، عادت وانسلت مبتعدة إذ لم تكن مرتدية ثيابها تماماً . ثم رجعت إليه قائلة ، يجب أن يعذرها ، أمها مريضة للغاية .

« أليست أونا هنا ؟ » سألها جرجس ، خائفاً كل الخوف من جوابها .

« لا . كلا » قالت يادفيغا « لكن ما الذي دفعك للتفكير بذلك ؟ هل قالت أنها آتية إلى هنا ؟ »

فأجابها « كلا ، إلاّ أنها لم تعد إلى المنزل ، وكل ظني أنها جاءت معك كما فعلت في المرة السابقة » .

« في المرة السابقة ؟ » رددت يادفيغا بكثير من الحيرة .

« تلك المرة التي قضت فيها الليل هنا »

« لابد أن ثمة خطأ ما » أجابته يادفيغا بسرعة « أونا لم تقض ليلها هنا أبداً » .

ولم يستطع جرجس أن يفهم تماماً مغزى كلامها « لماذا ؟ لماذا ؟ » هتف أخيراً بكثير من الدهشة « قبل اسبوعين ، يادفيغا ، هي أخبرتني — ليلة هطل الثلج ولم تستطع العودة إلى المنزل » .

« لابد أن هناك خطأ ما » كررت الفتاة قولها ثانية « فهي لم تأت هنا أبداً » .

ووجد جرجس نفسه يستند إلى عتبة الباب كيلا يسقط ، ولفرط اضطرابها — هي التي كانت متعلقة بأونا كل التعلق — فتحت الباب على مصراعيه ثم قالت بصوت مختنق « هل أنت متأكد من أنك لم تسيء فهمها ؟ » هتفت صائحة « لابد أنها كانت تقصد مكاناً آخر . هي — » .

« هي قالت هنا » قاطعها جرجس باصرار شديد . « لقد أخبرتني

بكل شيء عنك . لقد أخبرتني بكل شيء عنك . كيف كنت ، ماذا قلت . هل أنت واثقة مما تقولين ؟ ألم تنسي ياترى ؟ ألم تكوني في المنزل ؟ » .

« لا . . . لا . . . » هتفت الفتاة متعجبة ، ثم جاء صوت واهن — يادفيغا ، ستصيبين الصغير بالبرد ، أغلقي الباب » . ثم وقف جرجس نصف دقيقة أخرى يتلعثم لشدة حيرته عبر شق الباب الذي لايزيد عرضه عن ثمن بوصة . بعد ذاك ، وحين أيقن تماماً أنه لم يعد هناك مايقال ، اعتذر منها ومضى مبتعداً .

كان يسير شبه فاقد الوعي ، لايدري أين يسير . لقد خدعته أونا . كذبت عليه . ترى ما معنى ذلك ؟ أين ذهبت تلك المرة ؟ أين هي الآن ؟ لم يكن باستطاعته أن يستوعب الأمر — ولم يحاول أبداً أن يبحث عن حل لكن ألف وسواس راوده ، وبدأ احساس مبهم بكارثة وشيكة يجتاحه .

وهكذا عاد إلى مكتب الدوام ليراقب ثانية ، هو الذي لم يجد لديه مايفعله سوى الانتظار والمراقبة . هناك انتظر حتّى الثامنة تقريباً أي بعد ساعة من موعد العمل ، ثم مضى إلى الغرفة التي تعمل فيها أونا سائلاً عن مشرفتها . لكنه وجد أن المشرفة نفسها لم تأت بعد ، كل خطوط الترامات القادمة من قلب المدينة كانت قد توقفت — فقد حدث طارىء في مركز الطاقة ولم يسر ترام واحد على تلك الخطوط منذ ليلة أمس . لكن مع ذلك كانت عاملات الصر يتابعن عملهن المعتاد وعلى رأسهن

مشرفة أخرى . الفتاة التي جاوبت جرجس كانت مشغولة وحين كلمته كانت تتطلع بحذر حولها لترى ان كان ثمة من يراقبها . بعدئذ جاء رجل ، يدفع أمامه عربة يد ، رجل يعرف أن جرجس هو زوج أونا وكان فضولياً يود معرفة السر .

« ربما كان لتوقف الترامات شأن بالأمر » قال الرجل « ربما ذهبت إلى قلب المدينة » .

فقال جرجس « لا ، أونا لم تذهب أبداً إلى قلب المدينة » .

فأجاب الرجل « ربما لا » .

لكن خيل لجرجس أنه رآه وهو يتبادل نظرة خاطفة مع الفتاة حين كان يتكلم ، فسأل بصورة سريعة « ماذا تعرف عن الأمر ؟ »

بيد أن العامل رأى رئيس العمال يراقبهم ، فانطلق ثانية دافعاً أمامه عربته ، ثم قال وهو يبتعد « لا أعرف أي شيء ، وأنى لي أن أعرف أين تذهب زوجتك ؟ » .

بعدئذ خرج جرجس ثانية وراح يذرع الدرب جيئة وذهاباً أمام المبنى . لقد أمضى الصباح بطوله ، دون أن تخطر بباله فكرة واحدة عن عمله . وحوالي الظهر ذهب إلى مخفر الشرطة كي يستفسر عنها ثم رجع ثانية ليقوم بنوبة حراسة أخرى . أخيراً ، انطلق إلى المنزل والشمس تشارف الأصيل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يسير في شارع آشلاند ، وكانت الترامات قد بدأت تسير ثانية وقد عبرت به عدة منها مزدحمة كل الازدحام بالركاب . ومرة ثانية جعله منظرها يفكر بملاحظة الرجل الساخرة ثم وجد نفسه على نحو غير ارادي تقريباً يراقب الترامات — وكانت النتيجة أن أطلق صرخة تعجب على حين غرة وهو يكاد يسقط في مكانه .

بعد ذاك انطلق يعدو ، لم يجتز الترام كتلة بنائية إلا وكان جرجس قد أصبح خلفه على بعد أمتار قليلة منه . تلك القبعة السوداء الكالحة ذات الزهرة الحمراء المتدلية لايمكن أن تكون قبعة أونا لكنها تشبهها قليلاً . سيتأكد من ذلك حالا ، فهي ستغادر الترام بعد كتلتين بنائيتين . حينذاك خفف من سرعته تاركاً الترام يمضي أمامه .

خرجت ذات القبعة ، وما ان غابت عن نظره في شارع جانبي حتى انطلق يعدو . كان في صدره كثير من الشك ولم يعد خجلا من تعقبها ، أبصر بها تنعطف مع الزاوية قرب منزلهم وحينذاك بدأ يعدو ثانية فرآها تصعد درجات مدخل المنزل . عند ذاك انقلب راجعاً ، ولمدة خمس دقائق راح يذرع الطريق جيئة وذهاباً وقد شدد قبضة يديه وكز شفتيه وغدا رأسه وكأنه في دوامة . بعدئذ ذهب إلى المنزل .

حين فتح الباب رأى الزبيبيتا ، التي كانت هي الأخرى تبحث عن أونا ، قد عادت إلى المنزل ثانية . كانت تسير على رؤوس أصابعها ، وقد وضعت اصبعها على شفتيها . فانتظر جرجس إلى أن اقتربت منه .

« لاتثر أية ضجة » همست متعجلة .

فسألها « ما المشكلة ؟ » .

« أونا نائمة » أجابت لاهثة « انها مريضة للغاية ، أخشى أن تكون قد فقدت عقلها ، ياجرجس . لقد تاهت في الشوارع طوال الليل ، ولم أفلح في تهدئتها إلا اللحظة » .

فسألها « متى عادت ؟ » .

« بعد أن غادرت المنزل في الصباح مباشرة » أجابت الزبيبتا » «وهل خرجت منذئذ ؟ » «لا ، طبعاً لا . انها في غاية الوهن والضعف ياجرجس . . . هي » .

وصرف بأسنانه صارخاً « أنت تكذبين علي » .

فأجفلت الزبيبتا وشحب لونها ثم قالت شاهقة « لماذا ؟ ماذا تعني ؟ » لكن جرجس لم يجب بل نحاها جانباً وخطا خطوات واسعة سريعة إلى باب غرفة النوم ثم فتحه .

كانت أونا تجلس على السرير ، وحين دخل بدت في عينيها نظرة الخائفة المرتعدة . أطبق الباب في وجه الزبيبتا ثم مضى نحو زوجته سائلاً : « أين كنت ؟ » .

كانت أونا تشبك يديها بشدة في حجرها ، نظرت إليه فرأت أن

وجهه بلون الورق الأبيض يكاد يتمزق ألماً . شهقت مرة أو مرتين قبل أن تحاول اجابته ثم بدأت تتكلم بصوت خفيض سريع ، « جرجس أنا — أنا أظن أنني لم أفقد عقلي لقد انطلقت قاصدة المنزل في الليلة الماضية إلا أنني أضعت طريقي . لقد مشيت — مشيت طوال الليل ، أظن — أظن ذلك — لكنني لم أصل إلا هذا الصباح » .

« اذن كنت بحاجة للراحة » قال بنبرة قاسية « فلماذا خرجت ثانية ؟ » كان يتطلع مباشرة في وجهها ، وقد استطاع قراءة الخوف والاضطراب الغريب الذي داهمها فجأة . « أنا . . . أنا كنت مضطرة للخروج إلى . . . إلى المخزن » شهقت شبه هامسة تقريباً « كان علي أن أذهب . . . » فقاطعها جرجس « أنت تكذبين علي » .

بعدئذ شد قبضته وخطا خطوة صوبها . « لماذا تكذبين علي ؟ » صرخ بعنف شديد « ماذا تفعلين لكي تكذبي علي ؟ » .

فهتفت صارخة وهي تنتفض مذعورة « أوه ، جرجس ، كيف يمكنك قول هذا ؟ » « لقد كذبت علي ، أقول لك » صرخ جرجس « لقد قلت لي أنك قضيت تلك الليلة في منزل يادفيغا ، والحقيقة غير ذلك ، لقد كنت الليلة حيث كنت تلك الليلة — في مكان ما من قلب المدينة ، لقد رأيتك تنزلين من الترام ، فأين كنت ؟ » في تلك اللحظة بدت أونا وكأنما أغمدت سكين في صدرها . بدت وكأنها تتحطم ارباً . . . ولنصف ثانية وقفت تترنح وتتمايل محدقة إليه ورعب شديد

يملؤ عينيها ثم أطلقت صرخة عذاب حادة وهوت إلى الأمام مادة ذراعيها له .

لكنه تنحى جانباً عمداً . ليتركها تسقط . فتمسكت بجانب السرير ثم غاصت فيه دافنة وجهها بين يديها منفجرة في نوبة بكاء مجنونة .

نوبة من تلك النوبات الهستيرية التي غالباً ماكان يخشاها . كانت أونا تنشج نشيجاً حاداً ، تبكي بكاء مريراً ، لقد اتحد خوفها مع عذابها ليصلا بنوبتها إلى ذروة الذرى . هبات شديدة من الهيجان كانت تجتاحها هازة اياها كما تهز العاصفة أغصان الأشجار . كان كل كيانها يهتز ويرتعش — وبدت كما لو أن شيئاً مروعاً ثار في داخلها واستحوذ عليها ثم بدأ يعذبها ويمزقها ، لقد كان الهدف من هذا الشيء هو أن يهدىء جرجس ويعيد إليه صوابه ، لكن جرجس ظل واقفاً مشدود الشفتين محكم القبضتين — فهي قد تبكي حتى تقتل نفسها ، لكنها لن تحرك فيه شعرة هذه المرة — ولا شعرة ، ولا شعرة . غير أن الأصوات التي كانت تصدرها جعلت دمه يبرد وشفتيه ترتعشان رغماً عنه ولهذا السبب سر إلى حد ماحين فتحت الزبيبيتا الباب ، شاحبة الوجه من الخوف واندفعت إلى الداخل ، لكنه مع ذلك التفت إليها صارخاً « اخرجي ، اخرجي » ثم أمسك بها من ذراعها ، حين رآها تتلكأ هامة بالكلام ، وقذف بها خارج الغرفة ، صافقاً الباب خلفها ، واضعاً خلفه طاولة . بعدئذ التفت ثانية ليواجه أونا صارخاً : « والآن ، أجيبيني » .

غير أنها لم تسمعه — كانت ماتزال في قبضة الشيطان . كان باستطاعة جرجس أن يرى يديها الممدودتين وهما تهتزان وتنفتلان ، طائفتين هنا وهناك على السرير مثل كائنين مستقلين من الكائنات الحية . كان باستطاعته أن يرى الارتعاشات التشنجية تعرو جسدها ، وتمتد إلى أطرافها . كانت تنشج بالبكاء وفي حلقها غصة خانقة — بدت كما لو أن هناك أصواتاً كثيرة جداً تخرج من حنجرة واحدة ، يطارد بعضها بعضاً كأمواج البحر . بعد ذاك بدأ صوتها يرتفع على شكل صرخات راحت تعلو وتعلو إلى أن انفجرت على شكل قهقهات وحشية تحملها جرجس إلى أن شعر بالعجز عن تحمل المزيد ، فوثب إليها ممسكاً بها من الكتفين ، هازاً اياها ، صارخاً في أذنها « كفي عن ذلك . أقول لك ، كفي عن ذلك » .

رفعت أونا عينيها متطلعة إليه من أعماق عذابها ، ثم انكبت بعدئذ على قدميه ، ممسكة بهما بين ذراعيها رغم محاولاته الابتعاد ، متمددة على الأرض تتلوى وتتوجع ، مما جعل جرجس يشعر بغصة تخنقه ، فصرخ ثانية ، وبصوت أكثر وحشية وقسوة من ذي قبل « كفي عن ذلك ، أقول لك » .

هذه المرة أطاعته ، فأمسكت أنفاسها وتمددت بصمت . صمت لايقطعه إلا شهقات نشيجها التي كانت تهز كيانها كله . والدقيقة طويلة طول الساعات ظلت متمددة هناك ساكنة تماماً . إلى أن شعر

زوجها بخوف بارد يطبق قبضته عليه وكل ظنه أنها قضت نحبها ، لكنه ، فجأة ، سمع صوتها ، ضعيفاً واهناً : « جرجس ، جرجس ! »
« ماذا ؟ » قال جرجس.

واضطر لأن ينحني فوقها فصوتها في غاية الضعف . كانت أونا تتوسل إليه بعبارة متقطعة لفظتها بشق النفس : « ثق بي ، صدقني » .

« أصدق ماذا ؟ » صرخ بها .

« صدق أنني – أنني أعرف أفضل – أنني أحبك – ولا تسألني – ماذا فعلت ؟ أوه ، جرجس ، رجاء ، رجاء ، إنه من أجل خيرنا جميعاً – إنه » .

وبدأ يتكلم ثانية ، لكنها اندفعت بكلامها كالمجنونة مانعة اياه من الكلام « لو تفعل ذلك فقط . لو تفعل ذلك فقط – فقط صدقني . لم تكن خطيئتي – لم أستطع الحيلولة دون ذلك – سيكون كل شيء على مايرام – صدقني . إنه لاشيء – لاضرر في الأمر . . أوه ، جرجس. من فضلك . . من فضلك . . » .

كانت تمسك به ، تحاول أن ترفع نفسها لتنظر إليه . وكان باستطاعته أن يشعر بارتعاش الشلل في يديها ، بخفق صدرها الذي كانت تضغطه عليه . أخيراً استطاعت الامساك باحدى يديه فقبضت عليها بصورة تشنجية ، ساحبة اياها إلى وجهها . مغرقة اياها بالدموع ،

« أوه . صدقني . صدقني » . راحت تقول ثانية فصرخ في غضب مسعور « لا . لن أصدقك . . » .

لكنها ظلت متعلقة به . تولول بصوت عال لشدة يأسها « أوه ، جرجس . فكر بما تفعل . ذلك سيحطمنا -- سيحطمنا ، أوه ، لا . يجب ألا تفعل ذلك ، لا . لاتفعله ، لاتفعله . يجب ألا تفعل . سيدفعني ذلك إلى الجنون -- سيقتلني . لا . لا ، جرجس -- أنا مجنونة -- لا . لا شيء هناك . . لاشيء ينبغي أن تعرفه . يمكننا أن نكون سعداء-- يمكن لواحدنا أن يحب الآخر تماماً كما كنا من قبل -- أوه ، من فضلك ، من فضلك ، صدقني » .

غير أن كلماتها جعلته كالمتوحش تماماً ، فأفلت يديه منها ورمى بها جانباً وهو يصرخ « أجيبيني . . عليك اللعنة . . أقول لك أجيبيني » .

لكنها غاصت على الأرض ، وبدأت تبكي ثانية ، بكاء أشبه بنحيب روح ملعونة ، ولم يستطع جرجس تحمل ذلك فضرب طاولة إلى جواره بجمع يده ثم صرخ مرة ثانية بها : « أجيبيني » .

فبدأت تصرخ بصوت عال ، أشبه بصوت حيوان بري : « آه . آه . لا أستطيع ذلك ، لا أستطيع ذلك » .

لكنه صاح بها : « ولماذا لاتستطيعين ؟ » .

« لا أعرف كيف » .

فوثب وأمسك بها من ذراعها ، رافعاً إياها نحو الأعلى ، محدقاً النظر إلى وجهها « أخبريني أين كنت الليلة الماضية . . . هيا . . بسرعة » .

حينذاك بدأت تهمس كلمة بكلمة : « كنت — في — بيت — في — قلب المدينة » .

« أي بيت ؟ ماتعنين ؟ » .

فحاولت اخفاء عينيها مشيحة بوجهها جانباً لكنه أمسك بها فتابعت وهي تشهق « بيت الآنسة هندرسون » .

لم يفهم معنى ذلك في البداية ، فردد كالببغاء « بيت الآنسة هندرسون » ، ثم ، فجأة وكما لو أنه نوع من الانفجار ، انبثقت أمام عينيه الحقيقة المرعبة . فتراجع وهو يترنح صارخاً . حين وصل إلى الجدار أمسك به ، واضعاً يده على جبينه ، محدقاً حوله ، هامساً « يايسوع . . يايسوع . . . » .

بعد لحظة واحدة كان قد وثب عليها ، هي التي كانت تدب عند قدميه . ثم أمسك بها من خناقها صارخاً « أخبريني ، بسرعة . من أخذك إلى ذلك المكان ؟ » .

فحاولت أن تبتعد ، جاعلة سورته تشتد أواراً . في البداية ظن أن الخوف هو الذي جعلها تبتعد أو الألم الذي تعانيه من شدة قبضته — ولم يفهم أنه عذابها وخجلها . . مع ذلك فقد أجابته : « كونور » .

فشهق : « كونور . . الرجل . . . » .

وشدد من قبضته دون وعي منه ، وحين رأى عينيها تنطبقان ، حينها فقط أدرك أنه يخنقها . حينذاك أرخى أصابعه ثم أقعى بجانبها وانتظر إلى أن فتحت أجفانها ثانية . وكانت أنفاسه تلطم وجهها حارة كالنار . أخيراً همس : « أخبريني ، أخبريني كل شيء » .

فتمددت ساكنة تماماً ، وبدأت الكلام بصوت كان يتعذر عليه سماعه لولم يحبس أنفاسه « لم أرد أن أفعل ذلك . . لقد حاولت . . . حاولت ألا أفعله . . لكنني فعلته لانقاذ العائلة — كانت فرصتنا الوحيدة ».

ومرة ثانية ساد سكون مطبق على الغرفة لايقطعه سوى صوت لهاثه . كانت عينا أونا مطبقتين وحين عاودت الكلام ثانية لم تفتحهما « لقد قال لي — أنه سيطردني ، قال لي أنه سيجعلنا جميعاً نفقد أعمالنا وأننا لن نجد مانفعله بعد ذلك أبداً . — كان — يقصد ذلك . . . كان يقصد تحطيمنا » .

بدأت ذراعا جرجس تهتزان حتى غدا من المتعذر عليه تثبيت نفسه ، إذ كان يتأرجح إلى الأمام والوراء وهو يصغي ، أخيراً سألها وهو يشهق : « متى — متى بدأ هذا ؟ » .

« في ليلة من الليالي » أجابت وكأنها في غيبوبة « انها مكيدتهم ، مكيدة الآنسة هندرسون ، كانت تكرهني . وهو — هو يريدني .

اعتاد أن يكلمني — في الخارج على الرصيف . بعدئذ بدأ — يغازلني ، عرض علي مالاً ، توسل إلي — قال إنه يحبني . بعدئذ هددني . كان يعرف كل شيء عنا . كان يعرف أننا نموت جوعاً ، وكان يعرف رئيسك ، ورئيس ماريا . وكان يقول أنه سيميتنا جوعاً — بعدئذ قال إنني إذا قبلت — سنطمئن كلنا على أعمالنا — ستبقى لنا دائماً . وذات يوم أمسك بي . . . ولم أستطع التخلص منه . . إنه . . إنه » .

« وأين كان ذلك ؟ » .

« في ممر الصالة ، ليلاً . . بعد أن ذهب الجميع . لم أستطع منع ذلك . فكرت بك . . بالطفل . . بالأم والأطفال . . كنت خائفة منه . . خائفة أن أصرخ » .

قبل لحظة ، كان وجهها بلون الرماد ، أما الآن فقد بات قرمزياً وبدأت تتنفس بصعوبة من جديد ، ولم ينبس جرجس ببنت شفة .

« كان ذلك قبل شهرين . بعدئذ أرادني أن أذهب — إلى ذلك البيت — أرادني أن أقيم هناك . . بل قال إنه يريدنا كلنا أن نقيم هناك — وأننا لسنا مضطرين لأن نعمل . جعلني أذهب إلى هناك — في الأماسي . أنا قلت لك — لكنك كنت تظن أنني في المصنع . ثم — هطل الثلج ذات ليلة ولم أستطع الرجوع . الليلة الماضية ، توقفت الترامات . شيء تافه كهذا . . شيء تافه يحطمنا جميعاً . حاولت المشي على قدمي — لكنني لم أستطع . لم أكن أريدك أن تعرف . فالأمر سينتهي — سينتهي

بسلام . . وسوف نستمر ، سنستمر كما كنا من قبل ولا داعي لأن يعرف أحد شيئاً . لقد سئمني ، ولسوف يتركني وشأني قريباً . سأضع طفلاً — وسأصبح قبيحة ، لقد قال لي ذلك مرتين ، قال لي ذلك ، الليلة الماضية . وقد رفسني — الليلة الماضية — رفسني أيضاً . والآن ستقتله أنت — أنت ستقتله ، ولسوف نموت » .

قالت هذا كله بغير ارتعاشة ، كانت تتمدد ساكنة كالميتة . لم تتحرك شعرة من أجفانها . وجرجس ، أيضاً ، لم ينبس ببنت شفة ، رفع نفسه إلى جانب السرير ، ثم وقف . ودون أن ينظر إليها نظرة واحدة مضى إلى الباب ثم فتحه . لم ير الزبيبيتا ، هي التي كانت تقف مذعورة في الزاوية ، ثم خرج من المنزل ، عاري الرأس تاركاً الباب الخارجي مفتوحاً خلفه . وفي اللحظة التي وطأت قدماه الشارع انطلق يعدو .

كان يعدو كمن أصابه مس ، أعماه الغضب ، لاينظر يميناً ولا شمالاً . وصل إلى شارع أشلاند قبل أن يجبره الانهاك على تخفيف سرعته ، ثم اندفع إلى ترام مسرع ، بعد أن لاحظه يعبر به ومرق كالسهم إلى داخله . كانت عيناه كعيني الوحش وشعره متطايراً وكان يتنفس بصوت خشن وكأنه ثور مجروح ، لكن ركاب الترام لم يلاحظوا شيئاً من هذا كله — ربما بدا طبيعياً لهم أن يكون لرجل له رائحة جرجس منظر يتطابق مع تلك الرائحة . وبدؤوا يخلون الطريق أمامه كالعادة . بل حتى الجابي

أخذ أجرة الترام وهو على حذر منه ، بأطراف أنامله ثم تركه عند المنصة بمفرده . لم يلاحظ جرجس ذلك — فقد كان ذهنه في مكان آخر تماماً . كانت روحه أشبه بفرن مستعر ، وكان يقف متربصاً ، منتظراً . وقد تجمع على نفسه كما لو أنه يود القفز .

استعاد بعض أنفاسه حين بلغ الترام مدخل الزرائب وهكذا قفز منه مبتعداً ، وشرع مرة ثانية يعدو بأقصى سرعته . كان الناس يلتفتون ويحدقون إليه ، لكنه لم يكن يرى أحداً — كان هناك المعمل ، كان يثب وثباً إلى أن اجتاز المدخل ثم نزل إلى الممر . كان يعرف الغرفة التي تعمل فيها أونا ، وكان يعرف كونور رئيس ورشة التحميل في الخارج . فبحث عن الرجل وهو يثب وثباً إلى داخل الغرفة .

كان عمال العربات منهمكين في أعمالهم ، يحملون الصناديق والبراميل المعلبة من جديد ويضعونها على العربات . وبنظرة سريعة واحدة مسح جرجس الرصيف كله — لم يكن الرجل عليه . لكنه فجأة سمع صوتاً في الممر فوثب في اتجاهه وثباً . وفي اللحظة التالية كان يواجه رئيس العمال .

رئيس العمال هذا ايرلندي ضخم الجثة أحمر الوجه قاسي الملامح تنبعث منه رائحة الخمر . رأى جرجس وهو يجتاز العتبة فشحب لونه . ولثانية واحدة تردد ، وكأنه ينوي الفرار لكن في اللحظة التالية كان مهاجمه قد صار فوقه . رفع يديه كي يحمي وجهه ، لكن جرجس

المندفع بكل مافي جسده وذراعه من قوة لطمه لطمة هائلة بين عينيه تماماً فصرعه أرضاً ، وفي اللحظة التالية كان يرمي بكل ثقله عليه ويطبق أصابعه على عنقه .

بالنسبة لجرجس ، كان وجود هذا الرجل كله يفوح برائحة الجريمة التي ارتكب . كانت لمسة جسده تدفعه للجنون — تجعل كل عصب في جسمه يرتعش ، تثير كل الشياطين الكامنة في روحه . لقد نفذ رغبته في أونا — هذا الوحش . اذن لينل عقابه . لينل عقابه . انه دوره الآن . وانبثق الدم من كل مكان تحته وهو يصرخ كالمجنون ، رافعاً خصمه إلى الأعلى ضارباً رأسه بالأرض يبتغي تهشيمه .

وبالطبع ، ساد المكان كله هرج ومرج شديدان ، فالنساء بدأن الصراخ ، أغمي عليهن ، والرجال اندفعوا إلى الداخل . كان جرجس منكباً على أداء مهمته انكباباً جعله لايعرف شيئاً عن هذا كله ، وربما لم يعرف إلا بالكاد أن الناس كانوا يحاولون التدخل بينه وبين ضحيته ، لكنهم لم يستطيعوا ذلك حتى أمسك نصف دستة من الرجال بكتفيه وساقيه وسحبوه بعيداً ، حينها فقط أدرك أنه خسر فريسته . وبلمحة عين انكب مرة ثانية وغرز أسنانه في وجنة الرجل وحين تركها كان فمه يقطر دماً وشرائط صغيرة من جلد وجنته تعلق بين أسنانه .

وضعه الرجال على الأرض ممسكين به من ذراعيه وساقيه ، ومع ذلك لم يثبتوه إلا بصعوبة بالغة . كان يعارك كالنمر ، متلوياً ، ملتفاً .

قاذفاً بنفسه هنا وهناك محاولاً الاندفاع من جديد باتجاه خصمه الفاقد الوعي . إلا أن عمالاً آخرين اندفعوا إلى الداخل ، حتى صار هناك جبل صغير من الأجسام والأطراف الملتفة ، تعلو وتنخفض وهي تشق طريقها خارج الغرفة . في النهاية وبفضل ثقلهم المحض ، كتموا أنفاسه ، ثم حملوه إلى مركز شرطة الشركة حيث ظل ممدداً هناك إلى أن استدعوا عربة دورية نقلته بعيداً .

- ١٦ -

عندما نهض جرجس مرة ثانية كان قد عاد اليه هدوؤه تماماً ، اذ كان مستنفد القوى ، شبه مغشى عليه ، فضلاً عن أنه رأى بذلات الشرطةالزرقاء .دفعه هؤلاء إلى داخل عربة دورية يراقبه نصف دستة منهم وقد ابتعدوا عنه ماأمكن بسبب رائحة السماد ، بعدئذ وقف امام طاولة الرقيب ، قدم اسمه وعنوانه ، ثم واجه تهمة التهجم والاعتداء على الآخرين . وفي طريقه إلى الزنزانة لعنه شرطي ضخم الجثة لانه سلك ممراً خاطئاً ثم اضاف على لعناته رفسة على قفاه حين لم يسرع كما ينبغي ، مع ذلك لم يرفع جرجس عينيه — كان قد مضى عليه في باكنجتاون سنتان ونصف وهو يعرف مامعنى الشرطة . فحياة الانسان نفسها قد تثير حنقهم هنا داخل عرينهم ، وليس امراً بعيد الاحتمال ابداً ان يتكوم عليك لأقل هفوة ترتكبها عشرة أو خمسة عشر منهم ليحولوا وجهك إلى كيس تدريب على الملاكمة ، ولن يكون امراً غير عادي

ان تتهشم جمجمتك في خضم الزحام – ويسجلوا في تقريرهم انك كنت ثملاً وانك سقطت ارضاً وليس ثمة من يهتم بك او يبالي .

وهكذا اغلق باب القضبان الحديدية على جرجس الذي جلس على مقعد ودفن وجهه بين يديه . لقد كان وحيداً ولديه العصر كله والليل بطوله كي يفكر .

في البداية كان أشبه بحيوان مفترس أتخم نفسه . كان في حالة من الخدر المتبلد الذي ينتج عن الرضى الذاتي . لقد عاقب الوغد العقاب الذي يستحق – انما ليس كما كان سيعاقبه لو اعطوه مهلة لدقيقة اخرى ، لكنه عقاب جيد على اية حال . في اطراف اصابعه مايزال يحس بوخز خفيف من شده على بلعوم ذلك الرجل . لكن بعدئذ ومع رجوعه إلى حالته الطبيعية بدأ يرى شيئاً فشيئاً ماوراء رضاه الآني ، بدأ يرى ان قتله لرئيس العمال لن يفيد أونا – لن يذهب بالاهوال التي تواجهها ولن يمحو الذكرى التي تنتابها ايامها ولياليها . لن يطعمها ولن يطعم طفلها ، فهي بالتأكيد ستفقد عملها ؛ اما هو – فلا يعلم الا الله ماسيحدث له .

ظل حتى منتصف الليل يذرع زنزانته جيئة وذهاباً . يصارع كوابيسه ، وحين استنفدت قواه تماماً تمدد على الارض محاولاً النوم ، انما وجد ، وللمرة الاولى في حياته ، ان دماغه أكبر بكثير مما يحمل رأسه . في الزنزانة المجاورة كان ثمة سكير ضرب زوجته وفي الزنزانة

التالية كان مهووس يصرخ ويزعق . عند منتصف الليل فتحوا المخفر للمتسكعين المشردين الذين كانوا يزدحمون قرب الباب ، يرتعشون من برد الشتاء ، ويتجمعون في الممر الواقع خارج الزنزانات . بعضهم تمدد على الارض الحجرية العارية . وبعضهم الآخر ظل جالساً وهو يضحك ويتكلم ، يلعن ويسب ويتشاجر مع الآخرين . الهواء نفسه افسدته رائحة انفاسهم . مع ذلك ورغم هذا كله ، شم بعضهم رائحة جرجس وانزلوا عليه لعنات السماء ، بينما كان يتمدد في زاوية بعيدة من زنزانته يعد نبضات الدم في شريان جبهته .

كانوا قد احضروا له عشاءه وهو « دفرز ودوب » — أي كتل كبيرة من الخبز الجاف على صحن من الصفيح وقهوة تدعى « دوب » لانها معالجة بعقار يهدىء المساجين . لم يكن جرجس يعرف هذا ، والا لكان ابتلع ماقدموه له بسرعة كبيرة ، فقد كان كل عصب فيه يرتعش غضباً وخجلاً . مع اقتراب الصباح ساد الصمت المكان ؛ فنهض وراح يذرع زنزانته جيئة وذهاباً . عند ذاك وفي اعماق روحه هب شيطان احمر العينين ، فظيع القسوة وراح يقطع نياط قلبه . لم يكن يتألم على نفسه - ترى أي شيء في الدنيا يمكن ان يهتم به رجل يعمل في معمل اسمدة دورهام ! ! ماهو ياترى طغيان السجن اذا ماقورن بطغيان الماضي ، طغيان الشيء الذي حدث ولايمكن تذكره ، طغيان الذكرى التي لايمكن محوها ابداً ؟ — كانت فظاعتها تدفعه إلى الجنون

فيمد يديه للسماء طالباً الخلاص منها — وما من خلاص . فليس هناك قوة حتى في السماء ذاتها يمكنها ان تلغي الماضي وتمحوه . إنه الشبح الذي يظل امام العينين يلاحق الانسان ، يقبض عليه . يصرعه ارضاً . آه لو استطاع رؤيته من قبل فقط — وكان باستطاعته ان يراه من قبل اولم يكن احمق . لقد لطم جبهته بيديه لاعناً نفسه لانه سمح لأونا ان تعمل حيث عملت ، لانه لم يحل بينها وبين المصير الذي كان الجميع يعلمون انه يحل بكل من يعمل هناك . كان ينبغي ان يبعدها حتى لو كان عليهم ان يرتموا صرعى الجوع في شوارع ومجارير شيكاغو ! والآن آه ! ! لايمكن ان يكون ذلك صحيحاً . انه فظيع ، فظيع مروع .

شيء لايستطيع الانسان مواجهته ، وكانت تمسك به ارتعاشة جديدة كلما حاول التفكير بذلك . لا ، هو عبء لايحتمل ، لايمكن للانسان ان يعيش تحت وطأته . هي ، اونا ، لاذنب لها ولاجريرة — كان يعلم انه قد يغفر لها ، وقد يركع امامها على ركبتيه ، لكنها لن تستطيع النظر إلى وجهه مرة ثانية ، لن تكون زوجته مرة ثانية ، ستقتلها شدة خجلها — وليس ثمة خلاص آخر فالافضل ان تموت .

كان هذا واضحاً وبسيطاً ، لكن مع ذلك كان ثمة تناقض شديد . فحينما يفر من كابوسه ، يجد أنه يتألم اشد الالم لرؤيته اونا وهي تموت جوعاً ؛ لقد وضعوه في السجن وربما يبقونه هنا مدة طويلة ، سنوات . من يعلم ؟ ومن المؤكد ان اونا لن تستطيع مزاولة عملها ثانية ، هي

المحطمة المهشمة وقد تفقد الزبيينا وماريا عملهما ايضاً - اذا ما اراد ذلك الشيطان المدعو كونور ان يركب رأسه ويحطمهم . في هذه الحالة سيصبحون جميعاً بلا عمل - وحتى لو لم يفعل ذلك ، فلن يكون بوسعهم كسب قوتهم - حتى لو ترك الاولاد المدرسة ، فلن يكون باستطاعهم دفع الديون والاقساط بدون راتبه وراتب اونا . كان كل مايملكونه في هذه الدنيا بضعة دولارات لاغير - فقد دفعوا اجرة المنزل منذ اسبوع فقط وبعد ان كان مستحقاً لمدة اسبوعين ، ولسوف يتوجب عليهم الدفع خلال اسبوع ، ولن يجدوا مالاً عند ذاك لدفع الاجرة القادمة - وهكذا سيخسرون منزلهم بعد كفاحهم الطويل المرير كله . كان الوكيل قد وجه لهم حتى ذلك الحين ثلاثة انذارات ولن يتحمل أي تأخر جديد . لكن ، ربما هي خطة من جرجس ان يفكر بالمنزل في الوقت الذي تملأ رأسه اشياء أخرى لايمكن التحدث بها . لكن ، كم تراه قاسى في سبيل منزله هذا ؟ كم تراهم جميعاً قاسوا ؟ لقد كان املهم الوحيد بالراحة ، طالما هم على قيد الحياة ، لقد وضعوا فيه كل ما يملكون - وهم اناس كادحون . اناس فقراء مالهم هو كل قوتهم ، كل مافيهم روحاً وجسداً ، انه الشيء الذي به يعيشون وبفقدانه يموتون .

لكنهم سوف يخسرونه . سيطردون إلى الشارع . وسيضطرون للالتجاء إلى علية قارسة البرد - ليعيشوا او يموتوا حسب الظروف .

كان لدى جرجس الليل بطوله -- وكذلك الكثير من الليالي الاخرى -- للتفكير بهذا الامر . وتقليبه على أوجهه الكثيرة ، فقد كان يعيش المشكلة وكأنه هناك في الخارج . انهم سيبيعون اثاثهم ، ثم يغرقون في الديون لأصحاب المخازن الذين سيرفضون بعد ذلك اعطاءهم أي شيء ديناً . بعدئذ يبدؤون الاستدانة من تريدفيلاس الذي بلغ محل معلباته حافة الهاوية . ثم قد يساعد الجيران قليلاً -- يادفيغا المريضة المسكينة قد تأتي لهم ببعض القروش التي ادخرتها ، كما تفعل دائماً حين ترى أناساً يوشكون على الموت جوعاً ، وقد يأتي لهم تاموزيوس كوتزلايكا بأجرة عزفه على الكمان الليل بطوله . وهكذا سيكافحون للبقاء واقفين على ارجلهم إلى ان يخرج من السجن -- ام تراهم حين يعلمون انه في السجن ، سيتمكنون من اكتشاف شيء ما عنه ؟ هل سيسمحون لهم برؤيته ؟ أم ان جزءاً من عقوبته ان يبقوه جاهلاً بما يحل بهم ؟ .

كان تفكيره ينصب دائماً على اسوأ الاحتمالات . فهو يتصور اونا مريضة تتعذب ، وماريا وقد طردت من عملها ، وستانيسلاوفاس الصغير غير قادر على الذهاب إلى العمل بسبب الثلج ، والعائلة كلها مرمية في الشارع . ياالله الكلي القوة ! ! هل سيلقونهم في الشارع فعلاً كي يموتوا هناك ! ؟ . ألن يكون هناك اية مساعدة حتى في تلك الحالة ؟ -- هل سيطوفون في الثلج إلى ان يتجمدوا ؟ لم يكن جرجس قد رأى اية جثث في الشوارع لكنه رأى اناساً يغوصون ويختفون .

دون أن يعرف أحد اين . ورغم انه كان يوجد في المدينة مكتب انقاذ ورغم انه كان في منطقة الزرائب منظمة اجتماعية للبر والاحسان الا أنه لم يسمع طوال المدة التي عاشها هنا بأي عمل لهما فعلاً . فهما لاتعلنان عن نشاطاتهما ؛ نظراً لان الطلبات عليهما أكثر بكثير من ان تستطيعا تلبيتها .

هكذا ظلت الافكار تأخذ وتجيء به حتى الصباح-عند ذاك وضعوه مرة أخرى في عربة الدورية جنباً إلى جنب مع السكير ضارب زوجته والمهووس وعدة سكارى عاديين « ومتشاجري حانة » . ولص من لصوص المنازل ورجلين كان قد القي القبض عليهما لاختلاسهما لحماً من دور التعليب . ثم دفعوهم جميعاً إلى غرفة كبيرة ذات جدران بيضاء ورائحة عفنة ومزدحمة بالناس . في الواجهة ، وعلى منصة عالية يفصلها عن بقية القاعة حاجز خشبي كان يجلس رجل ضخم الجثة متورد الوجه ، على انفه الكثير من البقع الارجوانية المحمرة .

ايقن صديقنا ، وبغير سبب واضح ، انهم سيبدؤون محاكمته . فتساءل في سره عن التهمة . أترى مات غريمه ؟ واذا كان الامر كذلك فهل سيشنقونه أم يضربونه حتى الموت ؟ - كان جرجس يتوقع كل شيء ، هو الذي يجهل كل مايتعلق بالقانون ، مع ذلك كانت اذناه قد التقطتا من الهمسات مايكفي لان يعرف ان الرجل ذا الصوت العالي الجالس على المقعد قد يكون القاضي سيء السمعة كالاهان ، الذي

كان الناس في باكنجتاون يتحدثون عنه بانفاس مكتومة . كان « بات » كالاهان — او « غرولر » كالاهان كما كانوا يعرفونه قبل ان يصعد منصة القضاء — قد بدأ حياته كصبي جزار وملاكم مشهور محلياً . وقد دخل عالم السياسة حالما تعلم الكلام ، وكان يدير مكتبين في آن معاً قبل ان يبلغ سن الانتخاب واذا كان سكولي هو الابهام فان « بات » كالاهان هو الاصبع الاولى في اليد غير المرئية التي يفرض بها اصحاب دور التعليب سيطرتهم على سكان المنطقة . فليس هناك سياسي واحد في شيكاغو يحوز على ثقتهم أكثر من هذين الاثنين ، وكانا قد حازا عليها منذ زمن طويل سيما وان « بات » هذا كان وكيل اعمال دورهام الكبير في مجلس المدينة ، دورهام ذلك التاجر العصامي الذي صنع نفسه بنفسه في تلك الايام الاولى حين كانت مدينة شيكاغو كلها مطروحة في المزاد . لكن « غرولر » تخلى عن ادارة مكتبيه في المدينة في وقت مبكر من حياته المهنية — صارفاً جل اهتمامه لكسب قوة حزبية جيدة ، مكرساً بقية وقته للاشراف على حاناته رديئة السمعة ومواخيره . لكنه في السنين الاخيرة ، عندما بدأ اولاده يكبرون ، شرع يقدر « المحترمية » وصنع من نفسه قاضياً ، وهو مركز يناسبه تماماً بسبب نزعته المحافظة الشديدة واحتقاره للاجانب .

جلس جرجس يحدق حوله في القاعة ساعة او ساعتين . كان يأمل ان يأتي احد افراد العائلة ، الا ان امله خاب . اخيراً قاده احدهم إلى مقربة من الحاجز ، فظهر قبالته محام من محامي الشركة . كان كونور

تحت رعاية الطبيب ، شرح المحامي باختصار . واذا سمح « سعادته »
فليحجز السجين لمدة اسبوع — لكن سعادته قال على نحو سريع
« . ثلاثمائة دولار » .

راح جرجس ينقل بصره بين القاضي والمحامي بحيرة شديدة .
« هل لديك من يكفلك ؟ » سأل القاضي ، ثم بدأ كاتب كان يقف
بجوار جرجس يشرح له معنى قول القاضي . فهز رأسه وقبل ان ينسنى
له معرفة ماحدث كان رجال الشرطة يقودونه بعيداً مرة ثانية . لقد
اخذوه إلى غرفة كان بعض المساجين الآخرين ينتظرون فيها . وهناك
مكث إلى أن انفضت المحكمة ، بعدها نقلتهم عربة الدورية في رحلة
اخرى طويلة وقارسة البرد إلى سجن المقاطعة الذي يقع في الطرف
الشمالي من المدينة ، على بعد تسعة او عشرة اميال من الزرائب .

هنا فتشوا جيوب جرجس ولم يتركوا له الا نقوده التي لم تكن تزيد
على خمسة عشر سنتاً . بعدئذ قادوه إلى احدى الغرف وامروه أن يتعرى
كي يستحم . بعد ذلك كان عليه ان يجتاز رواقاً طويلاً عابراً بالزنزانات
ذات الابواب الحديدية التي يسجن فيها المساجين الخصوصيون — الدفعة
اليومية من القادمين الجدد وكلهم عراة تماماً بكل مايثير ذلك من اقوال
وتعليقات . طلبوا من جرجس ان يمكث في الحمام أكثر من اي سجين
آخر على امل أن يتخلص من ذرات الفوسفات والحموض العالقة به انما
عبثاً . كان المساجين يوضعون كل اثنين في زنزانة ، الا ان زنزانة
واحدة كانت قد ظلت فارغة في ذلك اليوم ، وكان هو الوحيد فيها .

كانت الزنزانات ثلاثاً ثلاثاً تنفتح على الاروقة . وكانت زنزانته بطول سبعة اقدام وعرض خمسة ، ارضها من الحجر وعليها دكة من الخشب ولم تكن هناك نافذة — الضوء الوحيد الذي يدخلها انما يجيء من نوافذ قرب السقف في احدى نهايات الباحة الخارجية . وكان هناك سريران ضيقان واحدهما فوق الآخر ، وعلى كل منهما فراش من القش وزوج من البطانيات الرمادية — تراكم عليها الوسخ حتى غدت متصلبة كاللوح تعشش فيها البراغيث والبق والقمل . وعندما رفع جرجس الفراش اكتشف تحته طبقة من الصراير التي انطلقت تعدو مسرعة وقد اصابها من الذعر مااصابه هو نفسه .

هنا جاؤوا له مرة أخرى بعشائه الاول « دفرزودوب » اضافة لزبدية حساء ، كان كثير من المساجين يطلبون طعامهم من المطاعم الا ان جرجس لم يكن يملك نقوداً لذلك . وكان لدى البعض كتب للقراءة وورق للعب وشموع يشعلونها ليلاً ، غير ان جرجس كان مفرداً محروماً من هذا كله غارقاً في العتمة والصمت . كذلك لم يستطع جرجس النوم ، فقد عادت اليه مرة اخرى الافكار ذاتها وراحت تجلده بسياط حامية تقع كالنار على ظهره العاري . حين خيم الظلام راح جرجس يذرع زنزانته جيئة وذهاباً مثل وحش يحاول تحطيم قضبان قفصه . فقد كان لشدة انفعاله ، يقذف بنفسه من حين لآخر على الجدران داقاً عليها بيديه ، إلى ان جرحته الجدران وأدمته — فقد كانت باردة لاترحم كالرجال الذين بنوها .

في مكان بعيد كان ثمة برج كنيسة وكان ناقوسه يقرع الساعات واحدة بعد الاخرى . وحين حل منتصف الليل كان جرجس يتمدد على الارض ورأسه بين ذراعيه . يستمع لدقات الناقوس الذي ، بدلاً من ان يغرق في الصمت اصدر في النهاية رنيناً طويلاً مفاجئاً . فرفع جرجس رأسه ، ترى مامعنى ذلك ؟ — حريق ! ! ياالله ! ! لنفترض انه شب حريق في هذا السجن لا . . لا . . . — حينذاك سيصدر رنين ذو لحن خاص . اما الآن فهناك رنين اجراس عادي . يبدو انهم يوقظون المدينة — كل المدينة من ادناها إلى اقصاها ، كانت هناك نواقيس ، ترن رنات عنيفة ، ولدقيقة كاملة شعر جرجس انه ضاع تماماً في فيافي الحيرة . ثم في لحظة مفاجئة ، بزغ معنى ذلك كله امام عينيه — انها ليلة عيد الميلاد .

ليلة عيد الميلاد ! لقد نسي ذلك كلياً وشعر ببوابات الفيضان تتحطم ، بزوبعة من الذكريات والاحزان الجديدة تندفع إلى رأسه . في ليتوانيا النائية كانوا يحتفلون بعيد الميلاد ، وخيل لجرجس وكأنما ذلك بالامس فقد رأى نفسه مرة ثانية طفلاً صغيراً مع اخيه المفقود وابيه المتوفى في حجيرتهما في اعماق الغابة ، حيث كان قد سقط الثلج طوال النهار والليل ودفنهم بعيداً عن العالم . لقد كانوا يعيشون في مكان قصي من ليتوانيا يبعد كثيراً عن سانتا كلاوس ، الا انه لم يكن يبعد كثيراً عن الآلام ونية الانسان الطيبة ، عن الرؤية المشوبة بالدهشة

للمسيح الطفل . بل هنا في باكنجتاون لم يكونوا قد نسوا ذلك — اذ ظلت بعض اشعة تلك الرؤية تتخلل ظلمتهم . ليلة عيد الميلاد الماضي وطوال نهاره ظل جرجس يكد ويشتغل في احواض الذبح وأونا في صر اللحم المحفوظ لكنهما رغم ذلك وجدا بقية من قوة لأخذ الاولاد في نزهة في الشارع كي يروا واجهات المحلات المزينة بأشجار عيد الميلاد والمشعشعة بالانوار الكهربائية . في احدى النوافذ كانت هناك اوزة حية ، وفي اخرى اشكال عجيبة من السكاكر — زهرية ، بيضاء ، كبيرة إلى حد يكفي لإطعام غول ، واقراص كاتو عليها ملائكة مجنحة ، وفي نافذة ثالثة كانت هناك صفوف من ديوك الرومي الصفراء السمينة مزينة كلها بوريدات صغيرة . كذلك كان هناك ارانب وسناجيب مدلاة ، وفي رابعة مجموعة كبيرة من الدمى — دمى جميلة بملابس زهرية وخراف غزيرة الصوف وطبول وقبعات جنود ، ولم يذهبوا دون ان يأخذوا حصتهم من هذا كله .

لقد ملؤوا سلة كبيرة بكل ماتسوقوه لهذه المناسبة السعيدة — شرائح مشوية من لحم الخنزير مع ملفوف وبعض ارغفة الجاودار ، وزوج قفازات لأونا ودمية مطاطية تزقو ووعاء قرني الشكل اخضر صغير مليء بالحلويات التي كانت ستدلى من نافورة الغاز لتنظر اليها دستة من العيون الملأى بالشوق .

لم يكن باستطاعة حتى نصف عام من العمل على آلات النقانق

وصناعة الاسمدة ان يقتل فكرة عيد الميلاد في اذهانهم . وشعر جرجس بغصة خانقة في بلعومه وهو يتذكر تلك الليلة التي لم تعد فيها أونا إلى المنزل واخذته تيتا الزبيبتا جانباً لتريه بطاقة معايدة قديمة كانت قد اشترتها من محل قرطاسية بثلاثة سينتات — صحيح انها كانت وسخة بالية الا انها كانت ذات الوان زاهية ملأى برسوم ملائكة وحمامات . وكانت قد مسحت كل البقع عنها ، وفي نيتها ان تضعها على رف الموقد ، حيث يظل باستطاعة الاولاد رؤيتها ، فهز جرجس نشيج حاد امسك به من تلابيبه لهذه الذكرى — وسيقضون عطلة ميلادهم في لجة البؤس ، واليأس ؛ هو في السجن واونا مريضة وبيتهم في حالة من الخراب آه ماافظع ذلك ! ! ترى لماذا لم يدعوه وشأنه على الاقل ؟ — لماذا ، بعد ان اغلقوا عليه ابواب السجن ، كان ينبغي ان يقرعوا موسيقى الميلاد في اذنيه .

لكن ، لا ، نواقيسهم لاتقرع من اجله — عيد ميلادهم لايعنيه . انهم بكل بساطة لايحسبون حسابه . فليست له اية اهمية — كان قد ألقي به جانباً كشيء من سقط المتاع ، جيفة حيوان ما . لكنه أمر فظيع فظيع . زوجته قد تموت ، ابنه قد يقضي جوعاً ، عائلته كلها قد تهلك من البرد — ومع ذلك فانهم مايزالون يقرعون موسيقى عيد الميلاد ، ياللسخرية ! ! . كل هذا عقاب له ! ! لقد وضعوه في مكان لايمكن للثلج ان يدخله ، لايمكن للقرس ان ينخر عظامه فيه وهم يأتون له بالطعام والشراب . لماذا ، بحق السماء ! ! ان كان لابد من معاقبته

فلماذا لا يضعون عائلته في السجن ويدعونه خارجاً ؟ ماذا لايجدون طريقة لمعاقبته افضل من تركهم ثلاث نساء ضعيفات وستة اولاد لاحول لهم ولاطول يهلكون جوعاً وبرداً ؟ .

ذلك هو قانونهم ، تلك هي عدالتهم .. انتصب جرجس على ساقيه وهو ينتفض من فرط الانفعال ، يداه مشدودتان ، ساعداه إلى الاعلى وروحه كلها تتقد حنقاً وتحدياً . عليهم وعلى قوانينهم عشرة آلاف لعنة ! ! عدالتهم اكذوبة ، اكذوبة كريهة غادرة ، شيء فظيع كريه لايناسب سوى عالم الكوابيس . انها مهزلة براقة المظهر تثير الاشمئزاز — ليس هناك عدل . ليس هناك حق . لامكان في هذا العالم الا للقوة ، للطغيان ، للبغي والتسلط بلا حدود او قيود ، انهم يسحقونه تحت كعابهم ، يلتهمونه روحاً وجسداً . لقد قتلوا والده العجوز ، حطّموا زوجته ، سحقوا عائلته ، ركعوها ، والآن هاهم ينهون امره . فليس ثمة فائدة منه — ولانه يتدخل في شؤونهم ، يحشر انفه في امورهم ، ينبغي ان ينتهوا منه كلياً . . لقد وضعوه خلف القضبان ، كما لو انه حيوان مفترس ، شيء بلا حس او عقل ، بلا حقوق او عواطف ، بغير مشاعر او احاسيس ، بل لايمكنهم ان يعاملوا وحشاً كما يعاملونه . ترى هل هناك رجل بكامل وعيه يصيد حيواناً برياً ويترك صغاره تموت بعده ؟

كانت ساعات منتصف الليل هذه ساعات مخيفة بالنسبة لجرجس .

فيها شاهد مولد تمرده ، خروجه على القانون ، كفره بكل شيء .
لم يكن لدى الرجل من الفطنة مايؤهله لتعقب آثار الجريمة الاجتماعية حتى جذورها — لم يكن باستطاعته القول ان السبب هو مايدعوه الناس باسم « النظام »وان هذا النظام هو الذي يمرغه بالتراب ، وان اصحاب دور التعليب ، سادته ، هم الذين يصنعون القانون فيصنعونه على هواهم ، وانهم هم الذين يكشرون عن انيابهم في وجهه من منصة القضاء .
لم يكن يعلم الا انه مظلوم وان العالم هو الذي يمارس عليه هذا الظلم ، وان القانون ، المجتمع ، بكل مافيه من سلطات وقوى يناصبه العداء ، في كل ساعة كانت نفسه تزداد قناعة ، وفي كل ساعة بات يحلم احلاماً جديدة عن الانتقام ، التحدي ، السخط ، الكراهية المسعورة .

« شر الاعمال ، مثل كل الاعشاب السامة ،
تترعرع تماماً في اجواء السجون
ولا يضيع ويهدر هناك
الا الجانب الحسن من الانسان
فالعذاب الشديد هو الذي يحرس ابواب الحديد
.. واليأس هو الذي يقف خلفها بالمرصاد »

كذلك كتب شاعر من الشعراء رأى من العالم عدالته —

« لست ادري ان كانت القوانين على صواب

ام على خطأ ،

بل كل ماندريه نحن الذين تضمنا السجون

هو ان الاسوار متينة

تخفي جحيمها عن الأعين

فما يجري في داخلها

لايمكن للإله ولا لرسله

ان يروه قط . .

— ١٧ —

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، سمحوا لجرجس بالخروج كي يأتي بماء يغسل به زنزانته — وهي مهمة اداها جرجس باخلاص شديد رغم ان معظم السجناء يتهربون منها إلى ان تصبح زنزانتهم في حالة من القذارة تجبر الحراس على التدخل . بعدئذ قدموا له وجبة اخرى من « الدفرز والدوب » ثم سمحوا له بثلاث ساعات تنفس ضمن باحة طويلة ذات جدران اسمنتية وسقف من الزجاج . هنا كان كل نزلاء السجن يزدحمون معاً .

في احد جوانب الباحة كان يوجد مكان للزوار يقطعه حاجزان سميكان متينان يفصل بينهما حوالي قدم من الفراغ . بحيث لا يمكن

لاي شيء ان ينتقل بين المساجين والزوار . هنا راقب جرجس بانفعال شديد ، انما لم يأت أحد لرؤيته . لكن ماان عاد إلى زنزانته ، حتى فتح الحارس الباب وادخل سجيناً آخر شاباً انيقاً ذا عينين زرقاوين وشاربين خفيفين وقوام رشيق . هز برأسه لجرجس ثم بدأ ، والحارس يغلق الباب عليه ، يحدق فيما حوله بعين متفحصة .

اخيراً قال وهو يرمق جرجس بنظرة سريعة ثانية « حسناً يازميل ، صباح الخير » . فأجابه جرجس : « صباح الخير » .

فأضاف الزميل : « سجن مناسب في عيد الميلاد هذا ، أليس كذلك ؟ » .

وهز جرجس برأسه .

فمضى القادم الجديد إلى السريرين ثم بدأ بتفتيش البطانيات . اخيراً رفع الفراش ثم تركه يسقط هاتفاً : « ياالهي ! ! ذلك الاسوأ اذن ! » . ثم رشق جرجس بنظرة سريعة قائلاً « يبدو ان احداً لم ينم فيه الليلة الماضية . لم تستطع تحمله اليس كذلك ؟»

فقال جرجس « لم استطع النوم الليلة الماضية ».

« ومتى دخلت ؟ »

« امس »

فجال الآخر بنظره في الزنزانة مرة ثانية ثم غضن انفه « ثمة رائحة كرائحة الشياطين هنا . »

قال فجأة « ماهي » ؟

فأجاب جرجس « انها رائحتي »

« . . رائحتك ؟ »

« . . اجل »

« ألم يجعلوك تغتسل ؟ »

« بلى ، الا انها لاتذهب بالاغتسال . »

« فماهي ؟ »

« سماد »

« سماد يااللعنة . . فماانت ؟ »

« أعمل في المسلخ ، او بالأحرى عملت حتى ذلك اليوم — والرائحة في ملابسي » ، فقال القادم الجديد « هذا جديد علي كنت اظن انني اقف بمفردي حيالهم .

ماسبب دخولك ؟ السجن »

« ضربت رئيسي »

« . . أوه . . . هكذا . . وماذا فعل لك ؟ »

« عاملني معاملة خسيسة »

« ارى ذلك . . اذن انت مايسمونه بالعامل الشريف »

فسأله جرجس « ومن انت ؟ »

فأجاب الآخر ضاحكاً « انا ؟ . . يقولون انني لص من لصوص الليل . . »

«ومالص الليل ؟ » سأله جرجس .

فأجاب الآخر « صناديق واشياء من هذا القبيل » .

« اوه » قال جرجس مندهشاً وهو يحدق إلى زميله تطغى على سيمائه الحوت « تعني انك تقوم بأعمال السطو . . تحطم الاقفال و . . . و . . ».

« اجل » قال الآخر ضاحكاً « هذا مايقولونه »

لم تكن سنّه تزيد على الثانية او الثالثة والعشرين ، على مايبدو ، لكن جرجس اكتشف فيما بعد انه في الثلاثين . كان يتكلم كرجل متعلم ، اشبه بمن يدعوهم الناس « بالجنتلمان » .

سأله جرجس « ولهذا السبب انت هنا » ؟

فجاءه الجواب « كلا ، انا هنا لتصرف فوضوي ، فقد جنوا لعجزهم عن توفير أي دليل ضدي . »

« ما اسمك » ؟

فتابع الشاب كلامه بعد وقفة قصيرة « اسمي دوان . جاك دوان . لي اكثر من عشرة اسماء الا ان هذا اسمي في الشركة . » ثم جلس على الارض مستنداً بظهره إلى الجدار مقاطعاً مابين ساقيه واستأنف الكلام ببساطة ، فسرعان ماجعل من جرجس صديقاً له — كان من الواضح انه رجل ذو تجربة كبيرة في هذه الدنيا ، معتاد على التعامل مع كافة انواع الناس ولا يأنف كثيراً من محادثة انسان هو مجرد عامل ، فقد جعل جرجس يفضي بكل مافي نفسه وسمع كل شيء عن حياته — ماعدا ذلك الشيء الذي لايمكن ذكره ابداً . بعد ذلك روى لجرجس قصة حياته ، وكان راوية قصص رائعاً . فمجيئه إلى السجن لم يكن يعكر مزاجه على مايبدو ، وقد « دخله مرتين » من قبل كما كان يتلقى ذلك كله بترحيب العابث . فالانسان يستطيع بما خلفه وراءه من نساء وخمر وابتهاج ان يتحمل مثل هذه الراحة بين الفينة والفينة .

بالطبع تغيرت نظرة جرجس إلى حياة السجن بقدوم زميله ، فهو لم يعد يدير وجهه إلى الجدار ويكفهر . كان عليه ان يحدثه حين

يحدثه هذا ، ولم يكن باستطاعته ان يمنع نفسه من الاهتمام بمحادثة دوان – اول انسان متعلم يتحدث معه في حياته كلها . كيف يستطيع ياترى ان يمنع نفسه من الاصغاء – مندهشاً للرجل وهو يروي له مغامراته بعد منتصف الليل وفراراته المليئة بالمخاطر ، مآدبه العامرة وحفلات الجنس الجماعية ، والثروات الطائلة التي يبددها في ليلة واحدة . كان الشاب يشعر بنوع من الازدراء الخفي لجرجس باعتباره صنفاً من اصناف بغال الشغل ، لكنه كان يشعر ايضاً بظلم العالم وبدلاً من ان يتحمل هذا الظلم بصبر واناة ، كان يرد الضربات للعالم . كان يضرب بقسوة ، ويضرب طوال الوقت – فهناك حرب مشتعلة الاوار بينه وبين المجتمع . كان الشاب قاطع طريق ظريفاً ، يقيم بين ظهراني عدوه من غير خجل او وجل . لم يكن دائماً هو الظافر ، الا ان الهزيمة لم تكن تعني له العدم ولم يكن ثمة ضرورة لان يتفطر قلبه اذا ماانهزم .

في صميمه كان شخصاً طيب القلب – إلى حد كبير جداً ، على مايبدو . فهو لم يرو قصته لجرجس في اليوم الاول او الثاني بل في الساعات الطويلة التي اعقبت دخوله ولم يكن لديهما ما يقولانه سوى الحديث ، ولا موضوع لحديثهما سوى نفسيهما . كان جاك دوان من الشرق ، تربية احدى الكليات ، فقد درس الهندسة الكهربائية . بعدئذ اصاب والده سوء حظ في اعماله فقتل نفسه تاركاً وراءه زوجة

وابناً وابنة اصغر منه . كذلك ، كان هناك الاختراع الذي اخترعه دوان . ولم يستطع جرجس ان يفهم ذلك بوضوح ، الا انه كان اختراعاً ذا علاقة بالارسال البرقي ، اختراعاً على قدر كبير من الاهمية على مايبدو — وكان يدر ثروة كبيرة ، ملايين الدولارات . الا ان الشركة الكبيرة سلبته حقه في هذا الاختراع . فعلق في قضايا ومحاكم تركته بعدها وقد اضاع كل مايملك . بعدئذ اعطاه احدهم بخشيشاً في سباق خيل فحاول ان يسترد ثروته بمال شخص آخر واضطر لان يفر وكانت تلك هي البداية . سأله جرجس ماالذي دفعه للسطو على الخزائن — فهي بالنسبة لجرجس مهنة غريبة يخيفك حتى التفكير بها فأجابه الزميل بأن السبب هو رجل النقابة — وشيء يقود إلى شيء آخر . سأله جرجس ألم يكن يفكر بعائلته . فأجاب الآخر ، احياناً انما ليس غالباً — فهو لايسمح لنفسه بذلك . اذ ان مثل هذا التفكير لايجدي نفعاً . فهذا العالم ليس العالم الذي يمكن فيه للمرء ان يفكر بعائلته وعاجلاً ام آجلاً سيكتشف جرجس ذلك ، وبعدها سيتخلى عن الكفاح ليهتم بنفسه فقط .

لقد كان جرجس بالغ الشفافية في ظاهره إلى حد ان زميله كان صريحاً معه صراحة الطفل ، وقد كان امراً ممتعاً ان يروي له مغامراته بينما يصغي له باعجاب ودهشة ، وقد كان جديداً كل الجدة على اساليب الحياة في هذه البلاد . لم يزعج دوان نفسه حتى باخفاء الاسماء والامكنة —

بل روى له قصص انتصاراته كلها واخفاقاته كلها ، علاقاته الغرامية واحزانه . كذلك قدم لجرجس الكثير من السجناء الآخرين الذين يعرن نصفهم تقريباً بالاسم . وكانوا قد اعطوا جرجس اسماً من قبل — فقد دعوه بـ « الرائحة العفنة » وكان اسماً قاسياً الا انهم لم يكونوا يقصدون ايذاءه ، لذا تقبله منهم بطيبة خاطر .

كان صاحبنا يتلقى بين الحين والحين هبات من روائح المجارير التي كان يعيش فوقها ، وكان السجن سفينة نوح تضم في داخلها كل مجرمي المدينة — فهناك قتلة ، رجال سطو ، لصوص ليل ، مختلسون ، مزيفون ومزورون ، متعددو زوجات ، « سارقو معروضات» محتالون ، لصوص حيوانات مدللة ، نشالون ، مقامرون ، قوادون ، متخاصمون ، متسولون ، سكيرون ومروجو دعارة ، وكان فيهم الابيض والاسود ، الشيب والشبان الامريكيون والأجانب . كذلك كان منهم المجرمون المحترفون والابرياء الذين هم اضعف من أن يؤذوا نملة ، كما كان منهم الطاعنون في السن والفتيان المراهقون ، انهم مفرزات قرحة المجتمع الكبيرة المتقيحة ، وما ابشع النظر اليها ! ! ماا كره الحديث معها ! ! الحياة كلها تحولت لديهم إلى عفن ونتن واهتراء — الحب شيء بغيض ، الفرح شرك قذر ، والاله لعنة . كانوا يتمشون هنا وهناك في الباحة ، يصغي لهم جرجس . فهو جاهل وهم واسعو المعرفة ، لقد رأوا الكثير من الدنيا وخبروا كل شيء .

كان بوسعهم ان يحكوا قصة العالم الكريهة كلها ، ان يطلقوا الروح الداخلية لمدينة ، كل شيء فيها من عدالة وشرف ، اجساد نساء ونفوس رجال ، كلها ، كلها للبيع في المزاد ، الكائنات البشرية تتلوى فيها ، تكافح ، ويقع بعضها على بعض مثل ذئاب وقعت في حفرة ، الشهوات فيها نيران متأججة والناس وقود والانسانية تنحط أكثر وأكثر في مهاوي الفساد . في قلب هذا الغاب المليء بالوحوش ولد هؤلاء الناس دون ارادة منهم ، وشاركوا فيه لانهم لايملكون سوى المشاركة فيه واذا كانوا الآن في السجن فهو امر لايشينهم ، ذلك لان اللعبة ليست شريفة بل لعبة قائمة على الغش . انهم محتالون ، لصوص القروش القليلة ، نحّاهم جانباً محتالو الدولارات ولصوص الملايين .

حاول جرجس ان يصغي لمعظم هذا . لقد اخافوه كل الخوف بسخريتهم الغريبة وكان قلبه طوال الوقت في مكان بعيد ، حيث يناديه احباؤه . فأفكاره تفر رغماً عنه اليهم ليجد نفسه من حين إلى آخر ، خارج هذا الخضم المتلاطم ، وليجد عينيه مغرورقتين بالدموع — ولايعيده إلى واقعه الا ضحكات زملائه وسخريتهم .

اسبوعاً كاملاً قضى جرجس في هذا الجو ، وخلال ذلك كله لم يأته خبر واحد من المنزل فدفع سنتاً واحد من سنتاته الخمسة عشر ثمن بطاقة بريدية ، كتب عليها احد زملائه ملاحظة صغيرة اخبر فيها عن مكان وجوده وموعد محاكمته . لكن دون ان يأتي جواب . أخيراً ،

وفي اليوم السابــق لرأس السنـــة ودع جرجس جــاك دوان الذي اعطاه عنوانه او بالاحرى عنوان صاحبته وأرغم جرجس على ان يعده بالسؤال عنه عندما يخرج من السجن . « لعلني استطيع مساعدتك واخراجك من هوتك » ، قال له جاك ثم اضاف بأنه حزين عل خسارته له . بعد ذاك ركب جرجس عربة الدورية التي نقلته إلى محكمة القاضي كالاهان حيث سيحاكم .

من الاشياء الاولى التي استنتجها فور دخوله القاعة هو ان تيتا الزبيبتا وكوترنيا الصغيرة تجلسان بعيداً في المؤخرة وهما شاحبتان مذعورتان . فبدأ قلبه يدق الا انه لم يتجرأ على ارسال اشارة لهما ، كذلك لم تتجرأ الزبيبتا . اخذ مقعده في محتجز السجناء وجلس يحدق إليهما بعذاب اليائس . رأى جرجس ان اونا لم تأت معهما فملأ قلبه الخوف من نذير ذلك وماقد يعنيه . لقد قضى نصف ساعة وهو يقلب المسألة على كافة وجوهها — ثم هب على قدميه فجأة وقد اندفع الدم إلى وجهه . لقد دخل رجل — ولم يستطع جرجس رؤية معالم وجهه لما عليه من ضمادات الا انه عرف فيه رئيس العمال الفظ ، كونور . فأطبقت ارتعاشة شديدة على جسده كله ، وشعر بطرفيه يتقوسان وكأنهما يعملان على نابض . ثم شعر فجأة بيد تمسك بياقته وصوت خلفه يقول « اجلس انت يابن . . . »

اطاع جرجس الامر ، الا انه لم يرفع عينيه ابداً عن غريمه الذي

كان مايزال على قيد الحياة ، وكانت في ذلك خيبة أمل له على أية حال . مع ذلك شعر جرجس بشيء من السرور لدى رؤيته وهو غارق بين لفائف ضماداته . مضى هو ومحامي الشركة ، الذي كان برفقته ، وجلسا على مقعدين ضمن شبك القاضي ، وبعد دقيقة واحدة نادى الكاتب اسم جرجس ، فدفعه الشرطي للنهوض وقاده إلى ان وقف امام الحاجز شاداً قبضته على ذراعه ، خشية ان يثب على رئيسه .

راح جرجس يصغي بينما دخل احد الشهود واقسم اليمين ثم روى القصة . فللسجين زوجة تعمل في قسم قريب منه وقد طردت لوقاحتها تجاهه وبعد نصف ساعة هوجم بعنف ، طرح ارضاً وكاد يموت خنقاً . وقد احضر شاهدات .

« لعل ذلك غير ضروري » . ابدى القاضي ملاحظة سريعة ثم التفت إلى جرجس سائلاً اياه :

« هل تعترف بمهاجتك المدعي ؟ »

« هذا ؟ » سأل جرجس مشيراً إلى رئيس العمال .

فقال القاضي « اجل . »

« لقد ضربته ياسيدي » . قال جرجس

« قل ياصاحب السعادة » تدخل الضابط قارصاً اياه من زنده

فقال جرجس بطواعية شديدة « ياصاحب السعادة »

« هل حاولت خنقه ؟ »

« اجل ياسيدي ، ياصاحب السعادة »

« هل اوقفت من قبل ؟ »

« كلا ياسيدي ، ياصاحب السعادة »

« بماذا تدافع عن نفسك ؟ »

فتردد جرجس محتاراً . ماذا ينبغي ان يقول ؟ خلال سنتين ونصف كان قد تعلم الانكليزية للاغراض العملية ، غير ان ما تعلمه لم يكن يتضمن القول ان احد الاشخاص استغل زوجته واغواها . لقد حاول مرة او مرتين ، متلعثماً متأتئاً مما ازعج القاضي الذي كانت رائحة السماد قد جعلته يشهق شهيقاً حاداً . اخيراً ، فهم الجميع ان السجين لايجد المفردات المناسبة . عند ذاك خطا شاب انيق ذو شاربين مستعارين إلى الامام آمراً اياه ان يتكلم اللغة التي يعرفها .

فبدأ جرجس مفترضاً انه سيعطى الوقت الكافي ثم شرح كيف ان رئيس العمال استغل وضع زوجته كي يتقرب منها مهدداً اياها بفقدان عملها . وعندما ترجم المترجم هذا الكلام قاطعه القاضي الذي كانت لديه زحمة مواعيد وكانت سيارته ستأتي في موعد محدّد ، قائلاً : «أوه !أرى ذلك . حسناً إذا كان قد غازل زوجتك فلماذا لم تشكه للمراقب العام أو لماذا لم تترك المكان ؟»فتردد جرجس منذهلاً بشكل

من الأشكال ثم بدأ يشرح أنهم أناس مدقعون — وأن من الصعوبة بمكان كبير أن يجد المرء عملاً .

فقال القاضي كالاهان : « أرى ، أرى . . انما كان ذلك أفضل من التفكير بصرع الرجل » . ثم التفت إلى المدعي مستفسراً : « سيد كونور ، هل في هذه القصة أثر من صحة ؟ » .

« أبداً ، ياصاحب السعادة » قال رئيس العمال « وهو شيء مزعج ياصاحب السعادة . ففي كل مرة نضطر لطرد امرأة من عملها يروون قصصاً من هذا النوع » .

فقال القاضي : « أجل ، أعلم . . . أعلم . وغالباً ماأسمع بذلك . لكن يبدو أنه ضربك بقسوة بالغة . ثلاثين يوماً مع تحميله النفقات . القضية التالية » .

كان جرجس يصغي محتاراً . وحين جعله الشرطي الذي كان يمسكه من ذراعه يدور على عقبيه ويبدأ السير مبتعداً ، حين ذلك فقط أدرك أن ذلك هو الحكم الذي أصدره القاضي فحملق فيما حوله كالمجنون « ثلاثين يوماً » قال من بين أنفاسه المتقطّعة ثم انفتل باتجاه القاضي صارخاً كالمجنون « ماذا سيفعل أهلي ؟ لدي زوجة وطفل ياسيدي . وهم لايملكون شروى نقير . ياإلهي ! سوف يموتون جوعاً ! »

« كان عليك أن تفكر بذلك قبل أن تقدم على ما أقدمت عليه» قال القاضي بنبرة جافة ثم التفت إلى السجين التالي .

كان جرجس يود أن يتكلم ثانية إلا أن الشرطي قبض عليه من ياقته وفتله ، ثم بدأ شرطي ثان يتقدم صوبه وفي عينيه نوايا عدوانية واضحة . لذا تركهم يجرونه بعيداً ، وفي مكان بعيد من الغرفة كانت تيتا الزبيبتا وكوترينا قد نهضتا من مقعديهما تحملقان مذعورتين . فقام جرجس بمحاولة للتوجه نحوهما لكن فتلة أخرى من يد الشرطي جعلته يعود إلى اتجاهه الأول ، حانياً رأسه متخلياً عن الكفاح . بعد ذلك دفعوه إلى داخل زنزانة حيث كان هناك سجناء آخرون ينتظرون وحالما انفضت المحكمة ، قادوه معهم إلى « ماريا السوداء » (١) ثم ساقوا بهم بعيداً .

هذه المرة سيق جرجس إلى « بريدويل » وهو سجن صغير يخدم فيه سجناء « منطقة كوك » مدة حبسهم ، إلا أنه كان أشد قذارة وازدحاماً من سجن المحافظة ، إذ كان يأتي إليه من ذلك السجن كل السجناء ذوي القضايا الصغيرة ـــ صغار اللصوص والمحتالين ، المتخاصمين والمتشردين . وهذه المرة كان زميله في الزنزانة بائع فواكه ايطالي الجنسية رفض أن يدفع للشرطي رشوته المعتادة فالقي القبض عليه بتهمة حيازة سكين جيب كبيرة ، وبما أنه لم يكن يفهم كلمة انكليزية واحدة فقد سر صاحبنا حين غادر الزنزانة ، ليحل محله بحار نرويجي فقد نصف أذنه في مشاجرة سكارى ، وبرهن على الفور أنه رجل يحب الخصام ،

(١) عربة السجناء .

إذ لعن جرجس لأنه تحرك في سريره وجعل الصراصير تسقط على السرير السفلي . كان شيئاً غير محتمل أبداً أن يبقى المرء في زنزانة واحدة مع مثل هذا الوحش البري ، إلا أن خروج السجناء للعمل طوال النهار جعل المسألة تهون .

قضى جرجس عشرة أيام من أيامه الثلاثين هكذا ـ دون أن يسمع شيئاً عن عائلته ، بعدئذ وفي ذات يوم جاء الحارس وأعلمه أن هناك زائراً يود رؤيته فانقلب وجهه أبيض شاحباً ، وشعر بوهن شديد في ركبتيه إلى درجة لم يستطع معها مغادرة الزنزانة إلا بصعوبة .

قاده الرجل عبر الممر ثم صعدا عدة درجات إلى غرفة الزوار التي كان لها قضبان حديدية كالزنزانة ، وخلال الشبك استطاع جرجس أن يرى شخصاً يجلس على كرسي ، وحين دخل الغرفة هبّ الشخص على قدميه فرأى أنه ستانيسلوفاس الصغير . شعر جرجس لدى رؤيته واحداً من الأهل ، وكأنه يوشك على التحطم ارباً فاضطر لتثبيت نفسه متمسكاً بالكرسي باحدى يديه واضعاً يده الأخرى على جبينه وكأنه يود أن يقشع ضبابة ، ثم قال بصوت واهن « حسناً » .

كان ستانسلوفاس الصغير يرتجف هو الآخر ، خائفاً حتى من أن يتكلم . . « هم . . هم أرسلوني لأخبرك » قال وهو يبلع ريقه ـ فكرر جرجس « حسناً » .

ثم لاحق نظرة الغلام إلى حيث كان الحارس واقفاً يراقبهما فصرخ جرجس « لاتبال بذلك ، كيف حالهم ؟ » .

« أونا مريضة للغاية » قال ستانيسلوفاس « ونحن نكاد نموت جوعاً . ليس بامكاننا الاستمرار على هذا المنوال ، ففكرنا أنك قد تستطيع مساعدتنا » .

أمسك جرجس الكرسي باحكام أشد . كانت ثمة قطرات عرق على جبينه وكانت يده ترتعش « أنا لا أستطيع — مساعدتكم » قال أخيراً ، فتابع الغلام كلامه متقطع الأنفاس « أونا تستلقي في غرفتها طوال النهار ، لا تأكل شيئاً ، تبكي طوال الوقت ، لاتقول مابها ولاتذهب إلى العمل أبداً . ثم إن الرجل جاء طالباً الايجار منذ زمن طويل ، وكان في غاية الضيق والعصبية ، وفي الاسبوع الماضي جاء مرة ثانية وقال أنه سيخرجنا من المنزل . كما أن ماريا ...

وغص ستانيسلوفاس بنشيجه فتوقف ، لكن جرجس صاح به : « مابها ماريا ؟ » فقال الغلام « جرحت يدها جرحاً بالغاً هذه المرة ، جرحاً أسوأ من كل مامضى . وهي لاتستطيع العمل ، كما أن الجرح غدا كله متعفناً حتى أن طبيب الشركة يقول أنها — أنها قد تضطر لقطعها . وماريا تبكي طوال الوقت — فما لديها من مال ذهب كله تقريباً وليس باستطاعتنا أن ندفع الايجار والفائدة المترتبة على المنزل ، كذلك لايوجد لدينا فحم ولا مانأكله ، كما أن صاحب المخزن يقول...» .

وتوقف الغلام مرة ثانية بادئاً بالنحيب . فقال الآخر بلهاث مسعور « هيا . . تابع . . تابع . . . »

فنشج الغلام ثم قال « أما . . . أنا . . . فالطقس بارد جداً بالنسبة لي والأحد الماضي اثلجت مرة ثانية — كان الثلج عميقاً عميقاً .... ولم أستطع ... لم أستطع الوصول إلى عملي » .

« يالله . . » صاح جرجس بملء صوته تقريباً ، وخطا خطوة باتجاه الغلام . كان هناك كره قديم العهد بينهما بسبب الثلج — كره يعود إلى ذلك الصباح المخيف حين تجمدت أصابع الغلام واضطر جرجس لأن يضربه كي يرسله إلى العمل . والآن هاهو ذا يطبق يديه باحكام ، ليبدو وكأنما يحاول اختراق شبك الحديد « أيها الوغد الصغير » صرخ به ، « أنت لم تحاول . . » ، « بل حاولت . . حاولت . . » أعول الغلام ، منكمشاً على نفسه مبتعداً وقد سيطر عليه الرعب « حاولت طوال اليوم — بل طوال يومين . وكانت الزبيبتا معي ، ولم تستطع هي الأخرى . لم تستطع السير البتة ، فقد كان الثلج كثيفاً ، ولم يكن لدينا ماناً كله ، آه . . كم كان البرد قارساً . لقد حاولت وفي اليوم الثالث ذهبت معي أونا . . . » .

— « أونا » .

« أجل . حاولت الذهاب إلى العمل هي الأخرى كان ينبغي أن تحاول . كنا كلنا نموت جوعاً . لكنها كانت قد فقدت عملها » .

فترنح جرجس وهو يطلق شهقة حادة « عادت إلى ذلك المكان ؟ » صرخ به فقال ستانيسلوفاس محملقاً به في حيرة شديدة « لقد حاولت ، ولماذا لا تحاول ياجرجس ؟ »

التقط الرجل أنفاسه ثلاث أو أربع مرات بصعوبة ، ثم غمغم أخيراً « هيا — استمر». فقال ستانيسلوفاس « ذهبت معها . إلا أن الآنسة هندرسون لم تعدها إلى العمل . وحين رآها كونور لعنها ، وكان مايزال ملفوفاً بالضمادات . ترى لماذا ضربته ياجرجس ؟ (كان ثمة شيء من الغموض الساحر في هذه المسألة فالصغير يعلم القضية إلا أنه لم يكن مقتنعاً).

لم يستطع جرجس الكلام بل كل مااستطاع فعله هو الحملقة ، وقد جحظت عيناه فاستأنف الغلام : « حاولت أن تجد عملاً آخر لكنها كانت ضعيفة القوى إلى درجة لاتستطيع معها الوقوف . كذلك رفض رئيسي أن يعيدني إلى عملي — أونا تقول إنه يعرف كونور وأن ذلك هو السبب . كلهم يحقدون علينا الآن . وهكذا اضطررت لأن انزل إلى قلب المدينة وأبيع جرائد هناك مع بقية الأولاد وكوترينا ——— »

« كوترينا ! ! » .

« أجل ، فهي تبيع جرائد أيضاً . بل تبيع خيراً منا جميعاً لأنها فتاة ، فقط ، القرس شديد وإنه لأمر شديد الهول أن تعود إلى المنزل ليلاً ياجرجس . أحياناً ، لايستطيعون العودة إلى المنزل اطلاقاً — سأحاول

أن أجدهم هذه الليلة وأنام حيث ينامون ، فالوقت يكون متأخراً جداً والطريق طويل إلى المنزل . لقد اضطررت للمشي ولم أكن أدري أين كنت أو كيف أعود . لكن أمي قالت أن علي أن أعود لأنك ستكون راغباً في معرفة وضعنا . وربما يكون هناك من يود مساعدتها بعد أن وضعوك أنت في السجن ولم يعد باستطاعتك الذهاب إلى العمل . وهكذا سرت طوال النهار إلى أن وصلت هنا – ولم أتناول إلا كسرة خبز في افطاري ياجرجس . أمي لاتعمل شيئاً هي الأخرى ، لأن قسم النقانق اغلق أبوابه ، وهي تدور على المنازل حاملة سلة معها تستجدي الحسنات ، والناس يقدمون لها الطعام إلا أنها لم تحصل على الكثير أمس . فقد كان الطقس بارداً جداً على أصابعها حتى أنها تبكي اليوم ... »

هكذا استمر ستانيسلوفاس الصغير ينشج وهو يتكلم ، بينما وقف جرجس قابضاً على الطاولة باحكام دون أن يتفوه بكلمة واحدة ، انما يملؤه شعور مبهم بأن رأسه سينفجر ، كان يشعر أن ثمة أثقالاً مكدسة فوقه ، واحداً فوق الآخر . وكلها تسحقه وتنتزع الحياة من بين جنبيه . كان يكافح ويعارك داخل نفسه – كما لو أنه يعاني من كابوس رهيب ، يعاني المرء فيه من عذاب شديد دون أن يتمكن من رفع يد أو اطلاق صرخة بل يشعر أنه سيجن وأن دماغه يشتعل ناراً .

لكن في اللحظة التي خيل له أن دورة أخرى من اللولب ستقتله ، في تلك اللحظة تماماً توقف ستانيسلوفاس عن الكلام بعد أن قال بصوت واهن : « ألا تستطيع مساعدتنا ؟ » فهز جرجس رأسه بالنفي .

« ألا يعطونك شيئاً هنا ؟ » .

وهز برأسه مرة ثانية.

« متى ستخرج ؟ »

فأجاب جرجس « بعد ثلاثة أسابيع » .

حدّق الغلام حوله بشيء من الشك ثم قال « إذن يمكنني الذهاب » فأومأ جرجس برأسه ثم تذكر فجأة ، فمدّ يده إلى جيبه ثم سحبها وهي تهتز « هاك » قال وهو يمد يده بالأربعة عشر سنتاً « خذ هذه لهم » .

أخذها ستانيسلوفاس ، وبعد شيء من التردّد بدأ السير نحو الباب « وداعاً ياجرجس » قال ، بينما لاحظ الآخر أن الغلام يسير بخطا غير ثابتة وهو يغيب عن النظر .

ولدقيقة أو دقيقتين وقف جرجس متشبثاً بالكرسي ، مترنحاً يكاد يسقط ، بعدئذ لمسه الحارس على ذراعه فدار على عقبيه وعاد لتكسير الحجارة .

— ١٨ —

لم يخرج جرجس من « بريدويل » في الوقت الذي توقع أن يخرج تماماً . فقد أضيف على حكمه نفقات المحكمة « وهي دولار ونصف — كان عليه أن يدفع مالاً لقاء الازعاج الذي سببه بوضعه في السجن ،

ونظراً لعدم امتلاكه مالاً ، فقد كان مضطراً لأن يعمل ثلاثة أيام عوضاً عنه . لكن مامن أحد كلف نفسه مشقة إخباره بذلك انما بعد حساب الأيام والتطلع لانتهاء سجنه في حال من العذاب ونفاد الصبر وجد في اللحظة التي كان يتوقع فيها اطلاق سراحه أنه مايزال على كومة الحجارة ، ولقد سخروا منه حين غامر واحتج . بعدئذ استنتج أنه لابد وقد أخطأ الحساب لكن بعد أن مر يوم آخر تخلى عن كل أمل — وكان قد غرق في أعماق اليأس تماماً حين دخل الحارس بعد أن تناول افطاره ذات صباح ليقول له أن مدته انتهت أخيراً . وهكذا خلع بزة السجن ولبس ملابسه القديمة ثم سمع باب السجن يطبق خلفه .

وقف على درجات السلم متحيراً ، لايصدق إلا بالكاد أن ذلك صحيح — فالسماء فوقه ثانية والشارع المفتوح أمامه ، وهو يتمتع بحريته ، لكن حينذاك بدأ القرس يتسلل عبر ثيابه فانطلق مسرعاً .

كان ثمة ثلج كثيف على الأرض وكان قد بدأ الذوبان تحت رذاذ المطر المتساقط الذي تسوقه ريح نفذت حتى عظام جرجس . فهو لم يكن قد توقف لارتداء معطفه حين انطلق للقضاء على كونور ، لذا كان ركوبه في عربة الدورية تجربة مريرة كل مرة . فقد كانت ملابسه عتيقة بالية لاتحمل له الدفء أبداً . والآن وهو يسير متثاقل الخطا سرعان ما بلله المطر ، وبما أنه كان هناك مايزيد على الست بوصات من الماء الموحل على الأرصفة فان قدميه كانتا ستبتلان بسرعة حتى ولو لم يكن هناك ثقوب في حذائه .

كان جرجس قد وجد في السجن مايكفيه ويزيد من الطعام ، أما العمل فقد كان أسهل عمل مارسه مذ وصل شيكاغو ، لكن رغم ذلك لم تكن قوته قد عادت إليه فالخوف والحزن كانا يلتهمان دماغه ويحتانه حتاً . والآن هاهو ذا يرتعش وينكمش تحت المطر . يخفي يديه في جيبه ويحدب ظهره . كان سجن«بريدويل»يقع على أطراف المدينة وكان كل ما حوله برية لاسكن فيها ـ فمن احدى الجهات كانت هناك قناة المجارير الكبيرة ومن جهة أخرى كانت هناك مجموعة هائلة من شبكات السكك الحديدية ، وهكذا كانت الريح تكتسح كل شيء .

بعد أن سار جرجس قليلاً التقى بمتشرد صغير فصاح به « هيه . . أيها الولد »فحدّق الغلام إليه ـوأدرك أن جرجس « طائر من طيور السجن » بسبب رأسه الحليق « ماذا تريد ؟ » سأله الغلام .

« كيف تذهب إلى الزرائب ؟ » سأل جرجس .

فأجاب الغلام « أنا لا أذهب » .

تردد جرجس لحظة من الزمن وقد توقف نبضه . بعدئذ قال : « أعني أي طريق أسلك ؟»فكان الجواب « لماذا لم تقل ذلك منذ البداية » ثم أشار إلى الشمال الغربي عبر السكك الحديدية .

« وكم تبعد ؟ »سأل جرجس

فقال الآخر « لا أدري ، ربما عشرين ميلاً » .

« عشرين ميلاً » ردد جرجس كالصدى وانكب وجهه . كان عليه أن يمشي كل شبر من هذه الأميال العشرين ، لأنهم أخرجوه من السجن وليس في جيبه قرش واحد .

مع ذلك ، حين بدأ السير ، وحمي دمه نسي كل شيء في حمى أفكاره ، كل التصورات المخيفة التي كانت تنتابه في زنزانته اندفعت إلى رأسه دفعة واحدة . كان العذاب قد انتهى تقريباً — كان ذاهباً ليكتشف ، واطبق قبضتيه بشدة في جيبه وهو يوسع خطاه ،متتبعاً رغبته الطائرة أمامه وهو يعدو تقريباً ، أونا — الطفل — العائلة — المنزل — سيعرف الحقيقة فيما يتعلق بذلك كله . إنه يقترب من الخلاص . . إنه حر الآن ، يداه ملكه ، بامكانه أن يساعدهم ولسوف يكافح من أجلهم ويقاتل العالم كله .

لساعة أو أكثر ظل جرجس يسير على هذا المنوال ثم بدأ يتطلع حوله فبدا وكأنه ابتعد عن المدينة كلياً . كان الشارع قد تحول إلى طريق ريفي يتجه غرباً وكانت هناك حقول مغطاة بالثلج على كلا الجانبين . وحين التقى بمزارع يسوق عربة ذات حصانين محملة بالقش أوقفه في الحال مستفسراً :

« هل هذه هي الطريق إلى الزرائب ؟ »

حك المزارع رأسه ثم قال « لا أدري تماماً أين هي الزرائب ، لكنني أعلم أنها في مكان ما من المدينة وأنت الآن تبتعد عن المدينة » .

فتطلع جرجس منذهلاً ثم قال « لقد أخبرني أن هذه هي الطريق » .

« ومن أخبرك بذلك ؟ »

« غلام »

« حسناً ، ربما كان يمازحك . خير ماتفعل هو أن تعود من حيث جئت وحين تدخل البلدة اسأل شرطياً . كان بودي أن آخذك معي لكنني آت من مكان بعيد وفي عربتي حمل ثقيل . . . هيا » .

وهكذا دار جرجس على عقبيه وتبعه . وعند الضحى بدأ يرى شيكاغو ثانية . ثم بدأ السير عبر كتل بنائية لانهاية لها من بيوت ذات طابقين ، على طول أرصفة خشبية وممرات غير مرصوفة ملأى بحفر طينية عميقة . كانت سكة الحديد تقطع الطريق بعد كل مجموعة من الأبنية وكانت تقطعه على سوية الرصيف مما يشكل فخاً قاتلاً لمن لاينتبه ، فقطارات الشحن الطويلة تعبر في أية لحظة والسيارات تقرقع وتتلاقى معاً ، وجرجس ينتظر وينتظر تحرقه حمى فروغ الصبر . أحياناً كانت السيارات تتوقف بضع دقائق ، فتتوقف العربات والترامات منتظرة يزحم بعضها البعض ، بينما يلعن السائقون بعضهم بعضاً أو يخبئون أنفسهم تحت مظلاتهم كي يتقوا المطر . في أوقات كهذه كان جرجس يروغ نحو البوابات ليختفي هناك ويجتاز الطريق عابراً السكة الحديدية أو متسللاً بين العربات حاملاً روحه على كفه .

اجتاز جرجس جسراً طويلاً على نهر تجمد تماماً وغطاه الطين . على ضفة النهر نفسها لم يكن هناك ثلج أبيض — فالمطر الذي سقط كان عبارة عن محلول دخان ممدد   وكانت يدا جرجس ووجهه قد أصبحت مغطاة ببقع سوداء • بعد ذاك دخل إلى القسم المهني من المدينة حيث الشوارع مجارير سواد كالحبر ، والخيول تنزلق وتغوص والنساء والأولاد يسرعون عبرها كمن يود أن يطير . فهذه الشوارع أودية ضخمة بين أبنية سوداء أو عالية كالجبال ، تردد أصداء أجراس الترامات وصراخ السائقين ، والناس يحتشدون فيها رائحين غادين كالنمل — وكلهم مسرع يلهث ، لايتوقف لحظة واحدة لينظر فيما حوله . أما الغريب الوحيد الأشبه بالشريد ذو الملابس المبللة بالمطر والوجه النحيل والعينين القلقتين ، فقد كانت وحدته تشتد كلما غاص أكثر بين الجموع ، يزداد ضياعاً كلما كثر حوله الناس وكأنما هو في فيفاء مقفرة تبعد ألف ميل .

أرشده أحد رجال الشرطة إلى الاتجاه الصحيح ، قائلاً أن أمامه خمسة أميال عليه أن يقطعها . أخيراً وصل مرة ثانية إلى مناطق الأحياء الفقيرة ، إلى شوارع الحانات والمخازن الرخيصة ، إلى أبنية المعامل الحمراء الحقيرة الطويلة وساحات الفحم والسكك الحديدية . حينذاك رفع جرجس رأسه وبدأ يتنشق الهواء كحيوان مجفل — يتشمم رائحة المنزل الآتية من بعيد . كان الوقت أواخر الأصيل وكان الجوع وحشاً يفتك في أحشائه إلا أن دعوات الطعام المعلقة على واجهات الصالونات لم تكن موجهة له .

وهكذا وصل أخيراً إلى الزرائب ، إلى براكين الدخان الأسود وخوار البقر والرائحة النتنة ، ثم دفعه نفاد صبره وهو يرى حافلة ترام مزدحمة إلى القفز إليها واخفاء نفسه خلف أحد الرجال بحيث لايلحظه الجابي . وخلال عشر دقائق بلغ شارعه ومن ثم المنزل .

كان يعدو تقريباً حين انعطف حول الزاوية ، فهناك المنزل على أي حال ، لكنه توقف فجأة وحملق النظر . ماذا جرى للمنزل ؟

تطلع جرجس للمرة الثانية منبهتاً ثم رشق باب المنزل المجاور بنظرة سريعة انتقل بعدها بنظره إلى المنزل الذي يليه ومن ثم إلى الحانة القائمة قرب الزاوية . أجل . . هو ذا منزلهم ، بكل تأكيد – لم يخطيء أبداً . لكن هذا المنزل – هذا المنزل ذو لون مغاير .

واقترب منه خطوتين أو ثلاث . أجل ، لقد كان رمادياً أما الآن فهو أصفر ! ! كانت أطر النوافذ حمراء أما الآن فخضراء . . طلاؤه جديد كلياً ، ما أغرب شكله الآن ! !

مع ذلك اقترب جرجس أكثر وأكثر انما ظل في الجانب الآخر من الشارع وفجأة اجتاحته موجة خوف شديد فاصطكت ركبتاه وفتل رأسه ، طلاء جديد للمنزل وألواح خارجية جديدة ، حيث بدأت العتيقة تهترىء والوكيل يلاحقهم ! ألواح خشبية جديدة فوق الثقب الموجود في السقف أيضاً ، ذاك الثقب الذي ظل أشهراً ستة مصدر عذاب أليم لروحه هو الذي لايملك مالاً يجعل أحد الناس يثبت الألواح

على هذا الثقب ولا وقتاً لتثبيتها بنفسه ، بينما كان المطر يرشح منها ويملأ القدور والأواني التي توضع تحتها كما يفيض الماء في أرض العلية ويفكك الجص . والآن هاهي ذي مثبتة ! مصراع النافذة المحطم مستبدل ! ! ستائر على النوافذ ! ستائر بيضاء جديدة متينة ومتألقة .

ثم انفتح الباب الأمامي فجأة . فوقف جرجس وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه . خرج من المنزل صبي ، صبي غريب عليه ، كبير الجسم ، سمين ، متورد الوجنتين من نوع لم يره هذا المنزل قبل ذلك أبداً .

حملق جرجس بالصبي ، ذاهل اللب ، بعد ذاك رآه يهبط درجات السلم صافراً ، رافساً الثلج برجله . عند أسفل الدرج توقف ، التقط قليلاً من الثلج ثم استند إلى الدرابزون يصنع كرة ثلجية . بعد لحظة من الزمن تطلع حوله فشاهد جرجس ، التقت عيناه بعينيه ، وكانت نظرة ملؤها العدوان ، من الواضح أن الصبي فكر بأن الرجل تراوده شكوك فيما يتعلق بكرة الثلج وحين بدأ جرجس يجتاز الشارع على مهل متجهاً نحوه ، رمق ماحوله بنظرة سريعة مفكراً بالتراجع على مايبدو ، إلا أنه قرر أخيراً أن يظل حيث هو . .

امسك جرجس بدرابزون الدرج إذ كان مضطرباً قليلاً . « ماذا — ماذا تفعل هنا ؟ » نجح أخيراً في أن ينطق .

فقال الصبي « ماذا . . ؟ » .

« أنت ـــ ـــ ـــ » حاول جرجس مرة ثانية « عمّ تبحث هنا ؟ »
« . . أنا ؟ » أجاب الصبي مغضباً « أنا أسكن هنا » .

فشهق جرجس « أنت تسكن هنا ؟ » ثم ابيض لونه فتمسك باحكام أكثر بالدرابزون « أنت تسكن هنا ؟ اذن ، أين عائلتي ؟ » .

فبدت الحيرة على وجه الصبي ثم ردد كالببغاء « عائلتك . . »

وبدأ جرجس يسير نحوه ، ثم صرخ ، « أنا ـــ ـــ هذا منزلي » .

« إليك عني » قال الصبي ، ثم فجأة انفتح باب الطابق العلوي فهتف « هـ ـــ ي ماما ، هاهنا رجل يقول أن هذا البيت ملكه » .

كانت امرأة ايرلندية قوية البنية قد وصلت إلى سطح الدرج العلوي فسألت : « ما الأمر ؟ » .

التفت جرجس إليها ثم صرخ كالمجنون « أين عائلتي ؟ لقد تركتها هنا . هذا بيتي . ماذا تفعلون في بيتي ؟ » .

فحملقت المرأة به في تعجّب وخوف ، لابد أنها ظنت أن أمامها مجنوناً من أولئك المجانين ـــ ولم يكن مظهر جرجس يختلف كثيراً عنهم . « بيتك » رددت المرأة ، « بيتي » قال بصوت أشبه بالصراخ « كنت أسكن هنا . . أقول لك . . »

فأجابته « لابد أنك مخطىء . مامن أحد سكن هنا . . هذا منزل جديد . هم قالوا لنا ذلك . . هم — — » .

فصرخ جرجس كالمجنون « وماذا فعلوا بعائلتي ؟ » .

وبدأ بصيص ضوء يلوح للمرأة ، ربما كان لديها بعض الشكوك حول ماكانوا قد أخبروها به فقالت « لا أدري أين عائلتك . فقد اشتريت المنزل منذ ثلاثة أيام فقط ، ولم يكن ثمة أحد ، وقد أخبروني أنه جديد تماماً . هل تعني أنك فعلاً كنت تستأجره ؟ » .

« استأجره . . » قال جرجس لاهثاً « لقد اشتريته . . دفعت ثمنه . . انه ملكي . و . . . هم . . ياإلهي . . ألا تستطيعين أن تخبريني أين ذهب قومي ؟ » أخيراً أفهمته أنها لاتعرف شيئاً ، فاضطرب ذهن جرجس إلى درجة لم يستطع معها استيعاب الموقف . بدا له الأمر وكأن عائلته مسحت عن وجه الأرض ، كما لو أن أفرادها كانوا أضغاث أحلام ، لا وجود لهم على الاطلاق . كان ضائعاً تماماً — لكن فجأة خطرت له الجدة ماجوتزكين التي تسكن في بناء قريب . « هي تعرف . . » فدار على عقبيه وانطلق يعدو .

خرجت الجدة ماجوتزكين إلى الباب بنفسها . فصاحت دهشة حين رأت جرجس مجنون العينين ، ينتفض جسمه كله . أجل ، هي

وحدها استطاعت أن تخبره بكل شيء . العائلة انتقلت ، لم يعد في مقدورهم دفع الأجرة فأخرجوا إلى الثلج وأعيد طلاء المنزل ثم بيع مرة ثانية في الأسبوع التالي . كلا لم تسمع كيف حالهم لكنها تستطيع القول انهم عادوا إلى شقة آنييل جوكنيين التي أقاموا لديها أول وصولهم إلى منطقة — الزرائب . ألا يدخل جرجس ويرتاح ؟ الوضع سيء للغاية بالتأكيد . فقط لو أنه لم يذهب إلى السجن .

وهكذا دار جرجس على عقبيه وراح يتعثر بخطاه مبتعداً . غير أنه لم يبتعد كثيراً ، فعند الزاوية انهار تماماً ووجد نفسه يجلس على درجات حانة من الحانات يخفي رأسه بين يديه وينتفض جسمه كله بنشيج لادموع فيه .

بيتهم ! بيتهم ! لقد خسروه ؟ الحزن ، اليأس ، سورة الغضب كلها اكتسحته — ماتراه أي تصور لشيء من الأشياء بالمقارنة مع هذا الواقع المرير الذي يحطم القلوب — بالمقارنة مع رؤية أناس غرباء يسكنون في منزله ، يعلقون ستائرهم على نوافذه ، يحملقون فيه بأعين ملؤها العداء . شيء فظيع مروع لايمكن التفكير به — لايمكنهم فعل ذلك — لايمكن أن يكون صحيحاً . فكر فقط كم تراه قاسى من أجل هذا المنزل — أي بؤس عاشوه جميعاً من أجله ! — أي ثمن دفعوه لهم مقابله !

وعاد العذاب الطويل ، بكل تفاصيله إلى نفسه . تضحياتهم في

البداية ، دولاراتهم الثلاثمائة التي جمعوها فيما بينهم وكانت كل مايملكون في هذا العالم ، كل مايحول بينهم وبين الموت جوعاً . ومن ثم كدهم وتعبهم ، شهراً بعد شهر لتجميع الاثني عشر دولاراً فضلاً عن الفائدة والضرائب بين الحين والحين والأعباء الأخرى والاصلاحات وما إلى ذلك . . لقد وضعوا أرواحهم ذاتها في تلك الأقساط التي كانوا يدفعونها لذلك المنزل ، كانوا يدفعونها بعرقهم ودموعهم ، أجل ، بل أكثر من ذلك ، بدماء حياتهم . لقد مات ديد أنتاناس وهو يجاهد لكسب تلك النقود . ربما كان سيبقى على قيد الحياة لو لم يضطر للعمل في أقبية دورهام المعتمة كي يكسب ما يساهم به . وأونا ، هي الأخرى ، بذلت صحتها وعافيتها كي تدفع أقساطه ، بل انها لاقت الدمار وتحطمت بسببه . وهكذا هو نفسه ، هو من كان قوياً ضخم الجسم قبل ثلاث سنوات ، والآن هاهو ذا يجلس مرتعداً ، محطماً ، ذليلاً يبكي وكأنه طفل مصاب بهستيريا . آه . . لقد قاتلوا بكل مالديهم من قوة ، وقد خسروا . . خسروا كل شيء ، كل مادفعوه ذهب هباء . . كل سنت منه . . بيتهم ضاع — وهاهم يعودون إلى حيث بدأوا مرميين في العراء يقتلهم الجوع والبرد .

بات بامكان جرجس أن يرى الحقيقة كلها الآن — أن يرى نفسه عبر مسار الأحداث الطويل ، ضحية الرخم المفترسة الشرهة وهي تمزق

أحشاءه وتلتهم ، ضحية شياطين تجلده وتعذبه ، ساخرة منه خلال ذلك هازئة . آه يالله ! يالفظاعة ذلك كله ! ! ياالهوله ! ! هو وعائلته ، نساء وأطفال لامعين لهم يكافحون كي يكسبوا لقمة العيش ، جاهلين كل مايدور حولهم ، وحيدين ، بلا حول أو طول ، هكذا هم والخصوم يتعقبونهم يقتفون آثارهم متعطشين لدمائهم . . ذلك الكذاب المرائي ، ذلك الوكيل المراهن الزلق اللسان . . ذلك الشرك من الأقساط الاضافية ، الفائدة وكل الأعباء الأخرى التي لم تكن لديهم وسيلة من الوسائل لدفعها ولم يكونوا ليحاولوا أبداً دفعهـــا . . ومن ثم خدع وحيل أصحاب دور التعذيب ، سادتهم ، الطغاة الذين يحكمونهم — اغلاق المعامل وندرة العمل ، الساعات غير النظامية والتسريح الفظيع القاسي ، تخفيف الأجور ورفع الأسعار ثم قسوة الطبيعة التي لاترحم ، بما فيها من حرارة وبرد ، مطر وثلج ، قسوة المدينة ، قسوة البلاد التي يعيشون فيها ، بقوانينها وعاداتها التي لايمكنهم فهمها قط . كل هذه الأشياء اجتمعت لتعمل لصالح الشركة التي وسمتهم بميسمها هم الفريسة التي تنتظر دورها كي تذبح . والآن جاء الدور ، فحطت عليهم بكل مالديها من ظلم لتخرجهم من منزلهم وتبيعه ثانية . . ولم يكن باستطاعتهم فعل شيء ، هم المقيدون بأوثق رباط يداً ورجلاً ، فالقانون ضدهم وأجهزة المجتمع كلها تحت تصرف ذوي الأمر ، مضطهديهم . إن يرفع جرجس يداً واحدة في وجوههم ، اذن سيعود إلى حظيرة الوحوش البرية تلك التي فر لتوه منها .

وأن ينهض ويمضي وشأنه يعني أنه يستسلم ، يعترف بالهزيمة ، يترك العائلة الغريبة رهن الاستعباد ، ولعل جرجس كان سيظل ساعات طويلة تحت المطر يرتعد من البرد لو لم يفكر بعائلته . فربما هناك أشياء أسوأ تنتظره — وهكذا نهض على قدميه وبدأ السير ، متعباً سئماً زائغ البصر .

كانت المسافة إلى منزل آنبيل الواقع في القسم الخلفي من الزرائب لاتقل عن الميلين وقد كانت في عيني جرجس أطول منها في أية مرة في حياته . لكنه حين رأى البيت الرمادي القذر الذي يعرفه جيداً ، شعر أن دقات قلبه تزداد فأغذ السير وصعد الدرج مسرعاً ثم بدأ القرع على الباب .

خرجت العجوز بنفسها تفتح له الباب هي التي كانت قد انكمشت وتضاءلت بما لديها من روماتزم مذ رآها جرجس لآخر مرة . فحملقت به وهي ترفع أمامه وجهاً أصفر يابس الجلد ، ثم أجفلت حين عرفته فصاح بها لاهثاً « أونا هنا ؟ » .

« أجل » أجابته « إنها هنا » .

« كيف » — بدأ جرجس ومن ثم توقف دون أن يكمل ، ممسكاً على نحو تشنجي بجانب الباب .ومن مكان ما في داخل المنزل جاءته صرخة مفاجئة ، صرخة ألم فظيع غريبة فعرف أنها أونا .

وللحظة من الزمن وقف جرجس وقد شله الخوف تقريباً : ثم وثب مجتازاً العجوز قافزاً إلى الداخل .

كان ذلك هو مطبخ أنبيل ، وكان يتكوم حول الموقد نصف دستة من النساء ، شاحبات مذعورات . حين دخل جرجس هبت احداهن على قدميها . كانت نحيلة إلى حد مخيف وقد ربطت احدى ذراعيها باللفائف – وبصعوبة بالغة عرف أنها ماريا . بحث بينهن أولاً عن أونا ، وحين لم يرها راح يحملق بالنساء متوقعاً أن يتكلمن إلا أنهن كن خرساوات رددن حملقته بحملقة مماثلة ذاهلات الألباب ، وبعد ثانية واحدة انطلقت صرخة ثانية أخرى .

كانت الصرخة آتية من مؤخرة المنزل ، ومن الطابق العلوي . فوثب جرجس إلى باب الغرفة وفتحه على مصراعيه . كان ثمة سلم يؤدي عبر باب خاص إلى العلية ، وكان يقف عند أسفله حين سمع فجأة صوتاً خلفه ورأى ماريا في اثره . كانت تمسكه من كمه بيدها السليمة لاهثة لهاثاً غريباً « لا . . لا . . جرجس . . توقف » .

فرد شاهقاً . . « ماذا تقصدين ؟ » .

« يجب ألا تصعد » ردت بصوت أشبه بالصراخ .

فصاح جرجس شبه معتوه من الدهشة والخوف « ماذا جرى ؟ ما الأمر ؟ » .

تمسكت ماريا بكمه بشدة أكبر . وكان باستطاعته أن يسمع نحيب أونا في الأعلى ، فكافح للتخلص من ماريا والصعود على السلم دون أن ينتظر جوابها : « لا . . لا . . » صاحت في إثره « ينبغي ألا تصعد . . إنه . . إنه الطفل . . . » .

« الطفل » رد محتاراً منذهلاً « انتاناس ؟ » .

فأجابته ماريا هامسة : « الطفل الجديد » .

حينذاك شعر جرجس بالوهن يتسرب إلى مفاصله ، فتوقف على السلم ثم راح يحملق بها وكأنها شبح . « الطفل الجديد » قال شاهقاً ثم أضاف بقسوة شديدة : « لكن موعده لم يحن بعد » .

« اعلم » قالت ماريا وهي تومىء برأسها . . « لكنه جاء » .

ومرة ثانية جاءته صرخة أونا ، تلطمه كضربة على الوجه ، جاعلة مفاصله ترتعد ولونه يشحب . ثم تلاشى صوتها في ولولة طويلة — بعد ذاك سمعها تنشج مرة ثانية « ياالهي — هبني الموت — هبني الموت » فألقت ماريا بذراعيها حوله صارخة « اخرج . . . ابتعد » .

ثم سحبته معيدة اياه إلى المطبخ ، شبه حاملة له ، وقد تحطم ارباً . فقد احس وكأن أعمدة روحه تهوي جميعاً — وكأنه يتفجر من شدة الهول . في الغرفة ، غاص في الكرسي وهو يرتعش كورقة في مهب الريح ، بينما ظلت ماريا ممسكة به والنساء يحدجنه دونما كلمة وقد سيطر عليهن الرعب .

بعدئذ صرخت أونا مرة ثانية وكان بامكانه أن يسمعها بالسهولة ذاتها التي سمعها بها هناك . فترنح حتى وقف على قدميه ثم قال لاهثاً « منذ متى وهي تصرخ هكذا ؟ » « ليس طويلاً » أجابت ماريا ، ثم اندفعت مستأنفة بعد اشارة من أنييل « عليك أن تذهب ياجرجس —ليس بوسعك أن تقدم أية مساعدة — اذهب الآن وعد فيما بعد — كل شيء على مايرام — كل شيء على ما يرام » ، « من معها ؟ » سأل جرجس ، ثم صاح ثانية وهو يرى ماريا تتردد في الاجابة « من معها ؟ » فأجابت . . . « انها . . . انها بخير — الزبيبتا معها » .

فقال لاهثاً . . « والطبيب ! لا أحد ممن يعلمون . . . » .

وقبض على ذراع ماريا فارتعشت وغاص صوتها فيما يشبه الهمس وهي تجيب « نحن . . نحن لانملك مالاً » بعدئذ هتفت وقد أخافتها نظرة عينيه « كل شيء على ما يرام ، جرجس . . أنت لاتفهم — اذهب الآن . . اذهب . . آه ، لو أنك انتظرت فقط » .

وسمع جرجس صراخ أونا ثانية رغم كل احتجاجات ماريا ، وأوشك أن يفقد صوابه . فكل شيء جديد عليه ، كل شيء قاس ، فظيع — وقد هوى عليه كما تهوي الصاعقة . حين ولد انتاناس الصغير كان هو في المعمل ولم يعرف إلا والأمر قد انتهى . أما الآن فها هو ذا يعجز عن السيطرة على نفسه . كانت النساء المذعورات في آخر حدود احتمالهن ، حاولت واحدتهن بعد الأخرى أن تناقشه ، أن تجعله يفهم

أن هذا هو قدر المرأة . وفي النهاية أخرجنه دافعات اياه دفعاً إلى الباب ، وهناك تحت المطر بدأ يذرع الطريق جيئة وذهاباً ، عاري الرأس ، يسيطر عليه مايشبه الجنون ! لكنه بعد ربع ساعة ، اندفع صاعداً الدرج مرة ثانية ، وخشية أن يحطم الباب اضطررن أن يفتحنه له ويسمحن له بالدخول .

لم تكن ثمة إمكانية لمناقشته . لم يكن بامكانهن أن يقلن له أن كل شيء سيمر بسلام — كيف تراهن يعرفن ، صرخ في وجوههن — انها تموت ، انها تتمزق ارباً ، استمعن لها — اصغين . أوه . . انه شيء رهيب — لايمكن السماح به — يجب تقديم عون لها — ألم يحاولن المجيء بطبيب ؟ — ربما يدفعون له فيما بعد — بالامكان تقديم وعد له .

فاحتجت ماريا « ليس باستطاعتنا أن نعد بشيء ، ياجرجس —فليس لدينا نقود . . ونحن بشق النفس باقون على قيد الحياة . . » .

« لكنني سأعمل » هتف جرجس « سأكسب مالاً . . »

« أجل » هتفت ماريا « لكنك كنت في السجن لانعلم متى تعود والأطباء لايعملون بلا مقابل » .

ثم مضت ماريا تخبره كيف حاولت ايجاد قابلة ، وكيف طلبت القابلات عشرة ، خمسة عشر ، بل حتى خمسة وعشرين دولاراً نقداً ، « وأنا لاأملك إلا ربع دولار » تابعت الفتاة « لقد انفقت كل فلس من نقودي ، كل ماكان لدي في المصرف ، كما أنني مدينة للطبيب

الذي يأتي لمعالجة يدي ، وقد توقف عن المجيء لأنه يظن أنني لن أدفع له . كذلك نحن مدينون لأنييل بأجرة أسبوعين وهي تشرف على الهلاك جوعاً وانني لاخشى أن تطردنا . اننا نستدين ونشحذ كي نبقى على قيد الحياة ، وليس هناك مايمكننا فعله غير ذلك — » .

« والأولاد ؟ » صاح جرجس .

« الأولاد لم يعودوا إلى المنزل منذ ثلاثة أيام . الطقس في غايةالسوء . انهم لايعرفون مايحدث هنا — فقد جاء فجأة ،قبل شهرين من موعده» . كان جرجس يقف بجوار الطاولة فثبت نفسه ممسكاً بها بينما تهاوى رأسه إلى جانبه واهتزت ذراعاه — لقد بدا وكأنه يوشك على الانهيار . حينذاك نهضت انييل فجأة وجاءت تزحف باتجاهه مفتشة في جيب تنورتها . ثم أخرجت خرقة وسخة ، عقدتها على شيء ما وقالت له :

« هاك جرجس ، لدي بعض النقود . بالولك ! ! انظر . . »

ثم فكت العقدة وعدت المبلغ — أربعة وثلاثين سنتاً « امض الآن . . هيا . . » قالت له « حاول أن تحصل على شيء لنفسك ، وربما تستطيع بعضهن المساعدة — اعطيه أنت بعض النقود ، هيا ، سيعيدها لك ذات يوم ، لعلها ستساعده على التفكير بشيء ما ، حتى وإن لم ينجح . وحين يعود ، ربما سيكون الأمر قد انتهى » .

وهكذا اخرجت النساء الأخريات مافي جيوبهن ، فكان معظمه من البنسات وأنصاف البنسات ، ثم أعطينه اياه . السيدة أولتزوسكي

التي تسكن في المنزل المجاور والتي يعمل زوجها جزار ماشية ماهراً ، إلا أنه مدمن على الكحول ، أعطته نصف دولار تقريباً مما رفع المبلغ كله إلى الدولار والربع فدفعه جرجس إلى داخل جيبه ممسكاً به باحكام ، ثم انطلق يعدو .

ـ ١٩ ـ

« مدام هوبت ، هيبام » كانت تقول احدى اللوحات وهي تتدلى من نافذة طابق ثان فوق حانة في الشارع ، وعلى باب جانبي كان ثمة لوحة أخرى ويد تشير إلى درجات سلم قذر ، صعدها جرجس ثلاثاً ثلاثاً .

كانت مدام هوبت تقلي لحم الخنزير والبصل ، تاركة باب منزلها شبه مفتوح كي يخرج الدخان . وحين حاول ان يطرقه ، انفتح تماماً فلمحها وهي تقلب زجاجة سوداء على شفتيها ، بعدئذ طرق بصوت اعلى ، فبدأت تبعد الزجاجة . كانت المرأة هولندية ، سمينة على نحو مخيف ـ وكانت حين تمشي تتدحرج وكأنها قارب على صفحة ماء المحيط ، كما كانت الصحاف في الخزانة تطرق بعضها بعضاً . كانت المرأة تلبس إزاراً ازرق ، وكانت اسنانها سوداء .

« ماالامر » ؟ قالت حين رأت جرجس .

لقد جرى كالمجنون طول الطريق وكان مقطوع الانفاس إلى حد

تعذر عليه الكلام الا بالكاد . كذلك كان شعره مضطرباً وعيناه متوحشتين — لقد بدا اشبه برجل اخرج من القبر لتوه .

« زوجتي . . » قال لاهثاً « تعالي بسرعة . . »

وضعت مدام هوبت المقلاة على احد الجوانب ثم مسحت يديها متسائلة « تريدني ان اذهب لحالة ولادة ؟ . »

« اجل » : قال جرجس شاهقاً .

فقالت « لقد عدت لتوي ولم يتسن لي ان اتناول غدائي ، مع ذلك — اذا كان الامر في غاية السوء . . . »

« اجل . . انه في غاية السوء » صرخ جرجس

« حسناً ، اذن ماذا تدفع ؟ »

« أنا . . أنا . . كم تريدين ؟ » قال جرجس متلعثماً .

« خمسة وعشرين دولاراً . »

فقال وقد أكب بوجهه : « انا لااستطيع دفع ذلك . »

كانت المرأة تراقبه من زاوية عينها « وكم تدفع ؟» سألته .

« هل ينبغي ان ادفع الآن ؟ الآن تماماً ؟ »

« اجل كافة زبائني يدفعون سلفاً »

« أنا . . أنا لااملك الكثير من المال » بدأ جرجس يسيطر عليه نوع من التخوف . »

«كنت واقعاً في مشكلة ،وقد ذهب مالي كله — لكنني سأدفع لك . . . كل فلس . . . تماماً بأسرع مااستطيع . . . بامكاني ان اعمل . »

« وماهو عملك ؟ »

« ليس لي عمل الآن ، لكنني سأجد واحداً »

« وكم تملك الآن ؟ »

وبصعوبة بالغة تمكن من تدبير الجواب : « دولاراً وربعاً » فبدأت المرأة تضحك ، مباشرة في وجهه ، ثم ردت اخيراً :

« انا لا البس قبعتي مقابل دولار وربع . »

« إنه كل ماأملك ، » راح يتوسل بصوت محطم « يجب ان احصل على قابلة — زوجتي تموت . . لايمكنني الحيلولة دون ذلك — أنا . . . »

ارجعت مدام هوبت المقلاة بما فيها من لحم وبصل إلى الموقد ثم التفتت اليه مجيبة من بين امواج البخار وصوت القلي : « عشرة دولارات نقداً ، ثم تدفع لي البقية في الشهر القادم » . « لكنني لااستطيع ، لااملك هذا المبلغ » احتج جرجس « اقول لك لااملك إلا دولاراً وربعاً ».

فالتفتت المرأة إلى عملها قائلة « انا لااصدقك . الجميع يحاولون

خداعي فما السبب في أن رجلاً كبيراً مثلك لايملك إلا دولاراً وربعاً ؟ »

« لقد خرجت لتوي من السجن » صرخ جرجس وهو على اتم الاستعداد لان يركع على ركبتيه امام المرأة « ليس لدي نقود ، وعائلتي توشك على الموت جوعاً . »

« اذن اين اصدقاؤك ؟ ترى الا يمدون لك يد العون ؟ »

فأجاب : « كلهم فقراء . هذا المبلغ الذي احمله منهم . لقد فعلت كل مافي وسعي» « أليس لديك ماتبيعه ؟ » .

« . . لا . . لا املك شيئاً يباع — ليس لدي مايباع » صرخ كالمجنون. « ألا تستطيع الاستدانة ، اذن ؟ ألا يثق بك صاحب المحل الذي تشتري منه ؟ » وحين هز رأسه بالنفي تابعت المدام : « اصغ الي — اذا أخذتني ستسرُّ مني . سأنقذ لك زوجتك وطفلك وسترى ان ماتدفعه ليس كثيراً ابداً . اما اذا خسرت زوجتك وطفلك فسترى كيف تفكر وتشعر بعد ذاك ؟ هاهنا سيدة تعرف مهنتها جيداً ، بامكاني ان ارسلك إلى اناس في هذا المبنى وهم سيخبرونك . »

ثم اشارت مدام هوبت إلى جرجس بشوكتها على نحو إقناعي إلا ان كلماتها كانت اكثر مما يستطيع تحمله فطوح يديه بحركة يائسة ثم دار على عقبيه وبدأ يبتعد هاتفاً « لافائدة » لكنه فجأة سمع صوت المرأة مرة ثانية :

« سأجعلها خمسة دولارات من اجلك »

ثم تبعته وهي تناقشه « ستكون احمق ان لم تقبل عرضاً كهذا » قالت المرأة « فانت لن تجد احداً يخرج معك في يوم ماطر كهذا لقاء مبلغ اقل . ولم لا ، انا نفسي لم اخرج إلى حالة من الحالات بمثل هذا الرخص . انا لااستطيع ان ادفع به اجرة غرفتي » فقاطعها جرجس بسورة غضب شديدة ، شبه صارخ « لكنني لااملك هذا المبلغ ، فكيف ادفعه لك ؟ يااللعنة . . لو كنت املكه لدفعته ، اقسم لك . وسأدفعه حين استطيع لكنني الآن لا املكه ، هل تسمعينني — لااملكه . . . »

ثم التفت وبدأ يبتعد ثانية ، وحين بلغ منتصف الدرج سمع هوبت تصيح به : « انتظر . سأذهب معك ، انتظر . »

فعاد إلى الغرفة مرة ثانية .

« من الصعب علي ان افكر بانسان يعاني الآلام » ، قالت بصوت مكتئب « ربما اذهب معك مقابل لاشيء بعد ان عرفت حقيقتك . . سأحاول مساعدتك ، فكم يبعد بيتك . ؟»

« ثلاثة او اربعة مباني من هنا »

« ثلاثة او اربعة . . اذن سوف اتبلل . . سأصاب بالزكام ، انه يستحق أكثر . . دولار وربع ! ! وفي يوم كهذا ! ! لكنك تفهم ، ستدفع لي بقية الدولارات الخمسة والعشرين حالاً . »

«بأسرع ما استطيع »

« في وقت ما من هذا الشهر ؟ »

« اجل ، خلال شهر » قال جرجس المسكين « أي شيء . . هيا ، اسرعي . . »

وضع جرجس النقود على الطاولة فعدتّهاالامرأة ثم خبأتها . بعدئذ مسحت يديها الملوثتين بالشحم مرة ثانية ومضت تستعد ، متذمرة طيلة الوقت . لقد كانت سمينة إلى درجة تؤلمها فيها كل حركة كما كانت تهمهم وتشهق لـدى كل خطوة ، خلعت المرأة ازارها دون ان تزعج نفسها حتى بادارة ظهرها لجرجس ثم لبست مشدّها وفستانها ، بعدئذ جاء دور القبعة التي تنبغي ان تعدل تماماً والمظلة التي كانت في وضع سيء ثم الحقيبة الملأى باللوازم التي جمعت من هنا وهناك — والرجل يكاد يجن قلقاً خلال ذلك . وحين خرجا إلى الشارع بقي على مسافة اربع خطوات امامها ، يلتفت اليها بين الحين والحين ، وكأنه يحثها على الاسراع بقوة رغبته . الا ان مدام هوبت كانت تخطو الخطوة وكل مايشغل بالها ان تحصل على الانفاس التي تحتاجها للخطوة التالية .

اخيراً وصلا المنزل ، ومن ثم مجموعة النساء المذعورات في المطبخ ، وعلم جرجس ان الامر لم ينتــه بعد — فقد سمع صراخ اونا ،

وفي الحال خلعت مدام هوبت قبعتها ثم وضعتها على الرف واخرجت من حقيبتها ثوباً عتيقاً اولاً ثم صحناً من زيت الاوز راحت تدلك به يديها . اذ بقدر ماتكثر الحالات التي يستخدم فيها هذا الزيت بقدر مايجلب حظاً افضل للقابلة ، لذلك تبقيه على رف موقدها او تخبئه في خزانتها مع ملابسها الوسخة ، أشهراً ، بل سنوات حتى .

بعدئذ رافقتها النسوة إلى السلم ، فسمعها جرجس تطلق شهقة خوف ، « ستقتلني .لماذا اتيت بي إلى مكان كهذا ؟ انا لااستطيع صعود السلم . لايمكنني عبور باب السقف . . لن احاول ذلك . لا . . سأقتل نفسي فعلاً . اي مكان هذا ؟ كيف تستطيع امرأة ان تحمل طفلاً في مكان مثله ـ في علية . . لاشيء يصلها بالعالم الا سلم . ينبغي ان تخجلوا من انفسكم . . » كان جرجس يقف في المدخل ويصغي لتقريعها وهو يعلو تقريباً على أنات أونا وصرخاتها المرعبة .

اخيراً افلحت انبيل في تهدئتها ، فبدأت تحاول الصعود ، لكنها بعدئذ اضطرت للتوقف حين حذرتها العجوز من ارضية العلية . فهناك لاتوجد ارضية بمعنى الكلمة ـ بل الواح عتيقة رصفت في جزء من اجزاء العلية كي توفر مكاناً تعيش فيه العائلة ، وفي هذا القسم كل شيء مأمون وسليم ، اما الاقسام الاخرى فليس فيها سوى عوارض السقف ثم الواح السقف السفلي وجصه . واذا ماخطا المرء خطوة هناك فقد تحدث كارثة . وبما ان المكان شبه مظلم ، فمن المفضل ان تصعد احدى النسوة

أولاً ومعها شمعة . بعد ذاك سمع جرجس صرخات وتهديدات اخرى إلى ان لاح اخيراً لجرجس زوج من السيقان الفيلية تختفي عبر باب السقف واحس وكأن البيت يرتج حين بدأت مدام هوبت تمشي . بعدئذ جاءت انبيل فجأة اليه وامسكته من ذراعه قائلة :

« والآن . . اذهب بعيداً . افعل مااقول لك — لقد قمت بكل ماتستطيع القيام به . انت عثرة في الطريق ، فاذهب . ابق بعيداً . »

لكن جرجس سأل سؤال اليائس « واين اذهب؟ »

« لاادري » ، اجابت المرأة « اذهب إلى الشارع ان لم يكن هناك مكان آخر لك — فقط . . اذهب وابق كل الليل . »

وفي النهاية دفعته هي وماريا دفعاً خارج الباب ثم اغلقتاه خلفه . كانت الشمس توشك على المغيب ، وكان الجو قد غدا بارداً — لقد انقلب المطر إلى ثلج والوحل تجمد . ارتعش جرجس بملابسه الرقيقة ثم وضع يديه في جيبه وانطلق مبتعداً . لم يكن قد اكل شيئاً منذ الصباح فشعر بالضعف والوهن لكنه بخفقة امل مفاجئة تذكر انه لايبعد الا بضعة مبان عن الحانة حيث كان يتناول غداءه احياناً . هناك قد يشفقون عليه ، او قد يجد صديقاً . فانطلق قاصداً الحانة بأسرع مايستطيع « مرحباً جاك » قال صاحب الحانة حين دخل جرجس — فهم في باكنجتاون يطلقون على كل الاجانب وكل العمال المهرة اسم جاك . « اين كنت ؟ » .

اتجه جرجس مباشرة إلى المشرب قائلاً « كنت في السجن ، وقد خرجت لتوي . ثم مشيت الطريق كله على قدمي . ليس لدي سنت واحد ولم آكل شيئاً منذ الصباح ، كما اني خسرت منزلي ، وزوجتي مريضة وانا في شر حال . »

حدق صاحب الحانة إلى وجهه الشاحب المهزول وشفتيه الزرقاوين المرتعشتين . بعدئذ دفع زجاجة كبيرة صوبه قائلاً : « املأ كأسك »

وبصعوبة بالغة استطاع جرجس حمل الزجاجة ، إذ كانت يداه ترتجفان بشدة « لاتخف » قال صاحب الحانة « املأ كأسك » .

وهكذا عب جرجس كأساً كبيرة من الويسكي ثم انقلب إلى طاولة الطعام تنفيذاً لاقتراح الرجل . فالتهم كل ما جرؤ على التهامه ، حاشياً معدته بأسرع مايستطيع . ثم مضى ، بعد ان حاول التعبير عن امتنانه ، وجلس بجانب الموقد الكبير المحمر في منتصف الغرفة .

لكن الوضع كان افضل كثيراً من ان يدوم – شأنه شأن كل الاشياء الحسنة في هذا العالم القاسي . فقد بدأت ثيابه المبللة بالتبخر وبدأت معها رائحة السماد الفظيعة تملأ الغرفة . خلال ساعة تقريباً ستغلق دور التعليب ابوابها ويعود العمال من اعمالهم ، ولن يدخلوا مكاناً يفوح برائحة جرجس . كذلك كانت تلك ليلة السبت وخلال ساعتين على الاكثر سيصل عازفو الموسيقى ، حـ ، يمكن لعائلات

الحي ان تأتي وترقص ازواجاً ازواجاً في القسم الخلفي من الحانة ثم يتناول الراقصون عشاءهم ويحتسون شرابهم حتّى الثانية او الثالثة من الصباح . تنحنح صاحب الحانة مرة او مرتين ثم قال « جاك عليك أن ترحل » .

لقد كان معتاداً على رؤية الحطام البشري ، صاحب الحانة هذا . انه يطرد العشرات منهم كل ليلة ، وكلهم مهزول ، بردان ، وحيد كهذا الحطام الذي يتكوم امامه تماماً وهم جميعاً ممن يستسلمون ويخرجون اما جرجس فقد كان مايزال قادراً على القتال ، في رأسه ذكريات ما عن الآداب واللياقة وحين نهض بلطف ودماثة ، فكر الآخر انه كان دائماً رجلاً رابط الجأش وقد يعود مرة ثانية زبوناً طيباً « لاعليك ، ستتجاوز محنتك كما ارى » ، قال وهو يصحبه ، « تعال ، هذا الطريق » .

في مؤخرة الحانة كان هناك درج القبو حيث يوجد باب في الاعلى وباب في الاسفل وكلاهما مقفل بأمان جاعلاً الدرج مكاناً رائعاً لايداع زبونربماماتزاللديه فرصة لان يكسب مالاً ، او لسببسياسي يستحسن عدم طرده .

وهكذا قضى جرجس ليلته . كانت كأس الويسكي قد اعطته شيئاً من الدفء لكنه لم يستطع النوم رغم ماعليه من انهاك واجهاد ، بل كان يغفو قليلاً فيسقط رأسه إلى الامام ثم يجفل في الحال مرتعشاً

من البرد ويبدأ بالتذكر مرة ثانية . وهكذا مضت الساعة تلو الساعة إلى ان استطاع اخيراً اقناع نفسه بأن الصباح لم يأت بعد ، وهو يسمع اصوات الموسيقى والضحك والغناء آتية من الغرفة . لكن حين توقفت اخيراً ايقن انهم سيأتون لاخراجه إلى الشارع ، وبما ان هذا لم يحدث ، فقد اخذ به العجب كل مأخذ . ترى هل نسيه الرجل ؟ .

في النهاية ، وحين لم يعد باستطاعته تحمل الصمت والسكينة ، نهض وقرع الباب فجاء صاحب الحانة وهو يتثاءب ويدلك عينيه . كانت حانته تظل مفتوحة الابواب طوال الليل وكان يغفو في الفترة الفاصلة بين الزبون والزبون .

« اود الذهاب إلى المنزل » قال جرجس « انني قلق بشأن زوجتي . لااستطيع الانتظار بعد . »

فقال الرجل . . « لماذا ، بحق الجحيم ، لم تقل ذلك من قبل ؟ ظننت انك لاتملك بيتاً تذهب اليه . »

وخرج جرجس . كانت الساعة الرابعة صباحاً . ظلام الليل مايزال مخيماً وعلى الارض ثلاث او اربع بوصات من الثلج الذي سقط حديثاً وكانت الهشائش تتساقط كثيفة وسريعة فانعطف باتجاه منزل انبيل وانطلق يعدو .

كان ثمة ضوء يشتعل في نافذة المطبخ وقد غطتها الستائر . لكن

الباب لم يكن مقفلاً فاندفع جرجس إلى الداخل . حول الموقد كانت هناك انبيل ، ماريا وبقية النسوة يتكومن تماماً كما كن من قبل ، اضافة إلى عدة نسوة اخريات لاحظهن جرجس — كذلك لاحظ أن البيت ساكن تماماً .

« حسن ؟ » سألهن .

انما لم تجب واحدة منهن ، بل تابعن حملقتهن بوجوه شاحبة ، فصرخ ثانية « حسن ؟ . . »

بعد ذاك وعلى ضوء المصباح المدخن رأى ماريا التي كانت اقرب النساء اليه تهز رأسها على مهل « ليس بعد » .

فأطلق جرجس صرخة ذعر « ليس بعد ؟ »

ومرة ثانية هزت ماريا رأسها ، بينما وقف المسكين حائراً مبهوتاً ثم قال شاهقاً « لكنني لااسمع صوتها » .

فأجابت الاخرى « لقد هدأت منذ زمن طويل »

بعدئذ حدثت وقفة اخرى — قطعها فجأة صوت من العلية منادياً هيه . .

« يا من هناك ! »

جرت عدة نسوة إلى الغرفة المجاورة بينما وثبت ماريا باتجاه

جرجس صارخة : « انتظر هنا » وهكذا وقفا ، وكلاهما شاحب يرتعش كتلة من الآذان الصاغية . وخلال بضع لحظات غدا واضحاً ان مدام هوبت منهمكة بنزول السلم وهي تقرع وتوبخ من جديد في حين كان السلم يصر احتجاجاً . بعد برهة وصلت إلى الارض ، غاضبة مقطوعة الانفاس ثم سمعاها تأتي إلى الغرفة فرشقها جرجس بنظرة سريعة ، ثم شحب وجهه ونكص على عقبيه . كانت قد خلعت سترتها ، كأولئك الذين يعملون في احواض الذبح وكانت يداها وذراعاها ملطخة بالدم ، وكان الدم قد تناثر على ثيابها ووجهها فوقفت وهي تتنفس بصعوبة ثم حدقت فيما حولها . لكن مامن احد فاه بكلمة واحدة . « لقد بذلت كل جهدي » بدأت فجأة « لم استطع فعل شيء آخر — ليس هناك فائدة من المحاولة » .

ومرة ثانية ساد الصمت ، فاستأنفت . . .

« ليس الخطأ خطئي ، كان عليكم ان تأتوا بطبيب. كان عليكم ألا تنتظروا طويلاً ، اذ كان الاوان قد فات حين جئتم بي » ومن جديد ساد صمت كصمت القبور وكانت ماريا تتمسك بجرجس بكل مافي يدها السليمة من قوة .

بعدئذ التفتت مدام هوبت فجأة إلى انييل : « أليس لديك مايشربه الانسان ؟ براندي مثلاً ؟ » .

فهزت آنييل رأسها « هتفت مدام هوبت « اي ناس أولاء . ؟

اذن ربما ستقدمون لي ماآكله ، فأنا لم آكل شيئاً منذ صباح الامس واكاد اموت من التعب . لوعلمت ان الامر هنا على هذا النحو ماكنت لاجيء ابداً بالمبلغ الذي اعطيتموني اياه . »

في اللحظة ذاتها تطلعت حولها ، وبالمصادفة رأت جرجس فهزت اصبعها في وجهه ثم قالت « انت تفهمني . ستدفع لي بقية المبلغ مثلما اتفقنا تماماً . فليست هي بخطيئتي انك جئت إلي وقد تأخر الوقت حتى لم يعد باستطاعتي مساعدة زوجتك . ليست خطيئتي أن وليدها خرج باحدى ذراعيه اولاً وبذلك لم استطع انقاذه . لقد حاولت طوال الليل ، وفي ذلك المكان الذي لايصلح لان تلد فيه الكلاب ، ودون ان اجد ماآكله سوى مااحضرته معي في جيوبي . »

هنا توقفت مدام هوبت لحظة من الزمن تسترد انفاسها . تطلعت ماريا إلى جرجس فشاهدت حبيبات العرق على جبهته وشعرت بكيانه كله يرتعش ، فخرقت الصمت قائلة بصوت منخفض :

« كيف اونا ؟ »

« كيف اونا ؟ » رددت مدام هوبت « وكيف تظنين انها يمكن ان تكون حين تتركونها تقتل نفسها هكذا ؛ لقد اخبرتهم بذلك حين طلبوا الكاهن . انها صغيرة السن وربما كانت ستتخطى المحنة وتعود قوية وصحيحة لو انها عولجت كما ينبغي . لقد كافحت ببسالة ، تلك الفتاة — وهي لم تمت بعد » .

فأطلق جرجس صرخة مجنونة « لم تمت بعد . . »

فقالت الاخرى غاضبة « هي ستموت طبعاً ، ولقد مات طفلها الآن . كانت العلية مضاءة بشمعة الصقت على لوح ، وكانت على وشك الانتهاء تنثر الشمع حولها وتدخن حين اندفع جرجس صاعداً السلم . وبصعوبة بالغة استطاع تمييز كتلة من الاسمال والبطانيات العتيقة ممددة على الارض : عند طرفها صليب وقربه كاهن يتمتم بصلاة وفي زاوية بعيدة تكومت الزبيبتا وهي تنوح وتعول.وعلى مفرش الاسمال كانت تتمدد اونا ، تغطيها بطانية لكنه استطاع رؤية كتفيها وذراعاً من ذراعيها مكشوفة عارية . كانت قد تضاءلت إلى درجة لم يعرفها الا بالكاد — اذ لم تكن أكثر من هيكل عظمي . بيضاء كقطعة من الحكلك . اجفانهامطبقةتستلقي ساكنةكالموتى،فترنح باتجاهها ثم هوى على ركبتيه صارخاً صرخة ملؤها العذاب « اونا ، اونا » .

لم تتحرك اونا ، فأمسك يدها بيده وبدأ يشد عليها بجنون هاتفاً : « انظري إلي ، . . اجيبيني . . أنا جرجس لقد عدت . . الا تسمعينني ؟»

ورأى ارتعاشة خفيفة في الاجفان فنادى ثانية في حمى مسعورة « اونا ، اونا . . . »

عند ذلك فتحت عينيها فجأة — وللحظة واحدة . لحظة تطلعت فيها اليه ومرت لمحة تعارف بينهما — رآها فيها بعيدة كما ترى طيفاً عبر مجاز معتم وهو يقف بعيداً وحيداً . مد يديه اليها ثم هتف بها هتاف

اليائس القانط . كان ثمة شوق مخيف يتلاطم في داخله ، جوع اليها شديد العذاب ، رغبة بدت وكأنما ولدت من جديد فيه تمزق نياط فؤاده ، تكيل له شتى اصناف العذاب ، لكن كان ذلك عبثاً — فقد غابت عنه ، انزلقت عائدة ومضت . فانفجرت صرخة عذاب من فمه ، وراحت تشنجات هائلة تهز كل كيانه وانسابت دموع حرى على وجنتيه وبدأت تتساقط عليها . امسك بيديها ، هزها ، احتضنها بين ذراعيه ، ضغطها إلى صدره ، لكنها ظلت ساكنة باردة — لقد قضت ! ! قضت ! ! ودوت الكلمة في رأسه كدوي ناقوس تردده اعماقه البعيدة جاعلة الاوتار المنسية تهتز ، المخاوف القديمة الخفية تتحرك — خوفه من الظلمة ، خوفه من الفراغ ، خوفه من العدم . لقد ماتت ! ! ماتت ! ! لن يراها ثانية . لن يراها بعد ذلك ابداً . وأطبقت يدها عليه اهوال الوحدة الجليدية . رأى نفسه يقف بعيداً ، يرقب العالم كله وهو يتلاشى مبتعداً عنه — عالم الظلال ، عالم الاحلام المتقلبة . كان في حزنه وخوفه ، اشبه بطفل صغير . كان ينادي وينادي انما دون جواب ، وكانت صرخات يأسه تدوي في المنزل لتعود اليه اصداء وتجعل النساء في الطابق السفلي يلتصقن أكثر وأكثر بعضهن بالبعض الآخر ، لم يكن ثمة مايدخل اليه العزاء — جاء الكاهن ثم وضع يده على كتفه هامساً في اذنه ، إلا انه لم يسمع . كان هو نفسه قد ولى بعيداً ، متعثراً عبر الظلال ، باحثاً عن الروح التي فرت منه .

هكذا تمدد . جاء الفجر الاشهب ، زحف إلى داخل العلية ، غادر الكاهن. رحلت النسوة وظل هو وحده مع الجسد الابيض الساكن — أكثر هدوءاً الآن إلا أنه يئن ويرتعش متصارعاً مع الشيطان الرهيب . من حين إلى حين كان يرفع نفسه ، يحملق بالقناع الابيض امامه ، ثم يخفي عينيه لانه لايستطيع التحمل . ماتت ! ! ماتت ! ! هي الفتاة الصغيرة الفتاة التي لم تتعد الثامنة عشرة ! ! لم تبدأ حياتها بعد — وهاهي تتمدد قتيلة مخنوقة — معذبة حتى الموت .

عند الصباح ، نهض جرجس ثم نزل إلى المطبخ — مهزولاً ، اشهب كالرماد ، يترنح ، غائم البصر . كان عدد آخر من الجيران قد جاؤوا فبدؤوا يحملقون به صامتين وهو يلقي بنفسه في كرسي بجوار الطاولة ويدفن وجهه بين ذراعيه .

بعد بضع دقائق فتح الباب الامامي فاندفعت إلى الداخل هبة من البرد والثلج دخلت في اثرها كوترينا الصغيرة لاهثة من الجري ، مزرقة من البرد ، ثم توقفت لدى رؤيتها جرجس ، مطلقة صرخة . بعدئذ راحت تنتقل ببصرها من واحد إلى آخر مدركة ان شيئاً ماقد حدث فسألت بصوت منخفض « ماذا جرى ؟ » .

لكن قبل ان يستطيع احد الاجابة هب جرجس على قدميه ، ثم سار باتجاهها بخطا غير ثابتة « اين كنت ؟ » سألها .

فأجابت « ابيع الصحف مع الصبية . الثلج . . . »

لكنه قاطعها سائلاً « ألديك نقود ؟ » .

« اجل »

« كم ؟ »

« حوالي ثلاثة دولارات ياجرجس »

« هاتيها »

فنظرت كوترينا ، وقد اخافها سلوكه ، نظرة سريعة إلى الآخرين لكنه أمرها ثانية « هاتيها » .

حينذاك مدت يدها إلى جيبها ثم اخرجت كتلة من القطع النقدية عقدت عليها في خرقة من اسمال . اخذها جرجس دونما كلمة ثم خرج من الباب وانحدر إلى الشارع .

بعد ثلاثة ابواب ، كانت هناك حانة . « ويسكي » ، قال جرجس وهو يدخل . وحين قدم الرجل بعض الويسكي له مزق جرجس الخرقة بأسنانه ثم اخرج نصف دولار وسأله : « بكم الزجاجة ؟ اريد ان أثمل . »

ـ ٢٠ ـ

بيد ان رجلاً كبيراً لايمكنه ان يبقى مدة طويلة يسكر بثلاثة دولارات . كان ذلك صباح الاحد ، وليلة الاثنين عاد جرجس إلى

المنزل صباحاً ، مريضاً ، مدركاً انه انفق كل سنت تملكه الاسرة وانه لم يشتر ، بما انفق ، النسيان للحظة واحدة .

لم تكن اونا قد دفنت بعد ، إلا انهم كانوا قد اعلموا الشرطة ، وفي الغد كانوا سيضعون الجسد في تابوت صنوبر ويأخذونه إلى مقبرة الفقراء والمجهولين . كانت الزبيبيتا في الخارج تشحذ وتستجدي ، بضعة بنسات من كل جار كي تحصل على مايكفي من اجل اقامة جناز لها ، والاطفال في الاعلى يموتون جوعاً ، بينما كان هو ، الوغد الذي لايصلح لشيء ينفق نقودهم على الشراب . هكذا كانت آنييل تتكلم باحتقار وحين تحرك باتجاه النار اضافت قائلة ان عليه بعد الآن الا يدخل مطبخها ويملأه بروائحه الفوسفاتية النتنة . لقد جمعت كل نزلائها في غرفة واحدة من اجل خاطر اونا ، والآن باستطاعته ان يصعد إلى العلية ، حيث لامكان له سواها لكنها لن تبقيه هناك طويلاً ان لم يدفع لها بعض الاجرة .

ذهب جرجس دون ان ينبس ببنت شفة . وبعد ان خطا فوق نصف دستة من النزلاء النائمين في الغرفة المجاورة ، صعد السلم . كانت العلية مظلمة تماماً ، اذ لم يكن باستطاعتهم اشعال شمعة ، كما انها كانت باردة كالخارج . في زاوية ابعد ماتكون عن الجثة ، جلست ماريا ممسكة بذراعها السليمة انتاناس الصغير ، محاولة تهدئته لينام . وفي زاوية اخرى تكوم جوزاباس الصغير المسكين وهو يعول وينوح لانه

يتضور جوعاً — لم تقل ماريا كلمة واحدة لجرجس . فزحف إلى الداخل كجرو جلد بالسياط وجلس بجوار الجثة . ربما كان عليه ان يفكر بجوع الاولاد بخسة تصرفه ، الا انه لم يفكر الا بأونا . لقد اسلم نفسه كلياً للحزن ، لم يرق دمعة واحدة لحجله من اصدار صوت بل جلس ساكناً بلا حراك يرتعش لشدة عذابه واضطرابه . لم يكن قد فكر من قبل بمقدار حبه لاونا ، اما الآن وقد رحلت ، الآن وهو يجلس بجوارها عارفاً انهم سيأخذونها غداً وانه لن يراها بعينيه بعد اليوم — طيلة ايام حياته ، فالامر مختلف . ففي صدره . عاد ذلك الحب القديم ، ذلك الحب الذي اماتوه جوعاً ، ضربوه وعذبوه حتى الموت لقد فاض من جديد ، ارتفعت بوابات فيض الذاكرة — رأى كل حياتهما معاً رآها بعيني صباه في ليتوانيا ، في ذلك اليوم من سوق الخيل ، جميلة يانعة كالزهرة مغردة كالعصفور . رآها حين تزوجا ، بكل مافيها من رقة ، بقلبها العجيب ، حتى كلماتها ذاتها عادت ترن في اذنيه ، دموعها وهي تذرفها تبلل وجنتيه . كانت المعركة القاسيةالطويلة التي خاضها مع البؤس والجوع قد جعلته صلباً فظاً لكنها لم تغيرها هي التي ظلت روحاً ظمأى حتى آخر انفاسها تمد ذراعيها له تتضرع اليه تستجدي منه الحب والرقة . ولقد عانت — كثيراً عانت ، عذابات هائلة عانت وآلاماً شديدة — آه ، يالله ! ! ذاكرة واحدهم تعجز عن تذكرها . أي شرير فاسد لاقلب له ، كان ياترى ؟ لقد عادت إلى ذاكرته كل كلمة غاضبة قالها لها لتجرحه كالسكين ، كل تصرف

اناني تصرفه . بأية عذابات عادت الآن وفي نفسه ينفجر حب كهذا .
قوي قوي . . . — الآن وقد بات من المتعذر الكلام عنه ، الآن وقد
فات الاوان ، فات الاوان ! ! صدره يمتلىء به حتى الاختناق :
يتفجر به وهو يتكوم هنا في الظلمة إلى جوارها ، مادا ذراعيه لها ،
هي التي رحلت إلى الابد ، هي التي ماتت ! كان بامكانه ان يصرخ
عالياً من شدة يأسه وهول مصابه، وكان عرق المعاناة يتصبب من جبينه.
مع ذلك لم يتجرأ على اصدار صوت — بل قلما تجرأ على التنفس خجلاً
واشمئزازاً من نفسه .

في وقت متأخر من الليل جاءت الزبيبتا ، وقد حصلت على نفقة
الجناز التي دفعتها مقدماً خشية ان يدفعها أمر ضروري في البيت لانفاق
شيء منها . كذلك احضرت معها كسرة من خبز الجاودار
ربما كان احدهم قد اعطاها لها ، وبتلك الكسرة اسكتت الصغار ،
جعلتهم ينامون . بعد ذاك اقتربت وجلست بجواره . لم تنطق بكلمة
تأنيب — فقد قررت هي وماريا مسبقاً ان تسلكا هذا السبيل . فقط ،
سوف تتوسل اليه ، هنا بجانب جثة زوجته . كانت عينا الزبيبتا قد
فرغتا من الدموع من قبل سيما وقد ملأ الخوف روحها حتى لم يعد
ثمة مكان للحزن . كان عليها ان تدفن احد اولادها . وقد فعلت ذلك
ثلاث مرات من قبل ، وفي كل مرة كانت تقف على رجليها من جديد
لتتابع المعركة من اجل البقية . كانت الزبيبتا واحدة من تلك المخلوقات
البدائية ، دودة من تلك الديدان التي تستمر وتحيا حتى لو قطعتها نصفين ،

دجاجة تظل ترعى آخر صغارها ، وهي تراها تموت الواحد بعد الآخر . انها تفعل ذلك لان تلك طبيعتها فهي لاتسأل عن عدالة هذا كله و لاعن جدارة الحياة بأن تعاش ، تلك الحياة التي لاتقدم للانسان الا الدمار والموت .

ولقد عملت كل مافي وسعها لكي تطبع جرجس بهذه النظرة الفطرية العتيقة ، راجية اياه والدموع في عينيها . لقد ماتت اونا الا ان ثمة آخرين مايزالون احياء وينبغي الحفاظ عليهم . لم تكن تبالي بأولادها فهي وماريا تستطيعان تدبير امرهم ، بل هناك انتاناس فلذة كبده . اونا هي التي انجبت له انتاناس — ذلك الصغير هو الذكرى الوحيدة التي تركتها له وعليه ان يحافظ على هذه الذكرى كما يحافظ المرء على كنزه ويحميه . كذلك عليه أن يثبت للناس جميعاً أنه رجل . إنه يعرف ماكانت تريد اونا منه ان يفعل ، مايمكنها ان تطلب منه لوكانت على قيد الحياة في هذه اللحظة ، شيء فظيع انها ماتت على هذا النحو وفي هذا الوقت لكن الحياة كانت قاسية عليها ، وكان عليها ان ترحل . شيء فظيع انهم لايستطيعون حتى دفنها وانهم لايملكون حتى يوماً واحداً للحداد عليها — لكن هكذا هي الدنيا ، قدرهم يضغط ويضغط ، ليس لديهم مليم واحد والاطفال سيهلكون — ينبغي الحصول على بعض المال ، ترى أليس بوسعه ان يكون رجلاً كرمى لأونا ؟ ان يتماسك من اجل خاطرها ؟ خلال فترة وجيزة سيخرجون من منطقة الخطر — الآن وقد تخلوا عن المنزل يمكنهم ان يعيشوا بتكلفة أقل واذا

اشتغل الاولاد جميعاً سيكون باستطاعتهم المضي قدماً ، شريطة ان يحافظ هو على نفسه . ان يمسك بدفة السفينة ريثما يصل بهم إلى شاطىء الامان . هكذا كانت تتحدث الزبيبتا بتركيز محموم . انه كفاح حقيقي بالنسبة لها . كفاح مصيري وهي ليست خائفة من ادمان جرجس على الشراب فهو لايملك مالاً لذلك ، بل كان يقتلها الخوف من أن يتخلى عنهم ، يهجرهم فاراً بجلده كما فعل جوناس من قبل .

لكن ، وهو أمام جثة أونا ، لم يكن باستطاعة جرجس ان يفكر بخيانة طفله ، فقال اخيراً ، نعم سيحاول من اجل انتاناس . سيتيح للطفل الصغير فرصة ، سيبحث عن عمل في الحال ، غداً وحتى دون ان ينتظر دفن أونا . بامكانهم الوثوق بكلمته والاعتماد عليه ، ولسوف يحفظ وعده ، وليحدث مايحدث .

وهكذا خرج مع فجر اليوم التالي يصحبه الصداع والغم والحزن . ذهب مباشرة إلى معمل دورهام للاسمدة ليرى ان كان باستطاعته استعادة عمله الا ان رئيس العمال هز رأسه حين رآه — لا ، مكانك انشغل منذ زمن طويل ، وليس هناك شاغر .

فسأل جرجس : هل تظن انه سيكون هناك شاغر ؟ ربما علي ان انتظر ؟ « كلا » قال الآخر « لاجدوى من انتظارك فليس لك مكان هنا ».

فحملق به جرجس منذهلاً « لكن لماذا ؟ ألم اكن أؤدي عملي

جيداً ؟ . . » الا ان رئيس العمال قابل نظرته بنظرة من اللامبالاة الباردة ثم اجابه « قلت لك . ليس لك مكان هنا » .

فذهبت ظنون جرجس إلى الفحوى الرهيبة لذلك الحادث ، ثم مضى وقد غاص قلبه بين جنبيه . وفي مكان من حشد العاطلين الجائعين الذين كانوا يقفون في الثلج وقف جرجس امام مكتب الدوام ، وقف بغير طعام مدة ساعتين إلى ان فرقت الحشد عصي الشرطة وايقن أن لاعمل له في ذلك اليوم .

كان جرجس خلال خدماته الطويلة في المسلخ قد كسب قدراً لابأس به من المعارف — فهناك اصحاب حانات يمكن ان يأتمنوه على كأس شراب وساندويشة وهناك افراد نقابته القديمة الذين يمكن ان يقرضوه نصف دولار او بضعة سنتات . لذا لم تكن المسألة مسألة حياة او موت بالنسبة له ، وهكذا كان يبحث عن عمل طوال النهار ليعود ثانية في الغد ويحاول المرة تلو المرة مثلما يحاول المئات والآلاف سواه . في غضون ذلك كانت تخرج تيتا الزبييتا وتشحذ ، هناك في منطقة « الهايدبارك» وكان يعود الاولاد بما يكفي لتهدئة انبيل وتأمين كفاف العيش لهم .

في نهاية اسبوع من الانتظار على هذه الشاكلة والتطواف تحت الرياح القارسة او التسكع في الحانات ، واتت جرجس فرصة عمل في واحد

من أقبية منشأة جونز الكبيرة . لقد رأى مشرف عمال يعبر الباب المفتوح ويناديه من اجل عمل :

« أتدفع عربة يد ؟ » سأله الرجل فأجاب جرجس . . « اجل ياسيدي » ، قبل ان يلفظ جملته تماماً « ماااسمك ؟ » سأله الرجل

« جرجس رودكوس »

« هل عملت في المسلخ من قبل ؟ »

« اجل . »

« اين ؟ . »

« في مكانين : احواض الذبح في منشأة براون ومعمل اسمدة دورهام . »

« ولماذا تركت ؟ »

« في المرة الاولى حدثت لي حادثة ، وفي الثانية حكمت بالسجن مدة شهر . »

« هكذا . حسناً ، سأعطيك فرصة . تعال صباح الغد واسأل عن السيد توماس »

وهكذا انطلق جرجس بالنبأ العظيم — لقد وجد عملاً ! ! انتهى الحصار الفظيع . فأقام من تبقى من افراد العائلة احتفالاً في تلك الليلة ،

وفي الصباح كان جرجس في مكان العمل قبل نصف ساعة من موعد الافتتاح جاءالمشرف مباشرة بعد ذلك وحين رأىجرجس قطب جبينه ، ثم قال « . . اوه . . لقد وعدتك بعمل ، أليس كذلك ؟ . »

فقال جرجس « اجل ، ياسيدي »

« اوه . . انا آسف ، يبدو انني اخطأت . لايمكنني استخدامك . » فحملق جرجس ذاهل اللب شاهقاً . . « لكن لماذا ؟ ماذا حدث ؟ » ، « لاشيء » قال الرجل . . «فقط لايمكنني استخدامك » وكانت في عينيه نفس النظرة الحاقدة الباردة تلك التي رآها في عيني رئيس العمال في معمل الاسمدة . كان يعلم انه لاجدوى من قول كلمة واحدة فدار على عتبيه ومضى بعيداً .

هناك في الحانات ، كان بامكان الرجال ان يخبروه معنى ذلك كله ، كانوا يحدجونه بنظرات مشفقة — مسكين . . لقد ادرج اسمه في القائمة السوداء . ماذا فعل ؟ سألوه — صرع رئيسه ارضاً ؟ ياللسماء . اذن كان ينبغي ان يعلم . . فليس لديه فرصة في الحصول على عمل في باكنجتاون أكثر من فرصة انتخابه رئيساً لبلدية شيكاغو .لماذا يهدر وقته عبثاً ؟. لقد سجلوا اسمه في قائمة سرية في كل مكتب من مكاتب الشركات ، الصغيرة منها والكبيرة . ولعل اسمه وصل ايضاً إلى سانت لويس ونيويورك ، اوماها وبوسطن ، مدينة كنساس وسانت جوزيف . لقد ادين وصدر بحقه الحكم « دون محاكمة ودون إستئناف » . ليس

باستطاعته العمل لدى اصحاب دور التعليب ابداً ، ليس بامكانه حتى تنظيف الزرائب وحظائر الماشية او دفع عربة يد في اي مكان يقع تحت سيطرتهم . بامكانه ان يحاول ذلك اذا اراد ، مثلما حاول المئات قبله واكتشفوا الامر بأنفسهم ، لكنه لن يجد واحداً يخبره بشيء ، لن يتوصل إلى مايقنعه أكثر مما توصل اليه الآن . سيجد دائماً انه مامن احد يحتاجه ، ولن ينفعه ان يتقدم تحت أي اسم آخر . فلديهم « راصدون» خصوصيون لهذا الغرض تماماً ، ولن يظل في أي عمل يبدؤه هنا أكثر من ثلاثة ايام . فالامر الذي يحرص عليه كثيراً ارباب العمل هنا هو ابقاء قوائمهم السوداء سارية المفعول وذلك كتحذير للرجال ووسيلة للضغط على النقابات والقضاء على الاضطرابات والنقمة السياسية .

ذهب جرجس إلى المنزل حاملاً هذه الأنباء الجديدة إلى مجلس العائلة . إنه أشد الأشياء قسوة ، فهنا في هذه المنطقة كان منزله ، إن جاز التعبير ، المكان الذي اعتاد عليه والأصدقاء الذين عرفهم — والآن كل احتمالات استخدامه هنا قد انتهت إلى الأبد ، كل الأبواب سدت ، ولم يكن في باكنجتاون سوى دور التعليب ، فبدا الأمر له وكأنهم يطردونه من منزله .

امضى هو والمرأتان طيلة النهار ونصف الليل وهم يناقشون الموقف . قلب المدينة سيكون ملائماً كمكان لعمل الأولاد . لكن ماريا كانت حينذاك على وشك الشفاء من اصابتها وكانت لديها آمال في الحصول

على عمل في المسلخ ، ورغم أنها لم تكن ترى حبيبها قديم العهد إلا مرة واحدة في الشهر بسبب بؤس حالتهم ، إلا أنها لم تكن قد عزمت على فراقه والتخلي عنه إلى الأبد . كذلك كانت الزبيبتا قد سمعت عن فرصة لمسح الأرض في مكاتب دورهام وكانت تنتظر الجواب النهائي .. وهكذا اتخذ القرار في النهاية بأن يمضي جرجس إلى قلب المدينة يسعى في مناكبها هناك ، ثم يقررون بعد أن يحصل على عمل . وبما أنه لم يكن هناك من يستدين منه مالاً ولم يكن يتجرأ على ممارسة التسول خشية إلقاء القبض عليه فقد تم الاتفاق على أن يلتقي كل يوم بأحد الأولاد ويعطيه خمسة عشر سنتاً يمكنه أن يسد بها رمقه . بعد ذاك ، كان عليه كل يوم أن يذرع الشوارع مع مئات وآلاف العاطلين الآخرين سائلاً أصحاب المحلات ، المستودعات ، المصانع ، عن فرصة للعمل ،وفي الليل يزحف إلى أحد المداخل أو تحت احدى الشاحنات ويختفي هناك حتى منتصف الليل ، وحينها قد يتسنى له الدخول إلى أحد المخافر فيبسط صحفه على الأرض ويقبع وسط جمع غفير من المتبطلين السكارى والشحاذين ، تفوح منهم جميعاً رائحة الكحول والتبغ وتعشش فيهم الهوام والأمراض .

وهكذا ، ظل جرجس اسبوعين آخرين يصارع شيطان اليأس . ذات مرة اتيحت له فرصة للعمل في تحميل شاحنة مدة نصف نهار ، ومرة أخرى حمل حقيبة امرأة عجوز فأعطته ربع دولار مما أتاح له أن يقيم في أحد المثاوي عدة ليال ٍ ولولا ذلك لتجمد من البرد . وهكذا

صار من حين لآخر يشتري صحيفة صباحية يبحث فيها عن اعلانات العمل ، في حين يراقبه الآخرون ينتظرون منه أن يلقي بها أرضاً . لكن هذه لم تكن هي الفائدة الحقيقية للصحف ، فاعلانات الصحف هي مدعاة لاضاعة الكثير من الوقت « الثمين » ، وللقيام بجولات كثيرة متعبة . فنصف تلك الاعلانات مزيفة ، تضعها مختلف المؤسسات التي تتصيد الجهلاء البائسين من العاطلين عن العمل . وإذا كان جرجس يضيع وقته فقط ، فذلك لأنه لايملك مايضيعه سواه . فكلما كان يخبره وكيل زلق اللسان عن مركز عمل رائع تحت تصرفه ، كان يكتفي بهز رأسه بأسى ويقول أنه لايملك الدولار الضروري لايداعه وحين يشرحون له كم من المال يمكنه هو وعائلته أن يكسبوا عن طريق تلوين الصور ، كان يكتفي بالوعد بالمجيء مرة ثانية حين يتوفر له دولاران يشتري بها المعدات .

في النهاية أتيحت لجرجس فرصة عمل من خلال لقاء عرضي التقاه بأحد معارفه القدامى أيام النقابة . لقد واجه هذا الرجل وهو في طريقه إلى العمل في مصانع « تروست هارفستر » الضخمة ، فقال له صديقه أن يذهب مباشرة معه ولسوف يزكيه لدى رئيسه الذي كان يعرفه معرفة حسنة . وهكذا سار جرجس أربعة أو خمسة أميال ثم اجتاز حشداً من العاطلين عن العمل المنتظرين إلى أن وصل الباب يرافقه صديقه ، وكادت ركبتاه تنهاران تحته ، حين قال له المشرف ، بعد أن تفحصه جيداً ووجه له الكثير من الأسئلة أن بامكانه أن يجد منفذاً له .

لم يستطع جرجس أن يستوعب معنى هذا الحادث وملحقاته إلا على مراحل ، إذ وجد أن أعمال تروست هارفستر من النوع الذي يشير إليه دعاة الاصلاح والاحسان بفخر وكبرياء . فهناك من فكر قليلاً بالمستخدمين لذا كانت أماكن عملهم كبيرة واسعة . كما تتوفر مطاعم حيث يمكن للعمال أن يشتروا طعامهم بسعر الكلفة ، بل يوجد هنا قاعة مطالعة ، وأماكن حسنة السمعة يمكن للفتيات العاملات أن يقضين فيها راحتهن ، كذلك كان العمل خالياً من كل عناصر القذارة وما يثير الاشمئزاز تلك التي تسود المسالخ ويوماً بعد يوم راح جرجس يكتشف هذه الأشياء — أشياء ، لم يتوقعها ولم يحلم بها — حتى بات يرى هذا المكان وكأنه الجنة .

لقد كانت مؤسسة كبيرة ، مساحة أرضها مائة وستون أكرا تستخدم خمسة آلاف نسمة وتنتج حوالي ثلاثمائة ألف آلة كل سنة — أي جزء كبير من كافة آلات الحصاد والجز المستخدمة في البلاد . ولم يرَ جرجس إلا القليل منها بالطبع — فقد كان العمل شديد التخصص مثلما هو في المسلخ تماماً . فكل قطعة من قطع آلة الحصاد أو الجز التي تعد بالآلاف تصنع على نحو منفصل وأحياناً تمر على مئات العمال إلى أن تكتمل . أما حيث يعمل جرجس فقد كانت هناك آلة تقطع قطعة معينة من الفولاذ بحجم بوصتين مربعتين ثم تدمغها ، وكانت القطع تأتي على صينية وكل ما على اليد البشرية أن تفعله هو أن تكدسها على شكل صفوف منتظمة وتبدل الصينيات من حين إلى آخر . هذا العمل كان

يقوم به صبي فتح عينيه جيداً وركز تفكيره كله عليه ، بينما كانت أصابعه تطير بسرعة إلى درجة تبدو معها أصوات قطع الفولاذ وهي تطرق بعضها بعضاً أشبه بموسيقى قطار سريع حين يسمعه المرء في عربة النوم ليلاً . إنه عمل بالقطعة طبعاً ، وهو فضلاً عن أنه يؤكد أن الصبي لايتمهل ولا يتباطأ في العمل ، فانه يجعل الآلة تماشي أعلى سرعة ممكنة ليد الانسان .

ثلاثين ألف قطعة كان يعالج كل يوم ، أي تسعة أو عشرة ملايين كل عام — أما العدد في العمر كله فلا يعلمه إلا الله . قريباً منه كان هناك رجال ينحنون على مسنّات تدور ، يضعون اللمسات النهائية لشفرات الحصادة الفولاذية ، فبعد أن يخرجوها من سلة باليد اليمنى يضغطون أحد الجانبين على المسن أولاً ثم يضغطون الجانب الثاني ويسقطونها أخيراً باليد اليسرى في سلة ثانية . أحد هؤلاء الرجال قال لجرجس أنه يسن ثلاثة آلاف قطعة فولاذية يومياً . في الغرفة المجاورة كانت هناك آلات رائعة تلتهم قضباناً فولاذية طويلة على مراحل وبسرعة بطيئة ثم تقطعها ، تمسك بالقطع ، تدمغ رؤوساً عليها ، تصقلها ، تلمعها ، تلولبها ، وأخيراً تسقطها في سلة وكلها جاهزة لشد أجزاء الحصادات معاً . من آلة أخرى كانت تخرج مئات الآلاف الأغلفة المناسبة لهذه اللوالب ، وفي أماكن أخرى قطع أخرى وأشكال غريبة تشكل كلها آلات الحصاد . كان صديق جرجس يعمل في الطابق العلوي في غرف السكب ، مهمته أن يصنع قوالب قطع معينة . كان يجرف

الرمل الأسود إلى اناء حديدي ويدقه بشدة ثم يتركه جانباً إلى أن يتصلب، بعدئذ يخرجه بعضهم ليسكب فيه الحديد المنصهر . كان هذا الرجل يأخذ اجرته على القالب ـ أو بالأحرى على القوالب التامة . فنصف مايصنعه تقريباً يذهب هدراً . انك تراه جنباً إلى جنب مع عشرات الآخرين ، يكدون ويعملون كمن أصيبوا بمس من جنون ، ذراعاه تعملان كأذرعة التدوير في المحرك، شعره الأسود متطاير ، عيناه جاحظتان والعرق يتصبب أنهراً على وجهه ، فحين يملأ القالبَ بالرمل ويمد يده لمدقة يدقه بها يفعل ذلك بأسلوب مجذف القارب الذي يجذف بسرعة ثم يمسك بركيزة على مقربة من صخرة مخفية تحت سطح الماء . طيلة النهار كان الرجل يعمل على هذا المنوال ، كيانه كله مركز على هدف واحد وهو ان يحصل على ثلاثة وعشرين بدلاً من اثنين وعشرين سنتاً ونصف في الساعة كي يشار إلى انتاجه من قبل قيّم الاحصاء ويفتخر به سادة هذه المهنة ويشربوا نخبه على موائدهم . وهم يحكون كيف ينتج عمالهم ضعف ماينتجه أمثالهم في أي بلد آخر . فاذا كنا خير أمة طلعت عليها الشمس ، فذلك أساساً لأننا قادرون على دفع كسبة الأجور لدينا للعمل على هذا النحو المحموم ، رغم أن هناك قليلاً من الأشياء الأخرى التي يمكننا الافتخار بها ومن ضمنها حسابات الكحول لدينا التي تساوي بليوناً وربع البليون من الدولارات سنوياً والتي تتضاعف كل عقد من السنين .

كانت هناك آلة تطرق الصفائح الحديدية وأخرى تصوغها على شكل

جزء من المقعد الذي يقعد فيه المزارع الأمريكي . بعد ذاك تكدس هذه القطع على عربة يدوية مهمة جرجس أن يدفع بها إلى القاعة التي تجمع فيها الآلات . كان هذا العمل أشبه بلعب الأطفال بالنسبة له وكان يأخذ دولاراً وخمسة وسبعين سنتاً يومياً . يوم السبت ، دفع جرجس لأنييل السنتات الخمسة والسبعين التي كان مديناً لها بها مقابل استعمال عليتها ، كذلك افتدى معطفه الذي كانت الزبيبيتا قد رهنته حين كان في السجن .

هذا العمل الأخير كان بركة عظيمة ، فالمرء لايستطيع الخروج في منتصف الشتاء في شيكاغو بغير معطف . كان جرجس مضطراً للركوب خمسة أو ستة أميال ذهاباً وإياباً إلى عمله كل يوم والحقيقة أن نصف هذه المسافة في اتجاه والنصف الآخر في اتجاه ثان مما تطلب تغيير الترامات وكان النظام يقضي بأن تعطى بطاقات الانتقال في جميع نقاط التقاطع إلا أن شركة السكك الحديدية لفّت حول هذا النظام ، مدعية بأن هناك مالكين متعددين . وهكذا حينما كان جرجس يرغب ، بالركوب ، كان عليه أن يدفع عشرة سنتات كل مرة أو أكثر من عشرة بالمائة من دخله لهذه الشركة التي حصلت على امتيازاتها منذ زمن طويل بشراء مجلس المدينة ورغم كل احتجاجات السكان التي كادت تصل حد التمرد . كان جرجس يمشي حين يجد لديه القوة على المشي ويركب حين يكون متعباً ، ويتعلق بسلالم الترام حين يستطيع إلى ذلك سبيلاً آملاً أن يوفر أجرة الترام كي يشرب بها كأساً .

مسألة تافهة تماماً بالنسبة لرجل فر من معمل أسمدة دورهام . لقد بدأ جرجس يستعيد معنوياته وشرع مرة ثانية بوضع الخطط . كان قد خسر منزله إلا أن عبء الايجار الرهيب كان قد زال عن كاهله ، وحين يتحسن وضع ماري سيكون بامكانهم الانطلاق من جديد بل والتوفير . ففي الورشة التي يعمل فيها كان هناك عامل ليتواني مثله ، يتكلم عنه الآخرون بهمسات الاعجاب بسبب المآثر الرائعة التي يقوم بها . كان طوال الليل يجلس على الآلة التي تصنع اللوالب وفي الليل يذهب إلى مدرسة عمومية كي يدرس الانكليزية ويتعلم القراءة . علاوة على ذلك ، ولأن عائلته تتألف من ثمانية أنفس ودخله لايكفي لاعالتهم ، فقد كان يخدم أيام الآحاد والسبت كحارس ليلي . . نالمطلوب منه أن يضغط زرين في طرفين متقابلين من بناء كل خمس دقائق فتتوفر له بينهما ثلاث دقائق للدراسة . شعر جرجس بالغيرة من هذا الرجل فهذا هو صنف الرجال الذي كان يحلم أن يكونه قبل سنتين أو ثلاث . مع ذلك كان بامكانه أن يفعل مثله إذا اتيحت له فرصة حسنة — بل يمكنه أن يلفت الانتباه ويغدو عاملاً ماهراً أو رئيس عمال كما فعل بعضهم في هذا المكان . ولنفرض أن ماريا حصلت على عمل في المعمل الكبير الذي يصنعون فيه خيوط القنب — اذن سيكون بامكانهم الانتقال إلى حي مجاور ، وتتاح له فرصة حقاً . بأمل كهذا ، كان هناك بعض الجدوى من العيش ، إمكانية لايجاد مكان تعامل فيه كانسان ،— وحق الله سيريهم كيف يمكنه أن يقدر على ذلك. ثم ضحك من نفسه حين فكر كم سوف يتعلق بهذا العمل . .

لكن ، في أصيل أحد الأيام ، وبالتحديد في اليوم التاسع لعمله في ذلك المكان ، رأى ، وهو يمضي للحصول على معطفه ، جمعاً من الرجال احتشد أمام لافتة على الباب . وحين ذهب إليهم وسأل عن الأمر ، أخبروه بأن القسم الذي يعمل فيه سيغلق أبوابه اعتباراً من يوم الغد وحتى اشعار آخر . .

— ٢١ —

ذلك هو اسلوبهم . . انذار قبل نصف ساعة فقط ، المعمل يقفل ابوابه . . لقد حدث ذلك من قبل ، قال الرجال ، وسوف يظل يحدث إلى الابد . كانوا قد صنعوا كل مايحتاجه العالم من آلات حصاد ، والآن عليهم ان ينتظروا إلى ان يبلى بعض ما صنعوه . وهذا ليس خطيئة احد — فذلك هو الاسلوب الذي تسير عليه الامور ، وهكذا يطرد آلاف الرجال والنساء من اعمالهم في عز الشتاء ليعيشوا من مدخراتهم ان كان لديهم اية مدخرات . والا فليموتوا . واذا كان هناك من قبل عشرات آلاف الباطلين المشردين الذين يبحثون في المدينة عن عمل فسوف يضاف إليهم الآن عدة آلاف أخرى .

سار جرجس إلى المنزل بمبلغه الزهيد في جيبه ، حزيناً مغموماً ، وقد ، ازيح حجاب آخر عن عينيه ، هاوية اخرى تكشفت له . أي عون كان يقدمه له لطف ارباب العمل ونزاهتهم — حين لم يستطيعوا المحافظة على عمله ، حين صنعوا من آلات الحصاد أكثر مما يستطيع

العالم ان يشتري . . اية مدعاة للسخرية ان يستعبد الانسان لكي يصنع آلات حصاد لالشيء الا لكي يطرد بعد ذلك من عمله ويهلك جوعاً .

لم يستطع جرجس تجاوز آثار النكسة التي اصابته الا بعد مرور يومين . لم يشرب شيئاً لأن الزبيبتا كانت قد اخذت نقوده لتحفظها وكانت تعرفه أكثر بكثير من ان تستطيع طلباته الغاضبة اخافتها . وهكذا مكث في العلية ، متجهماً صامتاً ، ترى مافائدة بحث الانسان عن عمل اذا كان سيطرد منه قبل ان يتقنه ؟ لكن النقود تنفذ بسرعة وانتاناس الصغير جائع . تعضه انياب البرد في العلـية كذلك كانت هناك مدام هوبت ، القابلة ، تلاحقه طلباً لبعض المال . وهكذا خرج مرة ثانية . ولعشرة ايام اخرى ظل يطوف في شوارع وأزقة المدينة الكبيرة ، مريضاً جائعاً . مستجدياً اي عمل . كان يسأل اصحاب المخازن والمكاتب والمطاعم والفنادق ،على الارصفة وساحات السكك الحديدية في المستودعات والمعامل والمصانع التي كانت تصنع منتجات تمضي إلى كـل ركن من اركان العـالم . وقـد اتيحت له فرصة او فرصتان لكن ثمة دائماً مائة رجل لكل فرصة ، ولم يكن يحين دوره . في الليل كان يزحف إلى الحظـائر والاقبية والمداخل -- إلى ان جاءت عاصفة شتائية هوجاء انخفضت بها الحرارة إلى خمس درجات تحت الصفر نهاراً وما دون ذلك بكثير ليلاً ! .حينذاك راح جرجس يصارع كالوحوش لكي يدخل مخفر شرطة شارع هاديسون الكبير ويقبع في الممر الذي يكتظ برجلين آخرين في كل خطوة منه .

وغالباً ماكان يضطر لان يعارك في هذه الايام -- يعارك من اجل مكان قريب من بوابة المصنع ، وبين الحين والحين يعارك عصابات الشارع . فقد وجد ، مثلاً ، ان القيام بحمل الحقائب لمسافري السكك الحديدية عمل يحتاج لامتياز مسبق -- واذا ماحاول المرء القيام به انقض عليه ثمانية او عشرة رجال وصبيان واجبروه على الفرار بجلده فلديهم الشرطي المرتشي ، لذا لاجدوى من توقع الحماية منه .

واذاكان جرجس لم يمت جوعاً خلال تلك الايام فانما ذلك بفضل ماكان يكسبه الاولاد من مال زهيد . بل حتى هذا لم يكن اكيداً . فمن جهة كان القرس أكثر من ان يتحمله الاولاد ، كما انهم كانوا ، هم ايضاً ، يواجهون خطر المنافسين الذين يسلبونهم اموالهم ويضربونهم . القانون ضدهم ايضاً -- فالصغير فيليماس كان بالحقيقة في الحادية عشرة الا انه لم يكن يبدو أكبر من ابن الثامنة ، وقد اوقفته في احدى المرات عجوز ذات نظارات لتقول انه اصغر سناً من ان يعمل وانه ان لم يكف عن بيع الصحف سترسل له ضابط التغيب في المدرسة اللاحقته . كذلك امسك رجل غريب بكوترينا الصغيرة من ذراعيها ذات ليلة محاولاً اقناعها بالدخول إلى ممر قبو مظلم مما ملأ قلبها رعباً وجعلها تخشى حتى الذهاب إلى العمل .

اخيراً ذهب جرجس ذات احد إلى المنزل راكباً الترام خلسة بعد ان قطع كل امل له من جدوى البحث عن عمل فوجد انهم كانوا بانتظاره مدة ثلاثة ايام -- فهناك فرصة عمل له .

وكانت قصة تحكي تماماً . فالصغير جوزاباس الذي كاد يجن جوعاً في هذه الايام ، خرج إلى الشارع يشحذ الطعام لنفسه. كان جوزاباس بساق واحدة فقد بترت ساقه الاخرى اثر حادث عربة وقع له حين كان طفلاً صغيراً . لكنه كان يدبر نفسه ويسير على عكاز يضعها تحت ابطه . ولقد التقى ببعض الاولاد الذين شقوا طريقهم إلى قمامة مايك سكولي التي لاتبعد أكثر من ثلاث او اربع كتل بنائية . كان يجيء إلى هذا المكان كل يوم مئات كثيرة من حمولات عربات النفاية والفضلات القادمة من منطقة البحيرة حيث يعيش الاغنياء وفي اكوام القمامة هذه كان الاولاد يبحثون عن الطعام — فهناك كسرات الخبز ، قشور البطاطا ، بقايا التفاح ، عظام اللحم ، وكلها نصف متجلدة وسليمة تماماً . كان جوزاباس الصغير يحشو بطنه بهذا كله ثم يعود إلى المنزل بجريدة ملأى يطعم انتاناس مما فيها . رأته الزبيبتا يفعل ذلك مرة فارتعدت فرائصها خوفاً ، اذ لم تكن تصدق ان الطعام الخارج من القمامة يمكن ان يكون صالحاً للاكل . لكن في اليوم التالي وحين لم يصب احد من الطفلين بأذى وبدأ جوزاباس يتضور جوعاً ، تراجعت الام عن موقفها وسمحت له بالذهاب إلى قمامته مرة ثانية. عصر ذلك اليوم عاد إلى المنزل ليروي لهم قصة وهي ان سيدة في الشارع راحت تناديه وهو ينبش بعصاه في القمامة ثم اردف الصبي قائلاً انها سيدة حقيقية ، سيدة جميلة ، كانت تود معرفة كل شيء عنه ، ماذا كان يأخذ طعام القمامة للدجاجات ام لا . ؟ لماذا يسير على عكاز ، سبب موت اونا ، كيف دخل جرجس

السجن ، مشكلة ماريا وكل شيء كل شيء . . في النهاية سألته عن مكان سكناه وقالت انها ستأتي لزيارته ثم اتت له بعكاز جديد يسير عليها . وقد اضاف جوزاباس انها كانت ترتدي قبعة عليها طائر ، وحول عنقها أفعى طويلة من الفراء .

وبالفعل جاءت في الصباح التالي تماماً ، حيث صعدت السلم إلى العلية ثم وقفت وحدقت فيما حولها . وقد شحب وجهها لمنظر بقع الدم على الارض حيث قضت اونا نحبها . بعد ذلك شرحت لالزبيبتا انها عاملة في مؤسسة انعاش ، تقيم في مكان ما من شارع اشلاند . كانت الزبيبتا تعرف المكان ، فقد ارادها احدهم ان تذهب إلى هناك الا انها لم تهتم بذلك ، اذ ظنت ان الامر يتعلق ، ولا بد ، بالدين ولم يكن الكاهن يريد ان تكون لها اية علاقة بالمذاهب الدينية الاخرى . انهم من الاثرياء الذين جاؤوا للاقامة هناكي يكتشفوا كل شيء بانفسهم عن الفقراء ، لكن ماالفائدة التي كانوا يظنون انها ستعود عليهم من هذا الاكتشاف ، امر لايمكن للمرء تخيله . هكذا تكلمت الزبيبتا بسذاجة الا ان السيدة الشابة ضحكت دون ان تستطيع تقديم جواب لها — فقد وقفت محملقة بها ثم فكرت بملاحظة ساخرة كان قد ابداها احد الناس لها وهي انها تقف على حافة الجحيم وتلقي اليها بكرات ثلج كي تخفف من حرارتها .

سرت الزبيبتا كل السرور لانها وجدت اخيراً من يستمع لها فروت للشابة كل مصائبها — ماحدث لاونا ، السجن ، فقدانهم منزلهم ،

حادثة ماريا ، موت اونا وقعود جرجس بلا عمل . كانت عينا السيدة الشابة تغرورقان بالدموع وهي تصغي ، وحين وصلت الزبيبيتا إلى ذروة مأساتها انفجرت تلك بالدموع والقت برأسها على كتف الزبيبيتا دون ان تبالي بما كان على إزار المرأة من وسخ ولا البراغيث التي كانت تملأ الحلية . خجلت الزبيبيتا المسكينة من نفسها لانها حكت قصة محزنة إلى هذا الحد ، بينما راحت الشابة ترجوها ، تتوسل إليها ان تتابع سرد قصتها . وكانت النتيجة ان ارسلت الشابة لهم سلة من الطعام وتركت رسالة مفادها ان على جرجس ان يذهب إلى رجل يعمل مراقباً عاماً في معمل من معامل الفولاذ الكبيرة في شيكاغو الجنوبية — « انه سيؤمن شغلاً لجرجس » ، قالت الشابة ثم اضافت وهي تبتسم من خلال دموعها « وان لم يفعل لن اتزوجه قط . »

تقع معامل الفولاذ على بعد خمسة عشر ميلاً ، وكالعادة ، فقد تدبروا الامر بحيث يدفع المرء اجرتين قبل ان يصل إلى هناك . على مساحة واسعة ومدى بعيد كانت تتوهج بالالق الاحمر الذي كان يتصاعد من صفوف المداخن الشامخة في السماء — اذ كان مايزال ظلاماً تماماً حين وصل جرجس . وكانت تحيط بالمعامل الضخمة ، التي تشكل مدينة بحد ذاتها ، حواجز من قضبان وقف عليها مائة رجل من اليد العاملة الجديدة بانتظار من يستخدمهم . بعد طلوع الشمس مباشرة بدأت الصافرات تصفر وفجأة بدأ آلاف الرجال يظهرون مندفعين من الحانات والنزل عابرين الطريق ، قافزين من الترامات وهي تمر — فبدا وكأنهم ينبعون

من الارض في غبشة الضوء ايشكلوا نهراً راح يتدفق عبر البوابة ، ثم بدأ ينحسر تدريجياً حتى لم يبق اخيراً الا افراد قلائل يركضون ، والحارس يذرع الطريق جيئة وذهاباً والغرباء الجائعون ينتظرون ويرتعدون .

قدم جرجس رسالته الثمينة الا ان الحارس الفظ اخضعه لالف سين وجيم ، لكنه اصر على عدم معرفته شيئاً ، وبما انه كان قد احتاط للأمر وختم رسالته ، فقد وجد الحارس نفسه عاجزاً عن فعل اي شيء سوى ارسالها إلى الشخص الموجهة اليه . عاد الرسول ليقول ان على جرجس ان ينتظر ، وهكذا دخل من البوابة ، ربما غير آسف كثيراً على أن هناك اناساً آخرين اقل حظاً منه يراقبونه بأعين تكاد تلتهمه التهاماً .

كانت الآلات الكبيرة قد شرعت بالدوران ، وكان بامكان المرء ان يسمع اصوات حركة هائلة وشيئاً فشيئاً غدا المشهد واضحاً : ابنية سوداء مرتفعة كالابراج هنا وهناك ، صفوف طويلة من المشاغل والسقائف ، سكك حديدية تتفرع في كل مكان . فضلات الفولاذ وخبث الافران تحت الاقدام ، وابراج هائلة من الدخان المتصاعد فوق الرؤوس. كانت سكة الحديد تسير بخطوط عديدة من احدى جهات البحيرة ومن الجهة الأخرى كانت البواخر تقترب لتأخذ حمولتها .

كان لدى جرجس الوقت الكافي لتأمل هذا كله والتفكير به ،

اذ مضت ساعتان قبل ان يستدعى . بعد ذاك دخل مبنى الادارة ، حيث قابله ضابط الدوام في الشركة ، قائلاً : ان المراقب مشغول لكنه (هو ضابط الدوام) سيحاول ان يجد له عملاً ، ترى ألم يشتغل في معمل للفولاذ من قبل ؟ هل هو مستعد للقيام بأي مهمة تسند له ؟ حسناً ، اذن سيذهبان ويريان .

وهكذا بدأ جولة بين مشاهد جعلت جرجس يحماق مذهولاً . كان يتساءل ان كان سيعتاد في يوم من الايام على العمل في مكان كهذا ، حيث كان الهواء ذاته يهتز بدوي رعد يصم الآذان ، والصافرات تطلق الانذارات من كل جانب دفعة واحدة ، والمحركات البخارية المصغرة تندفع باتجاهه ، وكتل المعدن الحامية كالجمر تمر به مسرعة مهتزة تطش طشيشاً ، وانفجارات شرار النار واللهب تأخذ ببصره وتلفح وجهه . في هذه المعامل ، كان كل العمال قد اسودوا من السخام وكانوا جميعاً غائري الاعين نحاف الأجسام . كانوا يعملون بتوتر شديد ، مندفعين هنا وهناك لايرفعون اعينهم عن مواضع عملهم ابداً . وقد تمسك جرجس بدليله كما يتمسك الطفل الخائف بمربيه ، في حين كان الاخير يهتف لمشرف عمال بعد آخر سائلاً ان كان بالامكان استخدام شخص غير مدرب ، ثم يحدق حوله ويتعجب .

اخيراً ذهب به الرجل إلى فرن « بيسمر » حيث يصنعون قضبان

الفولاذ — وهو مبنى كالقبة بحجم مسرح كبير . وقف جرجس حيث يمكن ان تكون شرفة المسرح ، وقبالته ، حيث يمكن ان تكون الخشبة رأى ثلاثة مراجل كبيرة تكفي لان تكون مواقد لجهنم ذاتها ، مليئة بشيء ابيض يعمي العيون وهو يبقبق ويرش الرذاذ كما لو ان براكين تنفخ فيه — وكان على المرء ان يصرخ ملء صوته كي يسمعه جاره . كانت النار السائلة تتواثب من المراجل وتتناثر كالقذائف نحو الاسفل وكان الرجال يعملون هناك بغير مبالاة على مايبدو الى حد جعل جرجس يلتقط أنفاسه خوفاً وهلعاً . بعدئذ انطلقت صافرة ، فأتت عبر « ستارة المسرح » عربة آلية محملة بشيء ألقي في واحدة من الأواني ، ثم صفرت صافرة أخرى فتواجد بجوار « خشبة المسرح » قطار آخر وفجأة ، وبدون امهال للحظة واحدة ، بدأت احدى الأواني الأسطوانية الضخمة بالميلان والانحراف ملقية بنافورة من اللهب ذي الهسيس الملتوي . انكمش جرجس خائفاً ، ظاناً أن حادثاً قد وقع ، اذ سقط هناك عمود من اللهب الأبيض تغشى به العيون مطلقاً حفيفاً أشبه بحفيف شجرة ضخمة تسقط في غابة . بينما اكتسح تيار من الشرر الطريق كله عبر المبنى طاغياً على كل شيء ، مخفياً إياه عن النظر . تطلع جرجس من خلال أصابعه فشاهد شلالاً من النار الحية المتواثبة تنسكب من فم المرجل بيضاء تلفح مقل العيون ، وفوقها ارتسمت أقواس قزح متوهجة تتراقص فيها ألوان

ذهبية وحمراء وزرقاء الا أن الجدول المتدفق نفسه كان أبيض لاشائبة فيه ، يتدفق من مناطق المجهول كنهر الحياة ذاته فتتواثب روح الانسان لدى رؤيته وتنكص مرتدة عنه سريعة قلقة الى أراض بعيدة حيث يقطن الجمال والسلام — بعد ذاك مال المرجل مرتداً مرة ثانية خاوياً . رأى جرجس أن أحداً لم يؤذ ، وهو الأمر الذي أثلج صدره فدار على عقبيه ولحق بدليله الى الخارج .

لقد عبر بأفران الصهر ثم بمعامل التسوية حيث تلقى قضبان الفولاذ فتقطع كقطع الجبنة . في كل مكان كانت هناك أذرع آلات ضخمة تتحرك ودواليب كبيرة تدور ومطارق هائلة تطرق ورافعات متنقلة تصر وتهتز فوق الرؤوس مادة نحو الأسفل اذرعاً حديدية ممسكة بفرائس حديدية — فكان ذلك أشبه بالوقوف في مركز الأرض حيث آلات الزمن تدور .

شيئاً فشيئاً وصلا الى المكان الذي تصنع فيه السكك الفولاذية .سمع جرجس صفرة خلفه فقفز مبتعداً عن طريق عربة محملة بصبة فولاذ متقدة حتى الابيضاض لايقل حجمها عن جسم الانسان ثم كان هناك انسحاق مفاجيء ونوقف للعربة ، بعد ذاك انقلبت الصبة خارجاً على منصة متحركة حيث أمسكت بها أصابع وأذرع الفولاذ ، دافعة اياها معجلة بها إلى قبضة بكرات ضخمة تسوقها الى حيث تقطع وتشوى وتصنع منها قضبان السكك الحديدية .

في نهاية هذا المطاف وجد جرجس فرصته . فقد كان على العمال هنا أن يحركوا القضبان بواسطة عتلات . وكان بامكان رئيس العمال أن يستخدم عاملاً آخر . وهكذا خلع سترته وباشر العمل في الحال .

كان الطريق إلى مكان عمله يستغرق منه ساعتين كل يوم ويكلفه دولاراً وعشرين سنتاً في الأسبوع وبما أن ذلك أمر لامجال للبحث فيه فقد حزم فراشه وذهب مع زملائه العمال إلى منزل أحد المؤجرين البولنديين ، حيث كان باستطاعته أن ينام على الأرض مقابل عشرة سنتات كل ليلة أما وجبتاه فقد كان يتناولهما وفق أسلوب الغداء ـ الحر ويذهب إلى المنزل كل ليلة سبت بكل مالديه من متاع ـ حاملاً معه القسم الأكبر من نقوده إلى العائلة . كانت الزبيبتا حزينة كل الحزن على هذا الوضع . إذ كانت تخشى أن يعتاد جرجس على الحياة بدونهم ، فرؤيته ابنه مرة واحدة في الأسبوع ليس شيئاً كثيراً ، إنما لم يكن ثمة خيار آخر . لم تكن هنالك أية فرصة لأن تعمل امرأة في معامل الفولاذ وكانت ماريا الآن قد باتت جاهزة للعمل يدفعها الأمل يوماً بعد يوم في أن تجد فرصتها في مكان ما من المسالخ .

خلال اسبوع تجاوز جرجس احساسه بالاندهال والحيرة في معمل قضبان السكة الحديدية . تعلم كيف يجد طريقه بين كل هذا الزحام وأن ينظر إلى كل هذه الأعاجيب والأهوال باعتبارها أمراً عادياً وأن

يعمل وقد صم أذنيه عن أصوات الدق والسحق . لقد انتقل من الخوف المطلق إلى الطرف الآخر تماماً ، إلى اللامبالاة وعدم الاهتمام ، شأنه شأن بقية الرجال الذين لم يكونوا يفكرون بأنفسهم ، وهم في حمى العمل إلا نادراً . وانه لشيء عجيب ، حين يفكر المرء بالمسألة ، أن يهتم هؤلاء العمال بالعمل الذي يقومون به ، وليس لهم نصيب فيه . فأجرتهم يأخذونها بالساعة ، ولم يكونوا يأخذون شيئاً مقابل اهتمامهم . كذلك ، فقد كانوا يعلمون أنهم إذا ما أصيبوا بأية اصابة فانهم سيجدون أنفسهم في الخارج مهملين منسيين — ورغم ذلك كانوا يسرعون إلى واجباتهم ، يعملون على القطاعات الحادة الخطيرة ويبتكرون أساليب جديدة تسرّع العمل أكثر وتزيد من فعالية الآليات رغم أنهم يعرضون أنفسهم بذلك للمخاطر . في اليوم الرابع من استلامه العمل رأى جرجس رجلاً يتعثر وهو يجري أمام عربة فأدى ذلك إلى هرس قدمه ، وقبل أن تمضي عليه ثلاثة أسابيع شهد حادثاً أفظع أيضاً . فقد كان هناك صف من الأفران الآجرية التي يتوهج الفولاذ المنصهر داخلها توهجاً ، بعضها كان منتفخاً إلى حد خطر ، مع ذلك كان العمال يشتغلون أمامها ، يضعون على أعينهم نظارات زرقاء حين يفتحون ويغلقون الأبواب . ذات صباح ، وحين كان جرجس يعبر بهذه الأفران انفجر أحدها راشاً اثنين من العمال بزخة من السائل الناري وبما أنهما تمددا على الأرض يصرخان ويتدحرجان

بطناً لظهر ، اندفع جرجس لمد يد المساعدة لهما ، ونتيجة لذلك فقد قسماً لابأس بــه من جلد احدى راحتيه . ضمّد طبيب الشركة يده إلا أن أحداً لم يشكره على مافعل ، بل ظل خارج العمل بغير أجر لمدة ثمانية أيام .

لكن من حسن الحظ أن الزبيبيتا كانت قد حصلت في هذه الآونة على العمل الذي طال انتظارها له وهو أن تذهب في الساعة الخامسة صباحاً وتساعد في تنظيف مكاتب احدى دور التعليب . عاد جرجس إلى المنزل وغطى نفسه بالحرامات كي يتدفأ ، مقسّماً وقته بين النوم وملاعبة انتاناس أما جوزاباس فكان يمضي لينقب في القمامة معظم وقته بينما تبحث الزبيبيتا وماريا عن مزيد من العمل .

كان انتاناس قد بلغ الآن العام والنصف وغدا آلة سير كاملة وكان يتعلم بسرعة إلى حد كان يُخيّل معه لجرجس حين يعود إلى المنزل كل اسبوع وكأنما هو ولد جديد . كان يجلس ويصغي ويحملق ثم يطلق كلمات تعجب بهيجة - بالوك ! ! موما ! ! تومانوتز يدريل ! ! لقد بات هذا الطفل الصغير بهجة جرجس الوحيدة في هذا العالم — أمله الوحيد ، نصره الوحيد . الحمد لله أن انتاناس صبي . . بنيته متينة كعقدة صنوبر ، شهيته كشهية ذئب ، لاشيء يضره ولا شيء يمكن أن يضره . فقد أجتاز كل المعاناة والحرمان دون أن يخدشه شيء بل لقد ازداد حدة

وتصميماً على تمسكه بالحياة . كان ولداً صعب المراس ولم يضايق ذلك أباه — بل كان يراقبه ويبتسم راضياً عنه وعن نفسه كل الرضى . إذ بقدر ما يصبح أشد حباً للقتال بقدر ما يكون أفضل — فهو سيضطر لأن يعارك في هذه الحياة قبل أن يقطع شوطاً طويلاً .

كان جرجس قد اعتاد أن يشتري صحيفة الأحد حينما يتوفر لديه المال . أكبر صحيفة كان يستطيع شراءها بخمسة سنتات فقط ، صحيفة بطول ذراع كاملة ملأى بكل أخبار العالم ، كان جرجس يستمتع بها وهو يحاول مع الأولاد تهجئة مافيها من أخبار وعناوين . هناك معارك وحوادث قتل وموت فجائي — وانه لشيء رائع أن يسمعوا بكل هذه الأخبار المسلية والحوادث المثيرة ولابد أن كل القصص صحيحة إذ مامن أحد يمكنه أن يلفق مثل هذه الأشياء فضلاً عن أن هناك صوراً دائماً ، صوراً حقيقية تثبت صحتها . احدى هذه الصحف كانت خيراً من سيرك ولاتقل جودة عن الانغماس في الشراب — انها ، بالتأكيد ، معالجة رائعة لعامل كان قد أنهكه العمل وأبلاه ولم يكن يتمتع بأية خلفية ثقافية ، عامل يمارس شغلاً مملاً فظيعاً قاتلاً يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة دون أن يرى حقلاً أخضر ودون أن يحظى بتسلية ساعة واحدة ، وليس لديه شيء يحرك خياله سوى الشراب . كانت صفحات هذه الصحف ملأى ، من بين الأشياء الأخرى ، بالصور الساحرة التي باتت هي المتعة الرئيسية في حياة أنتاناس الصغير فكان يختزنها ثم يخرجها لأبيه ويجعله

يقص عليه قصصها . كما كانت بينها كل صور الحيوانات وغدا بوسع انتاناس الصغـــير أن يقول اسماءها جميعـــاً وهو يستلقي على الأرض الساعات بطولها مشيراً إليها بأصابعه الصغيرة اللحمية . وحينما تكون القصة بسيطة إلى حد يكفي لأن يفهمها جرجس ، يطلب أنتاناس تكرارها له ، ومن ثم يتذكرها هاذراً ببضع جمل قصيرة مضحكة ، خالطاً بينها وبين قصص أخرى بأسلوب لايقاوم . كان أسلوبه الغريب في لفظ الكلمات يثير المتعة والبهجة – وكذلك العبارات التي يلتقطها ويتذكرها ، أشياء غريبة وغير معقولة ! في المرة الأولى التي أخرجت شفتاه كلمة « اللعنة » كاد والده يسقط عن الكرسي فرحاً ، لكنه في النهاية حزن لهذا لأن انتاناس الصغير سرعان ماغدا يلعن كل شيء وكل الناس .
بعدئذ وحين غدا باستطاعة جرجس أن يستخدم يديه أخذ لوازم فراشه وعاد ثانية إلى المعمل ومهمته في نقل قضبان السكة الحديدية . كان نيسان قد جاء وقد حل محل الثلج الأمطار الباردة التي حولت الشارع أمام منزل آنييل إلى قناة موحلة كان جرجس مضطراً للخوض فيها حتى الركبتين قبل أن يصل المنزل . لكنه لم يكن يبالي بهذا فالصيف آت والصيف يعد بالراحة من هذا كله . كذلك كانت ماريا قد حصلت على عمل كمشذبة لحم في احدى منشآت التعليب الصغرى ، وقد قال جرجس لنفسه إنه حفظ الدرس جيداً وإنه سيبتعد عن كل حادثة بعد الآن ، بذلك كان ثمة أمل في أن يضعوا حداً لعذابهم الطويل ، ويغدو

باستطاعتهم توفير بعض المال . وحين يأتي الشتاء القادم سيكون بوسعهم الانتقال إلى منزل جديد مريح ، وسيترك الأولاد الشارع ليعودوا إلى مدارسهم وقد ينطلقون للعمل مستعيدين عاداتهم الأولى ، عادات اللطف والكياسة . وهكذا بدأ جرجس مرة أخرى يضع الخطط ويحلم الأحلام .

ذات ليلة من ليالي السبت قفز جرجس من حافلة الترام وانطلق باتجاه المنزل والشمس ترسل أشعتها الأخيرة على حواف غيوم متكدسة تسكب أمطارها جداول على الشارع الغارق بالوحل . في السماء كان ثمة قوس قزح ، وكان قوس قزح آخر في صدره فأمامه استراحة ست وثلاثين ساعة وفرصة يرى فيها عائلته . عند ذاك بات المنزل ضمن مدى نظره ، فلاحظ أن أمام الباب جمعاً غفيراً . ركض جرجس صاعداً الدرج ، شاقاً طريقه بين الجمع وهناك رأى مطبخ آنييل يغص بنساء في حالة من الهياج ذكره على الفور بذلك اليوم الذي عاد فيه إلى المنزل من سجنه ووجد أونا تموت ، فكاد يتوقف قلبه عن الخفقان . « ماذا هناك » ؟ صرخ متعجلاً .

غير أن سكوناً كسكون الموت خيم على الغرفة كما رأى أن الجميع يحملقون به « ماذا جرى . ؟ » هتف ثانية .

حينذاك جاءته من العلية أصوات ولولة ، عرف منها صوت ماريا فانطلق إلى السلم — إلا أن آنييل أمسكت به من ذراعه هاتفة — « لا . . لا . . . لاتصعد إلى هناك . . » .

فصاح ملء صوته « وماذا هناك ؟ » .

حينها أجابته العجوز بصوت واهن « انتاناس مات . لقد غرق في أوحال الشارع » .

- ٢٢ -

تلقى جرجس النبأ بأسلوب خاص فقد شحب وجهه شحوب الموتى لكنه تماسك ، ولنصف دقيقة ظل واقفاً وسط الغرفة محكماً قبضة يديه كازاً على أسنانه - بعدئذ نحّى آنييل جانباً وأوسع خطاه إلى الغرفة المجاورة ثم صعد السلم .

كانت هناك بطانية في الزاوية ، وقد بان تحتها ، بصورة شبه واضحة ، هيكل تمددت بجانبه الزبيبتا فلم يستطع جرجس أن يعرف تماماً هل تبكي أم تراها مصابة بالاغماء ، أما ماريا فقد كانت تقطع الغرفة نادبة ، عاصرة يديها فشدّد جرجس احكام قبضة يديه ثم سألها بصوت أكثر قسوة حتى :

« كيف حدث ذلك ؟ » .

لكن ماريا لم تسمع شيئاً وهي في لجة عذابها . كرر جرجس بصوت أعلى وأكثر خشونة أيضاً ، فأعولت مجيبة : « لقد سقط عن الطوار » والطوار أمام المنزل رصيف مصنوع من ألواح نصف مهترئة ترتفع حوالي خمسة أقدام عن مستوى الشارع الغارق في الوحل .

« كيف وصل إلى هناك » سألها جرجس .

فنشجت ماريا ثم أجابته بصوت يكاد يختنق « لقد خرج — خرج ليلعب . لم نتمكن من ابقائه في المنزل . ولابدّ أن الوحل قد أمسك به. . »

« أأكيد أنه ميت ؟ » سأل جرجس .

فولولت « آي . . آي . . أجل ، لقد جئنا له بالطبيب » .

عند ذاك وقف جرجس مترنحاً بضع ثوان ، لم يذرف دمعة واحدة بل كل مافعله هو أنه ألقى نظرة سريعة أخرى على البطانية التي تخفي تحتها ذلك الهيكل الصغير ثم انقلب فجأة إلى السلم وهبط من جديد . فخيم السكون مرة أخرى على الغرفة حين دخلها . بعدها مضى مباشرة إلى الباب ثم عبره خارجاً ونزل إلى الشارع .

حين توفيت زوجته ، مضى جرجس إلى أقرب حانة ، لكنه في هذه اللحظة فعل شيئاً آخر رغم أن أجور اسبوعه كانت ماتزال بكاملها في جيبه . لقد مشى ومشى غائم النظر مخوّضاً في الوحل والماء ، بعد ذاك جلس على درجة سلم وأخفى وجهه بين يديه وهناك ظل دون حراك نصف ساعة كاملة ، النأمة الوحيدة التي كانت تصدر عنه هي همسة خافتة يطلقها من حين إلى آخر « لقد مات . . لقد مات . . »

آخيراً نهض وعاود السير مرة ثانية . كانت الشمس قد غربت فظل يمشي ويمشي إلى أن خيم الظلام تماماً . حينذاك توقف عند تقاطع سكة

حديدية . كانت الحواجز منزلة وكان هناك قطار شحن طويل يهدر قادماً . فوقف يراقبه وعلى حين غرة سيطر على كيانه دافع غريب : فكرة كانت تختفي في أعماقه مجهولة خفية ، قفزت فجأة إلى ذهنه . فانطلق بمحاذاة السكة وحين اجتاز بيت الحارس الصغير قفز قدماً وألقى بنفسه في احدى العربات . وقف القطار مرة ثانية فقفز جرجس نازلاً وجرى تحت العربة ثم اختبأ في احدى عربات الشحن ؛ وحين عاود القطار المسير خاض معركة عنيفة مع نفسه . كان يشد من قبضة يديه ويكز على أسنانه معاً . لم يبك ولن يبكي — دمعة واحدة لن يبكي . . لقد مضى وانقضى ، انتهى الأمر كلياً — سيرمي بذلك كله عن كاهله ، سيتحرر من المسألة برمتها . هذه الليلة ستمر مثل كابوس بغيض أسود وفي الصباح سيكون انساناً جديداً وكان كلما عاوده التفكير بمصيبته — ذكرى لطيفة ، أثر دمعة — ينهض على قدميه ، يلعن ويسب بغضب وهياج مبعداً كل مافي رأسه من أفكار .

كان جرجس يعارك من أجل الحياة ، يصرف بأسنانه لشدة يأسه . « أحمق ، أحمق . . أضاع حياته ، حطم نفسه لضعفه اللعين » . والآن لا دموع بعد اليوم ، لاوهناً أو رقة حسبه مانااله منهما . . لقد جعلا منه عبداً ! والآن هاهو ذا يتحرر ، يحطم قيوده ، يقف على قدميه ليقاتل . لقد سر ان جاءت النهاية — كان ينبغي أن تأتي ذات حين وقد جاءت الآن تماماً . فهذا العالم ليس للنساء والأولاد ، وبقدر

مايخرج منه هؤلاء بصورة أسرع بقدر مايكون ذلك خيراً لهم وأفضل . قد يعاني انتاناس حيث ذهب الآن لكنه لن يعاني أكثر مما لو ظل على هذه الأرض وفي تلك اللحظة بدأ جرجس يفكر بالكفاح من أجل نفسه ضدّ عالم يكيد له ويعذبه .

وهكذا مضى يمزق كل الأزهار من حديقة روحه ، يطأها بقدميه— كان القطار يهدر على نحو يصم الآذان وعاصفة من غبار تهب في وجهه ، لكنه مع ذلك كان يتوقف بين الحين والحين فيتشبث جرجس بمخبئه يتشبث لكي ينقله القطار بعيداً . فكل ميل يبتعد به عن باكنجتاون يعني عبئاً آخر يزول عن كاهله .

وكلما توقف القطار كانت نسمة دافئة تهب عليه ، نسمة محملة بعطر الحقول البري ، برائحة الأعشاب والأزهار . كان جرجس يتشممها ، فيخفق قلبه أشد الخفقان — لقد خرج إلى الريف ثانية . . سيعيش في الريف ، وحين يطلع الفجر سينعم النظر حوله بعينين ظامئتين ، سيتطلع إلى المروج والغابات والأنهار ليشبع منها عينيه . أخيراً لم يعد باستطاعته التحمل ، لذا ما إن توقف القطار حتى انسل خارجاً منه ! رآه عامل المكبح الذي كان على سطح العربة فهز قبضته في وجهه وأطلق سيلاً من الشتائم إلا أن جرجس لوّح بيده ساخراً وانطلق عبر الحقول .

ياللعجب ! لقد عاش في الريف طوال حياته لكنه منذ ثلاث سنوات

لم ير منظراً ريفياً واحداً ولا سمع صوتاً من أصوات الريف اللهم إذا استثنينا ذلك المسير الذي ساره حين خرج من السجن وهو في حال من القلق والضيق يصعب معها ملاحظة أي شيء . كذلك لم يكن جرجس قد رأى شجرة واحدة إلا في الحدائق ، في تلك المرات القليلة التي قضاها في قلب المدينة ، وهو عاطل عن العمل . والآن هاهو ذا يشعر وكأنه طائر حملته عاصفة بعيداً وعالياً ، فراح يتوقف ويحملق بكل منظر جديد ، قطيع أبقار ، مرجة ملأى بالاقحوان ، أسيجة كثيفة من أزهار حزيران ، طيور صغيرة تغرد على غصون الأشجار .

بعدئذ وصل إلى بيت مزرعة ، وبعد أن زود نفسه بعصا للحماية اقترب منه . كان المزارع يشحم عربة أمام مستودع التبن فمضى جرجس نحوه مباشرة ثمّ قال « من فضلك أريد بعض الطعام » .

فقال المزارع « هل تود أن تعمل ؟ » .

« كلا » قال جرجس « لا أود » .

فنهره الآخر : « إذن لن تحصل على شيء هنا » .

« أقصد أنني سأدفع ثمناً له » قال جرجس .

فقال المزارع « أوه » ثم أضاف ساخراً « نحن لانقدم افطاراً بعد السابعة صباحاً » .

فقال جرجس برصانة وجد : « لكنني جائع وأود أن أشتري بعض الطعام » . « اسأل المرأة » قال المزارع مشيراً برأسه . وكانت المرأة أكثر عملية لذا استطاع جرجس لقاء عشرة سنتات ان يحصل على سندويشتين سميكتين وقطعة فطير وتفاحتين . ثم مشى مبتعداً وهو يأكل الفطيرة باعتبار ذلك أسهل طريقة لحملها وخلال بضع دقائق وصل قرب جدول ، فتسلق سياجاً ثم انحدر على طول ممر في الغابة إلى الضفة حيث وجد بقعة مريحة فالتهم هناك وجبته وأطفأ ظمأه بماء الجدول . بعد ذاك استلقى ساعات طوالا محدقاً فيما حوله يعب الفرح عباً ، إلى أن شعر أخيراً بالنعاس فاستلقى تحت ظل شجيرة وأسلم نفسه للرقاد .

حين أفاق كانت الشمس تسطع حادة في وجهه . جلس وتمطى ثم حدق إلى الماء المنساب بجواره . كانت هناك بركة عميقة محمية وهادئة تحته تماماً وعلى الفور خطرت له خاطرة رائعة . يمكنه أن يأخذ حماماً . . الماء نقي وبامكانه أن يغوص فيه — مباشرة فيه . . وستكون المرة الأولى التي يغوص بها في ماء مذ رحل عن ليتوانيا . .

حين قدم جرجس إلى منطقة المسالخ كان نظيفاً كما يمكن لأي عامل أن يكون . لكنه فيما بعد ، أي بعد أن عانى الجوع والمرض ، الفقر والحرمان ، بعد أن لاقى ما لاقاه من أوساخ عمله وهوام منزله ، تخلى عن الاغتسال شتاء وكان يكتفي بالنزول إلى حوض الماء صيفاً

أما في السجن فقد حظي بعدة حمامات باردة انما لاشيء منذ ذلك الحين — والآن فانه سيسبح . .

كان الماء دافئاً فراح ينثره حولهخابطاً إياه بيديه وقدميه كما يفعل طفل فرح . بعد ذاك جلس في الماء قرب الضفة ومضى يفرك نفسه— برصانة ومنهجية ، راح يفرك بالرمل كل بوصة منه فركاً كاملاً دقيقاً ثم يتأمل احساسه بنظافته بل لقد فرك رأسه بالرمل طارداً مايدعوه —الناس « بالفتات » من شعره الأسود الطويل ، مبقياً رأسه تحت الماء أطول مدة ممكنة ليرى ان كان باستطاعته أن يقتله كله . بعدئذ رأى أن الشمس ماتزال حارة فأخذ ثيابه عن الضفة ومضى يغسلها قطعة قطعة ، وحين بدأ الوسخ والشحم يجريان جداول منها راح جرجس يهمهم راضياً مسروراً ويدعك الثياب من جديد حالماً بأن يتخلص من رائحة السماد .

بعد ذلك علقها جميعاً لتجف تحت الشمس ثم استلقى على ظهره كي يأخذ غفوة أخرى . حين استيقظ كان القسم العلوي من ملابسه متصلباً حاراً كلوح من صفيح ، أما الداخل فرطب قليلاً . كذلك كان جائعاً فارتداها وانطلق مرة ثانية . لم يكن لديه سكين إلا أنه ببعض الجهد صنع عصا جيدة متينة ومضى متسلحاً بها ، يهبط الطريق مرة ثانية .

خلال فترة وجيزة وصل إلى بيت ريفي كبير فانعطف صاعداً ممراً يؤدي إليه . كان الوقت عشاء وكان المزارع يغسل يديه عند باب المطبخ ، فقال له جرجس « من فضلك ياسيدي . هل لديك شيء آكله ؟

سأدفع لك » فأجابه المزارع بسرعة : « نحن لانطعم مشردين . اذهب من هنا » .

ذهب جرجس دونمـــا كلمة لكنه حـــين دار حول المستودع وصل إلى حقل محروث مثلّم حيث كان المزارع قد غرس بعض غراس الكمثرى الحديثة وفي طريقه راح يقتلع الغراس من جذورها فاقتلع مايزيد عن مائة غرسة قبل أن يبلغ نهاية الحقل . كان ذلك هو جوابه وقد أوضح به حالته النفسية . من الآن فصاعداً سيقاتل ، ومن يوجه له ضربة سيردها بكل مالديه من قوة وفي كل مرة .

بعد انتهاء البستان دخل جرجس بقعة حراجية ثم بلغ حقلا مزروعاً بالقمح ، وصل بعده إلى طريق آخر . سار عليه قليلاً فرأى بيتاً ريفياً آخر وبما أن الغيوم كانت قد بدأت تظهر في السماء ، فقد طلب جرجس المأوى اضافة إلى الطعام . وحينما رأى المزارع يتفحصه بشيء من الشك أضاف « سأكون مسروراً ان نمت في المستودع » .

قال الآخر « حسناً ، لكن هل تدخن ؟ » .

فقال جرجس « أحياناً ، لكنني سأدخن خارج المستودع »

وحين وافق الرجل سأله جرجس : « كم يكلفني هذا ؟ فأنا لاأملك الكثير من المال على أي حال » « عشرون سنتاً مقابل العشاء » أجاب المزارع « أما المنامة فلن تكلفك شيئاً » .

وهكذا دخل جرجس المنزل ثم جلس إلى الطاولة مع زوجة المزارع ونصف دستة من الأطفال . وكانت وجبة رائعة : فاصولياء ، بطاطا مهروسة ، هليون مقطع ومطهو ، طبق فريز ، شرحات كبيرة وسميكة من الخبز وابريق من اللبن . لم يكن جرجس قد حضر مثل هذه المأدبة مذ عرسه ؛ فبذل كل مافي وسعه كي يأكل مايساوي سنتاته العشرين .

كانوا جميعاً أكثر جوعاً من أن يستطيعوا التحدث ، لكنهم بعد العشاء جلسوا على الدرج حيث دخن الرجلان هناك ، وبدأ المزارع يسأل نزيله . وحين شرح جرجس لمضيفه بأنه عامل من شيكاغو وأنه لايعرف أين يتوجه سأله الآخر « لماذا لاتقيم هنا وتعمل لدي » ؟ .

فأجاب جرجس : « أنا لاأبحث عن عمل الآن »

فقال الآخر وهو يتفحص جسم ضيفه الكبير « سأدفع لك حسناً ، دولاراً كل يوم ، علاوة على طعامك ومنامتك فاليد العاملة قليلة هنا » .

« وهل تدفع في الشتاء كالصيف » ؟ سأل جرجس في الحال .

« لا . . لا » قال المزارع « لايمكنني الاحتفاظ بك بعد تشرين الثاني ، ليس لدي مكان كاف لذلك » .

فقال الآخر « . . أرى ذلك . . بل هذا مافكرت به تماماً لكن إذا ما أنهت خيلك أعمالك كلها في هذا الخريف هل ترمي بها إلى الثلج شتاء ؟ » .

كان جرجس قد بدأ يفكر بنفسه في هذا الحين .

فأجاب المزارع وهو يقلب نظره في النقطة التي أثارها جرجس . . « ليس الأمر هكذا تماماً ، ثم لابد أن يكون هناك عمل لشخص قوي مثلك في المدن أو في أي مكان آخر وقت الشتاء». « أجل » قال جرجس « هذا ما يفكر به الجميع ، ولذلك يزدحمون في المدن . . وحين يضطرون للتسول أو السرقة لكي يبقوا على قيد الحياة يسألهم الناس لماذا لاتذهبون إلى الريف حيث اليد العاملة نادرة » .

وغرق المزارع في التفكير حيناً من الزمن ثم سأله أخيراً :

« وما ستفعل حين ينتهي مالديك من نقود ؟ ستضطر حينذاك لأن تعمل ، أليس كذلك ؟ . »

« انتظر إلى أن تنتهي » قال جرجس . . « حينذاك سأرى » .

في الأسطبل نام نوماً عميقاً وفي الصباح تناول وجبة افطار كبيرة من القهوة والخبز وحساء الشوفان والكرز المطبوخ ، دفع مقابلها خمسة عشر سنتاً ، ربما بعد الجدل والمساومة ، ثم ودعهم ومضى في طريقه .

* * *

هكذا كانت بداية حياته كشريد لكنه نادراً مانال مثل هذه المعاملة الحسنة بعد ذاك ، بل لقد جاء حين من الزمن راح يتجنب فيه البيوت ويفضل النوم في الحقول أما حين تمطر فقد كان يبحث عن مبنى مهجور

وحين لايجده ينتظر حلول الظلام ثم يمضي متسلحاً بعصاه ليقترب خلسة من مستودع أعلاف. وبصورة عامة كان يتمكن من الدخول إلى مثل هذا المستودع قبل أن يشم الكلب رائحته ثم يخفي نفسه في القش كي يأمن ويحافظ على سلامته حتى الصباح. أما إن لم يستطع وهاجمه الكلب فقد كان ينهض ويشتبك معه ثم يتراجع تراجعاً نظامياً . لم يعد جرجس الرجل القوي الذي كان في الماضي ، إلا أن ذراعيه كانتا ماتزالان قويتين ، ولم يكن هناك إلا قلة من الكلاب تحتاج لأن يضربها أكثر من مرة واحدة .

بعد زمن وجيز جاء توت العليق ثم التوت العادي ليساعداه على توفير نقوده . وكان هناك تفاح في البساتين وبطاطا في الحقول — وقد تعلم كيف يلحظ أماكن هذه الثمار جميعاً وكيف يملأ جيوبه بها بعد حلول الظلام بل لقد تدبر أمره مرتين وسرق دجاجاً ، أقام عليه مآدب ، مرة في اسطبل مهجور والمرة الثانية في بقعة مهجورة على ضفة جدول . أما حين يفشل في الحصول على هذه الأشياء فقد كان يستعمل نقوده ببالغ الحرص ، انما بغير انزعاج — فهو يعلم أن باستطاعته كسب المزيد منها حينما يريد ذلك . فتقطيع حطب لمدة نصف ساعة فقط وبأسلوبه النشط كان كافياً لتأمين وجبة الطعام وغالباً ما كان المزارعون ، حين يرونه وهو يعمل يحاولون أن يرشوه ، ليبقى .

لكن جرجس لايبقى ، لايقر له قرار . إنه الآن رجل حر ، قرصان مغامر ، شهوة التجوال القديمة عادت تنخر في دمه وعاد إليه فرحه

بالحياة غير المقيدة ، فرح البحث ، فرح الأمل بلا حدود . كانت تحدث له ازعاجات وحوادث – انما كان يجد كل يوم شيئاً جديداً . تأمل فقط مايمكن أن يعني لرجل ، ظل سنوات طويلة سجيناً في مكان واحد ولايرى فيه سوى البيوت الحقيرة والمعامل القذرة الرهيبة ، ان ينطلق فجأة إلى الحرية ، إلى الفضاء الرحب ، يتأمل المناظر الطبيعية الجديدة ، الأماكن الجديدة ، الأناس الجدد في كل ساعة من ساعات نهاره . رجل تتألف حياته كلها من أداء عمل معين طوال النهار إلى أن تنهك قواه ولا يعود بوسعه فعل شيء بعد ذلك إلا الاستلقاء والنوم حتى الصباح التالي – والآن غدا سيد نفسه يعمل حين يشاء ، متى يشاء ، ويواجه مغامرة جديدة كل لحظة . كذلك استعاد جرجس صحته، قوة شبابه الضائعة ، فرحه وطاقاته التي أفقده اياها الحزن وأنسته اياها الهموم ، كلها عادت إليه باندفاعة مفاجئة أدهشته ، أذهلته ، بل بدا وكأن طفولته الضائعة تعود إليه ضاحكة هاتفة ، فيما يأكل من طعام وافر وما يتنفس من هواء طلق ومايتربص به من مختلف التمارين . كان يجد نفسه سعيداً دائماً ، ينهض في الصباح ثم ينطلق وهو لايعلم ما يفعل بطاقاته ، يتمطى ضاحكاً ، ويغني مايتذكر من أغاني الوطن القديمة . بالطبع لم يكن يستطيع منع نفسه من التفكير بين الحين والحين بأنتاناس الصغير الذي لن يراه مرة ثانية والذي لن ينسى صوته الصغير أبداً ، ثم يجد نفسه مضطراً لفتح معركة مع نفسه ، أحياناً كان يستيقظ في الليل وهو يحلم بأونا، يمد يديه إليها ويبلل الأرض بدموعه ، لكنه

كان ينهض في الصباح فينفض عنه أحلام الليل ويغذ الخطا مبتعداً من جديد ليخوض معركته مع الدنيا .

لم يكن يسأل أبداً عن مكان وجوده ولا عن وجهته . كان يعلم أن البلاد كبيرة بما يكفي . وإنه لاخطر من بلوغه حدودها . وبالطبع ، كان يجد دائماً من يسألهم — ففي كل مكان يذهب إليه هناك أناس يعيشون ، تماماً كما يعيش ويرحبون بانضمامه إليهم . لقد كان جديداً على « الصنعة » لكنهم لم يكونوا متعصبين ، وقد علموه كل حيلهم —ماهي المدن والقرى التي يستحسن ابتعاده عنها ، كيف يقرأ اللوحات الخفية في الأسيجة ، متى يتسول ومتى يسرق وكيف يفعل كلا منهما تماماً . كانوا يسخرون من تفكيره في أن يدفع مقابل أي شيء يناله مالاً أو عملاً - فهم ينالون كل مايرغبون دون مال أو عمل . ومن حين إلى آخر كان يخيم مع عصبة منهم في مكان ما في الغابة ويجوس معهم في المناطق المجاورة ليلاً . ثم قد تحلو له عشرة أحدهم فيمضيان معاً ليتجولا اسبوعاً من الزمان ، يتبادلان الذكريات .

من هؤلاء المشردين المحترفين كان هناك الكثير بالطبع ممن كانوا طوال حياتهم مشردين أشراراً ، غير أن الغالبية العظمى منهم كانت من العمال الذين كافحوا طويلاً كما كافح جرجس ثم وجدوا أن المعركة خاسرة فاستسلموا . وفيما بعد ، واجه جرجس صنفاً آخر من الرجال ، أولئك الذين يخرج من صفوفهم المشردون ، الرجال الذين

لا مأوى لهم . المتجولون الذين يبحثون عن عمل — يبحثون عنه في حقول الحصاد . وهؤلاء يشكلون جيشاً من اليد العاملة الفائضة في المجتمع ، جيشاً يطلب منه البقاء تحت ظل النظام الصارم للطبيعة . أن يؤدوا الأعمال العرضية التي يقدمها لهم العالم وأن يقوموا بالمهام العابرة وغير النظامية رغم أنه لابد من أدائها ، لم يكن هؤلاء يعرفون أنهم هكذا ، بالطبع ، بل كل ما يعرفونه هو أنهم يبحثون عن عمل ، وان العمل يفر منهم . في مطلع الصيف قد تجدهم في تكساس وحين يأتي موسم الحصاد تراهم يتحركون شمالاً مع تحرك هذا الموسم لينتهوا عند الخريف في ماينتوبا . بعد ذاك — يبحثون عن مخيمات قطع الأخشاب الكبيرة ، حيث العمل الشتائي ، وان فشلوا في هذا ينتقلون إلى المدن ويقتاتون بما تمكنوا من توفيره اضافة لقيامهم بأعمال عابرة حيث تواتيهم — تحميل أو تفريغ سفن وزوارق ، حفر خنادق ، جرف ثلج . . . إلخ . وإذا كان هنالك أكثر مما تحتاجه هذه الأعمال فان الضعاف منهم يذوون برداً وجوعاً وذلك أيضاً طبقاً لنظام الطبيعة الصارم .

في أواخر تموز ، كان جرجس قد وصل ميسوري ، ووقع هناك على عمل من أعمال الحصاد . فهنا يعمل الرجال مدة ثلاثة أو أربعة أشهر في محصول قد يخسره صاحبه كلياً ان لم يجد من يساعده لمدة اسبوع أو اسبوعين . وهكذا كان هناك طلب شديد على اليد العاملة في المنطقة كلها — وكالات انشئت للبحث عن العمال ، مدن افرغت من اليد العاملة ، بل حتى طلاب المعاهد كانت تأتي بهم الشاحنات وجموع

المزارعين المسعورين يوقفون القطارات ويفرغونها من حمولاتها من الرجال بالقوة ولم يكونوا يدفعون لهم جيداً وحسب بل كان باستطاعة أي رجل أن يحصل على دولارين يومياً ، آكلاً ، شارباً ، نائماً ، أما العمال الجيدون فيستطيعون الحصول على دولارين ونصف أو ثلاثة دولارات .

كانت حمى الحصاد في الجو ذاته ، ولم يكن باستطاعة أي امرىء ذي روح ألا يشعر بذلك . انضم جرجس إلى زمرة من زمر الحصاد وراح يعمل من طلوع الفجر حتى حلول الظلام ، ثماني عشرة ساعة يومياً ، ولمدة اسبوعين دون انقطاع . فتجمع لديه مبلغ من المال يعتبر ثروة بالنسبة له في أيام البؤس القديمة — لكن ماعساه يفعل به الآن ؟ من المؤكد أن باستطاعته أن يضعه في مصرف وإذا كان محظوظاً يستعيده ثانية حين يحتاجه . لكن جرجس الآن رجل شريد يتجول في كل الأنحاء ، فما تراه يعلم عن المعاملات المصرفية والأرصدة وكتب الاعتماد ؟ إذا حمل المال معه فمن المؤكد أنه سيتعرض للسلب في يوم من الأيام ، اذن ماعساه يفعل بالنقود سوى أن يستمتع بها مااستطاع ؟ وهكذا ذهب ذات ليلة من ليالي السبت إلى بلدة مجاورة مع زملائه ولأنها كانت تمطر ولم يكن ثمة مكان آخر يذهبون إليه فقد ذهبوا إلى احدى الحانات حيث وجدوا من يعتني بهم فضحكوا وعربدوا وغنوا ماشاء لهم الغناء ومن القسم الخلفي في الحانة رأى جرجس فتاة مرحة ورديه الوجنتين تبتسم له ،

فشعر بفؤاده يخفق فجأة أشد الخفقان ـ أومأ لها برأسه فجاءت وجلست بجواره ثم شربا كؤوساً أخرى وبعد ذاك صعد معها إلى غرفة في الطابق العلوي ، حيث ثار الوحش في داخله وصرخ مثلما كان يصرخ في الغابة منذ بداية الزمان . بعد ذاك ، وبسبب ذكرياته وخجله ، شعر بكثير من السرور حين انضم الآخرون رجالاً ونساء إليهما ثم عبوا كؤوساً أخرى وقضوا الليلة كلها في حالة عجيبة من الصخب والفجور .

ففي اثر جيش العمال الموسميين هذا ، كان هنالك جيش آخر يتبعه، جيش من النساء يكافحن دائماً من أجل الحياة وفق نظام الطبيعة الصارم اياه . ولأن هناك رجالاً أغنياء يبحثون عن المتعة ، فقد كان يتوفر لهن الكثير من العمل طالما كن شابات جميلات ، لكن فيما بعد تحل محلهن أخريات أكثر شباباً وجمالاً فيخرجن ليلحقن بركب العمال . أحياناً كن يأتين من تلقاء أنفسهن وكان أصحاب الحانات يشاركوهن الأرباح ، وأحياناً تأتي بهن وكالات مختصة بمثل هذه الأمور ، تماماً كما هي الحال مع جيش العمال . لذا تجدهن خلال مواسم الحصاد في المدن الصغيرة وفي الشتاء في مخيمات قطع الأخشاب . كما يذهبن إلى المدن الكبيرة حين يكون العمال هناك . وإذا ما خيم فوج عسكري في مكان ما أو كانت هناك سكة حديد قيد الانشاء أو قناة ستشق أو معرض سيقام فانك تجد حشداً من النساء تحت التصرف حيث يعشن في بيوت صغيرة أو حانات أو غرف أجرة ، أحياناً كل ثماني أو عشر نساء معاً .

في الصباح لم يكن جرجس يملك سنتاً واحداً فخرج إلى الطريق مرة ثانية مريضاً مصاباً بالغثيان ، لكنه تذكر خطة حياته الجديدة فداس على مشاعره ومشى . لقد جعلهم يضحكون منه ، لكن فات الأوان . الآن كل ما يستطيع فعله هو أن يعمل على ألا يحدث هذا مرة ثانية وهكذا راح يتجول إلى أن أزال الهواء الطلق والرياضة صداعه وحل محله الفرح وعادت إليه القوة . كان هذا يحدث له في كل مرة إذ كان جرجس مايزال مخلوقاً ذا – رغائب ، ولم تكن متعه قد أصبحت سلعة تجارية بعد – ولسوف يمضي وقت طويل قبل أن يغدو مثل أغلبية المتشردين أولئك الذين يطوفون إلى أن يتمكن من نفوسهم الجوع والظمأ للنساء فيذهبون إلى العمل وفي نفوسهم غاية محددة ثم يكفون عن العمل عندما يغدو بمستطاعهم تحقيق هذه الغاية .

بل على العكس ، لم يكن جرجس ، مهما حاول ، بقادر على منع نفسه من أن يكون بائساً في صميمه . إنه الشبح الذي لايزايله ، الشبح الذي ينتابه حيث لايتوقع أبداً أن ينتابه فيدفعه دفعاً إلى الشراب .

ذات ليلة ، أمسكت به عاصفة رعدية في الطريق فبحث عن مأوى في بيت يقع تماماً على أطراف بلدة صغيرة ، فوجد أنه بيت عامل سلافي مثله ، مهاجر جديد من روسيا البيضاء . رحب العامل بجرجس بلغته الأم ثم طلب إليه أن يقترب من الموقد ويجفف نفسه . لم يكن لديه فراش يقدمه له انما كان هناك قش في العلية وكان باستطاعته أن يرتب أموره .

كانت زوجة العامل تطهو العشاء وكان أطفالهما يلعبون على أرض المنزل . جلس جرجس مع مضيفه يتبادلان الحديث عن الوطن ، عن الأمكنة التي ذهبا إليها والعمل الذي عملاه . ثم تناولا عشاءهما وبعد ذلك جلسا ودخنا وتحدثا أكثر وأكثر عن أمريكا وكيف وجداها . لكن جرجس توقف في وسط الجملة وهو يرى أن المرأة قد أحضرت حوضاً كبيراً من الماء ثم همت بتعرية طفلها من ملابسه . كان البقية قد زحفوا إلى الحجرة التي ينامون فيها أما الرضيع فكان ينبغي أن يستحم ، شرح له العامل . كانت الليالي قد بدأت تبرد وقد خاطت له أمه التي تجهل طقس أمريكا ثياباً للشتاء ألبسته إياها مما جعل نوعاً من الطفح يظهر على جلد الطفل وقد قال الطبيب أن عليها أن تحممه كل ليلة ولحماقتها صدقته .

بصعوبة بالغة سمع جرجس الشرح ، فقد كان يراقب الطفل الذي كان عمره حوالي سنة تقريباً ، قوي البنية ذا ساقين سمينتين طريتين ، وبطن كروي صغير وعينين سوداوين كالفحم . لم تكن بشوره تزعجه كثيراً ، على مايبدو ، وقد طار فرحاً بالحمام فراح يضرب الماء بيديه ، يصرخ ضاحكاً ويقهقه بهجة ممسكاً بوجه أمه ثم ممسكاً بأصابع قدميه الصغيرتين . وحين وضعته في الحوض جلس في منتصفه وابتسم ابتسامة عريضة ثم بدأ ينثر الماء حوله ويزقو مثل خنوص صغير . كان ينطق كلمات روسية يعرف جرجس بعضها وكان ينطقها بأغرب نبرة

طفولية — فكانت كل كلمة منها تعيد إلى ذهنه كلمة من كلمات ابنه الصغير الذي مات وتطعنه كالسكين . جلس جرجس صامتاً بلا حراك ، يشد قبضة يديه باحكام ، بينما راحت عاصفة تتجمع في صدره وفيضان يتنامى خلف عينيه . في النهاية لم يعد يستطيع التحمل فدفن وجهه بين يديه وانخرط في البكاء مثيراً بذلك دهشة وخوف مضيفه . وبين خجله وحزنه ، نهض جرجس ثم اندفع خارجاً تحت المطر .

وهكذا سار على الطريق إلى أن وصل أخيراً إلى غابة سوداء أخفى نفسه فيها وبكى حتى كاد قلبه يتفطر ، آه ! ! أي عذاب كان ذاك ! ! أي يأس يحل بالمرء حين ينشق قبر الذاكرة وتخرج منه أشباح الحياة الماضية كي تجلده ! ! أي هول أن يرى ما كان عليه في يوم من الأيام وما لم يعد باستطاعته أن يكونه الآن — أن يرى أونا ، طفله ، نفسه الميتة تلك والكل يمد ذراعيه له هاتفاً به من قلب هاوية لاقرار لها — أن يرى أنه فقد ذلك كله إلى الأبد هو الذي يتعذب ويختنق في حمأة فساده وضاعته .

— ٢٣ —

في مطلع الخريف انطلق جرجس إلى شيكاغو مرة ثانية . لقد فقد التشرد في عينيه كل متعة . فالقش لايؤمن الدفء للانسان ، كما أنه ، شأن آلاف الناس الآخرين ، كان يمني نفسه بأنه ، بقدومه المبكر ،

سيتفادى الازدحام . كان جرجس يحمل معه خمسة عشر دولاراً خبأها في واحدة من فردتي حذائه ، وهو مبلغ وفره من أصحاب الحانات ، ليس بدافع من وجدان بل بدافع الخوف الذي كان يملأ جنباته من فكرة البقاء عاطلاً عن العمل في المدينة وقت الشتاء .

لقد رحل ليلا في قطار من قطر السكة الحديدية برفقة عدد من المشرديـــن الاخريـــن . يختبئون بين حمولات عربات القطار ، معرضين لأن يلقى بهم في أي وقت ومهما تكن سرعة القطار . حين وصل المدينة ترك بقية صحبه فهو يملك مالاً أما هم فلا يملكون شيئاً ، وكان يستهدف أن يوفر على نفسه شجاراً أكيداً . لقد قرر جرجس أن يزج في معركته المقبلة بكل جهد ومهارة أكسبته اياها الممارسة ، ليبقى واقفاً على رجليه وليسقط من يسقط . ففي الليالي الحسنة يمكن النوم في الحديقة أو على شاحنة أو في برميل أو صندوق فارغ ، وحين يهطل المطر أو يبرد الطقس يمكن أن يحشر نفسه على رف في أحد تلك النزل التي لايزيد أجرها على عشرة سنتات أو يدفع ثلاثة سنتات مقابل حق « الإقعاء » في أحد ممرات الصالات وبامكانه أن يأكل وجبات غداء — حرة ، قيمة واحدتها خمسة سنتات ولاينفق سنتاً آخر — بذلك قد يوفر قوته لشهرين أو أكثر وفي غضون ذلك لابد أن يجد عملاً . وبالطبع سيضطر لأن يودع نظافة صيفه إذ سيخرج من مبيت أول ليلة وقد امتلأت ثيابه بالهوام . وليس هناك مكان في المدينة يمكنه أن يغسل

فيه حتى وجهه ، ان لم ينزل إلى منطقة البحيرة التي ستكون عما قريب متجلدة كلها .

قبل كل شيء ذهب إلى معمل الفولاذ ومعامل آلات الحصاد فوجد أن مكانه شغل منذ زمن طويل ، وقد كان حريصاً على أن يظل بعيداً عن المسالخ . فهو رجل وحيد الآن ، حدث نفسه ، يهدف أن يبقى وحيداً أو أن يحتفظ بأجوره لنفسه حين يحصل على عمل . . وهكذا بدأ طوافه الطويل الممل بالمصانع والمستودعات ، متجولاً طوال النهار من أحد أطراف المدينة إلى طرفها الآخر ليجد في كل مكان يقصده عشرات الرجال قبله . كذلك راقب الصحف انما لم يعد بالامكان أن تنطلي عليه حيل أولئك الوكلاء الذلقي اللسان ، فقد اخبروه بكل تلك الحيل حين « كان مشرداً على الطرقات » .

في النهاية استطاع من خلال احدى الصحف الحصول على عمل لكن بعد شهر من البحث . لقد كانت دعوة لمائة عامل ورغم أنه ظنها احدى التلفيقات المعهودة فقد ذهب ، إذ كان المكان قريباً . وجد أمامه رتلا من الرجال بطول كتلة بنائية ، لكن في تلك اللحظة جاءت من الزقاق المقابل عربة قطعت الرتل وهي تعبر الطريق فرأى الفرصة سانحة وقفز حيث احتل مكاناً مناسباً . هدده الرجال بل حاولوا القاءه خارجاً إلا أنه لعن وشتم وأحدث شيئاً من الاضطراب ليجذب انتباه أحد الشرطة ، الأمر الذي جعلهم يسلمون ببقائه لمعرفتهم أنه إذا ماتدخل رجال الشرطة فانهم « سيطردون » جميعاً .

بعد ساعة أو ساعتين دخل جرجس غرفة من غرف الإدارة لمواجهة رجل ايرلندي كبير كان يجلس خلف طاولته . « هل عملت في شيكاغو من قبل ؟ » سأله الرجل . وسواء كان أحد الملائكة قد الهمه الجواب أو أن ذلك بمحض البديهة والفطنة ، فقد أجابه قائلاً : « كلا ياسيدي » .

« من أين جئت ؟ » .

« مدينة كنساس ياسيدي » .

« هل لديك أية علاقات أو صلات هنا ؟ » .

« كلا ياسيدي . أنا مجرد عامل غير ماهر ، انما ذراعاي قويتان »

« انني أريد عمالاً لعمل شاق — كله تحت الأرض . حفر أنفاق للأسلاك الهاتفية — ربما لايناسبك » .

« بل انني أرغب بالعمل ياسيدي — وأي عمل يناسبني ، فما الأجر ؟ » .

« خمسة عشر سنتاً في الساعة » .

« أرغب بذلك ياسيدي » .

« حسناً ، عد إلى هناك وأعطهم اسمك » .

وخلال نصف ساعة باشر جرجس العمل ، بعيداً تحت شوارع المدينة . النفق خاص بأسلاك الهواتف ، ارتفاعه حوالي عشرة أقدام وعرضه كارتفاعه تقريباً ، يتفرع فروعاً لاعد لها ولا حصر — شبكة

عنكبوتية كاملة تحت المدينة ، فقد مشى جرجس مع زمرته مايئوف على النصف ميل إلى المكان الذي يعملون فيه . لكن ، من الغريب أن النفق كان منارآً بالكهرباء وقد مدت فوقه سكة حديد مزدوجة الخطوط ذات قياس ضيق .

إلا أن جرجس لم يكن هنا كي يسأل أسئلة ، بل انه لم يول المسألة أي اهتمام . لكنه بعد مرور عام تقريباً أدرك معنى ذلك كله . كان مجلس المدينة قد أصدر قراراً هادئاً بريئاً يسمح لاحدى الشركات بتمديد أسلاك هاتفية تحت شوارع المدينة وبناء على ذلك باشرت مؤسسة كبيرة بحفر أنفاق شيكاغو كلها لتزود المدينة بشبكة خطوط نقل تحت الأرض . ففي المدينة تجمع لأرباب العمل رأسماله يساوي مئات ملايين الدولارات وقد تشكل بهدف سحق نقابات العمال وعلى الأخص منها نقابة سائقي الشاحنات ، فحين تكتمل أنفاق النقل هذه ، وتصل بين كافة المصانع والمخازن من جهة ومستودعات السكك الحديدية من جهة أخرى فانهم يمسكون تماماً بخناق سائقي الشاحنات هؤلاء . من حين إلى آخر كانت تسري شائعات وهمهمات تصل إلى مجلس البلدية ، وقد شكلت لجنة تحقيق في احدى المرات — لكن أرباب العمل كانوا يدفعون في كل مرة مبلغاً صغيراً وتموت الشائعات في المهد . وأخيراً استيقظت المدينة لتجد أن العمل قد انتهى . بالطبع حدثت هنالك فضيحة فقد تبين أن سجلات المدينة زُوّرت وأن جرائم أخرى ارتكبت بل لقد أرسل

بعض كبار رأسماليي شيكاغو إلى السجن — مجازياً طبعاً ، غير أن مجلس البلدية أعلن أنه يجهل القضية برمتها علماً أن المدخل الرئيسي للعمل كان يبدأ من مؤخرة حانة يملكها أحدهم .

كان جرجس يعمل في أحد المقاطع التي فتحت مجدداً وهكذا علم أن عمله سيدوم طوال الشتاء . وقد فرح إلى درجة سمح لنفسه بأن يشرب ويقصف تلك الليلة ، وبعد أن وضع ميزانية لنقوده استأجر لنفسه مكاناً في غرفة ايجار كان ينام فيها على فراش قشي كبير من صنع محلي جنباً إلى جنب مع أربعة عمال آخرين . كانت أجرة المنامة دولاراً واحداً في الأسبوع ، وثمن الطعام أربعة دولارات يدفعها في منزل قريب من مكان عمله ، فيبقى لديه أربعة دولارات اسبوعياً وهو مبلغ ضخم بالنسبة له . في البداية اضطر لأن يدفع ثمن أدوات حفره وكذلك أن يشتري حذاء سميكاً نظراً لأن حذاءه كان قد تمزق ارباً ، كما ابتاع لنفسه قميص فانيلا نظراً لأن القميص الوحيد الذي ارتداه طوال الصيف كان قد أصبح ممزقاً . أمضى جرجس اسبوعاً وهو يفكر : هل يشتري معطفاً أم لا فقد كان هناك معطف يعود لبائع أزرار يهودي مات في الغرفة المجاورة له ، وكانت صاحبة البيت قد احتجزته مقابل الأجرة لكن جرجس قرر في النهاية أن يغض النظر عنه طالما أنه سيكون تحت الأرض نهاراً وفي الفراش ليلاً .

غير أنه كان قراراً منحوساً ، إذ دفعه بسرعة أكبر إلى الحانات ،

كان جرجس منذئذ فصاعداً يعمل من السابعة صباحاً وحتى الخامسة والنصف مساء ، مع استراحة نصف ساعة للغداء وكان معنى ذلك أنه لايرى الشمس طوال أيام الأسبوع . وفي المساء لم يكن ثمة مكان يجد فيه الضوء والدفء ، يسمع شيئاً من الموسيقى ، يجد صحبة يتحدث معهم سوى المشرب ، فهو الآن بلا بيت يذهب إليه ، بلا رابطة تربطه بأحد سوى رفاق السوء .في أيام الآحاد كانت الكنائس تفتح — لكن أين هي الكنيسة التي يمكن لعامل كريه الرائحة تزحف الهوام على رقبته أن يجلس فيها دون أن يرى الناس يحاذرونه وينظرون إليه شذراً ؟ بالطبع ، كان له ركنه في غرفة قريبة انما غير مدفأة ذات نافذة تنفتح على جدار مصمت يبعد قدمين ، كذلك كانت له الشوارع المقفرة وعواصف الشتاء تكنسها كنساً ، فضلاً عن ذلك كان له الحانات — وبالطبع ، كان يضطر لأن يشرب كي يسمحوا له بالبقاء فيها . فاذا شرب من حين إلى آخر كان يجد الحرية في أن يتصرف وكأنه في منزله ، يقامر بالزهر أو الورق ، يلعب على طاولة أناس آخرين من أجل المال أو يحدق النظر بورق لعب زهري ملوث بالبيرة عليه صور لرجال قتله ونساء نصف عاريات . على متع كهذه كان جرجس ينفق نقوده ، وعلى هذا المنوال سارت حياته خلال الأسابيع الستة والنصف التي قضاها وهو يكدّ ويتعب لصالح تجار شيكاغو كي يتيح لهم امكانية تحطيم القبضة التي تشدها على رقابهم نقابة سائقي الشحن .

في عمل يجري بهذه الطريقة ، لا أحد يهتم كثيراً بمصلحة العمال .

لذا كان حفر الانفاق يكلف ، بصورة متوسطة : نفساً واحدة كل يوم وعدة تشوهات . لكن نادراً ما كان أكثر من عشرة أو عشرين عاملاً يسمعون بحادث من الحوادث . كان العمل يتم بواسطة آلات الثقب الحديدة مع أقل مايمكن من عمليات النسف والتفجير ، إلا أنه كان يحدث ــ أحياناًــ أنتسقط صخرة أو تتحطم دعامة أو ينفجر لغم قبل الأوان علاوة على أخطار مدّ السكك الحديدية وهذا ما حدث ذات ليلة ، حين كان جرجس يشق طريقه خارجاً مع زمرته ، إذ اندفعت عربة قطار محملة على واحد من تلك الفروع ذات الزوايا القائمة والتي لاعد لها ولا حصر ثم صدمته في كتفه ، قاذفة به إلى الجدار الاسمنتي طارحة اياه أرضاً وقد فقد الوعي .

حين فتح جرجس عينيه مرة ثانية كان ذلك على رنين جرس الاسعاف . نظر حوله فوجد أنه ممدد في السيارة مغطى ببطانية ، وكانت السيارة تشق طريقها ببطء عبر زحام الناس الذين يتبضعون للعطلة . أخذوه إلى مستشفى المقاطعة حيث ثبت له ذراعه أحد الشبان ثم نظفوه ووضعوه في أحد المهاجع حيث كان هناك ثلاثون أو أربعون رجلاً من الرجال المبتوري الأطراف والمشوهين .

قضى جرجس عيد الميلاد في المستشفى ، فكان أبهج عيد ميلاد قضاه في أمريكا . صحيح أنه في كل عام تجري فضائح وتحقيقات في هذه المؤسسة وأن اتهامات الصحف تنصب على أنه يسمح للأطباء هنا

باجراء تجارب غير انسانية على المرضى ، إلا أن جرجس لم يكن يعرف شيئاً عن هذه القضية ــ شكواه الوحيدة هي أنهم كانوا يطعمونه لحماً معلباً ، من النوع الذي لايمكن لأي امرىء عمل يوماً في باكنجتاون أن يطعمه لكلبه . في الماضي كان جرجس كثيراً مايتساءل من تراه يأكل اللحم المطبوخ المعلب « ولحم البقر المصنّع » الذي يخرج من مسالخ باكنجتاون ، أما الآن فقد بدأ يفهم ــ فهذا مايمكنك تسميته بـ « لحم الإطعام » الذي يعد للبيع إلى المسؤولين الرسميين والمتعهدين ومن ثم يقدم طعاماً للجنود والبحارة ، المساجين ونزلاء المصحات ، سكان الأكواخ وورش عمال السكك الحديدية .

كان جرجس جاهزاً لمغادرة المستشفى بعد مرور اسبوعين . غير أن هذا لم يعن أن ذراعه باتت سليمة تماماً وأن بامكانه العودة إلى العمل ، بل كان ذلك يعني ببساطة أنه بات بامكانه المضي دون المزيد من الرعاية وأنهم بحاجة لمكانه من أجل واحد آخر حاله أسوأ من حال جرجس بكثير . أما كونه عاجزاً كلياً ، وليس لديه وسيلة لكسب رزقه فأمر لايعني ادارة المستشفى أو أي شخص آخر في المدينة من قريب أو بعيد .

ومن غريب المصادفات أن اصابته كانت قد حدثت يوم الاثنين وكان قد دفع أجرة الغرفة وثمن طعام الاسبوع السابق أي كان قد أنفق كل الأجر الذي استلمه يوم الأحد تقريباً ولم يبق في جيبه سوى خمسة وسبعين سنتاً اضافة إلى دولار ونصف أجرة يوم اصابته .

كان من الممكن أن يرفع دعوى على الشركة وأن يحصل على بعض التعويضات مقابل مالحق به من ضرر لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن هذه المسألة : ولم يكن من مهام الشركة أن تخبره بذلك . ذهب إلى هناك فحصل على أجرته وأدواته ثم مضى فرهنها في أحد المحلات مقابل خمسين سنتاً بعدئذ ذهب إلى صاحبة بيته فوجد أنه لا شواغر لديها : ثم مضى إلى صاحبة النزل الذي يتناول فيه طعامه فحدجته بعين متفحصة وبدأت التحقيق معه . وبما أنه كان سيبقى عاجزاً عن العمل شهرين من الزمن وأنه لم يأكل لديها سوى ستة أسابيع ، فقد قررت على الفور أن إبقاءه لديها واطعامه بالدين مسألة لاتستحق المغامرة .

وهكذا . خرج جرجس إلى الشارع في أشد حالاته سوءاً . كان الشتاء قارس البرد وكان الثلج الغزير يتساقط صافعاً اياه على وجهه ، ولم يكن لديه معطف ولا مكان يقصده ، وليس في جيبه سوى دولارين وخمسة وستين سنتاً مع يقينه التام بأنه لن يستطيع كسب سنت آخر قبل شهرين . فالثلج يعني عدم وجود فرصة له الآن . إنه سيمشي ويرى الآخرين يجرفون ، أقوياء نشطين — أما هو وذراعه اليسرى مربوطة إلى كتفه فماذا سيفعل ؟ كذلك لم يكن يستطيع عقد الآمال على القيام بأعمال أخرى كتحميل العربات أو الشاحنات ولم يكن يستيطيع حتى بيع الصحف أو حمل الحقائب اذ بات تحت رحمة أي منافس . ليس بوسع الكلمات أن تصف الرعب الذي اجتاح جرجس حين عرف

هذا كله فقد وجد نفسه اشبه بحيوان جريح في غابة عليه أن ينافس خصومه بشروط غير متكافئة . فهنا لن يكون له أي اعتبار بسبب ضعفه — لاأحد هنا يرى أن من الواجب عليه أن يمد له يد المساعدة في نكبة كهذه ، أن يجعل الكفاح أخف وطأة عليه . بل حتى لو قرر التسول فانه لن يكون في حال ترضي وذلك لأسباب سيكتشفها قريباً .

في البداية لم يستطع التفكير سوى بالتخلص من البرد القطيع . فدخل إلى احدى الحانات التي كان قد اعتاد ارتيادها واشترى كأس شراب ثم وقف بجانب الموقد وهو يرتعد بانتظار أن يسمع الأمر بطرده . فحسب قانون غير مكتوب كان شراء كأس يتضمن حق المكوث مدة معينة تقريباً ثم يترتب على المرء أن يشتري كأساً أخرى أو يخرج . أما كون جرجس زبوناً قديماً فان ذلك خوله حق الوقوف مدة أطول ، لكنه كان قد غاب مدة اسبوعين وكان من الواضح أنه « على الحديدة » . ربما يتوسل ويحكي قصته « قصة الحظ السيء » إلا أن ذلك لن يفيده كثيراً فصاحب الحانة الذي تحرك عواطفه أساليب كهذه ، سرعان مايجد مكانه في يوم كهذا مع أفاقين كجرجس عند أبواب الحانات .

وهكذا ، خرج جرجس إلى مكان آخر ، ودفع « نيكلا » آخر لكنه كان جائعاً هذه المرة — جائعاً إلى حد لم يستطع معه مقاومة رائحة اللحم الساخن . الأمر الذي قصر كثيراً من فترة مكوثه في الحانة .

وحين أمروه بالخروج ثانية ، شق طريقه إلى مكان مستور في منطقة « الليفي » حيث كان يذهب من حين إلى آخر مع عامل بوهيمي من أصحابه عيناه كعيني الجرذ ليبحثا عن امرأة . غير أن أمل جرجس بأن يبقيه المالك هناك « كجليس » ذهب هباء . في محلات الدرجة الواطئة وفي عز الشتاء ، غالباً ما يسمح أصحاب الحانات لواحد أو اثنين من المشردين البائسين الذين يدخلون حاناتهم وقد غطاهم الثلج أو بللهم المطر بالجلوس بجانب النار كي يبدوا بؤساء ويجلبوا الزبائن . فقد يأتي عامل وكله شعور بالبهجة بعد انتهاء يوم من من العمل الشاق فيزعجه أن يشرب كأساً بوجود منظر كهذا .

وهكذا يصيح : « هاي ، بوب ، ماقضيتك ؟ تبدو وكأنك قد تلاشيت » . وحينذاك يبدأ الرجل الآخر بسرد رواية من روايات البؤس فيقول الأول : تعال فخذ كأساً ، لعلها تنعشك قليلاً . وهكذا يشربان معاً وإذا كان المتشرد ذا مظهر بائس كثيراً أو بارعاً في تزليق الآخرين فانهما قد يأخذان كأسين ، واذا ما اكتشف العامل أنهما من البلاد نفسها أو أنهما عاشا في المدينة عينها أو عملا العمل ذاته فانهما قد يجلسان إلى طاولة يقضيان ساعة أو ساعتين يتحدثان وقبل أن ينتهيا يكون صاحب الحانة قد « لطش » دولاراً . ورغم أن هذا كله قد يبدو من أعمال الشيطان إلا أن أحداً لايلوم صاحب الحانة فهو يعاني المصاب نفسه الذي

يجعل صاحب المصنع مضطراً لغش نتاجه . إنه إن لم يفعل ذلك سيفعله شخص آخر . ومن المحتمل أن يكون صاحب الحانة ، إن لم يكن أحد أعضاء مجلس البلدية ، مديناً لكبار أصحاب البيرة وهو نفسه على حافة الافلاس .

كان سوق « الجلساء » متخماً في ذلك العصر ، ولم يكن هناك شاغر لجرجس . فاضطر بالنتيجة لأن ينفق ستة نكلات كي يوفر لنفسه مأوى في ذلك اليوم الرهيب . بعد ذاك حل الظلام وبيوت المخافر لاتفتح أبوابها حتى منتصف الليل . . لكنه تذكر في آخر المطاف أن هناك ساقياً في مشرب يعرفه ويحبه وهكذا ذهب إلى الساقي الذي تركه يغفو على احدى الطاولات إلى أن عاد صاحب المشرب . كذلك أعطاه بقشيشاً حين خرج فوجد أنه سيقام في المبنى المجاور احتفال ديني من نوع ما ، تلقى فيه مواعظ وغناء ويقصده مئات الأفاقين الباحثين عن المأوى والدفء .

مضى جرجس إليه مباشرة فشاهد لوحة معلقة تقول أن الباب سيفتح في السابعة والنصف فمشى ، أو ركض ركضاً تقريباً حتى وصل المبنى المجاور حيث اختبأ حيناً من الزمن ثم عاد وجرى مرة ثانية وهكذا إلى أن انقضت الساعة . في النهاية وحين أوشك على التجمد بدأ الناس يتوافدون فشق طريقه بصعوبة بالغة مع بقية الحشد (مغامراً بأن تكسر ذراعه مرة ثانية) إلى أن وصل مكاناً قريباً من الموقد الكبير .

لم تحن الساعة الثامنة حتى كان المكان مكتظاً إلى درجة ترضي غرور الخطباء . فالممرات ممتلئة والرجال متراصون عند الأبواب إلى حد يكفي لأن تمشي عليهم . وعلى المنصة كان ثمة ثلاثة رجال متقدمين في السن يلبسون بذلات سوداء ، وفي المقدمة سيدة تعزف على البيانو . في البداية أنشدوا نشيداً دينياً ثم بدأ أحد الثلاثة وهو رجل طويل بالغ النحافة حليق الذقن يلبس نظارتين سوداوين ، بالقاء خطاب ، سمع جرجس نتفاً منه إذ أبقاه الخوف مستيقظاً ، فهو يعلم أنه حين ينام يشخر شخيراً عالياً ، وأن يشخر في القاعة يعني اخراجه إلى الخارج ، أي الحكم عليه بالموت .

كان الكاهن يعظ عن « الاثم والخلاص » ، عن رعاية الاله التي لاحدود لها وعفوه عن خطايا البشر . كان يخطب بكثير من الجد والرصانة . وكان يعني أشياء حسنة تماماً إلا أن جرجس وجد ، وهو يستمع ، ان نفسه مفعمة حقداً وكراهية . ماتراه يعلم عن الاثم والمعاناة بسترته السوداء الناعمة الملمس وياقته المنشاة الأنيقة وجسمه الدافيء ، وبطنه المليء وجيبه المتخم بالنقود ؟ كيف يحاضر بأناس يكافحون كي يسدوا رمقهم . أناس في قبضة الموت تهددهم أبداً قوى الجوع والبرد الشيطانية ؟ هذا طبعاً غير معقول . لقد شعر جرجس وكأنه لاعلاقة لهذا الخطيب بما يتحدث عنه . إنه الشخص غير المناسب لحل

مشكلته — إنه جزء من نظام قائم على سحق الناس وطحنهم . جزء من المالكين المظفرين المترفعين . من لدى كل منهم صالة كبيرة ونار دافئة وطعام ولباس ومال . لذا يمكنهم وعظ الناس الجائعين وعلى الجائعين أن يسمعوا ويطيعوا ! ! انهم يحاولون انقاذ أرواحهم — ومن سوى الأحمق ياترى يعجز عن أن يرى أن السبب في كل ما تعاني منه أرواحهم انما هو عجزهم عن تأمين عيشة كريمة لاجسادهم ؟

في الحادية عشرة انتهى الاجتماع . وبدأ الحضور البائسون الخروج فرادى فرادى إلى الثلج . وهم يصبون اللعنات على أولئك الخونة الذين كانوا على المنصة . مع ذلك كان مايزال هناك ساعة كاملة قبل أن يفتح بيت المخفر أبوابه وجرجس لايرتدي معطفاً كما أوهن جسمه طول المرض . في غضون تلك الساعة كاد الرجل يهلك تماماً . فقد كان مضطراً لأن يجري باستمرار كي يبقي دمه في حالة حركة دائمة . بعد ذلك ذهب إلى المخفر فوجد حشداً يسد الشارع المواجه للباب . . كان هذا في كانون الثاني عام ١٩٠٤ ، حين كانت البلاد على شفا « الأيام الصعبة » وكانت الصحف تسجل إغلاقات للمعامل كل يوم وقد قدرت بعض الجهات أن مليوناً ونصفاً من العمال سيصبحون بدون أعمال قبل مجيء الربيع . وهكذا كانت كل أماكن اللجوء في المدينة مزدحمة . فأمام باب المخفر ذاك كان الناس يتعاركون ويمزقون بعضهم بعضاً

كوحوش برية وحين امتلأ المكان وأغلقت الأبواب . كان نصف الجمع مايزال في الخارج . وبينهم طبعاً . جرجس بذراعه العاطلة . حينذاك لم يعد أمامه من خيار سوى الذهاب إلى نزل يأوي فيه ليلته وينفق عشرة سنتات أخرى ، ولقد تفطر قلبه وهو يفعل ذلك . فقد كانت الساعة الثانية عشرة والنصف وكان قد أمضى الليل كله تقريباً في الاجتماع وفي الشارع . ولسوف يخرجونه من المأوى حين تبلغ الساعة السابعة صباحاً : لقد صممت الرفوف التي يستخدمونها كأسرّة هناك بحيث يمكن اسقاطها بسهولة على الأرض وبالتالي يمكن أن يلقى من فوقها أي امرىء يتباطأ في تنفيذ الأوامر .

ذلك كان يوماً من الأيام ، أما فترة القرس فقد دامت أربعة عشر يوماً . في نهاية الأيام الستة منها كان جرجس قد أنفق كل سنت من نقوده ، بعد ذاك خرج إلى الشوارع يتسول ما يحفظ روحه في جسده .

كان يبدأ بالتسول حالما يبدأ الناس بالحركة فينطلق من الحانة التي هي قاعدته ثم يسير متمهلاً بعد ان يتأكد من غياب الشرطة ويدنو من كل شخص حسن المظهر يعبر به ، حاكياً له قصته المحزنة متضرعاً كي يعطيه نيكلاً اوديما (١) . وحين يحصل على شيء منه ينطلق مسرعاً ليدور حول الزاوية ويعود إلى قاعدته يتدفأ ، لكن حين يراه ضحيته يفعل هذا ، يبتعد مقسماً اغلظ «الايمان» انه لن يعطي سنتاً واحداً لشحاذ بعد

---

(١) الديم : عشرة سنتات — النيكل خمسة سنتات .

الآن ، غير ان مثل هذا الضحبة لايتوقف ابداً كي يسأل اين يمكن لجرجس ان يذهب في المرة التالية — وأين سيذهب ، هو الضحية . في الحانة لم يكن جرجس يستطيع الحصول على طعام وشراب افضل مما يستطيع شراءه في أي مطعم آخر ولقاء المبلغ ذاته وحسب ، بل كان باستطاعته ايجاد مكان مريح بجانب الموقد والثرثرة مع أحد الاصحاب إلى أن يغدو ساخناً كالخبز المحمص على النار . وفي الحانة كان يشعر أيضاً وكأنه في منزله ، اذ كان جزء من عمل صاحب الحانة ان يقدم المأوى والمرطبات للشحاذين مقابل مايحصلون عليه في غاراتهم . وهل هناك في المدينة كلها من يفعل هذا سواه — هل يقوم الضحية نفسه بهذا العمل ؟

ربما كان من المنتظر ان يبرهن جرجس انه شحاذ ناجح . فقد كان خارجاً لتوه من المستشفى وكان يبدو مريضاً بائساً بذراع عاطلة تماماً ، كذلك كان بغير معطف يرتعد من شدة البرد . لكن واأسفاه ! ! كانت حالته كحالة التاجر الشريف الذي يكتشف ان العملة الفاسدة والبضاعة الفاسدة تطرد العملة الجيدة والبضاعة الجيدة . فجرجس ، كشحاذ . كان مجرد « هاوي سلب » بالمقارنة مع اولئك المحترفين المنظمين المنهجيين . كان خارجاً لتوه من المستشفى لكن القصة باتت بالية عتيقة ، وكيف يمكنه اثبات صحتها ؟ صحيح ان يده معلقة إلى كتفه — لكن أليست هذه حيلة يزدريها أي صبي شحاذ نظامي ؟ وكان شاحب الوجه يرتعد برداً — لكن أليست هناك مواد تجميل تعطي مثل

هذا اللون ؟ ألا يدرس الشحاذون كيفية جعل اسنانهم تصطك ؟ واذا كان بغير معطف ، ترى الا تواجه بينهم المئات الذين تقسم انه لايستر اجسامهم إلا خرق قطنية بالية رغم أن لكثير من هؤلاء الشحاذين المحترفين بيوتاًمريحةوعائلات وحسابات مصرفية ربما تبلغ آلاف الدولارات؟ ان بعضهم يتقاعد مكتفياً بما كسب ثم ينصرف إلى استخدام الآخرين أو تشغيل الأولاد في هذه المهنة . كذلك هناك من يربط يديه كلتيهما إلى جانبيه ويحشو ردنيه بحشيات مناسبة ثم يستأجر ولداً مريضاً كي يحمل طاساً له . وهناك من ليس له سيقان فيدفع نفسه على لوح ذي عجلات ، والبعض يفضل التسول مع العمى حيث يقوده كلب صغير جميل والبعض ممن هم أقل حظاً يبترون أو يحرقون أنفسهم أو يحدثون في أجسادهم قروحاً حادة بصب مواد كيماوية عليها . وقد تواجه فجأة رجلاً في الشارع يمد لك اصبعاً اهترأت أو ازرقت بسبب الغانغرينا ـ أو شخصاً برزت جروحه المتقرحة من ضماداتها الوسخة . هؤلاء الأشخاص البائسون هم حثالة المدينة وحطامها . إنهم يختبئون ليلاً في أقبية بيوت متداعية تسربت اليها مياه الامطار ، تجدهم في « أوكار البيرة الآسنة » وحلقات الإفيون ، حيث يلتقون بالنساء المهجورات اللواتي بلغن الدرك الاسفل من سلم الدعارة ـ نساء كن محظيات لدى رجال صينيين ثم سلمهن هؤلاء أخيراً لبراثن الموت . في كل ليلة ، كانت دوريات الشرطة تسحب المئات من هذه الحثالة من الشوارع . وبامكانك ان ترى الكثير منهم في المستشفى الاحتجازي يزحم بعضهم بعضاً في

جحيم مصغر بوجوههم البشعة الكريهة وقد شوهها الجزام أو ورمتها الأمراض الأخرى . تراهم وهم يصرخون ويصيحون ويضحكون في كل مرحلة من مراحل السكر ، ينبحون كالكلاب ويهذرون كالقردة ، يمزقون ويهاجمون بعضهم بعضاً وكأنما اصابهم ضرب من الهذيان .

— ٢٤ —

رغم كل العقبات ، كان جرجس مضطراً لان يؤمن ثمن المأوى وكأس الشراب التي ينبغي أن يتناولها كل ساعة أو ساعتين أو تجمد برداً حتى الموت . يوماً بعد يوم كان يتجول في البرد القطبي تمتلىء روحه مرارة ويأساً . لقد رأى عالم التمدن حينذاك ببساطة أشد مما كان قد رآها من قبل ، فرأى عالماً لايحسب فيه أي حساب إلا للقوة الوحشية ، نظامه، دستوره ، قوانينه هي مايضعه اولئك الذين يملكون كل شيء لإخضاع من لايملكون شيئاً ، وقد كان واحداً من هؤلاء.وهكذا غدا كل مافي الدنيا ، كل الحياة سجناً كبيراً يذرعه جيئة وذهاباً مثل نمر سجين . يجرب قضيباً بعد قضيب ليجدها كلها تتجاوز ماالديه من قوة . لقد خسر معركته ، معركة الجشع الضارية ، وبذلك حكم عليه بالموت ، وكان المجتمع كله منهمكاً بإحكام الطوق حوله كيلا يفر من حكم الإعدام . فحيثما يلتفت يجد قضبان سجن ، اعيناً معادية تلاحقه ، رجال شرطة أنيقين ، حسني التغذية يرتعد من نظراتهم حين يرشقونه بها . ويشدون قبضة ايديهم على عصيهم حين يرونه ؛ اصحاب حانات لايكفون

عن مراقبته حين يكون في حاناتهم ويحسدون عليه كل لحظة يمكث فيها لديهم بعد ان يدفع نقوده : جموعاً متعجلة دائماً في الشوارع تصم آذانها عن نداءاته وتوسلاته ناسين حتى وجوده — كل هؤلاء كانوا جزءاً من حقيقة تواجهه ، حيثما التفت واينما اتجه . فكل شيء قائم بحيث يعبر له عن هذه الحقيقة ، المساكن بجدرانها السميكة وابوابها المرتجة ، نوافذ القبو المشبكة بقضبان الحديد ، المستودعات الكبيرة الملأى بمنتجات العالم كله والمحروسة بمصاريع وابواب حديدية ثقيلة ، المصارف بما فيها من أموال هائلة وقد خبئت كلها في صناديق وأقبية من فولاذ .

لكن ذات ليلة ، عاش جرجس مغامرة العمر . كان الوقت متأخراً ليلاً وكان قد فشل في تأمين ثمن المأوى ، كان الثلج يتساقط عليه منذ زمن طويل حتى غطاه تماماً وكان البرد يخال حتى عظامه . كان يعمل بين حشود المسرح ، متنقلاً هنا وهناك معرضاً نفسه لاعين الشرطة . لقد وصل به اليأس درجة بات يأمل معها ان تقبض عليه الشرطة . لكنه حين رأى معطفاً أزرق يتجه صوبه خذلته شجاعته فاندفع منحدراً في شارع جانبي فاراً بعيداً . وحين توقف رأى رجلاً يتجه نحوه فاعترض طريقه .

« من فضلك ياسيدي » بدأ بصيغته المعهودة . . « هل تعطيني ثمن المأوى ؟ لقد كسرت ذراعي ، ولا استطيع العمل وليس في جيبي بنس واحد — انني عامل شريف ياسيدي ، لم أشحذ من قبل ابداً وهي ليست خطيئتي ياسيدي — »

كان جرجس يستمر عادة إلى ان يقاطعه واحدهم ، غير ان هذا الرجل لم يقاطعه وهكذا وصل أخيراً إلى حد انقطعت فيه انفاسه ، توقف الآخر فلاحظ جرجس فجأة أن وقفته لم تكن ثابتة تماماً « ماذا قلت ؟ » سأل الرجل فجأة بصوت أجش .

أعاد جرجس الكلام مرة أخرى ببطء اشد ووضوح أكثر وقبل ان يصل إلى نصف بيانه المعهود أخرج الآخر يده ووضعها على كتفه قائلاً :

« مسكين انت ايها الشاب . . استهلكوك اذن . .. استهلكوك اذن . . »

بعدئذ اقترب أكثر وأكثر من جرجس لتصبح اليد التي كانت على كتفه ذراعاً تطوق عنقه قائلاً « انها لعبة قديمة ، أنهتني انا نفسي . . انه عالم قاس لايرحم» كانا قريبين من عمود مصباح فنظر جرجس نظرة خاطفة إلى الرجل الآخر : كان شاباً — ربما لايتجاوز الثامنة عشرة من عمره له وجه صبياني جميل ، يلبس قبعة حريرية ومعطفاً طرياً فخماً له ياقة من فراء وكان يبتسم بوجه جرجس ابتسامة التعاطف والطيبة « انا في حالة صعبة أيضاً ياصديقي العزيز . والداي صعبان والا لدبرتك . ماهي مشكلتك ؟ » « كنت في المستشفى »

« مستشفى ! » هتف الشاب وهو مايزال يبتسم بعذوبة « هذا في

غاية السوء . . انظر . . عمتي بولي في المستشفى أيضاً . لقد وضعت توأماً. فما مشكلتك انت . ؟ « كسرت ذراعي » بدأ جرجس .

« هكذا ! قاطعه متعاطفاً « الامر بسيط اذن ، ستشفى قريباً . بودي لويكسر أحد ذراعي ، اذن سيعاملونني على نحو أفضل . . . هيه . . أيها الكهل . . . مم تشكو الآن ؟ »

فقال جرجس « أناجائع ياسيدي »

« جائع ؟ ولماذا لم تتناول عشاءك ؟ »

« ليس لدي مال ياسيدي »

« ليس لديك مال ! ! هـ . . . و . . هـ . . و ــ تماماً مثلي . . . اناليس لدي مال أيضاً .

نحن سواء اذن . . . لكن لماذا لاتذهب إلى البيت مثلي ؟ »

فقال جرجس : « ليس لدي بيت . »

« لابيت ، غريب في المدينة . . يالله ! ! هذا أمر سيء . . ستأتي إلى بيتي اذن ، وتتناول عشاءك ! ! الوحدة قاسية ! ! « الحاكم » مسافر إلى الخارج ، بابا في شهر عسل ، بولي انجبت توأماً ، الكل ذهبوا . . الكل بعيدون ــ اوف . . شيء . . يدفع المرء للشراب وحده « هام » العجوز معي . لكن باللعنة . . هو لايدعني ارتاح . . . يلاحقني في كل مرة

لايدعني أنام هناك . : انها أوامر الحاكم . ياللعنة ! ! البيت في كل ليلة ياسيدي ! ! اتراك سمعت بشيء كهذا ؟ « كل صباح ؟ » سألته ذات مرة . . لكنه قال كلا ياسيد ! ! كل ليلة . . أو لانفقات على الاطلاق » . . تلك هي أوامر الحاكم الصلب كالمسمار ، ياللعنة ! ! انه يراقبني ! ! هام العجوز هذا والخدم يتجسسون علي أيضاً ، فما رأيك ياصديقي ؟ شخص هادىء لطيف طيب القلب مثلي . والده يذهب إلى أوروبا ولايدعه يعيش بسلام — هوب . ؟ أليس هذا مخجلاً ياسيد ؟ وهكذا ، أعود كل مساء . أفقد كل مافي نفسي من مرح . ياللعنة ! ! هذه هي المسألة الآن . ، وذلك هو السبب في انني هنا . . أذهب بعيداً وأترك كيتي . . هلك . ، إنها تبكي أيضاً — مارأيك بذلك أيها الكهل ؟ « دعيني اذهب ياكيتنز » أقول لها « سآتي باكراً . سأذهب حيث الواجب يدعوني — وداعاً — وداعاً ياحبي الحقيقي — وداعاً ، وداعاً . . ياحبي الحقيقي . . » والجملة الأخيرة شطر من اغنية ارتفع بها صوت السيد الشاب ، حزيناً معولاً ، بينما تعلق بعنق جرجس الذي بدأ ينظر حوله بعصبية بالغة خشية ان يقترب أحد ، فقد كانا مايزالان وحيدين على أي حال .

« لكنني بخير » تابع الشاب بشيء من العدوانية « يمكنني ان اشق طريقي . . حين اشاء — فريدي جونز رجل يصعب التعامل معه حين يهم بشيء « لاياسيد » أقول له . . بحق السماء انا لست بحاجة لأحد كي يذهب معي — ثم . . لماذا تأخذني ؟ تظن انني سكران أليس كذلك ؟ أنا أعرفك . . لكنني لست أكثر سكراً منك ياكيتنز . . » أقول لها . .

فتقول لي « ذلك صحيح يافريدي العزيز (انها فتاة لطيفة ، كيتي هذه)
لكنني باقية في البيت وأنت خارج إلى البرد ، إلى الليل القارس ».
« لاتبالي ياكيتي الحبيبة » أقول لها « لاتمزح ، فريدي ، ياصديقي »
تقول هي « دعني اطلب لك عربة مثل الناس المحترمين » « يمكنني
ان اطلب عربتي الخاصة ، لاتكوني حمقاء ، انا أعرف ماأفعل ، أتراهن ؟
قل ياصديقي ، مارأيك — هل تأتي إلى المنزل معي وتتناول عشاء ؟
هلم مثل فتى طيب . لاتكن احمق ، انت تالف ، مثلي . يمكنك ان تفهم
مالفهمه . قلبك في مكانه الصحيح ، وحق الله ، هلم ايها الكهل ولسوف
ننير البيت ونتناول بعض الشراب ونعربد ، اجل — يمكننا ان نفعل
ما نشاء ... طالما أني داخل البيت فإن بامكاني ان اصنع ما اشاء . هي ذي
أوامر الحاكم » . . وحق الله . . هيب . . هيب . . »

وانحدرا إلى الشارع يتأبط واحدهما ذراع الآخر ، بينما الشاب
يدفع جرجس دفعاً شبه غائم البصر . كان جرجس يحاول التفكير بما
يفعل — وهو يعلم انه لايستطيع عبور أي مكان مزدحم مع هذا الصاحب
الجديد دون ان يلفت الانتباه ويتعرض لمن يوقفه . فالثلج المتساقط هو
وحده الذي جعل الناس يعبرون دون ان يلاحظوا شيئاً .

لذا توقف جرجس فجأة متسائلاً « هل المكان بعيد ؟ »

فرد الآخر « ليس كثيراً — هل انت متعب ؟ حسناً — سنركب ؟
مارأيك ؟ موافق ؟ ادع عربة اذن .. »

ثم بدأ الشاب يمسك جرجس بيده ويبحث باليد الاخرى في جيوبه
«أنت تدعو العربة وأنا ادفع ، اقترح الشاب « مارأيك . . آ ؟ »
وأخرج من مكان ما حزمة اوراق مالية أكبر مما كان جرجس قد رأى في حياته كلها فراح يحملق فيها بعينين جاحظتين .

« تبدو كثيرة ، أليس كذلك ؟ » قال السيد فريدي وهو يعبث بها « لكنك احمق أيها الكهل . . . انها حزمة صغيرة فقط . انني انفق في اسبوع واحد أكثر منها بكثير . . . بشرفي ! . . هذه هي أوامر « الحاكم » . . . آخذها في بداية الاسبوع ولاابقي سنتاً واحداً منها . . . وحق الله ! ! ولاسنتاً ! ! لقد ارسلت « لهاري » برقية هذا العصر وهذا سبب آخر من الاسباب التي تدعوني للذهاب إلى المنزل . . أكاد أموت جوعاً قلت في البرقية ، حفاظاً على شرف العائلة أرسل لي بعض الخبز — الجوع سيجبرني على اللحاق بك — فريدي.هذا ماكتبت له وانا اعني ماأقول . قسماً سأهرب من المدرسة ان لم يرسل لي مالاً »

هكذا استمر السيد الشاب يهذر — وفي غضون ذلك كان جرجس يرتعش اضطراباً . كان بامكانه ان يمسك بحزمة الاوراق تلك ويغيب في عتمة الشارع قبل ان يستجمع الآخر أفكاره . فهل يفعلها ؟ ماالآمال الأفضل التي يرجوها إن انتظر مدة أطول ؟ الا ان جرجس لم يرتكب جريمة في حياته ، والآن هاهوذا يتردد نصف ثانية أخرى . سحب « فريدي » ورقة من الحزمة ثم اعاد البقية إلى جيب بنطاله قائلاً :

« هاك ايها الكهل ! ! خذها ! ! » وأمسك بها ملوحاً بيده .
كانا قد وصلا قبالة حانة وعلى ضوء النافذة رأى جرجس انها من فئة المائة دولار .

« خذها . . » كرر الآخر « ادفع للعربة واحتفظ بالباقي . . . أنا لأفهم اموراً كهذه ، « الحاكم » نفسه يقول ذلك ، « والحاكم » يعرف . . . « الحاكم » يفهم امور العمل . تراهن ؟ . » حسناً ايها الحاكم قلت له « انت تدير العرض وانا آخذ البطاقات . . وهكذا وضع العمة بولي لمراقبتي . والآن بولي في المستشفى وقدانجبت توأماً وأنا في الخارج مثل قابيل . . .٢. . . ي هالو ناده ياهذا ! ! »

وكانت عربة تمر بهما فوثب جرجس هاتفاً بالحوذي إلى أن وقف بجوار الرصيف ، صعد فريدي إلى العربة بشيء من المشقة ثم هم جرجس باللحاق به فصاح السائق ! ! هيه . . انت . . اخرج . . ابتعد »

فتردد جرجس نصف طائع إلا انصاحبه صرخ « ماذا . . ؟ مادهاك ؟.. هلم » اطاع سائق العربة الأمر وصعد جرجس إلى العربة . بعدئذ اعطاه فريدي رقماً في منطقة البحيرة فانطلقت العربة مسرعة . استند الشاب إلى الوراء وهو يلحتم بجرجس مهمهماً برضى ذاتي كامل ، وخلال نصف دقيقة كان قد غرق في سبات عميق . جلس جرجس يرتعد قد سيطرت على رأسه فكرة واحدة ، هل يستطيع الوصول إلى حزمة لاوراق المالية . كان يخشى ان يمد يده إلى جيوب صاحبه على أي حال ،

عدا عن ذلك فقد كان سائق العربة يراقبه . كانت المائة دولار قد اصبحت مضمونة في جيبه وكان عليه ان يقنع بها .

بعد حوالي نصف ساعة توقفت العربة . نظر جرجس حوله فرأى انهم وصلوا شاطىء البحيرة ، ومن الشرق كانت عاصفة شديدة القرس تجلد البحرة المتجمدة بسياطها « هاقد وصلنا » صاح السائق فأيقظ جرجس صاحبه .

استيقظ السيد فريدي مجفلاً « ثم قال »

« هالو . . اوه . . اين نحن ؟ ماذا ؟ من انت ؟ اوه . . اجل تذكرت . . ايها الكهل . . هل وصلنا البيت ؟ . . دعني ارى . . . . بر . . . . ر . . ر . . الطقس بارد . . . أجل . . . تعال معي . . نحن في البيت . . لقد وصلنا . . »

كانت تنتصب امامهم كتلة غرانيتية ضخمة شيدت بعيداً عن الشارع وتشغل حيز مبنى ضخم بمفردها . على ضوء مصابيح الممر استطاع جرجس ان يرى ان لها ابراجاً وجملونات ضخمة على غرار القصور في العصور الوسطى ، ففكر ان صاحبه اخطأ المكان ولابد — إذ لم يستطيع ان يفهم ابداً كيف يمكن لأي شخص ان يملك بيتاً يشبه الفندق أو الصالة في المدينة . لكنه تبعه صامتاً ، ثم صعدا الدرج الطويل وقد تأبط واحدهما ذراع الآخر .

« هاهنا ، ايها الكهل » قال السيد فريدي . . أمسك بذراعي ريثما اجده ، ثبتني . . الآن . . آه . . هاهوذا . . لقد وصلت إليه .

رن الجرس ، وخلال بضع ثوان فتح الباب رجل يرتدي بزة زرقاء ويحملق امامه صامتاً كتمثال حجري .

وللحظة من الزمن وقفا يطرفان بأعينهما بسبب الضوء . بعدئذ شعر جرجس بصاحبه يسحبه فخطا إلى الداخل ثم اغلق الرجل — التمثال الباب وراءه . كان قلب جرجس يخفق بشدة . انه يفعل شيئاً خارقاً للعادة . . . وليس لديه اية فكرة عما يوجد داخل ذلك المكان السماوي الغريب . بل لعل علاء الدين لم يكن أكثر اضطراباً منه وهو يدخل المغارة .

كان المكان الذي يقف فيه قليل الاضاءة انما كان باستطاعته أن يرى قاعة واسعة ذات اعمدة عالية وسلم كبير في طرفها البعيد . الارض من الرخام اللماع المصقول كالبلور ومن الجدران ، كانت تبرز أشكال غريبة زاهية الالوان متناسقة الظلال ، وتتدلى منها لوحات رائعة تتألق في شبه العتمة ارجوانية ، حمراء ، ذهبية كألق الغروب في غابة كثيرة الظلال .

تحرك الرجل ذو البزة الرسمية صوبهما دون ان ينبس ببنت شفة ، فخلع السيد فريدي قبعته واعطاها له ثم حاول ، بعد ان ترك ذراع جرجس ، ان يخلع معطفه وهو الهدف الذي لم يحققه الا بعد محاولتين أو ثلاث وبمساعدة التابع . في غضون ذلك جاء رجل ثان ، شخص مهيب رزين اشبه بالجلاد . توجه مباشرة نحو جرجس الذي انكمش فزعاً محاولاً الابتعاد فأمسكه

من ذراعه دون ان ينبس بكلمة وبدأ السير باتجاه الباب . وفجأة جاء السيد فريدي « هاملتون ! صديقي سيبقى معي . »

فتوقف هاملتون وقد ترك جرجس تقريباً « هلم ايها الكهل . . » قال الآخر فسار جرجس نحوه .

« سيد فريدريك . . » هتف الرجل

« انظر إذا كان سائق العربة قد اخذ اجرته » كان جواب الآخر ثم شبك ذراعه بذراع جرجس الذي كان على وشك القول « لدي النقود التي ينبغي دفعها له ، لكنه كبح نفسه في آخر لحظة . أعطى الرجل الضخم الجثة ذو البذلة الرسمية اشارة للرجل الآخر فخرج هذا إلى العربة بينما لحق هو بجرجس وسيده الصغير .

عبر الرجال الثلاثة القاعة الكبيرة ثم انعطفوا فواجههم بابان كبيران.

« هاملتون . . » قال السيد فريدي

« نعم ياسيدي » . . »ردّ الآخر .

« ماشأن باب غرفة الطعام ؟ »

« لاشأن له ياسيدي . . »

« اذن ، لم هو مغلق ؟ »

ففتح الرجل باباً ، ظهر وراءه مجاز آخر غارق في العتمة « النور »
امر السيد فريدي ، فضغط الحاجب زراً ، توهج بعده نور ساطع
من علٍ كاد يزيغ له بصر جرجس ، كان يحملق وشيئاً فشيئاً رأى
امامه الشقة الكبيرة ذات السقف الدائروي الأشبه بالقبة حيث كان
يتدفق الضوء ، والجدران الاشبه بلوحة واحدة ضخمة — حوريات
وجنيات غابات يرقصن في فرجة غابة مكسوة بالازهار — ديانا مع
كلاب صيدها وخيولها وهي تندفع إلى الامام عبر جدول جبلي — مجموعة
من العذارى يستحممن في بركة وسط غابة . هذه اللوحات بالحجم
الطبيعي وكلها تبدو حقيقية إلى درجة كاد جرجس يظن أنها من اعمال
السحر وانه في قصر من قصور الاحلام . بعدئذ مسح بعينيه الطاولة
الطويلة الرابضة في وسط الصالة ، طاولة سوداء كالابنوس تتألق بخيوط
الفضة والذهب . في وسطها زبدية كبيرة منحوتة نحتاً تتألق عليها أوراق
وغصون السرخس والاشجار الحمراء والارجوانية النادرة بفعل ضوء
مخفي في مكان ما في منتصفها .

« هذه هي غرفة الطعام » ، ابدى السيد فريدي ملاحظته . « هل
تعجبك ايها الصديق الكهل ، »

وكان يبتغي جواباً على ملاحظته وهو يتكيء على جرجس ويبتسم
له . لقد اعجبت الغرفة جرجس ! ! !

« مع ذلك فهي اكبر من ان يأكل فيها شخص واحد » كان تعليق فريدي . .«غرفة كالجحيم ، مارأيك » بعدئذ خطرت له خاطرة مفاجئة فتابع دون ان ينتظر .

« ربما لم تر في حياتك شيئاً كهذا ؟ هيه . . . اليس كذلك ايها الكهل »

« ابداً ، » قال جرجس

« آت من الريف . . . ربما ؟ »

« اجل . . » قال جرجس

« آه . . أرى ذلك . . فالناس الذين يأتون من الريف لايرون ابداً مكاناً كهذا . « الحاكم » يأتي بهم — عرض حر — هك . . سيرك منظم . . ثم يعودون إلى بيوتهم ويخبرون جماعتهم عن بيت جونز الكبير ، جونز صاحب منشأة التعليب ، صاحب شركة لحوم الابقار — صنعها كلها من ارباح الخنازير . ياللعنة ! ! وغد حقيقي ! ! الآن ترى اين تذهب اموالناحسميات خطوط ترامات خاصة . هك . . وحق الله ! مكان رائع مع ذلك ، يستحق ان تراه . . ترى هل سمعت بجونز صاحب منشأة التعليب ، ايها الكهل ؟ ؟ » وأجفل جرجس رغماً عنه ، فسأل الآخر الذي لم يكن يغيب عن نظره الحاد شيء :

« ماذا دهاك ؟ هيه . . اسمعت به ؟ »

اخيراً تمكن جرجس من التلفظ متلعثماً: « لقدعملت في المسلخ . »
« ماذا » صاح فريدي بما يشبه الصراخ « انت . . في المسلخ ؟ ه . .
و . . ه . . و . . لماذا ؟ ذلك جيد . . هات يدك على هذا أيها الكهل .
يجب ان يكون « الحاكم » هنا . . سيسر لرؤيتك . . . انه صديق
عظيم للناس . . « حاكمنا » هذا ــ العمل ورأس المال ، تجمع المصالح
وما إلى ذلك ــ اوه . اشياء مضحكة تحدث في هذا العالم . اليس كذلك
ايها العجوز ؟ هاملتون، دعني اقدمك ــ صديق العائلة ــ صديق قديم
من اصدقاء « الحاكم » ــ يعمل في المسلخ . تعال نقض الليل معاً ــ
نقضي وقتاً ساخناً . صديقي السيد ــ ماسمك ايها الكهل ؟ . قل لنا
ماسمك ؟ » « رودوكس ــ جرجس رودوكس ».

« صديقي السيد رودنوس ، هاملتون تصافحا » .

فأحنى الحاجب الوقور رأسه انما لم يصدر صوتاً وفجأة وجه السيد
فريدي اصبعاً متحمسة اليه ، أنا اعلم ماهي مشكلتك ياهاملتون . . اتراهن
بدولار انني اعرف ؟ تظن انني ثمل . . اليس كذلك ؟ »

وأحنى الحاجب رأسه مرة ثانية ثم قال « اجل ياسيدي » . مما دفع
فريدي للتمسك أكثر برقبة جرجس والانخراط في نوبة من الضحك
هادراً « هاملتون ، عليك اللعنة ايها الوغد العجوز . سأقاضيك على تهمة
باطلة . وسترى انني لست ثملاً . هو . . هو . . هو . . انا ثمل . هو . .

هو . . » وانتظر الاثنان النوبة ليريا اية نزوة جديدة ستحل به«ماذا تريد أن تفعل ؟ » سأل فريدي فجأة « اتريد ان ترى المكان ايها الكهل . . أنا ألعب دور « الحاكم » . . . . . انا العب دور (الحاكم) . . . اطوف بك فيه ؟ اريك الصالونات من طراز لويس الخامس عشر — لويس السادس عشر حيث يكلف كل كرسي ثلاثة آلاف دولار ، قاعة الشاي من طراز ماري انطوانيت ، لوحة الرعاة وهم يرقصون — ريزدائيل — ثلاثة وعشرون الفاً ! ! قاعة الرقص — اعمدة الشرفة . . . . هـ . . . ك . . جاءت بها سفينة خاصة . . ثمانية وستون الفاً . . طلاء السقف من روما — ماسمه ذلك الشخص ، ياهاملتون ؟ فاتوني ! مكاروني ؟ اذن هذا المكان طاسة فضية ، بنفينتوسليني — رومي اول داغو ! ! والارغن ثلاثون الف دولار ياسيد . هيا ياهاملتون ، دع السيد رودنوز يسمعه . لا . . لابأس . . انس ذلك تماماً ، يقول انه جائع ياهاملتون . دعنا نتناول بعض الطعام . فقط . . دعنا نتناوله هنا — تعال إلى جناحي ، ايها الكهل . انه جميل ولطيف . . هذا الطريق . ! هذا الطريق ! لاتتزحلق على الارض . اريد بعض اللحوم الباردة وبعض الشراب ، لاتنس الشراب بحق الله ، اريد بعض الشراب من صنف مادِيرا ، ثماني عشرة ونصف . . أتسمعني ياسيد ؟ »

فرد الحاجب « اجل ياسيدي . لكن ياسيد فريدريك ، اوامر والدك ؟ » فاتخذ فريدريك على الفور وضعية الرجل المهيب ثم قال

«أوامر والدي لي وليست لك» بعدئذ تمسك باحكام أكثر بعنق جرجس وهو يترنح خارجاً من القاعة ، ثم خطرت له وهو في طريقه فكرة اخرى فسأل «هل هنالك اية رسالة ؟ اية برقية لي ياهاملتون ؟»

«كلا ياسيدي» اجاب الحاجب

«لابد ان (الحاكم) مسافر . . وكيف هو التوأم ياهاملتون»

«على خير مايرام ياسيدي»

«حسن» قال السيد فريدي ثم اضاف بحمية «ليباركهما الله ، الحملين الصغيرين . . »

بعد ذاك صعدا السلم الكبير درجة درجة وفي اعلاه برز لهم من الظلال تمثال حورية تجلس القرفصاء بجانب نبع ماء ، تمثال جميل ساحر ، يكاد ينطق بالحياة دفئاً والواناً . وفي الطابق العلوي كان ثمة بلاط فخم ، سقفه على شكل قبة وتنفتح عليه اجنحة عديدة . توقف الحاجب في الاسفل انما لبضع دقائق فقط ، كي يعطي اوامره ثم لحق بهما . ضغط زرا فاشتعلت الصالة انواراً ثم فتح باباً امامهما وضغط زراً آخر بينما كانا يترنحان داخلين إلى الجناح .

كان الجناح مرتباً على شكل مكتب للدراسة . في الوسط طاولة من الماهوغاني (١) مغطاة بالكتب وادوات التدخين ، الجدران مزينة

---

(١) خشب صلب بني اللون مائل للحمرة يصنع منه الأثاث ال[illegible]

بشعارات الكلية وشاراتها ، رايات ، ملصقات صور ، حلي صغيرة تافهة — مضارب تنس ، مجازيف زوارق ، عصي غولف وعصي بولو. وكان هناك رأس ضخم من رؤوس الموظ(١) قرناه بطول ستة اقدام يواجه رأس جاموس على الجدار المقابل ، بينما تغطي جلود نمور ودببة الارض المصقولة ، كما كانت هناك كراسٍ يسترخي المرء عليها ومقاعد عند النافذة عليها فرش طري ذو تصاميم عجيبة . وهناك زاوية مفروشة على الطراز الفارسي ، مع ستارة ضخمة ومصباح كالجوهرة تحتها ، خلفها ينفتح باب على غرفة النوم . وخلف ذلك حوض سباحة من المرمر النقي كلف حوالي اربعين الف دولار .

وقف السيد فريدي دقيقة او دقيقتين ، محدقاً فيما حوله . بعدئذ ظهر من الغرفة المجاورة كلب ضخم الجثة ، اكره مخلوق رأته عينا جرجس . كان يتثاءب فاتحاً فماً كفم التنين ، ثم جاء باتجاه السيد الشاب هازاً ذيله « هالو ، ديوي . . » هتف سيده « نمت جيداً ايها الغلام العجوز ؟ حسناً . حسناً هيه . . ماالمسألة ؟ (كان الكلب ينخر باتجاه جرجس) . . . لماذا ياديوي ؟ ! هذا صديقي السيد رودنوز . . صديق قديم (للحاكم) « سيد رودنوز . . أميرال ديوي ، تصافحا . . ه . . ك . . . اليس هو ممتازاً مع ذلك شريط ازرق في عرض نيويورك— قصة شعره بثمانية الاف وخمسمائة ! ! كيف ذلك . . هيه »

(١) الموظ : من حيوانات أمريكا الشمالية يشبه الإلكة .

وغاص فريدي في واحد من الكراسي الكبيرة ذات الاذرع ، بينما اقعى الأميرال ديوي تحته . لم ينخر ثانية إنما لم يرفع عينيه لحظة واحدة عن جرجس . لقد كان رصيناً تماماً ، كان اميرالاً .

اغلق الحاجب الباب ثم وقف بجواره يراقب جرجس اللحظة باللحظة . بعدئذ جاء وقع خطأ في الخارج . وحين انفتح الباب ، دخل رجل يرتدي بزة خاصة وهو يحمل طاولة قابلة للطي وخلفه رجلان يحملان صينيتين مغطاتين . وقف واحدهما كالتمثال بينما راح الاول يمد الطاولة ويصف محتويات الصينيتين . فطائر لحم ، شرائح رقيقة من اللحم ، سندويشات خبز وزبدة ، زبدية من الكمثرى المشرحة شرائح شرائح وقشطة (في كانون الثاني) ، كعك صغير غريب الشكل بألوان زهرية وخضراء وصفراء وبيضاء ونصف دستة من زجاجات الخمرة الباردة كالثلج .

« هذا عشاؤك » هتف السيد فريدي جذلاً وهو يتفحص الطعام « هيا ، ايها الكهل ، تحرك . »

ثم جلس إلى الطاولة . فتح النادل احدى الزجاجات فصب هو محتوى ثلاث كؤوس في جوفه دون ان يرفعها عن فمه.

بعد ذاك اطلق تنهيدة طويلة ونادى جرجس مرة ثانية طالباً منه الجلوس إلى الطعام .

امسك النادل بكرسي في الجهة المقابلة من الطاولة ، فظن جرجس انه فعل ذلك كي يبعدها عنه لكنه فهم اخيراً ان القصد هو وضعها تحت تصرفه ، وهكذا جلس بحذر وتشكك . لاحظ السيد فريدي ان الندل يزعجونه ، فأشار لهم برأسه : « يمكنكم الذهاب » .

فذهبوا جميعاً باستثناء الحاجب

فقال فريدي « يمكنك ان تذهب انت ايضاً »

لكن سيد فريدي — بدأ الرجل .

الا ان الشاب صرخ غاضباً « اذهب . عليك اللعنة ، الا تسمعني ؟ »

فذهب الرجل ثم اغلق الباب ، لكن جرجس ، الذي لم يكن يقل حدة عن فريدريك ، لاحظ ان الحاجب اخرج المفتاح من القفل كي يتسنى له اختلاس النظر من خلال الثقب .

التفت السيد فريدريك إلى الطاولة ثانية قائلاً : « . الآن . هيا ، تناول طعامك . »

حملق جرجس حوله بارتياب « كل . . » صرخ الآخر . . « احش بطنك ، ايها الكهل » « الا تريد ان تأكل شيئاً ؟ »سأل جرجس .

فكان جوابه « لست جائعاً . انا عطشان فقط . اكلت انا وكاندي بعض الحلويات . « هيا . . كل » وهكذا بدأ جرجس دون مزيد من الكلام . اكل وكأنه يأكل بمجرفتين ، شوكة بيد وسكين بيد اخرى

وما ان بدأ حتى سيطر عليه جوعه الذئبي ، فلم يتوقف لحظة يأخذ فيها نفساً إلى ان مسح الصحون جميعاً . « عظيم » قال الآخر الذي كان يراقبه مندهشاً .

بعدئذ رفع فريدي الزجاجة ثم قال : « دعني أرك الآن وانت تشرب . » اخذ جرجس الزجاجة ثم قلبها على فمه ، فانسكب داخل جوفه سائل سماوي عجيب مدغدغاً كل عصب من اعصابه ليفعمه فرحاً وسروراً ، لقد شربها حتى الثمالة ثم اطلق آهة طويلة .

« خمرة جيدة ، أليس كذلك ؟ » قال فريدي بنوع من التعاطف الوجداني ، وكان قد استند إلى الوراء في الكرسي الكبير واضعاً ذراعه خلف رأسه محدقاً النظر إلى جرجس .

فحدق إليه جرجس بالمثل . كان فريدي يلبس ثوباً مسائياً نقياً لاشائبة فيه وكان يبدو في غاية الجمال – فتى جميل ذو شعر ذهبي ورأس كرأس أنطونيو . ابتسم لجرجس ابتسامة الثقة والطمأنينة ثم بدأ الكلام ثانية ببراعته السماوية . في هذه المرة تكلم مدة عشرة دقائق دون توقف راوياً لجرجس قصة عائلته كلها . اخوه الكبير « تشارلي » يهوى فتاة بسيطة تمثل دور ذات العينين اللامعتين الصغيرتين في مسرحية « خليفة كامسكاتكا » وقد كادا يتزوجان في الماضي لولا أن « الحاكم » اقسم ان يحرمه من الميراث ثم قدم له مبلغاً يصيب الخيال بالذهول وقد أصاب فضيلة ذات العينين اللامعتين الصغيرتين نفسها

بالذهول . والآن تشارلي في اجازة من الكلية يقضي مع حبيبته مايمكن ان يدعى شهر عسل . كذلك ، كان الحاكم قد هدد بالحرمان من الميراث الاخت غيندولين التي تزوجت ماركيزاً ايطالياً له سلسلة طويلة من الالقاب وسجل شرف طويل . كانا يعيشان في قصره أو بالاحرى عاشا الى ان قلب طباق الإفطار عليها فأبرقت تطلب المساعدة . وهكذا ذهب العجوز بنفسه ليرى شروط « سعادته » وبذلك تركوا فريدي وحيداً ؟ في جيبه أقل من ألف دولار . وفريدي مستنفر تماماً . ينوي الاقدام على عمل خطير ، كما سيكتشفون ذلك فيما بعد — واذا لم يستطع اخضاعهم لشروطه ، سيجعل فتاته « كيتنز » تبرق بأنها على وشك الزواج منه ليرى مايحدث حينذاك .

هكذا استمر الشاب المبتهج يهذر الى ان انهكه التعب ، فابتسم لجرجس اعذب ابتسامة لديه ثم أطبق عينيه وقد داهمه النعاس . بعد ذاكفتحهمامرة ثانيةوابتسم أيضاً ثم أطبقهما ونسي انيفتحهما مرةثانية.

لعدة دقائق ظل جرجس جالساً دون حراك ، يراقبه مستمتعاً ، منتشياً بما تركت الشمبانيا من احاسيس غريبة في نفسه . تحرك مرة فزمجر الكلب وهكذا جلس كاتماً حتى انفاسه — الى ان فتح باب الغرفة بلطف شديد ودخل الحاجب .

سار على أطراف أصابعه نحو جرجس مكشراً في وجهه ، فنهض جرجس وتراجع راداً له التكشيرة . وهكذا ظل يتراجع الى ان بلغ

الجدار ، حينذاك اقترب الحاجب منه ثم أشار الى الباب هامساً « اخرج من هنا » .

فتردد جرجس ناظراً نظرة سريعة الى فريدي الذي كان يطلق شخيراً لطيفاً « إن تفعل يابن الا . . . » قال الحاجب بنوع من الهسيس ، « حطمت وجهك قبل ان تخرج من هنا . »

ولم يتردد جرجس لحظة اخرى بعد ذاك ، فقد رأى الاميرال ديوي يتقدم خلف الرجل ويزمجر زمجرة لطيفة تدعم تهديدات سيده . حينذاك استسلم جرجس وبدأ السير نحو الباب .

خرجا دون ان ينبسا بكلمة اخرى ثم نزلا السلم الكبير المدوي الاصداء وعبرا القاعة المظلمة . وعند الباب الامامي توقف جرجس بينما اوسع الحاجب خطاه حتى اقترب منه .

« ارفع يديك » ، نهره الحاجب ، فتراجع جرجس خطوة إلى الوراء ، محكماً قبضة يده .

« لماذا ؟ » صرخ ، لكنه فهم في الحال ان الحاجب ينوي تفتيشه ، فأجاب : « سترى نفسك في الجحيم قبل ذلك . »

« أتريد الذهاب إلى السجن ؟ » سأل الحاجب بلهجة تهديدية : « سأطلب رجال الشرطة . »

« اطلبهم » هدر جرجس بانفعال شديد « الا انك لن تضع يديك

علي قبل ان أكسرهما . . انا لم المس شيئاً في بيتك اللعين هذا ، ولن ادعك تلمسني . »

عند ذاك وعلى نحو مفاجيء خطا الحاجب ، الذي كان يخشى ايقاظ سيده ، نحو الباب ثم فتحه قائلاً : « اخرج من هنا ». وحين بدأ جرجس يعبر فتحة الباب رفسه الحاجب على قفاه رفسة شديدة جعلته يهبط الدرجات الحجرية جرياً ثم طرحته على الثلج مفتوح اليدين والساقين .

— ٢٥ —

نهض جرجس وقد اعماه الغضب الا ان الباب كان قد اغلق وغدا القصر العظيم مظلماً منيعاً من جديد . عندئذ بدأت انياب العاصفة تنهش به فدار على عقبيه وانطلق يعدو .

حين توقف مرة ثانية كان قد وصل إلى شارع مطروق ولم يكن يرغب بلفت الانتباه . كان قلبه رغم الاذلال الاخير ذاك يدق بسرعة : دقات المنتصر . لقد خرج رابحاً من تلك الصفقة ، وكان من حين إلى آخر يضع يده في جيبه كي يطمئن إلى ان الورقة ذات — المائة دولار ماتزال هناك .

مع ذلك كان في مأزق — مأزق غريب ورهيب ايضاً حين ادرك مغزاه حق الادراك . اذ لم يكن يملك سينتاً واحداً عدا تلك الورقة.

وكان عليه ان يجد مأوى لنفسه في تلك الليلة — كان عليه ان يصرفها ! !

امضى جرجس نصف ساعة يمشي ويناقش المسألة . لم يكن ثمة من يستطيع الذهاب اليه او يطلب المساعدة منه — كان عليه ان يصرفها بمفرده تماماً . وان يصرفها في بيت من بيوت المثاوي فذلك يعني ان يضع روحه على كفه . فمن المؤكد انهم سينهبونه بل ربما يقتلونه قبل مجيء الصباح . كان بامكانه الذهاب إلى فندق ما او محطة سكة حديد وطلب صرافتها لكن ماعساهم يفكرون حين يرون متشرداً مثله يحمل مائة دولار ؟ ربما سيلقون القبض عليه ويحاكمونه ، وما القصة التي سيرويها لهم ؟ في الصباح سيكتشف فريدي ماضاعه ، سيتفقد نقوده وحينذاك سيجرى البحث عنه . الخطة الاخرى الوحيدة التي يمكنه التفكير بها هي ان يحاول صرفها في حانة ولسوف يدفع لهم مقابل ذلك ان لم تكن هناك طريقة اخرى .

بدأ جرجس يختلس النظر إلى الامكنة وهو يعبرها . لقد اجتاز عدة حانات شديدة الازدحام إلى ان وصل اخيراً حانة كان الساقي فيها وحيداً تماماً ، فشدد قبضة يديه في تصميم مفاجىء ثم دخل .

« هل تصرف لي ورقة نقدية بمائة دولار ؟ » سأله جرجس .

كان الساقي شخصاً ضخم الجثة ، له فك كفك بطل من ابطال الملاكمة وشاربان جديدان .

حملق بجرجس مندهلاً ثم سأله « ماذا قلت ؟ »

« قلت هل يمكنك ان تصرف لي ذات المائة دولار . »

فسأله غير مصدق : « ومن اين اتيت بها » ؟ .

فقال جرجس « ليس هذا من شأنك . لقد حصلت عليها واريد أن تصرفها لي . سأدفع لك مقابل ذاك . »

فحدق الآخر متفحصاً ثم قال « دعني أرها » .

« هل ستصرفها ؟ » سأل جرجس وهو يقبض عليها بشدة في جيبه

« كيف يمكنني ان اعرف ان كانت صحيحة ام مزورة تراك تريد اللعب علي . . ؟ »

حينذاك دنا جرجس منه على مهل وحذر ثم اخرج الورقةالنقدية وقلبها لحظة من الزمن بينما كان الرجل يحدق إليه من وراء النضد بعينين معاديتين . أخيراً سلمها له .

اخذها الساقي وبدأ يتفحصها ، مملساً اياها بين اصابعه رافعاً اياها إلى الضوء ، مقلباً اياها بطناً على ظهر ومن طرف إلى طرف . كانت الورقة جديدة قاسية تماماً مما جعله اكثر ارتياباً . اما جرجس فكان يراقبه كالقط طوال الوقت .

« أف » قال اخيراً وهو يحدق إلى الغريب رائزاً حجمه — متشرد

كريه الرائحة ، يلبس اسمالاً ليس عليه معطف واحدى ذراعيه معلقة إلى كتفه وذات المائة دولار ! ! « هل تريد ان تشتري شيئاً ؟ » سأله

فقال جرجس « اجل سآخذ كأساً من البيرة . »

« حسن » قال الآخر « سأصرفها لك ، ثم وضع الورقة في جيبه وصب لجرجس كأساً من البيرة وضعها امامه على النضد . بعد ذلك التفت إلى صندوق النقد ، فأخرج منه خمسة سنتات وبدأ يسحب نقوداً من الدرج . اخيراً واجه جرجس وهو يعد له النقود — قطعة ذات العشرة سنتات ثم قطعة مماثلة اخرى فربع دولار فخمسون سنتاً . » « هاك » قال لجرجس . .

ولثانية من الزمن انتظر جرجس متوقعاً ان يراه يلتفت ثانية ، ثم قال : « بقي لي تسعة وتسعون دولاراً » .

« اية تسعة وتسعين ؟ » سأل الساقي . فصرخ جرجس : « صرافتي . بقية مبلغي . »

فقال الساقي : « امض ، انت مغفل . »

حينها ، رشقه جرجس بنظرة من عينين متوحشتين ، وللحظة من الزمن تحكم به الرعب — رعب اسود رهيب يشل الاطراف قبض على قلبه ثم جاء الغضب فيضانات مندفعة كاسحة صرخ جرجس عالياً ثم امسك بالكأس وقذفها على رأس الساقي . انحرف هذا قليلاً فأخطأته

بمقدار نصف بوصة ثم نهض ثانية وواجه جرجس الذي كان ينحني فوق الباب بذراعه السليمة مسدداً ضربة ساحقة إلى وجهه القته على الارض وحينما عاد جرجس يدب على قدميه من جديد وبدأ يدور حول النضد في اثره صرخ بأعلى صوته « النجدة . . النجدة . . »

امسك جرجس وهو يجري زجاجة من فوق النضد وحين قفز الساقي مبتعداً رماه بالقذيفة بكل مايملك من قوة فلامست رأسه تماماً ثم تناثرت الف نثرة على عمود الباب .

عند ذاك بدأ جرجس التراجع ثم اندفع إلى الرجل مرة ثانية في وسط الغرفة . لكنه ، ولشدة غضبه ، جاء بدون زجاجة هذه المرة ، وهذا ماكان يبتغيه الساقي تماماً فقد قابله في منتصف الطريق ، وبضربة ثقيلةكضربة المطرقةسددهاله بين عينيهطرحهارضاً. بعدلحظةواحدة، انفتحت الابواب على مصاريعها واندفع رجلان في اللحظة التي كان جرجس يقف فيها على قدميه ، والزبد ملء فمه محاولاً ان يمزق الضمادات عن ذراعه المكسورة . « انتبهوا » ، صرخ الساقي ، « لديه سكين » . بعدئذ قام باندفاعة أخرى صوب جرجس ، وقد رأى ان الرجلين على اهبة الاستعداد للانضمام اليه فطوح جانباًبغريمه الضعيف ، ملقياً به على الارض ثم قذف الثلاثة بانفسهمعليه ليدحرجوه بعد ذلك ويرفسوه في كل مكان .

بعد ثانية واحدة ، اندفع شرطي إلى الداخل فزعق الساقي مرة

اخرى : « حذار من سكينه » وكان جرجس قد ناضل وكاد يقف حين قفز الشرطي عليه مسدداً بعصاه ضربة شديدة على وجهه ، ورغم ان الضربة جعلته يترنح ، فان الهياج المسعور كان مايزال في داخله ، فهب على قدميه ، رامياً بنفسه في الهواء . بعدئذ هوت العصا مرة ثانية على رأسه فهوى بعدها كجذع خشبي على الارض .

تكوم الشرطي فوقه ممسكاً جيداً بعصاه ينتظر منه اية محاولة للنهوض ثانية . في غضون ذلك كان الساقي ينهض ، واضعاً يده على رأسه هاتفاً . . « يايسوع ! ! اظن أنه أصابني في تلك المرة . هل جرحني ؟»

فقال الشرطي : « لاأرى شيئاً ياجاك ، ماقصته ؟ »

فأجابه الآخر : « رجل تعتعه السكر تماماً . ناهيك عن انه مغفل ايضاً لكنه كاد يمسك بي تحت الباب . من الافضل ان تطلب الدورية يابيلي »

« لا » قال الشرطي « لم يعد قادراً على القتال كما ارى وليس عليه الا ان يسير مبنى واحداً فقط » . ثم فتل ياقة جرجس حول يده ودفعه آمراً : « انهض . . . هيا »

غير ان جرجس لم يتحرك ، فمضى الساقي خلف البار وبعد ان اودع ذات المائة دولار في مخبأ امين عاد وصب إبريقاً من الماء على رأس جرجس . بعدئذ ، وحين بدأ هذا يصدر انيناً ضعيفاً ، أنهضه الشرطي على قدميه وسحبه خارج المكان . كان المخفر يقع عند الزاوية تماماً وهكذا كان جرجس خلال بضع دقائق في احدى الزنزانات .

امضى جرجس نصف ليلته وهو ممدد فاقد الوعي يئن ويتعذب وقد اعماه الصراع والعطش القاتل . من حين إلى آخر كان يصرخ بصوت عال مطالباً بكأس من الماء لكن لاحياة لمن تنادى ، فقد كان هناك آخرون في المخفر نفسه برؤوس مفلوعة وحمى لاهبة . وكان هناك المئات منهم في المدينة الكبيرة وعشرات الآلاف في طول البلاد وعرضها انما لم يكن ثمة من يسمع نداء اتهم قط .

في الصباح ، أعطي جرجس كوباً من الماء وكسرة من الخبز ثم حشر داخل عربة دورية اوصلته إلى اقرب محكمة حيث جلس في داخل الشبك الحديدي مع عشرات من امثاله إلى ان حان دوره .

دعي الساقي — الذي ثبت انه ملاكم شهير — إلى امام المنصة حيث اقسم اليمين وروى قصته كالتالي : دخل السجين إلى حانته بعد منتصف الليل سكيراً يحب القتال وطلب كأساً من البيرة ثم دفع ورقة من فئة الدولار فأعطاه البقية وهي خمسة وتسعون سنتاً الا انه طلب تسعة وتسعين دولاراً اخرى وقبل ان يتسنى للمدعي الاجابة رآه يقذفه بكأس البيرة ثم يهجم عليه بزجاجة من الشراب وزجاجات اخرى حتى كاد يحطم المكان .

بعدئذ اقسم السجين اليمين فبدا مخلوقاً مهزولاً وحيداً ضعيفاً ، ذراعه معلقة بضماد إلى عنقه ووجهيه ورأسه ينزفان دماً واحدى عينيه مسودة أرجوانية مغلقة تماماً . سأله القاضي « ماذا تقول دفاعاً عن نفسك ؟»

فقال جرجس « سيادة القاضي دخلت إلى حانة هذا الرجل ثم سألته ان كان باستطاعته ان يصرف لي ورقة من فئة المائة دولار فقال :

سيصرفها لي اذا مااشتريت كأس شراب ، وهكذا اعطيته الورقة فلم يعطيني البقية .

كان القاضي يحدق اليه مندهشاً ثم هتف اخيراً « انت اعطيته ورقة من فئة المائة دولار ؟ ! »

فأجاب جرجس « اجل ياسيادة القاضي . رجل اعطاني اياها »

« رجل ؟ أي رجل ؟ ولماذا ؟ »

« شاب التقيت به في الشارع ياسيادة القاضي . كنت اتسول »

وحصل هرج في القاعة . الشرطي نفسه الذي كان يمسك بجرجس وضع يده على فمه كي يخفي ابتسامة ، بل ان القاضي نفسه ابتسم علناً دون ان يحاول اخفاء ابتسامته « هذا صحيح ياسيادة القاضي » صرخ جرجس متحمساً .

« إذن كنت تسكر علاوة على التسول في الليلة الماضية ، اليس كذلك ؟ » سأل القاضي

« كلا يا سيادة القاضي» احتج جرجس « انا . . .

« انت لم تكن تملك ماتشرب به »

« بل كنت املك ياسيدي القاضي . كان لدي — »

« ماذا كان لديك ؟ »

« زجاجة شراب من نوع ما — لاا عرف اسمه — شيء ما يحترق . . »

وحدث ضحك في ارجاء القاعة توقف فجأة حين حدق القاضي إلى الحضور وقطب جبينه . « هل سبق وألقي عليك القبض ؟ » سأل على نحو مفاجيء فتلعثم جرجس وقد جعله السؤال يترنح إلى الوراء « انا — انا . . » الا ان القاضي امره بحزم شديد : « اخبرني الحقيقة — الآن ، »

فقال جرجس « اجل ياسيادة القاضي »

« كم مرة ؟ »

« مرة واحدة فقط ، سيادة القاضي »

« لماذا ؟ »

« لانني ضربت رئيسي . كنت اعمل في المسلخ ، وهو — »

فقال سيادته : « أرى ، أرى ذلك . اظن ذلك كافياً . عليك ان تكف عن الشراب ان كنت لاتستطيع السيطرة على نفسك . عشرة ايام مع نفقات المحكمة . القضية التالية . »

وأطلق جرجس صرخة ذعر قطعتها فجأة حركة الشرطي الذي امسك به من ياقته ثم دفعه خارج الطريق إلى غرفة المساجين المحكومين

حيث جلس ثم بكى كما يبكي طفل ساخط عاجز عن فعل أي شيء . لقد بداله شيئاً مريعاً ان ينظر الشرطة والقضاة باحتقار شديد إلى ماقاله بالمقارنة مع قول الساقي ، لم يكن جرجس المسكين يعلم ان صاحب الحانة يدفع خمسة دولارات كل اسبوع لذلك الشرطي نفسه مقابل امتيازات يوم الاحد والافضلية العامة ــ ولم يكن يعلم ان الساقي «البلطجي » هو واحد من « قبضايات » زعيم الحزب الديمقراطي في المنطقة الموثوقين ، وقد عمل قبل بضعة اشهر فقط كشاهد لصالح القاضي الذي كان المصلحون الكريهون ذوو قفازات ــ الأجداء يستهدفون الاطاحة به .

سيق جرجس إلى سجن بريدويل للمرة الثانية . كان في تعثراته وسقطاته قد آذى ذراعه مرة ثانية ، وهكذا لم يكن باستطاعته العمل ، بل كان لابد ان يرعاه طبيب . كذلك كان ينبغي ان يضمد رأسه وعينيه ، وبشكله العجيب هذا خرج إلى التنفس في اليوم التالي وقابل هناك ــ جاك دوان .

سر الفتى برؤية جرجس إلى درجة كاد معها ان يحتضنه صارخاً : « علي اللعنة ان لم تكن انت ذا الرائحة العفنة . . ماذا جرى بك ــ هل مررت داخل آلة نقانق ؟ »

فقال جرجس « كلا . بل في حادثة تحطم قطار وشجار » ثم اخبره بقصته العجيبة ، وقد تجمع حولهما بعض المساجين الآخرين

الذين لم يصدقه معظمهم ، لكن دوان كان يعرف ان من المحال ان يلفق جرجس حكاية كهذه .

« حظ سيء ايها الكهل » قال جاك حين باتا وحيدين « لكن ، لعل هذا يلقنك درساً . » « لقد تعلمت الكثير من الدروس مذ رأيتك آخر مرة . » قال جرجس حزيناً بعدئذ شرح له كيف أمضى الصيف الماضي « متسكعاً هنا وهناك » كما يقولون ثم سأله اخيراً « وانت ؟ اما تزال هنا منذ ذلك الحين ؟ »

فقال الآخر « ياإلهي ! ! ، لا ! ! . بل جئت قبل امس . وهي المرة الثانية التي يرسلونني إلى السجن بتهمة غير مثبتة — لقد اصابني سوء حظ ولم استطع ان ادفع لهم مايريدون ، لماذا لاتترك شيكاغو معي ياجرجس ؟ »

« فقال جرجس بأسى « ليس لي مكان اذهب اليه . »

« ولا انا »اجاب الآخر وهو يضحك ضحكاً خفيفاً« لكننا سننتظر إلى ان نخرج . »

في بريدويل التقى جرجس ببعض المساجين الذين كانوا هناك المرة الماضية لكنه التقى بآخرين كثر ، شيب وشبان لم يرهم من قبل وخيل له انهم جميعاً من النوع ذاته تماماً . بل لقد بدا الامر له اشبه بالامواج على الشاطيء ، هناك ماء جديد الا ان الامواج هي ذاتها دائماً . كان يتمشى ويحادثهم . اكبرهم اجساماً يروون القصص عن

بسالاتهم في حين يتجمع حولهم الاضعف او الاصغر سناً والاقل تجربة وينصتون باعجاب صامت . في المرة الماضية كان جرجس لايفكر الا بعائلته . لكنه الآن حر ينصت لهؤلاء الرجال وهو على يقين تام من انه واحد منهم وان وجهة نظرهم هي وجهة نظره وان الاسلوب الذي يقيمون اودهم به في هذه الدنيا هو الاسلوب الذي عليه ان يتبعه في المستقبل .

وهكذا حين خرج من السجن مرة ثانية ، وليس في جيبه بنس واحد ، ذهب مباشرة إلى جاك دوان . ذهب وكله خضوع وامتنان ، لان دوان رجل مجتمع وصاحب مهنة وانه لشيء عظيم ان يرغب بوضع يده بيد عامل مصنع ، رجل كان شحاذاً او متشرداً. لم يكن باستطاعة جرجس ان يرى الفائدة التي يمكن ان يقدمها لدوان ، لم يكن يدرك ان انساناً مثله يمكن ان يثق به أي انسان — هو خامة نادرة بين المجرمين مثلما هو بين اية طبقة اخرى من الناس .

كان العنوان الذي اعطي لجرجس هو عنوان علية في منطقة «الغيتو» حيث تسكن فتاة فرنسية جميلة هي خليلة دوان ، تخيط طوال طوال النهار وتكسب بقية قوتها بممارسة العهر . قالت الفتاة لجرجس أن دوان ذهب إلى مكان ما فقد بات يخشى الاقامة لديها بسبب الشرطة .

اما العنوان الجديد فهو حانة رديئة السمعة تقع في قبو كان دوان قد قال لها ان صاحبها لم يسمع به ابداً ، لكن بعد ان اخضعت جرجس لألف سين

وجيم دلته على سلم خفي يؤدي إلى « سياج » يقع في مؤخرة حانوت « الرهن » ومن هناك إلى عدد من الغرف المخصصة للقاءات والمواعيد، حيث كان يختبىء دوان في احداها .

سر دوان كثيرا برؤيته ، وقال انه لايملك سنتا واحدا وإنه بانتظار جرجس كي يساعده على كسب بعض المال ، ثم شرح خطته ، بل الواقع انه امضى النهار بطوله وهو يكشف لصديقه عالم الإجرام في المدينة ، ويريه كيف يمكنه ان يكسب عيشه فيه . ذلك الشتاء سيواجه اياماً صعبة بسبب ذراعه وبسبب نوبة النشاط الشديدالّتي تمر بها الشرطة ، لكن طالما انه مجهول فسيبقى في امان منهم طيلة اتخاذه جانب الحذر . هنا في حانة « بابا هنسون » (هكذا يسمون الرجل الذي يدير هذه الحانة) يمكنه ان يأخذ راحته تماماً لان بابا هنسون رجل « مرتب » يقف بجانبه طالما يدفع وينذره قبل ساعة اذا وقعت غارة من غارات الشرطة . كذلك فان روز نستيغ صاحب محل الرهونات ، يشتري أي شيء يأتيه به مقابل ثلث قيمته ويكفل ابقاءه لديه لمدة سنة .

كان هناك « طباخ » كازي في خزانة الغرفة الصغيرة ، طبخا عليه بعض العشاء . ثم انسلا معاً حوالي الساعة الحادية عشرة عبر المدخل الخلفي للمكان وقد تسلح جاك بنقافة . وصلا إلى منطقة سكن فتسلق جاك عمود النور واطفأ الضوء ، ثم اختفى الاثنان تحت ساتر بعرض درجة واحدة واختبآ صامتين .

وسرعان ماجاء رجل ، عامل — فتركاه يمضي . بعدئذ ، وبعد فاصل طويل جاءت خطا ثقيلة لشرطي فكتما انفاسهما إلى ان ولى. ورغم انهما كانا شبه متجمدين فقد انتظرا ربع ساعة كاملة ، بعدها جاء وقع خطاً سريعة . لكن دوان جرجس ، وفي اللحظة التي بدأ الرجل يجتازهما ، نهضا . انسل دوان كالظل دون ان يحدث صوتاً وبعد ثانية واحدة سمع جرجس خبطة تلتها صرخة مكتومة . وكان خلف الرجل بقدمين لااكثر فوثب يكمم فمه ، في حين ثبته دوان من ذراعيه ، مثلما اتفقا الا ان الرجل كان أوهى من ان يقاوم لذا لم يكن على جرجس الا ان يمسكه من ياقته ، بينما راحت اصابع الآخر الرشيقة تبحث في جيوبه — فاتحة معطفه اولاً ، ثم سترته وبعد ذاك صدريته ، باحثة في الداخل والخارج ناقلة محتوياتها إلى جيوب صاحبها . اخيراً وبعد ان تلمس دوان اصابع الرجل وربطة عنقه همس : « هذا كل شيء » ثم سحباه إلى خلف الساتر واسقطاه هناك . بعد ذلك سار جرجس في اتجاه وصاحبه في الاتجاه الآخر وهما يمشيان بسرعة .

وصل دوان اولاً ، لذا وجده جرجس حين وصل يتفحص « الغنيمة » ومن بينها : ساعة ذهبية ذات سلسلة مدلاة ، قلم رصاص فضي ، علبة كبريت ، حفنة من قطع النقد الصغيرة واخيراً علبة بطاقات فتحها دوان بصورة محمومة فوجد فيها رسائل وشيكات وبطاقة مسرح ، واخيراً وجد في الجزء الخلفي حزمة اوراق نقدية . عدها فوجدها : ورقة من فئة العشرين ، خمس عشرات ، اربع عشرات ،

وثلاث اوراق من فئة الدولار الواحد . عندها تنفس دوان الصعداء ثم قال « بهذا يمكننا الخلاص » .

بعد القيام بتفحص آخر حرقا علبة البطاقات ومحتوياتها . حرقا كل شيء ماعدا الاوراق النقدية وكذلك صورة فتاة صغيرة في المدلاة . بعد ذلك اخذ دوان الساعة والاشياء الصغيرة الاخرى إلى الطابق السفلي ثم عاد بستة عشر دولاراً قائلاً : « الوغد العجوز ، قال ان العلبة كانت مليئة ، انها كذبة ، لكنه يعلم انني بحاجة إلى المال . »

اقتسم الصديقان الغنيمة فكانت حصة جرجس خمسة وخمسين دولاراً وبعض الصرافة . احتج هذا بأنها كثيرة جداً إلا ان الآخر وافق على اقتسامها ايضاً قائلاً انها « خبطة » جيدة افضل من المعدل العام . وحين استيقظا في الصباح ارسل جرجس يشتري صحيفة ، فاحدى متع ارتكاب جريمة من الجرائم هي القراءة عنها فيما بعد . « لي صديق كان يفعل ذلك دائماً » لاحظ دوان وهو يضحك « إلى ان قرأ ذات يوم انه ترك ثلاثة آلاف دولار في جيب داخلي سفلي من صدارية ضحيته . . »

كان يوجد في الصحيفة وصف للسرقة يملأ نصف عمود تقريباً — من الواضح ان هناك عصابة تعمل في الجوار ، قالت الصحيفة ، فهذه هي الحادثة الثالثة خلال اسبوع ومن الواضح ان الشرطة عاجزة عن اكتشاف العصابة . الضحية وكيل شركة تأمين وقد فقد مائة وعشرة

دولارات ليست له ، ومن قبيل المصادفة ان اسمه كان منقوشاً على قميصه والا لما كان بالإمكان تمييز هويته بعد . لقد ضربه مهاجمه ضربة شديدة على أم رأسه مما سبب له ارتجاجاً في الدماغ ، كذلك كان شبه متجمد حين وجدوه وسوف يفقد ثلاثة اصابع من يده اليمنى . ولقد نقل محرر الصحيفة المغامر كل هذه المعلومات إلى عائلته ثم روى كيف تلقتها هذه العائلة .

وبما ان هذه التجربة هي تجربة جرجس الاولى فقد سببت له هذه التفاصيل بعض الضيق الا ان الآخر راح يتضاحك ببرود — هذه هي اللعبة ولا مجال لمنع نتائجها . لكن ، لن يمضي وقت طويل حتى يكف جرجس عن التفكير بمثل هذه الامور مثلما يكف عمال المسلخ عن التفكير بصرع ثور ارضاً . « انها محفظتنا او محفظة الشخص الآخر واقول الشخص الآخر كل مرة ، » ابدى جاك ملاحظة اخيرة .

فقال جرجس متفكراً « لكن الرجل لم يؤذنا . »

فقال صديقه : « كان يؤذي احداً ما بأشد مايستطيع ، تأكد من ذلك . »

كان دوان قد شرح لجرجس من قبل انه اذا انكشف محترف من محترفي مهنتهم اضطر للعمل طوال الوقت كي يلبي متطلبات الشرطة . لذا يفضل ان يبقى جرجس مختبئاً ، بحيث لايراه مع صديقه احد .

لكن سرعان ماتعب جرجس من الاختباء . فخلال اسبوعين شعر بأنه يسترد عافيته كما بدأ يستخدم ذراعه ، وحينذاك لم يعد باستطاعته تحمل الاختباء . اما دوان الذي كان بحاجة لان يمارس عملاً من نوع ما كي يخدع الشرطة ، فقد اقنع ماري ، فتاته الفرنسية الصغيرة ، بمشاركته لكنه اضطر في النهاية لان يكف عن مجادلة جرجس ولأن يخرج به إلى الحانات وبيوت القمار والبغاء حيث يذهب إلى هناك كبار المحتالين « والاتباع » .

وهكذا اخذ جرجس لمحة عن عالم الطبقة العالية من مجرمي شيكاغو . فالمدينة التي تملكها اقلية من رجال الاعمال ويحكمها الشعب اسمياً ، كان لابد لها من جيش للكسب غير المشروع يستهدف تحقيق انتقال القوة . مرتين في العام ، أي في انتخابات الخريف والربيع ، كانت ملايين الدولارات تقدم من قبل رجال الاعمال وتوزع من قبل هذا الجيش ، فتعقد الاجتماعات ويستجر الخطباء المفوهون وتعزف الموسيقى ، وتطلق الصواريخ النارية وتوزع اطنان الوثائق وبراميل المشروبات وتشترى عشرات آلاف الاصوات نقداً ، وبالطبع كان ينبغي تأمين معيشة جيش الكسب غير المشروع هذا على مدار السنة . الامر الذي كان يوفره رجال الاعمال بصورة مباشرة للقادة والمنظمين ــ اعضاء مجلس البلدية والمشرعين عن طريق الرشوات ، موظفي الحزب الرسميين عن طريق ارصدة الحملة ، افراد « اللوبي »

ومحامي الشركات على شكل مرتبات ، المتعهدين عن طريق الاعمال ، زعماء النقابات عن طريق الاعانات واصحاب الصحف ومحرريها عن طريق الاعلانات ، اما الافراد ، فإما ان يتم فرضهم على المدينة خلسة او تؤخذ ارزاقهم من الجمهور مباشرة إذ هناك قسم الشرطة اقسام الاطفاء والماء وبقية الموظفين المدنيين بدءاً من ادنى حاجب مكتب وحتى رئيس ادارة المدينة ، ومن لايوجد له مكان بين هؤلاء يبقى امامه عالم الجريمة والرذيلة حيث يسمح له بأن يغوي وينهب ويحتال ويفترس . كان القانون يمنع الشراب يوم الاحد ، ومن يقدم الشراب من اصحاب الحانات في هذا اليوم يتعرض للاعتقال لذا فان اقامة تحالف بين هؤلاء وأولئك كانت امراً لابد منه . كذلك يحرم القانون الدعارة ، وهذا يؤدي « بالسيدات » إلى ان يتحدن . الامر ذاته كان يتم مع كل صاحب حانة او بيت قمار أو اي رجل او امرأة ، لديه او لديها وسيلة « كسب غير مشروع » ويرغب او ترغب بدفع حصة منه . مهرب المخدرات ، قاطع الطريق ، النشال ، اللص ، مشتري المسروقات، بائع الحليب المغشوش والثمار الفاسدة واللحم المريض ، مالك المؤجرات غير الصحية ، الطبيب المزيف ، المرابي ، الشحاذ ، بائع عربة اليد ، بطل الشجارات ، الملاكم المحترف ، « مستطلع انباء سباقات الخيل بقصد المراهنة » ، القواد ، وكيل الرقيق الابيض ، والخبير في اغواء الفتيات الصغيرات ، كل ادوات الفساد هذه كانت تتجمع معاً فتشكل عصبة تجمعها اخوة الدم مع السياسي والشرطي وكثيراً ماتجدهم هم

انفسهم الاشخاص ذاتهم — فضابط الشرطة هو الذي يملك الماخور الذي يدعي انه يغير عليه ، والسياسي يفتح مقر عمله في حانته . و « هنكيدنك » او « جون الحمام » او آخرون من هذا الصنف هم مالكو اسوأ الحانات سمعة في شيكاغو كما أن « الذئاب الرمادية » في مجلس المدينة هم الذين يخلون شوارع المدينة امام رجال الاعمال أمّا الذين يحمون امكنتهم فهم المقامرون وابطال الملاكمة الذين يتحدون القانون واللصوص « والقبضايات » الذين يرعبون المدينة . يوم الانتخاب ، تغدو كل قوى الجريمة والرذيلة هذه قوة واحده ، بامكانها ان تحدد ضمن نسبة واحد بالمائة إلى اين ستذهب اصوات الناخبين ويغيرونها خلال ساعة .

قبل شهر كان جرجس يوشك على الموت جوعاً في الشوارع ، اما الآن فقد ولج فجأة ، وكأنما ذلك بفضل مفتاح سحري ، عالماً تنساب فيه الاموال وطيبات الحياة انسياباً ، لقد قدمه صديقه إلى رجل ايرلندي يدعى « بلك » هالوران ، وهو « عامل » سياسة يعيش في قلب هذا العالم . تحدث هذا الرجل مع جرجس حيناً من الزمن ثم اخبره ان لديه خطة صغيرة يستطيع الانسان بفضلها أن يكسب بعض المال بكل راحة ، ولكنه عمل سري وينبغي على الانسان ان يكتم امره . ابدى جرجس موافقته فأخذه الآخر عصر ذلك اليوم نفسه — إذ كان يوم (سبت) إلى مكان يجري فيه الدفع لعمال المدينة . كان المحاسب

يجلس في كشك صغير وامامه كدسة من المغلفات بينما وقف شرطيان بجانبه . ذهب جرجس حسب التعليمات ، وقدم نفسه باسم « مايكل او فلاهرتي » فاستلم مغلفاً حمله إلى اقرب زاوية وهناك سلمه إلى هالوران الذي كان ينتظره في حانة . بعدئذ ذهب مرة ثانية واعطى اسم « جوهان شميدث » وفي المرة الثالثة اعطى اسم « سيرج رمنيتسكي » . كان لدى لوران قائمة باسماء عمال خياليين وكان جرجس يتلقى مغلفاً عن كل واحد منهم . مقابل هذا العمل استلم خمسة دولارات وقيل له انه سيستلم مثل هذا المبلغ كل اسبوع طالما ظل كاتماً للسر ، وبما ان جرجس كان ممتازاً في كتمان السر ، فانه سرعان ماحاز على ثقة « بك » هالوران الذي قدمه ايضاً إلى آخرين باعتباره رجلاً يمكن الاعتماد عليه .

كذلك افادته هذه المعارف بطريقة اخرى . فخلال فترة وجيزة اكتشف جرجس بنفسه معنى النفوذ الخاص واكتشف تماماً لماذا استطاع رئيس العمال « كونور » وكذلك الساقي الملاكم ان يرسلاه إلى السجن . فذات ليلة اقيمت حفلة لصالح « لاري الاعور » وهو رجل اعرج يعزف على الكمان في واحد من بيوت الطبقة العالية الخاصة بالدعارة في شارع كلارك . وهو شخصية مرموقة ومعروفة في منطقة « الليفي » ، أقيمت هذه الحفلة في قاعة رقص كبيرة وكانت احدى المناسبات التي تطلق فيها العنان لنفسها قوى الفسق في المدينة . حضرها جرجس وشرب كثيراً حتى غدا نصف مجنون من السكر وبدأ الشجار على فتاة . كانت ذراعه حينذاك قد باتت قوية تماماً ، فانطلق يعمل لاخلاء المكان وانتهى

في زنزانة من زنزانات الشرطة . كان المخفر مكتظاً حتى الباب الخارجي تفوح رائحته بالمتشردين لذا لم يستمتع جرجس بالبقاء هناك إلى ان تزول سكرته ، فأرسل في طلب هالوران الذي هتف لزعيم المنطقة وهذا اخرج جرجس من السجن بمكالمة هاتفية اجراها في الساعة الرابعة من صباح ذلك اليوم . وحين دعي إلى المحكمة في الصباح ذاته كان زعيم المنطقة قد رأى كاتب المحكمة من قبل وشرح له ان جرجس رودكوس شخص شريف فقد زمام نفسه في لحظة سكر ، وبذلك حكم على جرجس بغرامة عشرة دولارات مع وقف التنفيذ ، ومعنى ذلك انه لم يكن مضطراً للدفع ابداً ما لم يثر الموضوع عليه احد الناس في المستقبل .

بات جرجس الآن يعيش بين اناس ينظرون إلى المال بمنظار مغاير لذاك الذي ينظر من خلاله اهل باكنجتاون . مع ذلك ، فقد بات يشرب اقل بكثير مما كان يفعل يوم كان عاملاً . لم يعد يعاني من عوامل الاجهاد واليأس التي كان يعاني منها . كان لديه الآن مايعمل من أجله ، مايكافح في سبيله . وسرعان مااكتشف انه اذا مااحتفظ بفطنته دائماً فانه سيقع على فرص جديد كثيرة وبما انه رجل نشيط بالفطرة فانه لم يحافظ على رزانته وتعلقه وحسب ، بل ساهم في ابقاء صديقه كذلك ، صديقه الذي كان اكثر ولعاً بالنساء والخمرة على حد سواء .

والشيء يقود إلى شيء آخر . ففي الحانة التي كان يلتقي فيها جرجس

بهالوران ، جلس جرجس ذات ليلة حتى وقت متأخر من الليل حين دخل تاجر ريفي (اي متسوق لتاجر من خارج المدينة) وقد تعتعه السكر تقريباً . لم يكن ثمة احد سوى الساقي وحين خرج الرجل تبعه جرجس ودوان.دار الرجل حول الزاوية ، وفي مكان معتم خال وثب جرجس إلى الامام شاهراً مسدساً في وجهه ، بينما انطلقت يدا دوان ، وقد أنزل قبعته فوق عينيه ، إلى جيوب الرجل لتفتشها اصابع تعمل بسرعة البرق . اخذ ساعته ومحفظته « ثم دارا حول الزاوية وعادا إلى الحانة التي كانا فيها قبل ان يتمكن من اطلاق أكثر من صرخة. فتح الساقي ، الذي اعطياه بقشيشاً حسناً ، باب القبو لهما حيث أختفيا ثم شقا طريقهما عبر مدخل سري إلى بابالماخور المجاور . وعبر الطح انتقلا إلى ثلاثة اماكن مماثلة تقع وراءه . فعن طريق هذه الممرات كان باستطاعة أي زبون من زبائن هذه الاماكن ان يفر من وجه الشرطة ، كما انها كانت ضرورية لتهريب الفتيات في حالة الطوارىء فآلاف منهن كن يأتين إلى شيكاغو استجابة لاعلانات عن خادمات ويد عاملة ليجدن انفسهن وقد وقعن في شراك وكالات استخدام مزيفة وأقفلت عليهن ابواب بيوت الدعارة . كان يكفي بصورة عامة ان تأخذ ثيابهن منهن انما كان لابد احياناً من « تحذيرهن » وابقائهن سجينات اسابيع عدة . في غضون ذلك يتصل اهلوهن بالشرطة ، يبحثو ن عنهن في كل مكان وفي احيان اخرى لم يكن هؤلاء المحترفون يجدون طريقة

لاقناعهم سوى ان يسمحوا لواحدتهن بالبحث عن المكان الذي يمكن تعقب الفتاة اليه .

ولقاء مساعدته في هذا العمل الصغير تلقى الساقي عشرين دولاراً من المائة والثلاثين دولاراً التي حصل عليها الشريكان ، وبالطبع جعلهم هذا العمل اصدقاء تماماً ، اذ قدمهم بعد بضعة ايام إلى شاب يهودي يدعى غولد بيرجر وهو احد « مهربي الخمور والمخدرات لبيت القمار والبغاء » حيث كانا يختفيان . بعد بضعة كؤوس ، بدأ غولد بيرجر ، بشيء من التردد ، يروي كيف تشاجر على فتاته المفضلة مع « لاعب » محترف ضربه على فكه . كان الشاب غريباً عن شيكاغو واذا ماوجد ذات ليلة مهشم الرأس فلن يهتم احد بذلك . فتساءل جرجس الذي كان قد اصبح في هذا الحين يهشم كل رؤوس المغامرين في شيكاغو ، عما سيحل به ، مما جعل اليهودي أكثر ثقة واطمئناناً وقال ان لديه بعض المعلومات السرية عن سباقات نيواورليانز وهي معلومات حصل عليها مباشرة من ضابط شرطة المنطقة الذي خرج لتوه من ورطة سيئة وقع فيها مع تجمع كبير لمالكي الخيول . استوعب دوان كل هذا في الحال الا انه كان مضطراً لان يشرح المسألة لجرجس مرة ثانية قبل ان يستوعبها ويدرك اهمية فرصة كهذه .

كان هناك « تروست » ضخم للسباقات يسيطر على المجالس التشريعية في كل ولاية ينشط فيها ، بل يسيطر على بعض الصحف الكبرى .

ويوجه الرأي العام وليس هناك سلطة في البلاد يمكنها الوقوف في وجهه . اللهم ماعدا تروست المراهنات على جياد السباق . فقد اقام ميادين سباق رائعة في طول البلاد وعرضها وعن طريق الجوائز الضخمة كان يغرى الناس بالمجيء ، ومن ثم ينظم سباق قوارب خفيفة ، حيث بسلبهم فيه مئات ملايين الدولارات كل عام . في الماضي كان سباق الخيول رياضة اما هذه الايام فانه مهنة ، إذ يمكن ان يخدر الحصان ويعالج طبياً ، يساء تدريبه او يحسن تدريبه . ومن الممكن ان يجعلوه يسقط في اية لحظة او يمكن القضاء على حميته بضربة بالسوط الذي يظن معظم المتفرجين أنه محاولة لابقاء الحصان في المقدمة . وهناك عشرات الخدع التي هي من هذا النوع . خدع يقوم بها المالكون احياناً لكسب الثروات . وخدع اخرى يقوم بها الفرسان والمدربون ، واحياناً اخرى يقوم بها غرباء تلقوا رشوة مقابلها — لكن معظم الاحيان فان رؤساء « التروست » هم الذين يقومون بتلك الخدع . الان ، مثلاً ، لديهم سباق شتائي في نيوأورليانز والنقابة ترتب البرنامج اليومي سلفاً . بينما يعمل وكلاؤها في كل مدن الشمال على « حلب » مكاتب المراهنات . الكلمة تأتي بواسطة الهاتف البعيد المدى برموز سرية ، تماماً قبل وقت قصير من كل سباق ، واي امرىء يستطيع الحصول على السر يحصل على ثروة جيدة تماماً . وان لم يصدق جرجس فليجرب ، قال اليهودي الصغير . ليلتقوا في بيت معين يوم غد ويقوموا بتجربة . كان جرجس راغباً بذلك وكذلك دوان. وهكذا ذهبوا جميعاً إلى احد مكاتب

المراهنات الرفيعة الدرجة حيث يلعب التجار والمراهنون القدار فيه (مع نساء المجتمع في غرفة خاصة) . راهن كل منهم بعشرة دولارات على حصان يدعى « بلاام الاسود » . المبلغ المدفوع يربح ستة اضعاف . وفاز الحصان . من اجل سر كهذا كانوا سيقومون بلاكمات كثيرة تماماً — لكن في اليوم التالي اخبرهم غولد برجر ان المراهن المسيء شعر بما سيحل به فهرب من المدينة .

كان هناك الكثير من الصعود والهبوط في العمل ، الا انه كان هناك دائماً كسب عيش ، داخل السجن أو خارجه . في مطلع نيسان كانت ستجرى انتخابات المدينة وكان ذلك يعني اليسر والغنى لكل قوى الكسب غير المشروع . كان جرجس وهو يتسكع بين الحانات وبيوت القمار والمواخير ، يلتقي بأنصار كلا الحزبين . ومن احاديثهم تسنى له ان يفهم كل مداخل ومخارج اللعبة ، ويسمع عن عدد من الاساليب التي يمكنه بها ان يكون مفيداً وقت الانتخابات . كان « بلك هالوران » من الحزب الديمقراطي وهكذا غدا جرجس ديموقراطياً ايضاً . لكنه ليس ديموقراطياً مرآً — فالجمهوريون اشخاص جيدون ايضاً ولابد انهم سينفقون مبالغ طائلة في هذه الحملة الانتخابية . في الانتخابات الماضية كان الجمهوريون يدفعون اربعة دولارات لكل صوت مقابل ثلاثة يدفعها الديموقراطيون . ذات ليلة كان « بلك » يجلس مع جرجس وهما يلعبان الورق مع رجل آخر حكى كيف انهم هالوران بالقيام بالتصويت

بدلاً من « مجموعة » من سبعة وثلاثين ايطالياً من المستوطنين الجدد وكيف انه ، هو الراوي ، التقى بالعامل الجمهوري الذي كان يلاحق الزمرة نفسها ، وكيف ان الثلاثة اجروا صفقة تم الاتفاق فيها على ان يصوت الايطاليون نصفاً بنصف مقابل كأس بيرة لكل منهم ، في حين ذهبت الاموال للمتآمرين .

لم يمض وقت طويل على هذا حتى قرر جرجس ، وقد سئم من اخطار وتقلبات حياة الاجرام المتعددة الاشكال ، ان يقلع عن ممارسة الاجرام وحياة الجريمة لصالح الحياة السياسية . في ذلك الوقت تماماً ، كان هناك الكثير من اللغط الذي ثار حول التحالف بين المجرمين والشرطة . فالكسب غير المشروع عن طريق الجريمة هو الميدان الوحيد الذي لم يكن لاصحاب الاعمال فيه اي دور مباشر — بل هو مايدعوه الناس باسم « الخط الجانبي » وكانت الشرطة تسير عليه بمفردها . فالقمار المفتوح على نطاق واسع والبغاء المتيسر السبل يجعلان المدينة مريحة لممارسة « الاعمال التجارية » الا ان اعمال السطو والسرقة ليست كذلك . فقد صدف ذات ليلة ان وقع جاك دوان وهو يفتح صندوق مال في احد مخازن الثياب بين يدي حارس ليلي بالجرم المشهود لكن الحارس سلمه إلى شرطي كان بالمصادفة على معرفة حسنة بجاك ، فتحمل مسؤولية السماح له بالفرار ونجم عن ذلك ضجة كبيرة في الصحف كان ضحيتها دوان الذي لم يستطع الا بالكاد ان يغادر المدينة في الوقت المناسب .

في هذه الفترة تماماً حدث ان تعرف جرجس إلى رجل يدعى هاربر عرف فيه الحارس الليلي في مؤسسة براون ، ذاك الحارس الذي كان الاداة في جعله مواطناً امريكياً اول قدومه إلى المسالخ . وقد اهتم الرجل الآخر كل الاهتمام بالمصادفة السعيدة . الا انه لم يتذكر جرجس— فقد مر عليه الكثير « من الناس الاغرار » في زمنه ، كما قال . جلس هاربر في حفلة رقص مع جرجس وهالوران حتى الساعة الواحدة او الثانية صباحاً ، يتبادلون الحكايا عن تجاربهم وخبراتهم وكانت لديه قصة طويلة يحكيها عن مشاجرته مع المراقب العام لقسمه وكيف كان في حينها عاملاً بسيطاً وعضواً نقابياً ايضاً . وقد مضت عدة اشهر قبل ان يفهم جرجس ان المشاجرة كانت مرتبة مسبقاً ، وان هاربر كان يتسلم بالفعل راتباً قدره عشرون دولاراً اسبوعياً من رب العمل لقاء تقرير داخلي عن الاعمال السرية لنقابته . كانت المسالخ تنور اضطراباً وقلاقل في ذلك الحين قال الرجل وهو يتكلم كنقابي ، فسكان باكنجتاون تحملوا فوق طاقتهم كما يبدو والاضراب قد يقع في اية لحظة .

بعد هذا الحديث ، قام الرجل بتوجيه بعض الاسئلة إلى جرجس مستفسراً عن احواله وبعد يومين عاد اليه باقتراح مثير قائلاً انه ليس متأكداً تماماً . لكنه يعتقد ان بامكانه ان يؤمن له راتباً منتظماً ان جاء

إلى باكنجتاون وفعل مايقال له وابقى السر مكتوماً . فهاربر — بوش هاربر « كما يسمونه — هو اليد اليمنى لمايك سكولي ، الرئيس الديمقراطي لمنطقة المسالخ وفي الانتخابات القادمة ثمة وضع خاص . فقد قدم اقتراح لسكولي بأن يتم ترشيح احد اصحاب مصانع البيرة الاغنياء وهو رجل يعيش في الشارع العريض المحاذي للمنطقة ويسمح بالحصول على اسم كبير وعضوية في المجلس التشريعي . انه يهودي لادماغ في رأسه ولاخطر منه على الاطلاق كما يحتمل ان يدفع رصيداً جيداً للحملة . وافق سكولي على العرض ، بعدئذ ذهب إلى الجمهوريين باقتراح . فهو لم يكن واثقاً من امكانية تدبيره « لليهودي » ولم يكن يستهدف اقتناص اية فرصة في منطقته ، اذن فليسم الجمهوريون مرشحاً مجهولاً من اصدقاء سكولي وليكن ذاك الذي يدير لعبة بولنغ في قبو من اقبية شارع آشلاند وهو ، أي سكولي ، سينتخبه بنقود « اليهودي » ، وبذلك يكسب الجمهوريون المجد الذي لايمكنهم الظفر به في أي مكان آخر . مقابل هذا ، كان على الجمهوريين الا يتقدموا بمرشح في العام التالي ، حين يرشح سكولي نفسه للانتخاب من جديد . وافق الجمهوريون على هذا في الحال . لكن اللعنة — كما شرح هاربر — هي ان جميع الجمهوريين حمقى — وعلى المرء ان يكون احمق كي يكون جمهورياً في منطقة المسالخ ، حيث الملك هناك هو سكولي . فهم لايعرفون كيف يتصرفون وبالطبع لايمكن للعمال الديموقراطيين ، ذوي الجلود الحمراء من عصبة الترويج للحرب ، ان يدعموا الجمهوريين صراحة . وقد لاتكون الصعوبة

كبيرة جداً لولا حقيقة أخرى ـ فقد ازداد الاهتمام بالسياسة في منطقة المسالخ خلال العام او العامين الماضيين اذ برز حزب جديد إلى الوجود . انهم « الاشتراكيون » وقد « لخبط » هذا الحزب جميع الاوراق كما قال بوش هاربر . الصورة الوحيدة التي حملتها كلمة « اشتراكي » إلى ذهن جرجس هي صورة تاموزيوس كوتزلايكا الضئيل المسكين الذي كان يصرح علانية بذلك . وكان تاموزيوس قد حاول شرح ذلك كله لجرجس الا ان هذا لم يكن ذا موهبة خيالية ، فظل عاجزاً عن استيعاب الفكرة ، اما في الوقت الحاضر فقد اقتنع بشرح صاحبه ومفاده ان الاشتراكيين هم اعداء المؤسسات الامريكية ـ اذ لايمكن شراؤهم ولا يمكن الاتفاق معهم او اشراكهم في اية لعبة » . كان مايك منزعجاً كثيراً على الفرصة التي قدمتها لهم صفقته الاخيرة . فديموقراطيو المسالخ كانوا ساخطين على فكرة ترشيح رأسمالي غني وخلال عملية تبديل الموقف ربما يستنتجون ان مرشحاً اشتراكياً مرموقاً قد يكون افضل لديهم من مرشح جمهوري مجهول . وهكذا فان هناك فرصة مناسبة لجرجس كي يصنع لنفسه مكانة في العالم ، شرح له هاربر ، فهو رجل نقابي معروف في المسالخ كعامل ، ولا بد ان لديه مئات المعارف والاصحاب وبما انه لم يتحدث معهم في السياسة من قبل فان بامكانه الآن ان يظهر كجمهوري دون ان يثير أية شكوك علماً بان هناك براميل من النقود ستوضع تحت تصرف اولئك الذين يسلمون البضاعة . وبامكان جرجس ان يعتمد تماماً على مايك سكولي الذي لم

يتخل في حياته عن صديق . لكن ماالمطلوب منه تماماً ؟ سأل جرجس بشيء من الحيرة ، فشرح له الآخر بالتفصيل . اولاً ، عليه ان يذهب إلى المسالخ ويعمل هناك . صحيح انه قد لايستمتع بذلك ، لكنه سينال مايكسبه من اجر علاوة على ماسوف يأتيه من موارد اخرى . بعدئذ يعاود نشاطه في النقابة مرة ثانية وربما يحاول الحصول على مركز مثلما فعل هاربر نفسه ، وسيحكي لكل اصدقائه عن الاهداف الحسنة للدويل ، المرشح الجمهوري ، وفي الوقت ذاته يقوم بدعاية « مضادة لليهودي » بعدئذ يوفر له سكولي مكان اجتماع فيعلن هو عن تأسيس « رابطة الشباب الجمهوري » او شيء من هذا القبيل ، ويوزعون في هذا الاجتماع افضل مشروبات صانعي البيرة ويطلقون الالعاب النارية والمفرقعات ويلقون الخطب ، تماماً مثل عصبة الترويخ للحرب . ان جرجس يعرف ، بالتأكيد ، مئات الرجال الذين يحبون هذا النوع من الدعاية ولسوف يتواجد هناك قادة الحزب الجمهوري المعروفون والعمال الذين سيساعدونه لكي يوفر لهم اغلبية كبيرة تكفي لنجاحهم يوم الانتخابات .

سأل جرجس ، بعد ان سمع هذا الشرح حتى النهاية . « لكن كيف احصل على عمل في باكنجتاون ؟ اسمي مدرج في القائمة السوداء . »

فضحك بوش هاربر لهذا السؤال ثم قال : « سأتولى بنفسي تدبير الامر . »

فأجاب الآخر « اذن أنا موافق . اعتبرني منذ اللحظة « محسوبك » . »

وهكذا عاد جرجس مرة ثانية إلى المسالخ ، حيث تقدم إلى سيد المنطقة السياسي ، رئيس بلدية شيكاغو مايك سكولي الذي يمتلك معمل الآجر والقمامة وبركة الجليد ـــ غير ان جرجس لم يكن يعرف ذلك . لم يكن يعرف ان سكولي هو الذي ينبغي لومه على الشارع غير المرصوف الذي غرق فيه ابنه ،وهو المسؤول عن تعيين القاضي الذي حكم بالسجن عليه اول مرة ، وهو صاحب الاسهم الرئيسية في الشركة التي باعته المنزل تحت ستار الايجار ثم سلبته اياه . جرجس لايعرف شيئاً عن هذا كله ـــ لايعرف ان سكولي مجرد اداة ، دمية بأيدي اصحاب دور التعليب. كل مايعرفه هو ان سكولي قوة هائلة ، أكبر رجل قابله في حياته .

كان سكولي ايرلندياً جاف الجلد ، ضئيل الجسم ، مرتعش اليدين ، تحدث حديثاً مؤثراً مع زائره وهو يراقبه بعينين كعيني الجرذ ، كي يحزم امره بشأنه . بعدئذ اعطاه ملاحظة إلى السيد هارمون ، وهو احد المدراء الرئيسيين في مؤسسة دور هام .

« حامله ، جرجس رودكوس ، احد اصدقائي الشخصيين بودي ان تجد له مكاناً مناسباً وذلك لاسباب هامة . لقد اساء التصرف في يوم من الايام لكن ارجو ان تكون من الطيبة بحيث تتجاوز ذلك » .

قرأ السيد هارمون الملاحظة ثم رفع عينيه مستفهماً « ماذا يعني بسوء التصرف » ؟

فقال جرجس « ادرج اسمي في اللائحة السوداء ياسيدي » .

قطب السيد هارمون حاجبيه لدى سماعه الاجابة ثم قال « اللائحة السوداء ؟ ، ماذا تعني ؟ » فاحمر وجه جرجس ضيقاً وانزعاجاً . « لقد نسي انه ليس هناك لائحة سوداء » انا — اعني . . وجدت صعوبة في الحصول على عمل « تلعثم اخيراً . » « ومااالسبب ؟ »

« لقد تشاجرت مع رئيس عمال — ليس رئيسي ، ياسيدي — ضربته . »

« ارى ذلك » قال الآخر ثم اطرق مفكراً بضع لحظات . بعدها سأل : « ما العمل الذي ترغب به ؟ »

فقال جرجس « أي شيء ياسيدي ، فقط علي ان اكون حذراً إذ كسرت ذراعي هذا الشتاء . »

« هل يناسبك العمل كحارس ليلي ؟ . . »

« لاياسيدي ، فعلي ان اكون بين العمال

« ارى ذلك — سياسة . حسناً ، هل يناسبك ان تشذب لحم الخنازير ؟ »

« اجل ياسيدي . »

وهكذا دعا السيد هارمون ضابط الدوام ثم قال له — خذ هذا الرجل إلى بات مورفي وليجد له مكاناً يعمل فيه .

بعد ذاك سار إلى قاعة ذبح الخنازير اي المكان نفسه الذي قصده في الايام الماضية يستجدي عملاً . اما الآن فقد كان يمشي بزهو شديد بل لقد ابتسم في سره حين رأى التجهم الذي طغى على وجه رئيس العمال حين قال له ضابط الدوام: « السيد هارمون يقول ان تسلم هذا الرجل عملاً » .الا أن رئيس العمال لم يتلفظ بكلمة واحدة سوى « حسن » .

وهكذا اصبح جرجس عاملاً مرة أخرى . بحث عن اصدقائه القدامى في الحال . انضم للنقابة ثم بدأ « يغرس الجذور » لـ « سكوتي » دويل الذي عمل له معروفاً ذات يوم ، راح جرجس يشرح ، وهو شخص عظيم حقاً ، بل لقد كان هو نفسه عاملاً ولسوف يمثل العمال خير تمثيل ـ ترى لماذا يريدون التصويت ليهودي مليونير ؟ وماذا صنع لهم سكولي لكي يدعموا مرشحيه طوال الوقت ؟ في غضون ذلك . اعطى سكولي جرجس رسالة إلى زعيم الجمهوريين في الناحية فذهب إلى هناك حيث التقى بالجمع الذي كان عليه ان يعمل معه . كانوا قد استأجروا صالة كبيرة من قبل ، ببعض اموال صانع البيرة . فغدا جرجس كل ليلة يأتي بدستة من الاعضاء الجدد في رابطة دويل الجمهورية ، وسرعان ماحددوا موعد الافتتاح الكبير وفي ليلة الافتتاح اتوا بجوقة موسيقية سارت عبر الشوارع . كذلك اطلقوا المفرقعات والالعاب النارية وأشعلوا الانوار الحمراء امام الصالة وحضر جمع غفير من الناس اضطرهم لعقد اجتماعين كبيرين الامر الذي فرض

على المرشح الشاحب والمرتعد خوفاً ان يلقي ثلاث مرات الخطبة الصغيرة التي كان احد رجال سكولي قد كتبها له ، والتي كان قد امضى شهراً كاملاً يستظهرها . غير ان خير ماحدث تلك الليلة هو أن السناتور سبيرشانكر ، الرجل الشهير والخطيب المصقع والمرشح لرئاسة الجمهورية ، ركب سيارة مكشوفة ومضى لكي يناقش حقوق المواطن الامريكي المقدسة والحماية والرفاهية التي يتمتع بها العامل الامريكي . وقد اقتبست جميع الصحف الصباحية خطابه العظيم الذي تصدر صفحاتها الاولى . كما قالت هذه الصحف إنه يمكن القول بناء على مصادر وثيقة ان الشعبية غير المتوقعة التي تتزايد لصالح دويل المرشح الجمهوري للنيابة تثير كثيراً قلق السيد سكولي رئيس لجنة الحزب الديمقراطي في المدينة .

وكان هذا الرئيس مايزال اكثر انزعاجاً حين خرجت مسيرة المشعل الهائلة وفي مقدمتها افراد « رابطة دويل الديموقراطية » بقبعاتهم الحمراء ، ثم وزعت البيرة بلا حساب لكل صاحب صوت في الناحية . افضل بيرة وزعت في اية حملة سياسية ، كما شهد بذلك كل المنتخبين. خلال هذا العرض ، وفي اجتماعات طارئة لاعد لها ولاحصر كان جرجس يعمل دون كلل او ملل . لم يكن يلقي خطباً — فهناك محامون وخبراء آخرون مختصون بذلك بل كان يساعد في تدبير الامور : توزيع اللافتات ، لصق الملصقات ، الإتيان بالجماهير . وحين يبدأ العرض ، ينصرف جرجس للاشراف على المفرقعات النارية والبيرة ، وهكذا كان خلال الحملة يتصرف بالاف الدولارات التي هي من

نقود صانع البيرة اليهودي ويديرها باخلاص وامانة كاملين . لكنه قبل انتهاء الحملة علم ان بقية الفتيان ينظرون اليه بشيء من الحقد . إما لانه جعل عرضهم اقل فخامة من عرضه أو لانه يعمل من غير اعطائهم حصتهم من « الفطيرة » ؛

بعد ذلك ، بذل جرجس كل مافي وسعه لكسب رضاهم وللتعويض عما فاته قبل اكتشافه « الثقوب » الاضافية الموجودة في برميل الحملة .

ولقد كسب رضا سكولي ايضاً : فصباح الانتخاب ، خرج في الساعة الرابعة ليحصل على الاصوات . . استأجر عربة ذات حصانين وراح ينتقل من منزل إلى منزل كي يرافق اصدقاءه إلى مكان الاقتراع مفعماً بنشوة الظفر . لقد اقترع هو نفسه ست مرات كما اقترع بعض اصدقائه مثل هذا العدد وكان يأتي بمجموعة بعد اخرى من أحدث الأجانب – ليتوانيين – بولونيين – بوهيميين – سلوفاك وحين يضعهم في المطحنة يسلمهم إلى رجل آخر كي يأخذهم إلى مركز اقتراع آخر. حين انطلق جرجس لاول مرة اعطاه رئيس المنطقة الانتخابية مائة دولار ، ثم عاد ، خلال ذلك اليوم ، ثلاث مرات اخرى من اجل مئات اخرى ، دون ان يبقى في جيبه أكثر من خمسة وعشرين بالمائة من هذا المبلغ في كل مرة . كان المال يذهب كله إلى الاصوات الفعلية ، وهكذا في معقل الديمقراطيين نفسه انتخبوا « سكولي » دويل واضع لعبة البولنغ سابقاً ، بأكثرية اصوات بلغت الف صوت

تقريباً واعتباراً من الساعة الخامسة من ذلك المساء حتّى الثالثة من صباح اليوم التالي ، اطلق جرجس لنفسه العنان في اكثر حالات النشوة والطرب عربدة » وقصفاً وقد فعل الشيء ذاته كل واحد في باكنجتاون تقريباً اذ كان هناك جذل شامل بسبب النصر الذي حققته الجماهير والهزيمة الساحقة التي أحاقت بالبلوتوقراطي (١) المتغطرس على يد الجماهير .

- ٢٦ -

ظل جرجس بعد الانتخابات في باكنجتاون واحتفظ بعمله ، فالغضب الشعبي الذي حدث مطالباً بأن ترفع الشرطة حمايتها عن المجرمين كان مايزال مستمراً وبدا لجرجس ان من الافضل « الانحناء للعاصفة » في الوقت الحاضر . بات لديه في المصرف ثلاثمائة دولار تقريباً وكان بامكانه ان يمنح نفسه الحق باجازة لكن عمله سهل وقد بات يؤديه بحكم العادة . فضلاً عن أنه استشار مايك سكولي فنصحه بأن شيئاً ما سيتغير خلال فترة وجيزة .

استأجر جرجس لنفسه مكاناً في نزل مع بعض الاصدقاء الحميمين. كان من قبل ، قد سأل عن آنييل وعلم ان الزبيبتا وعائلتها قد رحلت إلى قلب المدينة، وهكذا لم يعد يفكر بهم . لقد عقد لنفسه صداقة مع طاقم

(١) البلوتوقراطي : الشخص المتنفذ بسبب ثروته .

جديد ، شبان غير متزوجين من « الرياضيين » . كان جرجس قد ألقى منذ زمن طويل بثيابه كعامل اسمدة ، وبات مذ دخل عالم السياسة يرتدي ياقة كتانية وربطة عنق حمراء زاهية . وكان ثمة اسباب كثيرة تدعو للاهتمام بملابسه ، اولها أنه يكسب احد عشر دولاراً كل اسبوع يمكنه انفاق ثلثها على متعه دون مس مدخراته .

احياناً كان يقصد مع اصدقائه قلب المدينة حيث يرتادون المسارح الرخيصة وصالات الموسيقى ومواطن المتعة الاخرى وفي كثير من حانات باكنجتاون كان ثمة طاولات قمار ، هنا كان باستطاعة جرجس ان يقضي أمسياته يقامر ويلهو . كذلك كان هناك ورق لعب ونرد . وذات مرة ، دخل جرجس لعبة ليلة السبت ربح فيها كثيراً ، لكن باعتباره رجلاً رفيع النفس فقد ظل يلعب مع البقية حتى وقت متأخر من عصر الاحد التالي ، وحينها كان قد خسر مايزيد عن العشرين دولاراً . كذلك كانت تقام عدد من الحفلات في ليالي السبت في باكنجتاون اذ يأتي كل رجل بفتاته ويدفع نصف دولار ثمن البطاقة وعدة دولارات اضافية ثمن شرابه خلال الاحتفال الذي كان يستمر حتى الثالثة او الرابعة صباحاً مالم يفسده شجار ما خلال هذا الوقت . كان الرجل والمرأة يستمران في الرقص معاً نصف مخدرين بالشراب والرغبة . بعد فترة وجيزة اكتشف جرجس ماكان يعنيه سكولي بقوله : شيء ماسيتغير . ففي ايار انتهى امد الاتفاقية بين النقابات واصحاب دور التعليب . اتفاقية جديدة . كانت المفاوضات مستمرة ، والمسالخ تعج بالكلام

عن الإضراب فالاتفاقية القديمة تهتم بأجور العمال المهرة فقط ، رغم أن ثلثي اعضاء نقابة عمال اللحم هم من العمال غير المهرة ، اجرة بعضهم حوالي ثمانية عشر سنتاً ونصف في الساعة ، وكانت النقابة تود رفع هذه الاجرة في السنة القادمة ، ولم تكن اجرة كبيرة كما تبدو — فخلال المفاوضات فحص موالو النقابة صكوك الدوام ووجدوا أنها تبلغ حوالي عشرة آلاف دولار ، كما وجدوا ان أعلى اجر مدفوع هو اربعة عشر دولاراً في الاسبوع وان الادنى هو دولاران وخمسة سنتات ، وان المتوسط العام ستة دولارات وخمسة وستون سنتاً وهو مبلغ لايسد رمق الاسرة الا بالكاد . وبما ان اسعار اللحوم المعلبة قد زادت بنسبة خمسين بالمائة تقريباً خلال السنين الخمس الماضيات ، بينما انخفض سعر اللحم القائم بالنسبة ذاتها تقريباً فقد بدا ان اصحاب دور التعليب قادرون ، ولابد ، على دفع الزيادة . غير ان هؤلاء لم يكونوا راغبين بذلك — بل لقد رفضوا طلب النقابة ، ولكي يبينوا هدفهم تماماً فقد عمدوا بعد اسبوع او اسبوعين من انتهاء أمد الاتفاقية إلى تخفيض أجور حوالي الف عامل إلى ستة عشر سنتاً ونصف في الساعة ، كما تناقلت الالسن القول ان جونز العجوز قد اقسم ان يخفضها ايضاً إلى الخمسة عشر سنتاً عما قريب . كان هناك حوالي مليون عامل ونصف يبحثون عن عمل في البلاد ، مائة الف منهم تماماً في شيكاغو . فهل ينبغي على اصحاب دور التعليب ان يتركوا مندوبي النقابة يدخلون مكاتبهم

ويوقعونهم على عقد يخسرون بسببه عدة آلاف من الدولارات كل يوم ولمدة سنة ؟ أليس ذلك كثيراً ؟

هذا كله كان في حزيران ، وخلال فترة وجيزة طرحت المسألة على الاستفتاء في النقابة فاتخذ قراربالاضرابووقع الامر ذاته في كافة المدن التي تحوي دور التعليب ؛ وفجأة استيقظت الصحف والرأي العام لمواجهة الاحتمال الفظيع بأنه قد يحدث نقص في اللحوم . وقد عرضت كافة ضروب الحجج لاعادة النظر بالوضع ، الا ان اصحاب دور التعليب كانوا أعند من بغال ؛ فقد استمروا بتخفيض الاجور وتحويل حمولات الماشية وتحميل العربات بدلاً منها بالفرش والاسرة مما جعل الرجال يغلون كقدور على نار وهكذا انطلقت البرقيات ذات ليلة من مقر النقابات إلى كافة مراكز التعليب الكبيرة — إلى سانتيول ، أو ماها الجنوبية ، مدينة سيوكس ، سانت جوزيف ، مدينة كنساس ، سانت لويس الشرقية ونيويورك — وعند ظهر اليوم التالي خلع مابين خمسين وستين الف عامل ملابس عملهم وخرجوا من المصانع وبذلك بدأ « اضراب اللحم » الكبير .

مضى جرجس لتناول عشائه ، بعدئذ قصد مايك سكولي الذي كان يقطن في منزل جميل في شارع رصف جيداً وأنير انارة حسنة ، إكراماً له خصيصاً — كان سكولي يعيش في شبه تقاعد وكان يبدو عصبياً مضطرباً . « ماذا تريد ؟ » سأل جرجس حين رآه .

فأجاب الآخر « جئت لارى ان كان باستطاعتك ان تحصل لي على مكان في الاضراب . » عقد سكولي حاجبيه ثم حدجه متمعناً . في صحف الصباح كان جرجس قد قرأ تنديداً شديد اللهجة كتبه سكولي ضد اصحاب دور التعليب وصرح فيه انهم ان لم يعاملوا عمالهم على نحو افضل فان سلطات المدينة ستنهي المسألة بهدم منشآتهم . لذا لم يفزع جرجس ابداً حين سأله الآخر فجأة « انظرهنا. . . رودكوس. . . لماذا لاتبقى في عملك ؟ » .

فبدأ جرجس بصوت عال : « ماذا ؟ ارفض الاضراب مع نقابتي ؟ »

فسأل سكولي : « ولم لا ؟ ماالنقابة بالنسبة لك ؟ »

« لكن . . . لكن . . . » تلعثم جرجس فقد كان يعتبر خروجه مع نقابته امراً بديهياً .

فتابع الآخر : « اصحاب دور التعليب بحاجة لناس جيدين وناس سيئين ، وهم يعاملون الرجل الذي يقف بجانبهم خير معاملة ، فلم لا تستغل هذه الفرصة وتثبت نفسك ؟ »

فقال جرجس : « لكن ، كيف سأكون ذا فائدة لك يوما من الايام — في السياسة ؟ »

فقال سكولي بسرعة : « لن تكون ذا فائدة لي على أي حال . »

« لم لا ؟ » قال جرجس

فصرخ الآخر : « ياللجحيم ايها الرجل ! ! الا تعرف انك جمهوري؟ وهل تظن انني دائماً سأنتخب الجمهوريين ؟ لقد اكتشف صاحبنا فعلاً كيف خدمناه وهناك خلاف حول الدفع . »

تطلع جرجس مبهوتاً . لم يكن قد فكر بهذا الامر من قبل واخيراً قال « يمكنني ان اصبح ديموقراطياً » .

فأجاب الآخر : « اجل ، لكن ليس مباشرة . فالمرء لايغير موقفه السياسي كل يوم فضلاً عن انني لست بحاجة لك – ليس لدي ماا كلفك به ، ومايزال امامنا وقت طويل حتى موعد الانتخاب ، فماذا تراك فاعلاً في غضون ذلك ؟»

« كنت أظن أن بامكاني الاعتماد عليك » . . بدأ جرجـــــس.

فرد سكولي « اجل بامكانك – فأنا لم اتخل عن صديق قط . لكن هل من المستحسن ان تترك العمل الذي أمنته لك وتأتي لتطالبني باخر ؟ لدى مائة شخص يلاحقونني كل يوم من اجل اعمال ، فماذا تراني افعل ؟ لقد سجلت ألفاً وسبعمائة رجل على جدول رواتب البلدية كعمال لتنظيف الشوارع هذا الاسبوع ، لكن هل تظن انني قادر على الاستمرار في ذلك إلى الابد ! ليس باستطاعتي ان احكي للناس الآخرين مااحكيه لك ، لكنك بت منا ، وعليك ان تملك الوعي الكافي لتدبير شؤونك . ترى ماذا ستكسب من الاضراب ؟ »

« لم أفكر بذلك ، » قال جرجس

فقال سكولي « تماماً . لكن من الافضل أن تفكر . اسمع كلامي ، الاضراب سينتهي خلال بضعة ايام وسينهزم العمال . وفي غضون ذلك ماتحصل عليه سيكون ملكك . ألا ترى ذلك ؟ »

ورأى جرجس ذلك . فقد عاد إلى المسلخ وإلى قاعة العمل . كان العمال قد تركوا خطاً طويلاً من الخنازير وهي في مختلف مراحل إعدادها ، وكان رئيس العمال يوجه الجهود الضعيفة لحوالي عشرين او ثلاثين من كتبة وصبية المكاتب الادارية لانهاء العمل وايصال لحم الخنازير إلى غرف التبريد ، فمضى جرجس مباشرة نحوه ثم أعلن : « هاأنذا قد عدت إلى العمل ، سيد مورفي » فصاح الرجل وقد أضاء وجهه : « رجل رائع . . . هيا . . قدماً» فقال جرجس بعد أن تأكد من حماسته : « لحظة واحدة فقط . أظن أنه ينبغي أن آخذ أجراً أكبر قليلاً » فأجاب الآخر : « أجل ، بالطبع . كم تريد ؟ » كان جرجس قد ناقش الأمر وهو في طريقه إلى المعمل ، أما الآن فقد كادت أعصابه تخذله ، لكنه شدد من قبضة يديه ثم قال : « أظن أنه ينبغي أن آخذ ثلاثة دولارات يومياً . » « حسناً» قال رئيس العمال بسرعة ، وقبل ان ينتهي النهار اكتشف صديقنا ان الكتبة والموظفين وصبية الادارة

كانوا يأخذون خمسة دولارات يومياً . وكان بامكانه حينذاك ان يرفس نفسه .

وهكذا اصبح جرجس احد الابطال الامريكيين الجدد ، رجلاً يمكن مقارنة فضائله بفضائل شهداء ليكسينجتون وفالي فورج . بالطبع ليس التشبيه تماماً لان جرجس كان يتلقى اجراً سخياً ويلبس لباساً كاملاً ولديه سرير ذو نوابض وفراش حسن ويتناول ثلاث وجبات يومياً . لذلك كان مرتاحاً تماماً وفي مأمن من مخاطر الحياة ،ماعدا أن رغبته في الشراب كانت تدفعه للخروج من باب المسلخ . لكن حتى لو اراد الخروج فانه لم يكن يستطيع ذلك بدون حماية ، فجزء كبير من قوة الشرطة غير الصالحة في شيكاغو تحول فجأة من مكان عمله في تعقب المجرمين إلى خدمته هو وامثاله .

كان القرار الذي اتخذته الشرطة والمضربون ايضاً هو ضرورة تجنب العنف الا ان مجموعة أخرى ذات علاقة بالامر كانت قد قررت العكس — ألا وهي الصحف ووسائل الاعلام . في اليوم الاول من حياته، كخارج على الاضراب ، ترك جرجس العمل مبكراً ، وبروح التحدي المعهودة فيه وجد نفسه يتحدى ثلاثة من معارفه بأن يخرجوا ويتناولوا كأساً من الشراب . قبل الجماعة التحدي ومضوا عبر بوابة شارع هالستين الكبيرة ؛ حيث كان عدد من رجال الشرطة يراقبون . وكذلك

بعض عيون النقابة الذين كانوا يتفحصون بدقة كل من يدخل او يخرج .
سار جرجس وصحبه باتجاه الجنوب في شارع هالستين حتى اجتازوا
الفندق . حينذاك وعلى حين غرة بدأ ستة من الرجال السير باتجاههم .
عبروا الشارع ثم مضوا لمجادلتهم حول الخطأ الذي ارتكبوه بالعودة
إلى العمل ، وبما ان اسلوب المجادلة لم يكن صحيحاً فقد تحول النقاش
إلى تهديد فجأة رفع احد الستة قبعة واحد من الاربعة رامياً بها إلى السياج ،
فانطلق الرجال في اثرها . بعد ذاك ، وحين ارتفعت صرخة « خارجين
على الاضراب » واندفعت دستة من الرجال الذين خرجوا من الخانات ،
وجد أحد الاربعة نفسه وهو يطلق ساقيه للريح ثم سرعان مالحق به
آخر . اما جرجس وزميله الرابع فقد ظلا يتبادلان اللكمات مع الآخرين
مدة طويلة قبل ان يكشفا ان عليهما ايضاً ان يسلما سيقانهما للريح ،
عبر الفندق ومن ثم إلى المسلخ ثانية . اثناء ذلك جاءت الشرطة تعدو .
وبما ان حشداً من الناس كان قد تجمع فقد جاءت قوة اخرى من الشرطة
أطلقت صفارات الانذار . لم يعرف جرجس شيئاً من هذا كله .
فقدعادإلى شارع دور التعليبوهناك رأىأ مام مركز الدوام الاساسي
احد اصحابه لاهثاً مقطوع الانفاس ، يكاد يجن وهو يروي لجمع
يتزايد باستمرار كيف هوجموا هم الاربعة من قبل حشد هادر احاط
بهم وكاد يمزقهم ارباً . وبينما كان يقف منصتاً ، يبتسم بسخرية ،
رأى عدة شبان أنيقين يقفون بجرار الحشد وفي ايديهم دفاتر . ثم ،

لم تمض ساعتان على ذلك حتى رأى باعة الصحف يجرون وتحت آباطهم حزم من الصحف طبع عليها باحرف حمراء وسوداء :

حوادث عنف في المسالخ . . خارجون على الاضراب تحيط بهم غوغاء مسعورة

ولو اشترى جرجس صحف الولايات المتحدة الصباحية كلها يومذاك ، لوجد ان مغامرته العظيمة التي كانت تستهدف شرب البيرة قد غدت موضوعاً يقرأه ملايين الناس وتكتب عنه افتتاحيات .

وكان جرجس سيرى المزيد من هذا مع مرور الوقت . لكن كان عليه ، حين ينتهي عمله ، ان يختار بين ركوب الترام إلى المدينة وقضاء الليل في غرفة وضعت فيها الاسرة على شكل صفوف ، فاختار الحل الاخير . لكن ، لندامته ، وجد ان زمراً من الخارجين عن الاضراب ظلت طوال الليل تتوافد . وبما ان قلة قليلة من العمال الجيدين كان بالامكان الحصول عليها من اجل اعمال كهذه . فان العينة من « الابطال الامريكيين الجدد » كانت تضم مختلف انواع المجرمين وحثالة المدينة اضافة إلى الزنوج وادنى اصناف الاجانب — يونانيين ، رومانيين ، صقليين وسلوفاك . جذبهم إلى العمل الامل بحدوث اضطرابات عامة أكثر من الاجور الكبيرة ذاتها . ولقد أحالوا الليل إلى جحيم حقيقي بغنائهم وصخبهم ولم يستطع جرجس النوم إلا حين كان عليه ان ينهض إلى العمل .

في الصباح وقبل أن ينهي جرجس افطاره . ارسله بات مورفي إلى واحد من المشرفين العامين . فسأله عن تجربته فيما يتعلق بغرفة الذبح ، حينها بدأ قلبه يدق بسرعة اذ ادرك في الحال ان ساعته حانت ، وانه سيغدو رئيس عمال .

كان بعض رؤساء العمال من اعضاء النقابة وكان الكثير منهم قد رفض المشاركة في الاضراب لكن في قسم الذبح بالذات كان اصحاب دور التعليب في اشد حالات الضيق ، وهناك بالضبط كانت قدرتهم على التحمل في ادنى مستوياتها اذ من الممكن تأجيل عمليات تدخين اللحم وتعليبه وتمليحه بعض الوقت ، كما يمكن اتلاف كل المنتجات الثانوية اما اللحوم الطازجة فيجب تأمينها ، والا فان المطاعم والفنادق والبيوت ذات الحجارة الرمادية ستشعر بالضغط ، وحينذاك سيأخذ الرأي العام « اتجاها مفاجئاً » .

فرصة كهذه لايصادفها الانسان مرتين وهكذا امسك بها جرجس . اجل كان يعرف العمل ، كل ماله علاقة بالعمل ، وباستطاعته ان يعلمه للآخرين ، لكن اذا ماستلم العمل وأثبت جدارته فانه يتوقع ابقاءه فيه ، ترى ألن يطردوه منه حين ينتهي الاضراب ؟ . فأجاب المشرف ان بامكانه ، في هذا المجال ، الوثوق تماماً بمؤسسة دورهام . انهم يفكرون بأن يلقنوا النقابات وكل من دعمها من رؤوساء العمال

درساً لاينسى ابد الدهر وقد علم جرجس ان اجره اليومي سيكون خمسة دولارات طوال فترة الاضراب وخمسة وعشرين دولاراً في الاسبوع بعده :

وهكذا لبس صاحبنا الحذاء الخاص بحظائر الذبح . وبنطلون « الجينز » ثم ، انكب على عمله . مشهد غريب كان يجري في احواض الذبح — جمع من الزنوج والاجانب الاغبياء الذين لايفهمون كلمة مما يقال لهم وقد اختلطوا بآخرين من الكتبة وحفظة الدفاتر جوف الصدور شاحبي الوجوه شبه مغشي عليهم بسبب الحرارة الخانقة ورائحة الدم الطازجة القاتلة — والكل يكافح ليسلخ دستة او دستتين من رؤوس الماشية في المكان ذاته الذي كانت فئة الذبح فيه تعمل قبل اربع وعشرين ساعة بسرعة غريبة ودقة مدهشة يصل معها عدد الذبائح إلى اربعمائة ذبيحة كل ساعة . .

لم يكن الزنوج والمشاكسون من حي « ليفي » يرغبون بالعمل ، لذا كان بعضهم يشعر كل بضع دقائق بالرغبة في القعود والاستراحة . خلال يومين اضطر دورهام وشركاه لتشغيل المراوح الكهربائية كي تبرد لهم الغرف ، بل ولتأمين مقاعد لهم كي يرتاحوا عليها . وفي غضون ذلك كان باستطاعتهم ان يخرجوا ليبحثوا عن زاوية ظليلة يأخذون « غفوة » فيها . وبما انه لم يكن هناك مكان خاص بأحد ولم يكن هناك نظام ، فقد كانت تمر ساعات قبل ان يكتشف رؤساؤهم

اماكن وجودهم . اما بالنسبة لمستخدمي المكاتب المساكين فقد بذلوا كل مافي وسعهم يدفعهم إلى ذلك خوفهم ، فقد طرد ثلاثون منهم دفعة واحدة في صباح اول يوم من ايام الاضراب لرفضهم العمل ، فضلاً عن أن عدداً من النساء كن يعملن ككاتبات وضاربات آلة كاتبة ، اضطررن للعمل كنادلات . مثل هؤلاء العناصر هم الذين اضطر جرجس لتنظيمهم . وقد بذل كل جهد لديه طائراً من مكان إلى مكان ، منظماً اياهم في صفوف موضحاً لهم اساليب العمل . لم يكن قد أعطى امراً واحداً في حياته لكنه كان قد تلقى مايكفي لكي يعرف كيف تعطى الاوامر . وسرعان مالبس لبوس الآمر فراح يهدد ويزمجر مثل أي آمر متمرس لكنه لم يكن يملك التلامذة المطواعين . « انظر ايها الرئيس » كان يبدأ احد الزنوج كبار الجثة « ان كان عملي لايعجبك فبامكانك ان تأتي بمن يؤديه خيراً مني . » عند ذاك كان يجتمع حشد من العمال وينصتون متمتمين بالتهديدات . لقد فقدت بعد الوجبة الاولى كل السكاكين الفولاذية تقريباً ، والآن كان لدى كل زنجي واحدة منها مشحوذة جيداً ومخبأة في مكان ما من ثيابه .

وسرعان ماكتشف جرجس ان من المستحيل تحقيق النظام في غمرة الفوضى هذه ، لذا عمل جاهداً كي يتكيف مع الجو ، فليس ثمة جدوى من انهاك نفسه بالزعيق والصراخ . ان كانت الجلود والامعاء ستخرج تالفة لافائدة منها فليس ذلك من مسؤوليته ، واذا ماستلقى

احد العمال خارجاً ونسي ان يعود فليس هناك فائدة من البحث عنه ، لان البقية قد يتركون العمل خلال ذلك . كل شيء كان يذهب هدراً ، خلال الاضراب ، وكان اصحاب دور التعليب يدفعون . ولم ينقض زمن طويل حتى اكتشف جرجس أن عادة الاستراحة كانت قد أوحت لبعض العقول اليقظة بفكرة التسجيل في اكثر من مكان وكسب أكثر من خمسة دولارات في اليوم . وحين امسك رجلاً بالجرم المشهود « سرحه » الا ان ذلك حدث ، بالمصادفة ، في ركن هادىء فقدم له الرجل ورقة من فئة العشرة دولارات مع غمزة من عينه فتلقاهما جرجس دون اعتراض . وبالطبع لم يمر وقت طويل حتى انتشرت هذه العادة وسرعان ماوجد جرجس نفسه يكسب دخلاً جيداً منها .

في مواجهة صعوبات كهذه ، كان اصحاب دور التعليب يعدون انفسهم محظوظين ان استطاعوا ذبح الماشية التي كانت تصاب اثناء النقل والخنازير التي تقع فريسة المرض . اذ غالباً ماكانت الخنازير ، خلال رحلة بالقطار لمدة يومين او ثلاثة وفي طقس حار وبدون ماء ، تصاب بالكوليرا وتنفق . وقد تهجم البقية على واحدها قبل ان يقضي نحبه تماماً . وحين يفتحون عربة القطار قد لايجدون منه سوى العظام . واذا لم تذبح كل الخنازير الموجودة في عربة كهذه حالاً ، فانها ستصاب جميعها بالعدوى وتموت . وحينذاك لن يستفاد منها الا بتحويلها إلى شحوم ، الشيء ذاته ينطبق ايضاً على الماشية التي كانت تنفق ايضاً

وتموت او تجر قوائمها المكسورة التي تظل عالقة بجلودها — وكان لابد من ذبحها حتى ولو اضطر السماسرة والمشترون والمراقبون العامون لخلع ستراتهم والمساهمة في سوقها وذبحها وسلخ جلودها . خلال ذلك، كان وكلاء اصحاب دور التعليب يجوبون كل مكان بحثاً عن زمر الزنوج في مناطق الريف الجنوبي البعيد مقدمين لهم الوعود بأجرة خمسة دولارات في اليوم مع الطعام والنوم ، مع حرصهم الكامل على اغفال كل ذكر للاضراب القائم . وبذلك كانت حمولات من عربات القطارات تشق طريقها بأجر خاص من شركة السكك الحديدية التي اغفلت كل مايتعلق بتعرفة الركوب . بلدان ومدن كثيرة استفادت من هذه الفرصة لاخلاء سجونها ودور العمل فيها — ففي ديترويت ، مثلاً ، كان القضاة يطلقون سراح كل العمال الذين يوافقون على مغادرة المدينة خلال اربع وعشرين ساعة ، لينقلهم وكلاء دور التعليب من قاعات المحكمة مباشرة ، حيث يقدمون لهم في عربات السكك الحديدية كل مايلزمهم من طعام وشراب بحيث لايجد احدهم مايغريه بالنكوص . لقد استأجروا ثلاثين فتاة في سنسيناتي « لتعليب الفواكه » وحين وصولهن وجدن أن العمل هو تعليب اللحم المطبوخ ، ووضعت لهن أسرة في ممر عام ، يمر عبره الرجال . وبما ان الورش كانت تأتي ليل نهار ، ترافقها عناصر الشرطة ، فقد كانت تودع في المشاغل والمخازن وفي حظائر السيارات إلى درجة كنت تجد فيها السرير على

السرير بل انهم في بعض الاماكن كانوا يستخدمون الغرفة ذاتها للنوم والطعام ، ففي الليل يمد العمال فرشهم على الطاولات كي يظلوا في منأى عن اسراب الجرذان .

لكن ، رغم كل جهودهم ظل اصحاب دور التعليب مرتبكين مشوشين . فتسعون بالمائة من العمال كانوا قد رحلوا ، وكانوا يواجهون مهمة تكوين يدهم العاملة تكويناً تاماً من جديد — مع ارتفاع سعر اللحم بمقدار ثلاثين بالمائة والمطالبة العامة بايجاد حل . وقد تقدموا بحل يقضي بأن تطرح المسألة برمتها امام لجنة تحكيم . بعد عشرة ايام قبلت النقابة العرض وألغي الاضراب . وقد تم الاتفاق على اعادة كافة العمال إلى اعمالهم خلال خمسة واربعين يوماً شريطة الا يكون هناك أي تحيز او تمييز ضد النقابيين .

وكان هذا وقتاً عصيباً بالنسبة لجرجس . فاعادة كافة العمال دون تمييز يعني انه سيفقد منصبه الحالي لذا سعى إلى المشرف الذي كشر مبتسماً ثم قال . . « انتظر وسترى . فالخارجون على الاضراب في مؤسسة دورهام لن يذهب منهم الا القلة . »

لكن ما اذا كان « الحل » خدعة من أصحاب دور التعليب يرغبون من ورائها كسب الوقت أو يأملون منها فعلاً تحطيم الاضراب وتركيع النقابات امر لايمكن البت به تماماً ، الا ان برقية في تلك الليلة صدرت من مكتب دورهام وشركاه إلى كافة مراكز التعليب الكبرى تقول —

« لاتستخدموا القادة النقابيين » ، وفي الصباح حين احتشد العشرة آلاف رجل في المسالخ ومعهم سطول طعامهم وثياب عملهم ، وقف جرجس قرب باب غرفة تشذيب لحم الخنازير حيث كان يعمل قبل الاضراب ورأى حشداً من الناس الراغبين بالعمل ، بجانبهم عشرون أو ثلاثون شرطياً يراقبونهم ، كما رأى المراقب العام يخرج ثم ينزل الممر ليختار هذا الرجل او ذاك ممن يعجبونه : وعلى هذا المنوال كان يأتي الرجل تلو الآخر ، بينما تجمع عند رأس الرتل من لم يتم اختيارهم – وجلهم من النقابيين والمندوبين والخطباء . وفي كل مرة طبعاً كانت الهمهمات تعلو اكثر واكثر . فهناك ، حيث ينتظر جزارو الماشية ، سمع جرجس صيحات ورأى جمعاً غفيراً فأسرع اليه . كان ثمة جزار كبير ، هو رئيس مجلس نقابة التعليب وقد مر به المراقب العام عدة مرات . كان السخط قد بلغ بالرجال اشده فقد عينوا لجنة من ثلاثة اعضاء بهدف الدخول ورؤية المراقب العام وقد قامت اللجنة بثلاث محاولات ، الا ان رجال الشرطة كانوا يمنعونها في كل مرة بهراواتهم . بعد ذاك حدث صراخ وصياح استمر إلى ان جاء المراقب العام بنفسه إلى الباب «سنعود جميعاً اولا يعود أحد .» صرخ مائة صوت فهز المراقب العام قبضته في وجوههم صارخاً : « لقد خرجتم من هنا كالماشية ، وكالماشية تعودون . . »

عندئذ قفز رئيس نقابة الجزارين إلى كومة حجارة صارخاً « انتهى الامر ايها الفتيان ؟ كلنا سنترك مرة ثانية . . » وهكذا اعلن جزارو

الماشية اضراباً جديداً مباشرة ثم جمعوا افراد نقابتهم من المنشآت الأخرى حيث كانوا يواجهون الخدعة عينها وساروا في شارع باكرز الذي كان يغص بجموع هائلة من العمال ، وهم يهتفون بشدة . اما العمال الذين كانوا قد استلموا اعمالهم في احواض الذبح فقد ألقوا ادواتهم أرضاً وانضموا إلى اولئك ، كما كان البعض الآخر يمتطي ظهور الخيول لينقل الخبر من مكان إلى آخر ، وخلال نصف ساعة كانت باكنجتاون كلها تعلن الاضراب مرة ثانية وملؤها السخط والغضب .

بعد هذا ، حدث في باكنجتاون تغير كامل في اللهجة ، فقد غدا المكان كله مرجل حماس يفور ، ومفسد الاضراب الذي يجرؤ على الخروج يلقى الويلات . كان يقع حادث او حادثان من هذا النوع كل يوم ، تنشر الصحف تفاصيلها تماماً وتوقع اللوم في حدوثها على النقابات . ورغم انه قبل عشر سنوات ، حين لم يكن هنالك نقابات في باكنجتاون ، حدث اضراب اضطرت فيه السلطات لاستدعاء قوات الجيش فقد حدثت معارك متفرقة كان العمال يخوضونها ليلاً وعلى ضوء قطارات الشحن المشتعلة . فباكنجتاون كانت دائماً مركزاً للعنف . « ففي نقطة الوسكي » ، حيث كانت هنالك مئات الحانات ومعمل للفراء ، كان دائماً يحدث عراك ومزيد من العراكات في الطقس الحار وكل من يزعج نفسه بالرجوع إلى سجلات المخفر القريب يجد أنه حدث في هذا الصيف عنف اقل من اي صيف قبله —

وذلك رغم وجود عشرين الف عامل عاطل عن العمل ، ليس لديهم مايفعلونه طوال النهار سوى تقليب النظر بالاخطاء الفادحة التي ارتكبت. ولم يكن باستطاعة احد أن يتصور المعركة التي كان يخوضها القادة النقابيون – لكي يمسكوا بزمام هذا الجيش العرمرم ، يمنعوه من التشرد والضياع والسلب والنهب ، يرفعوا معنويات مائة الف نسمة ، يشجعوهم ، يرشدوهم بعشرات الالسنة المختلفة وطوال ستة اسابيع من الجوع وخيبة الامل والقنوط .

في هذه الاثناء وضع اصحاب دور التعليب امام اعينهم هدفاً واحداً هو : تكوين يد عاملة جديدة . كانوا يأتون كل ليلة بألف أو الفين من الخارجين على الاضراب ويوزعونهم بين مختلف المنشآت ، بعضهم من العمال المتمرسين – جزارين ، باعة ، مدراء مخازن فرعية تابعة لدور التعليب . وبعضهم رجال نقابيون جاؤوا من مدن اخرى الا ان الاغلبية العظمى زنوج « اغرار » قادمون من مناطق القطن في الجنوب البعيد يساقون إلى منشآت التعليب كقطعان الاغنام . كان هناك قانون يحظر استخدام المباني كمساكن مبيت مالم يصرح باستخدامها رسمياً لهذا الغرض وتزود بنوافذ مناسبة ومدارج وسلالم حريق لكن الآن باتت « غرفة طلاء » لايمكن الوصول اليها الا عن طريق « مسقط » مغلق ، غرفة ذات باب واحد وليس لها نوافذ على الاطلاق ، تكتظ بمائة عامل ينامون على فرش مدت على الارض . وفي الطابق الثالث

من بيت الخنازير في مؤسسة جونز ، يوجد مستودع بدون نوافذ وقد احتشد فيه سبعمائة رجل ، ينامون ليلاً على اسرة عارية لتستخدمها نهاراً وردية ثانية مماثلة العدد . وحين تعالى احتجاج الرأي العام كثيراً وجاءت لجان لتفتيش هذه الحالات واضطر رئيس البلدية للامر بتنفيذ احكام القانون ، استطاع اصحاب دور التعليب تأمين قاض اصدر تعليمات قضائية تمنعه من فعل ذلك .

في هذا الوقت تماماً كان رئيس البلدية يتفاخر بأنه وضع حداً للقمار والمشاجرات في المدينة الا ان مجموعة من المقامرين المحترفين وبالاتفاق مع الشرطة بدأت تمارس سلب الخارجين على الاضراب . ففي اية ليلة ، وفي الارض الفضاءالكبيرة الواقعة امام مؤسسة براون كان بامكان المرء ان يرى زنوجاً مفتولي العضلات عارين حتى الخصور وهم يدقون بعضهم بعضاً من اجل المال . في حين تطل صفوف من الرؤوس ذات الشعر الصوفي من كل نافذة من نوافذ المعامل المحيطة . اجداد هؤلاء الزنوج كانوا عبيداً في افريقيا ، ومنذئذ وهم عبيد رق او يعيشون في مجتمع تسيطر عليه تقاليد العبودية . والآن ، وللمرة الاولى ، وجدوا انفسهم احراراً — احراراً في ان يطلقوا العنان لعواطفهم ، احراراً في ان يحطموا انفسهم . كان المطلوب منهم ان يفسدوا اضراباً ، وحين يتحقق هذا سيرحلون بعيداً . لن يراهم سادتهم الحاليون — بعد ذلك ابداً . وهكذا راحوا يأتون بالنساء والويسكي حمولات عربات .

يبيعونهم اياها ، ويطلقون العنان بها لنوع من الجحيم الحقيقي في المسالخ. ففي كل ليلة حوادث طعن بالخناجر واطلاق نار ، ويقال ان لدى اصحاب دور التعليب تصاريح فارغة يمكنهم بها نقل الجثث من المدينة دون ازعاج السلطات . كانوا يؤوون الرجال والنساء معاً في الطابق نفسه . فتبدأ في الليل العربدة والمجون ،حفل خالص للفسق والفجور — مشاهد لم ترها العين في امريكا قبل ذلك ابداً . وبما ان النساء كن من حثالة مواخير شيكاغو ، وكان الرجال في معظمهم من زنوج الريف الجهلة فسرعان ماانتشرت امراض الرذيلة التي لااسم لها انتشاراً واسعاً ، تماماً حيث تجرى معالجة الاغذية التي ترسل إلى كل ركن وزاوية من العالم المتمدن .

•

لم تكن « الزرائب الممتدة » في يوم من الايام مكاناً مريحاً ، لكنها الآن لم تعد مجموعة بيوت للذبح وحسب ، بل ايضاً مكان يخيم فيه جيش يعد خمسة عشر او عشرين الفاً من البهائم البشرية . فطول النهار ترسل شمس الصيف المحرقة اشعتها على ذلك الميل المريع من الاشياء البغيضة : عشرات الآلاف من رؤوس الماشية تكتظ في حظائر ارضيتها الخشبية تفوح بروائح نتنة وتنشر عدوى الامراض باتجاه خطوط السكك الحديدية العارية اللاذعة — المغطاة بخبث المعدن ، والمباني الضخمة التي تقوم فيها معامل اللحم القذرة والتي تتحدى ممراتها المتاهية ان تعبر نسمة هواء واحدة طريقها اليها . وليس هناك أنهار من الدم

الحار وحمولات عربات من اللحم الطازج ورواقيد إعداد ومراجل صابون وحسب ، بل هناك ايضاً معامل غراء وخزانات اسمدة تصدر روائح أشد نتانة من روائح الجحيم — كذلك هناك اطنان النفاية التي تتفسخ تحت اشعة الشمس ، وملابس العمال المغسولة وقد نشرت لتجف ، وغرف الطعام المسودة بأسراب الذباب ودورات المياه التي لم تكن أكثر من مجارير مكشوفة .

ثم يأتي الليل ، حين ينصب هذا الحشد في الشوارع كي يلهو — فيتعارك افراده ، يقامرون ، يشربون ويقصفون ، يسبون ويصرخون ، يضحكون ويغنون ، يلعبون البانجو (١) ويرقصون . كانوا يشتغلون في المسالخ طوال ايام الاسبوع السبعة وكانت لهم ملاكماتهم وشجاراتهم ، وحفلات قمارهم في ليالي الاحاد ايضاً ، لكن حينذاك وقرب الزاوية يمكن للمرء ان يرى ناراً تشتعل وزنجية عجوزاً شائبة الشعر ، نحيلة اشبه بساحرة شعرها متطاير وعيناها متقدتان وهي تصرخ وتترنم لنيران الهلاك ودم « الحمل » في حين يستلقي الرجال والنساء على الارض وهم يئنون ويصرخون متشنجين تشنجات الرعب والندامة .

هكذا كانت المسالخ اثناء الاضراب ، في حين كانت النقابات في يأس قاتم والبلاد تصرخ مثل طفل شره يطالب بطعامه وارباب دور

---

(١) البانجو : الة موسيقية .

التعليب ماضون في غيهم يعمهون . في كل يوم كانوا يضيفون عدداً جديداً من العمال ويصبحون أكثر قسوة مع القدامى — يمكن ان يشغلوهم بالقطعة ، ويطردوهم ان لم يماشوا وتيرة العمل . وقد بات جرجس أحد وكلائهم في هذه العملية ، بات بامكانه ان يحس بالتغير يوماً بعد يوم ، كما يحس بالاقلاع البطيء لتلك الآلة الضخمة . كذلك اعتاد ان يكون سيداً يأمر وينهي ، وبسبب الحرارة الخانقة والرائحة الكريهة والحقيقة الماثلة امام عينيه دائماً وهي انه مفسد اضراب وبسبب احتقاره لنفسه فقد كان يشرب ويزداد مزاجه سوءاً يوماً اثر يوم ، بل لقد بات يثور ويزمجر ويشتم عماله ، بات يلهبهم بسياط العمل ، يسرّعهم إلى ان يصلوا حافة الانهيار .

ذات يوم من اواخر آب ، دخل المراقب العام وهو يعدو طالباً إلى جرجس وورشته التوقف عن العمل واللحاق به . تبعه العمال إلى الخارج حيث رأوا وسط حشد غفير عدة عربات ذات حصانين تنتظر وثلاث عربات محملة برجال الشرطة . وثب جرجس ورجاله إلى واحدة من العربات ، ثم صرخ السائق بالحشد ومضوا يهدرون كالرعد تعدو الخيول بهم عدواً . كانت بعض الثيران قد فرت من الزرائب وكان المضربون قد امسكوا بها وكان هناك احتمال في ان يحدث شجار .

خرجوا من بوابة شارع آشلاند ، ثم مضوا في اتجاه « القمامة » وحالما باتوا على مرأى العين انطلقت صرخات بينما راح النساء والرجال

يخرجون من المنازل والحانات وهم يمرون بهم عدوا . كان هناك ثمانية او عشرة من رجال الشرطة في العربة وحين وصلوا إلى نقطة تعذر فيها المرور بسبب احتشاد الناس اطلق راكبو العربة المسرعة صرخات تحذير فتبعثر الحشد شذر مذر كاشفاً عن احد الثيران ملقى ارضاً وحوله بركة من الدم . فهناك الكثير من جزاري البقر الذين لاعمل لهم والذين ينتظرهم اولادهم الجائعون ، وهكذا طرح احدهم الثور ارضاً — وباعتباره جزاراً من الدرجة الاولى فقد كان باستطاعته ان يذبح الثور ويسلخه خلال دقيقتين . . لذا كان الثور قد فقد قدراً كبيراً من لحمه حين وصلت النجدة وهذا طبعاً يتطلب القصاص ، فمضى رجال الشرطة لإنزال القصاص بالمذنبين وقد فعلوا ذلك بأن وثبوا من العربة وهشموا كل رأس وقع تحت ايديهم . انطلقت صرخات الغضب والالم ، وبدأ الناس المذعورون الفرار إلى البيوت والمخازن ، او التفرق على غير هدى في الشوارع . انضم جرجس ورجاله إلى اللعبة ، وبدأ يستفرد كل رجل بضحيته ، ساعياً لمحاصرته في احدى الزوايا ، أما اذا فر إلى منزل من المنازل فقد كان بامكان مطارده ان يحطم الباب الهش ويلاحقه حتى السلم ضارباً كل من يجد في طريقه ، جاراً أخيراً ، فريسته الزامية من تحت سرير او كومة ثياب عتيقة في خزانة .

طارد جرجس وشرطيان معه بعض الرجال إلى داخل مشرب ، فاحتمى احدهم خلف البار ، حيث حشره شرطي في زاوية ومضى

يوجه له الضربات المتتالية على الكتفين والظهر إلى ان سقط ارضاً معرضاً بذلك رأسه للضرب . اما الآخرون فقد قفزوا فوق حاجز في المؤخرة يصدون الشرطي الثاني الذي كان سميناً . وحين رجع ، اندفعت امرأة بولندية ضخمة الجثة ، هي صاحبة الحانة ، غاضبة شاتمة صارخة فتلقت عصا على بطنها جعلتها تنقلب ارضاً . في تلك الاثناء كان جرجس الذي يتمتع بمزاج عملي ، يخدم نفسه في المشرب فانضم اليه الشرطي الذي طرح ضحيته ارضاً ثم بدأ باخراج الزجاجات وملء جيوبها بها ، بعدئذ وحين بدأ بالمغادرة مسح كل ماعلى الطاولة بضربة من هراوته . فهبت المرأة البولندية السمينة على صوت الزجاج المهشم الا ان شرطياً آخر جاء من ورائها ووضع ركبته في ظهرها ويديه على عينيها — بعدئذ نادى صاحبه الذي رجع وحطم درج النقود ثم ملأ جيوبه بمحتوياته . بعد ذاك خرج الثلاثة ، بينما دفع الشرطي الذي كان يمسك بالمرأة ضحيته دفعة قوية اسقطتها ارضاً واندفع هو خارجاً . كان رجال الورشة قد نقلوا الذبيحة إلى العربة من قبل ، وهكذا انطلقت الجماعة ، تلاحقها الصرخات واللعنات وزخات الحجارة والآجر من اعداء غير مرئيين . وقد ظهرت هذه الحجارة والآجر في صورة « شغب » ارسلت اخباره إلى مئات الصحف خلال ساعة او ساعتين ، الا ان قصة تحطيم الدرج ذهبت طي النسيان لاتذكرها الا حكايات باكنجتاون التي تمزق القلوب .

كان الوقت قد غدا ساعة متأخرة من الاصيل حين عادوا ، فسلخوا بقية الثور وثورين آخرين كانا قد قتلا ثم توقفوا عن العمل . ذهب جرجس إلى قلب المدينة كي يتناول عشاءه مع ثلاثة اصدقاء كانوا في العربات الاخرى وراحوا يتبادلون الذكريات على الطريق . بعدئذ دخلوا إلى صالة روليت حيث خسر جرجس ، الذي لم يكن يحالفه الحظ في القمار ، حوالي خمسة عشر دولاراً . ولكي يواسي نفسه كان عليه ان يشرب كثيراً ، وهكذا عاد إلى باكنجتاون حوالي الثانية صباحاً وهو في اسوأ حال .

في طريقه إلى المكان الذي ينام فيه ، قابل امرأة ذات وجنتين مطليتين بالمساحيق وكيمونوزاه . اسرعت اليه ولفت ذراعها حول خصره لتثبته ، ثم انعطفا إلى غرفة معتمة كان عليهما ان يمرا بها — لكن قبل ان يخطوا خطوتين انفتح باب فجأة ودخل رجل حاملاً مصباحاً «من هناك ؟» هتف بصوت حاد ، فشرع جرجس بالاجابة مهمهماً ، لكن في اللحظة ذاتها رفع الرجل المصباح الذي كان يتوهج في وجهه حتى بات بالامكان تميزه . وقف جرجس مندهلا ابكم تماماً يخفق قلبه كجناحي طائر مجنون . انه « كونور » .

كونور ، رئيس ورشة التحميل . . الرجل الذي اغوى زوجته — الرجل الذي بعث به إلى السجن ، حطم بيته ، دمر حياته . . ووقف هناك محملقاً يتوهج الضوء في عينيه .

كان جرجس كثيراً مايفكر بكونور مذ عاد إلى باكنجتاون ؛ غالباً ماكان يرى الامر كله شيئاً بعيداً وكأنه لايعنيه، اماالآن وحين رآه حياً يرزق ، فقد حدث له ماحدث من قبل . موجة عارمة من السخط اجتاحت كيانه ، غضب اعمى سيطر عليه فألقى بنفسه على الرجل مسدداً له ضربة شديدة بين العينين — ثم امسك ، وقد هوى الرجل ارضاً ، ببلعومه وبدأ يدق رأسه بحجارة الارض .

بدأت المرأة الصراخ وبدأ الناس بالتوافد . كان المصباح قد انقلب وانطفأ وهكذا كان الظلام شديداً إلى درجة تعذر معها رؤية شيء . كان بامكان المرء فقط ان يسمع لهاث جرجس ويسمع خبطات جمجمة غريمه على الحجارة . فاندفع الناس اليه يحاولون تخليصه . وكما حدث من قبل تماماً ، فقد خرجت اسنان جرجس بقطعة لحم من غريمه ، كما استمر يقاتل اولئك الذين تدخلوا في القضية إلى ان جاء شرطي راح يضربه بهراوته إلى ان فقد وعيه .

وهكذا قضى جرجس بقية الليل في مخفر باكنجتاون . لكنه كان يملك مالاً هذه المرة وحين عاد إلى وعيه طلب شيئاً يشربه كما ارسل رسالة إلى « بوش » هاربر يخبره فيها عن ورطته لكن هاربر لم يظهر الا بعد ان نودي على السجين ، الذي بدأ يشعر بكثير من الوهن والضعف ، إلى قاعة المحكمة وحكم القاضي باطلاق سراحه بكفالة مقدارها خمسمائة دولار ريثما تظهر نتائج الجروح التي اصيب بها غريمه . وجن جنون

جرجس ، فالقاضي الذي كان على القوس جديد تماماً وقد قال جرجس امامه انه لم يعتقل من قبل وانه كان يدافع عن نفسه ، أي لو وجد من يقول كلمة واحدة لصالحه اذن لاطلق سراحه في الحال .

لكن هاربر شرح له انه كان في قلب المدينة وان الرسالة لم تصله ، ثم سأله « ماالذي حدث ؟ . » فقال جرجس « لقد هشمت رجلاً وعلي ان ادفع خمسمائة دولار كفالة » . فقال الآخر . . « يمكنني ان ارتب لك ذلك تماماً . القضية قد تكلفك بضعة دولارات طبعاً . لكن ماهي المشكلة ؟ »

« انه رجل اساء إلي اساءة بالغة في يوم من الايام » اجاب جرجس .

« ومن هو ؟ »

« رئيس عمال في مؤسسة براون — او بالاحرى رئيس عمال سابق اسمه كونور » . فشهق الآخر صارخاً « كونور . . ايس فيل كونور ! ؟ »

« بل هو نفسه ، لماذا ؟ » قال جرجس

فهتف الآخر : « ياإلهي ! ! اذن فقد وقعت ، ايها الكهل . ليس بوسعي مساعدتك . »

« ليس بوسعك مساعدتي . . لم لا ؟ »

انه من اكبر رجال سكولي — وهو عضو في عصبة الترويج للحرب

وهم يتحدثون عن ارساله إلى المجلس التشريعي . . فيل كوبور :
يالهي ! ! »

وجلس جرجس وقد اخرسه الخوف .

« لماذا ؟ بامكانه ان يرسلك إلى جولييت (١) ان اراد ذلك » . صرّح الآخر . « لكن ألا يمكن لسكولي ان يخلصني قبل ان يكتشف حقيقة الامر ؟ » سأل جرجس اخيراً فأجاب الآخر : « سكولي خارج المدينة ، بل لااعرف اين هو . . فقد ابتعد كي يتخلص من الاضراب ومشكلاته . »

اذن فهي ورطة حقيقية . جلس جرجس المسكين زائغ البصر تقريباً . لقد وقع وكانت وقعته مع من هو اكبر منه . وقد انتهى الأمر . . اخيراً سأل بصوت واهن « : لكن ماالعمل ؟ »فأجاب الآخر . . «وأنى لي ان اعلم ؟ انا لااجرؤ حتى على تأمين كفالة لك — قد يحطمني ذلك إلى الابد . . . »

ومرة ثانية ساد الصمت . « ألا يمكنك ان تفعل ذلك من اجلي ؟ » سأل جرجس ، « ثم تدعي انك لم تكن تعرف ضحيتي ؟ »

« لكن ماالفائدة ؟ ستذهب إلى المحاكمة ؟ » ثم جلس غارقاً في التفكير لدقيقة او دقيقتين « ليس بوسعي فعل شيء . . . ان لم يكن

---

(١) جولييت : أي المقصلة .

هذا » . قال اخيراً . . « يمكنني ان اخفض لك الكفالة ، واذا كنت تمتلك المال يمكنك ان تدفعها ثم تفر .»

« كم ؟ » سأل جرجس بعد ان جعل هاربر يشرح له المسألة أكثر ، فقال الآخر :

« لاأدري . كم لديك من المال ؟ » .

« حوالي ثلاثمائة دولار » .

« حسن » اجاب هاربر « انا لست متأكداً . الا انني سأحاول اخراجك مقابل ذلك . سأغامر كرمى لصداقتنا فانا اكره ان اراك ذاهباً إلى سجن الولاية لمدة سنة او سنتين » .

وهكذا اخرج جرجس دفتر شيكاته — الذي كان قد خاطه في مكان ما من بنطاله — ووقع شيكاً ، بعد ان كتبه هاربر ، يقضي بأن يدفعوا اليه كل مايملك من مال . بعدئذ ذهب هذا إلى القاضي ثم شرح له ان جرجس شخص طيب وانه من اصدقاء سكولي ، هاجمه احد مفسدي الاضراب . وبذلك خفضت الكفالة إلى ثلاثمائة دولار : وقد كتبها هاربر بنفسه . الا انه لم يقل هذا لجرجس ولم يقل له انه حين يحين موعد المحاكمة سيكون من السهل عليه ان ينكر تزويره للكفالة ووضعه الثلاثمائة دولار في جيبه كمكافأة له على المخاطرة بالاساءة لمايك سكولي . كل ماقاله لجرجس هو ان انه بات حراً وان خير مايفعله

هو الفرار بجلده ، وبأسرع ما يستطيع . وهكذا اخذ جرجس بكثير من الامتنان والشكر الدولار والاربعة عشر سنتاً التي بقيت له من حسابه المصرفي ووضعها مع الدولارين والربع التي بقيت له من حفلة الليلة الماضية ، ثم استقل حافلة وانطلق إلى الطرف الآخر من شيكاغو .

— ٢٧ —

وعاد جرجس المسكين مرة اخرى شريداً متسكعاً . كان عاجزاً — عاجزاً فعلاً كأي حيوان فقد مخالبه او اخرج من صدفته . لقد جرد ، بضربة واحدة ، من كل الاسلحة الغامضة تلك التي كان قادراً بها على كسب معيشته والتملص من عواقب اعماله بسهولة ويسر . لم يعد بامكانه المطالبة بعمل حين يريد ذلك ولم يعد باستطاعته ممارسة الاختلاس وهو في حصن حصين — بل كان عليه الآن ان يجرب حظه مع بقية الناس والانكى من كل ذلك انه لم يعد يتجرأ على الاختلاط بالناس — كان عليه ان يتخفى ، ذلك انه اذا انكشف مرة تحطم إلى الابد . اصحابه القدامى سيغدرون به من اجل المال الذي سيكسبونه بفعلهم هذا . وسيجعلونه يعاني ، ليس بسبب الاساءة التي ارتكبها وحسب ، بل بسبب الآخرين الذين سيصطفون على بابه مطالبين باسترداد حقوقهم منه ، تماماً كما حدث لمسكين آخر بعد ذلك الهجوم الذي قام به هو على « تاجر الريف » ذاك .

كذلك بات يعمل وفي وجهه عائق آخر . لقد اعتاد على مستوى

معيشة معين لم يكن من السهل تبديله . فحين كان يطرد من العمل في الماضي ، كان يرضى . إذا تمكن من ايجاد مكان للمبيت في مدخل منزل او تحت عربة تقيه المطر ، وكان يفرح اذا استطاع توفير خمسة عشر سنتاً في اليوم ثمن غذائه في الحانة . اما الآن فقد بات يرغب بكل ضروب الاشياء الاخرى ويقاسي كل المقاساة لان عليه العيش بدونها . كان عليه ان يشرب من حين لآخر ، فالشراب غاية بحد ذاته ، ناهيك عن الطعام الذي لابد من تناوله مع الشراب الذي كان حنينه اليه قويا إلى درجة تكفي لالغاء كل اعتبار آخر — فعليه ان يشرب سواء كان ماسيدفعه مقابل ذلك هو آخر نيكل في جيبه أم لا ، أو سيهلك جوعاً بعد ذلك ام لا .

وعاد جرجس مرة اخرى مرتاداً منتظماً لابواب المصانع ، الا ان فرصة في الحصول على عمل لم تكن في يوم من الايام اقل مما هي عليه الآن . فمن جهة . كانت هناك الازمة الاقتصادية ، فهناك مليون او مليونان من العمال الذين طردوا من اعمالهم في الربيع والصيف ولم يعودوا بعد . ثم ، هناك الاضراب الذي ترك مايزيد على سبعين الف رجل وامرأة بلا عمل منذ شهرين كاملين ، عشرون الفاً منهم في شيكاغو يبحثون عن عمل في كل انحاء المدينة . ولم يُجده نفعاً ان الاضراب انتهى بعد بضعة ايام وان نصف المضربين عادوا إلى اعمالهم ، فمقابل كل عامل اعيد إلى عمله ، سرح مفسد اضراب واخرج إلى الشارع . وهكذا وجد العشرة او الخمسة عشر الفاً من«الزنوج» الاغرار «

والاجانب والمجرمين ، انفسهم بلا عمل . فحيثما يذهب جرجس يلتقي بهم . وكان يعاني اشد المعاناة خشية ان يعرف احدهم انه مطلوب . كان سيترك شيكاغو ، انما كان موقناً ان الخطر الوحيد عليه هو افلاسه وان خيراً له ان يذهب إلى السجن من ان يخرج إلى الريف وقت الشتاء .

بعد حوالي عشرة ايام وجد جرجس نفسه لايملك الا بضعة بنسات ولم يكن قد وجد عملاً بعد — لم يجد حتى عمل واحد في اي مجال ، ولافرصة واحدة لحمل حقيبة . ومرة ثانية وجد نفسه ، كما وجدها حين خرج من المستشفى ، مقيد اليدين والرجلين يواجه الشبح الرهيب ، شبح الموت جوعاً . فتملكه رعب فظيع قاتل ، اضطراب شديد لم يعد يفارقه لحظة واحدة انهكه وعذبه أكثر من حاجته الفعلية للطعام . سيموت من الجوع . . كان الشيطان يمد صوبه يديه الحرشفيتين — كانتا تلامسانه ، انفاسه في وجهه ، وهو يصرخ خوفاً منه يستيقظ في الليل ، يرتعد ، يتصبب عرقاً ثم ينطلق هارباً ويظل يمشي ، يستجدي عملاً — ، إلى ان يسقط اعياء . لم يكن يستطيع البقاء ساكناً فيتجول هنا وهناك مهزولاً ، يحدق حوله بعينين قلقتين ابداً . وحيثما يذهب من طرف المدينة إلى طرفها الآخر ، يجد مئات من امثاله ، ففي كل مكان باطلون عن العمل — ويد السلطة التي لاترحم تجرفهم بعيداً . هناك نوع من السجون يكون فيه الانسان داخل القضبان وكل مايرغب به خارجها ، وهناك نوع آخر تكون فيه الاشياء داخل القضبان وهو خارجها .

حين لم يبق لدى جرجس الا آخر ربع دولار ، علم ان اصحاب المخابز ، وقبل ان تغلق مخابزهم ابوابها ، يبيعون كل مايتبقى لديهم بنصف ثمنه ، فبات يذهب إلى هناك في مثل هذا الموعد ويحصل على رغيفين من الخبز « البائت » مقابل نيكل واحد ، ثم يكسرهما ويحشو بهما جيوبه قاضماً كسرة منهما بين الفينة والفينة . لم يكن ينفق بنساً واحداً على شيء غير هذا ، لكنه بعد يومين او ثلاثة وجد نفسه مضطراً لتوفير ثمن الخبز نفسه . كان يقف ويتفحص براميل القمامة وهو يمر بها في الشوارع ، ومن حين إلى آخر ينبش شيئاً ما ، ينفض عنه الغبار ويزيل الوسخ ثم يبدأ بالتهامه .

وهكذا ظل عدة ايام يتجول ، جائعاً طوال الوقت مزداداً هزالاً يوماً بعد يوم ، ثم حدثت له حادثة كريهة ذات صباح ، كريهة إلى درجة مزقت له قلبه . كان يعبر شارعاً فيه صف من المستودعات ، عرض عليه رئيس عمال احدها عملاً وبعد ان بدأ العمل ، طرده هذا لانه لم يكن قوياً كفاية ، فوقف جانباً ليشاهد بأم عينه رجلاً آخر يحل محله ، ثم امسك بسترته ومشى مبتعداً ، باذلاً كل جهده كيلا ينخرط في البكاء مثل طفل صغير . لقد ضاع ! ! حكم عليه بالهلاك ! ! ليس له أي امل ابداً ! ! لكن حينذاك وباندفاعة مفاجئة ، حل محل خوفه سخط شديد ، فانكب يسب ويشتم . سيعود إلى هناك بعد حلول الظلام وسيرى ذلك الوغد ان كان يصلح لشيء ام لايصلح . .

كان مايزال يدمدم بهذا الكلام حين وصل فجأة إلى بقالية عند الزاوية وعلى لوح كبير فيها عرض مقدار كبير من الملفوف . نظر جرجس نظرة سريعة حوله ، ثم انحنى وامسك بأكبر ملفوفة وانطلق ليغيب في المنعطف . سمع خلفه ضجة وصرخات اذ انطلق في اثره الاولاد والرجال وبدؤوا يطاردونه الا انه وصل إلى زقاق فرعي ثم إلى آخر يتفرع عنه اوصله إلى شارع بعيد تماماً ، بدأ يمشي فيه بهدوء وقد اخفى ملفوفته تحت سترته غارقاً بين الزحام وحين اجتاز مسافة أمان كافية جلس على الرصيف والتهم نصف الملفوفة . هكذا كما هي ثم خبأ البقية في جيوبه حتى اليوم التالي .

في ذلك الوقت تماماً فتحت احدى الصحف ، التي كانت قد صنعت شعبية كبيرة لها ، مطبخ حساء حر لصالح الباطلين عن العمل — بعض الناس قالوا انها فعلت هذا من اجل الاعلانات التي ستستفيدها من العملية والبعض الآخر قال ان الدافع هو الخوف من ان يهلك جميع قرائها جوعاً ، لكن اياً كان السبب ، فقد كان الحساء جيداً وحاراً ، وكانت هناك زبدية منه لكل امرىء كل ليلة . حين سمع جرجس بهذا من متشرد آخر — اقسم انهسيحصل على نصف دستة من الزبديات قبل شروقالشمس. لكنه تبين انه كان محظوظاً كل الحظ حينحصل على زبدية واحدة ، فقد كان هناك رتل من الناس يمتد مئات الامتار و كان مايزال هناك رتل طويل تماماً حين اغلق المحل أبوابه .

على أن هذا المحل كان ضمن هامش الخطر بالنسبة لجرجس — انه في منطقة « ليفي » حيث كان جرجس معروفاً . إلا أنه ذهب إليه فقد بات الأمر سيان . لقد بلغ أقصى حدود اليأس بل بدأ يفكر «ببريدويل» كملجأ ينقذه مما به . حتّى ذلك الحين كان الطقس مايزال حسناً ، وكان ينام كل ليلة في العراء ، في أية فسحة خاوية يجدها . لكن الآن ، بدأ ظل من ظلال الشتاء القادم يلوح في الجو ، ريح باردة من الشمال ، عاصفة مطر غزيرة ، وما إلى ذلك . في ذلك اليوم ، اشترى جرجس كأس شراب بهدف ايجاد مأوى له ، وفي الليل أنفق آخر بنسين يملكهما « في حانة بيرة عفنة المذاق»وهي حانة يديرها زنجي يسحب الحثالة القديمة لما يتبقى من بيرة في البراميل التّي تلقى خارج الحانات ، وبعد أن يعالجها بالمواد الكيماوية يصنع منها « شراباً » يبيع كل علبة منه بسنتين ، كما أن شراء العلبة يتضمن حق النوم طوال الليل على الأرض جنباً إلى جنب مع جملة مشردين بائسين من النساء والرجال .

هذه الأهوال كلها أثرت على نحو أشد قسوة ومرارة في جرجس إذ كان دائماً يقارنها بالفرص التّي أضاعها . مثال على ذلك ، كان موعد الانتخابات قد عاد مرة ثانية ، فخلال خمسة أو ستة أسابيع كان المنتخبون في طول البلاد وعرضها سيدلون بأصواتهم لانتخاب رئيس للجمهورية . ولقد سمع ذلك من المتشردين الذين كان يصحبهم ورأى شوارع المدينة مزينة بالملصقات والأعلام — فهل يمكن لكلام أن يصف سهام الحزن واليأس التّي اخترقت فؤاده ؟ .

وهناك مثال آخر : ذات يوم ظل يتسول طوال النهار كي يكسب مايقيم أوده لكن دون أن يجد من يلقي بالاً له . قبيل المساء شاهد عجوزاً تخرج من حافلة ترام فساعدها في حمل مظلتها وصررها وعندما حكى لها قصته ، قصة الحظ التعس ، وأجاب على أسئلتها المتشككة على نحو مرضٍ ، أخذته إلى مطعم حيث قدمت له وجبة دفعت ثمنها ربع دولار ، تناول فيها حساء وخبزاً ، بيضاً مسلوقاً وبطاطا وبازلاء وفطيرة وقهوة ثم خرج وقد حشي جلده تماماً ككرة قدم . بعدئذ ، وعبر العتمة والمطر ، رأى بعيداً في الشارع أضواء حمراء تتوهج وسمع دقة صنج نحاسي فوثب قلبه من بين أضلاعه وانطلق إلى المكان يعدو عدوا — عارفاً دون حاجة لسؤال أنه اجتماع سياسي .

كانت الصحف قد وصفت الحملة حتى ذلك الحين بـ « اللامبالاة » . فلسبب ما ، رفض الناس الاهتمام بالصراع ، وكان من المستحيل تقريباً أن تأتي بأحد منهم إلى اجتماع سياسي أو تفتعل بهم أية ضجة . لذا أتسمت الاجتماعات التي عقدت في شيكاغو حتى ذلك الحين بالفشل الذريع . وكان المشرفون على هذه العملية يرتعدون فرقاً خشية أن يفشل الاجتماع أيضاً رغم أن الخطيب الذي سيحضره لايقل عن مرشح لمنصب نائب الرئيس . إلا أن العناية الالهية أرسلت عاصفة المطر الباردة هذه ، وكل مايلزم فعله الآن هو اطلاق بعض الألعاب النارية والدق حيناً

من الزمن على الطبل ، فيتدفق كل الرعاع والمشردين المتواجدين على بعد ميل ويملؤون الصالة . . وفي الغداة تتاح الفرصة للصحف كي تنشر صور التجمع الهائل وتضيف أنه احتشد جمهور كبير للغاية وتثبت تماماً أنها قادرة على دغدغة مشاعر المرشح العظيم .

وهكذ وجد جرجس نفسه في قاعة كبيرة مزينة على نحو متقن بالاعلام وأوراق الزينة . ألقى عريفا الحفل خطاباً قصيراً ثم نهض خطايب الأمسية بين تصفيق الحضور وهتافهم – لكن تصور فقط ما شعربه جرجس من أحاسيس لدى اكتشافه أن تلك الشخصية ليست إلاالسناتور الشهير والخطيب المفوه سبير شانكز الذي كان قد خطب في رابطة دويل الجمهورية في منطقة المسلخ وساعد في انتخاب مرشح مايك سكوليإلى مجلس شيكاغو التشريعي .

بالحقيقة، لم يستطع جرجس لدى رؤيته السناتور ، أن يمنع عينيهمن ذرف الدموع . فأي عذاب ياترى أن ينظر إلى الماضي ، إلى تلك الساعات الذهبية ، حين كان له ، هو الآخر مكان على منصة الشرف . حين كان هو الآخر ممن ينتخبون ، ممن تحكم البلاد من خلالهم . حين كان له ثقب في برميل الحملة خاص به . . . والآن هاهو ذا انتخاب آخر سيوزع الجمهوريون فيه كل المال ، ولولا ذلك الحادث الكريه اذن لكان له نصيب فيه بدلاً من أن يقبع حيث هو . .

كان السناتور المفوه يشرح نظام الحماية ، وهو تدبير عبقري يتيح به العامل لصاحب المصنع أن يحمّله أسعاراً أعلى مقابل حصوله على أجور أعلى وبذلك يأخذ نقوده بيد ليرجعها له باليد الأخرى . بالنسبة للخطيب ، كان هذا الترتيب قد أصبح مماثلاً لحقائق الوجود العليا فبسببه باتت كولومبيا (١) جوهرة المحيط ، وكل انتصاراتها في المستقبل ، كل قوتها وسمعتها الطيبة بين الأمم تتوقف على الاخلاص والحماس الذي يشعر به كل مواطن لدى أولئك الذين يعملون دائبين للحفاظ عليها ودفعها قدماً دائماً .

هنا بدأت الجوقة الموسيقية تعزف ، وانتصب جرجس منتفضاً انتفاضة عنيفة فرغم ماكان فيه من وحدة كان جرجس يبذل محاولات يائسة لفهم مايقوله الخطيب — لفهم مضمون الازدهار الامريكي . الامتداد الهائل للتجارة الأمريكية ومستقبل الجمهورية في المحيط الهادي وجنوبي أمريكا وفي كل مكان آخر تسمع فيه أنات المضطهدين . سبب محاولاته هذه هو أنه كان يريد البقاء مستيقظاً . كان يعلم أنه إذا ماسمح لنفسه بالنوم فانه سيبدأ بالشخير عالياً ، لذا كان عليه أن يصغي — كان يجب أن يهتم . . لكنه كان قد تناول عشاء فاخراً وكان في غاية الاعياء وكانت الصالة دافئة ومقعده مريحاً تماماً . . فبدأت هيئة الخطيب الأنيقة

---

(١) نسبة إلى كولومبوس أي : أمريكا .

تغيم أمام عينيه ، بدأت تعلو أمامه كالبرج وتتراقص مع أشكال أخرى من كل صنف ولون . وحين لكزه جاره لكزة عنيفة بين أضلاعه ، انتصب مجفلاً ، محاولاً أن يظهر بمظهر البريء ، لكنه سرعان ماعاود الكرة ثانية وبدأ الناس حوله يحدقون إليه بانزعاج يصيحون به في ضيق شديد . أخيراً دعا أحدهم شرطياً جاء فأمسك بياقة جرجس ثم قذفه عن المقعد . فوقف جرجس مذهولاً مذعوراً . التفت بعض الحضور لمعرفة مصدر الضجة وتلكأ السناتور في خطابه ، إلا أن صوتاً — صاح هاتفاً : « نحن فقط نطرد متشرداً ، هيا امضِ أيها العجوز » وهكذا زأر الحشد ضاحكاً فابتسم السناتور بمرح ثم تابع خطابه ، وخلال بضع ثوان وجد جرجس المسكين نفسه ملقى أرضاً تحت المطر مع رفسة على قفاه وسيل من الشتائم واللعنات .

قصد جرجس على الفور مدخل مبنى والتجأ إليه . لم يكن قد أصيب بأذى ولم يلق عليه القبض — انه أكثر مما يتوقع . لعن نفسه وحظه حيناً من الزمن ثم اتجهت أفكاره إلى واقعه الفعلي . لم يكن لديه نقود . ولا موضع يبيت فيه ، وكان عليه أن يبدأ التسول مرة ثانية .

خرج جرجس زاماً كتفيه معاً مرتعشاً من لسة المطر البارد كالجليد . كانت تعبر الشارع باتجاهه سيدة حسنة الهيئة تحمل مظلة فدار على عقبيه وسار بحذائها ثم بدأ « من فضلك ياسيدتي : هل تقرضينني ثمن مبيت الليلة . أنا عامل فقير — » .

وفجأة توقف عن الكلام . فعلى ضوء مصباح الشارع لمح وجه السيدة وعرفها .

انها ألينا جازتيبيت التي كانت ملكة جمال عرسه ، ألينا التي كانت تبدو في غاية الجمال وترقص كأروع مايكون الرقص مع جوزاس راتزيوس ، سائق الشاحنة . كان جرجس قد رآها مرة أو مرتين بعد ذلك فقد استبدل بها جوزاس فتاة أخرى وغابت ألينا عن باكنجتاون ، ذهبت إلى حيث لايعلم أحد . والآن هاهو ذا يلتقي بها هنا . .

وكما فوجىء رودكوس فوجئت هي فصاحت شاهقة « جرجس رودكوس ما الذي حل بك ياترى ؟ » فتلعثم « أنا . . أنا . . أصابني سوء حظ ، خرجت من عملي . ليس لدي بيت ولا مال . وأنت ياألينا هل تزوجت ؟ » .

« كلا » أجابته ألينا « أنا لم أتزوج إلا أن لدي مكاناً جيداً » .

ثم وقفا يحدق واحدهما إلى الآخر بضع لحظات . أخيراً تكلمت الينا مرة ثانية . .

« جرجس كنت سأساعدك لو استطيع ، قسماً كنت سأساعدك ، لكن حدث انني خرجت بدون نقودي واقسم لك انني لااملك بنساً واحداً . مع ذلك يمكنني ان افعل شيئاً افضل بالنسبة لك — يمكنني ان اقول لك كيف تحصل على مساعدة . يمكنني ان اخبرك اين هي ماريا . »

فانتفض جرجس شاهقاً : « ماريا »

فقالت الينا : اجل وهي ستساعدك . لديها مكان وهي تعمل جيداً ولسوف تسر كل السرور حين تراك .

لم يكن قد انقضى أكثر من عام على اليوم الذي غادر فيه جرجس باكنجتاون وهو يشعر وكأنه يفر من سجن . كان يومها يفر من ماريا والزبيبتا وكل فرد من افراد العائلة لكن الآن وبمجرد ذكرهم ضج كيانه كله فرحاً . كان يود رؤيتهم . كان يود ان يذهب إلى البيت ! فهم سيساعدونه — سيكونون لطيفين معه . وبلمحة عين كان قد فكر بالوضع كله — كان لديه عذر مناسب لهروبه — حزنه على وفاة ابنه كما كانت لديه حجة مناسبة لعدم عودته وهي رحيلهم عن باكنجتاون فقال « حسناً ، سأذهب . »

وهكذا اعطته رقماً في شارع كلارك ثم اضافت . . « لاداعي لاعطائك عنواني ، ماريا تعرفه » وانطلق جرجس ، دون مزيد من الضوضاء .

وجد في العنوان منزلاً حجرياً كبيراً ذا مظهر ارستوقراطي . رن الجرس فجاءت فتاة ملونة إلى الباب ، فتحته قرابة البوصة ، حدقت اليه بشيء من الريبة ثم سألته :

« ماذا تريد ؟ » .

فسألها « هل تقطن ماريا برجنيسكاس هنا ؟ »

« لاأعرف » ، قالت الفتاة « ماذا تريد منها ؟ » .

فأجابها : « اريد ان اراها . انها قريبتي »

.ترددت الفتاة لحظة — ثم فتحت الباب وقالت « ادخل » دخل جرجس ثم وقف في الصالة فاستأنفت : « سأذهب لاراها . ماهو اسمك ؟ » .

« قولي لها جرجس » ، اجابها فصعدت الفتاة الدرج ثم عادت خلال دقيقة او اثنتين قائلة : « لاأحد هنا بهذا الاسم . »

وشعر جرجس بقلبه يهوي بين جنبيه ثم صاح — لقد قالوا لي انها تسكن هنا لكن الفتاة اكتفت بهز رأسها . . « السيدة تقول انه لايوجد احد هنا بهذا الاسم . »

وقف لحظة من الزمن ، متردداً ، يائساً ، خائفاً . ثم دار على عقبيه ينوي الخروج لكنه في اللحظة نفسها ، سمع قرعاً على الباب ، فمضت الفتاة اليه . عند ذاك لفت انتباه جرجس حركة صاخبة لأقدام عديدة ، ثم سمع الفتاة وهي تطلق صرخة . وفي اللحظة التالية وثبت إلى الوراء ثم اجتازته وقد ابيضت عيناها رعباً وهلعاً وراحت تقفز الدرج قفزاً ، صارخة ملء صوتها : « شرطة ! شرطة ! غارة ! »

ولثانية من الزمن وقف جرجس متحيراً ثم وثب خلف الزنجية

وهو يرى ذوي البذلات الزرقاء يندفعون إلى الداخل . كانت صرخاتها اشارة لبدء ضجة شديدة في الأعلى ، فقد كان المنزل غاصاً بالناس وحين دخل الصالة رآهم يتدافعون هنا وهناك ، صارخين زاعقين انذاراً للآخرين . كان هناك رجال ونساء وليس على هؤلاء إلا ازارات أما اولئك فكانوا في شتى مراحل العري . في أحد الجوانب لمح جرجس جناحاً كبيراً فيه كراسي مغطاة بالمخمل وطاولات مغطاة بالصينيات والكؤوس – وكان هناك ورق لعب مبعثر في كل مكان من الأرض – وقد قلبت احدى الطاولات فتدحرجت زجاجات الخمرة في كل مكان وانساحت محتوياتها على السجاد كما كانت فتاة شابة قد أصيبت بالاغماء وكان رجلان يسندانها وحوالي دستة رجال يزحم بعضهم بعضاً باتجاه الباب الأمامي .

لكن فجأة ، جاءت من ذلك الاتجاه سلسلة ضربات مدوية على الباب جعلت الحشد ينكص على أعقابه ، وفي اللحظة نفسها جاءت امرأة بدينة ، مطلية الوجنتين ، في أذنيها أقراط من ماس ، وهي تعدو الدرج عدواً ، لاهثة مقطوعة الأنفاس : « إلى المؤخرة ، بسرعة » .

ثم قادت الجمع إلى السلم الخلفي فلحق بها جرجس . في المطبخ ضغطت على نابض فتراجعت خزانة ثم انفتحت كاشفة عن ممر مظلم . . « ادخلوا » صرخت بالحشد الذي بات عدده حوالي الثلاثين والذي بدأ العبور خلال ذلك الممر غير أنه لم يختف آخر واحد منهم حتى جاءت

الصرخات من الامام وبدأ الحشد بالتدفق عائداً مرة ثانية « انهم هناك .. لقد وقعنا في الفخ » .

« إلى الطابق العلوي » صرخت المرأة وحدث اندفاع آخر للحشد ، نساء ورجالاً ، وهم يشتمون ويصرخون ويعاركون وكلهم يود أن يكون في المقدمة . منبسط درج ، منبسطان ، ثلاثة — ثم وجدوا أنفسهم أمام سلم يفضي إلى السطح وحشد عند أسفله ، بينما كان رجل في أعلاه يحاول فتح باب السقف .إلا أن الباب لم ينفتح ، لم يتحرك وحين صرخت به المرأة « فك رتاجه » أجابها : « لقد فككته من قبل . . ثمة أحد يجلس عليه » .

بعد لحظة ، جاء صوت من الأسفل. «يستحسن أن تقلعوا عن محاولتكم أيها الناس . هذه المرة المسألة جدّ تماماً » .

وهكذا استسلم الحشد ، وخلال بضع لحظات جاء عدد من رجال الشرطة يتفحصون هنا وهناك وينظرون بسخرية إلى ضحاياهم الذين كان من بينهم رجال في أشد حالات الذعر . بينما كانت النسوة لامباليات ينظرن للمسألة وكأنها مزحة اعتدن عليها — مع ذلك فقد كن شاحبات الوجوه رغم أنه يصعب القول أكان ذلك بسبب الخوف أم بسبب طلاء الوجوه . نظر جرجس حوله فرأى فتاة ذات عين اسودّ ماحولها وقد انحنت من أعلى الدرابزون وراحت ترفس بقدمها خوذ الشرطة ، إلى أن أمسك بها أحدهم من كاحلها وسحبها أرضاً . وعلى

أرض الصالة كان هناك أربع أو خمس فتيات أُخريات جلسن على حقائب وهن يسخرن من الموكب الذي يمر بهن واحداً واحداً ضاجات صاخبات فبدا واضحاً أنهن ثملات . كانت احداهن تلبس « كيمونو » أحمر زاهياً . وكانت تصرخ وتزعق بصوت طغى على جميع الأصوات الأخرى — لمحها جرجس فأجفل ، ثم صرخ : « ماريا » .

سمعته ، فتطلعت فيما حولها . رأته فانكمشت على نفسها أولاً ، ثم كادت تثب على قدميها دهشة ، وأخيراً هتفت شاهقة : « جرجس. . »

ولثانية أو ثانيتين وقفا يحدق واحدهما إلى الآخر ثم هتفت ماريا متعجبة « كيف جئت إلى هنا ؟ » .

فأجاب « جئت لأراك » .

« متى ؟ »

« تواً »

« لكن كيف عرفت — من أخبرك أني هنا ؟ »

« ألينا جازيتيت . لقد قابلتها في الطريق »

ومرة ثانية ساد الصمت بينما راح واحدهما يتأمل الآخر . كان الحشد كله يراقبهما وهكذا نهضت ماريا واقتربت منه أكثر فسألها جرجس « وأنت ؟ هل تعيشين هنا ؟ » .

فأجابت ماريا « أجل ، أعيش هنا »

عندذاك جاءت صيحة من الأسفل « والآن البسن ملابسكن أيتها الفتيات وعدن مباشرة . ومن الأفضل أن تبدأن أو ندمتن ، فهي تمطر في الخارج ».

« برر . . . ر ر . . » ارتعش أحدهم برداً ، فنهضت النساء وبدأن يدخلن مختلف الأبواب التي تنفتح على الممر .

« تعال » قالت ماريا ثم ادخلت جرجس إلى غرفتها وهي مكان صغير بطول ثمانية أقدام وعرض ستة أقدام ، فيها سرير ضيق و كرسي ومشجب ثياب علقت عليه بعضها ، بينما كان البعض الآخر مبعثراً على الأرض ، وفوضى عجيبة في كل مكان – علب حمرة ، زجاجات عطر وقد اختلطت بالقبعات ، صحون سجائر ، وعلى الكرسي كان ثمة خف وساعة حائط وزجاجة وسكي .

لم يكن على جسم ماريا شيء سوى كيمونو وزوج من الجرابات الطويلة ، مع ذلك مضت تلبس ثيابها أمام جرجس ، دون أن تزعج نفسها حتى باغلاق الباب ، في تلك اللحظة كان جرجس قد عرف تماماً نوع المكان الذي وجد نفسه فيه . إذ كان قد رأى الكثير من الدنيا مذ ترك بيته ولم يكن يصدم بسهولة – مع ذلك ، فقد سبب له اكتشافه لوضع ماريا إجفالة مؤلمة ، ماريا تفعل هذا ؟ لقد كانوا دائماً أناساً شرفاء فهل نسيت ماريا تلك الأيام القديمة ، لكنه بعد ذاك ضحك من نفسه

لحماقته ، من هو ياترى كي يدعي الشرف والعفة ؟ . . « منذ متى تعيشين هنا ؟ . » سألها جرجس .

فأجابت « حوالي السنة »

ولماذا جئت ؟ .

فقالت : « كان علي أن أعيش . لم يكن باستطاعتي أن أرى الأطفال وهم يموتون جوعاً » .

وللحظة من الزمن توقف يراقبها ثم سألها أخيراً : « هل طردت من العمل ؟ »

فأجابت « مرضت . بعد ذاك وجدت نفسي بلا نقود ، ثم مات ستانسلوفاس » . . . « ستانسلوفاس مات ! ؟ . »

« أجل . نسيت . أنت لاتعرف شيئاً عن ذلك » .

« كيف مات ؟ »

« قتلته الجرذان »

« قتلته الجرذان ! ؟ » صاح جرجس شاهقاً

« أجل » قالت الأخرى ، وهي تنحني لتربط حذاءها « كان يعمل في مصنع زيوت — أو بالأحرى كان يستأجره الرجال ليأتي لهم ببيرتهم — وكان معتاداً أن يحمل العلب على سارية طويلة ، وكان يشرب

قليلاً من كل علبة . وذات يوم أفرط في الشراب فسقط نائماً في احدى الزوايا حيث ظل طوال الليل ، وحين وجدوه في اليوم التالي كانت الجرذان قد أتت عليه تقريباً » .

فجلس جرجس وقد جمده الخوف ، بينما استمرت ماريا تربط حذاءها ، وساد صمت طويل . فجأة جاء شرطي ضخم الجثة إلى الباب صارخاً : « هيا ، اسرعي ، أنت » .

فقالت ماريا « — بأسرع ماأستطيع » ثم وقفت وبدأت تلبس مشدها بسرعة محمومة .

« وبقية جماعتنا ؟ أما يزالون أحياء ؟ سأل جرجس أخيراً »

« أجل »

« أين ؟ »

« قريباً من هنا . انهم على مايرام الآن »

فتساءل : « هل يعملون ؟ »

« إلزبييتا تعمل حين يتسنى لها ذلك . أنا أتعهد بهم معظم الوقت—انني أكسب مالاً كثيراً هنا » .

صمت جرجس لحظة من الزمن ثم سألها : « هل يعرفون أنك تعيشين هنا — هل يعرفون كيف تعيشين ؟ » .

« الزبيبيتا تعرف . لم أستطع أن أكذب عليها ، وربما اكتشف الأطفال الحقيقة الآن . . على أي حال . . أنا لست خجلى من ذلك . . لم يكن باستطاعتي الحيلولة دونه » وتاموزيوس ؟ . . « هل يعرف ؟ » فهزت ماريا كتفيها ثم قالت « وأنى لي أن أعلم ؟ أنا لم أره منذ أكثر من عام . لقد أصيب بتسمم في الدم وفقد على أثره احدى أصابعه ولم يعد باستطاعته العزف على الكمان فرحل بعيداً » . كانت ماريا تقف أمام المرآة تزرر فستانها بينما جلس جرجس يحدلق بها . بصعوبة بالغة كان يصدق أن هذه هي نفس المرأة التي عرفها في تلك الأيام البعيدة . كانت هادئة تماماً — قاسية تماماً . . وقد انغرز الخوف عميقاً في قلبه خوفاً من أن يراقبها .

بعدئذ رشقته بنظرة سريعة ثم قالت : « تبدو وكأنك أنت أيضاً مررت بأحوال صعبة ».

فأجاب « أجل . . ليس لدي سنت واحد في جيبي ، وليس لدي ما أفعله » .

« وأين كنت ؟ »

« في كل مكان . كنت مشرداً أطوف البلاد . . ثم عدت إلى المسلخ — تماماً قبل الاضراب . . وتوقف لحظة متردداً ثم أضاف « سألت عنكم فوجدت أنكم قد رحلتم إلى حيث لايعلم أحد . ربما تظنون أنني خدعتكم خدعة قذرة بفراري ذاك ، ماريا — »

فأجابت ماريا « لا . . . أنا لا ألومك . . بل لم يلمك أحد منا . لقد بذلت مافي وسعك ـ كان العمل كثيراً علينا » . وتوقفت لحظة ثم أضافت :

« نحن جهلة . نحن في غاية الجهل ، وتلك هي المشكلة . نحن لم نستطع اقتناص أية فرصة ولو كنت أعلم ما أعلمه الآن اذن لفزنا بالكثير » .

فقال جرجس « أكنت ستأتين إلى هنا ؟ »

« أجل » قالت ماريا « لكن ليس هذا ما أقصده . أقصدك أنت ـ كم كان سلوكك سيختلف ـ بالنسبة لأونا » .

فصمت جرجس . لم يكن قد فكر أبداً بهذا الجانب .

فتابعت ماريا « حين يتضور الناس جوعاً ويكون في حوزتهم شيء ذو ثمن ، عليهم أن يبيعوه . هذا رأيي . وأظن أنك تفهم الآن ذلك لكن بعد أن فات الأوان . فقد كان باستطاعة أونا أن تتعهدنا جميعاً بالرعاية ، في البداية تلك » .

كانت ماريا تتكلم دون أثر من عاطفة ، كأي انسان بات ينظر إلى الأشياء من وجهة نظر عملية .« أجل . . أظن ذلك » ، أجاب جرجس متردداً ، انما لم يضف أنه دفع ثلاثمائة دولار وخسر وظيفته كرئيس عمال لكي يرضي نفسه بطرح فيل كونور أرضاً للمرة الثانية .

في تلك اللحظة عاد الشرطي إلى الباب من جديد قائلاً : « هلمي الآن أيتها النشطة . . » « حسناً » ، قالت ماريا وهي تمد يدها لقبعة كبيرة تشبه قبعة رئيس الطبالين ، مزينة كلها بريش النعام . ثم خرجت إلى الصالة وتبعها جرجس بينما ظل الشرطي في الغرفة يفتش تحت السرير وخلف الباب .

« ماذا سينجم عن هذا كله ؟ » سأل جرجس وهما ينزلان الدرج

« تعني الغارة ؟ أوه — لاشيء — فهذا يحدث لنا بين الحين والحين . المدام ، لديها ترتيباتها مع الشرطة ، لا أعرف ماهي ، إلا أنها قد تنهي المسألة برمتها قبل الصباح . على أي حال لاتخف فلن يمسك أحد بسوء. فهم يطلقون سراح الرجال دائماً » .

فأجاب على الفور « ربما ، لكن بالنسبة لي . . أخشى أن أكون قد انتهيت » .

« ماذا تعني ؟ . » .

« أنا مطلوب من قبل الشرطة » ، قال خافضاً صوته ، رغم أن محادثتهما تدور باللغة الايتوانية طبعاً . « وأخشى أن يرسلوني إلى السجن سنة أو سنتين » . فقالت ماريا «يا للجحيم . . ذاك أمر في غاية السوء . اذن سأحاول تخليصك من هذه الورطة » .

في الطابق السفلي ، حيث كان يحتشد القسم الأكبر من المساجين سعت ماريا للوصول إلى تلك الشخصية البدينة ذات الأقراط الماسية ، ثم همست بضع كلمات في أذنها فاقتربت هذه من رقيب الشرطة المسؤول عن الغارة ثم قالت مشيرة إلى جرجس « بيلي ، ثمة شخص دخل لرؤية أخته . كان تماماً قد دخل من الباب حين طرقتم أنتم . أنتم لاتعتقلون متشردين أليس كذلك ؟ » فضحك الرقيب وهو يتطلع إلى جرجس ثم قال « آسف . لكن الأوامر تقضي باعتقال الجميع ماعدا الخدم » .

وهكذا حشر جرجس بين بقية الرجال الذين كان بعضهم يروغ خلف البعض الآخر كشياه شمت رائحة ذئاب . كان بينهم الشاب والكهل ، طالب الجامعة والعجوز الذي يمكن أن يكون جده ، بعضهم كان يرتدي بذلة المساء — ولم يكن من بينهم واحد تبدو عليه سيماء الفقر سوى جرجس .

حين انتهوا من الجولة التفتيشية الأخيرة ، فتحت الأبواب ، وخرجت الجماعة إلى حيث كانت تقف ثلاث عربات دورية عند الرصيف ، وكان كل من في الجوار قد خرجوا للتفرج وراحوا يمازحون الموكب مشرئبي الأعناق . كانت النسوة ينظرن فيما حولهن بأعين ملؤها التحدي أو يضحكن ويمزحن ، بينما كان الرجال يسيرون خافضي الرؤوس يحاولون ستر وجوههم بقبعاتهم . صعد الجميع إلى

عربات الدورية حتى اكتظت بهم وكأنما هي حافلات ترام ثم انطلقوا أخيراً وسط ضجيج من الهتافات والصيحات . في المخفر أعطاهم جرجس اسماً بوالندياً فحشر في زنزانة مع نصف دستة من الرجال الآخرين وبينما جلس هؤلاء وراحوا يتحدثون همساً استلقى هو في احدى الزوايا وأطلق لافكاره العنان .

كان جرجس قد رأى أسفل درجات الحضيض الاجتماعي وكان قد اعتاد على رؤيته لذلك الحضيض والعيش فيه ، لكنه حين كان يفكر بأن البشرية كلها قذرة فاسدة بغيضة كان يرى دائماً ، ان هناك عائلته التي يحبها ويثق بنقائها ــ والآن هاهو ذا يكتشف اكتشافه المفاجيء المريع هذا ــ ماريا عاهرة ! ! إلزبييتا والأولاد يعيشون من ثمن عارها ! كان بامكان جرجس أن يناقش في سره كل مايشاء ، ان يناقش أنه أساء التصرف وأنه أحمق ــ إلا أنه لم يستطع أبداً ان يتجاوز ذلك الاكتشاف المفاجيء . لم يستطع منع نفسه من الغرق في لجة الحزن بسبب هذا الاكتشاف . كانت أعماقه ذاتها قد اضطربت وارتجت ، الذكريات أثيرت بعد أن رقدت زمناً طويلاً إلى درجة ظنها قد ماتت . ذكريات الحياة القديمة ــ آماله القديمة تشوقاته ، أحلامه بالشرف والاستقلال . . ورأى أونا ثانية ، سمع صوتها الرقيق وهي تتوسل إليه . رأى انستاناس الصغير الذي كان يود أن يصنع منه رجلاً .

رأى والده العجوز المرتعش الذي كان يباركه دائماً بحبه الرائع . ومرة ثانية عاش يوم الرعب ذاك حين اكتشف عار أونا — يالله ! ! كم عانى ! ! أي مجنون كان ! ! كم بدا له كل شيء مرعباً حينذاك ! ! والآن في هذا اليوم ، جلس وأنصت شبه موافق على تصرف ماريا وعلى قولها له أنه كان أحمق . أجل لقد قالت أنه كان عليه أن يبيع شرف زوجته ويعيش بثمنه — ثم كان هناك ستانسلوفاس — ومصيره المروع — القصة الموجزة التي روتها له ماريا بكل هدوء ، بلامبالاة متبلدة هكذا ! ! ذلك الصغير المسكين ، بأصابعه التي أودى بها الصقيع ، بخوفه من الثلج — صوته وهو يعول رن مرة ثانية في اذن جرجس ، وهو يستلقي هناك في الظلمة ، حتى أحس بالعرق يتصبب على جبينه . من حين إلى آخر كان يرتعش بتأثير نوبة مفاجئة من الرعب وهو يتصور ستانسلوفاس الصغير وقد احتجز داخل مبنى مهجور يعارك الجرذان لإنقاذ حياته .

كل هذه العواطف كانت قد غدت غريبة على روح جرجس . منذ زمن طويل كانت قد أزعجته إلى درجة جعلته يقلع عن التفكير بها . ترى ماجدوى مثل هذه العواطف بالنسبة له ، هو العاجز اليائس الذي لاحول له ولا طول — لماذا يسمح لها بتعذيبه ؟ كانت مهمته الأساسية ، في الفترة الأخيرة من حياته ، هي أن يكافح مثل تلك العواطف

والأحاسيس ، أن يلغيها من وجوده ، بحيث لايعاني بسببها أبداً ، إلا إذا داهمته على حين غرة ، وباللاوعي ، إلا إذا طغت عليه قبل أن يتمكن من صدها . كان يسمع أصوات روحه القديمة ، يرى أشباحها تلك وهي تومىء له ، تمد أذرعها له . . إلا أنها كانت بعيدة باهتة ، وكان الشق الفاصل بينهما مظلماً لاقرار له ، وكانت ستتلاشى في ضباب الماضي مرة أخرى ، ستموت تلك الأصوات ولن يسمعها مرة ثانية قط — وبذلك تنطفىء في روحه آخر شرارة للرجولة وتخمد كلياً .

— ٢٨ —

بعد الافطار سيق جرجس إلى قاعة المحكمة التي كانت تغص بالمساجين وبأولئك الذين دفعهم الفضول او الامل بالتعرف إلى أحد الرجال المتزمين كي يبتزه في المستقبل . نودي على الرجال اولاً ، ثم وجهت اليهم التوبيخات وطردوا جميعاً . وحده جرجس ولشدة رعبه نودي عليه بصورة مفصلة باعتبار حالته مشكوكاً بها على مايبدو . ففي هذه القاعة عينها كان قد حوكم تلك المحاكمة التي اوقف فيها تنفيذ الحكم ، كان القاضي ذاته والكاتب ذاته وقد راح هذا يحملق بجرجس وكأنما خيل له انه يعرفه . الا ان القاضي لم يراوده أي شك — ففي ذلك الوقت تماماً كانت افكاره تدور حول الرسالة التي تلقاها من رئيس شرطة المنطقة والتي اخبره فيها عن التصرف الذي

ينبغي ان يتصرفه حيال قضية « بولي سيمبسون » . وهو الاسم الذي يعرف به بيت «المدام» . في غضون ذلك ، كان يصغي لقصة جرجس وكيف كان يبحث عن اخته . فنصحه بنبرة جافة ان يبعد اخته عن مثل هذه الامكنة ثم اطلق سراحه ومضى كي يحكم على كل فتاة من فتيات البيت بغرامة خمسة دولارات . وهي الغرامة التي دفعتها « المدام » بصورة اجمالية من حزمة نقود كانت تخبئها في جواربها .

انتظر جرجس خارجاً ثم سار إلى البيت مع ماريا . كانت الشرطة قد تركت المنزل ، وكان قد حضر بضعة زوار من قبل . ولن يجيء المساء حتى يكون العمل قد عاود سيرته الأولى وكأن شيئاً لم يكن . اثناء ذلك اخذت ماريا جرجس إلى غرفتها في الطابق العلوي حيث جلسا وتحدثا . على ضوء النهار كان باستطاعة جرجس ان يلاحظ لون وجنتيها الذي لم يكن لونها الطبيعي القديم ، ذاك الذي كانت تضفيه الصحة عليها . فالواقع ان بشرتها كانت صفراء كالرق وان حلقتين سوداوين كانتا تحيطان بعينيها . « أكنت مريضة ؟ » سألها جرجس فقالت ماريا « مريضة ! ! ياللجحيم ! ! (لقد تعلمت ماريا ان تحشو حديثها باللعنات والسباب مثلما يفعل عتالو المراكب وسائقو البغال) وأنى لي ان اكون الا مريضة في هذه الحياة . . . . ؟ »

واطبق الصمت هنيهة من الزمن بينما راحت تحملق امامها باكتئاب ، واخيراً قالت :

« إنه المخدر ، يخيل لي انني اتناول المزيد منه كل يوم . »

« ولماذا المخدر ؟ »

« هذا هو الاسلوب المتبع هنا ؛ ولا اعرف لماذا .فالواحدة منا تدمن على الشراب ان لم تدمن على المخدر ؛ ذلك انها انلم تخدر نفسها سيتعذر عليها الاستمرار والتحمل . لذا فان « المدام » تعطي جرعة المخدر للفتاة لحظة وصولها فتتعود عليه وتتعلق به ، او تجد نفسها دائماً فريسة الصداع وأشياء من هذا القبيل . انها عادة يصعب عليها التخلص منها . ولقد اكتسبت هذه العادة ، وانا اعلم انه من الصعب التخلص منها فقد حاولت الاقلاع عنها لكنني لم ولن أنجح طالما ظللت هنا .

« وكم ستبقين ؟ »

« لاادري . دائماً ، اخمن تخميناً . ماتراني افعل ان خرجت ؟ »

« ألم توفري مالاً ؟ »

« اوفر ؟ . . يالهي . . كلا طبعاً ، انني احصل على الكثير ، على ماأظن ، لكنه يذهب جميعاً فأنا آخذ نصف حصة ، دولارين ونصفاً لكل زبون واحياناً اكسب خمسة وعشرين دولاراً او ثلاثين دولاراً في الليلة ، فهل تظن انني اوفر شيئاً منها . . ان علي ان ادفع اجرة غرفتي وثمن طعامي وبأسعار لم تسمع ابداً ، ثم هناك الاضافات والمشروبات —

مقابل كل ماأكسب وبعض مما لاأكسب . فاتورة المصبغة وحدها تكلفني حوالي عشرين دولاراً اسبوعياً فكر في ذلك ، لكن ماالذي استطيع فعله ؟ .

فاما ان اتحمل ذلك او اترك . ولسوف اجد الشيء ذاته في كل مكان آخر . ان كل ما استطيع فعله هو توفير الخمسة عشر دولاراً التي اعطيها لالزبييتا كل اسبوع ، وبذلك يتمكن الاولاد من الذهاب إلى المدرسة .

جلست ماريا مطرقة تفكر ، ثم تابعت وقد رأت ان جرجس مهتم كثيراً : « هذه هي الطريقة التي تعيش بها الفتيات هنا– فهم يغرقونهن بالديون إلى درجة يتعذر معها التخلص. فتاة تأتي من خارج البلاد مثلاً ، لاتعرف كلمة انكليزية واحدة ، تدخل في مكان كهذا ، وحين تود الذهاب تريها « المدام » ان عليها مائتي دولار ديناً ، ثم تجردها من ثيابها وتهددها بأن تجعلهم يلقون القبض عليها ان لم تبق وتفعل مايقال لها . وهكذا تبقى ، وبقدر ماتبقى بقدر ماتغرق اكثر واكثر في الدين . وغالباً ايضاً مايكن فتيات لايعرفن ماسوف يحل بهن ، ترى هل لاحظت تلك الفتاة الفرنسية الصغيرة ذات الشعر الاصفر التي كانت تقف بجواري في المحكمة ؟

فأجاب جرجس بالايجاب .

« حسناً ، لقد جاءت إلى امريكا قبل حوالي عام . لقد كانت كاتبة في مخزن ثم استأجرها رجل وارسلها إلى هنا كي تعمل في مصنع . كن ست فتيات معاً فجيء بهن جميعاً إلى بيت قريب من هنا ، حيث وضعت هذه الفتاة بمفردها واعطيت جرعة مخدر في طعامها ، وحين افاقت من المخدر وجدت انه قضي عليها . صرخت ، زعقت مزقت شعرها الا انه لم يكن يسترها سوى ازار ولم يكن باستطاعتها التخلص . لقد ابقوها شبه غائبة عن الوعي بفضل العقاقير التي اعطوها لها إلى ان استسلمت . في ذلك المكان ظلت حوالي عشرة اشهر لاتخرج منه ابداً ثم بعد ذلك اخرجوها منه ، لانها لم تعد مناسبة . واظن انهم سيخرجونها من هنا ايضاً فقد بدأت تصاب بنوبات جنون من فرط الادمان على الشراب . فتاة واحدة فقط من الفتيات التي جئن معها استطاعت الافلات ، قفزت من نافذة من الطابق الثاني ذات ليلة ، وقد حدثت ضجة كبيرة بسبب ذلك — ربما سمعت بها . »

فقال جرجس « سمعت بها فيما بعد » (لقد حدثت الحادثة حين كان هو ودوان يلتجئان من زبونهما الريفي . وكانت الفتاة قد غدت مجنونة ، من حسن حظ الشرطة)

« انهم يكسبون الكثير من المال مقابل ذلك » قالت ماريا « يكسبون اكثر من اربعين دولاراً لكل فتاة وهم يأتون بالفتيات من كل مكان .

يوجد هنا سبع عشرة فتاة ينتسبن لتسع بلدان . في بعض الاماكن قد تجد أكثر ايضاً فلدينا هنا نصف دستة من الفرنسيات واظن ان سبب ذلك هو ان « المدام » تتكلم الفرنسية . فالفتيات الفرنسيات سيئات ، اسوأ الفتيات طراً ماعدا اليابانيات . ثمة مكان قريب مليء باليابانيات لكنني لااستطيع العيش مع واحدة منهن تحت سقف واحد .

وللحظة او لحظتين توقفت ماريا . بعدئذ اضافت : معظم النساء هنا طيبات تماماً ولعل هذا سيفاجئك . كنت عادة اظن انهن يمارسن هذا العمل لانهن يحببنه — لكن تخيل ! امرأة تبيع نفسها لكل ضروب الرجال شيباً كانوا ام شباناً ؛ سوداً ام بيضاً — وتفعل ذلك حباً به ! !

فقال جرجس « بعضهن يقلن انهن يحببنه »

فقالت ماريا « اعلم ذلك . هن يقلن أي شيء . لقد وقعن ويعلمن انه لامنجاة لهن لكنهن لم يكن يحببنه حين بدأن — وبامكانك ان تكتشف ذلك — انه الفقر دائماً . . هاهنا فتاة يهودية صغيرة كانت بالاصل تعمل لدى صانع قبعات نسائية ، لكنها مرضت وفقدت مكانها ، ثم وجدت نفسها مدة اربعة ايام مشردة في الشوارع دون لقمة طعام ، عندئذ ذهبت إلى مكان قريب عند الزاوية وعرضت نفسها فجعلوها تتعرى من ثيابها قبل ان يقدموا لها لقمة تأكلها .»

ولدقيقة او دقيقتين صمتت ماريا وهي تفكر ملياً ، ثم قالت فجأة : « حدثني عن نفسك ياجرجس اين كنت ؟ . »

وهكذا اخبرها جرجس قصة مغامراته الطويلة منذ هروبه من المنزل : حياته كمتشرد ، عمله في انفاق الشحن ، الحادث . ثم حياته مع جاك دوان ، حياته كسياسي في المسالخ واخيراً سقوطه واخفاقاته اللاحقة . كانت ماريا تصغي بتعاطف كامل. كان من السهل ان تصدق حكاية اشرافه الاخير على الموت جوعاً ، فقد كان ذلك جلياً في وجهه . . « لقد وجدتني في الوقت المناسب تماماً » قالت ماريا اخيراً . « سأقف إلى جانبك — سأساعدك إلى ان تتمكن من الحصول على عمل . »

« لااحب ان ادعك . . . » بدأ جرجس

« ولم لا ؟ لانني هنا ؟ »

فقال : « لا ، ليس لهذا السبب ، بل لانني وليت الادبار وتركتكم .»

« هراء . لاتفكر بذلك . انا لاالومك »

وبعد دقيقة او دقيقتين قالت . . « لابد انك جائع ابق هنا كي تتغدى . سأطلب شيئاً ما إلى الغرفة . »

ثم ضغطت زراً فجاءت امرأة ملونة إلى الباب تلقت الاوامر منها « شيء جميل ان يكون لديك من يخدمك » لاحظت ماريا ، ضاحكة ، وهي تستلقي على السرير .

بما ان افطار السجن لم يكن سخياً ، فقد كانت شهية جرجس جيدة ، وقد اقاما معاً نوعاً من المأدبة الصغيرة تحدثا خلالها عن الزبيبتا والاولاد

والزمان القديم . لكن قبل انتهائهما من الطعام بفترة وجيزة جاءت فتاة ملونة أخرى برسالة مفادها ان « المدام » تريد ماريا ، « ماري الليتوانية » كما كانوا يسمونها هنا .

فقالت لجرجس « ذلك يعني ان عليك ان تذهب »

وهكذا نهض فاعطته ماريا عنوان العائلة الجديد في منطقة الغيتو ثم قالت : « اذهب إلى هناك ولسوف يسرون برؤيتك » .

لكن جرجس وقف متردداً لحظة من الزمن ، ثم قال :

« انا — انا لاأحب ذلك . ماريا ، لم لاتعطيني مبلغاً من المال وتدعيني ابحث عن عمل اولاً »؟ فكان جوابها . .« كيف تحتاج إلى المال ؟ ماتحتاجه هو المأكل والمأوى اليس كذلك ؟». . « اجل . . لكن ماذا ان لم يكن لدي رغبة في الذهاب إلى هناك بعد ان تخليت عنهم — سيما وانني بلا عمل وان — أن . . .».

« اذهب . . » قالت ماريا وهي تدفعه « عم تتكلم ؟ انا لن اعطيك مالاً ، » ثم اضافت بعد ان لحقت به إلى الباب : « فأنت ستشرب به وستؤذي نفسك . هاك ربع دولار الآن ، وامض اليهم في الحال . انهم سيسرون بعودتك ولامبرر لخجلك ابداً . وداعاً » .

* * *

وهكذا خرج جرجس ، ثم بدأ السير في الشارع وهو يقلب الافكار.

اخيراً قرر ان يحاول الحصول على عمل اولاً ، وعلى هذا قضى بقية نهاره طائفاً هنا وهناك ماراً بالمصانع والمستودعات لكن دونما نجاح . حين حل الظلام ، قرر الذهاب إلى البيت وبدأ السير فعلاً في ذاك الاتجاه لكنه حين وصل قرب مطعم دخل اليه وأنفق ربع دولاره ثمن وجبة عشاء ، وعندما خرج غير رأيه — فالليلة جميلة وسينام في مكان ما في الخارج ليتابع البحث عن عمل في الغداة ، وبذلك تتاح له فرصة اخرى قد يحصل فيها على عمل . وهكذا عاد فابتعد من جديد . وفجأة تطلع حوله فوجد بالمصادفة أنه يسير في الشارع ذاته ويمر بالصالة ذاتها التي استمع فيها الليلة الماضية لخطاب سياسي . لم يكن هناك نيران حمراء ولا جوقة موسيقية بل مجرد لافتة في الخارج تعلن عن اجتماع ، وكان جدول من الناس يتدفق إلى الداخل . بلمحة عين قرر جرجس ان يقتنص الفرصة مرة اخرى وان يجلس ويستريح ريثما يحزم امره . لم يكن هناك من يأخذ بطاقات ، اذن لابد ان العرض حر مرة ثانية ، ودخل . لم يكن ثمة تزيينات في الصالة هذه المرة انما كان هناك حشد لابأس به على المنصة ، مقاعد الصالة مشغولة تقريباً . . احتل مقعداً من مقاعد الصف الاخير البعيد . وفي الحال نسي كل ماحوله . هل ستظن الزبيبتا انه آت لامتصاص مواردها ، ام هل ستفهم انه ينوي ايجاد عمل والاسهام في نفقات البيت ؟هل ستستقبله استقبالاً حسناً ام ستوبخه ؟ لايستطيع ان يحصل على اي عمل

قبل ان يذهب اليها — لو ان رئيس العمال الاخير ذاك يرغب فقط بتجريبه . . .

بعد ذاك رفع جرجس ناظريه فجأة اذ انطلق هدير هائل من حناجر الجمهور الذي كان في ذلك الحين قد زحم الصالة حتّى ابوابها . كان الرجال والنساء يقفون وهم يلوحون بالمناديل ويهتفون ويصيحون . من الواضح ان الخطيب قد جاء ، فكر جرجس — أي حمقى يصنعون من انفسهم ! ! ماتراهم يتوقعون ان ينالوا من هذا المرشح ؟ ماشأنهم ياترى بالانتخابات ؟ بحكم البلاد ؟ لقد بات جرجس يعرف الآن ماوراء الكواليس .

وعاد إلى افكاره ، انما بحقيقة اخرى يمكن الاستناد اليها — هي انه محتجز طوال الاجتماع فالصالة تغص براودها حتّى الابواب . وبعد الاجتماع سيكون قد فات الاوان على ذهابه إلى المنزل ، لذا عليه ان يدبر نفسه في الخارج . ربما سيكون من الافضل ان يذهب إلى المنزل صباحاً ، اذ يكون الاولاد في المدرسة وحينذاك سيغدو بامكانه ان يشرح لالزبييتا المسألة برمتها وهما وحيدان . لقد كانت دائماً انسانة معقولة وهو يقصد فعلاً ان يكون مستقيماً ، سيعمل على اقناعها بذلك . علاوة على ان ماريا ترغب بذلك ، وماريا هي الّتي تقدم المال لذلك اذا قابلته الزبييتا على نحو بشع فسوف يقول لها ذلك بكل صراحة .

وهكذا ، مضى جرجس في تفكيره حتى بدأت الصالة اخيراً ، وكان قد مضى عليه ساعة او ساعتان ، تعد نفسها لتكرار الكارثة المخيفة التي وقعت الليلة الماضية . كانت الخطب قد استمرت طوال الوقت والجمهور يصفق ويهتف منفعلاً مهتاجاً ، وشيئاً فشيئاً بدأت الاصوات تختلط في اذن جرجس وبدأت افكاره تضطرب وتتداخل ، ورأسه يهوم ويكبو . وكالعادة امسك نفسه عدة مرات متخذاً قرارات يائسة الا ان القاعة كانت دافئة وحميمة وكان مشواره الطويل وغداؤه أكثر مما يستطيع تحمله — وفي النهاية سقط رأسه إلى الامام وغرق في سبات عميق .

ومرة ثانية لكزه احدهم فجلس منتفضاً انتفاضة الذعر . كان يشخر طبعاً . . فماذا الآن ؟ ثبت جرجس عينيه امامه بتركيز مؤلم محدقاً إلى المنصة وكأنما لم يكن يهمه شيء آخر او ربما لم يهمه شيء آخر في حياته كلها ، كان يتصور صرخات التعجب الغاضبة ، النظرات العدائية وكان يتصور الشرطي وهو يوسع خطاه نحوه ، ماداً يده إلى عنقه — أم ترى لديه فرصة اخرى ؟ هل سيتركونه وشأنه هذه المرة ؟ وجلس يرتعد انتظاراً . لكن جاءه ، وعلى حين غرة ، صوت في اذنه ، صوت نسائي لطيف ورقيق : « لوتحاول الاصغاء يارفيق فربما سيثار اهتمامك » .

واجفل جرجس لذلك الصوت اكثر مما لو كان لمسة شرطي . فثبت عينيه امامه ولم يتحرك لكن قلبه وثب وثبة كبيرة . رفيق ! ! من تلك التي دعته رفيقاً ؟ . .

انتظر وانتظر ، واخيراً حين اطمأن على أن أحداً لايراقبه ، اختلس نظرة من طرف عينه إلى المرأة التي تجلس بجانبه فوجدها شابة ، جميلة تلبس ثياباً حسنة وتبدو مايدعوه الناس بـ « السيدة »، ولقد دعته رفيقاً . ادار جسمه قليلاً ، وبكثير من الحذر ، كي تتسنى له رؤيتها على نحو افضل . بعد ذاك بدأ يراقبها مفتوناً . كانت على مايبدو ، قد نسيت كل مايتعلق به وكانت تتطلع باتجاه المنصة ، حيث يتكلم احـــد الخطبـــاء الذي كان جرجس يسمع صوته على نحو غامض فافكاره كلها منصبة على وجه المرأة . لقد طغى عليه شعور بالخوف وهو يحدق اليها مما جعل جلده يقشعر . ماالذي دها هذه المرأة؟ ماالذي يجري هناك بحيث يؤثر في انسان ما بهذا الشكل ؟ كانت تجلس وكأنها تحولت إلى حجر ، يداها مطبقتان في حجرها بشدة إلى درجة يمكن بها ان يرى العروق البارزة في رسغيها . وعلى وجهها نظرة انفعال شديد ، جهد شديد كنظرة من يصارع بكل قوته ، أو من يشهد مثل هذا الصراع وعلى خيشومها كان يظهر ارتعاش خفيف ، ومن حين إلى آخر كانت تبلل شفتيها بسرعة محمومة ، وكان صدرها يعلو ويهبط وهي تتنفس ، بينما يبدو انفعالها وكأنه يتزايد أكثر وأكثر ثم ينخفض ثانية ويخفت مثل قارب تتقاذفه امواج المحيط . ماالأمر ؟ ماالمسألة ؟ لابد ان يكون شيئاً ما ، ذاك الذي يقوله الرجل الذي يقف هناك على المنبر . مانوع هذا الرجل ياترى ؟ اي شيء ذاك الذي يقوله ؟

وهكذا خطر لجرجس فجأة ان ينظر إلى الخطيب .

كان ذلك اشبه بالوصول فجأة إلى منظر غريب من مناظر الطبيعة— غابة جبلية تسوطها عاصفة هوجاء ، سفينة يتقاذفها بحر عاصف . وانتاب جرجس احساس بالقلق ، بعدم الراحة ، بالاضطراب ، بانتفاضة غريبة عديمة المعنى . كان الرجل نحيلاً ، طويلاً ، مهزولاً ، كسامعه نفسه ، وقد غطت لحية سوداء رقيقة نصف وجهه ، وكان بامكان المرء ان يرى تجويفين اسودين حيث العينان ولاشيء سواهما . كان الرجل يتكلم بسرعة ، بانفعال شديد وكان يستخدم الكثير من الاشارات — وكان وهو يتكلم يتحرك هنا وهناك على المنصة ، ماداً ذراعيه الطويلتين وكأنما سيمسك بشخص ما أمامه . كان صوته عميقاً كصوت ارغن ، لكن مضى حين من الزمن قبل ان يفكر جرجس بالصوت — فقد انشغل كثيراً بعينيه إلى درجة لم تسمح له بالتفكير بقوله . لكن ، فجأة خيل له وكأن الرجل يشير اليه مباشرة ، كما لو انه افرده خصيصاً من اجل ملاحظاته ، وهكذا بدأ جرجس يعي الصوت المرتعش المهتز انفعالاً وألماً وحنيناً ، والمحمل بأشياء لا يمكن الكلام عنها ، لاتعبر عنها الكلمات . فأن تسمعه يعني ان يأسرك فجأة ، أن يقبض عليك ويثبتك دون حراك .

« انتم تستمعون لهذه الاشياء » كان الرجل يقول « ثم تقولون ، اجل هذا صحيح ، لكن هكذا هي الحال دائماً . او تقولون ربما سيأتي

ذلك اليوم ، انما ليس في هذا الزمان – ولن يجديني ذلك نفعاً . وهكذا تعودون إلى منازلكم واعمالكم المعتادة تطحنكم مطحنة القوة الاقتصادية القائمة على النطاق العالمي ! ! تكدون ساعات طويلة ليجني الفوائد اناس آخرون ، تعيشون في بيوت وضيعة حقيرة ، تعملون في اماكن خطرة غير صحية ، تصارعون اشباح الجوع والحرمان ، يصيبكم مايصيبكم من حوادث وامراض وموت وكل يوم يغدو الصراع أشد حدة وشراسة والوتيرة أكثر قوة ، كل يوم تضطرون للكد أكثر وأكثر وتشعرون بيد الظروف الحديدية تشدد الخناق عليكم . تمر الشهور – وربما السنون – ثم تعودون مرة ثانية ، ومرة ثانية تجدونني هنا اتوسل اليكم ، لكي اعرف اذا كانت الحاجة والبأساء قد فعلت فعلها بكم ، اذا كان الظلم والاضطهاد قد فتح لكم عيونكم . ولسوف انتظر – فليس ثمة مايمكنني فعله . ليس هناك قفر يمكنني الهروب اليه من هذه الاشياء ، وليس هناك ملاذ ألوذ به منها . فرغم انني قد ارحل إلى اقاصي الارض الا انني سأجد النظام اللعين نفسه . سأجد أن كل الدوافع الكريمة والنبيلة لدى الانسانية ، احلام الشعراء وعذابات الشهداء ، كلها مغلولة ومقيدة في خدمة الجشع المفترس المنتظم لذا لا أجد الراحة ، لايسعني البقاء صامتاً ، فألقي جانباً بالراحة والسعادة ، بالصحة والشهرة – واخرج إلى العالم ، أصرخ بآلام روحي . . لا لن يسكتني الفقر والمرض ، ولا الكراهية والقدح ، ولا التهديدات والسخرية – لن يسكتني السجن

والاعتقال إذا ماجاءا — لن تسكتني قوة على وجه الأرض ، كانت أو تكون أو ستكون يوماً من الأيام .

وان أفشل الليلة سأحاول غداً ، وأنا أعلم أن الخطأ لابد خطئي إذ ماإن أعبّر مرة واحدة تعبيراً حقيقياً عن رؤى روحي ، ما ان أوضح توضيحاً صحيحاً عذاباتها ومعاناتها حتى تتحطم أمتن حواجز التعصب وتهتز أضعف النفوس وأبلدها . . انها ستُخجِل أشد النفوس تشاؤماً من ذاتها ، ستُرعِب أشدها أنانية ، ولسوف يسكت صوت السخرية وينحسر الزيف والزور إلى جحريهما ويظهر الحق ويزهق الباطل . . ذلك لأنني أتكلم بصوت الملايين الذين لاصوت لهم . . بصوت المضطهدين الذين لايجدون من يرفع عنهم الحيف والاضطهاد ، بصوت المحرومين من الحياة ، من ليس لهم راحة أو خلاص من ليس العالم لديهم الا سجناً ، زنزانة عذاب ، قبراً . . انني أتكلم باسم الطفل الذي يكد ليل نهار في محالج قطن الجنوب ، يترنح إعياء ، وقد أخرسه الألم ، لايعرف أملاً سوى القبر . . باسم الأم التي تخيط على ضوء الشمعة في غرفتها الحقيرة المستأجرة متعبة ، باكية ، تجلدها سياط الجوع القاتل الذي يهدد أطفالها . . باسم الرجل الذي يتمدد على فراشه الرث ، يصارع مرضه الأخير ويترك أطفاله الأحباء لبراثن الهلاك ، باسم الفتاة التي تجوب ، في هذه اللحظة شوارع هذه المدينة المرعبة ، خائفة ، جائعة وليس لها خيار إلا الماخور أو قاع البحيرة . . باسم أولئك الذين تمسك بهم أنياب

الشره الحادة ، أياً كانوا واينما كانوا . . باسم الانسانية المطالبة بالخلاص ، باسم روح الانسان الخالدة الناهضة من التراب ، الشاقة طريقها خارجة من سجنها ذاك الذي أعدته لها طغمة الاضطهاد والجهل — متلمسة طريقها إلى النور » .

وتوقف الخطيب . فخيم الصمت لحظة من الزمن ، كان المستمعون فيها يلتقطون أنفاسهم ، ثم ، وكأنه صيحة رجل واحد ، انطلق هتاف ألف انسان — وخلال ذلك كله ظل جرجس بلا حركة ، عيناه مثبتتان على الخطيب ، يرتعش وقد أذهلته الدهشة .

وفجأة رفع الرجل يديه فساد السكون وبدأ من جديد .

« انني أتوسل إليكم كائناً من تكونون ، شريطة أن تكونوا ممن يهتم بالحقيقة ، لكن أكثر من أتوسل إليهم . . انما هم العمال ، الذين ليست الشرور التي أصورها مجرد مسائل عاطفية لديهم ، يمكن مداعبتها والتلاعب بها ، ومن ثم توضع جانباً وتنسى ، العمال الذين كل ماصورته من شرور انما هي وقائع يومية قاسية تطحنهم بين أسنانها والأغلال في أقدامهم والسياط على ظهورهم ، والحديد يكبل نفوسهم . إليكم أيها العمال . . إليكم أيها الشغيلة الذين صنعتم هذه البلاد وليس لكم صوت في مجالسها ، إليكم يامن قدركم أن تزرعوا ليجني الآخرون ، أن تعملوا وتطيعوا ولا تطلبوا أكثر من قوت يومكم ، من مأوى يحميكم ،

يامن تعيشون حياتكم يوماً بيوم . . إليكم أوجه رسالتي ، رسالة الخلاص ، إليكم أوجه ندائي . انني أعلم كم هو كثير ما أطلبه منكم . أعلم ، لأنني كنت حيث أنتم ، عشت حياتكم ، وليس من رجل أمامي هذه الليلة يعلم أفضل مما أعلم ، انني أعلم مايعني أن يكون المرء متسكع شوارع يعيش على كسرة الخبز وينام في مداخل الأقبية وتحت العربات الفارغة ، انني أعلم ما يعني أن تجرؤ وتطمح ، ان تحلم أحلاماً رائعة وتراها تتحطم أمام عينيك — ان ترى كل أزهار روحك تمرغ بالحمأة والطين ، تمرغها قوى الحياة البهيمية الوحشية . انني أعلم الثمن الذي يدفعه العامل لقاء المعرفة — ولقد دفعته من طعامي ونومي ، من معاناتي الجسدية والذهنية ، من صحتي ، من حياتي نفسها تقريباً ، وهكذا ، حين أجيء إليكم بغصة الأمل والحرية ، برؤيا الأرض الجديدة التي سنصنع ، بالعمل الجديد الذي ينبغي الاجتراء عليه ، لايدهشني أن أجدكم متلكئين متهاونين كسالى غير مصدقين . وإذا كنت لا أعرف اليأس فذلك لأنني أعرف أيضاً القوى التي تسوقكم من الخلف — لأنني أعرف سوط الفقر اللاهب ، وخز الاحتقار والتكبر ، غطرسة أصحاب المكاتب وأرباب العمل ، لأنني أشعر بثقة كاملة ان في هذا الحشد الذي جاء الليلة هنا ، بغض النظر عن مقدار تبلده ولا مبالاته ، وبغض النظر عمن جاؤوا بدافع الفضول والتبطل أو للتهكم وحسب — يوجد شخص ما أحاله الألم والمعاناة انساناً يائساً ، شخص جعلته رؤيته العرضية

للظلم والأهوال يرتعد فرقاً ويصدم إلى حد الاهتمام . ولسوف تأتي كلماتي لشخص كهذا كما هو لمع البرق لشخص يرحل في الظلمة — ستكشف الطريق له ؛ بكل مافيها من مخاطر وعقبات — ستحل له كل المشكلات وتزيل كل الصعوبات ! ! لسوف تزول الغشاوة عن عينيه ، وتتحطم الأغلال عن قدميه — ولسوف يقفز صارخاً بالامتنان والشكر ولسوف ينطلق رجلاً حراً أخيراً . . انساناً تحرر من عبوديته التي صنعها لنفسه . . ولن يقع في شرك أبداً . إذ لن تغريه الزخارف والبهرجات ولن تخيفه كل التهديدات ، ومن اليوم فصاعداً سيمضي قدماً ، لن يتراجع ، سيدرس ويتفهم ، سيقبض على سيفه ويحتل مكانه بين رفاقه واخوانه ولسوف يحمل الانباء الطيبة إلى الآخرين ، مثلما حملتها له — هبة الحرية التي ليست ملكي ولا ملكه ، بل هي ملك روح الانسان . . ايها العمال . . ايها العمال .

أيها الرفاق افتحوا أعينكم وانظروا حولكم . لقد عشتم طويلاً في الكد والحرارة التي بلدت أحاسيسكم وأماتت نفوسكم . لكن تمعنوا مرة واحدة في حياتكم ، في هذا العالم الذي تقيمون فيه — مزقوا أسمال عاداته وتقاليده ، تأملوه على حقيقته ، بعريه المخيف البغيض هذا ، اعرفوه . . اعرفوه . . اعرفوا أن على سهول منشوريا اليوم يتقابل جيشان متعاديان — الآن ، وأنتم تجلسون هنا ، يلقي مليون كائن بشري بأنفسهم بعضاً على بعض يكافحون بكل هوس المجانين لتمزيق بعضهم

بعضاً . . ويحدث هذا في القرن العشرين وبعد مضي تسعة عشر قرناً على مجيء رسول السلام إلى الأرض . . منذ تسعة عشر قرناً تلقى كلماته مواعظ مقدسة ، ومع ذلك ثمة جيشان يمزق واحدهما الآخر مثلما تفعل وحوش الغابة . . لقد حاكم الفلاسفة المسألة محاكمة منطقية ، وأنكرها الأنبياء وبكى الشعراء وتوسلوا — ومع ذلك ظل هذا الوحش الرهيب طليقاً يسرح ويمرح . . لدينا المدارس والكليات ، الصحف والكتب ، وقد نقبنا السماوات والأرض ، وازنا وبحثنا وناقشنا ، وكل ذلك لكي نزود الانسان بما يدمر أخاه الانسان . . اننا ندعوها حرباً ونعبر بها عبوراً — لكن لاتتملصوا مني بالحجج التافهة والتقاليد تعالوا معي — اعرفوها جيداً . . انظروا إلى أجسام الرجال وقد مزقها الرصاص ، وقد فجرتها القذائف ومزقتها ارباً ارباً . . اسمعوا صوت الحربة وهي تنغرز في لحم الانسان تمزقه وتسحقه ، اسمعوا أنات وصرخات العذاب . تأملوا وجوه الناس وقد شوهها الألم فانقلبت إلى وجوه شيطانية بفعل السخط والكراهية . . ضعوا أيديكم على تلك القطعة من اللحم — انها دافئة ترتعش ، فمنذ لحظة فقط كانت جزءاً من انسان . . هذا الدم مايزال حاراً يتصاعد منه البخار — كان يدفعه قلب بشري ! ! يا إلهاً كلي القوة ! ! وهذا كله مستمر — بصورة منهجية منظمة تم التفكير بها مسبقاً ! ! ونحن نعرفه ، نقرأ عنه ، نعتبره طبيعياً ، صحفنا تتحدث

عنه ولا تكف — كنائسنا تعرف به ولا تغلق أبوابها — الناس يبصرون ولا يثورون من الهول أو يتمردون .

أو لعل منشوريا بعيدة كثيراً عنكم — اذن فلتأتوا معي ، تعالوا هنا إلى شيكاغو . هنا في هذه المدينة وفي هذه الليلة ثمة عشرة آلاف امرأة في ما يشبه الحظائر القذرة أغلقت عليهن أبوابها ، يدفعهن الجوع لأن يبعن أجسادهن . ونحن نعرف ذلك ! ! أو نصنع منه دعابة . . هؤلاء النساء صنعن على صورة أمهاتكم ، وقد يكن أخواتكم أو بناتكم ، الطفلة التي تركتموها الليلة في المنزل والتي تحييكم عيناها الضاحكتان في الصباح — قد يكون ذلك القدر بانتظارها . وهذه الليلة ، في شيكاغو عشرة آلاف رجل مشردين بلا مأوى ، يرغبون في أن يجدوا عملاً ، يستجدون فرصة للعمل ومع ذلك يتضورون جوعاً ويواجهون مرتعدين فرقاً برد الشتاء الرهيب .هذه الليلة في شيكاغو ثمة مئةألف طفل يستنفذون كل مالديهم من قوة ، تدمر حياتهم وهم يحاولون أن يكسبوا قوت يومهم . . ثمة مائة ألف أم تعيش في البؤس والشقاء ، تكافح كي تكسب مايعيل أطفالها الصغار . . ثمة مائة ألف شخص هرم ، منبوذ ، عاجز ، ينتظر الموت عسى أن يخلص من — عذابه . . ثمة مليون نسمة ، رجالاً ونساء وأطفالاً يتقاسمون لعنة عبيد الأجور أولئك الذين يكدون الساعات تلو الساعات كي يكسبوا مايسد رمقهم بشق النفس ، أولئك الذين حكم عليهم حتى الممات بالرتابة والسأم ، بالجوع والبؤس ،

بالحر والقر ، بالقذارة والمرض ، بالجهل والادمان والرذيلة . . ثم لنقلب الصفحة معاً ، ولنتأمل الجانب الآخر من الصورة . . ثمة ألف — وربما عشرة آلاف — هم سادة هؤلاء العبيد ، يملكون جهدهم ويستغلون تعبهم . أناس لايفعلون شيئاً كي يكسبوا مايكسبونه ، لايضطرون حتى للسؤال عنه — فهو يأتيهم بنفسه ، همهم الوحيد هو ألا يتصرفوا به . . انهم يسكنون القصور ، يغرقون في بحار البذخ والترف — إلى درجة تعجز الكلمات عن الوصف ، تجعل الخيال ينكص على عقبيه مترنحاً ، تصيب نفس الانسان بالمرض والدوار . إنهم ينفقون مئات الدولارات ثمن حذاء أو منديل أو طماق ، ينفقون الملايين على الخيول والسيارات واليخوت ، على القصور والحفلات ، على الحجارة الكريمة التي يزينون بها أعناق نسائهم . حياتهم مباراة يتنافسون فيها لإثبات تفوقهم في دنيا المظاهر واللامبالاة ، في تدمير الأشياء الضرورية والمفيدة ، في هدر جهد وحياة المخلوقات التابعة لهم ، جهد وعناء الأمم ، عرق ودموع ودماء الجنس البشري . فكل شيء ملكهم — يخصهم ، تماماً مثلما تصب كل الينابيع في الجداول والجداول في الأنهار والأنهار في المحيط — وهكذا ، بصورة آلية لامفر منها ، تأتي ثروة المجتمع كلها إليهم . المزارع يحرث التربة ، عامل المنجم ينقب في الأرض ، والنساج يعمل على النول ، البناء ينحت الحجر ، والنابغة يخترع والماهر يوجه ، والحكيم يدرس والملهم

يغني — وكل ماينتج ، كل ماتخرج به الأدمغة والعضلات ، انما يجتمع في تيار ضخم واحد يصب في أفواههم . المجتمع كله في قبضة أيديهم ، عمال العالم كلهم يقعون تحت رحمة أيديهم — وكالذئاب الشرسة تجدهم يمزقون ويدمرون ، مثل الطيور الجارحة يلتهمون . . كل مايملك الجنس البشري من طاقة انما هو ملكهم إلى الأبد ودون منازع — فمهما تفعل الانسانية ومهما تكافح ستجد نفسها دائماً تعيش من أجلهم وتموت من أجلهم فهم لايملكون اليد العاملة في المجتمع وحسب ، بل يملكون الحكومات وفي كل مكان يستخدمون قوتهم الطاغية الغاصبة لتمكين أنفسهم أكثر وزيادة امتيازاتهم أكثر . ولكي يعمقوا أكثر ويوسعوا أكثر ، الأقنية التي تجري فيها أنهار المرابح نحوهم . . — وأنتم أيها العمال . . أيها العمال ، أنتم بأنفسكم تأتون بها إليهم ، وأنتم تكدون كالبهائم المحملة لاتفكرون إلا بيومكم وآلامه — مع ذلك ، هل يوجد فيكم من يعتقد أن نظاماً كهذا سيستمر إلى الأبد ؟ هل هناك رجل واحد منكم لديه الجرأة لأن يقف أمامي ويقول أنه يعتقد أن هذا النظام سيستمر إلى الأبد ، ان وسائل عيش الجنس البشري ، نتاج عمل المجتمع ، سيظل دائماً ملك المتبطلين الكسالى والطفيليين ، كي يهدر ارضاء للغرور والشهوات — كي ينفق من أجل أي غرض كائناً ما كان هذا الغرض ، كي يكون تحت تصرف أية رغبة فردية أياً كانت ، وأن جهد الانسانية لن يكون بشكل ما وفي مكان ما ملكاً للبشرية يستخدم من أجل أغراض

البشرية وتتحكم به ارادة البشرية ؟ وإذا ما حدث هذا في يوم من الأيام ، فكيف سيحدث ؟ أية قوة ستحققه ؟ أتظنون أن مهمة سادتكم أن يحققوه ؟ — هل سيكتبون لكم دستور حرياتكم بأيديهم ؟ هل سيصنعون لكم سيف خلاصكم ويسلمونكم قيادة الجيش الذي يرسلونه إلى المعركة ، معركتكم ؟ هل سينفقون ثرواتهم في سبيلكم ؟ هل سيشيدون لكم الجامعات والكنائس كي يعلموكم ، يطبعون الصحف ليبشروا بتقدمكم ، ينظمون الأحزاب السياسية لتهدي كفاحكم وتمضي به قدماً ؟ ألا ترون أن المهمة هي مهمتكم — أن تحلموا ، أن تصمموا وأن تنفذوا ؟ وانها إن تنفذ ذات يوم فانما ستنفذ بعد أن تواجه كل العقبات والعراقيل التي يمكن للثروة والتسلط أن يضعاها في وجهها— ستواجه التهكم والسخرية ، الكراهية والاضطهاد ، الزنزانات والسجون؟ بقوة زنودكم ستواجهون حنق الاضطهاد وغضبه ، بتعلم القسوة وعدم الرحمة ، بالسعي المؤلم ، سعي الأذهان التي لم تتعلم ، بالتلعثمات الضعيفة للصوت الذي لم يتثقف بظمأ الروح الوحيدة الحزينة ، بالسعي والكفاح والتشوق ، بالألم واليأس ، بالعذاب والعرق والدم . . سيتحقق ذلك . بالمال الذي سيدفع رغم الجوع ، بالمعرفة المختلسة على حساب النوم ، بالأفكار المتناقلة تحت ظلال المقاصل ! ! ستكون حركة بدايتها في الماضي البعيد ، شيئاً غامضاً غير مشرف من السهل أن تسخر منه— من السهل أن تحتقره ، شيئاً غير محبوب يلبس رداء الانتقام والكراهية —لكن

إليكم أنتم ينادي العامل ، عبدلأجور بصوت قوي كله تصميم واصرار ، صوت لايمكنكم الفرار منه حيثما كنتم على وجه الأرض ، بصوت كل مظالمكم ، بصوت كل رغباتكم ، بصوت واجبكم وأملكم — بكل شيء في العالم ذي قيمة لديكم . . صوت الفقير الذي يطالب بالقضاء على الفقر ، صوت المضطهد وهو يعلن نهاية الاضطهاد . . صوت القوة المصنوعة من المعاناة — التصميم المستخلص من الضعف ، الفرح والشجاعة المولودين في خضم العذاب واليأس . . صوت اليد العاملة المحتقرة المهينة ، ذلك العملاق القوي الذي ينبطح على الإرض — عالياً كالجبل ، كبيراً كبيراً لكنه معصوب العينين مقيد اليدين يجهل مايملك من قوة . والآن يراوده حلم المقاومة ، أمل مصارعة الخوف ، إلى أن يتحرك فجأة ويكسر الأغلال — تسري الحمية في عروقه ، تبلغ الأطراف البعيدة لجسم العملاق ، وبطرفة عين يغدو الحلم حقيقة . . فينتفض ، يحرك نفسه ، يمزق العصبة عن عينيه ، يلقي بالأحمال عن ظهره وينهض — عالياً كالبرج ، كبيراً كالعملاق ، يهب على قدميه يصرخ بنشوته التي ولدت من جديد » —

وانقطع صوت المتكلم فجأة ، لشدة انفعاله ، فوقف وقد مد ذراعيه إلى الأعلى ، كأنما رفعته قوة رؤياه عن الأرض . فهب الجمهور كله صائحاً صيحة واحدة ، وبدأ الرجال يلوحون بأيديهم ، ويضحكون عالياً لشدة اهتياجهم . وكان جرجس معهم يصرخ على نحو يمزق

الحناجر يصرخ لأنه لم يستطع منع نفسه من الصراخ ، لأن شدة انفعاله
كانت أكثر من أن يستطيع التحمل . لم تكن كلمات الرجل أو فصاحته
المتدفقة ،هي التي اثرت فيه بل حضوره ذاته ، صوته : صوت
ذو نبرات غريبة ترن في حنايا النفس رنين الأجراس ، ذلك هو الذي
كان يقبض على المستمع وكأنها يد عملاق تلف جسده ، تهزه ، تجعله
ينتفض بخوف مفاجيء باحساس بأشياء ليست من هذه الأرض ،
بأسرار لم يبح بها أحد من قبل ، بمثول الرعب والهول أمام العين . . لقد
انكشفت دروب أمام عينيه ، انهارت الأرض تحت قدميه ، حدث
ثوران ، هزة ، انتفاضة ، وشعر بنفسه فجأة مجرد انسان لا أكثر — في
داخله طاقات لم يحلم بها ، قوى شيطانية تصارع ، عجائب طويلة
العهد تكافح لكي تولد ، فجلس ينتابه الألم والفرح ، بينما سرى خدر
في أصابع قدميه وغدا تنفسه صعباً متسارعاً . كانت كلمات هذا الرجل
هزيم رعد يدوي في جنبات نفسه ، فيضان انفعال يتدفق في داخله — كل
أماله وأشواقه القديمة ، أحزانه وسورات غضبه ويأسه ، كل ما شعر
به يوماً من الأيام في حياته بدا وكأنه يعود إليه دفعة واحدة وبعاطفة
جديدة يصعب وصفها . ان يكون قد عانى من اضطهادات وأهوال
كهذه أمر سيء بما فيه الكفاية ، لكن ان تسحقه وتهزمه ، أن يستسلم
وينسى ويعيش في سلام — حقاً ، ذلكم هو الشيء الذي لايمكن التعبير
عنه بالكلمات ، الشيء الذي لايمكن لمخلوق بشري أن يتحمله ،

إنه الهول والجنون . . يسأل النبي « ترى ماهي جريمة من يقتل الجسم بالنسبة لجريمة من يقتل الروح ؟ » وكان جرجس انساناً قتلت روحه ، كف عن الأمل ، توقف عن الكفاح — انساناً عقد اتفاقية مع الانحطاط واليأس . والآن ، فجأة وبانتفاضة مرعبة ، اتضحت الحقيقة السوداء البغيضة أمام عينيه إذ كان هناك انهيار كامل لكل ركائز روحه ، وكانت السماء تنغلق فوق رأسه — فوقف رافعاً يديه المطبقتين باحكام ، عيناه حمراوان كالدم ، عروقه تنتفض ارجوانية في وجهه ، ثم زأر بصوت كصوت الأسد ، صوت كأصوات المجانين . وحين لم يعد باستطاعته الصراخ وقف ساكناً وهو يشهق ويهمس بصوت أبح في سره « يالله ! . يالله ! . يالله ! . » .

— ٢٩ —

عاد الرجل إلى مقعده على المنصة فأدرك جرجس أن خطابه قد انتهى . لقد استمر التصفيق عدة دقائق . ثم بدأ أحدهم أغنية سرعان ما انتشرت بين الحشد وارتج بها المكان ارتجاجاً . لم يكن جرجس قد سمع بها أبداً ، ولم يستطع تبين الكلمات جيداً ، إلا أن روحها الغريبة العجيبة سيطرت عليه — انها نشيد المارسيلييز . . وبينما كانت مقاطعه تدوي مقطعاً اثر آخر جلس جرجس مضموم اليدين ، يرتعش كل عصب فيه . لم يكن قد أثير على هذا النحو طيلة حياته — انها اعجوبة تنسج في داخله . لم يعد باستطاعته التفكير مطلقاً ، كان منذهلاً ، إلا أنه

أدرك أن رجلاً جديداً قد ولد فيه من خلال الانتفاضة الهائلة التي حلت بروحه . لقد خرج من بين أنياب الدمار ، تخلص من براثن اليأس ، العالم برمته قد تغير من حوله — انه حر . . حر . . حتى وان كان سيعاني كما عانى من قبل حتى وان كان سيتسول ويتضور جوعاً ، فلم يعد الأمر كما كان من قبل . انه سيفهم ذلك سيتحمله . . لن يكون بعد اليوم ألعوبة الظروف ، بل سيكون رجلاً ذا ارادة وهدف ، سيكون لديه مايقاتل من أجله ، مايموت من أجله ان احتاج الأمر . فهنا رجال يوضحون له ويساعدونه ، سيكون له منهم أصدقاء وحلفاء ، سيقيم في حمى العدالة وسيتأبط ذراع القوة .

هدأ الجمهور مرة ثانية وجلس جرجس في مقعده من جديد . فتقدم عريف الحفل ثم بدأ الكلام . كان صوته يبدو رخواً جافاً بعد صوت ذلك الرجل ، بل بدا لجرجس وكأنه نوع من التدنيس . ترى لماذا يتكلم أي انسان آخر بعد ذلك الرجل المدهش ؟ لم لا يصمتون جميعاً ؟ كان العريف يشرح أنه سيتحتم جباية بعض الأموال لتغطية نفقات الاجتماع ودعماً لرصيد الحزب في حملته . سمع جرجس ، لكنه لم يكن يملك قرشاً يدفعه . وهكذا سرحت أفكاره في مكان آخر من جديد .

كانت عيناه مثبتتين على الخطيب الذي كان يجلس في كرسيه وقد أسند رأسه إلى يده في حالة تدل على الاعياء . لكنه ، وعلى نحو مفاجيء ـ

هب على قدميه ثانية وسمع جرجس عريف الحفل يقول أن الخطيب سيجيب على أي سؤال يود الجمهور طرحه . تقدم الرجل إلى الأمام ، فنهضت امرأة ثم سألته عن رأي كان الخطيب قد عبر عنه يتعلق بتولستوي. لم يكن جرجس قد سمع أبداً بتولستوي ولم يكن يهمه شيء يخصه . ترى لماذا يسأل الناس أسئلة كهذه بعد خطاب من هذا النوع ، فليست المسألة ان نتكلم بل ان نفعل، المسألة هي ان نضع يدنا على الآخرين، نستثيرهم ، ننظمهم ونعدهم للقتال . .

لكن رغم ذلك استمر النقاش بنبرة محادثة عادية مما اعاد جرجس إلى دنيا الواقع . قبل بضع دقائق شعر وكأنه يود الامساك بيد السيدة الجميلة الجالسة إلى جانبه ويقبلها ، شعر وكأنه يود القاء ذراعيه حول عنق الرجل الجالس إلى جانبه الآخر . والآن هاهو قد بدأ يدرك انه « متشر د » — رث الثياب ، كريه الرائحة ، لامكان له يأوي اليه تلك الليلة .

وهكذا انتهى الاجتماع اخيراً وبدأ الحضور يغادرون القاعة ، بينما كان جرجس يعاني عذاب القلق . لم يكن قد فكر بالمغادرة بل فكر ان الرؤيا لابد باقية إلى الابد وانه قد وجد اخواناً ورفاقاً لكنه الآن سيخرج ، ستتلاشى الرؤيا . ولن يكون بمستطاعه ان يجدها مرة ثانية . . فجلس في مقعده خائفاً متعجباً ، لكن الآخرين الجالسين في الصف نفسه كانوا يريدون الخروج وهكذا اضطر لان ينهض وان يتحرك ، وبينما

كان يجرفه التيار نزولاً إلى الممر كان ينتقل ببصره من شخص إلى آخر بتوق واكتئاب ، فقد كانوا جميعاً يناقشون الخطاب بانفعال شديد — . الا ان احداً لم يتقدم لمناقشته معه . واقترب من الباب إلى حد يكفي لان يحس بجو الليل ، فألقى اليأس قبضته عليه . لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك الخطاب الذي سمعه ، لم يكن يعرف حتى اسم الخطيب وعليه ان يذهب دون ان يعرف — لا ! ! لا ! ! هذا محال . ينبغي ان يتكلم مع احدهم ، ينبغي ان يجد ذلك الرجل نفسه ويحدثه ، لا ، لن يحتقره ، ذاك الذي كان شريداً مثله ! !

وهكذا دخل صفاً خاوياً من المقاعد راح يراقب منه . وحين خف الحشد انطلق نحو المنصة . كان الخطيب قد ذهب ، إلا ان باب المسرح كان مايزال مفتوحاً والناس يخرجون ويدخلون ولا احد يحرسه . لملم جرجس اطراف شجاعته ودخل ، ثم نزل ممراً يؤدي إلى باب الغرفة حيث كان يحتشد جمع غفير من الناس . لم يعره احد أي انتباه ، فاندفع إلى الداخل وفي احد الاركان رأى الرجل الذي كان يبحث عنه جالساً في كرسيه مزموم الكتفين ، مطبق العينين تقريباً . كان وجهه شاحباً شحوباً مخيفاً يميل لونه إلى — الخضرة ، وقد ارتخت احدى ذراعيه إلى جانبه ، بينما وقف بقربه رجل ضخم الجثة يلبس نظارتين وهو يرجع الناس إلى الوراء ، مبعداً الحشد عنه قائلاً : « ابعدوا قليلاً من فضلكم . ألاترون ان الرفيق منهك ؟ »

وهكذا وقف جرجس يراقب خمس او عشر دقائق . من حين إلى آخر كان الرجل يتطلع إلى الاعلى ، يوجه كلمة او كلمتين إلى من هم قربه ، اخيراً وفي احدى هذه المناسبات وقع بصره على جرجس . وبدا في عينيه اثر من تساؤل فشعر جرجس وكأن قوة دافعة مفاجئة تطغى عليه فخطا إلى الامام .

« وددت ان اشكرك ياسيدي » بدأ جرجس بسرعة وهو يلهث « لم استطع الذهاب قبل ان اخبرك كم — كم سررت لسماعك . فأنا — . . لم اكن اعرف شيئاً عن ذلك كله . »

في هذه اللحظة كان الرجل ضخم الجثة ذو النظارتين والذي كان قد ابتعد قليلاً ، قد رجع إلى مكانه « الرفيق في غاية الانهاك ولا يستطيع التحدث مع احد — » بدأ يكلم جرجس إلا ان الآخر رفع يده عالياً ثم قال :

« انتظر . فلدى الرجل مايقوله لي » ثم حدق إلى وجه جرجس متسائلاً :

« اتريد ان تعرف المزيد عن الاشتراكية ؟ »

فبدأ جرجس متلعثماً « أ . . أ . . أهذه — هي الاشتراكية ؟ لم اكن اعلم — والآن اود ان اعرف كل شيء عما كنت تتحدث عنه — اود ان اقدم مساعدة . كلي لذلك . »

« اين تسكن ؟ » سأل الآخر

فأجاب جرجس « ليس لي منزل . ولاعمل »

« انت اجنبي . أليس كذلك ؟»

« ليتواني ياسيدي » .

أطرق الرجل لحظة متفكراً ثم التفت إلى صديقه سائلاً « من هناك ياولترز ؟ هناك اوسترينسكي — لكنه بولندي — »

فقال الآخر « اوسترينسكي يتكلم الليتوانية »

« حسن اذن . هل يمكنك ان ترى ان كان قد غادر ؟ »

انطلق الآخر مبتعداً . بينما عاود الخطيب النظر إلى جرجس ثانية . بعينين سوداوين عميقتين ووجه ملؤه الرقة والالم . ثم قال : « يجب ان تعذرني ايها الرفيق . فأنا منهك تماماً — انني اتكلم يومياً منذ شهر لكنني سأقدمك إلى شخص يستطيع تقديم المساعدة لك مثلما استطيع انا . »

لم يكن الرسول قد اجتاز أبعد من الباب حتى اقفل عائداً يتبعه رجل قدمه إلى جرجس على انه الرفيق اوسترينسكي ، كان اوسترينسكي شخصاً ضئيل الجسم لايصل إلا بالكاد إلى كتف جرجس ، جاف العروق متغضن الوجه ، قبيح المنظر يعرج قليلاً ويرتدي سترة سوداء طويلةالذيل ذات شريط اخضرعند درزتهاوعرى ازرار . ولابدمن أن عينيه كانتا ضعيفتين اذ كان يلبس نظارتين غريبتين اضفتا عليه منظراً غريباً . لكن قبضة يده . وهو يصافح . كانت قوية وكان يتكلم الليتوانية

التي جعلته قريباً من قلب جرجس . قال الرجل : «تريد ان تعرف شيئاً عن الاشتراكية ؟ بالتأكيد ، اذن دعنا نخرج ونتمشى الى حيث يمكننا ان نجلس بهدوء ونتكلم . »

وهكذا ودع جرجس السيد المتعب وخرج . سأله اوسترينسكي عن مكان سكنه ، عارضاً ان يسيرا في ذلك الاتجاه فاضطر جرجس لان يشرح مرة اخرى انه بدون بيت ، وبناء على طلب الآخر حكى له قصته : كيف جاء الى امريكا ، ماحدث له في المسلخ ، كيف تحطمت عائلته وكيف اصبح شريداً . استمع الرجل الضئيل الجسم لكل حرف من قصته ثم ضغط على ذراع جرجس بشدة قائلاً —« لقد وقعت بين اسنان الطاحونة ايها الرفيق ، لكننا سنصنع مقاتلا منك . . »

بعدئذ بدأ اوسترينسكي يشرح ظروفه بدوره . كان بوده ان يدعو جرجس الى بيته انما ليس لديه سوى غرفتين وليس لديه فراش يقدمه له . كان من الممكن ان يقدم له فراشه الخاص الا ان زوجته مريضة ، لكن فيما بعد وحين فهم ان جرجس سينام في احد مداخل الابنية ان لم يأخذه معه عرض عليه ان ينام في مطبخه ، وكان من دواعي سرور الآخر ان يقبل هذا العرض . . « ربما نتمكن غداً من فعل ماهو افضل » قال الآخر « فنحن نحاول ألا ندع رفيقاً من رفاقنا يموت جوعاً . »

كان بيت اوسترينسكي في منطقة الغيتو . وكان يتألف من غرفتين في قبو . كان ثمة طفل صغير يبكي حين دخلا ، فأغلق الباب المؤدي إلى

غرفة النوم . شرح اوستّرينسكي له ان لديه ثلاثة اولاد صغار ــ وطفلاً ولد من جديد . ثم سحب كرسيين الى جوار موقد المطبخ : مضيفاً ان على جرجس ان يعذرهم لما في البيت من فوضى . ففي وقت كهذا غالباً ماتقلب ترييبات البيت رأساً على عقب . كان نصف المطبخ مشغولاً بمقعد للشغل تكومت عليه كومة كبيرة من القماش فشرح اوستّرينسكي انه « يفصل بنطلونات » وقد جاء بهذا القماش كي يشتغل به هو وزوجته. انه يكسب قوته منه ، الا ان الامور تصعب يوماً بعد يوم لان عينيه بدأتا تخذلانه . ماذا سيحدث حين تخذلانه كلياً امر لايستطيع التحدث به ، فهو لم يوفر شيئاً ــ والانسان لايستطيع ان يكسب من عمل اثنتي عشرة او اربع عشرة ساعة يومياً الا مايسد الرمق. فتفصيل البناطيل لايحتـاج لكثـير من المهـارة . بامكـان كـل امرىء ان يتعلم هذه المهنة ، لذا يقل كسبهم يوماً بعد يوم . انه نظام الاجر التنافسي ، وان كان جرجس يود أن يفهم ماهي الاشتراكية ،فالافضل ان يبدأ من هنا . فالعمال يعتمدون على عمل يعيشون منه يوماً بيوم ، وبذلك ينافسون بعضهم بعضاً ، وليس باستطاعة احد ان يحصل على أكثر من الحد الادنى الذي يقدمه الآخرون المستغلون . وهكذا تجد جماهير الناس في حال صراع دائم مع الفقر ، صراع حياة او موت . ذلك هو « التنافس » بالنسبة لكاسب الاجر ، ذاك الذي لايملك الا جهده كي يبيعه ، اما بالنسبة لمن هم في قمة الهرم أي المستغلين ، فالأمر يبدو مختلفاً تماماً ، طبعاً ــ فهناك قلة منهم وبامكانهم ان يتحدوا ويفرضوا

سيطرتهم لتغدو قوتهم لاتقاوم . وهكذا يوجد في كل مكان من العالم طبقتان ، الشقة الفاصلة بينهما لاتسد ابداً ــ الطبقة الرأسمالية ذات الثروات الهائلة والبروليتاريا المقيدة بسلاسل خفية إلى نير عبوديتها . ورغم ان هذه الطبقة تفوق تلك بنسبة الف إلى واحد ، الا انها جاهلة وعاجزة وستبقى تحت رحمة مستغليها إلى ان تنظم نفسها ــ إلى ان تصبح طبقة واعية . وهذه عملية بطيئة ومملة الاانها ــ ستستمر . انها اشبه بجبل جليدي ، ما ان يبدأ الحركة حتى يصعب ايقافه تماماً .

كل اشتراكي يساهم بنصيبه ويعيش على امل « مجيء الزمن الصالح »ــ وذلك حين تذهب الطبقة العاملة إلى صناديق الاقتراع وتمسك بزمام السلطة ، وتضع حداً للملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وبغض النظر عن مقدار فقر الانسان او مقدار معاناته ، فانه لايمكن ان يكون تعيساً حقاً طالما يعلم شيئاً عن مثل ذلك المسقبل ، حتى وان لم يعش إلى ان يراه بنفسه فان اولاده سيعيشون ويرونه . بالنسبة للاشتراكي ، نصر طبقته هو نصره . كذلك هناك دائماً التقدم الذي يشد من أزره . فهنا في شيكاغو ، مثلاً ، تنمو الحركة بقفزات كبيرة . شيكاغو هي المركز الصناعي للبلاد ، وليس هناك مكان آخر تعادل قوة النقابات فيه قوتها هنا ، الا ان هذه التنظيمات لاتقدم للعمال الا القليل من النفع ، والسبب في ذلك هو ان ارباب العمل منظمون ايضاً ، لذا تفشل الاضرابات عموماً ، لكن بقدر ماتنتشر النقابات بسرعة أكبر بقدر مايتحول الناس إلى الاشتراكية .

بعد ذلك شرح اوسترينسكي تنظيم الحزب ، الجهاز الذي تثقف البروليتاريا نفسها من خلاله قائلاً أن هناك « محليات » في كل مدينة وبلدة ، وهي قيد التنظيم في المواطن الاصغر . « والمحلية » ، حيثما كانت ، تضم من ستة الى ألف عضو ومجموع المحليات هو ألف واربعمائة أي ما مجموعه حوالي خمسة وعشرين ألف عضو يدفعون اشتراكات لدعم المنظمة . اما « محلية المنطقة » كما تدعى منظمة المدينة فتضم ثمانين محلية فرعية وهي وحدها تنفق عدة آلاف من الدولارات في الحملة ، وتصدر نشرة اسبوعية باللغة الانكليزية واخرى باللغة البوهيمية والالمانية . كذلك هناك دورية تصدر كل شهر في شيكاغو ودار نشر تعاونية يصدر عنها مليون نسخة من الكتب والمؤلفات كل عام. وهذا كله حصيلة السنوات القليلة الماضية — اذ لم يكن هناك شيء من هذا كله حين قدم اوسترينسكي إلى شيكاغو .

واوسترينسكي بولندي في حوالي الخمسين من العمر ، عاش في سيليسيا ، فرداً من شعب محتقر ومضطهد وشارك في الحركة العمالية في مطلع السبعينات حين وجه بسمارك ، بعد ان قهر فرنسا ، سياسته ، سياسة الحديد والدم نحو « الاممية » . اوسترينسكي نفسه سيق إلى المعتقل مرتين لكنه كان شاباً حينذاك ولم يكن يبالي ورغم انه كان قد قدم أكثر من نصيبه في الكفاح ، فقد رحل إلى امريكا كي يبدأ من جديد في الوقت الذي حطمت فيه الاشتراكية كل حواجزها وغدت أكثر قوة سياسية

في الامبراطورية . في امريكا كان الجميع يسخرون من مجرد طرح فكرة الاشتراكية — ففي امريكا كل الناس احرار ، كما لو ان الحرية السياسية تجعل عبودية — الاجور اسهل كثيراً . . قال اوستربنسكي .

كان الخياط الضئيل الجسم مائلاً إلى الوراء في كرسيه المتين وقد مد قدميه فوق الموقد الخاوي ، متحدثاً همساً كيلا يوقظ النائمين في الغرفة المجاورة . فبدا لعيني جرجس شخصاً لايقل روعة عن الخطيب الذي كان يتكلم في الاجتماع « انه فقير ، في اسفل درجات السلم ، بائس تسوطه سياط الجوع — ومع ذلك ماأكثر مايعرف ! ! مااعظم جرأته ! ! ماأكثر ماانجز ! ! اي بطل تراه ! ! وهناك آخرون مثله ايضاً — آلاف مثله ، كلهم عمال . . كل تلك الالية الرائعة ، آلية التقدم التي تحدث عنها انما ابدعها هو وزملاؤه — ولم يستطع جرجس تصديق ذلك ، لقد بدا اعظم من ان يصدق » .

ذلك هو الطريق دائماً ، قال اوستربنسكي ، فحين يهتدي المرء اول مايهتدي إلى الاشتراكية يغدو كالمجنون — لايستطيع ان يفهم كيف يعجز الآخرون عن رؤية الاشتراكية كما يتوقع ان يهدي العالم كله لها في اول اسبوع . لكنه بعد حين يدرك كم هي مهمة صعبة ولسوف يكون محظوظاً ان استطاع هداية بضعة عمال جدد ليمنعوا عنه السقوط في مهاوي اليأس . الآن تماماً يمكن ان تتاح لجرجس فرصة طيبة للتنفيس عن انفعاله ، فهناك حملة لانتخاب رئيس للجمهورية والجميع يتحدثون

في السياسة . اوستّرينسكي سيأخذه إلى الاجتماع التالي « للمحلية الفرعية » ويقدمه إلى المسؤولين . وهناك ينضم إلى الحزب . الاشتراكات خمسة سنتات اسبوعياً ، لكن كل من لايستطيع الدفع يمكن اعفاؤه . الحزب الاشتراكي منظمة سياسية ديموقراطية حقاً ، يسيطر عليها سيطرة كاملة ويدير شؤونها افرادها انفسهم وليس لها رؤساء .

شرح اوستّرينسكي هذا كله لجرجس ، كما شرح ايضاً مبادىء الحزب اذ يمكن القول انه ليس هناك بالحقيقة الا مبدأ اشتراكي واحد — هو مبدأ اللامساومة ، الذي يعد جوهر الحركة البروليتارية في كل انحاء العالم . فحين ينتخب اشتراكي ما لمنصب من المناصب فانه يصوت مع مشرعي الحزب الكبار على أي اجراء يحتمل ان يكون ذا فائدة للطبقة العاملة ، لكنه لاينسى ابداً ان تلك المناسبات ، اياً كانت ، انما هي تافهة بالمقارنة مع الهدف العظيم — أي تنظيم الطبقة العاملة من اجل القيام بالثورة . فحتى الآن ، القاعدة في امريكا هي ان الاشتراكي يصنع اشتراكياً آخر مرة كل سنتين ، واذا ماحافظوا على المعدل نفسه سيكتسحون البلاد في عام ١٩٢١ ، رغم انه من غير المتوقع ان ينجحوا كلهم بالسرعة ذاتها .

وللاشتراكيين تنظيم في كل امة متحضرة . انه حزب سياسي اممي ، بل أكبر حزب عرفه العالم . لايقل عدد اتباعه عن ثلاثين مليوناً

وله ثمانية ملايين صوت . لقد بدأ صحيفته الاولى في اليابان وانتخب نائبه الاول في الارجنتين وفي فرنسا يسمي اعضاء في مجلس الوزراء ، وفي ايطاليا واستراليا يمسك بميزان القوى ويغير وزارات . اما في المانيا ، حيث يبلغ مجموع اصواته أكثر من ثلث مجموع الاصوات في الامبراطورية فقد اتحدت كل الاحزاب والقوى الاخرى كي تواجهه . لكن لن يجدي ذلك نفعاً ، شرح اوسترينسكي ، فحين تحقق بروليتاريا امة من الامم انتصار تلك الامة تهب القوة العسكرية للامم الاخرى وتسحقها . لذا فالحركة الاشتراكية هي حركة عالمية ، تنظيم لكل الجنس البشري يبني من خلاله الحرية والاخوة . إنه الدين الجديد للبشرية — او يمكنك القول انه ماتوصل اليه الدين القديم ، نظراً لانه يتضمن المعنى الحقيقي لكل تعاليم المسيح .

انقضى زمن طويل بعد منتصف الليل وجرجس غارق في الحديث مع صاحبه الجديد . انها تجربة في منتهى الروعة بالنسبة له — تجربة خارقة للطبيعة تقريباً ، إنها اشبه بمقابلة احد سكان الكواكب البعيدة المتحررين من كل قيود الانسان . منذ اربع سنوات وجرجس يجول ويتخبط في فيفاء مقفرة وهاهي ذي فجأة تمتد يد اليه ، تمسك به ثم تخرجه من القفر وتضعه على قمة جبل ، حيث يمكن ان يرى كل شيء — يرى الممرات التي طاف بها ، المستنقعات التي خوض فيها ، مكامن الوحوش المفترسة

التي وقع عليها . هناك تجاربه في باكنجتاون ، مثلاً ، — وأي شيء في باكنجتاون لايستطيع اوسترينسكي تفسيره ، بالنسبة لجرجس كان اصحاب دور التعليب رديفاً للقدر ، اما اوسترينسكي فقد اوضح له انهم « شركة احتكارية للحوم » . انهم اتحاد عملاق لرأس المال يستحق كل معارضة ، يدوس بقدمه قوانين البلاد ، يفترس الشعب . وتذكر جرجس كيف وقف ، حين قدم اول مرة إلى باكنجتاون ، وراقب ذبح الخنازير ، فخطر له حينذاك مقدار ما في ذلك من قسوة ووحشية ثم خرج وهو يهنيء نفسه انه ليس خنزيراً ، والآن يبين له صاحبه الجديد أن وضع الخنزير افضل من وضعه هو .— وانه ليس أكثر من احد خنازير دور التعليب . فما يريدونه من الخنزير انما هي الفوائد التي يمكنهم ان يستخلصوها منه ، وهذا هو بالضبط مايريدونه من العامل وهو نفسه مايريدونه من الجماهير . مايفكر به الخنزير وما يعاني منه ليس بذي اهمية مطلقاً ، كذلك لااهمية ابداً لما يفكر به العمال وما يعانون منه وما يفكر به مستهلك اللحم وما يعاني منه . وهذا صحيح في كل مكان من العالم . . الا انه صحيح على نحو خاص في باكنجتاون ، فهنا يشتد المستغلون قسوة ولا مبالاة بسبب ممارستهم اعمال الذبح والقتل — وهذا هو نفسه مايجعل حياة مئات الناس لاتساوي بنساً واحداً لدى هذه الطبقة المستغلة . وحين يقرأ جرجس الكتابات الاشتراكية ويتفهمها جيداً ، كما يمكنه ان يفعل ذلك بسرعة ، فانه سيأخذ لمحات عن شركة احتكار اللحوم من كافة جوانبها ولسوف يجدها هي ذاتها في كل مكان .

انها تجسيد الطمع الاعمى المجنون . انها الوحش الذي يلتهم كل شيء وله الف فم ويطأ كل مادونه بألف حافر . انها الجزار الكبير — روح الرأسمالية مجسدة بلحمها ودمها . في محيط التجارة تبحر كسفينة قرصنة ، ترفع الراية السوداء وتعلن الحرب على المدينة . الرشوة والفساد هما نهجها وطريقها . في شيكاغو ، حكومة المدينة احد مكاتبها الفرعية. انها تسرق بلايين الغالونات من ماء المدينة جهاراً ، وتملي على المحاكم الاحكام التي تريد فرضها بالمضربين المخلين بالنظام وتمنع رئيس البلدية من تنفيذ قوانين البناء ضدها ، وفي عاصمة البلاد ، لديها القوة لمنع تفتيش منتجاتها وتزوير تقارير الحكومة وانتهاك قوانين الضريبة . وحين تهدد باجراء تفتيش ، تحرق دفاتر حساباتها وتبعث بوكلائها المرتكبين خارج البلاد . انها في عالم التجارة القوة الساحقة ، تلك التي تمحق في طريقها كل شيء ، تبتلع آلاف المهن كل عام وتدفع بالناس إلى الجنون والانتحار . إنها تفرض ادنى اسعار للماشية كي تقضي على صناعة تربية الماشية وهي المهنة التي تعيش عليها الولايات كاملة وتحطم آلاف الجزارين الذين يرفضون تداول منتجاتها . انها تقسم البلاد إلى مناطق ، تثبت سعر اللحم في كل منها ، تضع يدها عل كل عربات التبريد ، تفرض جزية ضخمة على كل الدواجن والبيوض والثمار والخضار . انها ، بملايين الدولارات التي تتدفق كل اسبوع عليها ، تتوصل إلى التحكم بالمصالح الاخرى ، بخطوط السكك الحديدية

والترامات ، بامتيازات الكهرباء والغاز ، ولقد وضعت يدها من قبل على مصالح الجلود والحبوب في البلاد . ورغم أن الناس تثيرهم إلى ابعد حد ، تعدياتها وتجاوزاتها ، لكن مامن احد يملك العلاج . وحدهم الاشتراكيون يحملون على عاتقهم مسؤولية تعليم الناس وتنظيمهم ، اعدادهم للوقت الذي يتوجب عليهم فيه ان يضعوا ايديهم على الآلة الضخمة التي تدعى « تروست اللحوم » كي يستخدموها لانتاج الغذاء للناس لا لتكديس الثروات لصالح حفنة من القراصنة – وكان قد مضى زمن طويل على منتصف الليل حين تمدد جرجس على أرضية المطبخ ، ثم مضت ساعة قبل أن يرقد له جفن ، فرحا بروعة تلك الرؤيا ، رؤيا سكان باكنجتاون وهم يسيرون قدماً ويضعون أيديهم على « اتحاد المسالخ » .

– ٣٠ –

تناول جرجس الافطار مع أوسترينسكي وعائلته ، ثم ذهب إلى البيت ، إلى الزبيبيتا . لم يعد يشعر بالخجل من نفسه – وحين دخل بدأ ، بدلاً من قول كل ماخطط لقوله ، يحكي لالزبيبيتا عن الثورة ! في البداية ظنت أنه فقد صوابه ، وقد مرت ساعات قبل أن تطمئن فعلاً على أنه هو جرجس بلحمه وشحمه . وحين أقنعت نفسها بسلامة عقله في كل الميادين ماعدا ميدان السياسة ، لم تعد تهتم بالأمر . لقد قدر على جرجس أن يكتشف أن درع الزبيبيتا منيع مناعة مطلقة على الاشتراكية .

فقد تصلبت روحها في نار العداء للاشتراكية ولا يمكن تحويلها الآن . الحياة بالنسبة لها هي البحث عن الخبز اليومي والأفكار الموجودة بالنسبة لها هي الأفكار التي تنصب على ذلك وحسب . كل مايهمها من هذه الصرعة الجديدة التي استحوذت على تفكير صهرها هو ما إذا كانت ستدفع به لأن يكون عاقلاً ودؤوباً على عمله أم لا ، وحين اكتشفت أنه ينوي البحث عن عمل ويقدم نصيباً من مصار يف العائلة ، أطلقت العنان له لاقناعها بأي شيء ، امرأة صغيرة حكيمة على نحو رائع هي الزبيبتا ، يمكنها أن تفكر بالسرعة التي يفكر بها أرنب مطارد . لذا ، وخلال نصف ساعة ، كانت قد اختارت موقفها مدى الحياة تجاه الحركة الاشتراكية . كانت تتفق بكل شيء مع جرجس ،ما عدا ضرورة دفع الاشتراك بل انها ستذهب معه إلى الاجتماع بين الفينة والفينة وستجلس وتخطط لغداء يومها التالي وسط الضجيج والزحام .

طوال أسبوع من اهتداء جرجس إلى الاشتراكية ، ظل يتابع التطورات كل يوم ، باحثاً عن عمل إلى أن صادفه أخيراً حظ غريب فقد كان يمر بأحد فنادق شيكاغو الصغيرة التي لاعد لها ولا حصر ، وبعد شيء من التردد قرر أن يدخل . رأى رجلاً يقف وسط الصالة فظنه صاحب الفندق وهكذا مضى إليه يسأله عملاً .

فسأله الرجل . . . « ماذا تستطيع أن تعمل » ؟ .

« أي شيء ياسيدي » قال جرجس ثم أضاف بسرعة « انني بلا عمل منذ زمن طويل ، وأنا رجل شريف وقوي وأرغب بالعمل . . . » .

فتفحصه الآخر تفحص المتعمد ثم سأله : « هل تشرب ؟ » .

فقال جرجس « كلا ياسيدي » .

« حسن . لدي بواب يشرب كثيراً ، وقد طردته سبع مرات حتى الآن ، وانني أشعر أن ذلك كاف فهل ترغب أن تكون بواباً ؟ » ا

« نعم ياسيدي » .

« انه عمل شاق . عليك أن تنظف الأرض ، تغسل المنافض ، تملأ المصابيح ، تحمل الحقائب » «. . أرغب بالعمل ياسيدي » .

« حسن . سأدفع لك ثلاثين في الشهر وطعامك ونومك ، ويمكنك أن تبدأ منذ الآن إن رغبت بذلك ، كما يمكنك أن ترتدي بذلة الشخص الآخر » .

وهكذا انكب جرجس على عمله وبدأ يشتغل بلا كلل أو ملل حتى الليل . عند ذاك ذهب وأخبر الزبيبتا . كما قام أيضاً ، رغم تأخر الوقت ، بزيارة أوسترينسكي لإعلامه بالحظ الحسن الذي أصابه . وهنا تلقى مفاجأة كبيرة ، فحين كان يصف موقع الفندق قاطعه أوسترينسكي فجأة قائلاً : « ليس فندق هايندز ؟ » .

فقال جرجس « بل هو . إنه الاسم ذاته » .

« اذن لديك أفضل رئيس في شيكاغو » أجاب الآخر « انه منظم كبير في حزبنا ، وواحد من أشهر خطبائنا . . » .

وهكذا ذهب جرجس صباح اليوم التالي إلى رب عمله وحكى له ، فقبض الرجل على يده وصافحه بشدة صارخاً : « بحق الله . . ذلك يجعلني أستريح . فأنا لم أنم طوال الليلة الماضية لانني طردت اشتراكياً جيداً » .

بعد ذلك ، بات جرجس يعرف لدى رئيسه باسم « الرفيق جرجس » وبالمقابل كان الرئيس يتوقع أن يناديه جرجس باسم « الرفيق هايندز » وتومي هايندز ، كما هو معروف لدى أصحابه ، رجل قصير ثخين ذو كتفين عريضتين ووجه متورد يزينه سالفان أشيبان . انه صاحب أطيب قلب عاش على وجه الأرض وهو أنشط البشر — رجل لاينفذ حماسه وهو يتكلم عن الاشتراكية طوال النهار والليل ، انه الشخص الذي يبهج الجمهور ويبقى الاجتماع بفضله في حال ثوران دائم ، وإذا ما بدأ الخطاب مرة فليس هناك من يوزه أبداً .

كان تومي هايندز قد بدأ حياته كمساعد حداد ، ثم هرب وانضم إلى جيش الاتحاد حيث تعرف لأول مرة على « الكسب غير المشروع » على شكل بواريد وبطانيات بالية . وبسبب احدى البواريد مات أخوه الوحيد وبسبب تلك البطانيات البالية يعاني كل مايعانيه الآن من عذابات

شيخوخته . فحينما تمطر يتحرك الروماتزم في مفاصله وحينذاك يبرم وجهه ويغمغم « الرأسمالية ! ! ياولدي ! الرأسمالية ! ! » .

كان لديه علاج لايخيب لكل شرور هذا العالم ، وكان يوصي به للجميع ، سواء كانت مشكلة الشخص هي اخفاق في العمل أو سوء هضم أو حماة تحب الشجار . ففي كل الحالات ، تلمع عيناه ويقول « هل تعلم ماتفعل بذلك — انتخب لائحة الاشتراكيين » .

وقد انطلق تومي هايندز متعقباً اثر « الأخطبوط » حالما انتهت الحرب . دخل غمار العمل فوجد نفسه في حالة تنافس مع أولئك الذين كانوا يسرقون حين كان هو في ميادين القتال . حكومة المدينة في أيديهم والسكك الحديدية متحالفة معهم ، وأصحاب المهن الشريفة محشورون في الزاوية ، وهكذا وضع هايندز كل مدخراته في عقارات شيكاغو وانطلق وحيداً يسد نهر الكسب غير المشروع . كان عضو اصلاح في مجلس المدينة ثم عضواً في غريناكر فنقابياً عمالياً ثم انتسب لحزب الشعب فحزب « البريانيت » وبعد ثلاثين سنة من العراك أفاده عام ١٨٩٦ في اقناعه بأن من غير الممكن ضبط سلطة الثروة المركزة بل من الممكن تدميرها فقط ، وقد نشر كتاباً حول ذلك ثم شرع بتنظيم حزب خاص به حين كشف له منشور اشتراكي بالمصادفة ، أن الآخرين قد سبقوه . والآن مضى عليه ثماني سنوات وهو يناضل في سبيل الحزب في أي مكان وكل مكان — سواء كان اجتماع انتخابات

عامة أو مؤتمر أصحاب فنادق أو حفلة رجال أعمال افرو — امريكيين او نزهة لرابطة انجيلية ، فان تومي هايندز يدبر توجيه الدعوة له كي يشرح علاقات الاشتراكية بالموضوع قيد البحث . انه يبدأ جولة من جولاته في شيكاغو وينتهي في مكان مابين نيويورك وأوريغون وحين يرجع من هناك ينطلق لكي ينظم محليات جديدة للجنة الولاية وأخيراً يعود إلى بيته كي يرتاح — ويتحدث عن الاشتراكية . كان فندق هايندز مهداً للدعاية بالغ الحرارة ، فكل المستخدمين أعضاء في الحزب وان لم يكونوا كذلك أول مجيئهم ، فمن المؤكد تماماً انهم سيكونون قبل أن يرحلوا . ذلك أن صاحب الفندق يدخل في نقاش مع أحد الناس في الصالون ومع ازدياد النقاش حرارة يبدأ الآخرون بالتجمع كي يسمعوا ، وهكذا يحتشد كل من في الفندق حول المتناقشين ويشكلون جماعة تشارك في نقاش نظامي ، كان يجري كل ليلة . وحين لايكون تومي هايندز موجوداً لاثارة النقاش فان كاتبه يحل محله وحين يكون كاتبه بعيداً في احدى الحملات فان مساعد الكاتب يحضر الجلسة ، بينما تجلس السيدة هايندز خلف الطاولة لتقوم بالمهمة . والكاتب صديق قديم من أصدقاء هايندز ، عملاق من الرجال ذو وجه مصفر ناحل وفم عريض وسالفان يصلان أسفل ذقنه ، النموذج الذي يجسد تماماً صاحب مزرعة ألبان . وقد كان كذلك طوال حياته . . وقد صارع شركات السكك الحديدية في كنساس خمسين سنة ، ثم انتسب لحزب

« غرانجر » وغدا أحد أعضاء تحالف المزارعين ثم أحد أفراد حزب الشعب « . . جناح الوسط » وأخيراً تكشفت له فكرة رائعة وهي استخدام التروستات بدلاً من تدميرها وهكذا باع مزرعته وجاء إلى شيكاغو .

ذلك هو أموس ستروفر ، لكن هناك أيضاً هاري آدامز ، مساعد الكاتب وهو رجل شاحب الوجه يبدو عليه مظهر الباحث أتى من ماساشوسيتز وبالتحديد من « بليغريم » . كان أدامز يعمل في تعاونية قطن قرب نهر فول ، إلا أن الكساد المستمر هناك أنهكه هو وعائلته فهاجر إلى كارولينا الجنوبية في ماساشوسيتز . كانت نسبة الأمية بين البيض ثمانية بالعشرة من المائة بينما هي في كارولينا الجنوبية ثلاثة عشر وستة من عشرة بالمائة كذلك يوجد في كارولينا الجنوبية شرط الملكية لمن يحق لهم التصويت ــ ولهذا السبب ولأسباب أخرى كان عمل الأطفال هو القاعدة كما كانت محالج القطن في ماساشوسيتز تطرد عمالها من اعمالهم .

لم يكن آدامز يعلم هذا . كان يعرف فقط أن محالج الجنوب تدور ؛ لكنه حين وصل إلى هناك وجد أن على كل أفراد عائلته إذا أرادوا العيش ، أن يعملوا من السادسة صباحاً حتى السادسة مساء . وهكذا انطلق يعمل في تنظيم الأيدي العاملة في المحلجة وفق الطراز المتبع في ماساشوسيتز فطرد من عمله ، لكنه حصل على عمل آخر وتشبث به ،

وأخيراً حدث اضراب لساعات قصيرة حاول فيه هاري آدامز أن يلقي خطاباً في الشارع ، فكانت في ذلك نهايته . ففي ولايات الجنوب تؤجر قوة العمل لدى المحكومين بالسجن إلى متعهدين ، وحين لايتوفر مايكفي من المحكومين فانه يتوجب توفيرهم . وهكذا حكم على هاري آدامز من قبل قاضٍ هو ابن عم صاحب المحلجة وشريكه في أعماله ورغم أن الحياة هناك كادت تقضي عليه ، إلا أنه كان من الحكمة بحيث لم يتلفظ بكلمة واحدة ، وحين انتهت فترة سجنه غادر هو وأسرته ولاية كارولينا الجنوبية ـ الفناء الخلفي للجحيم ، كما كان يسميها . لم تكن لديه أجرة القطار إلا أنه كان موسم الحصاد والعمل في موسم الحصاد متوفر ، وهكذا كانوا يسيرون يوماً ويعملون يوماً إلى أن وصلوا أخيراً إلى شيكاغو وانضم آدامز إلى الحزب الاشتراكي . لقد كان رجلاً مجداً متحفظاً لا شأن له بفن الخطابة ، إلا أنك تجد لديه دائماً كدسة من الكتب يضعها تحت طاولة في مكتب الفندق وكانت المقالات التي ينتجها يراعه في نشرات الحزب قد بدأت تجذب الانتباه وعلى العكس مما يتوقع المرء لم تضر هذه الراديكالية بأعمال الفندق . إذ كان الراديكاليون يتوافدون عليه وجميع المسافرين التجاريين يجدونه مسلياً . كذلك كان الفندق في الفترة الأخيرة قد غدا مكان التوقف المفضل لأصحاب الماشية الغربيين . فمنذ أن تبنى تروست اللحوم سياسة رفع الأسعار لاجتذاب حمولات الماشية الضخمة ومن ثم أنزلها مرة

ثانية ووضع يده على كل مايحتاجه ، فقد بات من المحتمل كثيراً آن يجد مربي الماشية نفسه في شيكاغو عاجزاً عن دفع فاتورة الشحن ، وهكذا يضطر للذهاب إلى فندق رخيص ، وليس بالعائق بالنسبة له أن يكون هناك نقاش عام في الصالة . فهؤلاء الغربيون هم الوجبة الرئيسية لتومي هايندز . انه يضع نصف دستة منهم حوله ويرسم صوراً صغيرة « للنظام » . بالطبع ، لم يمض اسبوع حتى كان قد سمع قصة جرجس بكاملها . بعد ذلك لم يكن هايندز ليترك بوابه الحديد مقابل الدنيا كلها . « اسمع لقد وجدت الشخص المناسب لفندقي ، الشخص الذي يعمل فيه ويولي اهتمامه لكل مافيه » .

كان جرجس ينكب على عمله أياً كان ، وحين ينتهي منه يقول الآخر : « رفيق جرجس ، ارو لهؤلاء السادة مارأيته تماماً في أحواض الذبح » . في المرة الأولى ، سبب هذا الطلب لجرجس أشد أنواع العذاب ، وبدا له الكلام عن الموضوع أشبه بقلع الأسنان ، لكنه شيئاً فشيئاً اكتشف المطلوب تماماً ، وفي النهاية تعلم كيف يقف ويقول ما يقوله بحماسة بالغة . كان رب عمله يجلس جانباً ويشجعه بهتافات التعجب وهزات الرأس ، وحين يقدم جرجس وصفاً لعناصر اللحم المطبوخ أو يحكي عن الخنازير المحكوم عليها بالاتلاف والتي يتم اسقاطها داخل « المدمرات » من الأعلى لتخرج مباشرة من الأسفل ، ثم تحمل إلى ولاية أخرى وتصنع على شكل شحوم ، فان تومي هايندز يلطم ركبته ويصرخ « أو تظنون أن من الممكن أن يخطر شيء من هذا في بال انسان ؟ » .

بعد ذاك يهب صاحب الفندق فيبين كيف أن الاشتراكيين يملكون العلاج الحقيقي لشرور كهذه ، وكيف أنهم هم وحدهم « ينوون معالجة تروست كتروست اللحوم » . وحينما يجيب الطرف الآخر بأن البلاد كلها ثائرة على تصرف هذا التروست وان الصحف ملأى بالتنديدات به وان الحكومة تهم باتخاذ اجراء ضده ، حينها يستعد تومي هايندز لتوجيه الضربة القاضية اذ يقول « أجل ، هذا كله صحيح — لكن ماتراكم تظنون السبب في ذلك كله ؟ هل أنتم من الحماقة بحيث تصدقون ان ذلك يجري من أجل مصلحة الجماهير ؟ ففي البلاد تروستات أخرى غير شرعية وابتزازية مثل تروست اللحوم تماماً هناك تروست الفحم الذي يجمد الفقراء من البرد في الشتاء — وهناك تروست الفولاذ الذي يضاعف سعر كل مسمار في حذائك — وهناك تروست النفط الذي يمنعك من القراءة ليلا — فما هو السبب ياترى في هياج الصحف ذاك وفي سخط الحكومة الموجه ضد تروست اللحوم ؟ وحين يجيب الطرف الآخر بأن هناك ضجة كافية ايضاحول تروست النفط يتابع هايندز « قبل عشر سنوات قال هنري لويد كل الحقيقة عن شركة ستاندار للنفط في كتابه « الثروة الخاصة مقابل الثروة العامة » فحورب الكتاب بل فقد من الأسواق ، وربما لم نسمع به أبداً . وأخيراً ، وجدت مجلتان بعض الشجاعة للتعرض لشركة ستاندار مرة ثانية ، فماذا حدث ؟ الصحف تتهكم على كتّاب المقالات ،

والكنائس تدافع عن المجرمين – والحكومة لاتحرك ساكناً . اذن :
لماذا الأمر مختلف كلياً مع تروست اللحوم ؟ ».

هنا يعترف الآخر عموماً ، بأنه أفحيم ، وحينذاك يشرح له تومي هايندز كل شيء وعيناه جاحظتان، الأمر الذي يبعث على الضحك أحياناً. « لو كنت اشتراكياً » يقول صاحب الفندق « لفهمت جيداً أن السلطة التي تحكم الولايات المتحدة اليوم هي تروست السكك الحديدية ، هذا التروست هو الذي يسيطر على حكومة ولايتك حيث تعيش ويسيطر على مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة . كل التروستات التي ذكرناها هي تروستات سكك حديدية – ما عدا تروست اللحوم فقط . هذا التروست يتحدى السكك الحديدية – وهو ينهبها يوماً بعد يوم من خلال التزامات الخاصة ، الأمر الذي جعل الجمهور يثور ويغضب ، والصحف ترفع أصواتها مطالبة بالعمل ، والحكومة تختار طريق الصدام.. وأنتم أيها الناس المساكين تراقبون وتصفقون ظانين ان ذلك يتم من أجلكم ، غير مدركين أبداً أن هذه هي ذروة الصراع الذي دام قرناً كاملاً ، قمة حركة التنافس التجاري – التماسك الأخير بالأيدي بين رؤساء تروست اللحوم وستاندارد أويل والفائز هو الذي يسيطر على الولايات المتحدة الأمريكية .

هذا هو البيت الجديد الذي عاش فيه جرجس وعمل وأكمل

ثقافته . وقد تتخيل أنك لاتجد هنا ما تعمله ، لكنك ستكون مخطئاً
كثيراً فقد كان جرجس يرغب بأن يكون يد هايندز اليمنى لذا باتت
متعته في الحياة أن يبقى فندقه في ذروة الجمال ورغم أن عشرات الحجج
الاشتراكية كانت تدور في دماغه أثناء ذلك إلا أنها لم تكن لتؤخره
عن العمل البتة بل العكس هو الصحيح ، فقد كان جرجس ينظف
المنافض ويلمع سلال المهملات بشدة أكثر نظراً لأن صراعاً داخلياً
شديداً كان يدور بينه وبين متمرد وهمي طوال انكبابه على العمل .
ومما يسر الأمر كثيراً هو أنه أقلع عن الشراب مباشرة وعن جميع
العادات الفاسدة الأخرى التي تصاحب الشراب ، انما ليس ذلك دقيقاً
تماماً . فأولئك الثوريون ليسوا ملائكة ، انهم بشر والبشر من طينة هذا
المجتمع ، وبالطين نجدهم ملوثين . بعضهم يشرب وبعضهم يجدّف
وبعضهم يأكل الفطيرة بالسكين ، لكن ، ثمة فرق بينهم وبين بقية
الناس — هو أنهم يعيشون مع الأمل ، لهم قضية يكافحون من أجلها
ويعانون بسببها — وقد كانت تمر بعض الأوقات يبدو فيهاالحلم لجرجس
بعيداً ضعيفاً ، وتبدو كأس البيرة بالمقارنة معه كبيرة هائلة . لكن إذا
كانت كأس البيرة تؤدي إلى كأس أخرى وإلى كؤوس أخرى كثيرة ،
فقد كان هناك مايدفعه للندامة والتصميم في الغداة من جديد . لقد أتضح
له أن من أشد المنكرات أن ينفق المزيد من نقوده على الشراب ، في

الوقت الذي تغرق فيه الطبقة العاملة في الظلمة وتنتظر الخلاص . فثمن كأس من البيرة يشتري خمسين نسخة من منشور الحزب . يوزعه المرء على النشء الجديد ، ثم يشمل نشوة وهو يفكر بالخبر الذي صنعه . تلك هي الطريقة التي صنعت بها الحركة ، وهي الطريقة الوحيدة التي ستجعلها تتقدم ، فليس يجدي نفعاً أبداً أن تعرفها ان لم تناضل من أجلها انها حركة من أجل الجميع لا من أجل البعض .

وبالطبع كانت النتيجة الطبيعية لهذا التفكير هو أن كل من يرفض التبشير الجديد بات مسؤولا شخصياً عن منع جرجس من تحقيق أمنية قلبية غالية ، وهذا ، ويالالأسف ! ما جعله غير مريح كصاحب . لقد التقى ببعض الجيران الذين صادقتهم الزبيبتا فشرع يصنع منهم اشتراكيين بالجملة ، وكاد في مرات عديدة أن يدخل معارك من أجل ذلك .

الأمر واضح كل الوضوح بالنسبة لجرجس ، وليس بوسعه أن يفهم كيف يعجز الانسان عن رؤية مايراه . فهنا كل الفرص المتاحة للبلاد : الأرض — المناجم — المصانع — الأبنية المشيدة على الأرض — السكك الحديدية — المخازن والكل بأيدي بضعة أفراد يدعون رأسماليين ، يضطر كل الناس لأن يعملوا لديهم من أجل الأجور . ماينتجه الشعب يذهب لتكديس ثروات طائلة لدى هؤلاء الرأسماليين ، يتكدس ويتكدس

ويتكدس — رغم أنهم هم وكل من يلف لفهم يعيشون في ترف لايوصف . . اذن ، أليس واضحاً أنه إذا اقتطع الشعب ما يأخذه هؤلاء الذين « يملكون » فقط ، فان نصيب أولئك الذين يعملون سيكون أكبر بكثير ؟ ان ذلك واضح وبسيط كما أن اثنين واثنين تساوي أربعة . وهذا كل مافي الأمر ، كله تماماً . لكن رغم ذلك ، ثمة أناس لايستطيعون تبينه ، مع أنهم يستطيعون مناقشة كل شيء آخر في الدنيا ، انهم يقولون لك أن الحكومات لاتستطيع ادارة الأشياء اقتصادياً مثلما يفعل الأفراد ، وهم يكررون ذلك ويكررونه ، ظانين أنهم يقولون شيئاً ما . . فهم لايستطيعون أن يروا أن « الادارة الاقتصادية » التي يقوم بها السادة تعني ، ببساطة ، أنهم ، هم الشعب ، يعملون ويكدون أكثر وينسحقون أكثر ويتلقون أجوراً أقل . . انهم كسبة — أجور وخدم يعيشون تحت رحمة المستغلين الذين لايفكرون . . إلا بشيء واحد ، هو أن يمتصوهم ، يستغلوا جهدهم أكثر مايستطيعون ، وهم يهتمون كل الاهتمام ويقلقون كل القلق خشية ألا تجري الأمور كما يشتهون . . ترى أليس نوعاً من التجربة المرة أن تصغي لمناقشة كهذه ؟بل ثمة أشياء أسوأ حتى . اذ قد تبدأ التحدث مع أحد المساكين الفقراء ، شخص ربما أمضى في العمل ثلاثين سنة ولم يستطع توفير بنس واحد . شخص يغادر بيته كل صباح في الساعة السادسة ليذهب ويشرف على

عمل آلة من الآلات ، ثم يرجع ليلاً منهكاً إلى حد لايستطيع معه خلع ثيابه ، شخص لم ينل اجازة في حياته كلها ، لم يسافر ، لم يعش مغامرة واحدة ، لم يتعلم شيئاً ، لم يعقد الأمل على شيء وحين تشرع بمحادثته عن الاشتراكية ينخر جانباً ويقول « أنا لا أهتم بذلك — أنا فردي » ، ثم يمضي ليخبرك أن الاشتراكية « نهج تسلطي » وأنها إذا ماشقت طريقها وسيطرت فان العالم سيكف عن التقدم . كلام كهذا يكفي لأن يجعل البغل يضحك ، مع ذلك فليس في المسألة مايضحك ، كما ترى — اذ كم هناك من ملايين السذج المضللين المساكين الذين عطلت تفكيرهم ومسخت حياتهم الرأسمالية الى درجة لم يعودوا معها يعرفون معنى الحرية . انهم يحسبون أنه نوع من « الفردية والاستقلالية » أن يجتمع عشرات الآلاف كالقطعان ويطيعوا أوامر سيد الفولاذ وينتجوا له مئات ملايين الدولارات ثم يدعونه يمنحهم الحريات ، في حين أن استلام الصناعة وادارتها بما يناسبهم وتكوين حرياتهم بأنفسهم « نهج تسلطي » .

كان جرجس يشعر أحياناً من جراء هذه المناقشات بعذاب أشد من أن يحتمل ، مع ذلك لم يكن ثمة مفر ، فليس أمامك ماتفعله سوى أن تحفر عميقاً في قاعدة جبل الجهل والتعصب هذا . عليك أن تبقى في أثر الشخص المسكين ، ألا تفقد أعصابك ، أن تناقشه ، وتتحين الفرصة

المناسبة لادخال فكرة أو فكرتين في رأسه . أما بقية الوقت فينبغي عليك أن تشحذ أسلحتك — ينبغي أن تستنبط أجوبة جديدة على اعتراضاته وأن تزود نفسك بحقائق جديدة كي تبرهن له عن خطأ أسلوبه في التفكير .

وهكذا ، اكتسب جرجس عادة القراءة . كان يحمل في جيبه منشوراً أو كراساً أعاره أحدهم له ، وحينما تتاح لحظة فراغ له ينكب على كراسه هذا يتهجأ فقراته كلمة كلمة ، ثم يفكر بها ، يقلبها على كافة الاوجه وهو يشتغل ، كذلك كان يقرأ الصحف ويسأل الأسئلة عنها ، فأحد البوابين الآخرين في فندق هايندز كان ايرلندياً ضئيل الجسم حاد الذكاء يعرف كل شيء يود جرجس معرفته . لذا وفي الوقت الذي يشتغلان فيه كان هذا الايرلندي يشرح جغرافية أمريكا ، مثلاً ، تاريخها ، دستورها وقوانينها كما كان يعطيه فكرة عن نظام العمل في البلاد ، السكك الحديدية والشركات ، أصحابها ، نقابات العمال ، الاضرابات الكبيرة وقادتها . وفي الليل حين يتمكن جرجس من مغادرة عمله ، فانه يحضر الاجتماعات الاشتراكية . أثناء الحملة ، لا يعتمد المرء على اجتماعات زوايا — الشوارع ، حيث لايكون الطقس ونوعية الخطيب مضمونين ، بل هناك اجتماعات الصالات الليلية وبامكان المرء أن يسمع خطباء على مستوى عال ، يناقشون الوضع السياسي من كل جانب وكل ماكان يزعج جرجس هو عدم قدرته على أن ينقل الا جزءاً ضئيلاً من الكنوز التي كانوا يقدمونها له .

كان ثمة شخص معروف في الحزب باسم « العملاق الصغير » .
وكان هذا يبـــدو وكأن الإله استخدم مواد كثيرة لدى صنعه لرأسه إلى حد لم يبق لديه مايكمل به رجليه ، لكنه كان يصعد المنصة ، وحين يهز شاربيه الفاحمين تهتز ركائز الرأسمالية ذاتها . لقد كتب موسوعة حقيقية عن الموضوع ، كتاباً لايقل حجمه عن حجمه هو نفسه — كذلك كان هناك مؤلف شاب جاء من كاليفورنيا حيث كان يعمل صياداً لسمك السلمون ، قناص محار ، رجل شواطىء ، بحاراً ، وكان قد طاف البلاد كلها وحكم بالسجن وعاش في أحياء وايتشابل الفقيرة وذهب إلى كلونديك بحثاً عن الذهب وقد وصف هذه الأشياء كلها في كتبه ، ونظراً لأنه كان رجلاً عبقرياً فقد أجبر العالم على الاصغاء إليه. بات شهيراً الآن ، لكن حيثما يذهب تجده يعظ مبشراً بانجيل الفقراء ، كما كان هناك شخص يعرف باسم « الاشتراكي المليونير ».
انه رجل كسب ثروته من الاعمال التجارية وأنفقها كلها تقريباً في انشاء مجلة عملت دائرة الاعلام على حجبها فذهب إلى كندا . وهو رجل هادىء السلوك، قد ترى فيه أي شيء ماعدا محرضاً اشتراكياً. حديثه بسيط غير متكلف — بل انه لايفهم لماذا ينبغي أن يقلق الانسان نفسه بهذه الأشياء . انها عملية تطور اقتصادي ، كما يقول ، وهي تتكشف عن قوانينها وطرائقها . الحياة كفاح من أجل الوجود ، القوي فيها يغلب

الضعيف ، ليغلبه بدوره من هو أقوى منه . ومن يخسر في هذا الكفاح تتحدد نهايته عموماً ، لكن من المعروف أن هؤلاء الخاسرين ينقذون أنفسهم من حين إلى آخر باتحادهم — وهو نوع من أنواع القوة أسمى وأكثر جدة ، تستطيع به الحيوانات الضعيفة حين تجتمع أن تقهر أكثر الحيوانات ضراوة وافتراساً . ففي التاريخ البشري ، استطاعت الشعوب باتحادها أن تقهر الملوك . العمال بكل بساطة هم أهل الصناعة ، والحركة الاشتراكية هي التعبير عن ارادتهم في البقاء على قيد الحياة . حتمية الثورة تعتمد على هذه الحقيقة ، وليس هناك من خيار سوى الاتحاد أو الانقراض . انها الحقيقة التي لاترحم وهي لاتتوقف على ارادة البشر بل انها قانون السيرورة الاقتصادية التي أوضح الكاتب تفاصيلها بدقة مدهشة .

في وقت لاحق ، عقد الاجتماع الكبير للحملة ، وفي هذا الاجتماع استمع جرجس لاثنين من قياديي حزبه . فقبل عشر سنوات كان قد حدث في شيكاغو اضراب لمائة وخمسين ألفاً من مستخدمي السكك الحديدية ، استأجرت فيه شركات السكك الحديدية سفاكين وقطاع طرق لارتكاب أعمال العنف ، كما بعث رئيس الولايات المتحدة بقوات لانهاء الاضراب وذلك بالقاء زعماء النقابات في السجن من غير محاكمة . وقد خرج أحد زعماء النقابات من زنزانته رجلا محطماً ، لكنه خرج اشتراكياً أيضاً ، فهو منذ عشر سنوات يطوف في أرجاء البلاد ، يواجه

الناس ، يناشدهم العدالة . انه رجل ذو حضور آسر ، طويل ، نحيل ، ووجه أنهكه الكفاح والمعاناة . سخط الرجولة المهينة يتوقد في داخله - ودموع الأطفال الصغار المعذبين تخضب صوته . كان حين يتكلم ، يذرع المنصة بخطاه ، تواقاً متوثباً كالفهد . كان ينحني باتجاه الحاضرين يمد يديه لهم ، يشير إلى أنفسهم داخل أجسادهم باصبع ملحاحة . صوته أجش من كثرة الكلام ، الا أن القاعة الكبيرة كانت تظل ساكنة سكون القبور وكان الجميع ينصتون له .

حين خرج جرجس من الاجتماع ، دس أحدهم ورقة في يده حملها معه إلى المنزل وقرأها ، وهكذا أصبح على معرفة بـ « نداء المنطق » . فقبل حوالي اثني عشر عاماً حزم أحد المضاربين العقاريين في كولورادو أمره على أن من الخطأ المضاربة بضروريات حياة الكائنات البشرية ، لذا اعتزل عمله وبدأ نشر دورية اشتراكية كل اسبوع . وقد جاء وقت اضطر فيه لان يطبع الدورية بنفسه على الآلة الكاتبة ، لكنه استمر وانتصر ، والآن أصبح لديه مؤسسة للنشر . فهو يستهلك حمولة عربة من الورق اسبوعياً وقد تظل قطارات البريد ساعات وهي تحمل طروده من مستودع بلدة كنساس الصغيرة . انها صحيفة اسبوعية من أربع صفحات تباع النسخة بأقل من نصف سنت وقائمة المشتركين النظاميين فيها تزيد على الربع مليون وترسل إلى كل ركن في أمريكا .

و « النداء » صحيفة « دعائية » . لها اسلوبها الخاص تماماً - انها

ملأى بالبهارات والتوابل ، باللهجة الغربية والمكر . انها تجمع الأخبار عن « الأثرياء ذوي النفوذ » وتقدمها ليستفيد منها « الشغيلة الأمريكيون » . فهي قد تضم أعمدة كاملة من المقارنات الفظيعة : الماس الذي قيمته ملايين الدولارات أو مؤسسة كلاب البودل (١) الخيالية التي ترعاها سيدة من سيدات المجتمع ، إلى جانب وصف بارع لمصير السيدة مورفي من سان فرانسيسكو التي ماتت جوعاً في الشوارع أو مصير جون روبنسون الذي خرج من المستشفى في نيويورك وعلى الفور شنق نفسه لأنه لم يستطع ايجاد عمل . كما كانت تجمع قصص الكسب غير المشروع والبؤس من الصحف اليومية وتعلق تعليقات لاذعة عليها . « ثلاث مصارف في بنغتاون وساوث داكوتا أعلنت افلاسها ، مبتلعة المزيد من مدخرات العمال » ، « رئيس بلدية ساندي كريك من أوكلاهوما فر بمائة ألف دولار . ذلك هو نوع الحكام الذين يقدمهم لكم الحزبيون » . « رئيس شركة في فلوريدا رهن القضبان بتهمة تعدد الزوجات . انه عدو لدود للاشتراكية ويقول أنها ستدمر البلاد . » لقد كان (للنداء) مايمكننا أن ندعوه « جيشاً » قوامه حوالي ثلاثين ألفاً من المخلصين الذين يقدمون لها مادتها ، وهي دائماً تستحثهم على المتابعة وأحياناً تشجعهم باجراء مسابقة توزع فيها جوائز بدءاً من الساعة الذهبية وحتى اليخت

---

(١) البودل : نوع من الكلاب الذكية ذات الشعر الكثيف الأجعد .

الخاص أو المزرعة ذات الثمانين أكراً . العاملون الاداريون فيها يعرفون جميعاً لدى « الجيش » بأسماء طريفة ـ مثلاً « آبك الجبار » ، « الرجل الاصلع » ، « الفتاة حمراء الرأس » ، « الكلب الضخم » ، « عنزة المكتب » و « هوس الوحيد » .

لكن أحياناً ترى « النداء » جدية ، جداً مفرطاً . اذ تبعث مراسلاً إلى كولورادو وتطبع صفحات تصور الدمار الذي حل بالمؤسسات الامريكية في تلك الولاية . وفي احدى المدن لنا « جيش » ينوف على الاربعين فرداً في مقر شركة التلغراف ، لذا لايمكن أن تخرج برقية تهم الاشتراكيين إلا وترسل نسخة منها إلى « النداء » . انها تطبع أعداداً كبيرة ومميزة أثناء الحملة ، والنسخة التي وصلت إلى جرجس كانت بياناً موجهاً إلى العمال المضربين ، وقد وزع منه حوالي مليون نسخة في المراكز الصناعية حيث كانت روابط أرباب العمل تنفذ برنامجها ، برنامج « الحانوت المفتوح » . « لقد خسرتم الإضراب » بهذه الجملة كان يبدأ البيان « والآن ماذا ستفعلون ؟ » انه مايدعى بالنداء « الملهب المثير » ـ كتبه رجل ذو روح فولاذية . وحين ظهرت هذه الطبعة ، أرسل منها عشرون ألف نسخة إلى منطقة المسالخ أودعت في مستودع دخان صغير ، وفي كل مساء وكذلك في أيام الاحاد كان أعضاء محليات باكنجتاون يملؤون أحضانهم بها ويوزعونها في الشوارع والمنازل . كان شعب باكنجتاون قد خسر اضرابه ـ ان كان الشعب يخسر يوماً ـ

لذا كانوا يقرؤون هذه الصحف بسرور ، ولم تكن العشرون ألف نسخة تكفي الا بالكاد للانتقال من يد إلى يد . كان جرجس قد صمم على عدم الاقتراب من منزله القديم مرة ثانية ، لكنه حين سمع بهذا وجد الامر أكثر من قدرته على التحمل ، فبات كل ليلة ، ولمدة اسبوع ، يستقل الترام ويذهب إلى المسالخ كي يساهم في إبطال ما فعله في السنة السابقة ، حين أرسل مرشح مايك سكولي ، واضع لعبة البولنغ ، إلى مجلس نواب البلدة . وانه لمن المدهش تماماً أن ترى الفارق الذي صنعه اثنا عشر شهراً في باكنجتاون — عيون الناس تفتحت ، الاشتراكيون يكتسحون كل شيء في ذلك الانتخاب ، سكولي وجهاز « كوك كاونتي » يشحذون مخيلاتهم ، يبذلون أقصى طاقاتهم من أجل ايجاد « قضية » . قرب انتهاء الحملة تذكروا أن الزنوج هم الذين حسموا الإضراب ، وهكذا أرسلوا إلى كارولينا الجنوبية آكل النار ، « الخطيب المنبراة » كما كانوا يسمونه ، وهو رجل ينزع سترته حين يتحدث إلى العمال ويلعن ويشتم مثل رجل « هسّي »(١) . لقد روجوا دعاية واسعة النطاق لهذا الاجتماع ، كذلك فعل الاشتراكيون — والنتيجة هي أنه حضر حوالي ألف شخص في تلك الامسية ، وانصب على « الخطيب المنبراة »

(١) الهسي : نسبة إلى ولاية « هس » في ألمانيا الغربية ويشتهر أهلها بسوء المزاج وبذاءة اللسان .

وابل من الاسئلة لمدة ساعة جعله يذهب إلى بيته مشمئزاً ، أما بقية الاجتماع فقد كانت عملاً حزبياً بحتاً . لقد أتيحت لجرجس ، الذي أصر على المجيء ، فرصة العمر في تلك الليلة ، بل لقد رقص ولوح بذراعيه تأثراً وانفعالاً — وحين بلغ ذروة انفعاله أفلت من أصدقائه وخرج إلى الممر حيث مضى يلقي خطاباً بنفسه . كان الخطيب قد أنكر أن الحزب الديمقراطي حزب فاسد وأن الجمهوريين هم الذين يشترون الأصوات دائماً ، حسب قوله — وهنا صرخ جرجس غاضباً « كذب ! كذب ! » ثم مضى يروي للجمهور مايعرفه عن هذه النقطة ، وكيف يعرف مايعرفه — فهو نفسه كان يشتري الاصوات وكاد يروي للسيناتور « المذراة » كل خبراته في هذا المجال لولم يسرع هاري آدامز وصديق آخر للامساك به من عنقه وجره إلى أحد المقاعد .

« ٣١ »

أول عمل قام به جرجس بعد حصوله على عمل هو ذهابه لرؤ ية ماريا التي نزلت إلى القبو لمقابلته ، فوقف بجانب الباب حاملاً قبعته بيده ثم قال : « لقد وجدت عملاً الآن ، لذا يمكنك ترك هذا المكان »..

غير أن ماريا اكتفت بهز رأسها . فليس هناك شيء تفعله ان خرجت ، وما من أحد يستخدمها . اذ لايمكن ابقاء ماضيها سراً — فتيات كثيرات حاولن ذلك ودائماً كن يكشفن . فهناك الآن الرجال الذين يرتادون هذا المكان وعاجلاً أو آجلاً ستلتقي بواحد منهم . ثم أضافت ماريا

« ناهيك عن أنني لم أعد قادرة على القيام بأي عمل ، لم يعد بي أي نفع — انني أتناول المخدرات ، فما تراك تفعل بي ؟ »

« ألا تستطيعين الاقلاع عن هذه العادة ؟ » صرخ جرجس .

فأجابت : « كلا . لن أقلع عنها أبداً . وما جدوى التحدث عن ذلك — سأبقى هنا إلى أن أموت على ماأظن . انه الشيء الوحيد الذي أصلح له » . وكان ذلك كل ماستطاع التوصل اليه — لافائدة من المحادثة. وحين قال لها أنه لن يدع الزبييتا تأخذ نقوداً منها بعد ذلك ، أجابت بلا مبالاة « اذن ستهدر هنا ، هذا كل مافي الامر » كانت أجفانها مثقلة ووجهها أحمر يبدو كما لو أنه متورم : رأى بعد لحظة أنه مصدر ضيق لها وأن كل ماترغب فيه هو أن ينصرف ، وهكذا انصرف ، خائباً ، حزيناً .

لم يكن جرجس المسكين سعيداً جداً في حياته المنزلية ، اذ كانت إلزبييتا في هذه الآونة تعاني من مرض شديد وكان الاولاد قد خرجوا عن طريق السيطرة والضبط ، يقضون معظم أوقاتهم في الشوارع . مع ذلك ، فقد ظل متمسكاً بالعائلة ، اذ كانت تذكره بسعادته القديمة ، وحين تسير الامور في الطريق الخاطيء ، يعزي نفسه بأن يغرق أكثر في خضم الحركة الاشتراكية . فمنذ عرفت حياته هذا الاتجاه الجديد وغاص في هذا التيار العظيم ، بدأت الاشياء التي كان يراها في السابق مُثُلَ حياته العليا ، تتخذ أهمية ضئيلة نسبياً : فاهتماماته باتت في مكان

آخر ، في دنيا الافكار . ماعدا ذلك كانت حياته بسيطة لاتثير أي اهتمام ، كان مجرد بواب في فندق ولايتوقع أن يكون شيئاً غير هذا ؛ لكن رغم ذلك وفي دنيا الفكر كانت حياته مغامرة دائمة ، فهناك الكثير مما ينبغي أن يعرف — الكثير من الاسرار التي ينبغي أن يكتشف . أبداً لن ينسى جرجس اليوم الذي سبق الانتخابات حين جاءت رسالة هاتفية من أحد أصدقاء هاري آدامز ، يطلب فيها أن يأتي بجرجس تلك الليلة ليراه ، وذهب جرجس والتقى بأحد أدمغة الحركة .

كانت الدعوة من شخص يدعى فيشر ، وهو مليونير من شيكاغو نذر حياته لأعمال الخير والانعاش يسكن في بيت صغير في قلب حي من أحياء المدينة الفقيرة . لم ينتسب للحزب لكنه كان متعاطفاً معه وقد قال أنه سيستضيف تلك الليلة محرر مجلة شرقية كبيرة يكتب ضد الاشتراكية ، انما لايعرف تماماً مانوع كتابته . اقترح المليونير أن يأتي آدامز بجرجس مباشرة وعندئذ يثيرون موضوع « الطعام النقي » الذي يثير اهتمام المحرر .

كان منزل فيشر عبارة عن بيت آجري صغير مؤلف من دورين ، ذي مظهر خارجي قميء أبلته العوامل الجوية الا أنه جذاب من الداخل . كانت الغرفة التي جلس فيها جرجس مرصوفة الجدران حتى منتصفها بالكتب كما كانت هناك لوحات كثيرة ، لم تستطع عينا جرجس تمييزها على الضوء الاصفر الباهت الا بصعوبة ، وكان الليل بارداً

ماطراً ، وفي الموقد المكشوف جذع من الحطب يفرقع متطاير الشرر وقد تجمع حوله سبعة أو ثمانية أشخاص ، حين وصل آدامز وصديقه رأى جرجس أن ثلاثة من الحضور هن من السيدات ، الامر الذي أثار فزعه . فهو لم يكن قد تحدث إلى مثل هؤلاء الناس من قبل ، وفي الحال وجد نفسه في أشد حالات العذاب والضيق . وقف عند العتبة ممسكاً بقبعته باحكام تام ، ثم راح ينحني أشد الانحناء لدى تقديمه لكل شخص من الاشخاص ، وحين طلبوا اليه أن يجلس اختار كرسياً في زاوية مظلمة ثم جلس على حافته وبدأ يمسح العرق المتصبب من جبهته بكمه ، وأخشى مايخشاه توقعهم أن يتحدث اليهم . كان يوجد في الغرفة المضيف نفسه وهو شاب رياضي طويل يرتدي لباس السهرة ، وكان هناك المحرر وهو سيد ذو مظهر نكد مشاكس يدعى مينارد . كما كان هناك أيضاً زوجة المضيف الشابة الرقيقة وكذلك سيدة مسنة تعلم الاطفال الصغار ، وطالب جامعي وفتاة جميلة ذات وجه متوتر جدي لم تتكلم إلا مرة أو مرتين طوال وجود جرجس — أما بقية الوقت فقد ظلت تجلس بجوار الطاولة وسط الغرفة تستند بذقنها إلى راحتها وتنصت مستغرقة في المحادثة . كذلك كان هناك رجلان آخران قدمهما فيشر الشاب إلى جرجس باسم السيد لوكاس والسيد سليمان وقد سمعهما يناديان آدامز بكلمة « رفيق » ، لذا عرف أنهما اشتراكيان .

كان المدعو لوكاس رجلاً ضئيل الجسم رقيقاً لطيف المظهر

ذا مسحة كهنوتية . وقد تبين انه عمل مبشراً متجولاً يتنقل من مكان إلى آخر ، ثم رأى النور وأصبح يبشر بالرسالة الجديدة . كان يطوف في كل البلاد ، يعيش كما كان يعيش الرسل القدماء على الضيافة ، والوعظ في زوايا الشوارع حين لاتتوفر قاعة . أما الرجل الآخر فقد كان يخوض مناقشة حامية مع المحرر حين دخل آدامز وجرجس ، وبناء على اقتراح المضيف فقد استأنفاها بعد المقاطعة . وفي الحال جلس جرجس مبهوتاً وكل مايدور في خلده هو أنه يوجد معه في الغرفة أغرب رجل عرفته البسيطة .

فنيكولاس سليمان سويدي ، طويل ، نحيل ذو يدين شعراوين ولحية صفراء خشنة الشعر . كان رجل جامعة واستاذ فلسفة إلى أن وجد ، كما قال ، أنه يبيع نفسه وكذلك وقته . لذا جاء إلى أمريكا حيث عاش في علية في منطقة الاحياء الفقيرة هذه وجعل الطاقة البركانية تشتعل ناراً . لقد درس تركيب المواد الغذائية وعرف تماماً كم يحتاج جسده من البروتينات والسكريات . فمن خلال مضغ الطعام مضغاً علمياً يمكنه ، كما قال ، أن يضاعف قيمة مايأكله ثلاث مرات ، لذا لايكلفه الطعام إلا أحد عشر سنتاً في اليوم . كان في أوائل تموز ، يغادر شيكاغو ، سيراً على الاقدام ، لقضاء عطلته ، وحين يقع على حقل من حقول الحصاد ، يباشر العمل فوراً مقابل دولارين ونصف يومياً ثم يعود إلى بيته حين يتوفر له زاد سنة أخرى من المال – أي مائة وخمسة وعشرون دولاراً . تلك هي أقرب الطرق التي يمكن أن يسلكها الانسان إلى الاستقلال

« تحت ظل الرأسمالية » ، شرح الرجل . وهو لن يتزوج أبداً ، اذ مامن رجل عاقل يسمح لنفسه بالوقوع في الحب الا بعد أن تتحقق الثورة .

كان يجلس في كرسي كبير ذي ذراعين ، وقد وضع رجلاً على رجل ورأسه غارق في الظل إلى درجة لايمكن للمرء أن يرى معها إلا ضوئين متألقين في وجهه ينعكسان من النار المشتعلة في الموقد . كان يتكلم ببساطة وبدون أي أثر من انفعال ، شأن المعلم الذي يشرح لفئة من التلاميذ مبدأ الهندسة ، وكان يشرح أفكاراً تجعل شعر الانسان العادي ينتصب . وحين يبدو على مستمعه عدم الفهم ، يمضي للتوضيح بفكرة جديدة أكثر هولاً ورعباً . بالنسبة لجرجس كان « الهر » الدكتورسليمان يحمل صفات العاصفة الرعدية أو الزلزال .. مع ذلك ، ورغم مافي ذلك من غرابة ، فقد شعر جرجس بأن رباطاً وثيقاً يشد واحدهما إلى الآخر ، وكان بامكانه متابعة المناقشة طوال الوقت تقريباً . فهو يجتاز المواضع الصعبة رغماً عنه ليغوص أعمق وأعمق في حياة انسان مجنون — «مازيبا» بذاته يمتطي متن حصان متوحش هو المضاربة .

كان نيكولاس سليمان يعرف الكون كله ، والانسان جزء صغير منه . كان يفهم كل المؤسسات القائمة وينفخها كفقاعات الصابون . وكان أمراً مفاجئاً لجرجس أن يرى أن بامكان عقل بشري واحد أن يحتوي مثل هذه القدرة التدميرية . أهي الدولة ؟ ان الغاية من وجود

الدولة هي حماية حقوق الملكية ، الحفاظ إلى الأبد على القوة القديمة والزيف الحديث . أم هو الزواج ؟ والزواج والعهر وجهان لعملة واحدة. انه استغلال الرجل للمرأة ، افتراسه لمتعة الجنس . الفرق بينهما هو فرق طبيعي . فاذا كانت المرأة تملك المال يغدو بامكانها أن تملي شروطها : المساواة ، التعاقد على الاستمرار مدى الحياة ، والشرعية — أي حقوق الملكية — لأبنائها . أما ان كانت لاتملك مالاً فانها تغدو بروليتارية تبيع نفسها كي تبقى على قيد الحياة . أما الدين ، فانه أفتك الأسلحة بيد الأقوياء . ان الحكومة تضطهد أجسام عبيد — الأجور بينما يضطهد الدين عقولهم ، ويسمم تيار التقدم من منبعه . إذ على العامل أن يعقد آماله على الحياة الأخرى ، في حين تنهب جيوبه في الحياة الدنيا ، وهو يتنشأ على العوز والمذلة والخضوع — أي باختصار على كل فضائل الرأسمالية الزائفة . أما مصير الحضارة فسوف يتقرر في الصراع الحاسم ، صراع الحياة أو الموت بين الأممية الحمراء والأممية السوداء ، بين الاشتراكية والكنيسة الكاثوليكية ، وهنا في الوطن « الديجور المظلم للأنجليكانية الأمريكية » .

هنا دخل الواعظ السابق الميدان لتجري مناقشة حامية . لم يكن « الرفيق » لوكاس ذلك الانسان المثقف ، فهو لايعرف إلا الانجيل ، ذلك الانجيل الذي تشرحه الخبرة الواقعية . فسأل الواعظ ، «ترى ماالفائدة من خلط الدين بتحريمات الناس له ؟ قولك أن الكنيسة في أيدي طغمة من التجار في الوقت الراهن أمر واضح تماماً ، لكن هناك بالفعل علائم

ثورة وإذا ماعاد الرفيق سليمان بضع سنوات إلى الوراء — » فقاطعه الآخر : « آه ، طبعاً ، نعم . ليس لدي شك أن الفاتيكان سينكر بعد مائة عام أنه عارض الاشتراكية في يوم من الأيام ، تماماً مثلما ينكر في الوقت الحاضر أنه عذب غاليليو » .

« أنا لا أدافع عن الفاتيكان » هتف لوكاس بحماس « انني أدافع عن كلمة الله — أي عن الصرخة الطويلة ، صرخة النفس البشرية من أجل الخلاص من ويلات الاضطهاد . خذ ، مثلاً ، الفصل الرابع والعشرين من سفر أيوب الذي اعتدت أن اقتبس منه في خطبي باعتباره « الانجيل المتعلق بتروست اللحوم » أو خذ كلمات أشعيا أو كلمات السيد المسيح نفسه ، لا الأمير البهي الحلي لكنيستنا المليئة بالفسق اليوم ، ولا رئيس كنائسنا المزين بالجواهر — بل يسوع الواقع الرهيب ، انسان الحزن والألم ، الشريد المنبوذ المحتقر الذي لايجد مكاناً يريح فيه رأسه— » .

وتوقف لوكاس ، فمد الآخر يده نحوه بورقة كانت على الطاولة ، قائلاً وهو يضحك « هاك أيها الرفيق هذه نقطة يمكنك البدء منها ، زوجة اسقف سرقوا منها ماساً بقيمة خمسين ألف دولار وهو الأسقف الأشد مداهنة وتملقاً الأسقف المتنور البارز ، الاسقف المحب للاحسان ، صديق العمال — الخدعة التي يستخدمها « الاتحاد المديني » لتحذير الشغيلة والعمال .

حتى هنا ، ظل أفراد الجماعة يجلسون جميعاً كمتفرجين لكن في

هذه اللحظة انتهز السيد مينارد المناسبة لكي يبدي ملاحظة ساذجة نوعاً ما ، وهي أنه يعلم أن لدى الاشتراكيين برنامجاً جاهزاً ومحدداً لمستقبل الحضارة ، بينما يوجد هنا عضوان فعالان من أعضاء الحزب لايتفقان ، كما يمكنه الاستنتاج من المناقشة ، على أي شيء ، فهل يتكرم الاثنان ، من باب تنويره ، بأن يبينا ما يتفقان عليه ولماذا ينتسبان إلى الحزب نفسه ؟ وهو سؤال أدى ، بعد طول نقاش إلى صياغة فكرتين صياغة دقيقة : الأولى هي أن الاشتراكي يؤمن بالملكية العامة والادارة الديموقراطية لوسائل انتاج ضروريات الحياة ، والثانية هي أن الاشتراكي يؤمن بأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا انما هي التنظيم السياسي الطبقي الواعي ، تنظيم الشغيلة . على هاتين النقطتين كانا متفقين انما ليس أكثر .

فلوكاس ، المتحمس الديني ، يرى أن الكومنولث (١) التعاوني هو مملكة السماء التي « تكون في داخلك » أما الآخر فيرى أن الاشتراكية هي بكل بساطة مرحلة ضرورية نحو هدف بعيد المدى ، مرحلة ينبغي تحملها بفروغ صبر . كان سليمان يدعو نفسه « الفيلسوف الفوضوي » وقد شرح أن الفوضوي هو من يؤمن بأن غاية وجود الانسان هي التطوير الحر لكل شخصية دون أن يحد ذلك أي قانون من القوانين ماعدا قوانين وجودها ذاته . وبما أن عود الثقاب ذاته يشعل النار لدى كل الناس ،

---

(١) الكومنولث : هو المجتمع الديموقراطي الذي يربط أفراده بعضهم بالبعض الآخر مصلحة مشتركة .

ورغيف الخبز نفسه يملأ بطن الجميع ، فان من المستحب تماماً أن نخضع الصناعة لسيطرة الأغلبية . إذ ليس هنالك إلا كوكب أرضي واحد وكمية الأشياء المادية محدودة . لكن من جهة أخرى ، ليس هنالك حدود للأشياء الفكرية والأخلاقية حيث يمكن للمرء أن يمتلك قدراً أكبر من هذه الأشياء دون أن يكون ذلك على حساب الآخرين ، لذا فان « مشاعية انتاج المواد وفوضوية الانتاج الفكري هي مبدأ التفكير البروليتاري الحديث » . اذ حالما ينتهي عذاب المخاض وتشفى جروح المجتمع ، سيقام نظام بسيط يسير وفق القاعدة التالية « من كل حسب جهده ولكل حسب حاجته » ، بعد ذلك تمضي عمليات الانتاج ، التبادل والاستهلاك بصورة آلية ودون أن يشعر بها المرء أكثر مما يشعر بنبض قلبه . هكذا استمر سليمان في شرحه قائلاً إن المجتمع سيتجزأ بعدئذ إلى جماعات مستقلة ذاتياً ، تتألف من أفراد متجانسين مترابطين ، مثال على ذلك في الوقت الحاضر : النوادي ، الكنائس والأحزاب السياسية . ولسوف تتم بعد الثورة رعاية النشاطات الفكرية والفنية والروحية للناس من قبل « روابط حرة » كهذه . فالروائيون الرومنتيكيون يدعمهم من يحبون قراءة الرواية الرومانتيكية ، والرسامون الانطباعيون يدعمهم من يحبون تأمل اللوحات الانطباعية والشيء ذاته ينطبق على الوعاظ والعلماء ، المحررين والممثلين والموسيقيين . فاذا مارغب أي امرىء في أن يعمل أو يرسم أو يصلي ولم يجد أحداً يعيله ، فعليه أن يعيل نفسه بالعمل جزءاً من وقته ، وهذا هو الوضع في الوقت الراهن .

الفارق الوحيد هو أن نظام الأجر التنافسي يجبر الانسان على العمل طوال الوقت كي يكسب معيشته أما بعد القضاء على الامتيازات والاستغلال ، فسيكون بامكان أي امرىء اعالة نفسه بالعمل ساعة واحدة في اليوم . كذلك فان جمهور الفنان في الوقت الحاضر لايشكل إلا أقلية صغيرة من الشعب ، ذلك أن معظمه غارق في الجهالة والضعة التي تفرضها عليه محاولته للفوز بقصب السباق في معركة التنافس التجاري ، وليس بامكاننا في الوقت الراهن أن نشكل أي فكرة ، مهما تكن ، عن النشاطات الفنية والفكرية التي ستحدث حين يتحرر الجنس البشري بكامله من كابوس التنافس .

بعدئذ ، رغب المحرر في أن يتناول الأساس الذي افترض الدكتور سليمان بناء عليه أن بامكان المجتمع أن يعيش إذا ماعمل كل فرد فيه ساعة واحدة يومياً . فأجاب الآخر : « ترى ماذا ستكون الطاقة الانتاجية للمجتمع إذا تم استغلال الموارد العلمية الراهنة على خير وجه ؟ هذا السؤال لانملك بالواقع وسيلة للتأكد من جوابه ، لكن بوسعنا أن نؤكد أنه سيفوق أي شيء يبدو معقولاً لعقولنا المتعودة على بربريات الرأسمالية وفظاعاتها . اذ ستكون الحرب شيئاً لامبرر له بعد انتصار البروليتاريا الأممية ، ومن تراه يستطيع تصور نفقات الحرب وأعبائها على البشرية — ليس كأرواح ومواد تقضي الحرب عليها وتدمرها وحسب ،

ولا كنفقات لابقاء الملايين من الرجال العاطلين عن العمل علاوة على تسليحهم وتجهيزهم للمعركة والاستعراضات وحسب ، بل أيضاً كهدر لطاقات المجتمع الحيوية ، ذلك الهدر الذي ينجم عن اتخاذ موقف الحرب ، عن رعب الحرب ، وكذلك الوحشية والجهالة ، الادمان على المشروبات وممارسة العهر والجريمة التي تجرها وراءها مثل هذه الممارسة ، ناهيك عن انعدام القدرة الصناعية وانعدام الأخلاق ؟ هل تظن أننا نبالغ كثيراً حين نقول أن ساعتي عمل يقدمهما كل فرد كفؤ في المجتمع لاتكفي إلا بالكاد لإشباع شيطان الحرب الأحمر ؟

بعدئذ تابع سليمان تلخيصه لبعض أشكال الهدر الناجم عن التنافس ، خسائر المصنوعات الحربية ، القلق الذي لايتوقف والاحتكاكات ، الرذائل – كالشراب ، مثلاً ، الذي تضاعف مرتين تقريباً خلال عشرين عاماً ، وذلك كنتيجة لزيادة توتر الصراع الاقتصادي ، وجود أفراد باطلين عن العمل وغير منتجين في المجتمع ، وجود أغنياء بالغي الغنى وفقراء مدقعين ، قانون وآلية القمع ككل ، الهدر الناتج عن حب المظاهر في المجتمع وما هنالك من صانعي قبعات ، خياطين ، مزينين ، أساتذة رقص ، خدم وحشم . « فأنتم تفهمون » قال سليمان « أن المال في مجتمع يسوده التنافس التجاري هو ، بالضرورة : محك النجاح وأن القدرة على الهدر والتبذير هي المعيار الوحيد للقوة . وهكذا فان لدينا ،

في المرحلة الراهنة ، مجتمعاً ثلاثون بالمائة من أفراده مشغولون بانتاج مواد لافائدة منها ، يقوم واحد بالمائة من المجتمع بتدميرها . لكن ، ليس هذا كل شيء ، ذلك لأن خدم وأتباع الطفيليين هم طفيليون أيضاً ، فصانعو القبعات النسائية والجواهريون وأتباع السادة كلهم تتوجب اعالتهم من قبل أفراد المجتمع النافعين . ولاتنس أيضاً أن هذا المرض الفتاك لا يؤثر فقط على المتبطلين وأتباعهم وحسب بل إن سمومه تتغلغل إلى جسد المجتمع كله . فدون طبقة النخبة التي تتكون من مائة ألف امرأة ، هناك مليون من نساء الطبقة الوسطى اللواتي يشعرن بالبؤس لأنهن لسن من النخبة ويحاولن التظاهر بمظاهرها أمام الناس ؛ ودون هذه الطبقة ، أيضاً ، خمسة ملايين من نساء الفلاحين اللواتي ينظرن بشغف وإعجاب إلى صحف الأزياء والقبعات ذات الحواشي ، كذلك بائعات — المحلات والخادمات والمومسات اللواتي يبعن أجسادهن في المواخير من أجل مجوهرات زائفة وأثواب من جلد القفم المقلد ، واضافة إلى هذا التنافس المكشوف فهناك نظام التنافس الكامل معروضاً للبيع ، فهناك الصناعيون الذين يخترعون عشرات آلاف الحيل لسلب المال ، أصحاب المحال الذين يعرضونها ، والصحف والمجلات المليئة بالاعلانات عنها .

« ولاتنس أشكال الهدر الناجمة عن الغش » ، تدخل فيشر الشاب

فأجاب سليمان « حين يصل المرء إلى مهنة الاعلان الحديثة للغاية ـ أي علم اقناع الناس بأن يشتروا مالا يرغبون بشرائه ، يكون قد بلغ صميم بيت ـ الموتى المخيف ، صميم النزعة التدميرية الرأسمالية ونادراً مايعرف إلى أي هول من الأهوال الكثيرة يشير أولاً . لكن لنتأمل هدر الوقت والطاقة الناجمين عن صنع آلاف الأشياء المختلفة التي لاهدف لها إلا التظاهر والتفاخر الاجتماعي ، في حين قد يكون شيء واحد منها كافياً . لنتأمل كل أشكال الهدر الناجمة عن تصنيع النوعيات الرخيصة من السلع ، السلع المعدة لبيعها للجهلة وخداعهم ، لنتأمل هدريات الغش ـ الأقمشة الرديئة النوع ، البطانيات القطنية ، الايجارات غير المستقرة ، الحليب المغشوش ، ماء الصودا والأنيلين ، النقانق المصنوعة من دقيق البطاطا ـ » .

« ولنتأمل الجوانب الأخلاقيه للقضية » قاطعه الواعظ السابق ، فقال سليمان « بالضبط ، الاحتيال الدنيء والقسوة الفظيعة المرافقة لهذا كله ، المكر والخداع ، الكذب والرشوة ، التفاخر والتبجح ، الأنانية الفاضحة ، التعجل والقلق . طبعاً ، ان التقليد والغش هما جوهر التنافس ـ فهما ليسا إلا صيغة أخرى للعبارة « يشتري من أرخص الأسواق ويبيع في أغلاها » . لقد قال أحد المسؤولين الحكوميين ان الأمة تتحمل خسارة

بليون وربع البليون من الدولارات كل عام نتيجة الأغذية المغشوشة وبالطبع ، هذا لا يعني المواد المهدورة التي يمكن أن تكون مفيدة خارج نطاق الاستخدامات البشرية وحسب ، بل يعني نفقات المعالجة الطبية للناس الذين لولا تناولهم هذه المواد لكانوا بألف خير ، وتعني نفقات الرعاية للجنس البشري ككل قبل عشر أو عشرين سنة من الوقت المناسب . ولنتأمل أيضاً هدر الوقت والطاقة اللازمين لبيع تلك الأشياء المغشوشة في عشرات المخازن ، حيث يكفي مخزن واحد لفعل ذلك . في البلاد ، يوجد مليون أو مليونان من المؤسسات التجارية ، في كل منها خمسة أو عشرة موظفين ، فلنتأمل عمليات ادارة هذه المؤسسات ، اجراء الحسابات واعادة اجراء الحسابات ، التخطيط والقلق ، تحقيق التوازن بين الربح والخسارة . لنتأمل الآلية الكاملة للقانون المدني الذي صار لابد منه بسبب هذه العمليات ، المكتبات المحشوة بالمجلدات الثقيلة المملة ، المحاكم ورجال القانون الذين يفسرونها وطلاب المحاماة الذين يدرسون للاحاطة بها ، التلاعب والخداع ، الضغائن والأكاذيب . لنتأمل الخسائر الناجمة عن انتاج السلع العشوائي الأعمى - المصانع تغلق ، العمال يتعطلون ، البضائع تتلف في المستودعات . لنتأمل نشاطات متلاعبي البورصة ، شلل الصناعات الكاملة ، المبالغة بتقدير قيمة الآخرين لأغراض المضاربة ، افلاسات المصارف ، الأزمات وموجات الرعب . المدن المهجورة والسكان المهددين بالموت جوعاً . لنتأمل الطاقات المهدورة بحثاً عن الأسواق ، المهن العقيمة : كالطبال ، المحامي ، ملصق الاعلانات

وكيل الدعايات . لنتأمل الخسائر الناجمة عن الازدحام في المدن الذي يجعل المنافسة والاحتكار أمراً ضرورياً ، ولنتأمل الأحياء الفقيرة ، الجو الفاسد الأمراض وهدر الطاقات الحيوية . لنتأمل أبنية المكاتب ، هدر الوقت والطاقة في تكويم الطابق فوق الطابق ونبش ماتحت الأرض . ثم لنأخذ مهنة التأمين ككل ، الكتلة الهائلة من الاداريين والموظفين والعاملين التي تشملها وكل ذلك الهدر » .

« انني أعجز عن تتبع ذلك » قال المحرر .

« الكومنولث التعاوني هو شركة التأمين الشاملة ومصرف الادخار لكل أفراده . وبما أن رأس المال هو ملك الجميع ، فان أي ضرر يلحق به انما يلحق بالجميع ويعوضه الجميع . ان المصرف هو مقر حساب الرصيد الحكومي الشامل والدفتر الأساسي الذي توازن فيه مكتسبات ومصروفات كل فرد . وهناك أيضاً النشرة الحكومية الشاملة التي يدرج فيها ويوصف بدقة كل شيء يملكه الكومنولث للبيع . وبما أن الأرباح لاتعود لأحد . بنتيجة البيع ، اذن لن يكون هناك داعٍ للتهويل والمبالغة وسوء التقدمة ولا للخداع والغش أو التقليد ولا للرشوة أو « الكسب غير المشروع » .

« وكيف يحدد سعر الأشياء ؟ » .

« بسعر العمل الذي تحتاجه صناعتها وتقديمها . ويتم ذلك بفضل

المبادىء الأولية للحساب . فاذا كان هناك مليون من العمال يعملون في حقول قمح البلاد بمعدل مائة يوم في السنة لكل منهم ، وكان الانتاج الاجمالي هو بليون كنتال ، تكون قيمة كنتال القمح هي جزء من عشرة أجزاء من يوم العمل في المزرعة . وإذا ما استخدمنا الأرقام وقلنا مثلاً ، أننا ندفع خمسة دولارات في اليوم أجرة العمل في المزرعة : اذن تكون كلفة كنتال القمح خمسين سنتاً » .

« انك تقول أجرة العمل في المزرعة » قال السيد مينارد « اذن ، لن تكون أجرة العمل متساوية » .

« بالتأكيد لا ، نظراً لأن بعض العمل أسهل من بعضه الآخر . وإلا لكان لدينا ملايين من موزعي البريد في الريف وليس لدينا عامل منجم فحم واحد . بالطبع . يمكن ترك الأجور على حالها ، انما تتغير ساعات العمل . وبذلك يتعين تغيير هذا أو ذاك باستمرار طبقاً لتزايد أو تناقص العدد المطلوب في أية صناعة بعينها . وهذا بالضبط مايجري في الوقت الحاضر . ماعدا أن انتقال العمال يتم على نحو عشوائي ناقص ، غير مخطط ، خاضع للاشاعات والاعلانات بدلاً من أن يكون ثابتاً وكاملاً ومطابقاً لخطة حكومية شاملة » . « وماذا عن تلك الأعمال التي يصعب حساب الوقت فيها ؟ ماهي كلفة كتاب مثلاً ؟ » . « من الواضح أن كلفة الكتاب هي كلفة صنع الورق ، الطباعة التجليد — أي حوالي خمس كلفته الحالية » .

« والمؤلف ؟ » .

« لقد سبق لي أن قلت إن الدولة لاتتحكم بالانتاج الفكري . قد تقول الدولة أن كتابة هذا الكتاب ، مثلاً ، تستغرق سنة ، وقد يقول المؤلف انها تستغرق ثلاثين . لقد قال غوته أن كل كلمة جيدة من كلماته كلفته كيس ذهب ، وما نخصه هنا نظام وطني ، أو بالأحرى أممي ، يهتم بتوفير الحاجات المادية للناس . وبما أن الانسان لديه حاجات فكرية أيضاً ، فانه سيعمل مدة أطول ويكسب قدراً أكبر ويوفر حاجاته حسب ذوقه وبأسلوبه الخاص . إنني أعيش على الأرض التي يعيش عليها الآخرون ألبس النوع نفسه من الأحذية وأنام في النوع نفسه من الأسرّة ، لكنني لا أفكر بالنوع نفسه من الأفكار ولا أرغب في أن أدفع للمفكرين ذاتهم الذين قد يختارهم الآخرون ، وإذا كان الناس يرغبون في الاصغاء لواعظ معين ، فانهم يتجمعون ويتبرعون بما يحلو لهم ويدفعون لكنيسته ويعيلون الواعظ ، ثم يستمعون لوعظه ، أما أنا الذي لا أرغب في الاستماع إليه ، فانني أتنحى وبالتالي لايكلفني ذلك شيئاً . وبالأسلوب نفسه ، هناك مجلات عن النقود المصرية والقديسين الكاثوليك والطائرات والتسجيلات الرياضية ، لكنني لا أعرف شيئاً عنها . من جهة أخرى . إذا ماتم القضاء على عبودية الأجور وتمكنت من كسب وتوفير بعض المال من غير أن أدفع جزية للرأسمالي المستغل ، فقد أجد مجلة لغرض محدد هو تفسير ونشر كتاب فريدريك نيتشه .

نبي التطور ، وكذلك هوراس فليتشر ، مؤسس العلم النبيل : علم الأكل النظيف ، أو أجد مجلة ثانية ربما تهدف لتقصير التنورة الطويلة وتربية الرجال والنساء تربية علمية واجراء الطلاق بالاتفاق المتبادل » .

وتوقف الدكتور سليمان لحظة من الزمن ، ثم قال ضاحكاً « هذه محاضرة ومع ذلك فهي البداية فقط » .

فسأل مينارد « وماذا هناك أيضاً ؟ » .

« لقد أشرت إلى بعض أشكال الهدر السلبية التي تنتج عن المنافسة » أجاب الآخر « إلا أنني لم أذكر الاقتصاديات الايجابية للتعاون . فاذا فرضنا أن كل أسرة تتكون من خمسة أفراد ، كان معنى ذلك أنه يوجد في البلاد خمسة عشر مليون أسرة ، عشرة ملايين منها على الأقل تعيش على نحو مستقل والعامل في المنزل هو إما الزوجة أو عبد من عبيد — الأجور . والآن لنضع جانباً النظام الحديث لتنظيف المنزل — بالهواء المضغوط والجوانب الاقتصادية للطهو التعاوني ولنتأمل جانباً واحداً فقط ، غسل الصحون مثلاً ، فمن المؤكد أننا لانغالي حين نقول أن غسل الصحون لدى أسرة مؤلفة من خمسة أفراد تستغرق نصف ساعة يومياً وإذا اعتبرنا يوم العمل عشر ساعات فان غسل الصحون في البلاد يتطلب عمل نصف مليون شخص كامل الامكانيات ، ومعظمهم من النساء ، علاوة على أنه أوسخ وأشد الأعمال غلاظة وازعاجاً . إنه سبب فقر الدم ، العصبية ، القبح ، سوء المزاج ، الدعارة ، الانتحار ،

والجنون . وهو سبب ادمان الأزواج على المسكرات وانحطاط نوعية الأطفال ، والآن لنتأمل أنه في كل جماعة من الجماعات الحرة الصغيرة ، ستكون ثمة آلة تغسل وتجفف الصحون وهي تفعل ذلك بشكل علمي — أي تعقمها — وتوفر على الانسان القيام بهذا العمل القذر كما توفر تسعة أعشار الوقت . هذه الأشياء جميعاً يمكنك أن تجدها في كتب السيدة غيلمان ، ثم خذ كتاب كروبوتكين « الحقول المصانع ، الورش » واقرأ عن علم الزراعة الجديد الذي تكوّن في السنوات العشر الماضيات والذي يستطيع الجنائني بواسطته ، وبواسطة التربة الصنعيّة والاستنبات المكثف ، أن يرفع الغلة بمقدار عشرة أو اثني عشر ضعفاً في الموسم الواحد ، وأن ينتج مائتي طن من الخضروات من الآكر الواحد ، وهو العلم الذي يمكن بواسطته تأمين الغذاء لسكان الكرة الأرضية جميعاً من الأرض التي تزرع الآن في الولايات المتحدة وحدها . لكن من المستحيل الآن تطبيق طرق كهذه وذلك بسبب الجهل والفقر اللذين يعاني منهما العاملون في الزراعة وبسبب ماهم عليه من بعثرة وتوزع . لكن لنتخيل مسألة توفير المواد الغذائية لشعبنا إذا ماتولى العلماء الأمر على نحو منهجي وعلماني ، فحينذاك ستعزل كل الغابات ذات الأراضي الصخرية الفقيرة لتكون احتياطاً وطنياً للأخشاب ، يلعب فيها أطفالنا ويصطاد شبابنا ويقيم شعراؤنا ، كما سيتم اختيار أفضل مناخ وتربة لكل نوع من أنواع الانتاج . وستتم معرفة متطلبات الجماعة واحتياجاتها تماماً . وتخصص لكل منها المساحة المناسبة ، وتستخدم أكثر الآلات

تطوراً وكل ذلك تحت اشراف وتوجيه الخبراء الزراعيين المختصين .
لقد نشأت في مزرعة وإنني أعلم كل العلم مشقة العمل الزراعي وبودي أن أصوّره كله كما سيكون بعد الثورة . لنتصور آلة زراعة البطاطا الكبيرة التي تجرها أربعة خيول أو محرك كهربائي وهي تشق الأثلام ، تقطع حبات البطاطا وتزرعها في التربة وتطمرها فتزرع عشرين أكراً في اليوم . لنتصور آلة قلع البطاطا الكبيرة التي قد تعمل بالكهرباء وتتحرك في حقل مساحته ألف أكرة ، تنبش التربة والبطاطا وتعبيء هذه ضمن أكياس . لنتأمل كل نوع آخر من أنواع الخضروات والفواكه وهي تعامل بالأسلوب ذاته : التفاح والبرتقال تقطعه الآلات ، البقرات تحلبها الآلات ، وهي أمور تحدث الآن فعلاً كما تعلمون . لنتصور حقول الحصاد في المستقبل ، وملايين الرجال والنساء السعداء يذهبون إليها كي يقضوا عطلهم الصيفية تنقلهم إليها قطارات خاصة ، وحسب العدد المطلوب لكل حقل . ولنقارن هذا كله بنظامنا الفظيع الحالي ، نظام المزارع الصغيرة المستقلة — حيث يكدح عامل جاهل نحيل هزيل إلى جانب كادح آخر أصفر الوجه حزين ، كئيب من الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة التاسعة ليلاً ، وحيث يشتغل الأطفال حالما يصبحون قادرين على السير ، ينكشون التربة بأدواتهم البدائية وينفصلون عن كل معرفة وأمل ، عن كل منافع العلم والاختراعات وكل مسرات الروح — ليبقيهم في آخر رمق من حياتهم التنافس في العمل والتبجح بالحرية لأنهم أشد عمى من أن يروا أغلالهم » .

وتوقف الدكتور سليمان لحظة ثم استأنف « ولنضع إلى جانب هذه الحقيقة ، أي حقيقة المواد الغذائية غير المحدودة ، أحدث اكتشافات علماء الفزيولوجيا وهي أن معظم أمراض البشر تعود لفرط التغذية ، والحقيقة الأخرى التي ثبتت وهي أن اللحم غير ضروري كغذاء . فمن الواضح أن انتاج اللحم أصعب بكثير من انتاج الخضروات وإعداده ومعالجته أقل امتاعاً كما يظل الاحتمال أكبر في أن يكون غير نظيف . لكن مايهم ذلك كله طالما أن اللحم يدغدغ حاسة الذوق بصورة أشد قوة وتأثيراً ؟ » .

فسألت الطالبة بسرعة « كيف ستغير الاشتراكية ذلك ؟ » وكانت تلك هي المرة الاولى التي تتكلم فيها . فأجاب سليمان :

« طالما لدينا عبودية أجور فلن يكون بذي أهمية أبداً كم هو العمل حقير ومنفر ، اذ سيظل من السهل دائماً ايجاد الناس الذين يؤدونه . لكن حالما يغدو العمل حراً فإن أجر عمل كهذا سيبدأ بالارتفاع .

وهكذا تبدأ المعامل العتيقة القذرةوغير الصحية بالانهيار واحداً بعد الآخر — ويغدو من الأرخص أن نبني عوضاً عنها معامل جديدة . وهكذا ستزود البواخر بآلات تعمل بالنفط ، وتغدو المهن الخطرة سليمة مضمونة أو يتم ايجاد البديل عن منتجاتها . وبالاسلوب ذاته تماماً ، وبينما يصفى مواطنو جمهوريتنا الصناعية ، فان كلفة منتجات المسالخ ستزداد سنة بعد سنة إلى أن يضطر أخيراً أولئك الذين يرغبون بأكل اللحم لأن يذبحوا

ذبائحهم بأيديهم – لكن كم من الزمن ستدوم مثل هذه العادة ؟ لاأحد يعلم . والآن لننتقل إلى بند آخر – إلى واحدة من مصاحبات الرأسمالية في النظام الديموقراطي ألا وهي الفساد السياسي . فاحدى نتائج الادارة المدنية التي يشرف عليها سياسيون جهلة وفاسدون هي أن أمراضاً يمكن الحيلولة دونها تقضي على نصف شعبنا اذ حتى لوسمح للعلم بأن يحاول ، فانه لايستطيع أن يفعل إلا القليل لان غالبية الناس الآن ليست كائنات بشرية مطلقاً ، بل هي ببساطة آلات لصنع الثروات للاخرين . انهم يزربون في بيوت قذرة أشبه بحظائر الحيوان ؛ ويبقون هناك إلى أن يهترئوا ويتعفنوا في حمأة البؤس . كما أن ظروفهم المعاشية تجعل منهم مرضى على نحو أسرع بكثير من أن يستطيع كل أطباء العالم شفاءهم . وهكذا يبقون ، بالطبع ، بؤر عدوى تسمم حياتنا جميعاً وتجعل السعادة مستحيلة حتى بالنسبة لأكثرنا أنانية . ولهذا السبب أؤكد بجد على أن كل الاكتشافات الطبية والجراحية التي قد يقوم بها العلم مستقبلاً ستكون ذات أهمية أقل من تطبيق المعرفة المتوفرة لدينا أصلاً ، وذلك حين يحصل المحرومون في هذه الارض على حقهم بالوجود كبشر » .

هنا غرق « الهر » الدكتور في الصمت مرة ثانية . كان جرجس قد لاحظ أن الفتاة الجميلة التي كانت تجلس بجوار طاولة الوسط تصغي وفي عينيها النظرة نفسها ، التي كان ينظرها هو ذاته حين اكتشف

الاشتراكية للمرة الاولى ، فشعر جرجس بأنه يود التكلم اليها ، واثقاً كل الثقة من أنها ستفهمه . وفي وقت لاحق من ذلك المساء ، حين فرط عقد الجماعة ، سمع جرجس السيدة فيشر تقول لها بصوت خفيض « انني أتساءل اذا كان السيد مينارد سيظل يكتب الاشياء ذاتها عن الاشتراكية » فأجابت الفتاة « لاأدري – لكنه إن يفعل سنعلم أنه مخادع وضيع » .

بعد هذا ببضع ساعات فقط حان موعد الانتخاب – اذ انتهت الحملة الطويلة وبدت البلاد كلها وكأنها تقف حابسة أنفاسها منتظرة الحكم . لم يكمل جرجس وبقية عناصر فندق هايندز وجبة طعامهم تقريباً بل أسرعوا إلى القاعة الكبيرة التي استأجرها الحزب من أجل تلك الامسية .

وكان هناك أناس ينتظرون من قبل ، كما كانت آلة التلغراف الموجودة على خشبة المسرح قد بدأت تنقل نتائج الانتخابات وباجراء بعض الحسابات تبين أن مجموع الاصوات الاشتراكية يزيد على المائة ألف – أي بزيادة حوالي ثلاثمائة وخمسين بالمائة خلال أربع سنوات. وهو أمر في غاية الروعة ، الا أن الحزب كان يتلقى النتائج المبكرة من « المحليات » الأكثر نجاحا والتي تميل لتقديم تقاريرها بسرعة أكبر ، لذا اعتقد جميع من في القاعة تلك الليلة أن مجموع الاصوات سيبلغ ست أوسبع أو حتى ثمانمائة ألف . مثل هذه الزيادة غير المعقولة

تحققت فعلاً في شيكاغو وولايتها . فمجموع الاصوات في المدينة كان ٦٧٠٠ عام ١٩٠٠ ، أما في هذه الانتخابات فقد بلغ ٤٧,٠٠٠ ، وفي الينويز كان ٩٦٠٠ أما الآن فهو ٦٩٠٠٠ ؛ وهكذا مع حلول الظلام ، وتزايد الحشد في القاعة بات المشهد منظراً يسر كل عين فالنشرات تقرأ والناس يهتفون بأعلى الاصوات ، ثم يعتلي المنصة أحد الخطباء ويلقي كلمة ليزداد الهتاف أكثر وأكثر . بعد ذاك يسود الصمت ثم تقرأ المزيد من النشرات . كذلك تأتي رسائل من أمناء السر في الولايات المجاورة ، مسجلة انجازاتهم ، أصوات انديانا ارتفعت من ٢٣٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ، فيسكونيا من ٧٠٠٠ إلى ٢٨٠٠٠ أوهايو من ٤٨٠٠ إلى ٣٦٠٠٠ ، وهناك برقيات إلى المكتب الوطني من أفراد متحمسين في المدن الصغيرة التي حققت زيادات مدهشة لاسابقة لها خلال عام واحد : فبيدكت في كنساس ، من ٢٦ إلى ٢٦٠ ، هندرسون في كنتاكي من ١٩ إلى ١١١ ، هولاند في متشيغان من ١٤ إلى ٢٠٨ ، في أوكلاهوما من ٠ إلى ١٠٤ ، مارتينز فيرى في أوهايو من ٠ إلى ٢٩٦ — وأخريات كثيرة على نفس المنوال . فقد كانت هناك ، فعلاً ، مئات المدن المماثلة ، وقد جاءت تقارير من ست منها ضمن دفعة واحدة من البرقيات ، قرأها للجمهور رجال الحملات الاولى الذين ذهبوا إلى تلك الامكنة وساهموا في صنع هذه الاصوات وكان بامكانهم أن يقدموا تعليقات مناسبة : كوينسي في إلينويز من ١٨٩ إلى ٨٣١ — وكان ذلك حيث ألقى رئيس البلدية القبض على خطيب اشتراكي ،

كروفورد كاونتي في كنساس من ٢٨٥ إلى ١٩٧٥ ، وذلك في موطن « النداء إلى المنطق » ، وفي « بطل كريك » ، ميتشيغان من ٤٢٦١ إلى ١٠١٨٤ ، وذلك كجواب من اليد العاملة على حركة تحالف المواطنين.

ثم جاءت الردود الرسمية من مختلف أنحاء وتقسيمات المدينة نفسها ، فكان من أشد الامور ادهاشاً لقادة الحزب هو ذلك المجموع الهائل من الاصوات الذي جاء من منطقة المسالخ . فقد كانت باكنجتاون تضم ثلاثة تقسيمات ادارية من المدينة ، وكان مجموع أصواتها في ربيع ١٩٠٣ خمسمائة وفي خريف العام ذاته ألفاً وستمائة ، أما الآن وبعد سنة واحدة فقط فقد زادت على الستة آلاف وثلاثمائة بينما كان مجموع أصوات الحزب الديموقراطي ٨٨٠٠ . بل لقد كانت هنالك نواح تم فيها تجاوز أصوات الحزب الديموقراطي ، وفي منطقتين ، انتخب أعضاء المجلس التشريعي في الولاية . وهكذا باتت شيكاغو في طليعة البلاد ، لقد وضعت معياراً جديداً للحزب ودلت العمال على الطريق .

هكذا تكلم خطيب كان يقف على المنبر وقد ثبتت أنظارها عليه آلاف العيون بينما انطلقت ألف حنجرة تهتف لكل جملة من جمله . فالخطيب ظل رئيس مكتب انعاش المدينة في منطقة الزرائب إلى أن جعله مشهد البؤس والفساد يصاب بالمرض . لقد كان شاباً يتقد ناراً

وتظهر عليه علائم الجوع . كان يطوح بذراعيه الطويلتين ويدق بهما الطاولة للجمهور ، فبدا بجرجس وكأنه روح الثورة نفسها . « نظموا الناس نظموا ، نظموا . » تلك كانت صرخته . انه خائف من هذا المجموع الهائل للأصوات الذي لم يكن حزبه يتوقعه والذي لم يكن يحلم بكسبه . « هؤلاء الناس ليسوا اشتراكيين » كان الخطيب يصيح « غداً ينتهي الانتخاب وينطفىء الحماس وينسى الناس كل شيء عنه ، واذا مانسيتم أنتم أيضاً واسترخيتم مطمئنين على ما حققتموه فانكم ستخسرون هذه الاصوات التي جاءت لصالحكم اليوم ولسوف يسخر منا أعداؤنا حتى درجة الاحتقار ، فعليكم أن تتخذوا قراركم ، الآن في أوج النصر ، أن تجدوا أولئك الذين أدلوا بأصواتهم لصالحنا ، ان تأتوا بهم إلى الاجتماعات وأن تنظموهم وتضموهم لصفوفنا . نحن لن نجد حملاتنا الانتخابية الاخرى ، سهلة كهذه الحملة . فالليلة ، وفي كل مكان من أنحاء البلاد ، يدرس سياسيو الأحزاب القدامى مجموع الاصوات هذا ويبنون عليه مخططاتهم ، ولن يكونوا في أي مكان آخر أسرع أو أكثر ذكاء مما سيكونون عليه في مدينتنا هذه . فخمسون ألف صوت اشتراكي في شيكاغو تعني السيطرة على المدينة في الربيع ، لذا سيعملون على تضليل المقترعين مرة أخرى ولسوف تطرح كل قوى النهب والفساد في الشارع مرة أخرى . لكن مهما فعلوا ، فان هناك شيئاً واحداً لن يستطيعوا فعله ، شيئاً كان الناس ينتخبونهم أملاً بتحقيقه ، ألا وهو اعطاؤهم شعبنا استقلاله وحريته — لن يستهدفوا

أبداً فعل ذلك ، لن يحاولوه . كل ماسيفعلونه هو أن يتيحوا لحزبنا في شيكاغو أكبر فرصة أتيحت للاشتراكية حتى الآن ! سوف نجد المصلحين المزيفين يلعنون أنفسهم ويدينونها ، وسوف نرى الديموقراطيين وقد تجردوا من كل قدرة على الكذب الذي يغطون به عريهم . ثم تبدأ الاندفاعة التي لن تصد أبداً ، المد الذي لن ينقلب إلى جزر حتى يصل مداه — ولسوف يكون طاغياً لايقاوم — تجميع عمال شيكاغو الساخطين وضمهم إلى صفوفنا . اذن علينا أن ننظمهم ، أن ندربهم ، ونقودهم إلى النصر . علينا أن نحطم المقاومة ، أن نكتسحها — ولسوف تكون شيكاغو لنا ! ستكون لنا ! ستكون لنا !



كلمة لاحقة

اوبتون سينكلير هو الروائي الامريكي الذي بلغ أعلى مرتبة بين الروائيين الدعائيين الامريكيين الحديثين . وهو ، في الوقت ذاته ، واحد من اغزر الكتاب في تاريخ امريكا الادبي وربما الاوسع انتشاراً في الخارج بالمقارنة مع جميع المؤلفين الامريكيين ، فحسب احصاء حديث ، هناك ٧٧٢ ترجمة لكتابه ، بسبع واربعين لغة وتسعة وثلاثين بلداً مع تزايد مستمر .

يُقارَن سينكلير عن جدارة بكاتب دعائي كبير آخر هو « توماس بين » . وهو ، شأنه شأن « بين » ، يهاجم بسخط وقاد وشجاعة نادرة كل نوع من انواع الظلم والغبن الاجتماعي . لذا فان التسميات التي اطلقت عليه مثل « كاتب الصلاح والحق » و « آخر المشهّرين بذوي الشأن » هي اوصاف تناسب تماماً حياة سينكلير الادبية العاصفة .

الآن يستطيع سينكلير، وهو في الثانية والثمانين ، ان يتأمل راجعاً إلى الوراء حياته التي كرسها للحملات العنيفة : ضرب جواسيس اليد العاملة ، صناعة تعليب اللحم ، دور النشر الفاسدة ، مضاربي وول ستريت ،

مجتمع نيويورك ، الادمان على الكحول ، قتلة ساكو وفانزيتي ، اضطهاد توم موني ، الاخلاق البورجوازية ، احوال مناجم الفحم ، الحماسة الصليبية بين الناس ، التعليم العالي والثانوي ، صناعة النفط وشرور الحرب . وكما لخص روبرت كانتويل القضية تلخيصاً جيداً نقول : « قليل من الكتاب الامريكيين ، اذا ماستثنينا بعض الروائيين الملهمين ، من كتب مثل هذا القدر من الكتب والقى مثل هذا القدر من المحاضرات وطاف مثل هذا القدر من البلاد وناصر مثل هذا القدر من القضايا او كتب مثل هذا القدر من الرسائل إلى المحررين ، أو كانت له علاقة بمثل هذا القدر من الفضائح ، أو اهين او تعرض للسخرية والتجسس والخداع أي باختصار ، قلة هي التي قفزت برشاقة بالغة من مقال (جمع مقلاة) كثيرة إلى حرائق كثيرة ، وما من أحد مثله كان قادراً على البقاء مرحاً مبتهجاً واللهب يتواثب حوله .

كان سينكلير من اوائل المهتدين إلى الاشتراكية ، رغم انه غالباً ماكان يفشل في الالتزام بخط الحزب القويم ، تتضمن جهوده الدعائية لازمة تتكرر باستمرار وهي : ان الرأسمالي وغد عديم الاحساس وان العامل بطل مضطهد . في منتصف الثلاثينات التي تميزت بالركود الاقتصادي ، اضاع سينكلير فرصة ثمينة هي ان يضع قيد التنفيذ نظرياته الاشتراكية . وذلك حين قام ، كمرشح ديموقراطي لمنصب حاكم

كاليفورنيا ، بجملة مدهشة على برنامج « ايبيك » — أي إنهاء الفقر في كاليفورنيا . فمعارضته الحادة لمصالح الولاية التجارية الكبيرة كلفته المنصب وخسر الانتخاب .

قفز سينكلير إلى عالم الشهرة على نحو مفاجىء . ففي مطلع عشريناته ، عزم على ان يصبح كاتباً ناجحاً أو يموت جوعاً . وكاد يموت جوعاً بالفعل قبل ان يحقق النجاح : فرواياته الخمس الاولى التي نشرت مابين ١٩٠١ و ١٩٠٦ لم تعد عليه كلها بأكثر من الف دولار .

غير ان نقطة التحول هي روايته « الغاب » التي نشرت عام ١٩٠٦ وكانت الاكثر انتشاراً وتأثيراً من رواياته العديدة كلها . فهذا الوصف الفظيع لظروف اليد العاملة في جو العمل وكذلك لظروفها الصحية في مسالخ شيكاغو ظهر لاول مرة على نحو متسلسل في « النداء إلى المنطق» وهي دورية اسبوعية اشتراكية . كان الكاتب يومها في السابعة والعشرين من عمره ، وكان الوقت مناسباً تماماً لرواية « الغاب » اذ كانت ماتزال حية في اذهان الناس فضيحة « لحم البقر المصون من الفساد » تلك الفضيحة التي حدثت في الحرب الامريكية الاسبانية . فتيودور روزفلت ، بطل معركة تل سان جوان ، أدلى بشهاداته أمام لجنة التحقيق في مجلس الشيوخ قائلاً انه على استعداد لان يأكل قبعته العتيقة ولا يأكل الطعام المعلب الذي كان ينقل ، طبقاً لعقد حكومي ، إلى الجنود في كوبا . وفي

الوقت الذي كان فيه سينكلير يعد بيانه الشهير ، كان ثمةمشروع مرسوم في الكونغرس اعده الدكتور هارفي ويلي « ابومرسوم العقاقير والطعام النقي » لتشديد القوانين وحماية المستهلكين من ممارسات اصحاب الاعمال والصناعيين عديمي الضمائر . كذلك ، مما ساهم في تهيئة الجو لرواية « الغاب » مدرسة « المشهّرين بذوي الشأن — » وهو النعت الذي اطلقه روزفلت على الصحفيين والمصلحين الذين كانوا ، خلال العقد الاول من القرن الحالي ، منهمكين كل الانهماك بالتحقيق في مساوىء السياسيين وجشع اصحاب الاعمال وفضحهم . واشهر ماكتب في هذا المجال انما هي مقالات لينكولن ستيفن حول الكسب غير المشروع الذي تمارسه البلدية و « قصة شركة ستاندارد للنفط » بقلم ايدا تاربل ، وكتابات رأي ستانارد بيكر عن السكك الحديدية وكتابات ثوماس لوتون عن الماليين المعاصرين وتشارلز ادوارد روسيل عن « تروست اللحوم » وسلسلة مقالات صاموئيل هوبكنز آدامز عن تراخيص الأدوية والصحف . وكما كشف عن ذلك المشهّرون . فان الفساد العام كان قد تغلغل في كل مجال من مجالات الحياة العامة ، بما في ذلك سرقة الامتيازات ، حشود فاتر الرواتب بأسماء غير حقيقية ، تزوير العقود ، تحالفات الشرطة ورجال الرذيلة ، مساكن الاحياء الفقيرة القذرة ، الفقر في المدن ، برامج الرساميل العديمة القيمة ، شركات التأمين الزائفة ، والاحتكارات مصاصة الدماء .

لكن من المشكوك فيه ماااذا كان لاي من اعمال التشهير السابقة التأثير الفظيع الذي تركته رواية سينكلير « الغاب » على وجدان الجمهور ، ربما جزئياً بسبب شكلها القصصي المألوف ، انما على الأكثر لانها ضربت على الوتر الحساس لدى الجمهور — أي مايتعلق بالمعدة . فدورية « النداء إلى المنطق » ، بنسخها التي تصل إلى نصف المليون كانت توزع بصورة رئيسية في مناطق الطبقة العاملة وكانت تقدم لسينكلير خمسمائة دولار من أجل تأمين معيشته بينما كان هو يتحرى احوال وحياة الغرباء المساكين المحرومين الذين يعيشون في منطقة الزرائب في شيكاغو ومن ثم يعود إلى بيته في نيوجرسي ليكتب عما شاهد وسمع وشم . وحسبما يقوله الكاتب ، فقد كتبت رواية « الغاب » في حجيرة من ألواح خشبية ثمانية بعشرة أقدام ، مقامة على سفح تل شمالي برنستون في نيوجرسي خلال مدة لاتزيد على التسعة أشهر .

بدأ الكلام عن الرواية ينتشر خارج محيطها البروليتاري ، حتى قبل الانتهاء من نشرها على شكل متسلسل . وبدأت الدعوات باعادة نشر ما صدر منها تصل إلى المجلة بأعداد كبيرة . مع ذلك فان الناشرين الخمسة الأوائل الذين اتصل بهم سينكلير رفضوا نشر مخطوطه ، خشية أن تكون الرواية قنبلة تفجر مصالحهم . أخيراً ، استجدى الكاتب قراء « النداء إلى المنطق » لتأمين نشر روايته من خلال التوصية على نسخ

منها ودفع ثمنها مقدماً ، فجاء اثنا عشر ألف طلب من هذا النوع .
وهكذا بدأ صف أحرف الرواية ، لكن في تلك اللحظة تقدمت شركة « دوبلدي وبيج » بعرض لنشر الكتاب شريطة أن تتحقق من صدق مضمونه الأساسي . وهكذا ذهب ناشر « دوبلدي » وهو اسحق ماركوسون إلى شيكاغو وقابل الدكتور و . ك جاكز الذي كان في السابق رئيس دائرة تفتيش اللحوم في المسالخ والذي كان قد طرد بسبب اصراره على التدقيق الشديد للحوم المريضة واتلافها . فشهد الدكتور جاكز بأن « الغاب » لاتحوي أية مبالغات جدية أو بيانات كاذبة . بل لقد سجل ماركوسون ما يلي : « تمكنت من الحصول على شارة مفتش اللحوم التي يمكنني الوصول بواسطتها إلى لب امبراطورية اللحوم الذي لا يصل إليه أحد . وطوال النهار والليل ظللت أجوس في تلك المنطقة الكريهة الرائحة وتمكنت من أن أرى بعيني رأسي مالم يسمع به سينكلير نفسه » .

ظهرت رواية « الغاب » باسم دار نشر دوبلدى وسرعان ماتركت انطباعاً ملحوظاً داخل الوطن وخارجه . وقد أرسلت براهين أكثر خطورة إلى الصحف الأمريكية الرئيسية ، وفي تاريخ اصدارها ، أي ٢٥ كانون الثاني ١٩٠٦ ، انفجرت القصة على صفحات الجرائد الأولى من شرقي البلاد إلى غربها . وقد تحقق انتشار اضافي لها بارسال

نسخة مطورة خاصة لرئيس الولايات المتحدة في ذلك الحين ، تيودور روزفلت الذي تأثر بالغ التأثر بما كشفته الرواية إلى درجة أرسل معها إلى سينكلير برقية دعاه فيها لزيارته في الحال ومناقشة المسألة .

يصف الناقد الاجتماعي الأشهر في تلك الحقبة ، فينلي بيتردون أو « سيد دولي » ، رد الفعل الروزفلتي « تجاه الغاب » على النحو التالي :

« كان تيدي يلهو بتناول افطار خفيف وهو يقلب على مهل صفحات الكتاب الجديد بين يديه . وفجأة هب على قدميه صارخاً : « لقد تسممت» وبدأ يلقي بالنقانق من النافذة ، فأصابت قطعة النقانق التاسعة رأس السناتور بيفريدج وجعلته يصرخ ، ثم نطت بعيداً وضربت ساق أحد عناصر الخدمة السريه ، ثم تبعثرت قطعاً . وهذه القطع أفسدت صفاً جميلاً من أشجار البلوط القديمة . فاندفع السناتور بيفريدج وهو أحد أتباعه الخلص في مجلس الشيوخ إلى الداخل ، ظاناً أن الرئيس يتعرض لحادث اغتيال لكنه اكتشف أن « تيدي » منهمك في صراع بالأيدي مع لحم خنزير معلب . وسرعان مااشتبك السيناتور نفسه وهو من إنديانا ، في المعركة ، لكنه حاول أن يجعل القذائف عديمة الأذى : ومنذئذ أصبح الرئيس ، مثلنا جميعاً ، رجلاً نباتياً . . . » .

تقارن رواية « الغاب » بكتابات ليوتولستوي وروائيي القرن

التاسع عشر الروس الآخرين . كما تقارن بأعمال روائيين فرنسيين مثل زولا في تشاؤميتها الكاملة ، حالة اليأس الأسود الذي يطغى عليها والمأساة التي لاخلاص منها . اطار الرواية هو المسالخ واحياء شيكاغو الفقيرة ، وسلسلة من الأجناس البشرية ـ ألمان ، ايرلنديين ، بوهيميين ، بولنديين ، ليتوانيين ، سلوفاك ، يتبع بعضهم بعضاً كعمال في المسالخ ، وقد أغراهم بالمجيء إلى أمريكا من قراهم في العالم القديم وكلاء منشآت التعليب مقدمين لهم وعوداً بأجور خيالية .

تروي « الغاب » القصة المأساوية لجرجس رودكوس ، الفلاح الليتواني ومجموعة من أقربائه وأصدقائه وكلهم من المهاجرين ، الذين عاشوا واشتغلوا وماتوا في منطقة المسلخ . فهناك في باكنجتاون (كما سمي سينكلير منطقة المسلخ) كان المهاجرون يواجهون ، عملياً ، كل الشرور الموجودة في الصناعة والسياسة والمجتمع الأمريكي . فهم ، لعجزهم عن تكلم الانكليزية ، يتعرضون للاستغلال بكل سهولة ويسقطون ضحايا بين أيدي ذوي السلطة ـ أي أصحاب منشآت التعليب « وأزلامهم » ، الشرطة ، الزعماء السياسيين ، سماسرة العقارات ، وكل من هم من أبناء « الطبقة العليا » . لقد اضطر جرجس لدفع الرشوة كي يحصل على عمل ويحتفظ به . كما أن وكيل الشركة العقارية يخدعه ببيعه بيتاً بالتقسيط انما يكون العقد محشواً بفقرات ملتبسة لايستطيع

الليتواني فهمها . تجعله أخيراً يخسر منزله . وفي العمل يتعرض لنظام تسريع وحشي لايرحم يسبب له اصابات بالأذى ، كما يصاب هو وأفراد عائلته بأمراض فظيعة . ثم يطرد من العمل ويدرج في القائمة السوداء . بعدئذ يساق إلى السجن ظلماً وجوراً لتهشيمه وجه رئيسه البربري المعتدي . وهكذا ، واحداً اثر الآخر ينسحق جرجس ومجموعته: فكبار السن منهم يلقون على كومة النفاية ليموتوا جوعاً والنساء يتحولن إلى عاهرات كي يجدن مايسد رمقهن ، وزوجة جرجس التي تشرف على ولادتها قابلة جاهلة تموت بسبب نقص الرعاية ، وابنه يغرق في احدى برك الماء الآسن المحيطة بكوخه الخرب ، ولايوفر سينكاير مكاناً من روايته إلا ويقدم فيه لقارئه المندهش صوراً واقعية مما رآه من قذارات المسالخ ونتنها وقسوة الحياة فيها . أخيراً لايظل أمام جرجس ، المحطم جسدياً والوحيد ، إلا أن يتجول هنا وهناك إلى أن تترسخ قناعته بأن الاشتراكية وحدها هي التي يمكنها صنع هذا العالم البغيض من جديد وانقاذه .

لم يكن في نية صناعة تعليب ــ اللحوم القوية أن تخضع بسهولة لاتهامات سينكلير ولا لتنظيمات الحكومة المحكمة لعملياتها . بل ، على العكس ، كانت على أتم الاستعداد لمقارعتها بكل سلاح تملكه ، فقد أقنعت شركة اللحوم الاحتكارية اللجنة التي أرسلها إلى شيكاغو

وزير الزراعة للتحقيق في الشروط السائدة في باكنجتاون ، ان « الغاب » نتاج عقل مختل يبحث عن الاثارة كما كتب أوغدين أرمور وهو كاتب وهمي ، عن عمد وتصميم ، سلسلة من المقالات في صحيفة « ساترديي إيفننغ بوست » أنكر فيها بغير لبس أو مواربة البيانات التي قدمها سينكلير والآخرون . كذلك تجمعت صحف واسعة النفوذ مثل « شيكاغو تريبيون » وبوسطن ترانسكريبت للدفاع ومهاجمة سينكلير في منشورات وقصص جديدة ، وقد أنفقت مبالغ كبيرة من قبل أصحاب صناعة اللحوم على الاعلانات في محاولة منهم لأن يعكسوا في أذهان الجماهير الصورة الفظيعة التي قدمتها « الغاب » عن المسالخ . كما مورس ضغط شديد تماماً على الكونغرس من أجل منع أو تشويه أي تشريع يهدف فرض رقابة اتحادية أو تنظيم لهذه الصناعة .

في غضون ذلك ، قرر روزفلت أن يرسل إلى شيكاغو لجنة أخرى تتألف من عاملين في الخدمة الاجتماعية في نيويورك هما تشارلز نيل الذي كان حينذاك مفوض عمل وجيمس رينولدز . فعادت اللجنة من شيكاغو بتقرير مرير يثبت التهم الرئيسية الموجودة في الغاب ويضيف عليها مشاهدات اللجنة الشخصية المتعلقة بالظروف السائدة . قاوم روزفلت فكرة نشر التقرير فوراً ، وبدلاً من ذلك احتفظ به كسيف مسلط على رقاب أصحاب دور التعليب ، آملاً أن يتمكن ، من خلال تهديده

اياهم بنشر محتويات التقرير ، من احتواء معارضتهم الشديدة لمشروع بيفريدج الاصلاحي أي « مرسوم التخصيص الزراعي » . فهذا المرسوم الذي قدم بموافقة الرئيس ، كان يشترط أن يمتد التفتيش الحكومي الأكيد إلى كل عمليات تحضير اللحم .

لكن حين استمر أصحاب دور التعليب في عنادهم ولم يتراجعوا عن معارضتهم أرسل روزفلت رسالة إلى المجلس التشريعي يطالب بالموافقة على مشروع بيفريدج (الذي كان مجلس الشيوخ قد تبناه بالاجماع من قبل) وسمح بنشر الجزء الأول من تقرير نيل — رينولدز فاكتسحت البلاد عاصفة من السخط إذ بدأ الجميع يدركون أن المواد المعلبة واللحوم الأخرى التي يستهلكونها انما يتم إعدادها في قلب الأوساخ والقذارة كما انتشرت في الصحف والمجلات أغنية صغيرة باتت مألوفة لدى الجميع :

لدى ماري حمل صغير

حين رأته يمرض

ارسلته إلى باكنجتاون

حيث علبوه هناك باسم فروج

وبالرغم من أن أصحاب دور التعليب ظلوا باستمرار ينكرون

التهم الموجهة إليهم انكاراً شديداً ، فقد بذلوا جهوداً مسعورة لتنظيف منشآتهم . أما الحجة التي أقنعتهم أخيراً بضرورة سن تشريع من نوع ما فهي أن « بيع اللحم ومنتجاته قد هبط إلى مادون النصف » حسبما ذكر أحد إداريي دور التعليب ، وهي حقيقة في غاية القسوة بالنسبة لهم . لذا وبعد مناقشات حادة أصدر المجلس مرسوم « الغذاء والدواء النقي » ومرسوم تفتيش اللحوم بصيغة معدلة نوعاً ما وأصبحت موادهما قانوناً سارياً في البلاد ــ بعد أقل من ستة أشهر من صدور رواية الغاب » .

أما النتائج فقد وصفها الرئيس روزفلت في رسالته إلى الكونغرس بتاريخ ٣ كانون أول ١٩٠٧ : « لقد عورض قانون الغذاء النقي بشدة أخرت اصداره عقداً من السنين ، مع ذلك فقد عاد بالنفع المباشر والخالص على الفور . أما قانون تفتيش اللحوم فقد هوجم بعنف أكثر حتى . . . . . . لكن لم تنقض سنتان حتى بات واضحاً أن الفائدة الكبيرة التي عاد بها القانون للشعب تصحبه فائدة أخرى مساوية جنتها مؤسسات دور التعليب الشهيرة ، التي تحسنت أعمالها بوجود القانون أكثر من ذي قبل » .

الجانب الخارق للعادة لرواية « الغاب » هو الغضب الوطني الذي أثارته مع انعكاساته العالمية . ذلك أن سينكلير ركّز انتباه الجمهور بصورة حصرية تقريباً على مادة كان ينظر إليها أساساً على أنها عرضية أو مجرد خلفية وتلوين محلي لموضوعته الرئيسية ألا وهي اضطهاد عمال

باكنجتاون . فالحقيقة ، ليس هناك من أصل ٣٠٨ صفحات ، أكثر من اثنتي عشرة صفحة تعنى بالتفاصيل الرهيبة لانتاج اللحم : طحن الجراذين المسممة مع اللحم ، الخنازير الميتة بسبب الكوليرا والتي تستخدم لانتاج نوع غريب من الشحوم ، بيع جثث الخنازير التي حكم عليها مفتشو الحكومة بالاتلاف نتيجة اصابتها بالسل إلى أسواق المواد الغذائية ، والأفظع من ذلك كله ، القصص الشائعة بين الناس عن العمال الذين يخدمون في غرف الطهو والذين يسقطون أحياناً في رواقيد الغلي ويخرجون أخيراً إلى العالم تحت اسم « رقائق دورهام من الشحوم النقية » فهذه الاشارات العرضية للأغذية التي كانوا يشترونها ويأكلونها هي التي أثارت الناس وأغضبتهم وجعلت مطالباتهم بالاصلاح أمراً لايقاوم .

كذلك كان لسينكلير هدف أكبر من كتابته لرواية « الغاب » وهو أن تكون دعوة للاشتراكية واحتجاجاً على عبودية الأجور . وقد اعترف بهذا الهدف اشتراكي زميل ، هو جاك لندن الذي استقبل الكتاب بحماسة لاحدود لها : « إنه سيفتح آذاناً لاحصر لها كانت صماء تجاه الاشتراكية ، سيصنع آلاف المؤمنين بقضيتنا فهو يصف واقع بلادنا الحقيقي ، موطن الاضطهاد والظلم ، كابوس الشقاء والبؤس ، جحيم العذاب والمعاناة ، جهنم البشر ، غاب الوحوش المفترسة . . . .

وما فعلته رواية كوخ العم توم للعبيد السود ، ستتاح فرصة كبيرة أمام « الغاب » لأن تفعله لعبيد الحاضر البيض » .

لكن من دواعي السخرية ولشدة خيبة سينكلير فقد كانت النتيجة شيئاً مغايراً تماماً ، إذ كتب هو نفسه يقول : « لقد سددت مستهدفاً قلب الجمهور ، وبالمصادفة ، أصبته في معدته » فمجموع الأصوات الاشتراكية في أمريكا لم يزدد ، كما أن الثورة الاشتراكية لم تبد أقرب منالاً . كل ما حدث هو استياء بالغ انصب على لحوم البقر والخنازير وهو أمر اضطر أن يقنع به المؤلف اضافة للشهرة والثروة اللتين عاد بهما الكتاب عليه ، لكن الحقيقة التي لامراء فيها هي أن الغاب ، كما أشار ماركوسون إلى ذلك « انجزت اصلاحاً بناءاً ودائماً في صناعة تمس كل كائن بشري وتؤثر عليه » .

لكنها ربما حققت أكثر من ذلك حتى . فمن خلال المقارنة التي أجراها سينكلير بين الغني والفقير في المجتمع الأمريكي ، ومن خلال هجماته على الجشع المنظم وادانته للاإنسانية الانسان تجاه أخيه الانسان وكذلك من خلال العاطفة الوجدانية « للغاب » فقد غدا سينكلير قوة دفع محركة أيقظت وجدان الأمة وأدت إلى تغييرات كبيرة في تنظيم المجتمع . ذلك

أن الشخص المتبلد الحس القاسي الفؤاد هو وحده الذي يستطيع أن يظل لامبالياً تجاه مطالبات سينكلير البليغة بوضع حد لفظاعات ومظالم استغلال العمال ، تجاه آماله بايجاد حل سلمي للصراع الطبقي .

روبرت داونز

جامعة إلينويز ـــ١٩٦٠

* * *

١٩٨٣ / ٧ / ٤٥٠٠



السلسلة الروائية

قد تكون الرواية هي الجنس الادبي الذي يستجيب لرغبات الانسان الفنية في عصر التصنيع المعمم . وهذا ماجعلها تتقدم – نوعا وكما ، انتاجا واستهلاكا – على بقية الاجناس الادبية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ان في العالم المصنع او في العالم شبه المصنع. ففي اقل من نصف قرن تكونت الرواية العربية ونمت وبدات تنتج تحفا فنية ذات قيمة عالمية .

ولقد رات وزارة الثقافة والارشاد القومي أن تسهم في حركة تجديد الرواية العربية بسلسلة دورية تقدم في البداية ، كل ثلاثة اشهر رواية عالمية مترجمة ، وسوف تعمل كل ما بوسعها كي تسرع هذه الوتيرة بحيث تصبح رواياتها يوما شهرية .

ورواية الغاب هي الرواية الرابعة في هذه السلسلة لمؤلفها ابتون سنكلر الروائي الامريكي الشهير .

والترجمة لا تقتصر على التمهيد للتاليف وحسب ، كما قد يظن البعض ، بل لها دور آخر هو الذي تتوخاه الوزارة من سلسلتها هذه ، نقصد اننا نقيم بالترجمة حوارا بيننا وبين العالم ، على القمة الاعلى اي الثقافة الانسانية .

وسوف تفسح الوزارة في هذه السلسلة مكانا خاصا لاهم الروايات العالمية التي لم تترجم الى العربية بعد .

الطبع وفرز الالوان
مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٢

سعر النسخة
٢٥ ل.س.ل